

تم التصحيح المطلوب



٧

لرسا

المملكة العربية السعودية  
جامعة أم القرى  
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية  
قسم الدراسات العليا الشرعية  
فرع العقيدة



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٩٩٤

الطالب

المجتمع الإسلامي المعاصر

٣

صورته الواقعية

وكيف ينبغي أن يكون...

٩٩٤

رسالة مقدمة  
لتحليل درجة الدكتوراه



إعداد الطالب

فخر مصطفى النجيري

إشراف

فضيلة الشيخ محمد قطب

١٠٠٣٠٣١ / ١٩٨٤ / ١٩٨٥ م

١٤٠٥ / ١٤٠٤ م



## الفهرس

### الصفحة

### الموضوع

### المقدمة

١	.....	توضيح حقيقة الجاهلية ومظاهرها	: التمهيـد الأول
٢٠	.....	الحالة الدينية في بلاد العرب قبل الإسلام	: التمهيـد الثاني
		المجتمع الإسلامي الأول المثالي وعناصر تكوين	: الباب الأول
٤٣	.....	الجيل الأول وأسس بناء المجتمع المسلم الأول	
٤٣	.....	نشأة الجيل الأول والشروط القلبية التي واجهها عند الدعوة	تمهيد : نشأة
٥٦	.....	عناصر ومقومات تكوين الجيل الأول	: الفصل الأول
٥٦	.....	القرآن الكريم	: المبحث الأول
١٠٤	.....	السنة النبوية المطهرة	: المبحث الثاني
١١٢	.....	المثل الأعلى والأسوة الحسنة في شخصية الرسول الفذة	: المبحث الثالث
١٢٢	.....	أسس بناء المجتمع الإسلامي الأول	: الفصل الثاني
١٢٦	.....	المقيدة الإسلامية	: المبحث الأول
		العدل الرباني المتمثل في مبادئ الأخوة والمساواة	: المبحث الثاني
١٣٩	.....	والتححرر	
١٦٢	.....	التكافل الاجتماعي	: المبحث الثالث
١٧٢	.....	سياسة الحكم والمال	: المبحث الرابع
		خط الانحراف التاريخي في حياة الأمة الإسلامية	: الباب الثاني
		ومجالات الانحراف عن جادة الإسلام في التاريخ	
		الحديث والآثار السيئة التي ترتبت على ذلك في شتى	
١٩٣	.....	مجالات الحياة في القرون الأخيرة	

الفصل الأول : خط الانحراف التاريخي في حياة الأمة الإسلامية في

المعهد الأموي والمعهد المباسي ثم المعهد العثماني ..... ١٩٣

الفصل الثاني : مجالات الانحراف عن جادة الإسلام في التاريخ

الحديث ..... ٢٣٢

البحث الأول : الانحراف في مفهوم عقيدة الألوهية ..... ٢٣٦

البحث الثاني : الانحراف في مفهوم المباداة ..... ٢٥١

البحث الثالث : الانحراف في مفهوم القضاء والقدر ..... ٢٦٧

البحث الرابع : الانحراف في مفهوم الجهاد في سبيل الله ..... ٢٨٣

البحث الخامس : مسألة إقتال باب الاجتهاد ..... ٣٠٦

الفصل الثالث : الاثار السيئة التي ترتبت على هذه الانحرافات في شتى

مجالات تبحية المسلمين في القرون الأخيرة ، ووقوع العالم

الإسلامي تحت الاحتلال الأجنبي ..... ٣٢٥

البحث الأول : نتائج الانحراف في حياة المسلمين في القرون الأخيرة .... ٣٢٥

البحث الثاني : وقوع العالم الإسلامي تحت الاحتلال الأجنبي ..... ٣٣٥

الباب الثالث : ردود الفعل للفتوى الأجنبية وظهور حركات البحث

الإسلامي لإصلاح حالة الانحطاط التي تعاني منها

الأمة الإسلامية ..... ٣٩٥

تمهيد : ردود الفعل للفتوى الأجنبية ..... ٣٩٥

الفصل الأول : حركات البحث الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري ..... ٤٠٥

البحث الأول : دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ..... ٤٠٥

البحث الثاني : دعوة الإمام محمد بن علي السنوسي الكبير ..... ٤١٦

البحث الثالث : حركة الإمام محمد أحمد بن عبد الله المهدي ..... ٤٢٧

الفصل الثاني : حركات البحث الإسلامي المحاصرة ..... ٤٣٥

البحث الأول : حركة الإخوان المسلمين بصر ..... ٤٤٥

البحث الثاني : حركة الجماعة الإسلامية بباكستان ..... ٤٦٣



٤٧٩	المبحث الثالث : الحركات الإسلامية في تركيا وإيران وإندونيسيا .....
	<u>الباب الرابع :</u> طريق الخلاص ماتعانيه الأمة الإسلامية ، ووسائل
٥٥٥	الإصلاح في سبيل استئناف حياة إسلامية صحيحة .....
	الفصل الأول : طريق الخلاص وحاجة المسلمين اليوم إلى الإسلام في صورته
٥٥٥	التطبيقية السليمة .....
٥١٤	الفصل الثاني : وسائل الإصلاح في سبيل استئناف حياة إسلامية صحيحة .....
٥١٤	تصميم ..... :-
٥٢٥	أولا : في مجال الدعوة الهادفة .....
٥٢٤	ثانيا : في مجال الفكر والثقافة والتعليم .....
٥٤٥	ثالثا : في مجال الإعلام والنشر .....
٥٥١	رابعا : في مجال التربية العملية المركزة .....
٥٦٧	الخاتمة :- .....
٥٧٥	قائمة المراجع : .....



(( المقدمة ))

الحمد لله الذي بعث رسوله محمدا بالهدى ودين الحق وأنزل معسسه الكتاب ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم الى الصراط المستقيم والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين وأرسله كافة للناس بشيــــــــــــرا ونذيرا فبلغ الرسالة وأدى الامانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين على آله الطيبين وصحابته الكرام الهداة المهديين . . محمد ،

فقد أعظم الله الحنة على الامة الاسلامية بأن شرفها وأكرمها باكمل دين وأقوم شريعة وجعل رسالة نبيها باقية خالدة فكانت الامة الوسط الرائدة المهيمنة على البشرية تؤمن بالله وحده لا شريك له وتجاهد في سبيله وتأمــــــــــــر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعو الى الخير والصالح وتقوم "بالخلافة" عن الله في الارض بتنفيذ ارادته واقامة الحق والعدل وتوجيه البشرية الى تحقيق المبرورية له وحده في كافة شئون الحياة .

ولقد ارتفعت الامة الاسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين الى مستوى هذا الدين في عقيدته وعبادته وارتقت الى قمة سامقة في التطبيق العملي لتعاليم هذا الدين وقيمه وتوجيهاته في واقع حياتها . ولقد كان الواحد من صحابة رسول الله رضوان الله عليهم يمثل حقيقة هذا الدين في فكره وأخلاقه وسلوكه العملي في الحياة ، وكان هؤلاء المسلمون الاوائل على مستوى رفيع من الدين وادراكهم لفهمه الصحيح الشامل واستعداد حقيقي لتطبيقه في واقع حياتهم . وقد منحوا هذا الدين كل وجودهم وعاشوا بكل وجودهم في ظل هدى الله ومنهجه مخلصين له الدين محققين له المبرورية مجاهدين في سبيله حق الجهاد ، وقد استعملوا بقوة الايمان بالله تعالى على كل أوضاع الارض وأصبحوا ينظرون اليها على أنها جاهلية متردية قد أنقذهم الله من أضرارها وأخرجهم من ظلماتها الى نور الحق المبين الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يخافون أن يعودوا الى ما كانوا عليه قبل الاسلام

من جاهلية وشر ، يمد أن أنعم الله عليهم بنعمة الاسلام الذى هو روح حياتهم ومنع قوتهم وعزتهم .

هكذا كان الرعيل الاول من المؤمنين مثلاً أعلى فى قوة الايمان بالله والتقوى والصلاح والسير على هدى الله ومنهجه وإقامة الدين له وإخلاص الوجه له والتمسك بتماليم الدين وقيمه وتوجيهاته يطبقونها فى جميع شئون حياتهم الخاصة والعامة ويقومون ببناء مجتمعهم على أسس الدين القويمة ، وكان يرسى دعائم الحق والمدى فى الارض ، وينشر الخير والفضيلة بين الناس، حتى جعل من عهده نموذجاً حياً ممتازاً نادراً لا يزال مثلاً أعلى للأجيال الاسلامية بعده تحاول الارتفاع الى مستواه والاقتراب منه . وبعد هذه الفترة المشرقة الوضاءة من تاريخ الامة الاسلامية أتت عليها عهود ومراحل كانت ترتفع حيناً الى مستوى هذا الدين فتصعد الى القمة العليا وترتقى الى منازل قريبة منها وفى أحيان أخرى كانت تنزل قليلاً أو كثيراً عن مستوى هذا الدين فتتهدر وتهبط بقدر ذلك عن بلوغ القمة السامقة .

لقد بدأ الانحراف فى حياة الامة الاسلامية قليلاً وبصورة طفيفة لا يكاد يظهر ، ولم يكن يشكل خطراً كبيراً فى بادىء الامر لانه كان محصوراً فى تصرفات الحكام المسلمين . ثم أخذ هذا الانحراف فى الانتساع والانتشار على مر الأجيال والمهود فوقعت انحرافات متعددة فى مجال سياسة الحكم والمال وفى الناحية الاجتماعية والاخلاقية ، ولكنها رغم ذلك ظلت انحرافات شخصية عملية أملت بها الهوى والاطماع وأسهمت فى ارساء قوائمها فى المجتمع المسلم عوامل متعددة عرضت لها فى ثنايا هذا البحث .

وأما الامة الاسلامية فى مجموعها فكانت سليمة مستقيمة فى سلوكها ، وتصرفاتها وأخلاقها ولم تصب بعدوى الادواء الا فئة قليلة كانت تتبع الحكام والامراء المنحرفين وتمد لهم فى الارض . وقد ظل الدين قوياً فى نفوس افراد المجتمع المسلم وفى واقع حياتهم وظلت الشريعة سليمة محفوظة

وبقيت مشهجا قويا ثابتا ترتقى اليه الامة وتقيم عليه شئون مجتمعيها كلها في فترات اليقظة واليقظة واليقظة حين تهب عليها فحماطة من الايمان والتقوى والصالح وكذلك ظلت الامة تزن واقعيها بميزان الشريعة وتنظر الى الانحراف مهما اطراد وانتشر على انه انحراف ولم يخل عصر من عصور الاسلام من علماء ائذان يدعون الى الله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصححون ما انحرف فيه الناس عن دين الله ويصلحون ما فسد من احوالهم ويردوهم الى الاصل الثابت الميسر والمنبع الصافي الذي تكفل الله تعالى بحفظه وفيه الخير كل الخير للبشرية، ثم الى جانب ذلك ظلت الامة الاسلامية قرونا عديدة تقود البشرية وتبسط سلطانها في انحاء العالم وتتبوأ مركز الامة الوسط بين المالمين رغم ما وقع في حياتها من انحرافات منذ العهد الاموي استمرت بل ازدادت على طول العهد العباسي .

وفي خلال العهدين الاموي والعباسي والعهد العباسي بوجه خاص نبئت بذور انحرافات متعددة وظهرت تشويهاات خطيرة للتصورات والفاهيم الاسلامية حيث داخلتها عناصر غريبة<sup>عنها</sup> واختلطت بغيرها حتى فقدت جوهرها واصالتها وقوتها وحيويتها فاصيب الاسلام في عقائده وقيمه واخلاقياته واخذت الانحرافات والتشويهاات تتسرب الى اذهان الناس وتنطبع على واقع حياتهم حتى جاءت عصر الانحطاط والتدنّي التي بلغ فيها هذا الوضع منتهى الخطورة حين تحول الدين في اذهان الناس وفي واقع حياتهم الى مجموعة من المفاهيم الباطلة والتصورات الخاطئة والبدع والخرافات والعمادات والتقاليد الفاسدة حتى أصبح هذا الدين وكأنه دين آخر غير الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى ، ولم يمد يوتي ثمراته المرجوة ولم يمد يحقق لهؤلاء المسلمين النتائج العظيمة التي حققها للاولين الذين حفظوه غضا طريفا ومثلوه على حقيقته وبفهمه الصحيح الشامل .

وقد أخذت الامة الاسلامية - منذ وقع لانحراف في حياتها - تفقد من ذاتيتها واصالتها وقوتها وعزتها بمقدار ما تفقد من هذا الدين وما تنحرف عن

عن جادته ، وما يصيب عقائده وتصويراته وقيمه من تشويه وانحسار وتقلص فسعى  
أذهانها وفي واقع حياتها . وهكذا أخذ شأن هذه الامة في الانحطاط واخذت  
حضارتها في الذبول وأصبحت بالضعف والتخلف والوهن والجمود في شتى مجالات  
الحياة وخاصة في مجال السياسة والاجتماع ومجال النشاط الاقتصادي ومجال  
القوة الحربية والصناعية ومجال العلوم بهشتى أنواعها حتى فقدت قوتها وسلطانها  
ولم تعد قادرة على القيام بدورها في قيادة البشرية وريادتها . وقد استمرت  
حالة التدهور والانحطاط عدة قرون تخللتها فترات يقظة وقوة حتى جاءت أواخر  
العهد المملوكي حين بلغ المسلمون قرارة الضعف والوهن فهجمت عليهم قوى  
أوروبا الصليبية واحتلت بلادهم وتوزعت جيوشها في اقطارها وذاق المسلمون منها  
صنوف الذل والهوان والاستعباد والظلم والاستغلال وبرزوا تحت نير حكم  
الاستعمار الاوربي الصليبي ردحا غير يسير من الزمن . وفي خلال هذه الفترة  
المصيبة التي تمتد من أوائل القرن الثالث عشر الهجري ( التاسع عشر الميلادي )  
حتى النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجري ( القرن العشرين الميلادي ) وقمت  
في انحاء العالم الاسلامي حوادث جسيمة وقامت ظروف قاسية تعرضت الامة  
الاسلامية خلالها لصدات عنيفة وهزات شديدة زلزلت كيانها وافقدتها وعيها  
وصوابها فاصيبت بقابلية الخنوع والذوبان والاستعباد من شدة الصدمة وهولها  
ووقع ضربات العدو وظلمته وفقدان الامة ذاتيتها وضياع شخصيتها وشدة انبهارها  
بما عند الامم الغالبة . وقد كان استعداد الامة الذاتي وقابليتها للاستعباد  
والذوبان اكبر عامل من العوامل التي أسهمت في نجاح الحرب النفسية الشرسة  
التي شنتها الامم الغالبة عليها ، وقد وضمت هذه القوى الصليبية الحاكمة خططا  
محكمة مدروسة لتحطيم مقومات وجود هذه الامة وأساسياتها وعوامل قوتها وعزتها  
وبذلت في سبيل تنفيذ هذه الخطط جهودا مضعية في حرب ضارية واعمال كيد ومكر  
وغديعة . فقد كانت آثار ذلك في حياة الامة الاسلامية خلال هذا العصر بالذات  
سيئة للغاية حيث نقض بناء المجتمع المسلم حجرا حجرا وانتفضت عسرى  
الاسلام عروة عروة ونحيت الشريعة كلية من مجال الحكم والسياسة والاقتصاد وأبعد  
الدين عن الهيمنة على مجال الاجتماع والاخلاق والفكر والثقافة والتعليم ونبتت

القيم والمبادئ والتوجيهات الاسلامية واستبدلت بها نظم الغرب ومذاهبه وأفكاره ومناهجه . وهكذا بعدت الشقة بين الاسلام والمسلمين حتى أصبح هذا الدين لا يشغل في حياتهم العملية وفي شئون مجتمعهم الا هيزا صغيرا لا يكاد يتجاوز مجال الاحوال الشخصية في احسن الحالات .

وهكذا وقع في حياة هذه الامة ما أخبر به الصادق الصدرى صلى الله عليه وسلم حين قال : " لينقضن عرى الاسلام عروة عروة فكما انتقضت عروة تشبست الناس بالتي تليها فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة (١) " . وقال : لتبمن سنن من قبلكم شهرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكنموه قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : نعم ؟ (٢) .

تحاول أن

وتظهر أهمية هذه الدراسة من حيث إنها تعرض الصورة الصحيحة للحياة الاسلامية التي تحققت في عالم الواقع في عصر الاسلام الذهبي وتبين عناصر تكوين الامة الاسلامية ومقومات حياتها الاساسية واسس بناء المجتمع المسلم الاول الذي بلغ الذروة في تمثيل هذا الدين عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة ثم تعرض الصورة الحقيقية لواقع المجتمع الاسلامي المعاصر ليعلم مدى مطابقته لصورة الحياة الاسلامية الصحيحة او مخالفته لها وذلك في محاولة ربط حاضر هذه الامة ومستقبلها بماضيها المجيد المشرف واصلاح ما وقع في حياتها من انحرافات تصورية وسلوكية متعددة حتى يعود لها مجدها وعزتها وترتقى الى المكانة اللائقة بها في العالمين .

وتتجلى لنا هذه الاهمية اذا علمنا أن فئة من المبشرين والمستشرقين والباحثين الغربيين على اختلاف نزعاتهم ودوافعهم ومذاهبهم قد أولوا دراسة

( ١ ) رواه الامام أحمد في مسنده ٢٥١/٥ عن أبي أمامة .

( ٢ ) أخرجه البخارى في كتاب الانبياء باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ٤٨٥/٦ ، عن أبي سعيد الخدرى .

المجتمعات الاسلامية والشعوب المسلمة عناية كبيرة واهتماما بالغا ، وقد نهضوا منذ فترة بعيدة لتتبع أحوال الشعوب الاسلامية ودراسة اوضاعها المختلفة وكتبوا في ذلك بحوثا ورسائل<sup>كثيرة</sup> تحتوي على معلومات مستفيضة قد موهبا لدولهم ولدوائر الاستعمار وهيئات الارساليات التبشيرية المختلفة والجامعات خدمة لمصالحهم كل حسب اهدافها السياسية والاقتصادية والعسكرية والصلبية ، ولتصرفهم امم الغرب على عوامل قوة المسلمين فتعمل على تحطيمها أو اضعافها في نفوسهم وتجريد هم منها وتقف على عوامل ضعفهم وانهارهم فتعمل على بقائها وازديادها وانتشارها ثم تخلق الى جانبها عوامل اخرى تزيد هم ضعفا الى ضعفهم ووهنا على وهنهم حتى تتمكن من فرض سيطرتها عليهم بوسط نفوذها في انحاء بلادهم وتحويلهم عن دينهم وعقيدتهم وتوجيههم وجهة غريبة مادية لادينية وسوقهم وراءها أنلاء مقهورين فترة طويلة من الزمن .

وكذلك يظهر لنا ما لهذه الدراسة من أهمية اذا علمنا اننا نحن المسلمين - مع الأسف الشديد - أقل الناس عناية واهتماما بدراسة احوال مجتمعنا المعاصر ، واقلهم معرفته واقمنا على حقيقته في ميزان ديننا وعقيدته وقيمه واخلاقياته رغم اننا احوج الناس الى مثل هذه الدراسة لما لها من علاقة وثيقة بحفظ كياناتنا واصالتنا وقوتنا وعزتنا واصلاح ديننا واخرتنا ولما في اهمالنا لها وتقصرنا فيها من اضعاف لدننا وعقيدتنا ، وحضارتنا وثقافتنا ، وحاضرنا ومستقبلنا . ولا بد من عرض الحاضر على قيم الدين الاصيل ، ولا بد من الالمام بماض الامة المجيد ، من اجل اصلاح الحاضر وبناء مستقبل افضل على الاسس الركيزة التي اقام عليها المسلمون الاوائل بناء مجتمعاتهم حتى كان مثالا أعلى في الخير والصالح في تاريخ هذه الامة .

وأما منهج في هذا البحث فقد اتجهت الى دراسة واقع حياة الامة الاسلامية في عهودها وعصورها المختلفة عن طريق عرض صورة هذا الواقع على اسس العقيدة الاسلامية وبادىء هذا الدين وقيمه وتوجيهاته بدءا بعهد الجيل الاول المثالي ، فالعهد الاموي ثم المباسشي ثم العثماني حتى انتهيت الى القرنين الاخيرين .

وقد جعلت محور الدراسة للمجتمع المسلم الاول هو تسليط الاضواء على عناصر تكوين هذا الجيل واسس بناء مجتمعه من عرض نماذج عملية متنازعة من واقع المسلمين الاوائل في جميع مجالات الحياة حتى تكون امامنا صورة صحيحة واضحة للحياة الاسلامية العملية التي اقامها ذلك الجيل الفريد في مجتمعه وذلك الى جانب معرفتنا للاسس والقيم والتوجيهات الاسلامية في بناء المجتمع القوي الممجد وتحقيق الحياة الصالحة . وكذلك اتجهت في دراستي لواقع حياة هذه الامة بعد ذلك وفي عصورها المختلفة الى عرض هذا الواقع على الاسلام ووزنه بميزانه ففى عقيدته ومبادئه وقيمه مبينا ماوقع في حياة هذه الامة عبر تاريخها الطويل من انحرافات وتشويهات ومشكلات وازمات سواء من الناحية التصورية او الناحية السلوك العملية حتى انتهيت الى المصير الحديث الذى لم يبق فيه من الاسلام عند كثير من يسمون انفسهم مسلمين الا تلك الصورة الهزيلة المهلهلة والتصورات الخاطئة التي يتشدقون بها على أنها الدين الحق وهى ليست من الدين فى شىء او هى انحراف عن حقيقة الدين وجادة الطريق .

على اننى في دراستي هذه للمجتمع الاسلامي المعاصر لم اتناول دراسة احوال الشعوب الاسلامية من زاوية التقسيمات السياسية القائمة حاليا فاعرض لكل دولة من الدول الاسلامية وأدرس اوضاعها المختلفة ومشكلاتها واحوال سكانها وشئون حياتها المختلفة وقضاياها الخاصة وغير ذلك مما هو مادة دراسة حاضر العالم الاسلامي وكذلك لم أجمل هذا البحث دراسة متخصصة فى عرض قضايا المسلمين العامة والظواهر الاجتماعية المشتركة بين الشعوب الاسلامية والازمات السياسية والاقتصادية القائمة فى هذا العصر فى صورتها التفضيلية الشاملة مما هو شأن مادة " المجتمع الاسلامي المعاصر " التي تدرس حاليا فى بعض جامعات الدول العربية . ولكن دراستي هذه للمجتمع الاسلامي المعاصر أشبه ما تكون بالتشخيص العام الشامل لمعرفة الامراض والافات التي تنتاب الامة



وتوضيح أسبابها وبيان اعراضها ثم وصف العلاج . ولم ألبأ عند عرض الاحوال والاوضاع الى التفصيلات الدقيقة ولكنني اكتفيت بوضع الخطوط العريضة وبيان الصورة العامة الشاملة مع عرض بعض نماذج عملية من واقع الامة الاسلامية من تركيبها ومصر لمركز هذين البلدين واهميتها التاريخية وخاصة عند غزواورها الصليبية للعالم الاسلامي خلال القرنين الاخيرين .

وما أن هذه الدراسة تلمس الجانب العقدي التصوري والجانب السلوكي العملي العام من حياة الامة الاسلامية فانتفى أهميب بالفكرين والباحثين المسلمين من مختلف الاختصاصات للقيام بواجبهم الديني في دراسة واقع المجتمع الاسلامي المعاصر دراسة تفصيلية دقيقة شاملة في شتى ميادين الحياة وخاصة في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع على ضوء هذا المنهج الذي اتبنته في هذه الدراسة . وحبذا لو قامت الجامعات بكلياتها المختلفة بمثل هذا العمل الكبير كل حسب اختصاصها وذلك لاصلاح حال هذه الامة والاسهام في بناء نهضة حضارية اسلامية قوية تعيد للامة مكانتها وتحقق الخير والصلاح والسعادة للبشرية جمعاء .

هذا وانتى على علم منذ اللحظة الاولى من اختياري لهذا الموضوع وقبل أن اخوض في عباب بحره الخضم أن مهتق ليمت ببسيرة وأن على أن أغوص في اعماق تاريخ هذه الامة منذ فجر الاسلام حتى يومنا هذا ، بل وأن أجيل النظر في فترة ما قبل قيام دعوة الاسلام لرؤية صورة الحياة الجاهلية ومظاهرها واحوال الناس في مختلف مجالات الحياة وذلك للوقوف على مدى التفسير الجذري الذي أحدثه الاسلام في حياة الناس وان قصدى في هذه الدراسة ليس هو مجرد السرد التاريخي بقدر ما هو استعراض لواقع الامة عبر تاريخها الطويل لمعرفة مدى مطابقة صورة حياتها لهدى الاسلام ومبادئه وقيمه ومدى مغالفتها لذلك ، وللوقوف على عوامل القوة والرفعة والصعود في صورة الحياة الصحيحة وعوامل الضعف والانحدار والهبوط في صورة الحياة المنحرفة . ولقد علمت ان هذا

الموضوع واسع الافاق مترام الاطراف تستمضى الحاطة بجميع جوانبه ويصعب على الباحث استقصاء جميع مجالاته ولكن الذى حفزنى الى هذا الاختيار وهون على صميمته هو ما لهذا الموضوع من أهمية كبيرة فى دفع عجلة العمل الاسلامى الى الامام وفى سبيل اصلاح حال هذه الامة ورفع شأنها وتحقيق الخير والصلاح لها . وقد بذلت اقصى ما أمك من مجهود فى معالجة هذا الموضوع فبان ونفت فى هذا العمل فذلك بفضل الله ونعمته وتوفيقه وان ظهر فيه قصور أو تقصير فذلك من الضعف البشرى الذى لا يحصم الانسان منه الا الله تعالى .

وقد قسمت هذه الرسالة الى أربعة أبواب رئيسية تتضمن عدة فصول ومباحث قد مت لها بدراسة تمهيدية شرحت فيها حقيقة الجاهلية ومظاهرها ثم استعرضت الحالة الدينية فى بلاد العرب قبل ظهور دعوة الاسلام .

وأما الباب الاول فموضوعه المجتمع الاسلامى الأول المثالى وهو مقسم الى فصلين كبيرين مهدت لهما بحديث عن نشأة الجيل الاول والظروف القاسية التى واجهها عند بدء الدعوة .

وأما الفصل الاول فهو عناصر ومقومات تكوين الجيل الأول وهو يحتوى على ثلاثة مباحث ، تحدثت فى البحث الاول عن المنصر الأول وهو القرآن الكريم وعرضت لاهم الموضوعات التى عالجها القرآن فى تنشئة الجيل الاول وتربيته فكريا واخلاقيا وسلوكيا ، وقد فصلت القول حول موضوع عقيدة الألوهية والايان باليوم الآخر والتصور الاسلامى لحقيقة الكون والحياة والانسان وموضوع التشريعات والنظم الاسلامية والقيم والتوجيهات الاخلاقية . وفى البحث الثانى تحدثت عن المنصر الثانى من عناصر التكوين وهو السنة النبوية المطهرة وبينت اثرها البالغ فى تنشئة هذا الجيل . ثم تناولت الحديث فى البحث الثالث عن المنصر الثالث من هذه العناصر وهو المثل الاعلى والاسوة الحسنة فى شخصية الرسول الفذة

وقد بينت أن هذا الرسول العظيم هو الصورة العملية الكاملة المجسمة للإسلام في عقيدته وعبادته وأخلاقياته وهو القدوة الحسنة الحية الماثلة أمام هذا الجيل فاتخذة مثله الأعلى يقتدى به في سيرته ويترس على يديه ويتلقى منه التوجيهات والارشادات في كل شأن من شئون حياته .

وأما الفصل الثاني فهو أسس بناء المجتمع الاسلامي الاول ، وهو يتضمن أربعة مباحث . تحدث في البحث الاول عن العقيدة الاسلامية وفي البحث الثاني/عن العدل الرباني المتمثل في مبادئ الاخوة والمساواة والتحرر المطلق من جميع القيم والاعتبارات لتحقيق المبادئ لله تعالى . وفي البحث الثالث تحدثت عن التكافل الاجتماعي . وفي البحث الرابع تحدثت عن سياسة الحكم ، وسياسة المال . وقد فصلت القول في بيان القيم والمبادئ والتوجيهات الاسلامية العامة في بناء مجتمع قويم يتحقق فيه الخير والصلاح والسعادة للناس ولم أكتف بالحديث عن هذا الجانب النظري من الموضوع بل استمررت واقع حياة الجيل الاول ومثلت عند نهاية كل بحث من المباحث الاربعة بنماذج حية متارة من التطبيق العملي لهذه القيم والمبادئ والتوجيهات في حياة المسلمين الاوائل .

وأما الباب الثاني فهو خط الانحراف التاريخي في حياة الامة الاسلامية ، ومجالات الانحراف عن جادة الاسلام في التاريخ الحديث واسبابه والاثار السيئة التي ترتبت على ذلك في حياة هذه الامة . ويحتوي هذا الباب على ثلاث فصول رئيسية . اما الفصل الاول فهو خط الانحراف التاريخي في حياة الامة الاسلامية وقد قسمته الى ثلاث مراحل تاريخية بارزة هي المهد الاموي والمهد العباسي والمهد العثماني وقد بينت في الحديث عن هذه المهدات الثلاثة متى بدأ الانحراف في الحياة الاسلامية وكيف بدأ وما هي الاسباب التي أدت الى ظهوره ثم كيف أخذ الانحراف في التوسع والانتشار والتمدد على مر الاجيال

والمصور حتى يمدت الشقة بين الاسلام والمسلمين في القرون الاخيرة .

وأما الفصل الثاني فهو مجالات الانحراف عن جادة الاسلام في التاريخ الحديث واسباب ذلك . وهو يحتوى على خمسة مباحث تناولت فيها دراسة التصورات والمفاهيم التي انحرَفَ <sup>فيرا</sup> المسلمون وفي المبحث الاول تحدثت عن مفهوم عقيدة الألوهية ، وفي المبحث الثاني تحدثت عن مفهوم العبادة ويندرج تحته مفهوم الدين والآخر . وفي المبحث الثالث تحدثت عن مفهوم عقيدة القضاء والقدر ثم تحدثت في المبحث الرابع عن مفهوم الجهاد وأما المبحث الخامس فقد تحدثت فيه عن اقبال باب الاجتهاد . وقد فصلت القول على ذلك كله ومثلت للانحرافات التي وقعت في هذه المفاهيم من واقع حياة المسلمين في القرون الاخيرة .

وأما الفصل الثالث وهو يحتوى على مبحثين فقد تحدثت في اولهما عن الآثار السيئة التي ترتبت على هذه الانحرافات التصورية في ناحية السلوك العملي من حياة المسلمين في القرون الاخيرة من فساد سياسة الحكم والمال وسعدها عن هدى الاسلام وروحه وفساد الاخلاق وانتشار المفاهيم الفاسدة والبدع والخرافات ووقوع خلافات مذهبية ونزاعات طائفية حادة بين المسلمين ، وتحويل الدين في نفوس كثير من الناس الى مجموعة تقاليد وعادات خالية من الروح وتركهم الأغــنـد بالاسباب وقعودهم عن العمل والانتاج بدعوى التوكل على الله والزهد عن متاع الحياة وتركهم للجهاد في سبيل الله والانصراف عنه الى أمور فردية واخرى ثانوية واصابته الامة بالجمود الفكرى والعلمى والتخلف الحضارى والضعف السياسى والاقتصادى والحرب ما أدى الى وقوع الامة تحت الاحتلال الاجنبى فى نهاية الأمر .

وفي المبحث الشانى وهو وقوع العالم الاسلامى تحت الاحتلال الاجنبى تحدثت عن غزواتهم الأوربية للعالم الإسلامى خلال القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) وبينت جيوش القوى الصليبية مسـنـ

المستعمرين والبشرين والمستشرقين الذين خاضوا غمار الحرب الضارية لتحطيم الاسلام والقضاء على سلطان المسلمين وتقويض قواعد بناء الحياة الاسلامية .  
 وفي حديثي عن الفوز الاوربي الصليبي لم أجعل محور الدراسة هو الجانب التاريخي الصرف من جهود قوى الاستعمار وحركة التبشير والاستشراق في كل بلد من البلدان الاسلامية ولكنني ان اعتبر عذرا لبلاد المسلمين وتمكنها من عرض سيطرتها على الامة الاسلامية نتيجة انحراف هذه الامة عن دينها وما أدى اليه ذلك من ضعفها وتخلتها وانهارها حتى تكالبت عليها الاعداء من كل صوب ، فقد ركزت كل التركيز على شرح جهود القوى المعادية للامة واعمالها في سبيل تحقيق غاياتها وبينت ان اكبر عامل من العوامل التي اسهمت في نجاح جهود الاعداء هو عقدان المسلمين لذاتيتهم واستعدادهم الذاتي للذوان وتقبلهم للمعبودية والتبعية للامم الغالبة ثم شرحت ما نتج عن ذلك من آثار سيئة في حياة المسلمين وبخاصة في القرن الاخير .

وأما الباب الثالث فهو رد الفعل للفوز الاجنبي وقيام حركات البعث الاسلامي وهو يحتوى على نظرين / <sup>رئيسيين</sup> قدمت لهما بتمهيد موجز عن رد ود الفعل للفوز الاجنبي المتمثلة في الاتجاهات الثلاثة الاتية :

أولا : الاتجاه الذي اعتنق الفلسفة التي قامت عليها الحضارة الغربية ودعا الى الارتقاء في أحضان الغرب والاخذ بمناهج الحياة الالهية في كسل مجالات الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي سياسة التعليم والثقافة والفن والتقاليد والعادات .

ثانيا : الاتجاه الذي يدعو الى التمسك بالاسلام في صبرته المشوهة الممسوخة التي امتزج فيها الاصيل بالدخيل والسليم بالميليل والخالص بالشوب واثرت فيها آفات الجمود والركود والانحراف عن حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل .

ثالثا : الاتجاه الذي تمثل في حركات البعث الاسلامي التي قامت غرض المجتمع المسلم لا حياة قوة الاسلام واصلاح عالمة الامة المتدهورة ورفع مستواها ومواجهة الفوز الفكري الاوربي وفي نظري هذا الباب تحدثت عن

حركات البعث الاسلامى البارزة التى قامت فى انحاء العالم الاسلامى خلال القرنين  
الخيرين . واما فى الفصل الاول وهو عن حركات البعث الاسلامى فى القرن الثالث عشر الهجرى  
ويحتوى على ثلاثة مباحث فقد تحدثت فى المبحث الاول عن دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب

التي ظهرت فى بلاد نجد فى اواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر  
الميلادى ) وهى تعتبر الحركة الرائدة فى مجال احيا الحياة الاسلامية واصلاح  
حال الامة بعد سلسلة انحرافات وقعت خلال عصر الانحطاط . وفى المبحث  
الثانى تحدثت عن حركة الامام محمد بن على السنوسى الكبير فى ليبيا . وفى المبحث  
الثالث كان الحديث عن حركة الامام محمد احمد بن عبد الله المهدي فى السودان .

واما الفصل الثانى فقد عرجت فى مباحثه الثلاثة على الحديث عن الحركات  
الاسلامية البارزة التى قامت خلال القرن الرابع عشر الهجرى ( القرن العشرين  
الميلادى ) ابتدأت بحركة الاخوان المسلمين بمصر ، بحركة الجماعة الاسلامية  
بباكستان ثم الحركات الاسلامية التى قامت فى تركيا وايران واندونيسيا . وقد  
تناولت فى راسى لهذه الحركات شرح ظروف قيام كل حركة وبيان مبادئ دعوتها  
ومنهجها فى العمل وأهدافها ومدى ما بذلت من جهود فى سبيل انجاح  
مهمتها الإصلاحية .

وأما الباب الرابع فهو طريق الخلاص ما تمنى الامة الاسلامية ووسائل  
الاصلاح فى سبيل استئناس حياة اسلامية صحيحة . وهو يحتوى على فصلين  
تحدثت فى اولهما عن حاجة المسلمين اليوم الى الاسلام فى صورته التطبيقية  
السليمة . واما الفصل الثانى فقد تناولت فيه شرح وسائل الاصلاح وابتدأت بتأكيد  
وجوب تعريف المسلمين اليوم بالاسلام من جديد وتوضيح حقائق هذا الدين  
وتصوراته ومفاهيمهم لهم حتى يكونوا على معرفة حقة بدينهم ويكونوا على بصيرة من  
أمرهم ويدركوا تكاليف هذا الدين فى نفوسهم وفى واقع حياتهم فى مقابل ما يحققه  
لهم من الخير العميم والمزة والتمكين والنور والنجاة . وقد بينت ان سبيل  
ذلك ليس محصورا فى المواعظ والخطب والدروس والمحاضرات الدينية كما يتبادر

الى أذهان كثير من الناس ولكنه يشمل جانب الفكر والثقافة والتعليم والاعلام والتربية العملية . وتحدثت عن وجوب اقامة اسس الفكر والثقافة على هدى الاسلام وتعاليمه وروحه واصلاح نظم التعليم ومناهجه وتقويم وسائل الاعلام المختلفة . وبينت الحاجة الماسة الى تنظيم برامج تربوية عملية شاملة لتكوين جيل جديد وتنشئته على الاصول الاسلامية الصحيحة . وقد بينت في نهاية هذا الفصل أن العبء الأكبر في مجال الاصلاح يقع على عاتق الدولة الاسلامية ان وجدت واذ لم توجد فلا بد من قيام جماعة مسلمة مجاهدة لتضطلع بهذه المهمة الجليلة لاقامة دين الله في الارض وتحقيق مصالح الامة .

هذا وان الواجب على المسلمين ان يعلموا يقيناً ان الوضع السيء المولم الذي يعيشونه اليوم في أنحاء العالم الاسلامي ليس هو الوضع السليم اللائق بهم فالاسلام ليس هو الضعف والتخلف والذل والهوان وانما هو القوة والعزة والرفعة والتمكين وليس الوضع السليم اللائق بالمسلمين هو ان يكونوا في مؤخرة ركسب الحياة وان يصبحوا غشاة كفتاة السيل يتكالب عليهم الاعداء يستذلونهم ويستعبدونهم ، ولكن الوضع اللائق بهم هو أن يكونوا مع القلة أو الكثرة قوة مستعلية على أوضاع الارض كلها ، قوة مجاهدة مناضلة لا تلين قناتها ولا يعرف الوهن والاستكانة اليها سبيلا حتى يمكن الله تعالى لها في الارض . وعلى هذا يجب على المسلمين ان يعلموا ان كل ما وقع في حياتهم من ضعف وتخلف وذل وهوان وجمود وركود انما هو بسبب بعدهم عن حقيقة الدين وانحرافهم عن جادته وان عليهم اذا ارادوا ان يحققوا ذاتيتهم ويحفظوا كياناتهم ويمجدوا مجدهم وعزتهم ان يسارعوا الى العودة الى هذا الدين الذي هو أصل وجودهم ومنبع قوتهم وسر عزتهم يطبقون مبادئه وتعاليمه في شئون حياتهم الخاصة والعامة ، ويقيمون بناء مجتمعاتهم على أسس عقيدته وقيمه السامية ، كما عليهم ان يقوموا بتنقية اجواء مجتمعاتهم وتطهير مجالات حياتهم الفكرية والعملية من روااسب الاستعمار الارثي وآثار غزوه الفكرى التي تنتشر اليوم في أنحاء بلاد المسلمين

وتسيطر على كافة مجالات الحياة . وذلك كله يستطيعون القيام به واجبهم نحو أنفسهم ويتأهلون لاداء رسالتهم والقيام بدورهم في العالمين " كمنهم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... (١) الآية " . ويتحقق فيهم وعد الله تعالى لمباداة المؤمنين باستخلاصهم والتكليف لهم ولد ينهم في الارض " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ... (٢) الآية " .

واني لأسأل الله تعالى أن يفتح المسلمين بهذا الجهد المتواضع ويتقبل مني هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يوفق كل من يسلك هذا الطريق من بعد ليثبت هذه الامة من رقدتها والنهوض بها من سقوطها وانها يارها والاخذ بيدها نحو الصلاح والرفعة والقوة حتى ترتفع الى المنزلة التي يريد الله لها أن تتبوأها بين العالمين وتحقق الرسالة التي أخرجت من أجلها للناس انه سميع مجيب .

واني أشكر الله تعالى أولا وآخرا على نعمته على وتوثيقه لي ، ثم أرفع من بعد آيات الشكر وكلمات الثناء والتقدير الى فضيلة الشيخ محمد قطب المشرف على هذه الرسالة لما قدمه لي من توجيهات وإرشادات قيمة فتحت أمامي آفاقا واسعة من الفكر الناضج الصحيح وكانت عوناً كبيراً لي بفضل الله وتوثيقه للتغلب على ما واجهني من مشكلات وصعوبات أثناء اعداد هذه الرسالة وهذا الى جانب رعايته الابوية لي وما يتمتع به من أخلاق فاضلة يحببه الى كل من لازمه وتتلذذ عليه ، فجزاه الله عن خير الجزاء وأمد في عمره وختم له بالصالحات .

( ١ ) سورة ال عمران آية ( ١١٠ ) .

( ٢ ) سورة النور آية ( ٥٥ ) .



( ع )

كما أنني أشكر جامعة أم القرى وعلى رأسها معالي الدكتور راشد الراجح  
مدير الجامعة لما أتاحته لي من فرصة ثمينة وما وفقرته لي من امكانيات طيلة  
فترة دراستي فيها نجزى الله القائمين بأمر هذه الجامعة خير الجزاء وسأشارك  
في جهودهم وحقق على أيديهم مزيداً من النجاح والتوفيق .

وأخيراً دعونا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد  
وعلى آله وصحبه وسلم . ،،،

خضر مصطفى النجيري

حقيقة الجاهلية ومظاهرها ، والحالة الدينية في

بلاد العرب قبل الاسلام

- التمهيد الاول : حقيقة الجاهلية ومظاهرها .
- التمهيد الثاني : الحالة الدينية في بلاد العرب قبل الاسلام .

...

التمهيد الاول :

قبل البدء بدراسة المجتمع الاسلامي المعاصر يجب ان نلقى أضواء كاشفة على المصير الاسلامي الماضية القريبة منها والبعيدة بل قبل ذلك بالاحسرى يجب أن نفحص في أعماق التاريخ لنستعرض جزءاً مهماً من تاريخ ما قبل ظهور الاسلام ان لا يمكننا ادراك حقيقة رسالة الاسلام الا اذا وقفنا على الاوضاع القائمة في بلاد العرب والمسلمين من حولها . ابان بدء الدعوة الاسلامية ، لأن المجتمعات البشرية وقتئذ كانت تعيش في ظلمات الجاهلية . واذا كان الاسلام هو الوجه المقابل تماماً للجاهلية فقد توفرتنا معرفة الاسلام على حقيقته وادراك كنه مبادئه وقيمه ومبادئه اذا لم نقف على حقيقة الوضع القائم في تلك الحقبة من التاريخ قبيل بدء الدعوة الاسلامية . ثم اننا من الجانب الاخر لا يمكننا ان نقف على أمر المجتمع الاسلامي المعاصر ومدى استقامته على خطط الاسلام وانحرافه عنه ومدى ما وقع فيه من انحرافات على مدى المصير الاسلامي الا اذا عرفنا الصورة المثالية لتطبيق الاسلام والتي تحققت في المجتمع الاسلامي الاول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين لان هذه الصورة الثريفة التي تحققت في عالم الواقع هي المقياس الصحيح والنموذج القائم للتصحيح والاصلاح .

وانني في هذه الدراسة التمهيدية التي اعرض فيها احوال المجتمعات البشرية القائمة قبيل ظهور الاسلام بصورة عامة والجماعات العربية المتناشرة في شبه الجزيرة العربية بصورة خاصة على ضوء توضيح حقيقة الجاهلية التي اشتركت فيها تلك المجتمعات والجماعات - وان اختلفت مظاهر الجاهلية في كل منها - لا ألجأ الى الاستطراد التاريخي المجرد ان لا يهمنا السرد التاريخي بقدر ما يهمنا تسليط الاضواء على الحقائق المتعلقة بمقومات حياة تلك الامم من حيث القيم والاسس والمبادئ والمثل والتقاليد والمبادئ ،

ما يعطينا صورة واضحة عن احوال مختلف امم العالم والمجتمعات البشرية قبل ظهور الاسلام . على أننا سنتطّل على تلك المجتمعات من خلال دراسة حقيقة أمرها وما جعلها تستحق وصف الجاهلية التي نمتها بها الاسلام لنقف أولاً على حقيقة الجاهلية وتدرك ثانياً مظاهرها وآثارها التي تبد وبوضوح في شئون حياة الناس ومجالاتها المختلفة . وعلينا أن نقرر باديء ذي بدء أن القرآن الكريم وكتب الحديث الصحيحة هما المصدران الأساسيان الموثوق بهما فسنمولى عليهما أكثر في هذا البحث فانهما غير ما يصور لنا احوال الحياة الجاهلية ويصف لنا انسان ذلك العصر من حيث تفكيره وعقائده واتجاهاته واخلاقه فهما غير مرآة تنمكس عليهما صورة الحياة الجاهلية التي جاء الاسلام لتغييرها واقامة منهج حياة أفضل مكانها ينعم الانسان في ظلّه بالسمعة والطمأنينة والاستقرار . وهناك حقيقة مهمة يجب أن نشير اليها قبل البدء بدراسة حقيقة الجاهلية ومظاهرها وهي أن الجاهلية التي جاء الاسلام لهدم بنيانها من أساسه ودك عروشها عن آخرها لم تكن مقصورة على الوضع الذي كانت تعيش فيه الجماعات العربية القاطنة في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام ولا محصورة فيه .

وعلى الرغم من ان الدعوة الاسلامية قد تصدت للجاهلية العربية في المرحلة الاولى من حياة الدعوة فانها حتى في تلك المرحلة لم تكن مهمتها قاصرة على محو الجاهلية العربية فحسب بل كانت تقرر الجوهر الاساس المشترك بين جاهليتا البشر وهو الشرك بجميع جوانبه واشكاله لمواجهة وتغييره ثم تمرض مظاهر الجاهلية العربية التي تواجهها الدعوة مواجهة مباشرة باديء ذي بدء . وقد تختلف مظاهر الجاهلية بعضها عن بعض في نوعها وكثرتها ومشاعتها وطبيعتها وارتكاسها باختلاف الزمان والمكان ولكنها تلتقي عند ذلك الجوهر الاساس للجاهلية . وعلى هذا فان ما درج عليه المؤرخون من قهر الجاهلية على ذلك الوضع الممين الذي كانت عليه الجماعات العربية

في شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة التي سبقت ظهور الاسلام قد يوهم كثيرا من الناس ان الجاهلية انما هي ذلك الوضع الذي كان عليه العرب وان فترتها محدودة قبل المهد السابق على مجيء الاسلام وان الجماعات العربية وحدها هي التي ينطبق عليها وصف الجاهلية دون سواها من الامم وبالتالي تكون الجاهلية قد ذهبت دون ما رجمة بعد ظهور الاسلام . وذلك كله ليس بصحيح في واقع الامر لان الجاهلية - على ما سنفصل القول في معناها فيما بعد - لها اطارها الشامل الذي لا يقتصر على صيرة معينة من اوضاع الناس ولا تخص الجاهلية قوما دون غيرهم من البشر كما انها ليست محدودة بزمان او مكان . وعلى هذا فكل الامم السابقة التي ارسل<sup>الله تعالى</sup> اليها الرسل كانت في جاهلية وجاءت الرسل ليخرجوهم منها الى الاسلام وكذلك أي أمة سابقة كانت أو لاحقة جهلت الله الحق فعبست من دونه آلهة أخرى ولم تتبع شرع الله فهي أمة جاهلية . وان قصر مهمة رسالة الاسلام على ازالة الجاهلية العربية القائمة ابان فترة بدء الدعوة الاسلامية يهدو متنافيا ومتناقضا تماما مع روح هذه الرسالة بغايتها اذ الجوهر الحقيقي للجاهلية والذي حدد الاسلام يدخل في نطاقه الواسع كل مجتمع تحققت فيه تلك السمة المشتركة وان اختلفت المظاهر سواء في ذلك المجتمعات البشرية القائمة خارج شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام او التي قامت او تقوم بعد ذلك على طول التاريخ .

### توضيح حقيقة الجاهلية ومظاهرها

يبدو أن القرآن الكريم هو أول من استخدم لفظ "الجاهلية" بهذه الصيغة على وزن "فاعلية" وإن كان فعل "جهل" ومشتقاته الأخرى قد ورد في لفظة العرب وأشعارهم قبل الإسلام. وقد وردت لفظة "الجاهلية" في القرآن الكريم في أربع آيات من السور المدنية (١) ووردت اشتقاقاتها "يجهلون ، تجهلون ، الجاهلون ، جهالة ، جهول ، ومراءفها "لا يعلمون" في آيات كثيرة من السور المكية (٢) والمدنية على السواء كما وردت هذه اللفظة ومشتقاتها في كتب الحديث الصحيحة .

وقد اختلف الناس في فهم المراد بالجاهلية ، ونستطيع أن نحصر آراءهم ومذاهبهم في ثلاث نقاط :

- ١ - منهم من ذهب إلى تصرف الجاهلية من حيث المعنى اللغوي وقالوا إن الجاهلية من الجهل الذي هو ضد العلم أو عدم اتباع العلم ومن الجهل بالقراءة والكتابة ولهذا ترجمت هذه اللفظة في اللغة الانكليزية بـ : " The Time of Ignorance " ويرى هؤلاء أن العرب قبل ظهور الإسلام كانت تغلب عليهم البدائة وانهم كانوا قد تخلفوا عمن حولهم في الحضارة فماش أكثرهم عيشة قبائل رحل في جهل وغفلة لم تكن لهم صلات بالعالم الخارجي ولم يكن للعالم الخارجي اتصال بهم ، أميون

---

(١) سورة آل عمران آية (١٥٤) ، المائدة آية (٥٠) ، الأحزاب آية (٢٣) ، الفتح آية (٢٦) .

(٢) منها : الزمر (٦٤) ، الانعام (١١١) ، الفرقان (٦٣) القصص (٥٥) ، الاعراف (١٩٩) ، البقرة (٦٧) ، (٢٧٣) ، والاحقاف (٢٣) ، النمل (٥٥) ، يوسف (٣٣) .

عبدة أصنام ليس لهم تاريخ حافل لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الاسلام عندهم بـ " الجاهلية " ( ١ ) .

٢- وذهب بعضهم الى اعتبار لفظة " الجاهلية " من قبيل التسميات الجديدة المتضمنة نظرة الازدراء والاستهجان مما يطلق على المصهور السابقة بعد زوالها وقلب اوضاعها لقصد التفريق بين حالة وأخرى . ويقول الدكتور جواد على : " ان الجاهلية اصطلاح مستحدث ظهر بظهور الاسلام وقد أطلق على حال ما قبل الاسلام تمييزا وتفريقا لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الامم من اطلاق تسميات جديدة للمصهور القائمة والكائنات الموجودة بعد ظهور احداث تزلزلها وتتمكن منها وذلك لتمييزها وتفريقها عن المصهور التي قد تسميها ايضا بتسميات جديدة وفي التسميات التي تطلق على المصهور السابقة ما يدل ضمنا على شيء من الازدراء والاستهجان للاوضاع السابقة في غالب الاحيان . وقد سبق للنصاري أن أطلقوا على المصهور التي سبقت المسيح والنصرانية " الجاهلية " أي (ايام الجاهلية) ، أو ( زمان الجاهلية ) استهجانا لمرئيتك الايام وازدراءا بجهل اصحابها لحالة الوثنية التي كانوا عليها ولجهالة الناس ان ذاك وارتكابهم الخطايا التي أبعدتهم عن نظر النصرانية من العلم وعن ملكوت الله ( يرد في اعمال الرسل الاصحاح السابع عشر آية ٣٠ ) . وقد اغضى الله عن أزمة هذا الجهل فيبشر الان جميع الناس في كل مكان أن يتموا " ( ٢ ) . ويقرر . جواد على رأيه بعد هذا التمهيد ويقول : " والرأي عندى أن الجاهلية من السفه والحق والانفة والخفة والفضب وعدم الانقياد لحكم وشرعية وارادة الهية وما الى ذلك من حالات انتقصها الاسلام فهي في معنى ( اذهب يا جاهل ) نقولها

( ١ ) د . جواد على : الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٧/١ .

( ٢ ) نفس المرجع ٣٧/١ - ٣٨ .

في المراق لمن يتسفه ويتحقق وينطق بكلام لا يليق صدوره من رجل فلا يزال  
أديبا ولا يراعى عرفا و ( رجل جاهل ) تطلقه على من لا يهتم بمجتمع ويد يمن  
ولا يتورع من النطق بأفحش الكلام ولا يشترط بالطبع ان يكون ذلك الرجل  
جاهلا أميا أى ليس له علم وليس بقارىء كاتب " (١) . ثم يخص في حديثه  
ليؤكد رأيه بمثال من واقع أحوال الام حيث قال : " فلفظة " الجاهلية " <sup>ليبر</sup>  
اذن نعت اسلامي من نوع النعوت التي تطلق في العهد السابق على  
حركة ما او انقلاب أطلقه المسلمون على ذلك العهد كما تطلق اليوم نعوتها  
واسماء على العهود الماضية التي يثير الناس عليها من مثل مصطلح  
( العهد البائد ) الذي أطلق في المراق على العهد الملكي منذ ثورة  
١٤ تموز ١٩٥٨ م ومثل المصطلحات الاخرى الشائعة في الاقطار العربية  
الاخرى والتي أطلقت على العهود السابقة للثورات والانقلابات " (٢) .

٣ - وذهب آخرون الى تعريفها من حيث المظاهر والسمات البارزة في حياة  
العرب في عهد الجاهلية . يقول أحد أمين في معرض حديثه في شرح  
معنى الاسلام : " جاء في القرآن ( وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض  
هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ) ولعل هذه الآية هي المفتاح  
الذي تصل به الى معرفة السبب في تسمية العهد الذي قبل محمد صلى الله  
عليه وسلم جاهلية وعهد اسلاما ، والجاهلية ليست من الجهل الذي هو  
ضد العلم ولكن من الجهل الذي هو السفه والفضب والانفة " جاء في حديث  
الاؤك " ولكن اجتهلته الحمية " أى حملته الانفة والفضب على الجهل " ،

(١) الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٠ / ١ .

(٢) نفس المصدر ٤٢ / ١ .



وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن ذر الخفاري وقد عبر رجلا بأمة " أنك امرؤ فيك جاهلية " أى فيك روح الجاهلية ، وقريب من هذا المعنى استعمالهم استجهله الشئ أى استخفه ومنه قوله : " وقاك الهوى واستجهلك المنازل " . . . . . الى ان قال : " فترى من هذا كله أن كلمة الجاهلية تدل على الخفة والانفة والحمية والفاخسرة ، وهى أمور أوضح ما كانت فى حياة العرب قبل الاسلام فسمى المصممر " الجاهلية " (١) . ويرى المستشرق (كولد تزهير) ( Goldziher ) " أن المقصود الاىل من الكلمة (السفه ) الذى هو ضد الحلم ، والانفة والخفة والنضب وما الى ذلك من معان وهى أمور جد واضحة فى حياة الجاهليين " (٢) . ومن هذا المعنى ما قال أحمد ابراهيم الشريفي " أن " العرب الاسلامى يشير الى العصر الذى ولد فيه النبي (صلى الله عليه وسلم ) ويدعوه " الجاهلية " وكلمة " جاهلية " لا تمنى " عكس المعرفة " بل انها تعنى بالاحرى " مخالفة القانون والتمرد " او " الجهل بما هو أفضل " وهى كلمة اسلامية أطلقت على العصر الذى سبق الاسلام مباشرة والذي كانت تسوده حرية المصيبة القبلية بما فيها من نزق وطيش وحمق واستجابة لداعى المصيبة مهما تكن الاسباب والظروف فهى كلمة مأخوذة من الحمية المصيبة . قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا (٣)

وهى لذلك كلمة تمهر عن روح العصر بما كان فيه من وثنية واخلاق قوامها الحمية والاخذ بالثأر (٤) .

( ١ ) فجر الاسلام ص ٦٩-٧٠ .

( ٢ ) الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ١ / ٣٩٠ .

( ٣ ) معلقة عمرو بن كلثوم .

( ٤ ) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، ص ٩٣ .

ومن تعريف الجاهلية بالمظاهر والسمات البارزة في حياة العرب قبل الاسلام تلك الجملة المشهورة التي نقرأها في بعض كتب التاريخ . تقول هذه الجملة :  
 " كان العرب في الجاهلية يعبدون الاصنام ويعدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بفجارات السلب والنهب فنهاهم الاسلام عن ذلك " .  
 وهكذا نرى أصحاب هذا الرأي الثالث قد نظروا الى الجاهلية من زاوية مظاهرها وآثارها المتعددة فعرفوها بجملة من تلك الصفات التي كانت منتشرة بين الناس في العهد السابق لظهور الاسلام .

وان كانت لفظة الجاهلية بهذه الصيغة على وزن " فاعلية " قد وردت لأول مرة في القرآن الكريم رغم ورود فعل " جهل " ومشتقاته الاخرى في لغة العرب واشعارهم قبل الاسلام فالواجب علينا الرجوع الى القرآن الكريم لنعرف منه التعريف الصحيح لهذه اللفظة في معناها الكلي وجوهرها الحقيقي لا في مظاهرها الخارجية لان القرآن الكريم قد يعطى هذه اللفظة معنى اصطلاحيا محدد ا كما هو شأنه في استخدام الالفاظ لعمان اصطلاحية جديدة .

وانا استمررنا المواضع التي وردت فيها هذه اللفظة ومشتقاتها في القرآن الكريم نجد أنها قد استخدمت لمعنيين اساسيين محددين هما الجهل - الجهل بالالوهية واتباع غير شرع الله فتارة يشير القرآن الى أحد هذين المعنيين أو كليهما جميعا وتارة أخرى يضيف احد المعنيين الى المعنى الكلي المشترك أو يضيف اليه بعض المظاهر والسمات التي تصدر عنه . وقد يصف القرآن بعض أعمال أو اشخاص أو أقوام بالجهل على هذا المعنى الاصطلاحي لتحقيق هذا المعنى الكلي والجوهر الاساسي فيهم أو لوجود بعض مظاهره وسماته أو لبقائه بعض رواسب الجاهلية في نفوسهم ويتضح لنا الامر أكثر اذا علمنا ان الحياة الجاهلية على مدار التاريخ تتركز على هذين الاساسين المحددين . وقد شهد بذلك المشركون انفسهم حين واجهوا دعوة الاسلام وقاموها \* وقال الذين

أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء \* نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء \* كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين \* (١) فإن الجهل بحقيقة الألوهية وعدم معرفة الله المعرفة الحققة يؤدي إلى الكفر به وتوجيه العبادة إلى غيره كما أن عدم اتباع شرع الله يؤدي إلى التحريم والتحليل من دون الله وبالتالي صرف جميع خصائص الألوهية والحاكمة إلى غيره سبحانه وتعالى . وعلى هذا فإن لفظة الجاهلية ومشتقاتها في جميع المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم قد استخدمت لهذا المعنى الكلي والجوهري الأساسي الذي يدخل تحته تلك المظاهر الخارجية التي تشكلت منها الحياة الجاهلية ، على أن تلك المظاهر والحالات والسمات التي تكون نتيجة وجود ذلك السبب الحقيقي ليس من الضروري أن تسير على قاعدة واحدة أو تأخذ طابعا موحدا بل قد تختلف باختلاف الزمان والمكان وتباين الأقسام والأجناس إلا أن المصهور الأساسي المشترك في جميع الحالات هو ذلك المصنف المشترك الذي يشكل حياة الناس ويكون مصدر تلك المظاهر الخارجية والحالات التي يعيشون فيها . يقول الله تعالى : \* أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون \* (٢) . وقد جمعت الآية الحكم نوعين اثنين لا ثالث لهما أما حكم الله وأما حكم الجاهلية ، وحكم الجاهلية هو الذي صدره الجهل بالألوهية واتباع غير شرع الله . وأضيف الحكم بغير ما أنزل الله إلى الجاهلية هنا لأنه يصدر عن صرف خصائص الألوهية والحاكمة إلى غير الله تعالى ، وهو ناشئ من الجهل بحقيقة الألوهية . وقال تعالى في موضع آخر : \* إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله

( ١ ) سورة النحل آية ( ٣٥ ) .

( ٢ ) سورة المائدة آية ( ٥٠ ) .

وعلى المؤمنين وأئمتهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً " (١) . والحمية هي الأنفة والطيش وهي من علامات الجاهلية ومظاهرها فأضيفت اليها لصدورها عنها ويقابلها في الإسلام كما ذكرت الآية الالتزام بتقوى الله تعالى والالتزام له في كل الأمور . وكذلك الأمر في الآيتين الأخريتين اللتين وردت فيهما لفظة الجاهلية أضيف اليها في أولها ظن السوء بالله وقد صدر ذلك من بعض المشافقين في غزوة أحد حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم " هل لنا من الأمر شيء " وهم يقولون في أنفسهم أن لو كان لهم من الأمر شيء ماخرجوا لمقابلة العدو ومانالهم من الهزيمة مانالهم ، وقد أضيف عطهم هذا إلى الجاهلية لأنه يدل على عدم ادراكهم لحقيقة قدر الله وأنه هو سبحانه الذي يدير الأمر كله ويتقار الأقدار ، مظاهر من مظاهر الجاهلية ورأسها . قال تعالى في حق هؤلاء : " وظائفهم قد أهملتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر شيء " قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا ما هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور " (٢) . ثم قال الله تعالى بعد ذلك : " يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير " (٣) . وأما الثانية الآيتين فقد تعرضت لمظهر خطير من مظاهر الجاهلية وهو التبرج وإظهار النساء زينتهن ومفاتنهن للرجال الأجانب لاشاعة الفساد في المجتمع قال تعالى : " وقرن في بيوتكن

( ١ ) سورة الفتح آية ( ٢٦ ) .

( ٢ ) سورة آل عمران آية ( ١٥٤ ) .

( ٣ ) سورة آل عمران آية ( ١٥٦ ) .

ولا تخرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقم الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله  
انما يريد الله ليزهد عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" (١) . وما ذكر  
في الايتين الاخيرتين من أمور الجاهلية يقابله في الاسلام الادراك الصحيح لحقيقة  
الالوهية والسمع والطاعة لا يأمر الله ورسوله والتزام حدود تعاليم الاسلام باتساع  
شرع الله والسير على منهجه في الحياة . وبذلك يتبين لنا من خلال ما تقدم ذكره  
ما للفظ الجاهلية من معنى كلى وجوهر حقيقى يندرج تحته مظاهر كثيرة وحالات  
متعددة فأضيف اليها الحكم بغير شرع الله والحمية والتبرج وظن السوء بالسوء  
في الايات السابقة .

وأما المشتقات الاخرى لفعل " جهل " فقد وردت في آيات كثيرة منها  
ما جاء في معرض خطاب مشركي العرب ومنها ما جاء في معرض الحديث عن  
الانبياء السابقين ومواجهتهم جاهليات اقوامهم او انكار بعض مظاهرها ورأسها  
المتبقية فيهم بعد اسلامهم . أما ما جاء في معرض خطاب مشركي العرب ففي  
آيات كثيرة منها قوله تعالى " قل أفغير الله تأمروني أعبد ايها الجاهلون ولقد  
أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من  
الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين وما قدروا الله حق قدره . . . . " (٢) الآية  
وقوله تعالى : " ان ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين  
والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون وان تدعوهم الى  
الهدى لا يسمعون واراها ينظرون اليك وهم لا يبصرون خذ العفو وامر بالصرف  
واعرض عن الجاهلين " (٣) . وقال تعالى : " وعباد الرحمن الذين يمشون على  
الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (٤) . وفي قصة أهل الكتاب  
الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : " ولقد وصلنا

( ١ ) سيرة الاحزاب اية ( ٢٣ ) .

( ٢ ) سيرة الزمر ايات ( ٦٤-٦٧ ) .

( ٣ ) سيرة الاعراف ايات ( ١٩٦-١٩٩ ) .

( ٤ ) سيرة الفرقان اية ( ٦٣ ) .

لهم القول لهم يتذكرون . الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا  
يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين اولئك يؤتسون  
اجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا  
اللفظ أغرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين (١) .  
وفي هذه الايات وغيرها (٢) كان وصف هؤلاء بالجهل " الجاهلون ويجهلون " .  
لانهم لا يعترفون الله المعرفة الحق ولا يؤمنون به ولا يتبعون ما انزله على رسوله .  
واما ما جاء في معرض قصص الانبياء السابقين ففي آيات كثيرة - وما من نبى من  
الانبياء الا وقد واجه جاهلية سبقت عهده بالو قالوا بظواهرها المترسبة في اذهان  
قومه ومظاهرها في شئون حياتهم نذكر من ذلك على سبيل المثال ما جاء في قوم  
موسى في قوله " وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يمكفون على أصنام  
لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الهة كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (٣) .  
وجاء في قوم هود قوله تعالى : " وإنكرا عما عاد ان أنذر قومه بالاحقاف  
وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم  
عذاب يوم عظيم قالوا أجهتتنا لتأفكتنا عن آلهتنا فأتنا بما تمدنا ان كنت  
الصادقين . قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما  
تجهلون (٤) . وكذلك ما جاء في قوم نوح عليه السلام في قوله تعالى : " ولقد  
أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير صين أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم  
عذاب يوم أليم " . . . . . الى ان قال : " وما قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى  
الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما

( ١ ) سورة القصص ايات ( ٥١-٥٥ ) .

( ٢ ) سورة الانعام ايات ( ١٠٩-١١٠ ) .

( ٣ ) سورة الاعراف آية ( ١٣٨ ) .

( ٤ ) سورة الاحقاف ايات ( ٢٢-٢٣ ) .

تجهلون (١) . وغير ذلك من الايات (٢) التي نرى فيها كل نبى يقاوم ويواجهه جاهلية رسخت قواشمها قبل بعثته ويصف قومه بالجهل لأنهم لم يعرفوا الله المصرفة الحق ولم يقدروه حق قدره حيث اتجهوا بالعبادة الى غيره تعالى ولم يتبعوا ما أنزل عليهم من ربهم . وحين طلب بنو اسرائيل من موسى عليه السلام ان يجعل لهم الهة محسوسا كما للمشركين الهة محسوسة يعبدونها وينجمعون عندها وذلك منهم من بقايا الجاهلية التي علقت في أذهانهم فقد رد عليهم موسى عليه السلام بقوله " انكم قوم تجهلون " أى لا تعرفون الله المصرفة الحق ولو عرفتموه حق معرفته لما سألتهم مثل هذا السؤال السخيف . قاله جل شأنه هو الذى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير . وهكذا نرى أن مادة " جهل " وجميع مشتقاتها في كل المواضع التي وردت فيها ففى القرآن الكريم قد جعل لها معنى اصطلاحى محدد على نحو ما سبق ان بيناه بحيث لا تكاد نجد آية من تلك الايات وردت فيها هذه اللفظة الا وقد استخدمت للجهل بالالوهية وعدم اتباع ما أنزل الله على رسله سواء أريد بها هذا المعنى المحدد الذى هو السبب المباشر أم أريد بها ما يكون من آثاره ومظاهره ورواسبه، حتى في بعض الايات (٣) التي ورد فيها اللفظ " على وزن " فعالة " و " فحول " " جهالة وجهول " ودأب الناس على تفسيره بالطيش والحمق في مثل قوله تعالى : " ثم ان ربك للذين عطوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعد ما لغفور رحيم " (٤) . والمعنى انهم عطوا السوء بسبب جهلهم بالله وعدم اتباعهم ما أنزل على رسوله او لوجود بعض بقايا رواسب من الجاهلية في نفوسهم ولا يلزم من ذلك ان يكونوا كفارا او مشركين بل قد يحصل ذلك فترة

( ١ ) سورة هود ايات ( ٢٥ - ٢٩ ) .

( ٢ ) سورة النمل ( ٥٤ - ٥٥ ) البقرة ( ٦٧ ) ، هود ( ٤٦ ) .

( ٣ ) سورة الانعام ( ٥٤ ) ، النساء ( ١٧ ) الحجرات ( ٦ ) البقرة ( ٢٧٣ ) .

الاحزاب ( ٧٢ ) .

( ٤ ) سورة النحل ( ١١٩ ) .

قليلة من الزمن حين تلبسوا بالجريمة وكانوا في غفلة وقد جاء في الحديث " لا يزن الزاني حين يزن وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن " . . . . الحديث (١) . وقد وردت لفظة الجاهلية في مواضع كثيرة في كتب الحديث الصحيحة حيث استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرى من أحد شيئاً من الاعمال او الاعتقادات قد يكون من رواسب ومظاهر حالسة الجهل بالالوهية وعدم اتباع ما أنزل الله والتي عاش فيها الناس قبل الاسلام يبادر صلى الله عليه وسلم الى انكاره بشدة ويضيفه الى الجاهلية . وكذلك كان الصحابة رض الله عنهم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن امور فعلوها في الجاهلية مثل العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم ليعرفوا موقفهم منها بعد اسلامهم ما قد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم بعضها ونهى عن البعض الآخر ، وحين يسأل الصحابة رض الله عنهم عن هذه الامور التي وقعت منهم في العهد السابق لدخولهم في الاسلام كانوا يحثون " بالجاهلية " ذلك الزمان الذي عاشوا فيه في جهل مطبق بحقيقة الالوهية حيث عبدوا من دون الله آلهة من الاصنام والاوثان والطواغيت واحلوا وحرموا من دون الله وقد عرفوا بعد اسلامهم ان المحرم الذي تدور عليه الاعمال في الجاهلية قد تغير وان مقومات الحياة قد اصبحت بعد الاسلام غيرها في الجاهلية . فصدر الحياة الاسلامية واساسها الصبرفة الحقة بالله والتي تؤدي الى الايمان به وحسده لاشريك له واتباع ما أنزل على رسوله في كل شأن من شئون الحياة . وفي ذلك دلالة واضحة على ان هذا المعنى المحدد للجاهلية هو ما فهمه الصحابة رض الله عنهم حين استخدموا هذه اللفظة . وما ورد في السنة الصحيحة ، حديث عبد الله بن مسعود قال : قال أناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله

( ١ ) رواه مسلم في كتاب الايمان ، باب نقصان الايمان بالصماص ٤١ / ٢ - ٤٢ ، شرح مسلم للنووي عن ابن هريرة .



أَنَّا اخذ بما عملنا في الجاهلية قال : " أما من أحسن منكم في الاسلام فلا يؤخذ بها ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والاسلام (١) " . وحديث حكيم بسنن حزام انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " أي رسول الله أرايت أمورا كنت أتحنت بها في الجاهلية من صدقة او عتاقة او صلة رحم أنفيها أجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمت على ما أسلفت من خير (٢) " . وكذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها انها قالت قلت لرسول الله ابن جده ان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعة ؟ قال : لا ينفعه انه لم يقل يومما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين " (٣) . وحديث ابي ذر قال : اني ساببت رجسلا فمهرته بأمه قال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر انك امرؤ فيك جاهلية (٤) . . . الحديث . اي غصلة من خصال الجاهلية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تجدون الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا (٥) . . . الحديث . فقابل الحديث بين الاسلام وبين الجاهلية . وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدس موضوع (٦) . . " الى غير ذلك من الاحاديث .

واذا سلمنا جدلا أن هذه اللفظة قد أوقعت أول ما أوقعت على تلك الفترة المحدودة التي سبقت البعثة النبوية الشريفة وأن التسمية كانت لمسيب الحالة المعينة التي كان عليها الناس حينذاك وان تحول هذه الحالة بعد

- 
- ( ١ ) رواه مسلم في كتاب الايمان باب هل يؤخذ بأعمال الجاهلية ١٣٥ / ٢ شرح مسلم للنووي .  
 ( ٢ ) رواه مسلم في كتاب الايمان باب بيان حكم عمل الكافر اذا اسلم بعد ١٢١ / ٢ .  
 ( ٣ ) رواه مسلم في كتاب الايمان باب من مات على الكفر لا ينفعه عمل ٨٦ / ٣ .  
 ( ٤ ) رواه البخاري في كتاب الايمان باب المصاوص من امر الجاهلية ١٣ / ١ المكتب الاسلامي بتركيا .  
 ( ٥ ) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب خيار الناس ٧٨ / ١٦ عن ابي هريرة .  
 ( ٦ ) رواه مسلم في كتاب الحج باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ١٨٢ / ٨ من حديث جابر الطويل .

الاسلام الى حالة اخرى هو الذى ميز بين الحالتين احداهما عن الاخرى أولا يكون هناك سبب اساس وجوه حقيقى ارتكزت عليه كل من الحالتين وقامت على دعائه وسارت على نمط احيائه وتوجيهاته وتشكلت عناصر ومقومات حياتها من أسس ومبادئ حتى استحققت احداهما ان تسمى جاهلية والاخرى اسلاما . ولذلك ترى ان من قال بالمعنى اللغوى فى الاقوال الثلاثة السالف ذكرها قد أبعد النجسة ولا يخفى بطلان قولهم بشهادة القرآن الكريم وشهادة التاريخ هو كان هـذا الامر من الوضوح لمن له أدنى العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نحتاج هنا الى اقامة الأدلة بل يكفى فى ذلك أن القرآن الكريم الذى خاطب مشركى العرب بلغتهم كان على مستوى رفيع من البلاغة بجميع اشكالها وفروعها وقد عرفوا معانى ما أنزل اليهم وان لم يؤمنوا بما جاء فيه . ولعل الذى اوهم هؤلاء الذين قالوا بالمعنى اللغوى أى أن الجاهلية من الجهل<sup>الذى</sup> هو ضد العلم ومن الجهل بالقراءة والكتابة ما جاء فى بعض الايات من نسبة الامية الى مشركى العرب فترة نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل قوله تعالى : " هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين " (١) . وقوله تعالى : " فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن قل للذين اتوا الكتاب والاميين أسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك المصراع<sup>الذى</sup> والداه يصير بالمعيار " (٢) ان وصف مشركى العرب بالأمية فى الايتين وغيرهما ليس لكونهم لا يقرءون ولا يكتبون فقط ولكن لانهم ايضا لم يكن لهم كتاب مثل ما كان لليهود والنصارى . وأما من نظر الى معنى لفظة الجاهلية من زاوية ضيقة وتتبع حالة العرب قبل الاسلام وعدد بعض المظاهر والاوضاع القائمة آنذاك وذكر جملة من العادات والتقاليد جعلها معنى للجاهلية فقد جاء تمريف هذا الفريق غير جامع ولا محدد ان لم يلقوا على السبب والمصدر وانما

( ١ ) سورة الجمعة آية ( ٢ ) .

( ٢ ) سورة آل عمران آية ( ٢٠ ) .

تلمسوا المسببات والآثار فجاء ثم فهم قاصرا عن تناول جميع الأوضاع والحالات والمظاهر التي تدخل تحت نطاق المعنى الكلى لهذه اللفظة ، لان الأوضاع والحالات والمظاهر تختلف باختلاف الزمان والمكان بدليل ان ما وجد في عهد الجاهلية العربية من الأوضاع والمظاهر والحالات من مثل العصبية العمياء وعباد الأصنام وشرب الخمر ولعب الميسر وواد البنات والطيش والافتة والتفاخر بالنسب والاحساب والرياء والسمة وما الى ذلك ليس حتى الوجود في كسب جاهلية وليس من الضروري ان توجد هذه الامور بعينها في كل بيئة وكل عصر وقد لا يوجد بعضها على الاطلاق وقد توجد على غير الصورة التي كان عليها الامر في عهد الجاهلية العربية ومع ذلك تظل الجاهلية جاهلية اذا وجد ذلك الجوهر المشترك بين جاهليتين تالام على مدار التاريخ ووجد ذلك المعنى الاصطلاحي المحدود الذي تكتسب به الامم وعهود التاريخ وحالات الناس صفة الجاهلية .

ثم ان من يرى ان التسمية بالجاهلية كانت من حيث المعرف السائد بين الامم حين تحدثت انقلابات وتحول بسببها الأوضاع والاحوال فيطلق الثائرون على الأوضاع تسميات جديدة على المعهود السابقة بقصد تمييزها عن الحالة الراهنة مما لا يخلو في غالب الاحيان من نظرة الازراء والاستهجان والعداء . . ان من يرى مثل هذا التشبيه يعتقد مثل هذه المقارنة بين دعوة الاسلام والثورات الانقلابية بيد وأنه لا يفهم دعوة الاسلام فهما صحيحا حيث عرضها في مثل هذه الصورة التي لا تتفق مع هدى الاسلام وروحه ورسالته بأي حال من الاحوال .

والاسلام كما أسلفنا هو الوجه المقابل تماما للجاهلية ولانهما من الاضداد التي لا تجتمع في مكان واحد فاذا وجد احدهما متكاملا انتفى الاخر ولا بد . ولكن لا يعنى ذلك عدم امكان وجود مظاهر يرواسب من الجاهلية في الانسان المسلم في بعض الفترات ومراحل الحياة لحديث ابن زر الفخاري (١) السابق وحديث

( ١ ) أخرجه البخاري في كتاب الايمان باب المعاصي من امر الجاهلية ١٣ / ١ ، المكتب الاسلامي ، تركيا .

ذات أنواط وما حكمنا سابقاً من قصة بنو إسرائيل حين قالوا لموسى عليه السلام :  
 " اجعل لنا الهة كما لهم آلهة " (١) . فالذنوب على مراتب ودرجات ، ومنها  
 ما هو كبائر ومنها ما هو صفائر منها ما يخرج من الملة ومنها ما لا يخرج إذا لم يكن  
 المقترف له يعتقد حل حرام أو يصر على معصية . وأما مظاهر وخصال الخير إن  
 وجدت من الإنسان الجاهل فلا ينفعه ذلك إذا انتهى أمره على حالة الجاهلية  
 ولم يخرج من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان لحديث عائشة (٢) الذى سألت فيه  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر ابن جدعان الجاهل الذى مات على الكفر  
 ولم ينفعه ما عمله من خصال الخير فى جاهليته وقد سبق ذكر هذا الحديث .

ويتلخص من كل ما تقدم أن لفظة الجاهلية لا يقتصر معناها على الفترة  
 الزمنية التى سبقت ظهور الإسلام ولا ينطبق على الجماعات العربية فى شبه  
 الجزيرة العربية وحدها دون غيرها من الأمم القائمة أبان بدء الدعوة الإسلامية  
 أو الأمم اللاحقة على طول التاريخ إن صدق عليها الوصف كما لا ينحصر معناها  
 أيضاً فى تلك الحالات والمظاهر المصينة التى تذكر دائماً فى كتب التاريخ  
 عن حالة الجاهلية العربية وليس هو المقابل لما يسمى العلم و " المعرفة " و  
 الحضارة والمدنية . ولكنه ذو مدلول شامل يعام به داخل تحت كل ما ذكر من  
 الحالات والأوصاف والمظاهر وغيرها وهو جوهر معين يمكن أن يتخذ صوراً  
 شتى بحسب البيئة والظروف والزمان والمكان فتتشابه كلها فى أنها جاهلية  
 وإن اختلفت مظاهرها وتغيرت أوضاعها بين الأجناس والأقوام .

وإذا كانت الجاهلية هى الجهل بالله الذى يؤدى إلى الكفر به أو الجحد به  
 أو الاشتراك به فى خصائص ربوبيته وألوهيته وحكميته ، فالإسلام هو المعرفة الحققة

( ١ ) سورة الاعراف آية ( ١٣٨ ) .

( ٢ ) رواه مسلم فى كتاب الإيمان باب من مات على الكفر لا ينفعه عمل ٨٦/٣ .

شرح مسلم للنووى .

بالله التي تؤدي الى الايمان به وحده لا شريك له وإلى تحقيق الميودية له تعالى عقيدة بعبادة وشريعة وإلى خشيته وثقواه ومراقبته في السر والعلن .  
 وإذا كانت الجاهلية هي رفض الاهتداء بهدى الله ويرفض الحكم بما أنزل من كتاب وتحكيم الاهواء والسفيزات واتباع طواغيت الناس الذين يحرمون ويحلون من دون الله فالاسلام هو طاعة الله واتباع ما أنزله على رسوله من الهدى ودين الحق والالتزام بمنهجه في الحياة (١) .

...

---

( ١ ) انظر الاستاذ محمد قطب ، جاهلية القرن العشرين ، ص ٨ وما بعدها .

## التمهيد الثانى :

الحالة الدينية فى بلاد العرب قبل الاسلام

ان عبادة الله الحق كانت أول عبادة عرفها البشر منذ أن هبط آدم عليه السلام الى الارض قال تعالى : " قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (١) . وان الله سبحانه وتعالى بسابق ارادته وحكمته البالغة وعلمه المحيط بكل شئ لما خلق الانسان ألهمه فجوره وتقواه بما جعل له من طاقات يستطيع ان يميز بها الخير والشر ثم أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية الناس الى صراطه المستقيم . ولكن النفس البشرية لا تكاد تصل الى عبادة الله الواحد وتستريح الى نفحات رحمته حتى تبدأ مرة أخرى فسى الانحدار الى حضيض الكفر والضلال ، وفى كل فترة من فترات تاريخ البشرية اذا حدث الجهل بالله وسعد الناس عن الجادة ورفضوا الاهتداء بهديه كان الله يرسل اليهم رسولا لاعادتهم الى رشدهم ومسامحتهم . قال تعالى : " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة " (٢) . . الآية . ولا يكاد يمضى رسول حتى يبدأ الناس مرة أخرى فى العودة الى مآهات الجهل والضلال وتلك سنة من سنن الله فى الكون ولو شاء الله لهدى الناس جميعا وجعلهم أمة واحدة .

ولقد عرفت الجزيرة العربية الدين الحق منذ دعوة ابراهيم عليه السلام منائمه الكعبة الشريفة فى مكة واعلانه بالحج للناس ، وقد ظل الناس على شريعته حنفاء لله غير مشركين به لمدة أجيال حتى تسربت اليهم الوثنية وانحرفت عقيدتهم الخالصة ثم أخذت الوثنية فى الانتشار والذيع على مر الايام والاجيال حتى أطبقت

(١) سورة البقرة (٣٨) .

(٢) سورة النحل (٣٦) .

على جميع مناطق الجزيرة قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاد الناس الى جاهلية عمياء واتخذوا من دون الله آلهة متعددة من أوثان وأصنام وأنصاب وأشجار فتوجهوا اليها بصنوف العبادة (١) . وقد نسيت الحنيفية دين ابراهيم ولم يبق منها الا المظاهر والشكليات نتيجة ما دخلها من وثنية ضالة حتى فقدت جوهرها بروحها ومعنوياتها ، فكان اهتمام الناس بعمارة البيت الحرام وتنظيم شئون الحج والعمرة وما يتعلق بهما من شعائر وعبادات من أجل التقرب الى الاصنام والاوثان المنصوبة في اماكن العبادة . جاء في القرآن الكريم وصف حالة الوثنية والكفر التي صار اليها أمر الجماعات العربية في الجاهلية بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة الاسلام منذ قيام دعوة ابراهيم عليه السلام وهذا هم الى عقيدة التوحيد فحادوا بعد ذلك كافرين بأنعم الله وجعلوا له أندادا وشركاء فضلوا عن سبيل الله . قال الله تعالى : " ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها فبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار " (٢) .

والوثنية العربية كانت قائمة على عبادة الاصنام والاوثان والانصاب والجنس وتقديس بعض الاشجار والاستقسام بالالزام عند الالهة كما وجد فريق من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون انهم بنات الله ، يقول أنور الجندى : " والمؤرخون على أن الوثنية في الحجاز وبلاد العرب كانت مرضا أجنبيا طارئا عليها من شرق الاردن وبلاد كنعان حمله منها عمرو بن لحي في بعض الوقت الذي تولت خزاعة الحكم في الحجاز قبل الهجرة بنحو أربعمئة سنة فهي أقصر وثنيات العالم عمرا ولا نها قصيرة العمر لم تقم لها في بلاد العرب هياكل ولا تماثيل أو أنظمة وأساطير كالتي كانت للوثنية في الهند والصين ومعابد أثينا وروما (٣) " .

- 
- (١) انظر أنور الجندى ، الاسلام والعالم المعاصر ، ص ٩٥ ، وكذلك كتاب ظهور الاسلام ..... ص ٢٦-٢٧ . للدكتور عبد الحميد بخيت .  
 (٢) سورة ابراهيم (٢٨-٣٠) .  
 (٣) أنور الجندى ، المصدر السابق ص ٩٥ .

وأما الاوثان والاصنام فقد كان العرب يتخذونها من الحجارة أو الخشب أو المعادن وكان بعضها على صورة الانسان أو الحيوان في حين كان البعض الآخر يمثل قوى الطبيعة كالكوكب وغيرها أو ما يزعمون أنه يمثل الملائكة . وقد كانت الكعبة البيت الحرام مليئة بمجموعة كبيرة من هذه الاصنام والاثان " ويذكر أنه وجد فيها يوم فتح مكة ثلاثمائة وستون صنما (١) " وكذلك كانت منتشرة في أماكن كثيرة في بلاد العرب . وقد ورد ذكر بعض أصنام العرب في القرآن الكريم ، ويرد ذكر مجموعة أخرى منها في كتب الادب والتاريخ لم يرد ذكرها بأسمائها في القرآن الكريم ولكنها بطبيعة الحال داخلية في نطاق ما يعبد من دون الله قال تعالى : " ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير (٢) " . ونذكر فيما يلي أشهر اصنام العرب في الجاهلية :

١ - هبل : وهو أعظم أصنام قريش وكبير آلهتهم (٣) ويقال انه كان من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش هكذا فجعلت له يدا من ذهب .

٢ - اللات : وهي لشقيف في الطائف وكانت جميع العرب يعظمونها " ويرجح بعض الباحثين انها تمثل الشمس (٤) " وكان لبعض المشركين اصنام تمثل قوى الطبيعة ( الشمس والقمر والكوكب ) وكانوا يعتقدون ان لها تأثيرات فعالة في شئون العالم السفلي .

٤ - المزى : وهي من آلهة قريش ، وكانت جميع القبائل العربية يعظمونها بصورة خاصة " ويقال انها تمثل الزهرة " (٥) .

(١) انور الجندى ، الاسلام والعالم المعاصر ص ٩٨ .

(٢) سورة الحج (٢١) .

(٣) ابن هشام ٨٢/١ و ٨٦ .

(٤) نفس المصدر ٩٠/١ .

(٥) ،، الأزرق ، ١٢٥/١ - ١٢٨ .



٤- مناة كانت لهذيل وغزاة وقد نصبت على ساحل البحر من ناحية  
المشلل بقديد بين مكة والمدينة .

قال الله تعالى في شأن هذه الاصنام الثلاثة/ :<sup>الاخيرة</sup> "أعزأيتم اللات والعزى  
ومناة الثالثة الاخرى . ألكم الذكر وله الانثى . تلك اذا قسمة ضيزى . ان  
هى الا أسماء سميتوها انتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان  
يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (١) " .  
وتدل هذه الايات على أن العرب كانوا يعتقدون أن هذه الاصنام  
الثلاثة تمثل الملائكة وان الملائكة بنات الله فهم يشفعون الى الله  
للمذنبين يعبدونهم ليقربوهم اليه ، وكانت قريش تقول عند طوافها بالكعبة  
واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى فانهن الخرائيق الحلى ، وان  
شفاعتهم لترجى .

٥- أساف ونائلة : وهما من آلهة قريش وقيل انها نصبت أحدهما على  
الصفى والآخر على المروة (٢) .

٦- الشمري الصهير : وهو من الالهة التى عبدها أهل مكة . ويمثل النجم  
المعروف بالشمري . وهو الذى ورد ذكره فى قوله تعالى : " وانه هو  
رب الشمسى (٣) " .

٧- سمد : وهو لكثانة وقد نصب فى مكان بساحل جدة .

٨- نهم : كان لقبيلة مزينة .

(١) سورة النجم ( ١٩ - ٢٣ ) .

(٢) هشام بن الكلبي : كتاب الاصنام ص ٢٩ . انظر الازرقى ١/ ١٢٢ - ١٢٣ .

(٣) سورة النجم ( ٤٩ ) .

٩ - ذوالخلصة : وهو لخشم مجيلة وازد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن وكان منصوبا في ثبالة بين مكة واليمن على بعد سبع ليال وكانوا يعبدونه ويستقسمون بالآلام عنده .

وهذه أشهر اصنام العرب وهناك اوثان واصنام كثيرة كانت منتشرة في انحاء بلاد العرب . وقد كان لكل اهل دار في مكة وغيرها من المدن العربية صنم يعبدونه من دون الله وكان الواحد منهم اذا اراد السفر فأخر ما يصنعه فمضى بيته هو ان يتمسح بصنمه ويدعوه لحفظه في سفره حتى يرجع الى اهله سالما وهكذا يفعل اذا عاد من سفره فما ان يدخل بيته حتى يهرع الى صنمه ليتمسح به ويشكره ان حفظه في حله وترحاله . والى جانب ذلك كانت هناك انصاب كثيرة في اماكن متفرقة في الجزيرة العربية ويوجد منها حول الكعبة وكانت العرب تعظم هذه الانصاب ويعبدونها ويذبحون لها الذبائح ويصبون دماءها عليها تقربا الى الالهة ، وكذلك كانوا يستقسمون بالآلام عند هذه الالهة اذا ارادوا امرا ذا بال ليروا ماذا تأمر به الالهة . قال الله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (١) " وكذلك كان العرب يقدسون بعض الاشجار ويعتقدون ان ارواحا طاهرة تحل بها فتكسبها روحانية وقدسية فلذلك كانوا يعظمونها ويأتون عندها ببعض الطقوس تقربا اليها ورغبة فيما تجلب لهم من الخير . ومن هذه الاشجار المقدسة السمرة الثلاث التي قيل " ان المزي كانت تاتيناها على صورة شيطانية وكانت ببطن نخل وهي التي عضدها خالد بن الوليد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم (٢) " ومنها ذات انواط وهي شجرة عظيمة خضراء كانت قريش وجميع القبائل العربية يأتون اليها كل سنة فيعلقون عليها اسلحتهم ويذبحون عندها ويهكفون عندها يوما واحدا .

(١) سورة المائدة (٩٠) .

(٢) انظر الازرق ، اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (١/٢٧) .

ومن أراد الحج ممن ياتون الى ذات النواط وضع زاده عندها ودخل مكة بغير زاد تعظيما لها فلا يتمرض أحد لزاده حتى يرجع اليها (١) " قال الله تعالى في شأن المشركين : " واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضد (٢) " .

واما عبادة الملائكة فقد جاء في القرآن الكريم ان بعض العرب كانوا يعتقدون ان الملائكة بنات الله فسموهم تسمية الانثى وقد اتخذوا بعض الاصنام مثل اللات والعزى ومناة وزعموا انها تمثل الملائكة فعبدوهم من دون الله معتقدين انهم سيشفون لهم عند الله لما لهم من جاه عظيم ومكانة رفيعة عنده . وقد وردت آيات كثيرة في ابطال هذه الاعتقادات قال الله تعالى : " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم سكتب شاهدتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن عابدناهم مالههم بذلك من علم ان هم الا يخرصون (٣) " . وقال تعالى : " وكمن من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى . ومالههم به من علم ان يتيمنون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا (٤) " . وان هؤلاء الذين يعبدون الملائكة ويعتقدون فيها تلك الاعتقادات الباطلة كانوا يصدرون عن اوهام وظنون ان لم يشهدوا خلقهم ولم يروا احد هم قط فلا سبيل للبشر الى الاتصال بالملائكة الا لمن يشاء الله فهم عباد الله المكرون لا يسبقونهم بالقول وهم بأمره يعملون ومن خشيته مشفقون . وان هؤلاء الناس لم يكونوا يعبدون الملائكة في حقيقة أمرهم بل كانوا يعبدون الجن فهم الذين يتراءون لهم ويمدوهم في الشر فمنهم مؤمن ومنهم كافر . قال الله تعالى : " ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول

( ١ ) انظر الازرقى ( ١ / ٢٩ ) - ( ١٣٠ ) والطبرى ، تاريخ الامم والملوك ٢٩ / ٩ .

( ٢ ) سيرة مريم ( ٨١ - ٨٢ ) .

( ٣ ) سيرة الزخرف ( ١٩ - ٢٠ ) .

( ٤ ) سيرة النجم ( ٢٦ - ٢٨ ) .

للملائكة أهولا<sup>١</sup> اياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانه انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون<sup>(١)</sup> . وقد كان هناك فريق من العرب جعلوا الجن شركاء لله في تدبير شئون الكون والحياة واعتقدوا انهم يحلمون الغيب ويقدرون على دفع المكروه عن الناس او جلب الضرر لهم ، وقد تصيروهم كائنات غيبية مريضة ومخلوقات غريبة منتشرة في الاودية والشعاب والجبال وداخل الاشجار وفي الغابات وما الى ذلك وتخيلوهم في صورة البهائم ذات الشهور الطويلة وكانوا يعتقدون ان لهم قوة شائعة في الظهور والاختفاء وتغيير صورهم واشكالهم كما يشاءون فاستطاعتهم ان يتمثلوا في صورة انسان او اى نوع من انواع الحيوانات كالحيمة والنمامة والكلب وغير ذلك واذا اعتدى عليهم الانسان فانهم ينالون منه بمسه فيصبح مجنوناً وقد يهلكونه . قال تعالى في الرد على اعتقادهم الفاسدة في الجن : " وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون<sup>(٢)</sup> . وقال تعالى : " وجعلوا بينه وبين الجنة سببا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون<sup>(٣)</sup> " . واذا كان المشركون في سفر ونزلوا بواد قعر وجن عليهم الليل تموزوا بالجن ليحموهم من شر ما يخافون منه ونادوا باعلى اصواتهم ان ياعزيز هذا الوادي نموز بك من السفها الذين في طاعتك ايماننا منهم بقدره الجن على دفع المكروه عنهم او ايقاع الضرر والاذى عليهم . قال الله تعالى : " وانه كان رجال من الانبياء يعصون بربهم فزادهم ربهم رهاقا<sup>(٤)</sup> " . وقد كان المشركون يظنون ان الالهة التي اتخذوها من دون الله لها عند الله جاه عظيم ومنزلة رفيعة تجعل لها قوة التأثير في شئون الحياة فمظلم بذلك شأنها في نفوسهم وتعالى قدرها في انظارهم فجعلوا هذه الاوثان والاصنام والانصاب آلهة صغرى

( ١ ) سورة سبأ ( ٤٠-٤١ ) .

( ٢ ) سورة الانعام ( ١٠٠ ) .

( ٣ ) سورة الصافات ( ١٥٨ ) .

( ٤ ) سورة الجن ( ٦ ) .

واعتقدوا انهم هم الطريق الى الله والوسطاء بين البشر وبين الاله الخالق فتوجهوا اليهم بصنوف العبادة واقاموا لهم الهياكل وبنوا لهم البيوت واتخذوا لهم السدنة ورتبوا لهم الطقوس والمراسم وعكف لخدمتهم الكهنة حتى صاروا هم المبلغين عن هذه الالهة وكان الناس يحجون اليها ويقربون لها القرابين ويلطخونها بدماها وكانوا يعتقدون ان عبادتهم لما اتخذوه من الانداز والشركاء تقربهم الى الله منزلة وتجعلهم يحظون بشفاعتهم عنده قال الله تعالى : " ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون (١) " . وقال تعالى : " ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار (٢) " . وقد انكر الله على المشركين كل اعتقاد اتهم ومزاعمهم جاء ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم وفي عبارات بليغة وصريحة ابطلت كل ما يبررون به عبادتهم لما اتخذوه من آلهة والزمتهم الحجة حيث ان ما جعلوه لله من شركاء وانداد عباد أمثال عابديهم فهم خاضعون لامر الله وسلطانه لا يملكون شيئا وهم من امر ربهم مشفقون قال تعالى : " ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فادعوهم فليس تجيبوا لكم ان كنتم صادقين (٣) " . وقال الله تعالى : " ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يملكون . قل الله الشفاعة جميعا له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون (٤) " . وقد سجل القرآن الكريم ان شرك المشركين بالله يتناول الجانبين المهمين اللذين تقوم عليهما شئون حياة الانسان وهما جانب العبادة والخضوع والتذلل لله وجانب طاعته واتباع اوامره فالمشركون يعبدون غير الله ويتذللون لهم ويتضرعون اليهم طالبين منهم قضاء

( ١ ) سورة يونس ( ١٨ ) .

( ٢ ) سورة الزمر ( ٣ ) .

( ٣ ) سورة الاعراف ( ١٩٤ ) .

( ٤ ) سورة الزمر ( ٤٣-٤٤ ) .

حوائجهم ودفن المكروه عنهم كما يطيدون الكهنة فيما يأمرون به أو ينهون عنه فأحلوا لهم أشياء وحرّموا عليهم أخرى وأصبح ذلك على تعاقب الأجيال تقاليد وقوانين تواضع الناس على احترامها وتمظيمها وكانوا يرون أن الأخلال بها يجزع عليهم ويلات لآلهة حيث تنالهم بسوء ومضرة . يقول الله تعالى : " سيقول الذين من أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرّمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون (١) " . وقال تعالى في آية أخرى : وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباءنا ولا حرّمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين (٢) " .

ومن هذا المنطلق أصبح للمعرب تقاليد وأعراف أحلوا لأنفسهم أمورا كثيرة وحرّموا عليها أشياء أخرى ومن جملة ما أحلوا وأصبح تقاليد وأعرافا يرون جوازها زواج الرجل بزوجة أبيه بعد موته (٣) والجمع بين الاختين (٤) . وأكل الميتة والدّم ولحم الخنزير وأكل ما ذبح للأصنام والانتصاب (٥) وشرب الخمر ولعب السبب الميسر (٦) وما إلى ذلك . وكذلك من جملة ما حرّموا على أنفسهم بعض الأنعام والحرم فقد حرّموا السائبة والبحيرة والوصيلة والحامى فلا يأكلون منها ولا يركبونها ولا يحجون عليها ومنها ما هو حرام على النساء دون الرجال فلا يأكلن لحومهن ولا يشربن لبنهن وكذلك كانوا يجعلون ما يحرمون نصيبا لله وآخر للآلهة ولكنهم كانوا يراعون ما يجعلونه لشركائهم من حقوق ويقدّمونها على ما يجعلونه لله في زعمهم . يقول الله

( ١ ) سورة الأنعام ( ١٤٨ ) .

( ٢ ) سورة النحل ( ٣٥ ) .

( ٣ ) جاء تحريم ذلك في سورة النساء آية ( ٢٢ ) .

( ٤ ) جاء تحريم ذلك في سورة النساء ( ٢٣ ) .

( ٥ ) ورد ذكرها في سورة المائدة ( ٣ ) .

( ٦ ) ورد ذكرها في سورة المائدة ( ٩٠ ) .

تعالى : " قل ارايتهما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله  
 آلم له اذن لكم أم على الله تفتخرون (١) " . ويقول الله  
 تعالى : " وقالوا هذه انعام وجرث هجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام  
 حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون .  
 وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة  
 فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم (٢) " . وقال ايضا : " ما جعل  
 الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب  
 واكثرهم لا يحقلون " (٣) وقال تعالى : " وجعلوا لله ما ذرا من الحرث والانعام  
 نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله  
 وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون (٤) " . وهكذا كانوا يسمون  
 لارضاء الالهة ويضيعون حقوق الله ويفترون عليه .

وبما ان الوثنية تقوم على الايمان بتمدد الالهة فقد كان المشركون  
 ينكرون بشدة وعنفة عقيدة وحدانية الله ولا يطبقون سماعها فاذا دعوا الى ذلك  
 اجابوا الداع الى التوحيد ونسبوه الى الافتراء والاختلاق وناصبوه المدا والتكيد  
 وقد راينا ذلك بوضوح في الموقف الشديد الذي اتخذه مشركو العرب تجاه الدعوة  
 الاسلامية طيلة ثلاث عشرة سنة قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة  
 يدعوهم الى الاقرار بوحدانية الله ونبذ ما يمدون من دونه . يقول الله تعالى :  
 " وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجل الآلهة  
 اله واحد ان هذا لشئ عجاب . وانطلق الملائمة ان امشوا واصبروا على  
 آلهتكم ان هذا لشئ يراد . ماسمنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا الاختلاق (٥)

( ١ ) سورة يونس ( ٥٩ )

( ٢ ) سورة الانعام ( ١٣٨-١٣٩ )

( ٣ ) سورة المائدة ( ١٠٣ )

( ٤ ) سورة الانعام ( ١٣٦ )

( ٥ ) سورة ص ( ٤-٧ )

وقال تعالى : " انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون اثننا لتاركوا الهتنا لشاعر مجنون (١) وقال تعالى : " واذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالاخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون (٢) " واذا بحثنا عن سبب رفض هؤلاء الكفار لمقيدة التوحيد نجد انهم قد ادركوا معنى الاقرار بهذه المقيدة وعلموا انها هدم للاسس والبيادى التى تقوم عليها شئون حياتهم فى ظل الوثنية حيث ان هذه المقيدة تستلزم الاستسلام والخضوع لامر الله وحده لا شريك له فى كل شأن من شئون حياة الانسان فلاعبادة ولا طاعة الا له وحده ولا خوف ولا رجاء الا منه والخلايق جميعا عباد فلهم ائمة سواء لا يملك احد منهم نفعا ولا ضرا والله تعالى هو الذى بيده ملكوت كل شئ . واذا كانت هذه هى مستلزمات عقيدة التوحيد فانها القضاء الكامل على ما كانوا يتشبهون به من اشكال الحياة فى جاهليتهم الوثنية .

ومع هذا الانكار المنيف والرفض الشديد لمقيدة التوحيد فان المشركين كانوا يقرون بوجود الله ويحترفون بانه هو الخالق الرازق وانه هو الذى بيده ملكوت كل شئ والذى يحيى ويميت والذى يدبر امر السماء والارض . وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم أثبتت اعتراف مشركى المصرب بهذه الامور فى شان الله تعالى فقد جاءت بعض هذه الايات فى معرض السؤال والجواب وذلك لاقامة الحجة عليهم وابطال ماكانوا عليه من الكفر والشرك . قال الله تعالى : " قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل افلا تتقون تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل افلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون (٣) " . وقال تعالى : " قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والاىصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال

( ١ ) سورة الصافات ( ٣٥-٣٦ ) .

( ٢ ) سورة الزمر ( ٤٥ ) .

( ٣ ) سورة المؤمنون ( ٨٤-٨٩ ) .



فأنى تصرفون (١) . وقال تعالى : " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله  
فأنى يعفكون (٢) . وكذلك كان المشركون يلجأون الى الله فى الشدائد ويتضرعون  
اليه ويدعونه مخلصين له الدين وينسون ما يشركون فى تلك الفترة الحرجة التى تحدى  
بهم المخاطر واذا ما أنعم الله عليهم وكشف ما بهم من ضر وانجاهم ما كانوا فيه  
من المهالك فسرعان ما يعودون الى شركهم مرة اخرى وينسون الله الذى استجاب  
لدعائهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : " واذا من الانسان ضر دعا ربه مضيئاً  
اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل  
عن سبيله (٣) . . . الآية . ويقول تعالى : " فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله لئلا  
يخلصهم له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون (٤) " وقال الله تعالى :  
" هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة  
وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيطوا  
بهم دعوا الله مخلصين له الدين لكن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما  
انجاهم اذا هم يفتنون فى الارض يخفى الحق (٥) . . . الآية . وان هذا الاقرار الذى  
سجله القرآن الكريم على المشركين زود لالتين واضحتين احدهما ان اقرارهم بكل  
ما تقدم فى شأن ربهم الله تعالى وحده يعنى ان الالهة والشركاء الذين يعبدونهم  
من دون الله لا يفعلون من ذلك من شئ فهم اذا مخلوقات امثال عابد بهم وهم  
خاضعون لسلطان من هو فوقهم ومفتقرون الى من هو غنى عن المالين ولما انتفى  
عنهم وصف الربوبية وثبت انهم من مخلوقات غيرهم تبين انهم ليسوا اهل لان يكونوا  
آلهة ولا مستحقين لشئ من العبادة والطاعة . واما الثانية الداللتين فهى

( ١ ) سيرة يونس ( ٣١-٣٢ ) .

( ٢ ) سورة الزحرف ( ٨٢ ) .

( ٣ ) سورة الزمر ( ٨ ) .

( ٤ ) سورة المنكبوت ( ٦٥ ) .

( ٥ ) سيرة يونس ( ٢٢-٢٣ ) .

فهو ان الاقرار لله وحده بالربوبية يستلزم بطبيعة الحال الاقرار له بالا لوهيية  
والوحدانية ان هو الذى اليه الخلق والامر كله ومن هو شأنه هكذا لا يكون كمن ليس  
بيده شيء، واذا لم يكن الرب الخالق لكل شيء هو وحده الذى يستحق ان يكون  
الها يقصد بالمباداة والطاعة فمن ذا الذى يستحق ذلك من مخلوقاته ؟ فلذلك  
انكر الله تعالى على المشركين عبادتهم للالهة والشركاء بعد ان اقرؤا له بالربوبية  
جاء ذلك فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : " أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم  
يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا انفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهسى  
لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتهم ام انتم صامتون ان الذين تدعون من دون الله  
عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها  
أم لهم أيدي يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا  
شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون (١) " . وقوله تعالى : " أفمن يخلق كمن لا يخلق  
أفلا تذكرون (٢) "

وقوله تعالى : " يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله  
لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلمهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضصف  
الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز (٣) " .

وكان العرب يعتقدون ان ليس وراء الحياة الدنيا حياة أخرى فالانسان  
عندهم يعمل فى هذه الحياة ويلقى جزاءه فيها ان كان خيرا او ينال عقابه ان  
كان شرا . فقد يضيع عمله فلا يلحق له جزاء وقد يستطيع ان يفلت من يد العذاب  
بأى سبب من الاسباب . وهكذا يمض طيل حياته حتى ينتهى امره بالموت فيصبح  
عظاما بالية يستحيل ترابا فلا يمكن ان يعود الى حياة أخرى بعد ذلك بأى حال  
من الاحوال . يقول الله تعالى فى شأن انكار مشركى العرب لعقيدة الهى

( ١ ) سورة الاعراف ( ١٩٥-١٩١ )

( ٢ ) سورة النحل ( ١٧ ) .

( ٣ ) سورة الحج ( ٧٤-٧٣ ) .

والحساب : " وقالوا ان هـى الـا حـياتنا الدنـيا ومانـحن بصـموشـين (١) " . وقال  
تعالى : " وكانوا يـقـولون اـذا مـتنا وكـنا ترابـا وعـظامـا انا لمـبـموشـون أو آباءنا  
الاولون . قل ان الاولين والآخرين لمـجمـعون الى مـيقاتـيوم معلوم (٢) " . وقال  
تعالى : " زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى ورسى لتبـمـثن ثم لتنبـيـن بما عـلـمـتـم  
وذلك على الله يسير (٣) " . وبناء على هذا الاعتقاد الباطل كانت الحياة وما فيها  
من مادة وزخارف هـى الفـايـة عند هؤلاء الناس . فان هم الانسان وجهـه  
وسمـيـه فى الحـيـاة كل ذلك موجه نحو الحـصـيل على مـتـعة الحـيـاة ما وسـمـه ذلك  
لان الحـيـاة فى اعتقاد هـ فرصة لنـتـعـوض وهـكذا استحوذت الحـيـاة وزخارفـها  
على افكار الناس وملكـت عليهم نفوسهم واصـبـحوا يصدرون فى جميع شئون حياتهم  
عن اـيـحاءات المادـية المتـطـرفة .

هذا وان الوثنية العربية بجميع انواعها واشكالها - على النحو الذى سبق  
تفصيله - لم تكن تقوم على اساس من العلم والحق ولم يأت اصحابها كتابا حتى  
يكونوا على بينة من امرهم ولكـثـم كانوا يستندون فى اعتقاد انهم وتصوراتهم  
الى الظنون والاهام ويتبعون الاهواء ويحسبون انهم على هدى من الله حيث  
كانوا يمتدقون انهم على آثار ابا انهم الا قد مين الذين كانوا على عبادة الطـس  
الحق واتبعوا طـة ابراهيم عليه السلام . وقد فاتهم انهم لم يتبعوا الا ابا انهم  
المتأخرين الذين انحرفوا عن الحق واتخذوا من دون الله الهة اخرى يقول  
الله تعالى عنهم : " وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان  
هم الا يـخـرصون أم آتينا هم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا انا وجدنا  
آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون (٤) " . قل رأيتم ما تدعون من  
دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك فى السموات ايتوني بكتاب من

( ١ ) سورة الانعام ( ٢٩ ) .

( ٢ ) سورة الواقعة ( ٤٧ - ٥٠ ) .

( ٣ ) سورة الشفـاين ( ٧ ) .

( ٤ ) سورة الزخرف ( ١٩ - ٢٢ ) .

قبل هذا أو إثارة من علمان كنتم صادقين (١) . وقال تعالى : " ألا إن للفساد من في السموات ومن في الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتحملون الا الظن وان هم الا يخرصون (٢) " . الى غير ذلك من الايات التي تبين الاسس الفاسدة التي تقوم عليها الوثنية وما يتمسك به المشركون من حجج واهية . وهكذا كان المجتمع العربي يفتن بالاهام والخرافات والاساطير قبل ظهور الاسلام وقد نشأت في اجواء هذا المجتمع امراض نفسية كثيرة قادى بعض الناس الملهم بالغيب والقدرة على التأثير في الاقدار فنشأت الكهانة والمراقة ووجد سدنة المعابد طريقا سهلا لكل اموال الناس بالباطل ونشر الخرافات والضلالات وكان لهم شان عظيم واثر كبير في تكدير صفو الحياة الدينية وابعاد الناس عن صراط الله المستقيم .

وتجدر الاشارة هنا الى ما ذهب اليه الدكتور احمد شلبى في دراسته للوثنية العربية . فقد عقد لذلك فصلين في كتابه موسوعة التاريخ الاسلامى أثبت ففى الفصل الاول ان عبادة العرب للاصنام لم تكن عبادة ذاتية حيث لم ينسوا اله ابراهيم وكانوا يعبدون الالهة تقربا اليه فاضطربت حالهم بين موحدين وبين وثنيين وفى ذلك يقول : " وينبغى ان يتضح ان عبادة العرب للاصنام لم تكن عبادة ذاتية انما كانت فى نظرهم وسيلة يتقربون بها الى الله ( ما تمجد هم الا ليقرّبونا الى الله زلفى ) (٣) وهذا دليل على انهم لم ينسوا اله ابراهيم حتى حينما كانوا فى ظلماتهم يحمهون . وما يؤكد ذلك أن الهتهم التى انتشرت فى الجزيرة العربية والتى اقاموا لها الهيوت ورتبوا لها السدنة لم تشغلهم عن الكعبة بيت ابيهم ابراهيم فظلوا لها يحجون كما سبق القول . والدارس لذلك الموضوع يدرك اضطراب

( ١ ) سورة الاحقاف ( ٤ ) .

( ٢ ) سورة يونس ( ٦٦ ) وسورة الشورى ٢٢٨-٢٢٩ .

( ٣ ) سورة الزمر ( ٣ ) .

الحرب بين موحد ين على دين ابراهيم وبين وثنيين عبدة للاصنام . ويقول ابن الكلبي (١) : ويوحده ونه بالتلبية ويدخلون معه الهتهم ويجعلون طكها بيده ويقول الله عز وجل : " وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون " (٢) . أى ما يوحده وننسى بمعرفة حق الا وجعلوا مع شريك من خلق " (٣) . وان كل ما تقدم تفصيله فى هذا الفصل يفنيها عن الاغاضة مرة اخرى فى هذا الموضوع . فالآيات القرآنية التى اوردناها سابقا تدل دلالة صريحة على ان الحرب كانوا يمحذون من دون الله آلهة اخرى ولما انكر عليهم الاسلام ذلك قالوا انهم يرجون وراء عبادتهم للآلهة التقرب الى الله درجة ومنزلة ، ثم انهم قد نسبوا الى ابراهيم عليه السلام وان كانوا يحجون الى بيت الله الحرام ويأتون ببعض امور لها صلة بدين ابراهيم فقد كانوا يقصدون بذلك عبادة ما اتخذوه الهة من دون الله ويعتبرونه تقاليد وعادات توارثوها كابرا عن كابر وهكذا انصرفوا عن ملة ابراهيم وعادوا مشركين . وان ابراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين بل كان حنيفا مسلما مطيعا لله تعالى يقول الله تعالى : " ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين " (٤) . وان ما قاله الدكتور احمد شلبى من اضطراب أمر الحرب بين موحد ين على دين ابراهيم وبين وثنيين عبدة للاصنام وان عبادة الاصنام لم تشغل العرب عن دين ابراهيم بل ظل على صلة به (٥) كل ذلك يتعارض مع صريح الآيات التى تدل على ان الحرب لم يكونوا على دين ابراهيم حيث لم يقرؤا بمقيدة التوحيد ولم يكونوا يمحذون الله حق عبادته وانما اتخذوا آلهة اخرى متمردة كانوا يحيدونها من دون الله وكان هذا من الواضح بحيث لا يختلف فيه احد . فكيف يمكن القول بحد ذلك بأنهم لم ينشغلوا عن دين

( ١ ) كتاب الاصنام ص ٧ .

( ٢ ) سورة يوسف ( ١٠٦ ) .

( ٣ ) موسوعة التاريخ الاسلامى ١ / ١٧١ - ١٧٢ .

( ٤ ) ال عمران ( ٦٧ ) .

( ٥ ) المصدر السابق ص ١٧٢ .

ابراهيم ولم يرغبوا عنه . وقد دعا ابراهيم ربه ان يعمده هو وذريته من عبادة غيره تعالى . وقد تبرأ ممن ينحرف عن ملته ويشرك بالله تعالى غيره . جاء ذلك في قول الله تعالى : " وان قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد امانا واجنبني ومن اعبد الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم (١) " . وفي الفصل الثاني تحت عنوان عبادة الاصنام ليست جدية يقول الدكتور احمد شلبى : " ان الذى يقرأ بامعان كتاب الاصنام لابن الكلبي يصل الى حقيقة هامة هي ان عبادة الاصنام عند العرب لم تكن جدية وانها لم تتحقق في قلوبهم وان الثور على الاصنام كانت تحدث من حين الى آخر فيطيح الثائر براس صنمه وينهال عليه تهشما وسخرية وليس هذا فقط من العقلاء المفكرين كزيد بن عمرو وورقة بن نوفل وغيرهما بل ان الثور على الاصنام كانت تحدث من عابد بها وتابعها فكان المأبد ينقلب فجأة الى ساخر ساخط لادنى سبب من الاسباب ما يدل على ان عبادتهم للاصنام كانت في كثير من الاحوال سطحية لا تعمق فيها (٢) . وقد اورد على ذلك أدلة من كتاب ابن الكلبي منها ان لقبيلة كنانة صنما يقال له " سمد " فأتى اليه رجل منهم ليوقف ابله عليه تبركا بذلك فيها . وعندما دنا من الصنم نفرت الابل وتفرقت وانطلقت في الفلاة هاربة من شدة الخوف مما رآته على الصنم أثر دماء الذبائح فغضب الرجل حين ادرك ضعف الصنم وعلم ان لا تنفع في الاتيان اليه وتناول حجرا وزماه به وقال لا بارك الله فيك اله انفرت على ابلى ثم تركه وذهب في طلب الابل حتى جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا الى سمد ليجمع شملنا      فشتتنا سمد فلانحن من سمد  
وما سمد الا صخرة لا قوى لها      ترجى ولا تدعى لى ولا رشد (٣)

( ١ ) سورة ابراهيم ( ٣٥ - ٣٦ ) .

( ٢ ) موسوعة التاريخ الاسلامي ١ / ١٧٢ - ١٧٣ .

( ٣ ) انظر ابن الكلبي - كتاب الاصنام ص ٣٧ .

وكذلك قصة خزاعي بن عبد نهم من قبيلة مزينة وكان لهم صنم يقال له " نهم " تولى خزاعي هذا امر سد انتة ولكنه عندما سمع بالدعوة الاسلامية ثار على صنم قبيلته فكسره حين تبين له حقيقة أمره وأنشأ يقول :

ذهبت الى نهم لا ذبح عنده      عشيرة نسك كالذي كنت أقفل  
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها      اهذا اله ابكم ليس بمقتل  
ابيت فديتى اليوم دين محمد      ورسى الاله الماجد المتفضل (١)

وجاء فى قصة امرى القيس انه عندما قتل بنو اسد اياه واراد غزوهم للاخذ بثأره عرج على صنم قومه الذى يقال له ذو الخلصة واستقسم بالازلام عنده فى أمر أعدائه فخرج السهم " الناهى " اى الامر بعدم الاقدام على الغزو والاخذ بالثأر من خصمه ولما اعاد الامر فى المرة الثالثة وجاء ناهيا عن الحرب والانتقام كسر القداح وضرب بها وجه الصنم من شدة الغضب وأبى إلا أن يأخذ بالثأر ومضى فى طريقه وهو ينشد :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا  
مثلى وكان شيخك المقبورا  
لم تنه عن قتل الفسدة زورا (٢) .

وهذا بعض ما يستدلون به على عدم جدية العرب فى عبادتهم للاصنام حيث كانت سطحية لا تمق فيها . ونحن نعلم ان الوثنية عبادة جافة لا روح فيها ولا يمكن ان تقبلها الفطرة السليمة باى حال من الاحوال لانها قائمة على اساس غير سليم حيث انها تركز على مجموعة من الظنون والاهام والخرافات والتهاويل فلذلك كلما احس الانسان بنفحة من الحرية الحققة وتجرد من الاهواء وتفكر فى امر الوثنية بجديّة

( ١ ) انظر ابن الكلبي كتاب الاصنام ص ٣٧ .

( ٢ ) موسوعة التاريخ الاسلامى ١ / ١٢٤ .

وعمق فانه يدرك ان ما يعبد من اصنام واثان وانصاب وغير ذلك لا يستحق ان يكون  
 لها ان لا يطك نفعا ولا ضرا لنفسه ولا لغيره فعبادة مثل هذا الاله الذى ليس  
 بيده شئ يتمارض مع الفطرة السليمة والعقل الراجح بشكل ظاهر لا لبس فيه  
 ولا غموض . وهذا ما رأيناه فى شان هؤلاء الذين ثاروا على اصنامهم وانكروا احقيتها  
 للالهية بمد ان كانوا لها عابدين فان الذى وقف ابله عند "سعد" يروجو غيره  
 وبركته وفوجى " بخيبة الامل حين ظهر له عجز الهه فى تلبية حاجته وراجع عقله  
 فى امر مثل هذا الاله الضعيف المجاز الذى لا يطك شيئا فتبين له ان الذى  
 ينبض ان يرجى ويدعى انما هو الرب القادر المالك المتفضل . وكذلك حال امرئ  
 القيس فعلمية الاستقسام بالازلام عند الالهة قائمة على الخرافات والكذب والتدجيل  
 فالاصنام لا تعلم الغيب ولا تأثير لها فى تدبير شئون الكون والحياة وكذلك السدنة  
 الذين ييلفون عنها فالخرابة أن نرى من عبدة الاصنام من يكذبها اذا جاء  
 قضاءؤها متعارضا مع صلحته ويواه . ولكن هذه الحالات المفردة لا تتخذ دليلا  
 على عدم جدية الحرب عامة فى الايمان بهذه الاصنام وعبادتها . واما ما كان من امر  
 خزاعي الذى تنكر لصنم كنانة عند ما سمع بالدعوة الاسلامية فليس ذلك ايضا  
 حجة على عدم جدية الحرب فى عبادة الاصنام لان الرجل لم يثر على الصنم الا بمصد  
 ان جاءه العلم وادرك حقيقة ما كان عليه من الكفر والضلال . وليس هناك شئ  
 أدل على جدية الحرب فى عبادتهم لما اتخذوه من آلهة من دون الله من ايمانهم  
 الشديد بهذه الالهة واهتمامهم بامرها واصرارهم على عبادتها رغم ما اقامه الاسلام  
 عليهم من حجة بالغة ودحضه لجميع مزاعمهم ومعتقداتهم الباطلة . ويتضح لنا ذلك  
 فى الموقف الشديد الذى اتخذته مشركو الحرب تجاه الدعوة الاسلامية طوال ثلاث  
 عشرة سنة فى العهد المكي من حياة الدعوة . ولو انهم كانوا مستخفين بدينهم  
 غير جادين فيه لما وقفوا ذلك الموقف المتصلب وتركوا دينهم عند ما جاءهم الهدى من  
 الله . فالامر الذى لا جدية لصاحبه فيه يسهل عليه تركه لاي سبب من الاسباب .  
 وما رأيناه من حالة مشركى الحرب فى تمسكهم الشديد بالوثنية وتمصيمهم لها واصرارهم  
 على البقاء عليها ومعاداتهم الشديدة لكل من اراد تحويلهم عنها لاهوا كبر دليل على



ان عباد تهم للالهة كانت متأصلة في قلوبهم لا يتخلون عنها او يقبلون بها بدلا في سهولة ويسر . ولا يمتنع ذلك نفى وجود بعض حالات يقوم فيها بعض الافسران بالشيرة على الالهة وانكار صلاحيتها للعبادة وذلك بفعل عوامل خارجية قاهرة .

هذا وجانب الوثنية وجدت في بلاد الحرب قبل مبث الرسول صلى الله عليه وسلم ديانات اخرى منها ما يرجع في اصله الى الرسالات السماوية السابقة كالنصرانية واليهودية ومنها ما لاصلة له بالسما كالمجوسية والصابئة ولكن كتب التاريخ تذكر ان المجوس والصابئين كانوا قلة قليلة جدا . ولقد كان العرب على صلة باهل هذه الديانات الذين كانوا يقيمون في مناطق الجزيرة وكان لهم أتباع وانصار من القبائل العربية رغم قلة عددهم وبضالة شأنهم في جانب الوثنيين الذين كانوا اغلبية ساحقة بين سكان الجزيرة آنذاك . وانا لنجد في القرآن الكريم - في السور المكية منه والمدنية على السواء - ايات كثيرة تخاطب اهل هذه الديانات وتحاجهم وتبطل مزاعمهم وتبين نفاق ارائهم ومعتقداتهم وتقيم الحجج القاطعة على بطلان ما يمتسكون به ، كما تستعرض قصص أنبياء الله السابقين ومنهم الرسولان موسى وعيسى عليهما السلام اللذان تزعم اليهود والنصارى انهم ينتمون اليهما . فهذه الايات البينات تدل بلا شك على وجود تلك الطوائف في بلاد الحرب وان العرب كانوا على اتصال بهم وعلى معرفة بدياناتهم قبل ظهور الاسلام ومن هذه الايات قوله تعالى : " ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد (١) " . وقوله تعالى : " لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورباننا

وأنهم لا يستكبرون (١) . " الى غير ذلك من الايات التى يأتى ذكرها فى ثنايا هذا الفصل . ويؤكد قولنا بان الحرب كانوا على اتصال باهل هذه الديانات انهم كانوا على معرفة بما كان بين كل فرقة من خلاف وتفرق ونزاع وما بين أهل الديانات جميعا من تباعد ومعاداة حيث كانت كل فرقة تعتد بأرائها وتتمسب لصفتها وتترى بالآخرين الدوائر . وقد جاء فى بعض الايات انهم كانوا يتندرون باصحاب هذه الديانات وينمون عليهم اختلافهم وتنازعهم وتفرقهم بعد ان جاءهم الهدى من الله ويتطلعون الى ظهور نبي منهم كما ارسل الله الامم من قبلهم فيقسمون بالله ان لو جاءهم نذير ليكونن اهدى من هؤلاء الامم من حولهم يقول الله تعالى فى شأن هؤلاء : " واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا . استكبارا فى الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا (٢) " . وقد كانت اليهودية معروفة فى بعض مناطق بلاد الحرب منذ زمن بعيد لم نقف على تاريخ دخولها فيها على وجه التحديد . وقد استقرت جماعة من اليهود فى القسم الشمالى من الجزيرة فى يثرب وخيبر وفدك وثيما ووادى القرى وكان بيثرب ثلاث قبائل من اليهود هم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . وكذلك كان هناك يهود فى اليمن وقد نشطت فيها الدعاية اليهودية . واحتدم فيها الصراع بين اليهود والنصارى واشتد بينهم النزاع والتنافس من اجل كسب الانصار والاتباع ، وقد استمر الحال هكذا حتى فترة احتلال الاحباش حيث قويت الدعاية المسيحية بعد ذلك ورجحت كفتها على اليهودية بسبب قوة الاحتلال التى كانت تعمل لنشرها وتمكينها فى البلاد ولكن رغم ذلك لم تستطع اقصاص اليهود عن حدة الصراع وظل لهم وجود باليمن حتى فترة دخول الاسلام اليها وكان بها آنذاك جالية يهودية كبيرة . وقد اعتنق اليهودية بعض القبائل

( ١ ) سورة المائدة آية ( ٨٢ ) .

( ٢ ) سورة فاطر آيات ( ٤٢ - ٤٣ ) .

المربية في اليمن يذكر المؤرخون منهم بنى كنانة وكندة وبنى الحارث بن كعب  
وكذلك انتشرت اليهودية في قبيلة حمير حتى لقد اعتنقها الطاكز ونواس الحميري  
ملك اليمن وكان لها سندا وظهيراً وبذل مجاهدات كبيرة في سبيل نشر اليهودية  
وقد تبعه كثير من رعيته (١) .

وأما النصرانية فكانت معروفة أيضاً في بعض مناطق الجزيرة وقد دخلت  
اليمن منذ وقت مبكر وقويت شوكتها وعظم شأنها بعد احتلال الاحباش لها ،  
فاعتنقها بعض القبائل المربية كان أشهرها قبيلة ربيعة وقضاة الذين كانوا  
يكثرون التردد على بلاد الروم للتجارة وكذلك تبعها كثير من بنى تغلب  
وتنوخ وحمير وطي . وكان للنصارى مركز هام في نجران وقد انتشرت المسيحية  
بين أهلها . ويذكر ابن هشام ان ذانواس ملك اليمن قاد حملة عنيفة لتحويل  
الناس بالقوة وقد وجه قوة عسكرية كبيرة الى نجران ولما سقطت تحت رحمة سيوفهم  
خيروا الناس بين قبول اليهودية أو الموت وقد لقي هؤلاء الذين رفضوا قبول  
اليهودية من ايدى هذه القوات أشد العذاب واليهام العقاب وقد اضطهدوهم  
وحرقوهم وقتلواهم شر قتيل (٢) . يقول الله تعالى في شأن هؤلاء : " قتل  
أصحاب الاخذ والنار ذات الريق انهم عليها قعود وهم على ما يفعلون  
بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٣) " .

وأما دولتنا الفساسنة والحيرة فقد دخلتهما المسيحية وانتشرت فيهما  
فدولة الفساسنة كانت وثيقة الصلة بدولة الروم منذ زمن طويل وقد ذكرنا سابقاً  
انها وقمت في النهاية تحت احتلال الروم فمن طبيعة الامور ان تكون المسيحية  
قد دخلت الفساسنة عن طريق علاقاتها مع الروم ثم نشطت الدعاية المسيحية  
بعد احتلال الروم لها فانتشرت المسيحية بين سكانها .

( ١ ) انظر الدكتور احمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى ١ / ١٧٤ ، وكذلك حامد

عبد القادر . الاسلام ظهيره وانتشاره ص ٤١-٤٢ .

( ٢ ) انظر كتابه " سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ١ / ٣٥ . وكذلك الاسلام ظهيره

وانتشاره ص ٥٧-٥٨ .

( ٣ ) سورة البروج (٤-٨) .

واما الحيرة فكانت اهم مراكز المسيحية ببلاد العرب وقد انتشرت  
المسيحية بين الطائفة المعروفة بالحياد وهم قبائل شتى من العرب استقروا  
بالحيرة وكانوا اهم سكانها وقد اجتمعوا على المسيحية . ولما تنصر ملوك هذه  
الطائفة قويت شوكة المسيحية في الحيرة وكثرت فيها البيع والاديار (١) كسان  
اشهرها دبر هند الكبرى الذى بنته هند ام الملك عمرو بن المنذر . واما عمن  
وجود اليهود والنصارى في مكة قبل الاسلام فانا لنجد في بعض السير المكية  
آيات كثيرة تدل على وجود اجانب في مكة كان يطلق عليهم اسم اهل الكتاب،  
والمعروف ان اهل الكتاب هم اليهود والنصارى . يعض هذه الايات تتحدث  
عن قصة موسى (٢) عليه السلام مع فرعون واخبار بنى اسرائيل مما يدل على أن  
هناك صلة بين اهل مكة وبين اليهود وانهم على معرفة بدياناتهم .

...

---

(١) انظر جرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢٠٠ .  
(٢) سيرة طه (٨-٩٩) وكذلك سيرة القصص (من اول السيرة الى اية ٤٦) .

# الباب الأول

المجتمع الإسلامي الأول المثالي  
وعناصر تكوين الجيل الأول  
وأُسُس بناء  
المجتمع المسلم الأول

## الباب الاول

### المجتمع الاسلامي الاول في صورته المثالية

في الفصل التمهيدى الذى قد مناه بين يدى هذا البحث تحدثنا عن حقيقة الجاهلية ومظاهرها المتفشية في حياة الناس قبل قيام دعوة الاسلام، ونحن الان بصدد الحديث عن التحول الضخم والتغيير الشامل الذى أحدثه الاسلام في حياة البشر منذ ان بزغ فجره على العالم واعتنقه الجيل الاول من هذه الامة وامتلات قلوبهم بالايمان بالله فتغيرت حياتهم من اساسها وارتقت ارواحهم وسمت نفوسهم واتسمت مآركهم وتطهرت اخلاقهم وتحولت انماط حياتهم فظهروا لبطن وارتفعوا من الحضيض الى المستوى المائق الرفيع من الدين والاخلاق الفاضلة مما حير العقول وعجز عن تحليله عباقرة الفلسفة وعلماء الاخلاق والاجتماع حيث لا عهد للبشرية جمعاء بدعوة كهذه في قوة تأثيرها على النفوس وكما لها وشموليتها من حيث محتوياتها ومضامينها وغاياتها وفي نجاحها الباهر الذى حققته بسرعة فائقة ولم يكن لنا بد لكن يأخذ هذا الحديث صورته الكاملة الواضحة في الازمان من التقديم له بالحديث عن حقيقة الجاهلية ومظاهرها وحالاتها التى عاشها الناس قبل مجئ الاسلام والتى يعيشونها فى كسل المجتمعات الجاهلية المتكررة على مدار التاريخ حين يعتمدون عن هدى الاسلام ونوره الذى يبدد ظلمات الجاهلية ويزهق الباطل بما جاء به من الحق المبين وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال : " لا يعرف الاسلام من لم يعرف الجاهلية " .

ان ذلك التغيير الجذرى العميق الذى حدث فى نفوس الرعية الاول من المسلمين وظهرت له آثار ملموسة واضحة فى كل مناحى حياتهم كان أغرب ما شهدته تاريخ البشرية كله من انقلابات وتحولات لانه عظيم وشامل . ولم تكن المنظمة التى اتسم بها هذا التحول العظيم محصورة فى جانب معين محدود ولكنه

انقلاب كل شئ " فيه عظيم وغريب يبهر العقول ويجعلها في حيرة من أمرها ، اذا نظرت اليه لا أول وهلة رآته امتدادا لدعوة النبيين السابقين فلم يكن غريبا في نوعه لما سبقه من رسالات سماوية متعددة " قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الي وما انا الا نذير مبين (١) " . ولكنها حين تنظر اليه مرة أخرى من زوايا متعددة بيد ولها شيئا عظيما وغريبا في عمقه وسمته وشموله وقوة تأثيره في النفوس ، عظيما في وضوحه وجلاله وقربه الى الافهام غريبا في قوته وسرعة انتشاره ومدى ما حققه من نجاح باهر وانتصارات عظيمة خلال فترة قصيرة من الزمن .

ولقد كانت البشرية في فوضى من الافعال والاخلاق والسلوك والسياسة والاجتماع والاقتصاد وكانت الديانة مجموعة خرافات وترهات وضلالات هيست كان الناس يصيدون بصغرها خلق لا جلهم ويخضع لارادتهم وتصرفهم ولا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا . كما ان عبادتهم لاهتهم المختلفة المتعددة كانت سطحية طافية في واقع حياتهم لم يكن لها سلطان على ارواحهم ونفوسهم ولا لها تاثير في اخلاقهم وشئون حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ولكنها كانوا يصيدون عن الهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء ويتعبدون للقبيلة ويخضعون لسلطانها في غيها ورشدها سواء يهتدون بالتقاليد والاعراف والحداد وهذه كلها هي الطواغيت التي كانت تسيطر على مشاعر الناس وافكارهم وتشكل سلوكهم في واقع الحياة .

ولقد نقل الاسلام البشرية من المعارف العملية الباطلة التي تمسك بها وتبنى عليها شئون حياتها الخاصة والعامة الى معرفة عميقة واضحة ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ذات تاثير كبير على الاخلاق والاجتماع وجميع مناحي الحياة البشرية ، والنقلة التي احدثها الاسلام في نفوس أتباعه كانت نقلة

بعميدة جدا من حياة جاهلية جهلاء الى حياة اسلامية ظاهرة سعيدة من عدم المعرفة الحقبة بالله والتوجه بالمبادئ الى غيره من مخلوقاته مرفض اتباع ما أنزل الله والتحليل والتحريم من عند انفسهم حسبما تمليه الاهواء والنزعات والمصالح المتضاربة ، كانت نقلة من ذلك كله الى معرفة عميقة بالله وحده لاشريك له وايمان راسخ بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وطاعة مطلقة لا وامر الله ونواهيه ابتغاء وجهه ومرضاه .

ففي الحياة الدينية كان التحول واضحا جدا من عبادة المادة كلها والتعلق بالخرافات والضلالات الى عبادة الله الواحد الاحد فهو نقلة بعميدة رفعت من احساس المسلمين وسمت بنفوسهم وارتقت بمقولاتهم وحلقت بها في سماء الايمان والعبودية الحقبة لله . وفي الحياة السياسية كانت النقلة من حياة فوضوية يحكم الناس فيها القوة في جميع شئونهم دون تفكير حتى اصبحت دستورا وقانونا يتبعونه ويحترمونه ويخضعون لسلطانهم ويمشيون في ظله في اضطراب وعدوان مستمر باسهم بينهم شديد وقلوبهم شتى والقبائل في حروب دائمة او هدنة متعارضة ، وكانت بعض القبائل العربية تقوم بغارات السلب والنهب والدمار والعدوان بل وجدت في جزيرة العرب جماعات الصماليك الذين يعيشون على أعمال النهب والسلب حتى أصبح ذلك عندهم في جنح الظلام او في وضوح النهار عملا عاديا لا يمتنعهم منه إلا شدة الحراسة ومقظة الحراس وشدة انتباههم .

وكان من أبرز صفات العرب الاخذ بالثأر والقسوة في الانتقام ، فمن ذلك كله نقلهم الاسلام الى حياة ظاهرة هادئة يستسلمون لاوامر الله ويخضعون لسلطانهم ويدعون للحق ويتبعون ما شرع الله لهم من النظم والقوانين ويلتزمون حدود ما أنزل الله حتى اصبحت الشريعة الالهية دستورهم والعدالة الربانية رائدهم فلا افتيات منهم في الرأي ولا نزاع مع الحكم الالهي ولا خيرة لهم بمسدد



الامر ولا تحاكم الى الطواغيت ولا صدور عن الهوى ولا تمسك بتقاليد الابرار والاحقاد ولا مشاقة للرسول وانما طاعة لله تعالى ونزول عند امره ونهييه خشما ركما يبتغون فضلا من الله ورضوانا . " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركبا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما " (١) . " والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها واتابوا الى الله لهم البشري فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولوا الالباب " (٢) .

وقد كان الرعيل الاول من المؤمنين في العهد المكي من تاريخ الدعوة الاسلامية يقاسون اشد انواع المذاب ويسامون أسوأ النكابة والاذى والاضطهاد حتى مات منهم تحت وطأة المذاب من مات دون أن يدافعوا عن انفسهم ممن اعتدات قريش حيث لم يكن الامر قد اتاهم بذلك ولم يسجل التاريخ حادثة واحدة دافع فيها مسلم عن نفسه طول ذلك العهد وانما سجل عنهم صبرهم واحتمالهم اقسى الممت والنكال والاضطهاد في سبيل الدعوة دون ان يثنيهم ما يلاقونه من ذلك عن وجهتهم الصحيحة او يوهن من عزائمهم القوية حتى أذن الله لهم بالهجرة الى المدينة والدفاع عن انفسهم وحريةهم الدينية " أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بشير حق الا ان يقولوا ربنا الله . . . (٣) الآية . وتلك قمة عالية في الطاعة والانقياد لامر الله .

( ١ ) سورة الفتح آية ( ٤٩ ) .

( ٢ ) سورة الزمر آيتا ( ١٧-١٨ ) .

( ٣ ) سورة الحج ( ٣٩-٤٠ ) .

ومن الناحية الاجتماعية والاخلاقية فقد نقل الاسلام العرب من الحياة القبلية التي يخضع فيها الانسان لتفكير جماعته وسلطانها يسالم من سالمين ويقاتل من قاتل دون ان يسأل نفسه مرة واحدة لماذا يطاوع قبيلته في خيبرها وشربها وهي حياة طمست فيها شخصية الانسان العربي لدرجة ان كيانه ووجوده مرتبط بوجود قبيلته وعزها وسيادتها ان هي تحركت تحرك معها وان سكنت لزمه السكن وان اضمحلت وهلكت فالويل له ان بقى بعدها الا ان يحتمس ببعض قبيلة اخرى تذب فيها شخصيته مثلما يذب الملح في الماء . من هذه الحياة التمسعة نقلهم الاسلام الى حياة اخرى افضل اتضحت فيها عناصر تكوين شخصية الفرد ومقوماته وتحديد مسؤولياته وواجباته تجاه نفسه والمجتمع الذي يعيش فيه . وكان لزاما على كل فرد ان يتبع طريق المحسنين البررة ويتبرأ من الاشرار العصاة ولو كانوا اقرب الناس اليه وأعزهم لديه ان لا يحفيه من المسؤولية كونه اتبع غيره مهما كان ذلك الفير " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واهوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون " (١) . . . " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب " (٢) . وهذه نقلة عظيمة من افق ضيق من الولاة للقبيلة وحب الال والعمشيرة والطال بما هو فوق الحد اللازم للمساواة آفاق انسانية عالية وحياة روحية سامية تجعل بني البشر أسرة واحدة تحت راية الايمان بالله وتحدد مسؤوليات كل فرد وواجباته تجاه الآخرين على أساس من الاخوة والمحبة والعدالة من اجل تحقيق السعادة والامن والاستقرار والسلام للبشرية " قل ان كان آباؤكم / واهوانكم / واخوانكم / وازواجكم بعشيرتكم واموالا اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين (٣) " . وكذلك نقل الاسلام العرب من نظام الطبقات وما يتبعه من الاعتداد بالفوارق الاجتماعية

( ١ ) سورة التوبة آية ( ٢٣ ) .

( ٢ ) سورة الجاثية ( ٢ )

( ٣ ) سيرة التوبة ( ٢٤ )

والامتيازات الطبقيّة والمصيّبات القبلية والقومية والعرقية الى المساواة الانسانية والاخوة الروحية وقضى على جميع عوامل التفرقة بين عباد الله وجعل الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لاحد هم على الآخر عند الله الا بالتقوى والحصل الصالح . والى جانب ذلك كانت الحياة الاباحية والمهر والفسوق التي تميشها العرب في الجاهلية فحولها الاسلام الى حياة الطهر والعفة حتى اصبح الرجل الذي عاش عمره المديد في الفسق والفجور والشهوات وأخذ منها بالنصيب الوافر ينتقل بالاسلام الى مرحلة بعيدة في الطهر والعفة فيفيض البصر ويبعد عن مواطن الرذيلة والزلل واذا وقع يوما في حياثل الشيطان وغلبه على نفسه رغم تحفظه الشديد حتى ارتكب فاحشة وهو بعيد عن انذار الناس ، بعيد عن تناول يد السلطة والقانون وذكر الله الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور والذي لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء وخاف وعيده الشديد وعقابه الاليم وسارع الى الاعتراف بما وقع منه من خطيئة لتطهير نفسه وهو يعلم ان عقوبته الرجم حتى الموت ولكن ذلك اهنون عليه لتكفير ذنبه وجريته من ان يلقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان . وهكذا اصبح خلق الطاعة والامانة والصدق والوفاء والعدل والعفة والطهر بعض كيان المسلم بعنوان شخصيته المتميزة نتيجة هذه النقطة المظيمة التي حدثت في حياة المسلمين (١) .

وهكذا كان هذا التحول المجيب الذ وأحدثه الاسلام في حياة المسلمين فتغيرت نفسياتهم بالايان الواسع العميق تغيرا عجيبا وارتفعت عقليتهم وسمت اخلاقهم حتى كان الواحد منهم منذ لحظة دخوله في الاسلام تتحول أنماط حياته وتغير نظره الى الاشياء وتتسع فكرته عن الله والكون والانسان والحياة الانسانية فيصبح رجلا غير الرجل وكأنما خلق خلقا جديدا فقد تغفل الايمان في أحشائه وتسرب في جميع عروقه وأنكاره ومشاعره وجرى منه مجرى الروح والعدم

(١) انظر د . احمد شلبي : المجتمع الاسلامي ، ص ٤٩-٥١ .

واقترنت جذور الجاهلية والكفر من قلبه وامحت اثارها من نفسه ومن واقسع  
حياته وظهرت مكان ذلك كله من روائع الايمان واليقين والحب والتفاني في سبيل  
الحق ومن محاسن الاعمال وفضائل الاخلاق ما جعل ذلك الجيل الاول من  
الامة الاسلامية غير امم الارض قاطبة أخرجه الله من ركام الجاهلية ومن ظلمات  
الكفر فكونه احسن تكوين برهانه احسن تربية ليتبوأ مكان الصدارة والسيادة والقيادة  
بين العالمين ، واحتل ذلك المركز القيادي بقوة الايمان واتباع نهج اللسنة  
القيومية فحمل رسالة الخير والسلام والمدل والمعدة الى الناس اجمعين ، فسار  
النصر في ركابه على نحو لم يسبق له مثيل وقد عجز التاريخ ان يجد له مثيلا  
او نظيرا في قديم الزمان او حديثه (١) .

واذا كان المثل الاعلى \* للانسان في الحياة الجاهلية يتمثل في عبادة  
الالهة التي اتخذوها من دون الله واتباع التقاليد والمارات الموروثة عن الابرار  
والاجداد والتعصب الاعى للقبيلة والخضوع المطلق لسلطانها واتباع الالهواء  
والشهوات والاعتداد بالشجاعة الشخصية والشهامة والكرم الى حد الاسراف ،  
والتهذير لقصد الفخر والرياء ، ومد الصيت والقسوة في الانتقام والاخذ بالثأر  
والفخر بالانساب والاحساب بالنجدة ومجالسة عليا القوم وفي حانات الخمير  
والتمتع بالشراب في وسط الدناس والقيان ارضا \* لنوازع النفوس المتلهفة الى الفجور  
والصهر فقد حيل الاسلام هذه الحياة المأجنة الصعبد الى حياة طاهرة كريهة  
تتحقق فيها <sup>بسيط</sup> السعادة والامن والسلام للبشر فكان المثل الاعلى فسي  
الحياة الاسلامية الايمان بالله والخضوع له والانتفاء التام لامره واتباع اوامره  
واجتناب نواهيه واخلاص العبادة له وحده والتحلل بالاخلاق الفاضلة والصفات  
الحميدة والصبر في كل الاعمال عن ايمان راسخ بالله وابتغاء وجهه ومَرْضاته

(١) انظر : ابو الحسن الندوي : ماذا غسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٠١ .

وقصد الخير العام واخضاع المنفعة الشخصية ومصالح الجنس والقبيلة والعشيرة والاهل لا وامر الدين تحقيقا للمصلحة العامة لبني البشر (١) . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين المثل الاعلى للانسان المسلم في الحياة منها قوله تعالى : " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين واتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلوة واتى الزكوة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٢) " . وقوله تعالى : " أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو اعشى انما يتذكر اولو الالباب الذين يؤمنون بعهده الله ولا ينتقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (٣) " . وقوله " الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامير (٤) " .

### - ظروف قاسية عاشها الجيل الاول فترة بدء الدعوة :

لقد عاش الجيل الاول من الامة الاسلامية ظروفًا قاسية وحالات قمع وتمذيب واضطهاد استمرت طول العهد المكي كله فبعد ان بدأت دعوة الاسلام فى مكة وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى عباد الله وحده لا شريك له واتباع ما أنزل إليه من ربه ، قامت قياصة الجاهلية ودافعت عن معتقداتها وتقاليدها

(١) انظر احمد امين وفجر الاسلام ص ٧٦-٧٨ .

(٢) سورة البقرة اية ( ١٧٧ ) .

(٣) سورة الرعد ايات ( ٢٢-١٩ ) .

(٤) سورة الحج اية ( ٤١ ) .

بقوة وهنف وأعلنت قريش حنقها على هذا الدين الجديد وسلكت كل السبيل للقتال عليه في مهاده قبل أن يستفحل خطره واجلبت على الرسل صلى الله عليه وسلم وكل من آمن معه بخيلها ورجلها ورمثهم من قوس واحدة فكانت تلك الحوادث المروعة من الاضطهاد والتعذيب والاذى التى شهدتها فترة العهد المكي . وحتى حين اخرجت قريش المؤمنين من ديارهم واموالهم بغير حق واضطروا للهجرة الى المدينة كانت روح العداء ما تزال على اشدها فازدادت حدة التوتر بين الفريقين فشنت قريش على المسلمين حرباً ضارية وحزنت عليهم الاحزاب ، واحتدم الصراع بين الحق والباطل (١) وذلك من سنن الله في هذا الكون منذ أن عرف في دنيا الناس حق باطل ولكن الفلحة والقهر لا تكون في النهاية الا للحق حين يقذف الله به على الباطل فيدمغه فاذا هو زهوق وهباء منثور (٢) .

لقد مرت مقاومة قريش لدعوة الاسلام بمراحل ثلاث ، اتجهت اول الامر الى العبيد والضعفاء فمرضوا لاقى انواع المذاب فكانوا يضربون ويحبسون ويحرمون من الطعام والشراب ويوثق ظهر احداهم بالرضا وتوضع فوقه الحجارة المحملة الثقيلة لانهم آمنوا بالله وحده ورفضوا الشرك وتبرأوا من أهله (٣) ، ومن هؤلاء يساير وزوجه سمية وابنه عمار وللال بن رباح وخباب بن الارت وصهيب ابن سنان الرومي وهامر بن فهيرة وامثالهم من الذين عذبوا في سبيل الله فمنهم من مات تحت وطأة المذاب ومن ان ينال الشركون ما أرادوا . ورغم كل الاعتداءات المستمرة المتنوعة التى عرضت قريش العبيد والضعفاء لها لتفتنهم عن دينهم فقد رأت ان الدعوة يزداد انتشارها ليس فقط بين العبيد والضعفاء بل انضم لها الاشراف من مختلف بطون قريش الامر الذى يشكل خطراً بالفضا يهدد كيان الشرك بالزوال وينذر اهله بالهلاك . وازاء ذلك لم يجد هؤلاء

( ١ ) انظر : ابوالحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٩٥ -

( ٢ ) انظر : السيد سابق : عناصر القوة في الاسلام ص ٢٣-٢٤ .

( ٣ ) انظر : الحافظ ابن كثير : البداية والنهاية ٥٧/٣ - ٦٠ .

المشركون طريقاً آخر لوقف موجة هذه الدعوة غير مضاعفة الضغط وتنويع أساليب التمييز فأصبح كل مسلم هدفاً للهجوم والأيذاء لا تشفع له مكانته من قريش ولا ثرائه وجاهه وقوته ترد عنه الكيد والاذى فقد نال الأذى سادة أمجاد أمثال أبي بكر (١) وعثمان بن عفان والزبير وأبي عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون وغيرهم (٢) . وقد أصاب المسلمين من العذاب الشديد والبلاء والمهانة ما تفيض به حوادث ثلاث عشرة سنة قضاها في مكة بعد ظهور الإسلام حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة مرتين قبل هجرتهم الأخيرة إلى المدينة فقراراً بدينهم وطلباً للامان والاستقرار . وقد تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه للهجوم والأيذاء وخاصة بعد رفضه عليه الصلاة والسلام مبادرة قريش لاغرائه بالمعروض المالية السخية والملك والسلطان ليكلف عما أرسل به إليهم . وقد أعلن عن رفضه ذلك بقولته المشهورة لعنه ابن طالب : " يا عم والله لو وضمو الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته (٣) " . وقد أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك هدفاً لهجوم قريش وأيذائهم حين فشلوا في المفاوضة معه ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخافون قيام حرب أهلية بين العشائر وذلك لأن أبا طالب - وهو ذو مكانة رفيعة بين العرب - وقف في وجه قريش لحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله بنو هاشم وبنو عبد المطلب فيماعد أبا لهب وأبا جهل وعقبة بن أبي معيط وكان لذلك أبعاده في صرف ثقل عدوان قريش إلى مقاطعة بنو هاشم وبنو عبد المطلب وضرب الحصار عليهم . ولا شك أن موقف بنو هاشم هذا كان له أكبر الأثر في رد كثير من أذى قريش واعتداءاتها وكيدها عن الرسول صلى الله عليه وسلم (٤) . " وهم ينهاون عنه ويتثنون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون " (٥) .

#### إلى الحبشة

- ( ١ ) اقرأ قصة عزمه على الهجرة في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٣ / ٩٣ - ٩٥ .
- ( ٢ ) اقرأ قصة أيذاء قريش لهؤلاء وهجرتهم في نفس المصدر ٣ / ٦٦ - ٧٩ .
- ( ٣ ) الحافظ ابن كثير : البداية والنهاية ٣ / ٤٨ .
- ( ٤ ) انظر المصدر نفسه ٣ / ٨٤ - ٨٨ .
- ( ٥ ) سورة الانعام آية ( ٢٦ ) .

وقد استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله تعالى ليلا ونهارا سرا وجهرا ويمشربرسالته الخالدة بكل عزم وقوة لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يردّه عنه راد ولا يصدّه عن تبليغ ما أمر بتبليغه صاد ، يتبع الناس في انديتهمهم ومجامعهم وفي المواسم ويدعو كل من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوى وفقير وغنى يصدع لهم بالحق في قوة وصراحة . ولقد صبر هو ومن معه من المؤمنين على ايذاء قريش حتى أذن الله لهم بالهجرة الى المدينة وايد دينه ورسوله بنفسه وبالمؤمنين المهاجرين والانصار الذين اتفوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم واسلموا وجوههم لله وابتغوا مرضاته وراموا ثوابه وجنته لا يستهويهم في سبيل الحق مطمع من مطامع الدنيا وخطامها الثاني ولم يزد هم ما لا قوة من قوى الشر الطاغية التي تكيل لهم المذاب وتحيك لهم الكيد والمكر وتسحق لتحطيمهم الا قوة في ايمانهم وحب الى دينهم وتمسكا به وتوفا شديدا للتضحية والتفاني في سبيل نجاحه . وهكذا ثبت الرسول صلى الله عليه وسلم على الحق الذي جاءه من الله وشهدت معه اصحابه المؤمنون وشرعوا في تطبيق تعاليم الاسلام وعبادته وتوجيهاته في جميع شئون حياتهم الخاصة والعامة واقامة مجتمعاتهم كله على أساس تلك المبادئ والتعاليم والتوجيهات ، ايماننا منهم بصدق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين في الارض والهمزة والنصر والاستعلاء . فتحقق لهم ذلك كله حين قويت عزائمهم وبذلوا في سبيل الحق أقصى ما في وسعهم من الجهود والطاقات وحققوا الشروط الربانية التي وضمها لتحقيق وعده وحاشا لوعده الله ان يتخلف " . . . . . وكان حقا علينا نصر المؤمنين (١) " . والله الهمزة ورسوله وللمؤمنين . . (٢) الآية . " ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (٣) " . " وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا (٤) " الآية .

( ١ ) سورة الروم آية ( ٤٧ ) .

( ٢ ) سورة المنافقون آية ( ٨ ) .

( ٣ ) سورة آل عمران آية ( ١٣٩ ) .

( ٤ ) سورة النور آية ( ٥٥ ) .



تلك هي الظروف القاسية التي عاشها أولئك المؤمنون الأوائل فاسترة  
بدء الدعوة وهم أفراد قلائل مستضعفون مضطهدون لا يهتدون على الدافع من  
انفسهم من ايدى قوى الكفر الطاغية التي كانت تفتنهم عن دينهم وكادت تبطلهم  
وتفنيهم لولا عناية الله ونصره المؤزر " وان كروا ان انتم قليل مستضعفون في  
الارض تخافون ان يخطفكم الناس فاواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لملككم  
تشكرون (١) " .

ان ظروف القمع والمقاومة العنيفة التي تعرضت لها الفئة المؤمنة طويلا ففترة  
العهد المكي وهم مشردون معذبون لم تكن لتتنبأ معها الفرصة لقيام  
مجتمع اسلامي يكون له كيانه المستقل يدير المسلمون فيه شئونهم كلها على اساس  
المبادئ والاسس والتعاليم التي يؤمنون بها ، فقد أبى مشركو مكة أن يكون  
للمسلمين كيان مستقل خارج نطاق المجتمع الجاهلي حتى لا تكون لهم قوة تقف  
منهم وجها لوجه ولكن رغم ذلك كان هناك شيء مهم بدأ في مكة على مرأى من  
المشركين وسمع منهم ولا سلطان لهم لوقف موجته الكاسحة او توهين قوته المؤثرة  
وكان له ابعاده واثاره الكبيرة في بناء المجتمع الاسلامي بالمدينة بعد الهجرة  
ذلك هو عملية تكوين الشخصية المسلمة واعداد العناصر الصالحة التي كانت لبنات  
قوية في بناء المجتمع المسلم ، وهي عملية مهمة جدا في تاريخ الدعوة الاسلامية  
ومن ابرز الاعمال التي حققها الاسلام بسرعة مذهلة غير مسبوقة في تاريخ  
البشرية كله . وقد استمرت هذه الفترة الاولى في عملية التكوين والتربية ثلاث  
عشرة سنة على رغم كونها فترة عصيبة وظروفا قاسية كانت من الممكن ان تمرقسل  
سير الدعوة نفسها فضلا عن عملية تكوين الاتباع والاصحاب ولكن من سنة الله أن الحق  
دائما يعلو ولا يعلو عليه فلذلك ظل للجماعة المسلمة <sup>في تلك الفترة</sup> على قلتهم وبلائهم -  
وجود بارز وشخصية متميزة وملاح واضحة ظاهرة .

وبعد هذا الاستعراض الذى قد صناه حان لنا ان نخطو خطوات المسى  
 الامام لندرس نشأة ذلك الجيل الاول الفذ ونتمتع على الحوامسسل  
 والمقومات التى أثرت فى تكوينه النموذجى الرائع الذى لم يسبق له شيسل  
 فى قوته وعمقه وسعته وفما ليته عبر تاريخ الرسالات السماوية السابقة كما لم يبلغ  
 ذلك المستوى الرفيع اى جيل من الاجيال الاسلامية اللاحقة .

...

الفصل الاول : عناصر ومقومات تكوين الجيل الاول .

المبحث الاول : القرآن الكريم .

المبحث الثاني : السنة النبوية المطهرة .

المبحث الثالث : المثل الاعلى والاسوة الحسنة فى شخصية

الرسول الفذة .

...

تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١) . . . " الآية .  
 " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم  
 شهيدا (٢) " . الآية .

ولقد أنعم الله على هذه الأمة بالقرآن الكريم معجزة الرسول الخالدة  
 التي تشهد بصدق صلي الله عليه وسلم وسمو رسالته وعظمته فهدى به قلوب  
 المؤمنين وأثار به بصائرهم وقوم به نفسيتهم وهدى به اخلاقهم ونظم به شئون  
 حياتهم وجعلهم به أمة وسطا حملوا الى الناس جميعا رسالة الخير والمعدل  
 والاحسان فكان به وحدة الحقيقة والعبادة والسلوك والفكر والاتجاه ووحدة  
 البداء والطريق والمصير (٣) . . . " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين  
 يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور  
 يا ذنوبه ويهديهم الى صراط مستقيم (٤) " . " ان هذا القرآن يهدي للتي  
 هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا " (٥) .

ولقد كانت عناية الرعية الاول من الأمة الاسلامية بالقرآن عظيمة جسيما ،  
 تمسكوا به واهتدوا بهديه واحلوا حلاله وحرموا حرامه ووقفوا عند امره ونهيه  
 وتأدبوا بأدابه وتخلقوا باخلاقه وحكموه في جميع شئونهم فتحكمه عند هم فصل  
 وقضاؤه نافذ . وما كانوا يدعونه الى غيره مهما كان الامر وما كانوا يتجاوزون عشر  
 آيات حتى يعملوا بها فيحفظوا العلم والعمل مما وبذلك حققوا سعادة الدنيا  
 والاخرة . عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " كان الرجل منا اذا تعلم  
 عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن (٦) " . وقيل

( ١ ) سورة عمران آية ( ١١٠ ) .

( ٢ ) سورة البقرة آية ( ١٤٢ ) .

( ٣ ) انظر احمد المسال : الاسلام وينا المجتمع ص ١٠٤ .

( ٤ ) سورة المائدة آيتا ( ١٥ - ١٦ ) .

( ٥ ) سورة الاسراء آية ( ٩ ) .

( ٦ ) ذكره الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره من رواية الاعمش عن ابي واغل / ١ / ٣ .

أبوعبد الرحمن السلي حداثا الذين كانوا يقرءوننا : أنهم كانوا يستقرءون من النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يحملوا بما فيها من العلم فتملأنا القرآن والمحل جميعها (١) .

ويمكن القول بان محتويات القرآن تمثل منهجا متكاملا للتربية الاسلاميه فسواء ما جاء منها من أسس عقيدية وعبادية اخلاقية وتوجيهات سياسية واقتصادية واجتماعية ونظم وتشريعات وما جاء منها في معرض القصص والاخبار والمواعظ وفي عرض مشاهد القيامة وما الى ذلك . وما من امر ذي بال في كل شأن من شؤون الحياة والاحياء والكون الا وقد كشف القرآن عنه النقط اجمالا وتفصيلا حسب أهميته وعلى ما تقتضيه حكمة الله تعالى وتتطلبه حاجات البشر ومصالحهم " ونزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٢) " .

" هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (٣) " . ما فرطنا في الكتاب من شيء (٤) .

ولنستعرض بعض موضوعات القرآن التي وضحت الاسس والاصول الاسلامية وبينت منهج الاسلام المتكامل في الحياة مما كان له الاثر الاكبر في تنشئة وتكوين الجيل الاول من المؤمنين . ويجب انؤكد أن عرض بعض هذه الموضوعات في دراسة اثر القرآن في ذلك التكوين الفريد لا يمتنع

( ١ ) ذكره الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره ٣/١

( ٢ ) سورة النحل آية ( ٨٩ ) .

( ٣ ) سورة آل عمران آية ( ١٣٨ ) .

( ٤ ) سورة الانعام آية ( ٣٨ ) .

الإشارة إلى عظم أهميته وقوة تأثيره أكثر من غيره لأن كل كلمة وردت في القرآن الكريم جزء من ذلك المنهج الإسلامي المتكامل في التربية ولذلك فإن محتويات القرآن جميعها في الأهمية وعظم التأثير سواء " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون (١) ". وفي هذا الباب سنتناول الحديث عن موضوع عقيدة الألوهية وعقيدة البعث والجزاء والتصور الإسلامي لحقيقة الإنسان والكون والحياة وموضوع النظم والتشريعات الإسلامية والتوجيهات الأخلاقية وهذه الموضوعات من أبرز ما عرضه القرآن وحسم مادته وقدم فيه حلولاً ناجمة أنقذت البشرية من ضلالاتها ومآلاتها وحقق لها السعادة الحقة التي لا شقاء بعدها ولا تخاصة مادامت متمسكة بحبل الله المتين ومبتدئة بهديسه ونوره (٢) .

### أولاً : موضوع عقيدة الألوهية :

إن موضوع عقيدة الألوهية والوحدانية هو أكثر الموضوعات وروداً في القرآن وقد شغل<sup>منه</sup> مكاناً فسيحاً ، فما من سورة من سور القرآن إلا وقد عرضت هذا الموضوع أجمالاً أو تفصيلاً لأن الاعتقاد الصحيح في الله هو أصل الأصول العقائدية وما ينبني عليها في الإسلام من المبادئ والمعاملات والنظم والتشريعات وما إلى ذلك . وهو العامل الأول الذي يحقق للمسلم العزة والكرامة والارتقاء النفس والمقلى والاحساس بالطمأنينة والراحة . وحتى يصح دين الإنسان يجب أن يكون على معرفة حقاً بالله بافراده بالألوهية والاقرار له بالمبودية وأن يكون إليه وحده مرد الامر كله في الدنيا والاخرة يتلقى منحه وحده الحلال والحرام ويتحاكم الى شريعته في كل شأن من شئون المجتمع والحياة ويستشعر عظمتة وجلاله في كل لحظة ويتطلع اليه بالرجاء ويتوجه به

( ١ ) سورة الحشر آية ( ٢١ ) .

( ٢ ) انظر على سرور الزنكلوني : الدعوة والدعاة واسباب التغلف ومنهج

التطبيق " ص ٢٢٩ .

اليه بالخشية ويقصد وجهه في كل أمر من اموره ويستعينه ويتقيه في سمره  
وعلايته . وهذه العقيدة الصحيحة في الله سما الاسلام بالروح البشرية  
وحررها من اصار قيود المبودية والتذلل والخضوع لاي مخلوق من مخلوقات  
الله تعالى مهما علا شأنه وعظم سلطانه ثم وجهها الى الخير الحام والاحسان  
وابتغاء وجه الله ومرضاته في كل أمورها كما جعل مناط الاعمال كلها النية التي  
لا يعلمها ولا يحيط بها الا عالم الغيب والشهاد والذي لا تخفى عليه خافية ولا يعزب  
عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء .

وهكذا رفع الاسلام المستوى العقلي والفكري في الناس عربا وعجما مما كانوا  
فيه من انحطاط في النظر واسفاف في الفكر وسخافة في العقل الى درجة عالية  
في المعرفة الحق بوحدة الله تعالى في ذاته وصفاته واسماه عتي اصحوا  
يؤمنون ايمانا خالصا بالله الذي لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ، رب  
المالمن ومدير الكون والذي بيده ملكوت كل شئ ، والذي لا معبود بحق الا هو  
له الحكم واليه يرجع الامر كله . وهذه العقيدة الصحيحة التي دعا اليها  
الاسلام هي الدعامة الكبرى لاصلاح النفس البشرية والحياة البشرية وهن الطريق  
الامل للترقية الحق ولا طريق يحذلها كما لا تؤتى مثل ثمارها اية وسيلـة  
أخرى . ومن المعلوم أن النفس البشرية معقدة التركيب دقيقة النسيج كثيرة  
المنافذ والابواب واذا زاعت هذه النفس او اعوجت وفسدت لا يؤثر فيها كثيرا  
إصلاح جانبي وتغيير جزئي بمعالجة داء معين من ادوائها واصلاح عيب من  
عيوبها أو إزالة عادة من عاداتها بل لابد من اصلاح نفساني عميق وتغيير  
وجداني جذري لتحويل اتجاه النفس من الشر الى الخير ومن الفساد الى الصلاح  
حتى تقتلع منها جرثومة الفساد وتجتث جذور الشر ويقرس فيها حب الخير  
والصلاح والفضيلة لتأخذ طريقها نحو الوجهة السليمة <sup>وذلك</sup> أي يكون الله تعالى  
هاضما في النفس وتستشعر عظمتة وقدرته وجلاله وتستسلم لأمره وتطيقه في كسل  
اوامره ونواهيه وترجو رحمته وفضله وهدايته وتخافه وتتقيه في جميع حرركاتها

وسكانها . وانا نرى ان كل ناحية من نواحي الفساد فى الحياة البشرية وكل  
 داء او مشكلة من ادواء المجتمع الانسانى ومشكلاته يتطلب اصلاحها وتغييرها  
 مدة طويلة من الزمن . تستغرق اعطار عدد من المصلحين يتصدون لهذا الاصلاح  
 الجانبى يرومون هذا التغيير الجزئى دون ان يحققوا النجاح الذى وقفوا على اتهم  
 كلها من اجله وبذلوا فى سبيله اقصى جهودهم .

ولو ان احدا من المصلحين وقف حياته كلها من اجل القضاء على جريمة  
 الزنا او شرب الخمر فى مثل المجتمع المرسى الجاهل الذى نشأ على حياة الترف  
 والبذخ ودان باللغو واللذة والمتعة حتى بطرت معيشتة لآغياه هذا الامر، وحبطت  
 مساعيه وجهوده فى هذا السبيل وذلك لان جريمة الزنا والخمر ما هما الا بعض  
 آثار نفس فاسدة نبتت فيها جرثومة الشر والفساد فاصبحت تعشق اللذة حتى فى  
 السم الزعاف وتبتغى المتعة والنشوة حتى فى النشق والفجور وهذه النفس الغريضة  
 لا يمكن ان تهجر ما تمودته من المنكرات والنواحيش بمجرد دروس من الوعظ  
 والارشاد ونشر الكتب فى بيان مضاره الصحية ومناسده الخلقية والاجتماعية  
 التى تمود على المجتمع باضرار بالغة . كما انها لا تهجره ايضا بسن القوانين  
 الشديدة وفرض العقوبات الصارمة حتى يسبق ذلك كله تغيير نفس عميق واصلاح  
 روحى شامل لتتجه النفس نحو الوجهة الصحيحة وتأخذ طريقها الى الصلاح والخير  
 والاحسان وتحبش حياة سعيدة امنة مستقرة . يقول الله تعالى : " ان الله لا يغير  
 ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (١) . واما اذا كانت هذه النفس قد ارفضت  
 على ترك ما تركته من المصايب والجرائم او ترك التقاليد والعادات الشنيعة  
 المتأصلة فيها بغير ذلك الاصلاح النفس العميق والتهذيب الروحية القويمية  
 فانها لا ترعى عن غيرها لان جرثومة الشر والفساد المتأصلة فى اعماقها لم تقطع  
 فلا تزال تتحايل على القانون باستباحة ما منعت منه بتغيير الاسماء والاشكال ،  
 او تستر عن انظار الناس ، كما انها لا تفتأ تتسلل الى انواع كثيرة من الجرائم



والمنكرات ، ولذلك كله أولى الاسلام جانب العقيدة والتربية الروحية اهتماما كبيرا لما له من آثار فعالة في تقويم النفوس واصلاح القلوب . ولو أننا تتبعنا تاريخ الدعوة الاسلامية ابتداءً بالجهاد المكي حتى فترة قيام المجتمع الاسلامي وظهور امر الامة الاسلامية في العهد المدني لوجدنا ان اول ما اولاه الاسلام اهتمامه البالغ انما هو الاصول العنصرية الاسلامية التي نزلت لتقريرها آيات كثيرة في القرآن الكريم قبل نزول التشريعات والتنظيمات والاخلاقيات وذلك لتعريف النفوس طريقها الى الله وتستقيم القلوب على خشيته وطاعته وتترس تربية صحيحة على الخضوع التام لسلطانته والانقياد لكل <sup>الخالق</sup> اوامره والتذلل لقدرته وجبروته ، مستشعرة عظمتهم وجلاله . فبذلك تصبح هذه النفوس مهيأة للتقبل عن الله ومستعدة للتنفيذ الفوري لاوامر الله بايمان عميق راسخ لا ترد فيه ولا تلوذ ولا ارتياب . ومن اعظم الادلة على أثر الاصلاح النفس والتربية الروحية على النفس البشرية والحياة البشرية ان الجيل الاول من المؤمنين بمد رسوخ العقيدة الاسلامية وتمكنها في نفوسهم كانت تنزل ايات من القرآن الكريم وامر أو نواه فتتلو عليهم ساعة نزولها فيقوم كل واحد منهم من فوره بالتنفيذ والطاعة وهناك أمثلة كثيرة في الواقع التاريخي لذلك الجيل الاول الفريد ومن ذلك آيات تحريم الخمر في قوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر" والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم المداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأمذروا فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا الهارغ المبين (١) " . فلما نزلت هذه الايات ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا ينادي في طرقات المدينة : " ايها الناس ألا ان الخمر قد حرمت ألا ان الخمر قد حرمت ، " فحين سمع المسلمون ذلك قاموا من فورهم بامثال أمر الله تعالى فأخذ كل من كان عنده من خمر يريقه في الطريق ومن كان في فمه شرية لا يطيق ابتلاعها بعد ما بلغه

تحريمها وهكذا كسرت الدنان وسالت طرقا المدينة مما اريق فيها من الخمر ساعة نزول النهي من الله . وهذه من أعظم ما روى في التاريخ في قسوة الايمان والطاعة الجادة والاذعان الكامل لامر الله تعالى ، وهي بلا شك قمة سامقة في ضمان الاصلاح للنفس البشرية وسعادة الحياة البشرية وذلك حين يركز منهج التربية والاصلاح على دعائم العقيدة الصحيحة في الله ويسير على مدامها وهذا ما يبين لنا سر العناية الكبيرة التي اولاها القرآن موضوع العقيدة الذي شغل اكبر مساحة منه ليس في الجزء المكي منه فحسب وانما كذلك في الجزء المدني على السواء .

وفي المنهج الرباني في التربية والاصلاح دعا الاسلام الى التوافق التام بين التصور والسلوك وبين القول والعمل وربط بين العلم والاعتقاد وجمعهم معرفة الله الخالق الواحد الاحد اساس كل الخير والصلاح والفلاح وكذلك حين وضع الاسلام المبادئ والافكار لم يضمنها لتكون شعارات ترفع ويروج لها دون ان تكون قابلة للتطبيق والعمل ولكنه وضمنها لتكون قوى دافعة محركة تمعين الانسان على أداء واجبه تجاه ربه وخالقه على النحو الذي يحبه ويرضاه حتى يكون على استعداد تام للتفهد عن الله والعمل بمقتضى أمره ونهييه ، وبذلك نرى ان الاصول المعنوية في الاسلام هي محك الامر كله وهذا ما يؤكد حاجة الانسان الى رصيد ضخم من المعرفة الصحيحة والايمان العميق بالله لينطلق من شاطئ الامان الى رحلة الحياة في غاية من الاطمئنان موقفا بالسعادة والنجاة . (١)

وانما استخدم القرآن الكريم وسائل شتى في تعريف المؤمنين برهيم وخالقهم وتميق شعورهم بم عظمتة وجلاله وقدرته الفائقة وربط قلوبهم بهجل وعلا فسي كل الحالات رغبة ورهبة سرا وعلانية . فالقرآن الكريم يحوى آيات كثيرة تقر

( ١ ) انظر انور الجندي ، الاسلام والعالم المعاصر ، ص ٢١٨ .

عقيدة الألوهية والربوبية وتشرح حقيقتها وتوضح مفهومها وتبين لوازمها ، ومن ذلك ما وصف الله به نفسه من صفات الكمال والمظلة والجلال من قدرة وإرادة ، وعلم وحياة وخلق وإحياء وإماتة وما إلى ذلك . فإله سبحانه وتعالى هو الرزاق الذى لا رازق غيره ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولا حرص الإنسان ذاته يسسوق إليه رزقا ولا كراهيته أيضا ترد عنه شيئا " وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين (١) " . وهو الخالق الذى لا خالق غيره فكل ما سواه مخلوق له سبحانه وتعالى " ذلکم الله ربکم لا اله الا هو خالق كل شئ " فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل " (٢) . وهو المحيى والمميت ولا أحد يطلك الحياة والموت غيره وهذا ما يبحث فى نفس المؤمن روح الشجاعة والاقدام واحتظار الموت والرغبة فى الاستشهاد فى سبيل الحق وهو موقن ان الامر كله بيد الله تعالى فلا الاقدام ينتقم من عمره ولا الاحجام يزيده " وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا " (٣) " ان الله له ملك السموات والارض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير " (٤) . وهو الله الخافى الراجح الضار النافع المعطى المانع وليس هناك احد من مخلوقاته تبارك وتعالى مهما علا قدره وعظم شأنه يستطيع ان يسوق الى الانسان ما اراد الله منعه او ان يمنع عنه ما اراد الله ان يمطيه اياه . " ولا تبسح من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرک فان فعلت فانک اذا من الظالمين . وان يمسک الله بضر فلا کاشف له الا هو وان یردک بخیر فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباد هو هو الخفور الرحيم (٥) " واذا ادرك الانسان ان الامر كله لله

( ١ ) سورة هود آية ( ٦ ) .

( ٢ ) سورة الانعام آية ( ١٠٢ ) .

( ٣ ) سورة ال عمران آية ( ١٤٥ ) .

( ٤ ) سورة التوبة آية ( ١١٦ ) .

( ٥ ) سورة يونس آيتا ( ١٠٦ - ١٠٧ ) .

وان الخلائق كلهم عبيده خاضعون لسلطانه وقدرته القاهرة لا يملكون من امر خلقهم  
وتدبير شئون حياتهم شيئا تحررت نفسه من سيطرة اى مخلوق من مخلوقات الله  
لتأخذ طريقها الى الكمال الروحى والعبدية الحقبة لله تعالى . والله سبحانه  
وتعالى هو عالم الغيب والشهادة الذى لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى  
السماء ، يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور . وهو مالك يوم الدين الذى  
يبيح للناس فيه ليعاسبهم على اعمالهم وليوفىهم اجورهم وهم فيها لا يظلمون ولا  
يبخسون " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " (١) .

وهذه الصفات التى تقدم ذكرها وغيرها من صفات الكمال والعظمة والجلال  
التي وصف الله بها نفسه فى كتابه العزيز معارف المؤمنين الاوائل برهم حق معرفته  
وعمق فى قلوبهم شعورا بجلال الله وقدرته فازدادوا به ايمانا ويقينا وجها وطاعة  
وتطلعا الى نعمه وآلائه وحده لا شريك له . وكان لهذه المعرفة الحقبة بالله  
وتوحيده فى الوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته آثارها العميقة فى تكوين ذلهم  
الجيل من المسلمين حتى تحررت نفوسهم من كل ما سوى الله تعالى وتطهرت  
قلوبهم من ادراك الشرك والكفر واحسوا بالطمأنينة والسكينة واحتلوا الايمان  
بشجاعة نادرة وبسالة فائقة وثبتوا امام الخطوب موقنين بعمون الله لهم وتأيد  
غير مكترئين بقوة الارضى الطاغية التى تداعت عليهم لهما واجهتهم وسحقهم فلم  
يتسرب الخوف والجزع الى قلوبهم ولا عرف الوهن والياس الى نفوسهم سبيلا يسيل  
صدقوا الله ما وعدوه فتحقق لهم وعد الله بالمقابل " ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم  
الاعلون ان كنتم مؤمنين " (٢) الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلوة  
وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور (٣) .

(١) سورة الزلزلة ايتا (٢-٨) .

(٢) سورة ال عمران اية (١٣٩) .

(٣) سورة الحج اية (٤١) .

وهناك طرق اخرى استخدمها القرآن الكريم لتصريف المؤمنين ببرههم  
واثارة وجدانهم بعظمته وقدرته القاهرة وسلطانه الواضح منها عرض آيات  
الله في هذا الكون الرهيب وخضوع كل شئ فيه <sup>الله</sup> لمشيئته تعالى وارادته ، فقد  
لفت القرآن الكريم نظر الانسان الى كثير من بدائع مخلوقاته في العالم العلوى  
والسفلى واحكامه خلقها وتدبيره لشيئون الكون بكل ما فيه لا يحزب عنه مثقال  
ذرة في الارض ولا في السماء ، وكذلك أرشد القرآن الكريم البشر الى كثير من علوم  
الكون ونظام الطبيعة ليستدلوا على قدرة الله الخالق وعظمته وسلطانه بما يقع  
تحت قدرتهم الحسية والعقلية وما لا يدرك كنهه الا الله تعالى . ومن جملة  
ما ذكره القرآن من آيات الله الكونية ما يتصل باصل خلق الانسان وتطوراته  
وما اودعه الله في هذا الانسان من قدرات وطاقات واختلاف الاجناس والالوان  
والالسن . " ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون . ومن  
آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة  
ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألصنعتكم  
والألوان ان في ذلك لآيات للخالقين . ومن آياته مناكمها الليل والنهار  
وابتغائكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون (١) " . ومنها كذلك ما يتصل  
بقوى الطبيعة التي سخرها الله للبشر نعمة منه سبحانه وتعالى ورحمة بهم ،  
فخلق لهم ما في السموات وما في الارض من الشمس والقمر والتجوم والجبال  
والنبات والدواب والمطر والرياح والانهار والبحار والليل والنهار وسخر لهم  
الفلك لتجرى في البحر بما ينفع الناس الى غير ذلك من اصناف مختلفة واشكال  
متعددة من آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته وكمال قدرته التي يدبر بها  
الامر ويصرف بها الآيات وسعة علمه واحاطته بدقائق امر الخلائق وظواهره  
وبواطنه " خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون خلق الانسان من  
نطفة فاذا هو خصيم مبين . والانعام خلقها لكم فيها دفا ومنافع ومنها تأكلون .

---

( ١ ) سورة الروم آيات ( ٢٠ - ٢٣ ) .

ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تصرحون . وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالفيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم . والنخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمعون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لاية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم صخرات بأمره ان فى ذلك لايات لقوم يعقلون . وما ذرا لكم فى الارض مختلفا الوانه ان نفس ذلك لاية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريفا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه لتهتفوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الارض رواس ان تصمد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون . وان تمدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم (١) " .

والى جانب ذلك ذكر القرآن كثيرا من سنن الله الكونية التى لا تختلف ولا تتوانى منها ما يتصل باحوال الامم السابقة فى القرون الخابرة ونصر الله تعالى للمؤمنين المتقين الذين اتبعوا اوامره وساروا على نهجه فأحياهم حياة طيبة سميرة فى الدنيا واعد لهم فى الآخرة اجرا جزيلا جنات عدن يدخلونها يرزقون فيها بغير حساب ، واما المكذبون الضالون الذين رفضوا السير على هدى الله تعالى واتبعوا أهواءهم فكان عاقبة امرهم خسرا حيث اخذهم الله اخذا وسيلا ويطش بهم بطشا شديدا لا يجدون منه مناصا ولا مهربا . " وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من اهل القرى أقلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا افلا تعلمون . حتى اذا

استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا  
 عن القوم المجرمين<sup>(١)</sup> . أفلم ينسروا في الأرض فينظروا كيف نكسر عاقبة الذين  
 من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون  
 فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به  
 يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين  
 فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر  
 هنالك الكافرون<sup>(٢)</sup> . " والقرآن الكريم بكل هذه الطرق السابقة التي سلكها  
 في تعريف المؤمن بربههم وتقرير وحدانية الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته  
 وعرض آياته المتعددة في الكون وبيان سنت الله في الامم الخالية وما الى ذلك  
 كان يهدف الى تقوية ايمان المسلمين وتمصيق احساسهم وشعورهم بمحظمتهم  
 وجلاله حتى يصبحوا أقرب الى طاعة أوامره واجتناب نواهيه واتباع هديه ونوره  
 الذي نزل على رسوله تعبدوا له واثباتا لآمره وانابة اليه وطمعا في مرضاته  
 ورجاء في عطاءه ونواله وخوفا من عقابه وعذابه حين تستقيم نفوسهم وترتفع وتسمو  
 عن الماديات والشهوات ، وتستعمل على لذائذ الدنيا وعظامها الفاني ويكون  
 مثلهم الاعلى في الحياة هو طاعة الله واتباع امره والسير على نهجه . هكذا كان  
 الرعيل الاول من المسلمين ، فقد رباهم القرآن على معرفة حقة بالله سبحانه  
 وتعالى فامتلات قلوبهم ايمانا بربههم وقويت عزائمهم وعرفوا الله حق معرفته  
 فعبدهوا<sup>حق عبادته</sup> ونفذوا تعاليم دينه الحنيف وتوجيهاته في كل شأن من شئون حياتهم  
 حتى استطاعوا ان يقطموا مراحل الحياة بنجاح ويتفادوا على صاحبهم  
 وعقباتها ويحققوا لانفسهم السعادة والهناء والامن والاستقرار ، حين بلغوا  
 مستوى سامقا في الصودية الحقة لله واخلاص العمل له والطاعة الجادة لأمره .  
 وكانت حياتهم نموذجاً رائعا وتطبيقاً عمليا لمنهج الله القويم الذي أرسل به  
 رسول الهدى لاخراج الناس من الظلمات الى النور " كنتم خير أمة اخرجت  
 للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله<sup>(٣)</sup> . "

(١) سورة يونس (١٠٩-١١٠)

(٢) سورة غافر آيات (٨٢-٨٥) .

(٣) سورة آل عمران آية (١١٠) .

ثانيا : الايمان باليوم الآخر :عقيدة

ان موضوع الايمان باليوم الآخر والبحث والجزاء من اهم الموضوعات التي عرضها القرآن الكريم واولاها اهتمامه البالغ وذلك لما له من اثار فعالة ملموسة في منهاج التربية والاصلاح . ان التصديقه باليوم الآخر ركن من اركان الايمان وهو مرتبط تمام الارتباط بالايمان بالله تعالى ومترتب عليه حيث لا يمكن للانسان ان يسلم بصدق اليوم الآخر وما يتصل به من البعث والجزاء والحساب والميزان والجنة والنار الا بعد التسليم بوجود الله تعالى ولاقرار له بالالوهية والربوبية والوحدانية والحاكمية ولذلك نجد القرآن الكريم في مواطن كثيرة يقرن بين الايمان بالله واليوم الآخر من ذلك ماورد في حالة اثبات الايمان لجماعة ممن المؤمنين او عند دعوتهم لتحقيقه والالتيان بلوازمه " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الایمان (١) . . . . . الآية " .

وكذلك ما جاء في وصف جماعة من اهل الكتاب في قوله تعالى : " ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر (٢) . . . الآية " . ويأتى كذلك تارة اخرى في حالة النفي وببيان أسباب كفر الكافرين بالله " والذين ينغفون اموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا (٣) . وفي ذلك كله دليل واضح على اهمية الايمان باليوم الآخر والارتباط الوثيق القائم بينه وبين الايمان بالله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة المجادلة آية (٢٢) .  
 (٢) سورة آل عمران آيتا (١١٣-١١٤) .  
 (٣) سورة النساء آية (٣٨) .



ونلاحظ أن القرآن الكريم لم يكتفِ بذكر الأدلة على صدق اليوم الآخر وأماكن  
 البحث والجزاء كما فعل في إثبات وجود الله تعالى وتقرير ربوبيته وألوهيته  
 ووحدانيته لأن حديثه عن اليوم الآخر وما يتعلق به حديث عن عالم آخر وراء  
 هذا العالم لا سبيل للوصول إليه من طريق البحث والاستنتاج ولا يقوم برهانه  
 عقلي محض على صدقه ولا شهور للانسان به جملة وتفصيلا إلا عن طريق السماع .  
 ولذلك ركز القرآن في هذه القضية تركيزا كبيرا على وجوب الايمان بالله أولا ليكون  
 ذلك متطلبا ينطلق منه المسلم وأساسا قويا يعتمد عليه في رحلته الايمانية .  
 وهذا - كما يبدو - من أسرار اقتران ذكر الايمان باليوم الآخر بالايمان بالله تعالى  
 وربط أولهما مع الآخر في آيات كثيرة في القرآن الكريم . فالانسان اذا سلم بوجود  
 الله تعالى وأقر له بالربوبية والالوهية واثبت ان الخلق والامر كله لله وحده ، وأنه  
 هو الذي خلق هذا العالم وكل ما فيه بقدرته الباهرة من العدم المحض وهو  
 القادر على كل شيء والفاعل المختار ، ثم سلم بعد ذلك بمسئولية حاجته البشرية  
 الى أن يرسل الله اليهم الرسل وينزل معهم الكتب ليعين لهم غاية وجودهم  
 ومصحتهم في هذه الحياة ، ولعلم هذا الانسان بصدق الرسل والكتب المنزلة  
 من عند الله يسلم بكل ما جاء عن الله عن ايمان واسع به تعالى ويقين تام بصدق  
 ما اخبر به جل وعلا وبخاصة في مسألة الغيبات التي لا مجال لمعرفة حقيقتها  
 وصدقها إلا عن طريق السماع "يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي  
 نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته  
 وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا " (١) . وبذلك يعلم الانسان  
 يقينا ويسلم عن ايمان عميق - تنزيها لله تعالى عن العبث واللعب - ان الحكمة  
 الربانية تقتضي ان تكون هناك حياة اخرى للانسان بعد الحياة الدنيا التي هي

دار العمل والكساح تتحقق فيها المدالة باكمل صورتها حين يحاسب الله تعالى كل إنسان على ما عمل في الدنيا لينال جزاء ذلك موفورا إن خيرا فخير وإن شرا فشر. " وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ام نجعل المتقين كالفجار " (١) .

وحين يلاحظ الإنسان اهتمام القرآن الشديد بعقيدة اليوم الآخر والبعث والجزاء في آيات كثيرة في السور المكية قد يتبادر الى ذهنه ان سبب ذلك انما هو إنكار العرب لها في الجاهلية جملة وتفصيلا في مثل قوله تعالى : " وقالوا أهذا كنا عظاما ورفاقا أهنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة او حديد او خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يمسكها الذي فطركم أول مرة فسيقضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى ان يكون قريبا (٢) " ولكن حينما يستعرض السور المدنية ويجد فيها مجموعة من الايات البينات تخاطب المؤمنين بحد قيام المجتمع الاسلامي واستقامة أمر الأمة الإسلامية على دعائم العقيدة الصحيحة في الله والفكرة الشاملة المتكاملة عن حقيقة الكون والإنسان والحياة ، وتقرر لهم هذه الايات عقيدة اليوم الآخر والبعث والجزاء وتعرض لهم مشاهد القياسات وتذكر الجنة وما أعد الله فيها للمؤمنين من نعم مقيم وتذكر النار وما فيها من عذاب مهين للكار المماندين . . حين يجد الإنسان ذلك كله في السور المدنية يدرك ما لهذه العقيدة في الإسلام من أهمية كبيرة دائمة كانت البشرية بحاجة الى التزود بهذه العقيدة في جميع احوالها فهي لا تخص المنكرين المماندين فحسب بل تشمل المؤمنين الذين تذوقوا حلاوة الايمان واطمأنت قلوبهم بذكر الله .

(١) سورة ص آيات (٢٧-٢٨) .

(٢) سورة الاسراء الايات (٤٩-٥١) .

وإن عقيدة اليوم الآخر والبحث والجزاء تمثل جانباً مهماً من المفاهيم الإسلامية

الأساسية في واقعيتها ونظرتها الشاملة إلى حقيقة الحياة الإنسانية التي تجمع بين الجوانب المادية والروحية معا وتعتبر الحياة الدنيا دار تجربة وعمل وكفاح وطريقاً إلى دار الآخرة التي هي دار الحساب والجزاء " يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقته فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سميماً . . . إلى آخر الآيات (١) .

ومن الجانب الآخر فإن النفس البشرية في جميع أحوالها بحاجة ماسة جداً إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ليكون عوناً لها على قطع مراحل الحياة بنجاح وذلك إن الله تعالى حينما خلق هذه النفس جعل لها مهمة جليلة تقوم بها في هذه الحياة وغاية سامية تسعى لتحقيقها ، هذه المهمة وتلك الغاية هي عبادته وحده والخلافة عنه في الأرض " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " (٢) . " وإن قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . . . الآية " (٣) . ثم إن الله سبحانه وتعالى قد أودع في فطرة الإنسان حوافز ودوافع قوية للطعام والشراب وحب المسكن والملبس والجنس والتملك والبقاء والشرف والمكانة وما إلى ذلك ، هذه القوى الدافعة في فطرة الإنسان أودعها الله تعالى فيها لحكمة بالغة يريد بها لكي تضمن هذا الإنسان على القيام بمهام الصبورية لله والخلافة عنه في الأرض حتى لا تقف العواجز والمقبات عائقاً بينه وبين ما خلق له . ومهمة هذه القوى والحوافز المودعة في فطرة الإنسان أنها تدفع الإنسان إلى النشاط والحركة والعمل الدؤوب والإنتاج في سبيل عمارة الأرض وتنظيم شئون الحياة

( ١ ) سورة الانشقاق الآيات ( ٦ - ١٥ ) .

( ٢ ) سورة الذاريات آية ( ٥٦ ) .

( ٣ ) سورة البقرة آية ( ٣٠ ) .

وفق ارادة الله وعلى مقتضى اوامره وتوجيهاته يقول الله تعالى فى وصف قوة هذه الحوافز والدافع " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحراث ذلكمتاع الحياة الدنيا . . . . . الاية " (١) . ولكن الله تعالى العليم بخلقه وحدود طاقتهم يعلم بضرورة وجود ضوابط الى جانب ما أودعه فى فطرتهم من القوى الدافعة والحوافز المحركة حتى تحد من قوتها وشدتها وتقفها عند حدودها الامنية بعيدا عن المزالق والمهلك التى تودى بالحياة الانسانية ، فلذلك جعل الله فى فطرة الانسان هذه الضوابط من عقل وارادة وعذرة على التمييز والاختيار واستعداد فطرى للحصول " والله أخرجهكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون " (٢) . " ونفس وما سواها فأنهها فجورها وتقواها قد افلح من زكاهما وقد خاب من دساها " (٣) . ويعد ذلك كله ماكان الله ليكل الانسان الى نفسه لمعرفة ما هو الحسن له او القبيح من أمور هذه الحياة بهذه القوى الضابطة التى منحه اياها دون ان يجهل له من عنده مايمينه على ذلك ويأخذ بيده الى سواء الصراط ولذلك أرسل الله الرسل الى الناس تنرا وانزل معهم الكتب للتبشير والتذكير والانذار ، وجعل أهم اصول رسالات الرسل جميعا الايمان بالله واليوم الآخر والكتاب . " ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (٤) " يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر

( ١ ) سورة ال عمران اية ( ١٤ ) .

( ٢ ) سورة النحل اية ( ٧٨ ) .

( ٣ ) سورة الشمس ايات ( ٢-١٠ ) .

( ٤ ) سورة البقرة اية ( ٦٢ ) .

وملائكته

بالله / وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١) .

لقد كان للايمان باليوم الآخر اثار كبيرة في النفس البشرية ، فهو العامل القوى - بعد الايمان بالله - الذى يمكن ان يؤثر فى الانسان تأثيرا بالغا حتى يلتزم حدود الله فى شئون حياته ويراقب الله فى أعماله فى السر والعلن ويرتفع عن الماديات ويحد من شهواته ولذائذه ورغباته ، ويتنازل عن القدر الزائد عن حاجته من متاع الحياة الدنيا موتا بان ما يفوته فى هذه الحياة فى سبيل طاعة الله وعبادته وابتغاء وجهه ومرضاته سيموض عنه فى الآخرة جنات عدن يرزق فيها بنعيم حساب ، له فيها ما يشاء من أنواع النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهو خالد فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء الله عطا غير محدود ، وبذلك تخف ثقل المادة ومتاع الدنيا وحطامها فى نفس الانسان وتثقل فى حسه تقوى الله ومخافته ويرجو رحمة ربه ويشفق من عذابه وعقابه ويسارع فى الخيرات " لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار " (٦) . هكذا أصبح الايمان باليوم الآخر باعثا قويا للحياة والعمل اساسيا لاستمرار حركة الحياة واتجاهها نحو الخير والصلاح والسعادة وفق ارادة الله وامره ومن اجل ذلك وضع الاسلام هذه القضية نصب الاعين والعقول والافهام لتجرى أعمال الدنيا كلها من خلال ربط الدنيا بالآخرة باعتبارها طريقا موصلا الى الآخرة ليعبر الانسان يوما ان كل شيء عمله فى الدنيا يلحق جزاءه مؤثرا عند الله يوم القيامة فيكون بشموره الحقيق بوقوع الجزاء الاوفى فى دار الآخرة واحساسه المرهف بثقل المسئولية امام ربه اقرب الى طاعة الله واتباع اوامره واجتناب نواهيه .<sup>ل</sup> والوزن يومئذ

( ١ ) سورة النساء اية ( ١٣٦ ) .

( ٢ ) سورة آل عمران اية ( ١٩٨ ) .

الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (١) .

ولقد كان لعدم الايمان باليوم الآخر وانكار البعث والجزاء شأن خطير جدا في تشكيل حياة الناس فما كانوا يشعرون بالمسئولية الفردية ولا يعترفون بالالتزامات الاخلاقية والاجتماعية الا في حدود ما يحقق لهم المصالح الدنيوية الماجلسة دون اى تقدير لمهمة الانسان في الحياة ومسئوليته تجاه نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه لانهم يعتقدون ان الحياة الدنيا فرصة واحدة لا تتكرر ولا تدوم ، وأن عمر الانسان فيها قصير وان عمر الف سنة ، فلذلك يندفعون وراء الشهوات والذات ومصالح الارض المتضاربة وزخارف الدنيا الفانية ينهبون منها بنهم وشغف ويفسدون من اجلها جميع طاقاتهم ويدمرون ما اودعه الله في فطرتهم من القوى الدافعة للحركة والنشاط والضوابط التى تمينهم في مصرفة الخير والصلاح وتحول بينهم وبين الشر والفساد فيعيشون حياة التحلل والترف والمجون واللامبالاة وتفتتح غرائزهم لانتهاك كل شئ من متاع الحياة وتتبدل احساسهم وتتحرف مداركهم حتى تستوى في نظرهم الحسنة والسيئة وتهبط نفوسهم الى المستوى الادنى لتصبح حياتهم لعبا ولهوا وزينة وتفاخرا بينهم وتكاثرا فى الاموال والاولاد وتطاولا فى البنيان والقصور الشامخة وميدانا فسيحا للمسابقة والمنافسة والقتال من أجل الجاه والشرف والسلطان والمناصب والالقب وذلك كله هو الافق الضيق المحصور والمستوى الادنى الهابط الذى صرف الناس عن الافاق العلييا المشرفة التى رفع الاسلام المؤمنين اليها حتى بلغوا مستوى سامقا فى كل مجال من مجالات الحياة .

ان فكرة الاسلام حول قضية اليوم الاخر والبعث والجزاء كانت متسقة تماما مع طبيعة هذا الدين الحنيف ومنهجه ونظرتة الشاملة المتكاملة الى حقيقة الكون والانسان والحياة . ولذلك كان لهذه العقيدة الصحيحة التي ابرزها الاسلام في شان اليوم الاخر والبعث والجزاء اثر عظيم جدا في نفوس الرعيل الاول ممن المؤمنون فكانوا يصدرون في جميع اعمالهم عن ايمان عميق بالله سبحانه وتعالى يراقبونه في السر والعلن ويقصدون وجهه في كل أمر ويدعون انفسهم ويحاسبونهم قبل وقوفهم بين يدي الله تعالى فما كان ذكر الاخرة ليغيب عن بالهم لحظة واحدة فكانوا دائما يرجون الاخرة ويعلمون جاهدين لذلك اليوم العظيم ملتزمين حدود الله تعالى في كل أمر مراعين حقوق الله وحقوق الناس في كل شيء مبتغين بذلك وجه الله ومرضاته مشفقين من سخطه وعذابه حتى هانت عليهم انفسهم وحياتهم وكل شيء يملكونه في هذه الحياة امام امر الله تعالى وما فرضه عليهم من الواجبات فباعوا انفسهم وكل شيء لهم في الحياة في سبيل الله واعلاء كلمته ونشر الخير والسعادة بين بني البشر . " ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد " (١) . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا " (٢) . " والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . . . الآية " (٣) .

هكذا كان المؤمنون الاوائل على فهم عميق لعقيدة اليوم الاخر والبعث والجزاء كانوا يدركون تماما ان ايمانهم باليوم الاخر يحتم عليهم ان يكون كل شيء

( ١ ) سورة البقرة آية ( ٢٠٧ ) .

( ٢ ) سورة الاحزاب آية ( ٢٣ ) .

( ٣ ) سورة الحشر آية ( ٩ ) .

فى حياتهم سائرا على نهج الله القويم مطابقة - على قدر استطاعتهم - لما اراد الله  
لما هنالك فى يوم القيامة من مسئولية وحساب وجزاء . فالحياة الدنيا مرحلة  
الابتلاء والامتحان وهى دار العمل والنشاط والكفاح وهى الطريق الى دار الآخرة  
التي هى الحياة الحقيقية التى لا نهاية لها . " وما هذه الحياة الدنيا الا لهو  
ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون " (١) .

هذا ما فهمه المؤمنون الاوائل من ايمانهم باليوم الآخر وكانت حصيلة هذا  
الفهم العميق فى نفوسهم قوة هائلة يصدرون عنها فى كل شأن من شئون حياتهم  
تدفعهم الى استباق الخيرات وتمنعهم من اتيان المنكرات وارتكاب الظلوم  
والمعاصى حتى اصبحوا - فى حدود طاقاتهم البشرية - يفتون عند امر الله  
وينفذون اوامره ويطبقون تعاليمه ويخففون من ثقل متاع الحياة الدنيا وحطامها  
على انفسهم بل يعرضون انفسهم احيانا للحرمان من هذا المتاع كله حين  
يقدرونها رخيصة ويشرونها فى سبيل الله رجاء ما عند الله من الخير وحسن  
الآب " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم بشراكم  
اليوم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم " (٢) .  
وبذلك ارتفعوا الى مستويات عالية فى الطاعة وتغفيذ اوامر الله واتباع نهجه حتى  
استطاعوا ان يقيموا صرح العدالة ويحققوا السعادة الحقة للبشرية على مستوى عال  
فريد فى التاريخ .

...

( ١ ) سورة المائدة ( ٦٤ ) .

( ٢ ) سورة الحديد ( ١٢ ) .



### ثالثا : التصور الاسلامي لحقيقة الكون والانسان والحياة :

حينما يتأمل الانسان نى شأن هذه الحياة ويجول بفكره فى هذا الكون الواسع  
الفسيح ويرى من حوله انوارها متعددة واشكالا متباينة من المخلوقات يرى السماء  
مرفوعة فوقه بخير عمد فيها الشمس والقمر والنجوم ويرى الارض ممدودة مبهودة فيها  
الجبال الراسيات الشامخات والبحار والانهار والنبات والدواب ويرى الفلك التمس  
تجرى فى البحر كالاعلام وما ينزل من السماء من ماء طهور واختراف الليل والنهار  
وتصريف الرياح والسحاب السخريين السماء والارض كما يرى الناس من حوله اجناسا  
وقهائل وشموسا على اختلاف الالوان واللغات ويعلم ان الانسان لم يكن من قبل  
شيئا مذكورا فخلق من تراب ثم خلق نسله من سلالة من ماء مهين يكون فى بطن  
الام الى اجل معلوم ثم يخرج بعد ذلك طفلا لا يعلم شيئا ولا يقدر على شئ  
ثم ينمو ويتعمر حتى يبلغ اشدّه ويستوى ليدخل فى مقتطفات الحياة مع بنى جنسه  
الى اجل مسمى لا قدرة له على تحديده طوله او قصره ثم يموت بعد ذلك ويدفن تحت  
التراب لتنتهى بذلك رحلته فى الحياة . حينما يستمرغى الانسان هذه الحقائق  
وغيرها عن الكون والانسان والحياة الانسانية مما يدرك كثيرا منه بفطرته الانسانية  
السليمة ونحما قرره القرآن الكريم فى ذلك وفصله غاية التفصيل بأساليب متنوعة وارشد  
الناس الى التفكير فيه . . حين يستمرغى الانسان هذه الحقائق وغيرها سيواجه بقضايا  
أخرى مهمة تتبلور فى ذهنه وتعرض له وتلازمه فى كل لحظة <sup>من لحظات</sup> حياته - سواء وعاهها  
الإنسان أو لم يعها - وتطلب منه معرفة الطول لها وعلى ضوء هذه الحلول تتحدد  
معالجته فى الحياة وتتشكل أنماط حياته سواء اكانت هذه الحلول ناجحة  
او خاطئة فانها بلاشك ذات تأثير كبير فى تشكيل حياة الإنسان .  
وهذه القضايا التى تبحث من حقائق الموجودات فى هذا الكون الفسح وفى  
الحياة الانسانية تنحصر فى اربع نقاط رئيسية :

اولا : ما مصدر الكائنات جميعا بما فيها الانسان نفسه ؟

ثانيا : ما مصير هذه الكائنات وما نهايتها ؟

ثالثا : ما غاية وجود الانسان وما مهمته في الحياة ؟

رابعا : ما هو المنهج الاقوم للانسان في الحياة ؟

هذه القضايا الاربعة لا بد ان يحس بها الانسان في حياته بصورة واعية او غير واعية ولكن مهما تكن صورة هذا الاحساس قوية او ضعيفة ، عميقة او سطحية ، صحيحة او خاطئة فانها بدون شك تؤثر بصورة ملموسة في تشكيل حياة الانسان وتأسيس افكاره واتجاهاته وأنماط سلوكه وتكوين مشاعره وأحاسيسه . وهين بجسد الانسان لهذه القضايا حلولا ناجحة فانه ينعم بها ويحيا حياة طيبة سعيدة لانه يدرك لوجوده غاية ومهمة ولحياته معنى فهو بذلك يقوم بما عليه من الواجبات تجاه خالقه وبارئه الذي وهب له الحياة كما يقوم بما عليه ايضا نحو نفسه والمجتمع الذي يعيش فيه . ولكن حين لا يهتدى الانسان الى الحلول الصحيحة السليمة فانه يشقى في حياته شقاء بالغا ويمش في حياة الفسق والفساد حياة المريرة والمجون واللذة لانه لا يفهم لحياته معنى ولا يدرك لوجوده غاية وانما ينظر الى الحياة على انها عبء ثقل يجب أن يخفف من وطأته باللغو واللعب والاكل والشرب واللذة " ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمعمولين " (١) .

والقرآن الكريم - الكتاب الاعظم للتربية والاصلاح - ما كان ليترك الناس

في حيرة من امرهم او يدعهم في تيه وضياح وضلال عن الصراط المستقيم الذي يتودهم الى النجاة والسلامة والسعادة وهو الذي نزل ليخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى اقوم صراط فقد قدم لهذه القضايا حلولا سليمة وضحت لهم معالم رحلتهم

فى الحياة من نقطة البدء الى نقطة الانتهاء فارتاحت لها نفوس المؤمنين الاوائل واطمأنت بها واستمسكوا بحبل الله المتين واتبعوا هدايه فى كل شأن من شئون حياتهم لا يرضون به بدىلا ولا يتجهون الى غيره لحل مشكلات الحياة فى اى حال من الاحوال . وقد اعطى القرآن الكريم الشخص المؤمن عن حقيقة الكون والانسان والحياة فكرة اوسع واشمل واقوم ما يمكن ان يخطر على قلب انسان لم يفتح الله عليه بنعمة الهداية والايمان . ولذلك نجد المحاولات البشرية التى ارادت ان تفسر هذه القضايا لتجد لها حولا مناسبة من غير ان تكون لها صلة بهدى السماء تسير بنوره وتتلقى الامداد من قوة الازل الخالدة - نجد دائما تقدم افكارا ونظريات قاصرة سقيمة تبنى أسسها على الجانب المادى فى الحياة وتركز على الجانب الفريزى الحيوانى من الإنسان فمن هذه النظريات نظرية تصور مرحلة الانسان فى الحياة على انها من اجل البحث عن الطعام وترجع كل شئ فى الحياة على الدين والاخلاق وحوادث التاريخ وتطور المجتمعات الى الظروف المادية للحياة كما تفكر ان يكون هناك إله خالق مدبر لشئون الكون وكل ما فيه . وقد قال ماركس الفيلسوف الاكبر للشيوعية : لا إله والحياة مادة " وقال انجلز : لا محل مطلقا لوجود خالق . وهكذا نرى كيف ادت الحلول القاصرة الباطلة بالانسان الى الالحاد والكفر والطغيان والشقاوة والهلاك .

#### المسألة الاولى : ما مصدر الكائنات بما فيها الإنسان نفسه ؟

يقرر القرآن الكريم ان كل شئ فى هذا الوجود مخلوق لله تعالى ، فالسموات والارض والجبال والبحار والأنهار والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والاناس والجن والنبات والدواب وما اليها خلقها الله من المدم المحش . وأما الإنسان بوجه خاص فقد ذكر القرآن ان الله خلقه من تربة من طين الارض ونفخه من روحه وجعل له خصائص وطاقات يتميز بها عن سائر المخلوقات ثم كرمه الله تعالى وفضله على كثير

من خلقه وسخر له ما فى السموات والارض جميعا منه . وقد جاء ذلك كله فى آيات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى : " لکم الله ربکم لا اله الا هو خالق کل شیء " فاعبدوه (١) . . الآية . وقوله : " الله الذى خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لکم وسخر لکم الفلك لتجری فی البحر بأمره وسخر لکم الانهار وسخر لکم الشمس والقمر دأببینا و سخر لکم اللیل والنهار واتاکم من کل ما سألتهم وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلم کفار (٢) " . " وسخر لکم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه " (٣) وقوله تعالى : " الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش مالکم من دونه من ولی ولا شفیع افلا تتذکرون . يدبر الامر من السماء السابعة الارض ثم يعرج الیه فى يوم کان مقداره الف سنة ما تعدون ذلك عالم الغیب والشهادة المیز الرحیم الذى احسن کل شیء خلقه ویدأ خلق الانسان من طین ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهین ثم سواه ونفخ فیہ من روحه وجعل لکم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشکرون " (٤) .

وكذلك أوضح القرآن الكريم أن الانسان كائن متميز فهو كما سبق ان قلنا - قبضة من طين الارض ونفخة من روح الله . وبذلك يجمع فى تركيبه الفطرى طاقات مادية وقوى روحية تطلب منه اجابة نداءها وتدفعه الى اهداف وغايات ذات صدى بعيد فى كيانه البشرى . فهو ليس حيوانا يحكم على اشباع الفرائز وتحقيق الرغائب والمطالب المادية فقط كما انه فى الوقت نفسه ليس ملكا يتسامى عن المادة ويتحرر من آصارها لينكب على اشباع الروح وتفذيته بل يجب عليه ان ياخذ ما يريد من الحياة المادية والحياة الروحية دون ان يكون فى ذلك تقديس للمادة وحدها على حساب

( ١ ) سورة الانعام آية ( ١٠٢ ) .

( ٢ ) سورة ابراهيم آيات ( ٣٤-٣٢ ) .

( ٣ ) سورة الجاثية آية ( ١٣ ) .

( ٤ ) سورة السجدة آيات ( ٩-٤ ) .

مطالب الروح ولا ثلبيّة لمطالب الروح وحدها على حساب الجانب المادى فى الحياة بحيث يقتضى العمل لأحد الجانبين الانقطاع عن الجانب الاخر او مزاحمة وقتّه .  
يقول الله تعالى : " وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا (١) " .  
الآية . " قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . . (٢) " الآية .

وعن ابن جحيفة قال " أخى النبی صلى الله عليه وسلم بين سلمان وابى الدرداء . . . (الى ان قال) : " فقال له سلمان : ان لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولاهلك عليك حقاً فاعط كل ذى حق حقه " (٣) الحديث . وقد اثبت القرآن للانسان خصائص عديدة تميزه عن سائر المخلوقات وتمثل هذه الخصائص فى القوى المتعددة التى اجتمعت فى تكوينه الفطرى وهى تشمل القوة الحيوانية الفريزية والقوة العقلية الفكرية والقوة النفسية الوجدانية . الا ان الجانب العقلى الفكرى والجانب الروحى النفس هما اللذان يحكمان هذا الكيان البشرى المعقد ويهيئان على هذه القوى والطاقت المتصارعة . وان ما فى الانسان من قوة الارادة والقدرة العقلية والاستعداد الفطرى لتحصيل العلم والمعرفة واستيعاب ذلك وانماؤه . كل ذلك ما يعينه على معرفة الخير والشر والتمييز بين الهدى والضلال والقدرة على اختيار احد الطريقتين . " ان قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فاقموا له ساجدين " (٤) . " انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبثليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هدىناه السبيل

( ١ ) سورة القصص آية ( ٧٧ ) .

( ٢ ) سورة الاعراف آية ( ٣٢ ) .

( ٣ ) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم باب من اقسم على اخيه ليفطر فى التطوع

٢ / ٤٣ . المكتب الاسلامى . تركيا .

( ٤ ) سورة ص آيتا ( ٧١-٧٢ ) .

اما شاكرا واما كهورا " (١) . وقوله تعالى : " ونفس وما سواها فالهيمها فجورها  
وتقواها " (٢) . وقوله تعالى : " الم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين وهدىناه  
النجدين " (٣) . ان هذا التصور الشامل لحياة الانسان المستمد من المصدر  
الالهى يقوم على أساس معرفة حقة بفطرة هذا الانسان وفهم صحيح لواقعه وموقعه  
من الكون ودوره فيه وصلته بالمخلوقات من حوله وادراك كامل لواجهه تجاه  
خالقه وبارئه ومهمته فى الحياة من دون تحيز ولا ميل لتقدير جانب معين وإهمال  
الجوانب الاخرى " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " (٤) .

...

### المسألة الثانية : بمصير الكائنات وما نهايتها ؟

ان القرآن الكريم يقرر حقيقة واضحة لا لبس فيها ولا غموض فى مسألة نهاية  
الكائنات ومصيرها شأنه فى كل المسائل التى يعالجها . فقد بين القرآن ان كل  
شئ فى هذا الوجود هالك وفان . فالحياة الدنيا بكل ما فيها زائلة فانية حتى  
تصبح كأنها لم تقم يوما واحدا او فترات محدودة من الزمن . فتكلمنا فى هذه الحياة  
الدنيا من السموات الارض والجبال والبحار والنبات والحيوان والليل والنهار والانس والجن  
كلهم اجمعون لابد انهم سائرون الى القدر المحتوم الى الفناء والزوال . انهم  
مدينون بذلك فلا مناص لهم ولا مهرب ان لا شئ منهم قدر له البقاء والخلود فى  
هذه الحياة . " كل من عليها فان . . الاية " (٥) . " كل نفس ذائقة الموت . . الاية " (٦)

- 
- (١) سورة الانسان ايتا (٢-٣) .
  - (٢) سورة الشمس ايتا (٧-٨) .
  - (٣) سورة البلد ايات (٨-١٠) .
  - (٤) سورة الملك اية (١٤) .
  - (٥) سورة الرحمن اية (٢٦) .
  - (٦) سورة العمران اية (١٨٥) .

" فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية (١) . " ويسألونك عن الجبال فقل ينفسها رب نسفا فيذرهما ناعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا (٢) . " يوم تطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا اول خلق نعميده " (٣) . الاية وما الى ذلك من الايات البينات التي تتحدث عن نهاية المخلوقات في هذه الحياة . ثم الى جانب ذلك يقرر القرآن الكريم أن البقاء لله سبحانه وتعالى وحده فهو الأول والآخر والظاهر والباطن الذي له الخلق والحكم والتدبير واليه يرجع الامر كله " لا اله الا هو كل شئ هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون " (٤) . " كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام " (٥) .

وبعد أن قرر القرآن الكريم ان الله تعالى هو الذي خلق المخلوقات جميعا وانهم كلهم لله تعالى دائرون وان ليس هناك شئ منهم باق في هذه الحياة وان الحياة الدنيا دار امتحان واختبار جعل الله للناس فيها استقرارا ومتاعا الى وقت معلوم ثم هم راحلون عنها بعد انتهاء اجلهم المقدر المحتوم الى حيث اراد لهم خالقهم وبارئهم - بعد ذلك كله - عرض القرآن موضوع اعادة الخلق الى حياة اخرى بعد الموت وأوضح ان بدء الخلق من الله تعالى فمن يكن لله الایجاد من العدم المحض فلا شك انه قادر على الاعادة، ومن يكن البدء من نفسه فلا بد ان يكون الانتهاء اليه . " وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ... الاية " (٦) . " اليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا انه يبدأ الخلق

( ١ ) سورة الحاقة ( ١٣-١٦ ) .

( ٢ ) سورة طه آيات ( ١٠٥-١٠٧ ) .

( ٣ ) سورة الانبياء آية ( ١٠٤ ) .

( ٤ ) سورة القصص آية ( ٨٨ ) .

( ٥ ) سورة الرحمن آيات ( ٢٦-٢٧ ) .

( ٦ ) سورة الروم آية ( ٢٧ ) .

ثم يعيده . . الآية " (١) . " ان الى ربك الرجعى " (٢) . وان الله سبحانه  
وتعالى لم يخلق الخلق عبثا وانما خلقهم بالحق وكرم الانسان وفضله على سائر  
مخلوقاته ثم آتاه من القوى الروحية والمادية ما يجعله اهلا لتحمل الامانة والقيام  
بالمسئولية والواجبات المكلف بها . ثم ارسل الرسل وانزل معهم الكتاب  
وارشد الناس الى الخير والصالح ودعاهم الى ترك الشر والفساد وامرهم باشياء ونهاهم  
عن اخرى ليعلم من يخافه بالغيب ؟ فهم يعملون في هذه الحياة ويكدحون  
ليلقوا جزاء ذلك موفورا عند الله يوم الحساب فلاشئ من عمل الانسان يذهب  
سدى والله مطلع على دقائق الاعمال وجلالها وظواهرها وبواطنها فهو يحصيها  
لهم ثم يجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى " افحسبتم  
انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون " (٣) . " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى  
وهو مؤمن فلنصحينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون (٤) " .  
" وأن ليس للانسان الا ما سمى وأن سميه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى  
وأن الى ربك المنتهى " (٥) .

- 
- ( ١ ) سورة يونس آية ( ٤ ) .
  - ( ٢ ) سورة الملقا آية ( ٨ ) .
  - ( ٣ ) سورة المؤمنون آية ( ١١٥ ) .
  - ( ٤ ) سورة النحل آية ( ٩٧ ) .
  - ( ٥ ) سورة النجم آيات ( ٣٩ - ٤٢ ) .



المسألة الثالثة :- ما مهمة الانسان في الحياة ؟ او بعبارة اخرى  
لماذا خلق الله الانسان ؟

يقرر القرآن الكريم في مواطن كثيرة ان كل شئ في هذا الكون الفسيح  
مخلوق لله تعالى خاضع لارادته وتقديره مستسلم لامره وتدبيره طوعا وكرها فلا  
قدرة لشئ من خلقه ولا سلطان له على الخروج عن أمر الله وارادته ، وسواء كان  
ذلك الخضوع والاستسلام من الخلق بصورة ظاهرة او خفية محسوسة او غير محسوسة  
” وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون ” (١) . ” اولم  
يروا الى ما خلق الله من شئ يتغيروا ؟ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون  
ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ” (٢) .  
وهذا الخضوع والانقياد لله تعالى هو سير كل الكائنات وفق ارادة الله وامره بحيث  
لا تستطيع معه ان ترفض او تتوانى او تاتى وتتكسر . ” ثم استوى الى السماء وهوى  
دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين ” (٣) .

وأما الانسان فمخلوق متميز جمع الله في تكوينه الفطرى الحنصرين : الروح  
والمادة ثم جعل له قوى وطاقات متمردة غريزية وعقلية وفكرية وروحية ثم سخر له كل  
ما في الكون مما يتصل باسباب عيشه ويشبع طاقاته ومواهبه ورغباته ويملكه من اقامة  
حياة سعيدة راقية ومن نعم الله واياته المتنوعة مما لا يمكن حصره وتعداده . ويذكر  
القران ان هذا الانسان المتميز الذى رفع الله قدره بين مخلوقاته وفضله على كثير  
منهم قد خلق لمهمة جليلة يقوم بها في هذه الحياة وانه ما كان ليستحق ما منح من  
التكريم والتفضيل والميزات ومازود به من الطاقات والخصائص الفطرية الا من اجل تمكنه

( ١ ) سورة ال عمران اية ( ٧٣ ) .

( ٢ ) سورة النحل ايتا ( ٤٨-٤٩ ) .

( ٣ ) سورة فصلت اية ( ١١ ) .

من أداء مهمته في الحياة على أكمل وجه .

ونجد القرآن الكريم يقرر هذا المتصور الأعظم من إيجاد الإنسان ويحدد المهمة الكبرى المكلف بها في الحياة في آيات معدودة بعبارة واضحة صريحة على أنها هي عبادة الله وحده والخلافة عنه في الأرض ، وقد تناولها القرآن بالتفصيل والبيان في سورة وآياته البينات ونستطيع ان نقول ان موضوعات القرآن كلها من العقائد والمبادئ والمعاملات وما ذكر فيه من آيات الله الكونية المتعددة وما اورد فيه من اخبار الامم الخالية من المؤمنين والكافرين وما الى ذلك - هذه كلها - انما هي تفصيل وتوضيح لمهمة الانسان في الحياة في جزئياتها وكمياتها حتى تتضح امام الانسان معالم طريقه الى غاية وجوده ، ويبين له منهج الله الامثل الذي يجب ان يسير على مثاله لتحقيق السعادة والفوز والنجاة في الدنيا والآخرة .

وبذلك يبين القرآن نظره الشاملة في الانسان والحياة الانسانية مؤكداً الغاية التي اوجد الله الانسان من اجلها والمهمة التي كلفها في الحياة فالانسان - من ناحية - خليفة الله في الارض فهو مكلف بممارسة الكون واقامة الحياة على الاسر والسيادة والتوجيهات التي وضعها الله تعالى بينها فمن كتبه وعلى السنة رسله الكرام ليمش الناس في ظل هدى الله ونوره في سلام وأمن واستقرار وتنتهي الفتنة في الارض ويكون الدين كله لله والناس له عابدين او مستسلمون لامره خاضعون لسلطانه .

ومقتضى هذه الخلافة الربانية التي كرم الله بها الإنسان هو أن يقوم هذا الإنسان بحق هذا الاستخلاف غير القيام بعرف ربه والله حق المعرفة ويقدره حق قدره ويصدر في كل شأن من شئون حياته عن امره ويسير على هديه وتوجيهاته -

ويطيمه في كل ما أمره به ويجتنب كل ما نهى وزجر عنه ولا يتمدى الحدود المرسومة له في المهمة المكلف بها ولا يتصرف فيها كيفما يشاء حسب رأيه الخاص وهو اه بل عليه ان يسعى لتنفيذ ارادة الله وتحقيق مشيئته في الحياة واتمامة نظام هذه الحياة طبق منهج الله القويم واجراء شئونها وفق تعاليمه واوامره حتى يكون المجتمع البشرى على الصورة الناصعة التي يريد ها الله تعالى من النزاهة والجمال والخير والرشد والفلاح والسعادة وتتجلى فيه المآثر والمكارم والفضائل التي يحبها الله ويسود اجواءه الخير والمحبة والاخوة ويقضى في هذا المجتمع على كل ما ييغضه الله من صنوف الظلم والشر والفساد والفوضى ليصبح مجتمعا طاهرا نقيًا يتمتع فيه الانسان بكل ماله من حقوق ومصالح ويستطيع ان يقوم بكل ما عليه من واجبات ومسئوليات تجاه نفسه والمجتمع الذي يعيش فيه . والى جانب ذلك كله يجب على الانسان ان يبذل اقصى ماوتي من قدرات وطاقات ويستخدم كل ما زود به من معلومات واعتقن الكون والحياة الانسانية ليتصرف على آيات الله الباهرات المسخرة له في السموات والارض ويستكنه اسرارها ويفكر في طريقة استغلالها واستخراج ما فيها من المنافع والفوائد التي تعود على الجنس البشرى بالخير والسعادة والطمأنينة وتحقق له التقدم والرخاء والرفاهية وقد جاء تنويه القرآن الكريم بما شرف الله به الانسان من مهمة الاستخلاف في الارض في آيات كثيرة منها قوله تعالى : " وان قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة <sup>(١)</sup> . . . الآية " . " يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله <sup>(٢)</sup> . . . الآية .

( ١ ) سورة البقرة آية ( ٣٠ ) .

( ٢ ) سورة ص آية ( ٢٦ ) .

وقوله تعالى : " وهو الذى جعلكم خلائف فى الارض ورفق بضعكم فوق بعض درجات ليلبئوكم فى ما آتاكم ان يركسريع العقاب وانه لطفور رحيم " (١) . وقوله تعالى : " هو أنشأكم من الارض واستمركم فيها " (٢) " الآية .

ويظهر مما تقدم أن معنى استخلاف الله للإنسان فى الأرض هو اختياره وتكريمه بمهمة عمارة الكون وإقامة شئون الحياة كلها وفق منهاج الله وتنفيذ امره فى كل شئ واجراء احكامه وشريعته وتعاليمه وهذل الجهد المستطاع فى سبيل الانتفاع بما سخر الله له من مخلوقاته فى الكون لازد هار الحياة ورقبها وقيامها على دعائم الحق والعدل والخير والفلاح .

ومن ناحية أخرى فإن هذا الإنسان مخلوق ابتداءً ليعبد الله الذى أوجده من العدم وهو هب له الحياة وخلق له ما فى السموات وما فى الارض نعمة منه ونفضلاً " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (٣) . " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (٤) الآية . وليس المقصود من العبادة هنا هو الشعائر التعبدية فحسب كما يفهمه بعض الناس ولكن المقصود هو المعنى الشامل والفهوم الواسع الذى يتناول جوانب حياة الانسان كلها فيكون المراد هو توجه الانسان بكل مشاعره وانكاره واعماله الى الله تعالى يصدر عن امره ويتبع هدايه ويتقضى مرضاته فى كل ما يقوم به من شئون حياته الخاصة والعامة ولا يخرج عن نطاق هذا المعنى الشامل والفهوم الواسع للعبادة جانب من جوانب

الحياة البشرية الروحية والمادية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية فكل هذه النواحي والعيادين من الحياة الانسانية يجب ان يسير فيها الانسان مستنيراً بنور الله المبين متبهما هديه مقتفياً آثار رسله الكرام لا يخرج عن دائرة منهاج

( ١ ) سورة الأنعام آية ( ١٦٥ ) .

( ٢ ) سورة هود آية ( ٦١ ) .

( ٣ ) سورة الذاريات آية ( ٥٦ ) .

( ٤ ) سورة النحل آية ( ٣٦ ) .

الله القويم قيد شجرة وذلك لضمان إقامة الحياة على دعائم الحق والعدل والخير  
والرشاد تحقيقاً للفاية العظمى التى من أجلها خلق الانسان فى الحياة .

#### المسألة الرابعة : ما منهج الانسان فى الحياة ؟

ان رحلة الانسان فى الحياة رحلة شاقة متعبة والطرق امامه كثيرة  
متفرقة وشعب الحياة ومجالاتها متباينة ومسالك الشر والفساد فيها كثيرة والطريق  
الى الخير والصلاح واحد لا التواء فيه ولا اعوجاج والانسان مخلوق ضعيف  
يملك قدرة عقلية محدودة وما أوتى من العلم قليل فهو غير قادر على معرفة  
طريقه الى النجاة والسعادة ان هو اعتمد اعتماداً كلياً على عقله المحدود وعلمه  
القليل القاصر دون أن يستمد القوة والعون والهداية والثور من الله الخالق المدبر  
القهار . والله سبحانه وتعالى العليم بخلقه وما يصلح لهم فى الحياة وما يصلحون  
له والمنزه عن الميت والباطل ما كان ليدع الناس فى حيرة وغوض من امرهم  
يخبطون خبط عشواء ويركبون كل عمياء ويجرون وراء كل ناعق ويتمدون للامواء ،  
ويستجيون لداعى المطامع والشهوات موكولين الى انفسهم دون أن يضع الله  
لهم منهجاً قوياً متكاملًا يسيرون عليه فى شئون حياتهم فيه كل الخير والصلاح  
والرشد ، فلذلك ارسل اليهم الرسل وانزل فيهم الكتب لئلا يكون لهم عليه حجة  
من بعد ذلك .

لقد رسم القرآن الكريم طريقاً مستقيماً واضحاً يسير عليه الانسان فى الحياة  
كانت أسسه ومبادئه وتعاليمه التى قد منها فى العقيدة والتشريع والتنظيم والالهالات  
مثالاً للبشرية لايبلغ مستواها فى الرفعة والكمال والشمول اى نظام من وضع البشر  
كما ان منهجه فى التربية والاصلاح فريد من نوعه شامل متكامل لا يعجزه نقص

ولا قصور وتم راعى فيه الحق ثبارك وتعالى فطرة الانسان وطبيعته وحدود طاقاته ومضالحه وملابس حياته " ان هذا القرآن يهدى للتي هي اقوم (١) " الاية .  
 " ونزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شئ " وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٢) " وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الايات لقوم يذكر ون (٣) " فمن اتبع هدى الله ونوره وسار على نهجه السوى واستسلم لله وخضع خضوعا كاملا لامره وحكم شريعته فى كل شأن من شئون الحياة لا يقبل بها بدلا ولا يعفى عنها حولا فى اى حال من الاحوال فانه يضمن لنفسه الحياة الطيبة السعيدة وتمكين الله له فى الارض .  
 وبذلك يسير فى رحلة الحياة آمنا مطمئنا ، يجد طريق الخير والصلاح والسلام مهيذا امامه فيسابق اليه ويرى سبل الشر والفساد مكشوفة ظاهرة فيجتنبها ويفسر منها الى الله تعالى ليسلم من الضلال والتهيه والهلاك وينال اجر الجزيل والثواب العظيم الذى أعد الله للمتقين يوم الصعاد " قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (٤) " وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (٥) " .  
 وأما من يرفض السير على هدى الله ونوره وابتغى غير منهجه طريقا واتبع هواه وانساق وراء اللذات والشهوات وزخارف الدنيا الفانية وتمرد على الله فانه يضل عن سواه السبيل ويشقى فى الحياة شقاء بالفا وهو فى الاخرة مسكين

( ١ ) سورة الاسراء اية ( ٩ ) .

( ٢ ) سورة النحل اية ( ٨٩ ) .

( ٣ ) سورة الانعام اية ( ١٢٦ ) .

( ٤ ) سورة البقرة ايتا ( ٣٨-٣٩ ) .

( ٥ ) سورة الانعام اية ( ١٥٣ ) .

الخاسرين . " فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من  
خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى (١) . " ومن اعرض  
عن ذكرى فإن له ممشية ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى (٢) . " ومن يبتغ غير الإسلام  
دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (٣) . "

...

#### رابعا : التشريعات والتنظيمات الإسلامية :

ان التشريعات والتنظيمات الإسلامية هي الاصول العامة والقواعد الكلية  
والجاذية والاسس والقيم الثابتة التي عرضها القرآن الكريم وفصلتها الستة الطهارة  
لتحديد منهج الله التوجيه الذي ينبغي ان تسير الحياة البشرية على منواله . وقد  
جاءت هذه التفصيلات شاملة لجميع شئون الانسان في شتى مجالات الحياة الروحية  
والمادية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية بحيث تتناول جوانب  
الحياة البشرية في جزئياتها وکلياتها على السواء .

واننا نلاحظ ان منهج القرآن الكريم في تكوين الشخصية المسلمة تكويناً  
صالحاً نموذجياً ومنهج المجتمع الاسلامي على الحق والمعدل هو ترسيخ المقييـدة  
الاسلامية الصحيحة في نفوس المسلمين وتمييق جذور الايمان في قلوبهم واعطائهم  
فكرة واسعة شاملة عن حقائق الكون المتصلة بالحياة الانسانية من اجل تربية  
هذه النفوس وتهيئتها لتكون صالحة لحمل المسئوليات وتحمل التكاليف والاوامر  
الشرعية والالتزامات الاخلاقية التي تطالب بها بعد ذلك . لذلك نرى ان

( ١ ) سورة النازعات آيات ( ٤٧ - ٤٨ ) .

( ٢ ) سورة طه آية ( ١٣٤ ) .

( ٣ ) سورة ال عمران آية ( ٨٥ ) .

التشريعات والتنظيمات التي تناولها القرآن لم تنزل الا بعد ان استقامت نفوس المسلمين على الحق وتهذيب طبائعهم واتسعت افكارهم عن طبائع الاشياء واعتدلت نظرتهم اليها فاصبحوا مهيين ومعددين اعدادا نموذجيا للتقيل والطاعة والتنفيذ . واما كان ذلك كذلك لان طبيعة اقرارهم لله بالا لوهية والربوبية والحاكمية وتصديقهم باليوم الآخر والملائكة والرسول والكتب تفرض عليهم السمع والطاعة والوقوف عند امر الله والتزام تعاليمه وتوجيهاته وتحكم شريعته في كل شأن من شئون حياتهم الخاصة والعامة لا يحيدون عن ذلك قيد شبر ولا يصرفهم عنه اى صارف مهما كان ولا يتجهون شمالا او يمينا ملتجئين النظم والقوانين مستورد بين الافكار والنظريات من امم الارض التي لم تهتد الى ما كانوا عليه من الحق البين لانهم على يقين تام بانهم هم الاعزة والاعلون بينما كان كل من سواهم من قوى الأرض الطاغية اذلة اسفلين . فما كانوا يهبطون من المستوى الرفيع الذى ارتقوا اليه لينحدروا إلى الحضيض الذى تتمرغ فيه البشرية فى ضلال وفساد وهلاك .

وفى مواطن كثيرة من القرآن الكريم وصف الله تعالى حال المؤمنين الاوائل الذين التفتوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم مينا قوة عقيدتهم فى الله وتصديقهم بكل ما جاءهم من عنده وخضوعهم وانقيادهم لامره واستقامتهم على الحق ، ولا يكادون يبلفون بامر الهى ويسمونه إلا ويبادرون إلى التنفيذ والامثال وبذلك استقامت حياتهم حتى صارت نموذجا حيا فى الحق والعدل وصورة رائعة فى الخير والصلاح هى اقصى ما تستطيعه القدرة البشرية " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " (١) . " الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة



وأمرُوا بالصبر ، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور " (١) .

والقرآن الكريم في منهجه الاصلاحى الترهوى يقرن بين التشريعات والتنظيمات وبين الايمان ويجعل صحة الايمان اساساً متيناً تتبنى عليه الاعمال فى الاسلام صحة وقبولاً بالاضافة الى ما ذكرنا حول المرحلة التمهيدية التى سبقت زمن نزول هذه التشريعات والتنظيمات حيث عنى فيها بترسيخ العقيدة الاسلامية الصحيحة فى النفوس وتوضيح التصورات الاسلامية الحقة وتجلية الحقائق المتعلقة بالكون والانسان والحياة الانسانية لاعداد نفس عميق وتربية روحية قويمـة ظهر ذلك بصورة واضحة طول المهد المدنى من الدعوة ثم حينما بدأت هذه التشريعات والنظم تنزل على المسلمين فى المهد المدنى من الدعوة لم تنزل دفعة واحدة وانما كانت تنزل مفرقة حسبما تقتضيه الحاجات والظروف والاحوال فكانت تعالج القضايا وتحل المشكلات وتتراسس اساساً ثابتة وصادى عامة وقواعد كلية وتضع قيماناً اخلاقية رفيعة لاعداد العناصر الصالحة التى يتكون منها المجتمع وتنشأ منها الامة الموحدة .

واذا علمنا ان التشريعات والتنظيمات الاسلامية تكاليف وواجبات وتبعات سواء منها ما كان يمس المبدأ وربه وما كان بينه وبين الناس من حوله والمجتمع الذى يعيش فيه فاننا ندرك بالتالى بعض الاسباب التى من أجلها ربط القرآن بينها وبين الايمان وجعلها مترتبة عليه وكان دائماً يوجه الخطاب الى المؤمنين كما جعل تحقيق الايمان من خلال امثال المسلم او امر الله تعالى واجتناب نواهيه ان لا يقوم بذلك ولا يلتزم به على الوجه المطلوب الا المؤمنون الصادقون الذين

استجابوا لله ووجهوا وجوههم له خففاء غير مشركين به مستقيمين على الحق غير مرتابين  
 " ألم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون  
 الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة  
 هم يوقنون " (١) . وقد استخدم القرآن الكريم عبارات متعددة للدلالة على  
 ما تقدم بيانه من الارتباط الوثيق القائم بين التكليف الشرعية و الايمان ، ومن  
 هذه العبارات المتنوعة ( يا ايها الذين آمنوا اعملوا كذا أو لا تفعلوا كذا وكذا )  
 (و) لا تفعلوا كذا او اعملوا كذا ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر (و) من يفعل  
 كذا وكذا وهو مؤمن (و) لا يؤمن حتى يفعل كذا وكذا (و) ما كان لمؤمن ان يفعل  
 كذا (و) لا تجد قوما او جماعة يؤمنون بالله واليوم الآخر يفعلون كذا وكذا . .  
 وما الى ذلك . ولنستعرض بعض الامثلة من الايات التي وردت فيها هذه التسميات  
 القرآنية لنرى ما بين التكليف الشرعية و الايمان من تلازم وتوافق في المنهج  
 الرباني للحياة البشرية ، وقد ورد في معرض الحديث عن طاعة الله ورسوله  
 وطاعة اولى الامر في غير محضية الله تعالى والتحاكم الي شريعته الخراء قوله تعالى :  
 " يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم فان تنازعتم  
 في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير  
 واحسن تاويلا (٢) " . وقوله : " انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله  
 ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا وأولئك هم المفلحون " (٣) .  
 وورد في حديث القرآن عن المحرمات والفواحش والمنكرات ودعوة المسلمين الى

( ١ ) سورة البقرة ايات ( ١-٤ ) .

( ٢ ) سورة النساء اية ( ٥٩ ) .

( ٣ ) سورة النور اية ( ٥١ ) .

تطهير انفسهم ومجتمعهم منها واقامة حدود الله فى المخالفين قوله تعالى :  
 " يا ايها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان  
 فاجتنبوه لعلكم تفلحون (١) " . وقوله تعالى " الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد  
 منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رافة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم  
 الآخر . . . . . الاية (٢) " . وورد فى حديث القرآن عن اخلاص الحب والولاء  
 لله ورسوله قوله تعالى : " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من  
 حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك  
 كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه . . . . . الاية (٣) " وورد فى بيان أسس  
 التعامل التجارى بين المسلمين قوله تعالى : " يا ايها الذين امنوا لا تاكلوا  
 اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض مكرم . . . . . الاية (٤) " . وقوله  
 تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم  
 تفلحون (٥) " . وجاء فى بناء الاسرة وعلاقات بعضها ببعض فى الاسلام آيات  
 كثيرة منها قوله تعالى : " ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولا مة مؤمنة خير من  
 مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو  
 اعجبكم أولئك يدعون الى النار . . . . . الاية (٦) " . وقوله تعالى : " يا أيها الذين  
 آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد

( ١ ) سورة المائدة اية ( ٥٠ )

( ٢ ) سورة النور اية ( ٢ ) .

( ٣ ) سورة المجادلة اية ( ٢٢ ) .

( ٤ ) سورة النساء اية ( ٢٩ ) .

( ٥ ) سورة آل عمران اية ( ١٣٠ )

( ٦ ) سورة البقرة اية ( ٢٢١ ) .

لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (١) . " وقوله تعالى : " يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لمدتهن واحصوا المدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة . . . . . " الى ان قال : " ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . . . . . الآية (٢) . وورد في القيم الاخلاقية ، والاداب الرفيعة قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (٣) " وكذلك قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تباہزوا بالالاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم (٤) " . وليس في استطاعتنا في هذا المقام سرد آيات الاحكام والتشريعات والنظم التي وردت في هذا الشأن ولكن يكفي اننا أوضحنا من خلال هذا الاستعراض ان التشريعات والنظم الاسلامية وثيقة الصلة بمسألة الايمان وانهما متلازمان فلا يصح عزل دون ايمان صحيح ولا يستقيم ايمان المرء ولا يتحقق استقراره في القلب الا اذا انعكست اثاره على سلوك الانسان . فبقدر قوة الايمان ورسوخه في القلب تكون اثاره في سلوك الانسان في الحياة من حيث مظهره لمنهاج الله القويم وموافقه لما أنزله من الحق الصين .

- 
- (١) سورة التحريم آية (٦) .  
 (٢) سورة الطلاق آيات (١-٣) .  
 (٣) سورة التوبة آية (١١٩) .  
 (٤) سورة الحجرات آيات (١١-١٢) .

وبعد ذلك كله يجب أن نعلم أن الخالق سبحانه وتعالى قد راعى فى هذه التشريعات والنظم المطابقة التامة لحاجات فطرة البشر وملابس حياتهم فهى من حيث محتوياتها ومضامينها متكاملة شاملة تناول جميع جوانب الحياة الإنسانية ومن حيث التكليف والواجبات التى تفرضها على الإنسان والحقوق التى تطالب بها والمصالح والمنافع التى تكفلها له قد حققت التوازن بين مطالب الروح ورغائب المادة وبين مصالح الدنيا والآخرة وبين مصالح الفرد والجماعة وما إلى ذلك كما أنها من ناحية الأزمان والبيئات المختلفة تتصف بالمرونة والحيوية فهى قابلة للتشكل والتوسع والامتداد فى معالجة القضايا المستجدة على النحو الذى يتفق مع أصولها العامة وقواعد الكلية ، ومن أجل ذلك كان باب الاجتهاد مفتوحاً فى كل عصر وكل بيئة إذا توفرت شروطه لتفهم ما يمرض للمجتمع المسلم من قضايا ومشكلات مستجدة وإيجاد حلول مناسبة لها على ضوء الكتاب والسنة .

...

#### خامساً : القيم والتوجيهات الأخلاقية :

فى المنهاج الأخلاقى الإسلامى يقرر القرآن الكريم قيماً وتوجيهات رفيعة بنيت على ركيزة العقيدة الصحيحة وكان بينهما من التلازم الكامل والتوافق التام بحيث لا يمكن الفصل بينهما بأى حال ، فالأخلاقيات الإسلامية قائمة على دعامة خشية الله وتقواه وقد أخذ الله ميثاق عباده المؤمنين حين أذعنوا له وألزموا أنفسهم بالسمع والطاعة " واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليهم بذا الصدد " (١) . ولذلك كانت الأخلاق

في التصور الاسلامي مرتبطة بالدين مستمدة منه لا يمكن ان تنفصل عنه او تخالفه ،  
ولا تقرر خارج نطاقه ان لا تغاير ولا تباين بين التصورات والافكار والسلوك العقلي  
في الاسلام .

وان هذه القيم والتوجيهات الاخلاقية قواعد اساسية ثابتة لانها ترتبط  
بالكيان الانساني الذي هو ذاته عنصر ثابت وليست ناتجة من متغيرات المجتسـم  
وتطورات الحضارات وثقافات الظروف الاقتصادية واختلاف الازمان والبيئات  
” ونفس وما سواها فالهـمها فجورها وثقواها قد افلح من زكاهـا وقد خاب من  
دساها “ (١) . وبذلك نرى أن طابع الثبات في الاخلاق في التصور الاسلامي  
يرجع الى طبيعة الانسان ونظـرته التي لا تتغير ولا تتبدل باختلاف الاجناس وتباين  
الازمان والبيئات لان الحوافز والفرائض والصفات التي اودعها الله في فطرة  
الانسان منذ أن خلق الله البشر لم تتغير ولم تتبدل فالحقائق الثابتة في  
الانسان باقية كما هي لا يتطرق اليها التفسير والتحويل ولذلك فان طابع  
الثبات في العقيدة واصل الشريعة وقواعدها والقيم والتوجيهات الخلقية اساس  
متين ومبدأ أصيل قهره الاسلام لكي يمين الانسان على مواجهة التغيرات والتطورات  
في الحياة . ولو ان الحقائق المتمثلة بفطرة الانسان غير ثابتة بحيث تختلف  
الحوافز والفرائض والصفات في كل جنس وكل عصر وكل بيئة لكان الانسان فسي  
حاجة الى ان يمتص اسس وقواعد غير ثابتة في العقيدة واصل الشريعة والقيم  
الخلقية حتى تكون لكل جنس وكل عصر وكل بيئة قواعد واصل مستقلة تختلف بطبيعة  
الحال حسب اختلاف طبائع الاجناس البشرية وتباين الظروف والامـاـع والعصـور  
والبيئات وذلك مخالف للحقيقة القائمة مخالف لسنة الله في خلقه فمادت الحقائق

المتصلة بفطرة الانسان ثابتة فقد اقتضت حكمة الخالق سبحانه وتعالى ان يعطيه  
تبعا لذلك اسسا وقواعد ثابتة في العقيدة والشريمة والاخلاق .

وبالاضافة الى كل ما تقدم فان القيم والتوجيهات الاخلاقية في الاسلام شاملة

متكاملة فهي ليست محصورة في جانب معين من جوانب الحياة البشرية بحيث  
تهمل بقية الجوانب أو تغفل عنها بل هي اسعومبادىء تناولت جميع تصرفات  
الانسان وعلاقاته في المجتمع فكل اعمال الانسان في الحياة صغيرة كانت او كبيرة  
في خاصة نفسه او في علاقاته مع بنى جنسه او حتى مع الحيوان كل ذلك بلا شك  
داخل في دائرة القيم الاخلاقية الاسلامية . ولا مجال اطلاقا في التصور الاسلامى  
لفكرة التفريق بين اعمال الانسان ومجالات نشاطه في الحياة بحيث يكون بعضها  
داخل في دائرة الاخلاق بينما يكون البعض الاخر خارجا من هذه الدائرة أصلا  
وكما هو معلوم في نظم وقوانين الامم الاخرى غير المسلمة لم يطاوعدها ان الحياة  
العملية تعتبر خارجة تماما من مفهوم الدين والاخلاق (١) عند هم . ولذلك

( ١ ) وهذا لا ينفى وجود بعض الاعمال والصفات الانسانية البارزة في حياة  
هؤلاء القوم الا انهم لا يصدرون فيها عن عقيدة صحيحة ولا يلتزمون  
بالمعايير الثابتة من الحق والفضيلة . وكما هي الحال في الجاهلية العربية  
قبل الاسلام حيث كانت توجد بعض الاعمال والصفات الحسنة انحرف فيها  
الناس الى حد كبير اذ كانوا يصدرون فيها عن الاهواء والمطامع والمنافع  
الماجلة وكذلك الامر بالنسبة للجاهليات الحديثة المتمثلة في الدول الغربية  
والشرقية الكافرة فقد وجدت عند ما بعض الاعمال والصفات النفعيية  
يلتزم بها الناس ويدعون غيرهم اليها ويعيرون على من تقاعس عنها الا أن  
هذه الاعمال والصفات والماديات انحلت الى العقيدة الصحيحة بصلابة  
ولا تستظل بالمعايير الانسانية الثابتة على دعائم الحق والعدل والفضيلة  
وانما هي في الحقيقة قائمة على ركيزة الاهواء والمصالح والمنافع الدنيوية  
الماجلة وبذلك فقد تاصلتها وشباتها وفقدت تبعا لذلك قوتها  
وفعالياتها في التأثير التلقائي على قلوب الناس وفي سلوكهم المطلق في  
الحياة .

فان شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلاقات الاسرية وغيرها لا تخضع لهيمنة الدين ولا ترتبط بالاخلاق الفاضلة .

وأما في الاسلام فقد فصل القرآن الكريم منهجه الاخلاقي وربطه بالمعتمدة الصحيحة وجعل جميع اعمال الانسان في الحياة خاضعة لمقياس اخلاقي وذلك لما اوشى هذا الانسان من القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار والقدرة على تحصيل المعرفة مما يميته على التعرف على الحسن والقبح والخير والشر . " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من نساها " (١) وبذلك يتميز الانسان عن الحيوان الذي لا توجد فيه هذه القدرات والطاقات مما جعل اعماله غير خاضعة للقيم الاخلاقية لانها اعمال عفوية تصدر بغضبيته وإرادة ولاشعور .

ولقد عرض القرآن الكريم مجموعة من التوجيهات الخلقية التي تهدف الى تحقيق غايات انسانية سامية لكي يصبح الانسان بسلوكه المملى اقرب ما يكون الى الخير والصالح وذلك حينما تتمثل في شخصه صورة عالية من الاخلاق ويكون في المستوى اللائق بكرامة الانسان والمتفق مع ما خلق له من عبادة خالقه والخلافة عنه في الارض . وان هذا الاصلاح الخلقى الرفيع الذي بسط القرآن أسسه ومبادئه امام المسلمين مع ما تتمم الحديث عنه من التغيير النفساني العميق الذي أنشأه الايمان بالله واليوم الآخر هما أعلى مراتب الإصلاح والتغيير لصالح الفرد وصالح الجماعة فقد كانت عناية القرآن بالجانب الاخلاقي من اجل تكوين عناصر قوية وافراد صالحين يكونون لهبات قوية في بناء مجتمع اسلامي فاضل يسير على هدى الله وينفذ ارادته .



وإن الاخلاقيات الاسلامية التي قررها القرآن الكريم كثيرة متعددة وهي مبثوثة في اماكن كثيرة من سوره وآياته الكريكات ، ولا يمكن ان تستوعب جميعها في مثل هذا المقام ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله . وسنخرج على ذكر أهم هذه الفضائل الاخلاقية التي قررها القرآن وتدب المسلمين الى التحلى بها لبلوغ أقصى ما تسمح به القدرة البشرية من الصلاح والكمال ثم بعد ذلك نورد عليها أمثلة رائعة من الايات البينات التي تشتمل عليها .

ومن هذه الاخلاق الفاضلة والاداب الرفيعة : اقامة الحق والعدل بين الناس والبر والتقوى والصدق والوفاء بالمعهود واداء الامانة والصبر على الشدائد والثبات على الحق والمغفوة والصفح وكظم الغيظ وسلامة الصدر والاحسان والرحمة والشفقة وحبا الخير لجميع الناس والتعاون والتناصر على البر والتناصح في الدين والتواصي بالحق وايثار محبة الله وطاعته والاستعلاء بالايمان على كل اوضاع الارض والتحاب والتواد في الله والتضحية والتفاني في سبيل الحق واخسلاص النية والحمل لله تعالى وقصد وجهه ومرضاته في جميع الامور والاستعلاء بطاعة الله وتقواه على الهوى والشهوات والطلذات والمصالح والتواضع والحياء والمغفة والنزاهة ومعرفة الواجب وادائه وما الى ذلك . ولنستعرض بعض الايات البينات التي تشتمل على هذه الاخلاق الفاضلة والصفات الحميدة التي تشحن المؤمنين بطاقات عظيمة وترفعهم من حضيض الحيوانية والسادية الى اعلى مستوى الانسانية وتحلق بهم في آفاق الكمال البشري .

ومن ذلك قول الله تعالى : " ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعم بما يحفظكم به ان الله كان سميما بصيرا . " (١) . وقوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء

لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين . ان يكن غنيا أو فقيرا قاله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى . ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا (١) . وقوله تعالى : أنمّن يعلم اننا انزل اليك من ربك الحق كمن همو أعى انما يتذكر اولو الالباب الذين يوفون بعهده الله ولا يفتخون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدعون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار " (٢) . وقوله تعالى : " والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحسب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويوسفون فى الارض يغير الحق أولئك لهم عذاب اليم . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور (٣) " . وهذه الايات وغيرها تتضمن التوجيهات الاخلاقية الرفيعة التى يدعو الاسلام المسلمين الى وجوب تطبيقها فى علاقاتهم ببعضهم مع بعض ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

...

---

( ١ ) سورة النساء اية ( ١٣٥ ) .  
 ( ٢ ) سورة الرعد ايات ( ٢٢-١٩ ) .  
 ( ٣ ) سورة الشورى ايات ( ٤٣-٣٧ ) .

## المبحث الثاني

### السنة النبوية المطهرة

تحدثت في الفصل السابق حديثاً مفصلاً مستفيضاً عن القرآن الكريم ومنهجه التربوي الاصلاحى فى تنشئة الجيل الاول من المسلمين وعرضت نماذج من أهم الموضوعات التى عالجها القرآن وحسم مادتها وبينتها ووضحها بطلا مجال مقصده لادنى لبس او غموض فكان لها الاثر البالغ فى ذلك التكوين الجديد، وذلك بما فتحه القرآن أمام المسلمين من آفاق واسعة فى المعرفة الحقة بالخالق سبحانه وتعالى فى الوهيته وربوبيته وما يتصل بذلك من أمور العبودية وبما وضعه أمامهم من تصور صحيح وفكرة شاملة عن حقائق الأمور المتعلقة بالإنسان والكون والحياة وبما قرره من تشريعات عادلة واخلاقيات واداب سامية لاسبيل للبشرية الى اقامة الحق والعدل وتحقيق الفوز والنجاة فى الحياة الا بالتمسك بما جاء فيها وقبول السير على هديها .

واما فى حديثنا عن السنة المطهرة فى منهجها التربوي الاصلاحى بوصفها هى الاخرى عاملاً مؤثراً فى حياة ذلك الجيل الاول الفذ فلسنا بحاجة الى الاسهاب فيه مثلما فعلنا فى الحديث عن القرآن وذلك لان السنة فى الحقيقة مشتملة على جميع الموضوعات الواردة فى القرآن ، فكل ما تقدم الحديث عنه فمضى موضوعات القرآن فبما كاننا ان نقوله فى معرض حديثنا هنا عن السنة ونمثل له بامثلة وافرة او ان نختار موضوعات اخرى غير تلك، وأياً ما فعلنا من ذلك فسنجد ان السنة المطهرة تشتمل على كل ما جاء فى القرآن من الموضوعات والصائل مع مزيد بيان وتفصيلات وايضاحات وبذلك يتضح لنا كون السنة بياناً تفصيلياً وشرحاً توضيحياً لصائل القرآن وموضوعاته .

وقد ورد في بعض آيات القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والحكمة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وآتاه من العلم والفقه ما لم يكن يعلم من قبل وكذلك جاء في تحديد القرآن لمهمة الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة لهذا الكتاب المنزل عليه أنه مكلف بتبليغ رسالة ربه إلى الناس يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويبين لهم ما نزل إليهم ، يفصله لهم ويوضح مراميهم ومضامينه ، ويبدو واضحا من اقتران ذكر الكتاب بالحكمة وعطفها عليه ان الحكمة المشار اليها في بعض آيات القرآن شيء آخر غير القرآن فهي - كما قال جمهور العلماء - والمحققين - ما أطلعهم الله عليه وعلمهم من أسرار دينه وتفصيلات احكام شريعته وبيان اصولها العامة وقواعد الكليمة وذلك ما يصر عنه بالسنة . قال تعالى " .. وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما " (١) . وقال تعالى : " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين " (٢) . وقال تعالى : " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون " (٣) وفي الحديث عن المقدام بن محمد يكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : " ألا انسى أوتيت الكتاب ومثله معه " (٤) .

ولقد أمر الله تعالى المسلمين بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واخبرهم أن ذلك من طاعته تعالى ، كما جمل اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم دليل

( ١ ) سورة النساء اية ( ١١٣ ) .

( ٢ ) سورة آل عمران اية ( ١٦٤ ) .

( ٣ ) سورة النحل اية ( ٤٤ ) .

( ٤ ) رواه ابو داود . ( في كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ٤ / ٢٠٠ )

صدق حب المسلمين لله تعالى وانقيادهم له ، فكان لزاما عليهم ان يمثلوا لكل ما أمر به ويحتجوا مانهى عنه وينزلوا عند حكمه فى كل شأن ويردوا ما قد يختلفون او يتنازعون فيه الى الله ورسوله . وقد حذرهم تحذيرا شديدا من مخالفة أمره ، جاء ذلك كله فى آيات كثيرة متعددة فى القرآن منها قوله تعالى : " من يطع الرسول فقد أطاع الله . . . الآية (١) " . وقوله تعالى : " قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . . . الآية " (٢) . وقوله تعالى : " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب " (٣) وقوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم . فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا " (٤) . وجمهور العلماء على ان المراد <sup>بذلك</sup> بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم رد الشىء المتنازع فيه الى الكتاب والسنة وكذا ما جاء فى قوله تعالى : " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " (٥) . والمضى تحكيم الكتاب والسنة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " دعونى ما ترككم انما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على انبيائهم فاذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه واذا امرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم " (٦) . وقال الله تعالى : " فليحذر الذين يخالفون

( ١ ) سورة النساء آية ( ٨٠ ) .

( ٢ ) آل عمران آية ( ٢١ ) .

( ٣ ) العنكبوت آية ( ٧ ) .

( ٤ ) سورة النساء آية ( ٥٩ ) .

( ٥ ) سورة النساء آية ( ٦٥ ) .

( ٦ ) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتراف بسنن النبي صلى

الله عليه وسلم ١٤٢ / ٨ .

عن أمره ان تصيهم فتنة<sup>\*</sup> او يصيهم عذاب أليم<sup>(١)</sup> . فبهذه الاوامر القاطمة التي وردت في وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وامثال اوامره واجتناب نواهيه يكون كل ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم مقصودا به التشريع والاقتداء ملزما وحجة على المسلمين ومصدرا تشريعيا تستنبط منه الاحكام الشرعية الى جانب القرآن الكريم وذلك لان الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله تعالى فهو مكلف بتبيين ما نزل اليه وتعاليم الناس امور دينهم وهو بعيد كل البعد عن الهوى واللهو والباطل حينما يؤدي مهمته الجليلة<sup>\*</sup> وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى<sup>(٢)</sup> وبذلك يتضح لنا أن السنة صينة وموضحة لما جاء في القرآن فهي ملزمة كالقرآن وواجبة التنفيذ والاتباع . ولقد كان المسلمون الاوائل يعلمون أن أوامر القرآن وأوامر الرسول كليهما صادرة من عند الله تعالى وانهما مصدران اساسيان في التشريع الاسلامي أوجب الله على المسلمين اتباعهما والتزام حدودهما ابتغاء لرضا الله وخوفا من عذابه الشديد . فقد كانوا يأخذون كل ما جاء في الكتاب والسنة بجدية فائقة ويحرصون على التنفيذ الفوري والتطبيق العملي الشامل لكل ما بلغهم عن الله ورسوله لا يتوانون في شيء من ذلك ولا يتلذذون أو يترددون او يحسبون في انفسهم حرجا او نقيصة وانما كانوا يذعنون ويسلمون ويلتزمون ويتبعون كل حسب قدرته وطاقته .

وقد ورد في كتب السنة أمثلة كثيرة رائعة تصور لنا جدية هؤلاء المسلمين الاوائل في الاخذ بالسنة واهتمامهم البالغ بتنفيذ اوامر الرسول صلى الله عليه وسلم

---

( ١ ) سورة الطور اية ( ٦٣ ) .  
( ٢ ) سورة النجم ايتا ( ٣-٤ ) .

واجتناب نواهيه وحرصهم الشديد على تطبيق توجيهاته الرشيدة حتى ما جاء منها في معرض الاداب فما كانت نفوسهم تسوغ لهم مناقشته في قليل من ذلك أو كثير فضلا عن مخالفته وعصيانه . ومن أمثله ما ورد في ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيسة عينا ينظرون ما صنعت غير أبي سفيان . . . . الى ان قال : فاطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبقوا المشركين الى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقد من أحد منكم الى شيء حتى أكون أنا دونه " فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض " قال يقول عمير بن الحمام الانصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال " نعم " قال : بخ بخ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يحملك على قولك بخ بخ " قال لا والله يا رسول الله الا رجاء أن أكون من أهلها . قال " فأنك من أهلها " فاخرج تمرات من ترته فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . قال قرص بما كان معه من التمر ثم قال لهم حتى قتل (١) . وحدث ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال : " يعمد احدكم الى جمره من نار فيجعلها في يده " فقبل للرجل بعمد ما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا خاتمك انتفع به قال لا والله لا آخذه أبدا ، وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . وعن المصروع بن سويد قال : لقيت أبا ذر رضي الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسأله عن ذلك فقال اني سابيت رجلا فعميرته بأمة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر أعميرته بأمة ؟

( ١ ) رواه مسلم في كتاب الامارة باب شهوت الجنة للشهيد ٤٤/١٣ - ٤٦ ، شرح

مسلم للنووي .

( ٢ ) رواه مسلم في كتاب اللباس باب تحريم خاتم الذهب على الرجال ،

٦٥-٦٦/١٤

انك امرؤ فيك جاهلية اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيدكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ما يأكل وليلبسه ما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم (١) . وعن عمر بن ابي سلمة " ربيب رسول الله " قال " كنت غلاما في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصحيفة فقال لى رسول الله : " يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فما زالت تلك طعمتنى بعد " (٢) . وعن ابي بكر بن عبد الله بن قيس عن ابيه قال سمعت ابي رضى الله عنه وهو بحضرة المدو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف " فقام رجل رث الهيئة فقال يا ابا موسى آنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا قال : " نعم " قال فرجع الى اصحابه فقال أقرأ عليكم السلام ثم كسرجفن سيفه فالتاه ثم مشى بسيفه الى المدو فضرب به حتى قتل (٣) .

هكذا كان المسلمون الاوائل يأخذون اوامر الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الجدوية الفاعلة وقد فهموا ان السنة المطهرة هي المصدر الثاني للتلقى بعد القرآن فهي التي تبين ما ورد في القرآن الكريم من احكام وتعاليم وعبادى وافكار ومفاهيم وعرفوا كذلك ان الحمل بتكاليف الاسلام وواجباته على الوجه الاكمل وفهم روح الدين ومقاصده كل ذلك لا يمكن باى حال الا بالاخذ بالتطبيقات العملية التي تصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم في بيان أمور الدين فلذلك كانوا يصدرون في جميع اعمالهم وفق نور الكتاب الصين وعلى هدى السنة

( ١ ) رواه البخارى في كتاب الايمان باب المصاى من أمر الجاهلية ١/ ١٣٠

( ٢ ) رواه البخارى في كتاب الاطعمة باب التسمية على الطعام والاكل باليمين

١٩٦/٦

( ٣ ) رواه مسلم في كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد ١٣/ ٤٦ شرح النووى

المطبعة المصرية .



المطهرة ويخضعون جميع شئونهم في الحياة لهيضة الدين الحنيف وتحاليمه  
السمة ولا يخرجون من اطاره قيد شبر .

واننا نلاحظ ان القرآن الكريم قد اتبع منها تفصليا فيما عرضه من موضوعات  
حول تقرير العقائد الاسلامية من الوهية الله وربوبيته وعقيدة اليوم الاخر وما يتصل  
به الى غير ذلك من المسائل مع مزيد من التركيز والاهتمام والتفصيل والبيان  
فيما يتعلق بقضية الألوهية بينما نجد السنة في هذه الموضوعات تقر وتؤكد المعاني  
الواردة في ذلك في القرآن مع بعض البيانات التفصيلية التوضيحية .

وأما الشرائع التعبدية والمعاملات فمنهج القرآن فيها ايراد الشريعة  
او المعاملة مجملا من غير بيان تفصيلي تاركا مهمة ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم  
ولذلك وجدنا السنة شارحة مفصلة ومحددة لجميع الموضوعات في هذا المجال .

وأما في الامور المدنية والجنائية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية  
والعلاقات الدولية وغيرها فقد وردت بشأنها في القرآن الكريم تشريعات وقوانين  
ومبادئ ومفاهيم جاءت في معظم الحالات رؤوس موضوعات وعناوين بارزة مترجمة  
بشيء قليل من التفصيل احيانا ثم جاءت السنة المطهرة ففصلتها وشرحتها وبينت  
مراميها ومضامينها وحددت مفاهيمها تحديدا دقيقا شاملا . ومن المعلوم  
في دراسة الشريعة الاسلامية ان القرآن الكريم وهو يقرر هذه المبادئ والقيم  
ويضع هذه التشريعات لم يتعمق في ذكر البيانات التفصيلية المتعلقة بكل قضية  
عرضها وانما ترك مهمة ذلك للرسول المعلم المكلف بتبيين ذلك للناس . وقد  
وافقتنا السنة المطهرة بطلا مجال معه لقيام لبس أو غموض أو قصور في فهم أمور الدين  
وشئون الحياة الانسانية .

ونعود بعد ذلك كله لنقرر ان منهج القرآن الكريم ومنهج السنة المطهرة في التوجيه التربوي والاصلاح الروحي والاخلاق متكاملان شاملان يسيران في اتجاه موحد وعلى طريق واحد مما كان له الاثر البالغ في تنشئة الجيل الاول من هذه الامة واخراجة رائدا رائدا للامم كلها يدعوهم الى الخير والصالح ويتقذهم من مآفات الجهل والفساد والهلاك.

...

### المبحث الثالث : القدوة الحسنة في شخصية الرسول

صلى الله عليه وسلم

ليس في وسع أي باحث مهما كان اطلاعاً واسماداً ثاقفة عالية أن يحيط بجميع جوانب الكمال أو يكشف عن جميع أسرار المنظمة المتمثلة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم نعمها أوتي من قوة البلاغة وقوة التعبير وقوة التصوير فلن يستطيع أن يوفى الرسول صلى الله عليه وسلم حقه كاملاً في أية ناحية من نواحي كماله وعظمته فضلاً عن الإحاطة بها جميعاً . فالحديث عن شخصية هذا الرسول الكريم حديث عن أعظم إنسان وأكرم بشر عرفته الدنيا على الإطلاق .

ولقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم اسمي صفات الكمال وأبلغ معاني الحسن والجمال كما حوى في شخصه الكريم آفاقاً عالية من العظمة كانت متعددة الجوانب شاملة مستوعبة اشتملت على جميع ما تفرق في غيره من كريم الخصال وحسن الصفات والأخلاق دون أن يبلغوا في ذلك المستوى الرفيع الذي بلغه صلى الله عليه وسلم من الكمال .

وإذا كانت عظمة الرجال تناس بأمور عظام في مجالات الحياة الإنسانية يكون الزعيم أو الصيرى قد نجح في بعضها وحقق لأمته مهمة جليلة ترفع من شأنها بين الأمم وتحلق بها في سماء المجد والسؤدد فإن ما عهدناه فيمن يمدون مسن عظماء الدنيا وعياقة التاريخ ونوابغ الدهر انهم كانوا إذا أحسوا بثقل الأوضاع القائمة والظروف السيئة التي ألمت بأممهم يندفعون متأثرين إلى محاولة التفسير والإصلاح فيكافحون بعض الأمراض والمشكلات الاجتماعية أو يرومون تقويم بعض الانحرافات الأخلاقية أو رفع بعض المظالم السياسية أو حل بعض الأزمات

الاقتصادية او اصلاح بعض نواحي الحياة الروحية في المجتمع . فمنهم من يستنذر حياته كلها ويقتفي جهودهم ومساعدتهم كلها لانها في أمته من الحنيفة الذي تترسّف فيه وجمع كلمتها بعد تفرق وشقاق حتى تصبح بعد تخلفها وضعفها قويا مرهوبا بجانب . ومنهم من تشرب الروح العسكرية فكون من أمته جيشا جرارا تمهدهم بالتدريب والتعليم حتى اتقوا فنون القتال وبعث فيهم روح الفداء والتضحية والولاء له ولقومهم فخاض بهم الممارك فحقق بعض المكاسب الذاتية او المصالح القومية او المطامع التوسعية ومنهم من جتح الى التربية الروحية والتطهر الخلق وظل يوجه قومه ويربيهم على ما وضعه في ذلك من المبادئ والا فكار حتى يحقق بعض النجاح في مهمته فيحملهم على مذهبه - ايا كان هذا المذهب - يعتقونه ويتعصبون له ويدافعون عنه ويتفانون في سبيل نشره وتمكينه في الارض . ومن هؤلاء من يحالفه الحظ والتصيب فيحقق نجاحا ملموسا في مهمته فترة من الزمن ومنهم من يهلك قبل نضوج ثمار جهوده وتحقيق جميع امانيه وأطماعه .

وان عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن ان تقاس بمعايير العظمى المصهودة في هؤلاء المظما والمباقرة لتباين ما بينها جملة وتفصيلا . ان افاق عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تعلم البشرية لها مثيلا حتى في انبياء الله ورسله الكرام فضلا عن يسمون عبادة التاريخ وعظما الدنيا ولا اقول الافراد المعاديين من البشر .

ومن أبرز جوانب المظمة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم انه وجد امته - بل ام الارض قاطبة - في أسوأ حالة من الجهالة والتخلف والتفكك والشقاق والفرقة والمعاداة . كانوا يعيشون في الارض فسادا باسهم بينهم شديد وقلوبهم متنافرة متناكرة يسطو القوي منهم على الضعيف فيستذله ويستعبده أو يسومه سموا

العذاب أو يثقله فاستطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوحد صفوف هـذه  
الامة ويجمع كلمتها ويوجهها نحو الخير والصلاح وينهى بها ويدفع بها نحو  
الثقمة والرقى ويربطها بأم الارض بوشاح العقيدة في الله لتحمل بذلك مكـسـان  
الزعامة والريادة والقيادة وتحمل مشاعل الهدى والنور والفرقان لخير البشرية  
جميعاً . وقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستخرج من امتـه  
مجموعة من الاتباع والانصار كانوا نواة طيبة صالحة تعهد هم بالتربية والتوجيه  
والاصلاح من غير أن يكون له من وراء ذلك مطمح دنيوى سوى حب الخير  
للناس وحب هدايتهم الى الحق ، فكان لهم الأبا الرحيم والمعلم البار ، وكسان  
شد يد الحرص على مصالحهم وصلاحهم يصبر على انحرافاتهم واخطائهم وزلاتهم  
ويتحمل ايذاء بعضهم له ومخالفاتهم ومضايقاتهم في كل مرة وهو يريد لهم الخير  
والصلاح والهداية . وكان يخطوبهم خطوة خطوة الى الامام ويسير بهم رويد رويد  
نحو الافق السامى وكان بعضهم يقلتون من يده ويهبطون عن بلوغ المستوى  
الذى يريد له لهم فلم يضيف ولم يمل ولم ييأس بل شمر عن ساعد الجد وبذل  
اقصى ماوسعه من جهد حتى استطاع ان يرقى بهم حيث يريد لهم الاسلام  
ويثبتهم على الجادة فارتقوا آفاقا عالية في الخير والصلاح وصاروا مثالا عاليا  
للاجيال اللاحقة تحتذى حذوهم وتحاول الاقتراب من المستوى الذى بلغوه  
في السمو الروحى والتطهر الخلق وتنفيذ المنهج الربانى فى الارض . وكذلك  
استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم ان يجعل من المؤمنين الاوائل امة واحدة  
عزيزة الجانب قوية المريكة كون منها جيشا كبيرا من المجاهدين متحابين فى الله  
معتصمين بحبله المتين ارواحهم مترابطة متألفة أشداء على الكفار رحما بينهم  
عباد بالليل فرسان بالنهار تشربت قلوبهم روح الجهاد فحاضوا غمار المصارك

الفاصلة بين الحق والباطل فضربوا اروع أضلة في التضحية والفداء والتفاني ففى سبيل اعلاء كلمة الله ونصرة دينه واقامة الحق والمدل ونشر الخير والهدى بين الناس فحقوا بفضل الله وتوفيقه انتصارات باهرة مكن الله لهم بها دينهم ووسّع بها سلطانهم فى الآفاق .

هذه بعض جوانب المظمة التى ظهرت واضحة جليلة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وكل ما ذكرنا فى هذه السطور القليلة السابقة ان هو الا غيض من فيض او قطرات من البحر الخضم . وهناك جوانب اخرى متعددة ظهرت فيها عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم بما هو فوق المصهور فى التاريخ ولا يمكن استيعابها مفصلة فى هذا المقام . وقد بذل الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبيل مهتمه المظمية ما لم يبذله أحد قبله وبلغ فى كل جانب من جوانب عظمتة مستوى رفيعا وأثقا عاليا لم يبلغه أحد من قبله ولن يبلغه أحد بعده وحقق فيها من الثنائج والفايات ما لا نعلم له مثيلا فى التاريخ . ونجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد هوى تلك العظمت المتعددة واشتمل عليها فى توازن وتوافق طموسين الى جانب شمولها وعمقها واتساع آفاقها فلم يهمل منها جانباً ولا طفئ فيها جانب على آخر بحيث نجد على مستوى عال من الكمال فى بعض الجوانب بينما يكون فى بعضها الاخر هابطا منحدرًا ناقصا . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصية فعنة قد اضطفاه الله تعالى على العالمين وجعله متفردا فى تكوينه وامده بقوة فائقة ممن عنده فكان المثل الاعلى للبشرية فى كل شئ كان العابد المتبتل والسياسى المحنك والقائد المظفر والهادى البشير والصبر العظيم والاب الحاني والمعلم البار والقاضى العادل والصديق الوفى والزوج الرفيق والرسول الرؤوف الرحيم فهو الكمال المجسم فى الدين والخلق والنموذج الحى الشامخ فى الخير والصالح .

ولقد كان من حكمة الله البالغة أنه لم يجعل هذا الرسول هلكا يكون فسوق  
مستوى البشر ولم يرسله من غير كتاب ولم ينزل الكتاب مجردا لدعوة الناس الى الحق -  
وهو الفاعل المختار القادر على ان يهدي من يشاء حتى من غير رسول او كتاب -  
ولكن اقتضت ارادته ان يبعث محمدا بشرا رسولا وانزل عليه الكتاب هدى ونورا  
فامتلاء قلبه عليه الصلاة والسلام بما جاءه عن الله تعالى وطبقه بحذافيه في شخصه  
الكريم وحوله الى واقع ملموس يشاهد هذه الناس في وضوح وجلالة فكان هو القدوة  
العملية والاسوة الحسنة للبشرية في تنفيذ منهج الله القويم المنزل وكان هو المربي  
والمعلم والهادي البشير الذي يمثل تطبيقا عمليا صحيحا لهادي الاسلام ومفاهيمه  
وتعاليمه واخلاقياته ، روى مسلم في صحيحه من حديث قتادة عن زارة بن أوفى  
عن سعد بن هشام قال قلت لبيبا بن المؤمنين أنسبيني عن خلق رسول  
الله صلى الله عليه وسلم قالت: ألسنتي تقرأ القرآن " قلت بلى . قالت و فان خلق  
نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن (١)

يقول الشيخ محمد الفزالي : " اذا كان القرآن هدية الله لخلقه فان محمدا  
صلى الله عليه وسلم هو التطبيق الحي لما حواه من معان والمظهر الحلي لما تضمنه  
من توجيهات ووصايا . . . الى أن قال : " والمؤمنون الذين استجابوا لدعوة  
النبي صلى الله عليه وسلم قد خلبتهم روعة الحق في حياة نبيه قد رما اعجبهم ذلك  
في آيات الكتاب الذي نزل عليه (٢) " .

ولقد اختار الله تعالى هذه الامة لمهمة جليلة متفردة من أجلها اخرجها  
للناس ، هذه المهمة هي أن تكون أمة وسطا قائمة على الحق شاهدة على الامم فائدة  
ورائدة للبشرية كلها . وكانت عناية الخالق سبحانه وتعالى بهذه الامة المختصة

(١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الليل والوتر ٢٦/٦

(٢) كتاب كيف نفهم الاسلام ص ٢٦

بمثل هذه المهمة العظيمة التي لم يسبق ان كلفت بها امة قبلها ان يختار لها شخصية فذة متفردة في تكوينها متفردة في رسالتها وفي مدى ما حققته فيها من نجاح وما احرزته من نصر وتمكين ، وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكوتوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا . (١) . . . الآية . " كنتم خيرا امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . . الآية (٢) .

وقد نفضل الله على رسوله الكريم غرباء أنضل تربية وشأه أكمل تنشئة وأدبه أحسن تأديب فكان مهياً بمناخية ربانية لما أكرمه الله به من الرسالة والنبوة وفانى قلبه بما نزل عليه من الهدى والنور وثبت فؤاده على الحق المبين فتماثلت القدوة الحسنة في شخصه الكريم بما حواه من خلق عظيم في سلوكه الفردى وفي صلاته بأسرته وفي علاقاته مع الناس وفي قيامه بحق الله تعالى عليه وأدائه لواجبه نحوه وفي قيامه بواجباته ومسئولياته تجاه مجتمعه وفي ثبوته على الحق وتضحيته وتفانيه من أجله وفي حبه للخير وحرصه الشديد على نشره بين الناس وفي فضائه وأحكامه المادية وقيادته الحكيمة وسياسته الرشيدة وفي زهده في الدنيا وعزوفه عنها واستعلائه على الماديات وفي معاملاته مع أعدائه دينه في السلم والحرب الى غير ذلك من آفاق عالية في خلقه العظيم صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أفانى رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين من خلقه العظيم فأرشدهم ووجههم وعلمهم وأراهم مكارم الاخلاق مجسمة في واقع حياته مثلة ففى شخصه الكريم واستحق بذلك ثناء الله عليه في محكم التنزيل " وانك لعلى خلق عظيم (٣) " " فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر . . . الآية (٤)

( ١ ) سورة البقرة اية ( ١٤٣ ) .

( ٢ ) سورة ال عمران اية ( ١١٠ ) .

( ٤ ) سورة ال عمران اية ( ١٥٩ ) .

( ٣ ) سورة العنكبوت اية ( ٤ ) .



" لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم" <sup>(١)</sup>  
 وجاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " انما بعثت لاتمم صالح الاخلاق " (٢) .

وان الحديث عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم متعدد النواحي متراعى الاطراف وليس في مقدورنا ان نستوعب جميع جوانبها في مثل هذا المقام ولكننا سنكتفى بالاشارة الى أبرز هذه الخصال والصفات ما كان له ابلغ الاثر في نجاح دعوته .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعَدَل الناس شديد الحرص على إقامة الحق والعدل بين الناس ولا يعرف في ذلك قريبا او صديقا او عداوا بل كان يطبق العدل على نفسه وأهله واصدقائه واتباعه واعدائه على السواء فكل انسان عنده سؤال عن اعماله امام الله وامام الشريعة وكان مثالا كاملا في الصدق والامانة والوفاء وقد اشتهر بهذه الخصال الحميدة منذ صغره حتى لقب بالأمين وشهد له بالصدق اعداؤه واحباؤه ولم يجربوا عليه كذبا قط . فاتهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " (٣) . وكان احسن الناس واجودهم واشجعهم وكان جم التواضع يكره ان يظهر في اي مظهر من مظاهر السلطان والملك والرياسة وكان لين الجانب يحب اصحابه ويمارحهم ويخالطهم ويد اص صبيانهم ويجيب دعوة الحر والعبد وكان ملجأ الفقراء والارامل والايتام والضعفاء وكان عفوا كريما لا يكافئ السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح وقد قال لاهل مكة يوم الفتح " ان هبوا فانتهم الطلقاء " وكانت له صباحة ودماثة تحببانه الى كل من رآه ويجمعان

( ١ ) سورة التوبة اية ( ١٢٨ )

( ٢ ) سنن الامام احمد ٣٨١ / ٢ عن ابى هريرة .

( ٣ ) سورة الانعام اية ( ٣٣ ) .

اليه تلوب من عاشرهم وقد بلغ ذلك بين الضعفاء والاقوياء مبلغا لم يبلغه احد قبله . ومن اكبر الادلة على حب الضعفاء له ان فتي مستعبدا يفقد اباه واسرته - كزيد بن حارثة - ثم يظهر له ابوه بمد طول الغيبة وانقطاع الاصل فيؤثر البقاء مع الرسول صلى الله عليه وسلم على الذهاب مع أبيه . (١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحم الناس بعياله وخيرهم لاهله وكان في بيته يرفع ثوبه ويحلب شاته ويخصف نعله ويغمد نفسه ويمسك بعيره ويأكل مع الخادم . وكان شديد الزهد في الحياة المادية لا يدخر شيئا لخدمه مستعدا ان يعطى كل ما يملك في سبيل الله وكان في معاملته مع اعداء دينه من اهل الكتاب ينفق عليهم من خلة السمح بالاضافة الى ما احسنه وشيعة المعاهدة فكان يحضر ولائهم ~~ويشعر بطولهم~~ ويمود مرضاهم ويزورهم في بيوتهم ويكرمهم اذا زاروه ويقرضهم ويبرهن عند هم امتعته حتى لقد توفي ودرعه مرهونة عند يهودى في قوت عياله .

والحديث عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث طويل مستفيض لا يمكن ان نوفيه حقه كاملا في هذا المقام ولكننا نقول بايجاز من اراد ان ينظر الى القرآن وهو مجسم يمشى على ظهر الارض فليتنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرته الحطرة وخلقته العظيم ومن اراد ان ينظر الى الاسلام في صورته التطبيقية الصحيحة الكاملة فليتنظر كذلك الى هذا الرسول العظيم في خلقه الكريم وسيرته الطاهرة النقية .

ونمود بمد ذلك كله لنقرر ان وجود مثل هذه الشخصية الفذة المتفردة بين الجيل الاول من المسلمين كان له بلا شك اثره البعيد في تنشئة ذلك الجيل وتربيته حتى استقام على الحق وارتفع الى افاق عالية عظيمة اقرب الى ان تكون مثالية فسمى سميتها وعلوها وقوتها على غير مثال سابق في التاريخ كله .

( ١ ) انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ / ٤١ - ٤٢ وكذلك ابن الاثير : اسعد الغابة ٢ / ١٣٠ .

وعلينا أن نؤكد أن قولنا هذا لا يعنى أن وجوده صلى الله عليه وسلم  
 بشخصه الكريم ضرورة دائمة لا فائمة هذا الدين في الارض في كل زمان ومكان ولو كان  
 الامر كذلك لانتهى الاسلام بوقاته صلى الله عليه وسلم وقد قال الله تعالى : " ومه  
 محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم  
 ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين (١) " . وجاء  
 في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قد تركتم على البيضا  
 ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك (٢) " الحديث . وقال عليه الصلاة  
 والسلام : " انى قد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا كتاب الله  
 وسنتى (٣) " . الحديث . ولو ان شخصيته الفذة هذه مؤثرة بذاتها في كل حالة  
 لما كفر به اناس من معاصريه ونافق في دينه اخرون . ولكن ما لا شك فيه ولا ريب  
 ان وجوده بشخصه الكريم على ذلك المستوى الرفيع من الكمال الخلق والتطهر  
 النفس كان حافزا اساسيا بحث الحيوية في روح الجيل الاول ومثل امام ذلك  
 الجيل افاقا عليا في الخير والصلاح يحاول بلوغها باقتفاء اثر هذا الرسول  
 العظيم والالتداء به وترسم خطاه المستقيمة .

حقا ان الجيل الاول من الامة الاسلامية قد وصل ذروة عالية في تمثيل  
 الاسلام في صورته الصحيحة وذلك بجعله الرسول قدوته واسوته في كل شئ

( ١ ) سورة عمران اية ( ١٤٤ ) .

( ٢ ) رواه ابن ماجه في المقدمة باب اتباع سنن الخلفاء الراشدين المهديين ١٥ / ١  
 عن المبراضين سارية .

( ٣ ) رواه الحاكم في مستدركه كتاب العلم باب خطبته صلى الله عليه وسلم في حجة  
 الوداع ١ / ٩٣ .

وروى الامام مالك نحوه في كتاب القدر باب النهي عن القول بالقدس ص ٥٦٠ .

ومحاولته الاقتراب من المستوى السامق الذى يلقه صلى الله عليه وسلم . وحققا ان هذه الذروة التى بلغها الجيل الاول لم تتكرر فى الاجيال الإسلامية اللاحقة على تلك الصورة الرفيعة الواسعة الوضأة وان كانت قد اتت صور قريبة من هذا المستوى الرفيع متمثلة فى نماذج حية متفرقة على طول التاريخ الإسلامى واكسب من الممكن فى كل عصر وكل مكان - إذا صدق المزم - أن يبلغ جيل من أجيال هذه الأمة أو فئة من فئاتها أو فرد من أفرادها مستوى لاثقا قريبا جدا من المستوى المالى الذى كان عليه الجيل الأول أو الأجيال الفضلة التى أتت بعده وذلك حين يمثل الإسلام خير تمثيل ويطبق جميع تعاليمه ومبادئه فى جميع شئونه ويتخذ الرسول قدوة وأسوة حسنة يتتبع به فى حياته ويجعل سيرته الطاهرة النقية نبراسا يستنير به ويسير على هدايته حتى يكون فى ذلك وكأنما يعيش أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يواجهه ويرشده ويأخذ بيده نحو الخير والصلاح . " وليس محمد صلى الله عليه وسلم وحده الصورة الصادقة لما نزل عليه من وحى بل صحابته المخلصون وتلاميذته الصالحون وخلفاؤه الراشدون أولئك جميعا شروح جيدة للحق الذى صدعوا به ودعوا الناس إليه وحاجة الحياة إلى هذه الشروح تؤكدها تجارب الماضى والحاضر " (١) .

•••

## الفصل الثاني

### اسس بناء المجتمع الاسلامي

المبحث الاول : المبادئ الاسلامية.

المبحث الثاني : المدل الرباني المتمثل في مبادئ الاخوة والمساواة والتحرر

المبحث الثالث : التكافل الاجتماعي .

المبحث الرابع : سياسة الحكم والمال .

...

## الفصل الثاني

### أسس بناء المجتمع الاسلامي الاول

قلنا فيما سبق من الحديثان الجماعة المسلمة في العهد المبكر من الدعوة الاسلامية كانوا قلة مستضعفين في الارض غير قادرين على الدفاع عن انفسهم مما تدبر لهم قريش من الكيد والمكر والمؤامرة وما تعرضهم له من العذاب والاضطهاد والمنعت فكانوا يحيشون في مكة في ضيق ومشقة وعسف ويهاجرون منها احيانا الى حيث يوجد نوع من الامن فرارا بدينهم وحفاظا على حريتهم ولم يكونوا من العدد والقوة والمنعة حيث يكونون مجتمعا مستقلا او يشككون كتلة قوية تقف في وجه قوى الشر الطاغية التي تحاول تحطيمهم وتسمى لزالتهم من الوجود . وقد ظلت الدعوة الاسلامية طوال ثلاث عشرة سنة تستخدم شتى الوسائل في تقرير الحق والعدل والفضيلة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبذل أقصى المستطاع من الجهد في دعوة الاسرى الى دين الله وتربية الافراد القلائل الذين آمنوا بما جاء به واعدادهم اعدادا ضاحكة جيا حتى استطاع بفضل الله وتوفيقه ان يكون من وسط هذه الظلمات القائمة عناصر صالحة ونواة طيبة من المسلمين ثم هاجر هو والذين آمنوا معه الى المدينة واعداه الله بالنصار الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ويؤثرونهم على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن هؤلاء المهاجرين والانصار تكون المجتمع الاسلامي الاول الفريد في التاريخ .

وجد ير بنا ان نتدبر الامور بعقود ونلتص الا سباب الكامنة وراء الاحداث لنقف على الحقائق التي تصنع هذه الاحداث بكل ما فيها من عظمة وجلال واعجوبة نادرة .

ومعلوم أن تشييد أي بناء يحتاج إلى توافر مواد أولية من أخشاب وحديد وأحجار وتراب وغير ذلك . ومع هذه المواد تعتبر عناصر أساسية مهمة لا يتـم يوم البناء إلا بهاء فإن مجرد الحصول عليها ليس كل شيء في تشييد البناء ، والسبب جانب ذلك يجب أن تكون هذه المواد قويةصالحة وأن يكون لدى البنائين معرفة وكفاءة ومقدرة وخبرة واسمة في الهندسة والفنون المعمارية وطرق استغلال المواد حتى يبرز البناء في غاية من الروعة والجمال والقوة .

ويتبين لنا من خلال هذا التمثيل أن أسس بناء المجتمع الاسلامي ماهي إلا مجموعة مبادئ وقيم وتعاليم وتوجيهات قررها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فهي لم توضع امام المسلمين لتكون نظريات خيالية لا تقبل التطبيق وإنما قدمت لهم منحة من الله تعالى ورحمة وهداية ليتموما بتنفيذها في شؤون حياتهم ويترجموها إلى واقع ملموس . فهذه المبادئ والقيم والتعاليم والتوجيهات لا تأثير لها في حد ذاتها وإنما يأتي تأثيرها وفعاليتها عندها تترس عليها جماعة من المسلمين وتمتلئ نفوسهم بهديها ونورها ويسرى روحها في عروقهم ويحولونها إلى واقع ملموس من حياتهم ويطعمون دعائم بناء مجتمعهم على هديها وتوجيهاتها وبمناية الله تعالى وتوفيقه ربي الرسول صلى الله عليه وسلم الجيل الأول من هذه الأمة على عينه وبنى بنفسه المجتمع الاسلامي الأول فعملنا بذلك طرق التربية الصحيحة والاسس الركيزة التي يتم بها بناء المجتمع .

ويجب ان نؤكد قبل البدء في الحديث عن تلك الاسس ان الظروف الصعبة التي احاطت بالدعوة الاسلامية قبل قيام المجتمع الاسلامي الاول لم تكن باقل صعوبة وتمتد ايام الظروف والاضاع التي يعيشها المسلمون اليوم في جميع الاقطار والامصار .

ومن هنا نعلم مقدار الجهد الذى يتطلبه الامر من المسلمين . ولقد استطاعت  
الامة الاسلامية فى ايامها الاولى ان تطبق فى واقع حياتها جميع تعاليم الاسلام  
ومبادئه وتيممه ومفاهيمه فترة طويلة من الزمن . ورغم كل ما اصابها من انحراف  
تدرجى بدأ مبكرا ثم أخذ فى التزايد والتوسع على طول تاريخها فقد استطاعت  
ان تنشئ واقعا تاريخيا ضخما لم تستطع اى امة قبلها او بعدها ان تنشئ مثله .  
وقد ترك هذا الواقع على طول التاريخ خطوطا عريضة وملامح واضحة لا تمحى آثارها  
ولا تزول معالمها . وسنخرج على عرض جوانب من الواقع التاريخى للامة الاسلامية  
عقب الحديث عن كل عنصر من العناصر الاربعة التى يتضمنها هذا النص  
لنمطى صورة واقعية واضحة عن ذلك المجتمع الفريد . وهذه الاسس والعناصر  
الاربعة تعتبر عوامل اساسية فى بناء ذلك المجتمع ونجاحه فى اول دور من  
ادوار حياتها التاريخية فالكاد تلتصق هذه الاسس والمبادئ لدى الجيل  
الاول حتى اخذ يطبقها فى عالم الواقع فارتفع من الحضيض الى المستوى  
الشامخ وآل اليه ميراث الارض واصبح فى يده زمام القيادة والريادة لأمم الارض  
كلها فاصبح المسلمون امة واحدة رفيعة البنيان عظيمة السلطان ثابتة الاركـان  
ممكنة فى الارض وتم لها وعد الله الذى لا يتخلف ولا يتبدل " وعد الله الذين آمنوا منكم  
وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ولينصبن  
لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يمهـدوننى لا يشركون  
بى شيئا " (١) . . . الآية .



ونستطيع ان نحدد عناصر هذا الفصل في اربع نقاط :

- ( ١ ) العقيدة الاسلامية الصحيحة .
- ( ٢ ) لتحديد الرياضى المتمثل فى مبادئ الاخوة والمساواة
- ( ٣ ) التكافل الاجتماعى .
- ( ٤ ) سياسة الحكم والىال .

...

### المبحث الاول : العقيدة الاسلامية الصحيحة

ان المنصر الاساس في كيان الانسان هو النفس . هذه النفس هي منشأ الفعل ومصدره فاذا كانت سالحة كان عمل الانسان سالحا واذا كانت فاسدة كان عمل الانسان فاسدا تبعا لذلك . وصلاح هذه النفس وحياتها تكون بتقبل العقيدة الصحيحة ونشأتها عليها ورسوخ الايمان بالله تعالى واستقراره في أعماق النفس حتى تمتلئ " باشماعة ونوره وتهتدي بهديه وتمتلك آثامه بصورة واضحة ملموسة في واقع حياة الانسان . " او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها (١) . الآية .

ولقد كان الايمان بالله تعالى اكبر تربية نفسية واعظم مدرسة خلقية تنشأ المسلم نشأة جديدة وتربيه على فضائل الاخلاق وكريم الصفات من صدق وعزيمة وقوة نفس وشجاعة نادرة وتضحية وايثار وتغان في سبيل إقامة الحق ونصرتهم وحب شديد لله ورسوله وطاعة جادة وانتقاد تام واستسلام كامل لكل ما جاء عن الله تعالى . وقد نشأ المسلمون الاوائل من هذه الامة على ايمان قوى راسخ عميق بالله تعالى وتصديق تام بكل ما جاء عنه سبحانه وتعالى فكانوا صادقين مع الله تعالى في اقوالهم وسلوكهم في الحياة في سرهم وعلاانيتهم يراقبون الله في حركاتهم وسكناتهم ويستحضرون في كل لحظة من لحظات حياتهم عظمة الله وسعة علمه وقوة بطشه بالظالمين ورحمته الواسعة بالصالحين الاوابين حتى اصبح هذا الايمان في نفس احد هم باعنا قويا يدفعه الى السارعة والمسابقة في الخيبرات ورقبها ملازما يراقبه في أمانته وكرامته وعفافه وفي جميع سلوكه في الحياة ويكبح جماحه

### اعام المطامع والشهوات الجارفة في السر والعلن .

وهذه بمعنى السمات والملامح الواضحة التي اتسم بها الجيل الاول من هذه الامة . وفي واقع حياة هذا الجيل نماذج رائدة وصور اخلاقية عالية تدل على رسوخ الايمان بالله وعمقه وقوته في قلوب هؤلاء المسلمين فقد ضربوا اروع امثلة في كل منحى من مناحي حياتهم الواقعية تكاد تكون خوارق عادات في عظمتها وسموها . وليس في استطاعتنا استقصاء كل النماذج والصور الاخلاقية العالية حصول هذه السمات البارزة في المجتمع الاسلامي الاول لا على مستوى الافراد ولا على مستوى المجتمع كله . وقيل ان نستعرض النماذج عن الافراد نحب ان نقرر حقيقة كبرى في واقع ذلك المجتمع في مجموعه . هذه الحقيقة هي ما كان عليه المؤمنون الاوائل من الاحساس المرهف بالتبعات والواجبات التي تلبيها علمهم طبيعة ايمانهم العميق بالله وخضوعهم له واستسلامهم لامره وتصديقهم بكل ما جاء من عنده . كان كل فرد مسلم من الجيل الاول يشعر في اعماق نفسه ان عليه واجبات وتبعات ومسئوليات في ذات نفسه وتجاه المجتمع الذي يعيش فيه ، كان عليه طاعة الله وتنفيذ اوامره في كل شان من شئون حياته ليصنع من نفسه باحساسه المرهف وتفكيره الخالص وسلوكه الصلبي صورة مطابقة - على قدر استطاعته - للصورة الاسلامية الصحيحة التي يريد الله ورسوله ان يكون عليها الفرد المسلم كما يحس احساسا عميقا بما عليه من الواجبات المطابقة تجاه المجتمع الذي يعيش فيه حيث يعلم انه لا يكفيه في الاسلام ان يكون هو ذاته في سلوكه المحتل صورة من الفرد المسلم وانما كان عليه بعد ذلك ان يقدم اخص ما في وسعه من الجهود ويحمل نصيبه من التبعات في سبيل اقامة مجتمعه على الاسر الاسلامية القوية حتى تتاح الفرص وتتهيأ الاجواء لكل فرد في المجتمع لاقامة دينه واتباع اوامر الله في جميع شئون الحياة .

ان هذا الاحساس المرفف في نفوس المؤمنين الاوائل كان نتيجة ادراكهم لما كانوا عليه من الحق المبين وتصديقهم التام بكل ما جاء عن الله تعالى وشهودهم بانهم وحدهم الذين توفرت فيهم عناصر القوة الحقيقية التي جعلتهم قوة مستمعية ممكنة في الارض قائد ثوراة للامم كلها تدعوها وترشد ها الى الخير والصلاح وتنقذ ها من الضلال والنسار والهلاك . . هذا الشعور العميق هو الذي جعل قوى الارض الطاغية ضئيلة امام هؤلاء المسلمين لا يرهبون لها جانباً ولا يقيمون لها وزناً ولا تقديراً . " ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (١) " وحسن وقض المسلمون الاوائل في وجه قوى الباطل مجتمعة حققوا هذا الاستملاء بقوة الايمان واتباع امر الله تعالى ولم ينفخ تلك القوى تفوقها على الامة الاسلامية في الناحية المادية من كثرة العدد ووفرة المال والثروة والقوة الحربية والخبرة الفاشقة في فنون القتال والرقى الحضارى ، فقد اندحرت قوتها وانهمزت هزيمة نكراء أمام قوة صغيرة من المسلمين كانت دونها في الخبرة والكفاءة الحربية وفي المصدد والعدة والمنااد . وان هذا الاستملاء الذي تحقق للامة الاسلامية في هذا المجال وفي كل مجالات الحياة كان مصدره قوة الايمان وعمقه والاحساس المرفف بما يمليه هذا الايمان من الواجبات والتهمة المظام والشعور العميق بالقوة والمظمة باتباع امر الله والسير على نهجه . كل ذلك هو الذي صنع لهسنه الامة ماحقة من امجاد وعظمة وسؤدد .

والان نعرض لبعض النماذج الرائعة والصور العالية في الدين والاخلاق من واقع حياة افراد الجيل الاول من المسلمين مما يدل على صدق ايمانهم بالله تعالى وقوته وعمقه وطاعتهم المطلقة لله ولرسوله وتنفيذهم الفوري لكل ما يصد رعن الله تعالى . فما ورد في قصة تحريم الخمر حديث أنس بن مالك قال : " ما كان

لنا خمر غير فضيحكم هذا الذى تسمونه الفضيح فانى لئام اسقى ابا طلحة  
وفلانا وفلانا اذ جاء رجل فقال وهل بلغكم الخبر فقالوا وما ذاك قال حرمت  
الخمر . قالوا اهرق هذه القلال يا انس قال فما سألوها عنها ولا راجعوهـ  
بعد خبر الرجل (١) . وفى رواية اخرى عن انس بن مالك قال : " كنت ساقى  
القوم فى منزل ابي طلحة فنزل تحريم الخمر فامر مناديا  
ابو طلحة اخرج فانظر ما هذا الصوت قال فخرجت فقلت هذا مناد ينادى الا ان  
الخمر قد حرمت فقال لى اذهب فاهرقها قال فجرت فى سكك المدينة (٢) . الحديث  
وروى ابن ابي حاتم عن صفية بنت شيبة قال : " بينما نحن عند عائشة <sup>رضي الله</sup> الت  
فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة <sup>رضي الله</sup> عنها : ان لنساء قريش لفضلا واتى والله  
مارأيت أفضل من نساء الانصار اشد تصديقا لكتاب الله ولا ايمانا بالتنزيل . لقد  
انزلت سورة النور " وليضرن بخمرهن على جيوبهن " انتلب رجالهن اليهمن  
يتلون عليهن ما أنزل الله اليهم فمها ويتلو الرجل على امرأته وابنته واخته وعلى  
كل ذى قرابته فماضنهن امرأة الا قامت الى مرطها الرجل فاعتجرت به تصديقا  
وايمانا بما انزل الله من كتابه فاصبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم  
متعجرات كأن على رؤوسهن الغربان " (٣) . وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله  
عليه وسلم قالت : جاء رجلان من الانصار يختصمان الى رسول الله صلى الله عليه  
وسلم فى مواريث بينهما قد درست ليس بينهما بيعة فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم " انكم تختصمون الى وانا أنا بشر ولعل بعضكم ان يكون ألحن بحجته او قد

( ١ ) رواه البخارى فى كتاب التفسير باب قوله تعالى " اما الخمر والميسر .. الآية  
١٨٩/٥

( ٢ ) رواه البخارى فى كتاب التفسير فى نفس الباب ١٩٠/٥

( ٣ ) ذكر روايته الحافظ ابن كثير فى تفسيره ٢٨٤/٣ ثم قال ورواه ابو داود من غير وجه عنها .

قال لحجته من بمعنى فاني اقض بينكم على نحو ما اسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فانما اقطع له قطعة من النار ياتي بها انتظاماً في عنقه يوم القيامة " فيكي الرجلان وقال كل منهما حق لآخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما ان قلتما فاذها فاقتما ثم توخيا الحق بينكما ثم استتهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه " (١) .

ولما سار النبي صلى الله عليه وسلم الى بدر وأتاه خبر نفيير تريض استشار الناس فقال المقداد فاحسن وكذلك أبوبكر وعمر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الانصار لانهم عدد الناس فقال سعد بن معاذ والله لكأنك تريد ناساً يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال سعد : فتد آمننا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به الحق واعطيناك موثقة على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي يمسك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره ان تلقى بنا عدونا انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك فيما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . وما جاء في شدة حب هؤلاء المؤمنين الا وائل لله تعالى ولرسوله وقوة ولائهم لهما وتضحياتهم بالمال والنفس وكل ما يملكونه في سبيل الحق واستملائهم بالايمان على عرش الحياة الدنيا وحطامها وارتفاعهم الى آفاق روحية وخلقية سامية ما اخرجهم ابن الاثير قال : " حين بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم قول عبد الله بن ابي في غزوة بني المصطلق " لكن رجعنا

( ١ ) رواه الامام احمد في مسنده ٦ / ٣٢٠ .

( ٢ ) ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ٢ / ٢٢٤ وانظر كذلك ابن هشام

الى المدينة ليخرجن الاعز منها الا ذل " دعا عبد الله بن عبد الله بن أبي فقال له :  
 " الا ترى ما يقول أبوك " قال ما يقول بأبي انت وامى ؟ قال " يقول لكن رجعتنا  
 الى المدينة ليخرجن الاعز منها الا ذل " قال عبد الله بن عبد الله بن أبي للنبي  
 هو والله الذليل وانت العزيز يا رسول الله ان اذنت لى فى قتله قتلته فوالله  
 لقد علمت الخرج ما كان بها احد أبى بوالده منى ولكنى أخشى أن تأمر به رجلا  
 مسلما فيقتله فلا تدعنى نفس انظر الى قاتل ابن يمشى على الارض حيا حتى أقتله  
 فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار فقال النبي صلى الله عليه وسلم " بل نحسن  
 صحبته ونؤتق به ما صحبنا ولا يتحد ثالناس ان محمدا يقتل اصحابه ولكن برأباك  
 واحسن صحبته " (١) .

وعن سعد بن ابى وقاص قال : " مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة  
 من بني ديار وقص أصيب زوجها واخوها وابوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 بأحد فلما نموا لها قالت ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا خيرا .  
 يا ام فلان هو محمد الله كما تحبين قالت أرؤنيه حتى أنظر اليه قال فأشير لها  
 اليه حتى اذاراته قالت كل مصيبة بعدك جلل (٢) " .

وفى وقعة احد حين انكشف المسلمون واصاب منهم المدو ، وكسرت ربيعة  
 النبي صلى الله عليه وسلم وجرحته شفته العليا وشج في جبهته كان ابود جانة  
 من النفر القليل الذين ثبتوا مع رسول الله يدفعون عنه المدو وقد " ترس ابود جانه"  
 دون رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يقع النبيل على ظهره وهو منحني عليه  
 حتى كثر فيه النبيل " (٣) .

( ١ ) اسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣ / ١٩٣ ، انظر كذلك الحافظ ابن كثير :

البداية والنهاية ٤ / ١٥٧ - ١٥٨ .

( ٢ ) الحافظ ابن كثير ، البداية والنهاية ٤ / ٤٧ من رواية ابن اسحاق .

( ٣ ) المصدر نفسه ٤ / ٣٤٤ .

وجاء في قصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ومعه ابوبكر  
فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم  
الى الفار ومعه ابوبكر فجعل يحشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول  
الله صلى الله عليه وسلم فسأله : فقال له يا رسول الله اذكر الطلب فامشى  
خلفك ثم اذكر الرصد فامشى بين يديك فقال يا ابا بكر لو كان شئ أحببت  
أن يكون لك دوني ؟ قال نعم والذي بيمثك بالحق <sup>(١)</sup> . . . الحديث . وابوبكر  
الصديق هو نفسه الذي احتمل ماله كله ليضمه بين يدي رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ليجهز به " جيش المعصرة " الى تبوك تعبيرا عن صدق ايمانه ويقينه  
بالله وعبودته الكاملة له تعالى . وعن عمر بن الخطاب يقول : " أمرنا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك ما لا عندي فقلت اليوم اسبق ابا بكر  
ان سبقته يوما قال فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ابقيت  
لاهلك ؟ قلت مثله . واتي ابوبكر بكل ما عنده فقال يا ابا بكر ما ابقيت لاهلك ؟  
قال ابقيت لهم الله ورسوله فقلت والله لا أسبقه الى شئ أبدا (٢) .

وعن ابن عثمان النهدي عن صهيب قال : لما اردت الهجرة من مكة  
الى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لي قريش يا صهيب قد مت الينا ولا مال لك  
وتخرج انت ومالك ؟ والله لا يكون ذلك ابدا . فقلت لهم : ارايت ان دفعت اليكم  
مالي تخلون عني ؟ قالوا نعم فدفعتم اليهم مالي فخلوا عني فخرجت حتى قد مسمت  
المدينة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " ربح صهيب ربح صهيب " (٣)

( ١ ) أخرجه الحاكم في مستدركه ٦ / ٣ وقال حديث صحيح الاسناد على شروط  
الشيخين لا ارسال فيه ولم يخرجاه .

( ٢ ) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب باب ما جاء في مناقب ابى بكر وعمر  
٦١٤ / ٥ - ٦١٥ وقال هذا حديث حسن صحيح .

( ٣ ) أورده ابن كثير هذا الحديث في تفسيره ٢٤٧ / ١ وقال رواه ابن مردويه بسنده  
عن صهيب الرومي . ثم قال ابن كثير : قال ابن عباس وانس وسعيد بن المسيب  
وابو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة نزلت اية البقرة " ومن الناس من يشرى نفسه  
ابتغاء مرضات الله . . . الاية في صهيب بن سنان الرومي . انظر كذلك ابن سعد  
الطبقات الكبرى ٢ / ٢٢٨ - ٢٢٩ . وابن الاثير : اسد الغابة ٢ / ٤٩٩ .



وحدث الطبري قال : " لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أهل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذي من معه ما رأينا مثل هذا قط ما يعد له عندنا ولا يقاربه فقالوا هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال أما والله لو لا الله ما أتيتكم به فمرفوا ان للرجل شأننا فقالوا من أنت فقال لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه فاتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس (١) . " . وكذا كان إيمانهم بالآخرة قوياً وعصياً في نفوسهم فقد دفعهم إلى المسابقة إلى الخيرات والمسارة إلى الكريم الفعـال وفضائل الأخلاق وبعث في قلوبهم شجاعة نادرة وعزيمة غريبة إلى الجنة واستملاً ناد راعلى الحياة الدنيا وزخارفها طمعا في مرضاة الله وخوفاً من عقابه . ومن قوة إيمانهم بالآخرة وتصديقهم بوعده الله لهم بالجنة والمغفرة يوم المصاد كان أحدهم يتمثل الدار الآخرة فتكشف له الجنة ويترأى له نعيمها المقيم وكأن تلك الجنة منه قاب قوسين أو أدنى وخرزنتها واقفون على أبوابها يقولون لأصحابها المؤمنين في ترحاب<sup>حار</sup> أو حفاوة بالفة سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالد بن . وبذلك خفست ثقله متاع الحياة الدنيا في حسهم وأصبحوا يراقبون الله تعالى في حركاتهم وسكناتهم وفي جميع شئونهم في حياتهم ويتذكرون دار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وعقاب في كل لحظة من لحظات حياتهم يرجون رحمة الله ويخافون سوء الحساب . وعن أنس بن مالك قال غاب عني أنس بن النضر رضى الله عنه عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال قتلت المشركين . لكن الله أشهدني قتال المشركين ليرى الله ما صنع فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون قال اللهم انى اعتذر إليك مما صنع هؤلاء<sup>هؤلاء</sup> يمينى أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء<sup>هؤلاء</sup> يمينى المشركين ثم تقدم فاستقبله

سمعت بن معاذ فقال يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر انى اجد ربحها  
من دون أحد فقال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع قال انى فوجدنا بئس  
بعضا وثمانين ضربة بالسيف وطعنة برمح او رمية بسهم ووجدناه قد قتل وشل  
به المشركون فمعرفة احد الا اخته ببنائه . قال أنس كنا نرى - او نظن - ان هذه  
الاية نزلت فيه وفي اشباهه " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . . " .  
... الحديث (١) . وثقدم حديث انس بن مالك الذى رواه فى قصة عمير بن الحمام  
الانصارى حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم بدر قوموا الى الجنة  
عرضها السموات والارض . . . الحديث (٢) . وكذلك حديث عبد الله بن تيس  
قال سمعت ابن وهب حضرة المدو يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
" ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف (٣) . . . الحديث . وعن شداد بن الهاد  
قال " جاء رجل من الاعراب الى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه فقال  
أهاجر معك فاوص به بمعنى اصحابه فلما كانت غزوة خيبر غم رسول الله صلى  
الله عليه وسلم شيئا فقسمه وقسم للاعرابي فاعطى اصحابه ما قسم له وكان يرمي  
ظهرهم فلما جاء دفعوه اليه فقال ما هذا ؟ قالوا / <sup>قسم</sup> قسمه لك رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فاخذه فجاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا يا رسول الله  
قال " قسم قسمته لك " قال ما على هذا اتبعتهك ولكن اتبعتهك على ان ارضى ما هنا  
- و اشار الى حلقه - بسهم فاموت فأدخل الجنة فقال " ان تصدق الله ليصدك " .  
ثم نهضوا الى قتال المدون فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقتول فقال  
" هو هو " قالوا نعم . قال " صدق الله فصدقته " فكانه النبي صلى الله عليه وسلم  
فى جيبه ثم قدسه فصلى عليه وكان من دعائه له اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى

( ١ ) رواه البخارى فى كتاب الجهاد باب قول الله عز وجل " من المؤمنين رجال  
صدقوا . . . الاية ٢٠٥ / ٣ .

( ٢ ) رواه مسلم فى كتاب الاما قباب ثبوت الجنة للشهيد ٤٤ / ١٣ - ٤٦ شرح مسلم  
للنووى .

( ٣ ) رواه مسلم فى كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد ٤٦ / ١٣ والترغى فى  
فضائل الجهاد ١٨٦ / ٤ .

سبيلك قتل شهيدا وانا عليه شهيد (١) . وجاء في قصة عمرو بن الجموح الانصارى انه لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى بدر أراد الخروج معهم فمنعه بنوه باصر رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة عرجه فلما كان يوم احد قال لبنيه منعموني الخروج الى بدر فلا تمنعوني الخروج الى احد فقالوا ان الله قد عذرك فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان بنى يريدون ان يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه . والله انى لارجو ان أطأ بمرجتي هذه فى الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك وقال لبنيه لا عليكم ان لا تمنعوه لعل الله ان يرزقه الشهادة فأخذ سلاحه وولى وقال اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني الى أهلى خائبا فلما قتل يوم أحد جاءت زوجته هند بنت عمرو عمة جابر بن عبد الله فحملته وحملت أخاها عبد اللهب بن عمرو بن حرام فدفنا فى قبر واحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لقد رأيته يطأ فى الجنة بمرجته (٢) . ولد لنا وفرقة من الأمثلة الرائعة التى تدل على صدق ايمان هؤلاء المسلمين الاوائل بالله تعالى واليوم الآخر وتصديقهم بكل ما جاء عن الله تعالى حتى سمت نفوسهم وارغمت السوى آفاق عالية فى المصودية الحق لله تعالى والالتزام الكامل باوامره واجتناب نواهيه - وكل ما تقدم ذكره ان هو الا غيغى من فيض - فقد بلغ الايمان من هؤلاء المسلمين مبلغا من القوة والصدق والرسوخ حتى كان احد هم حينما تجمع نفسه فى وقت من الاوقات ويسقط هذا الانسان سطة اويكيو كيو جذبه اليها ثقل الارض وغريزة الحيوان ومن الشيطان وهو يعمد عن انظار الناس بعيد عن تناول يد السلطة

(١) أخرجه النسائى والبيهقى فى السنن الكبرى مع الجوهر النقى ، كتاب الجنائز ٤/ ١٥-١٦ (بمفرده)  
 (٢) ابن الاثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣/ ٢٠٥ من رواية ابن الكلبى ، وانظر كذلك الحافظ ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/ ٣٧ من رواية ابن اسحاق .

نجدته يتذكر الله تعالى ويخاف وعيده الشديد في الآخرة فتقلب نفسه لوامسة  
 عنيفة ويصبح هذا الانسان في قلق وضيق لا يرتاح له ضمير ولا تسكن له نفس حتى  
 يتقدم الى الاعتراف بجريته امام ولي الامر لينفذ فيه حكم الله تعالى . وهكذا  
 يتقدم نفسه للعقوبة الشديدة عن طواعية ورضا ويتحمل مشاقها باطمئنان مشفوعا  
 من سخط الله وعذابه الاليم في الآخرة . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن  
 معاذ بن مالك الأسلمي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله  
 اني قد ظلمت نفسي وزنيته وانى اريد ان تطهرنى فرده فلما كان من الفد أتاه  
 فقال يا رسول الله اني قد زنيته فرده الثانية فارسل الرسول صلى الله عليه  
 وسلم الى قومه فقال اتململون بمعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا ما نعلمه الا وفق  
 المعقل من صالحينا فيما نرى فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه  
 أنه لا بأس به ولا بمعقله فلما كانت الرابعة حفرو له حفرة ثم أمر به فرجم فقال  
 فجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله اني قد زنيته فطهرنى وانه ردها فلما كان  
 الفد قالت يا رسول الله لم تردنى ؟ لعلك ان تردنى كما رددت معاذ ؟ فقال  
 اني لجليل قال اما لا فان هين حتى تلدى فلما ولدت أنته بالصبي في خروقة قالت  
 هذا قد ولدته قال ان هين فارضعيه حتى تغطميه فلما فطمته اتته بالصبي في يده  
 كسرة خبز فقالت هذا ياتين الله قد فطمته وقد اكل الطعام فدفع بالصبي الى  
 رجل من المساعين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها فرجموها فيقول خالد بن  
 الوليد بحجر فرمى رأسها فتتضح الدم على وجهه خالد فسبها <sup>فسمع</sup> نبي الله صلى الله  
 عليه وسلم سبه اياها فقال " مهلا يا خالد فوالذى نفس بيده لقد تابت توبة لوتابها  
 صاحب مكس لغفر له " ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (١) " وان مثل هذه

( ١ ) رواه مسلم في كتاب الحدود باب حد الزنا ٢٠٢/١١ - ٢٠٣ .

الحوادث التي وقعت في عهد النبوة أفضل المهود الإسلامية قد وقعت لحكمة بالغة يريد بها الله تعالى حتى يكتمل التشريع ويتم الدين ولكن يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان أحكام الدين للمسلمين وتطبيقاتها تطبيقاً عملياً في واقع حياة الأمة الإسلامية في عهده وهذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن هذه المخالفات التي حصلت من بعض الأفاضل من أصحاب الرسول - رغم كونهم اكمل الناس - كما نرى في قصة الثلاثة (١) الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وفي حديث (٢) الألف وفي غزوة الأحزاب حين ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً حتى زاعت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر من شدة الرعب والخوف (٣) ، ان وقوع مثل هذه المخالفات من المؤمنين الأوائل دليل قاطع على أنهم على الرغم من القمم السامقة التي ارتفعوا إليها كانوا بشراً وقد يظهر من أحدهم من الضعف البشري في فترة من الفترات ما يجعله يرتكب جريمة كبيرة أو خطيئة أو ذنباً ولكن سرعان ما يفيق ويصحو من غفلته حينما يلامس بشاشة نفسه نفحات إيمانية فيصبح هذا الإنسان في قلق وحيرة وضيق غير قادر على تحمل عظم الذنب الذي اقترعه فيسارع إلى الاعتراف لتطهير نفسه لعلهم ان عذاب الدنيا مهما كان شديداً فهو أهون من عذاب الآخرة ، هكذا رآه الاسلام ودره على الحق والصدق والاستقامة . وبذلك يتبين لنا ان المجتمع الاسلامي الاول مجتمع بشري له خصائصه وسماته البارزة ومهما ارتقى

( ١ ) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل "وعلى الثلاثة الذين خلفوا..." ١٣٥-١٣٠ / ٥ عن عبد الله بن كعب بن مالك .

( ٢ ) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب حديث الألف ٦٠-٥٥ / ٥ عن عائشة رضي الله عنها .

( ٣ ) انظر قصة ليلة الأحزاب حين طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من أصحابه من يأتيه بخبر القوم ويكون معه يوم التهمة ولم يجبه أحد حتى دعا حذيفة ولم يجد بداً حين دعاه باسمه وذلك في الحديث الذي رواه الامام مسلم في كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب ١٢ / ٤٥-١٤٦ عن ابراهيم التيمي عن أبيه .

درجات عالية من الكمال الانسانى والسمو الروحى والتطهر الاخلاق فلن  
يخرج عن كونه مجتمعا بشريا فى اكمل صورته الانسانية ولا يمكن بحال ان يتجاوز  
حدود طاقته البشرية او يتعدى اخص القدر المقدر له بلوغه بحكم طبيعته  
الانسانية ليرتفع الى مستوى الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون  
ما يؤمرون .

...

## المبحث الثانى

### العدل الربانى المتثل فى مبادئ الاخوة والمساواة والتحرر

ان الاساس الثانى الذى يقوم عليه بناء المجتمع المسلم هو المبادئ السامية التى قررها الحق سبحانه وتعالى لاقامة صرح الحق والعدالة بين بنى البشر ، هذه المبادئ هى الاخوة والمساواة والتحرر فقد جعلها الاسلام روابط قوية وواضحة متينة تربط افراد المجتمع ببعضهم مع بعض وتشد اركان بناء المجتمع متساكنة متشابكة . وهذه الروابط والاواصر تركز على العقيدة الصحيحة فى الله وتستمد وجودها وقوتها داخل اطارها وتجعل لها الاعتبار الاول فى انشاء العلاقات بين الناس وتحدد اطارها وفى اداء الحقوق والواجبات المتعلقة بها .

وستحدث عن هذه المبادئ لنكشف بعض الحقائق المهمة فى الموضوع ورغم ان المقام لا يسمح بالحديث المفصل المطول فسنحاول ابراز تلك الحقائق التى كانت دعائم بناء المجتمع المسلم الاول وعناصر قوته ثم بعد ذلك نذكر شيئا يسيرا من النماذج الرائعة فى الواقع التاريخى المشرف الذى اقامه الجيل الاول لنرى كيف طبقت هذه المبادئ على اكمل صورة فى تاريخ البشرية .

### اولا : مبدأ الاخوة الاسلامية :

ان الاخوة التى يدعو اليها الاسلام رابطة عقدية وعلاقة روحية اصيلة تنبنى على الايمان بالله وحده لا شريك له واعتناق فكرة موحدة عن الحياة الانسانية . وهذه الاخوة عميقة الجذور واسعة الافاق تسمو فوق حدود المادة وترتفع عن نطاق المصالح والمنافع ورغم ان هذا الارتباط الاخوى الوثيق يحقق للناس حقوقا اديبية ومادية كثيرة ويفرض عليهم واجبات وتبعات تجاه الآخرين فان اساس التعامل فيه قائم على ركيزة العقيدة الصحيحة فى الله والايمان باليوم الآخر . يقول الله تعالى :

وسيجنبها الأتقى

الذى يؤتى ماله يتركى وما لا حد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى  
ولسوف يرضى (١) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " أن من عباد الله  
ناسا ما هم بانبيا ولا شهداء يغبطهم الانبيا والشهداء يوم القيامة لمكانهم من  
الله تعالى . قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بسرح  
الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لنرى  
نور ولا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس وقرأ هذه الآية :  
" ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (٢) وهكذا يقرر الاسلام  
وجوب قيام رابطة اخوية وثيقة تربط بين المسلمين تفوق جميع الروابط الاخرى التى  
يتمسك بها الناس فى المجتمعات الجاهلية ويلتفتون حولها فبذلك جعل الاسلام  
هذه الاخوة فى الله أساسا راسخا لبناء المجتمع المسلم وهدى قويا لتحد يمسد  
علاقات الناس بفضهم مع بعض واتامة الحق والمدل بينهم وحفظ الحقوق  
واداء الواجبات وازالة الشر والظلم والمد وان بين الناس حتى يسود الخير  
والصلاح اجواء المجتمع وتغمرها المحبة والسعادة والفلاح . فالمسلمون اخوة  
بايمانهم بالله واحد واعتناقهم فكرة موحدة عن الحياة واعتصامهم بحبل الله المتين  
وقبولهم السير على منهج الله فى الحياة فلا يفرق بينهم اختلاف اجناسهم وشموبهم  
ولا تمدد قبائلهم وعشائهم ولا تباين لغاتهم واللوانهم ولا تباعد اوطانهم واقطارهم  
وانما همامة واحدة مترابطة متكلفة متعاونة نشأت على وحدة العقيدة ووحدة الفكرة  
ووحدة الفاية والمصير .

وان روح الاخوة الاسلامية تنبع فى قلوب المؤمنين ببساطة ويسر وتصدر عن  
طواعية واقتناع ورضا حين تلتقى هذه القلوب على الحب فى الله ويحمرها الايمان  
واليقين من غير ان يستكره الانسان عليها ولا ان تفرض عليه فرضا او تحقق بتقدم

( ١ ) سورة الليل آيات ( ١٨-٢١ )

( ٢ ) أخرجه ابوداود فى كتاب البيع باب فى الرهن ٢٨٨ / ٣ عن عمر بن الخطاب .



عروض مالية سخية ولو بما في الارض جميعا ، ولكنها نتيجة شهور كللى يعلا قلب كل مسلم ويشغل كل حيز فيه ويسيطر عليه سيطرة تامة حتى يصبح هو الدافع الحقيقي والباعث لا قوى الذى يبعث فيه الروح والحيوية ويدفعه نحو الخير والصالح ويوجهه في جميع حركاته وسكناته، ويؤكد الإسلام أن الأساس الميثاق الذى تنشأ عليه الامة الاسلامية ومحور التعامل والملاقات بين افراد المجتمع المسلم وأسس غاية لوجود الانسانى هو أن يلتفتوا جميعا على حب الله ويعملوا من أجله ويبتغوا مرضاته وحده فبذلك تتآلف قلوبهم وتماسك وتقوى ليصبحوا جسدا واحدا يتجه في قوة وعزم نحو الخير والسعادة ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم " (١) .

وان للاخوة الاسلامية حق وواجبات يجب على كل فرد من أفراد المجتمع المسلم أن يلتزم بها ويؤد بها على أكمل وجه، فهو مكلف بها على انها دين يحاسب عليه وامانة يجب عليه أدائها وبهذه الاخوة الخالصة أوجد الاسلام لدى الفرد المسلم احساسا قويا بالجماعة المسلمة ومصالحها وخيرها كما اوجد لدى الجماعة ايضا احساسا قويا بالفرد ومصالحه وخيره وكانت نتيجة هذا الشهور العميق بالمسؤولية والاحساس المتبادل بين افراد المجتمع قيام تضامن روحى وتضامن مادى متشلا في حب المسلمين بعضهم بعضا والتراحم والتعاون على البر والتقوى والتماضد والوحدة والائثار والمواساة وتفريج الكرب وستر العورات حتى اصبحوا اخوة في دين الله وامة واحدة مثل الجسد الواحد

( ١ ) رواه مسلم في كتاب الايمان باب بيان انه لا يدخل الجنة الا المؤمنون ٢ / ٣٥ عن ابن هريرة .

يخص كل فرد منهم بما عليه من واجبات ومسئوليات تجاه الجماعة ويدرك ان ايمانه لا يتم وان دينه لا يكمل الا بالاخلاص للجماعة والسعى في خيرها وصالحها وسعادتها وبذلك أصبحت الجماعة وحدة مترابطة متضامنة تكفل جميع افرادها وتحفظ لهم حقوقهم وتطالبهم بأداء ما عليهم من الواجبات وتسعى نحو خيرهم وسعادتهم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعضاً " (١) ويقول عليه الصلاة والسلام : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والعص " (٢) .

وان هذه الحقوق والواجبات التي تفرضها الاخوة الاسلامية على الفرد المسلم نحو اخوانه المسلمين كانت لها ميزتها الخاصة في الاسلام ان انها تؤدي طاعة الله تعالى وقرينة يبتغى بها وجهه ورضوانه بالاضافة الى انها علاقات اجتماعية وروابط قوية لها تاثيرها الملموس في زيادة التقارب والترابط بين المسلمين وتماسك اركان بناء المجتمع وقوتها . يقول الله تعالى : " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا انما نطمعكم لوجه الله لا تريد منكم جزاء ولا شكورا " (٣) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه " (٤) . وعن معاذ أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن افضل الايمان قال " أن تحب لله وتبغض في الله وتعط لسانك في ذكر الله " قال وماذا يا رسول الله قال : " أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك " (٥)

( ١ ) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتماضد هم

١٣٩ / ٦٦ عن ابي موسى .

( ٢ ) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب تراحم المؤمنين الخ ١٦ / ١٥٠ عن النعمان بن بشير .

( ٣ ) سورة الانسان ايتا ( ٨ - ٩ ) .

( ٤ ) رواه البخاري في كتاب الايمان باب من الايمان ان يحب لاخيه ما يحب لنفسه ٩ / ١ عن انس بن مالك .

( ٥ ) رواه الامام احمد في مسنده عن معاذ ٥ / ٢٤٢ .

ولقد حدد الاسلام صورة العلاقات الاخوية القائمة بين المسلمين في مجموعة وصايا تدعو الى التحاب والتواد والتراحم والتعاون والتساند والتناصح والتواصي بالحق والصبر وحب الخير للمسلمين والحرص على تحقيق التضامن المعنوي والمادي بينهم يقول الله تعالى : " محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداً على الكفار رحماً بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً . . . الآية (١) . وقال تعالى : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان . . . الآية (٢) " وقال تعالى : " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيئون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله (٣) . . الآية . وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة (٤) " . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع " (٥) . وبالإضافة الى هذه الاعمال الفاضلة والاخلاق الكريمة التي تحقّقها الاخوة الاسلامية بين المؤمنين مما يعود على الفرد والجماعة بالخير والفلاح فقد عالج الاسلام بها كثيراً من السوءات الاجتماعية فكانت من اكبر وسائله للقضاء على الشر والظلم والعدوان مما يحكر صفو هذه الاخوة ويهدم بناء المجتمع من قواعد .

( ١ ) سورة الفتح اية ( ٢٩ ) .

( ٢ ) سورة المائدة اية ( ٢ ) .

( ٣ ) سورة التوبة اية ( ٧١ ) .

( ٤ ) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب مخرج الظلم ١٦ / ١٣٤ - ١٣٥ عن سالم عن أبيه .

( ٥ ) رواه الطبراني وابويعلی ورجاله ثقات قاله الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٧ / ٨ .

ومن هذه السواء اتالا اجتماعية التي عالجها الاسلام تحقياً لروح الاخوة بين المسلمين وحفاظاً على حقوقهم وصيانة لأعراضهم وأموالهم ودائهم ايذاً المسلم لا غيه في نفسه وماله وعرضه والتجسس والنميمة والفتنة وسوء الظن والاثرة والذبذبة والنفاق والكبر والتحقير والسخرية بالناس والا حتيال والغش والقطيعة والهجران والتباغض والتحاسد والتدابر والتنازع والتظالم في علاقات الناس بعضهم مع بعض والاعتزاز بالفتك والجبروت والتمالي على الناس واستعمال القوة لانزالهم واستعبادهم من اجل تحقيق المصالح الذاتية والغايات المادية ، والتفريق بين الناس على أساس الشمولية والقومية والقبلية والطبقية والمناضلة بينهم في الحقوق والواجبات وفق هذه التقسيمات والمفاخرة بها والتعصب لها وتجمع الناس حولها . فقد شن الاسلام حرباً شمواء على هذه المظالم الاجتماعية والساوى الخلقية المتفشية في المجتمعات الجاهلية ودعاهم الى تحقيق روح الاخوة والمساواة واقامة الحق والعدل فيما بينهم يقول الله تعالى : " واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين " (١) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً " (٢) . ويقول عليه الصلاة والسلام : " . . . شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الاحبة . . . (٣) الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام " لينتهين أئوام يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا انما هم ليكونوا همون على الله من الجمل الذي يد هذه الخمر بأنفه ان الله قد اذهب عنكم عبية الجاهلية

( ١ ) سورة الانفال اية ( ٤٦ ) .

( ٢ ) رواه البخارى في كتاب الادب باب يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن

، الاية ٨٩ / ٧ عن ابى هريرة .

( ٣ ) رواه الامام احمد في مسنده ٢٢٧ / ٤ عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبى

صلى الله عليه وسلم .

وفخرها بالاباء انما هو مؤمن تقي او فاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب (١) . وقال صلى الله عليه وسلم " ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية " (٢) . ومن حرص الاسلام الشديد على حفظ علاقة الاخوة قوية بين المسلمين وسميه الحثيث لتحقيق تكافل الجماعة المسلمة ووحدة الصف وجمع الشمل / يدعو الى اصلاح ذات بين المسلمين وانها الخلفات التي تقوم بينهم ورد الامور المتنازع فيها الى حكم الله ورسوله وشرع قتال الطائفة الباغية حتى تعود الى امر الله وتلتزم جانب الحق والعدل كما قرر القضاة على من يحاول التفريق ويسمى الى التفتك والهدم وبث روح العداء والشقاق بين المسلمين . قال الله تعالى : " وان طائفتان من المؤمنين اتتلتوا فاصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تقى " الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واسطوا ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (٣) " وقال تعالى : " يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلكم خير واحسن تأويلاً " (٤) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " انه ستكون هنات وهنات فمن اراد أن يفرق أمر هذه الامة وهى جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائن من كان " (٥) .

- 
- ( ١ ) رواه الترمذي فى كتاب المناقب ٤٣٠ / ٩ وقال حديث حسن . ورواه ابوداود فى كتاب الادب ٣٤٠ / ٥ .  
 ( ٢ ) رواه ابوداود فى الادب باب العصبية ٣٣٢ / ٤ عن جبير بن مطعم .  
 ( ٣ ) سورة الحجرات ايتا ( ٩ - ١٠ ) .  
 ( ٤ ) سورة النساء اية ( ٥٩ ) .  
 ( ٥ ) رواه مسلم فى كتاب الامارة باب حكم من فرق امر المسلمين وهو مجتمع ٢٤١ / ١٢ عن عرفة .

ثانيا : مبدأ المساواة في الاسلام :

كان الناس في المجتمعات الجاهلية يتميزون ويتفاضلون بمعايير معينة تقوم على اساس الظلم والجور وتتنافى مع مبادئ الحق والعدل ، فقد كانوا يقسمون انفسهم الى فئات متعددة وطبقات مختلفة أحرار وعبيد وموال وأشراف وضعفاء مستضعفين . وكان التعامل والتمايز يجري بين الناس وفق هذه التقسيمات ، فقد أحكمت الاسوار حول الطبقات والفئات الدينية في المجتمع وأقيمت حواجزها الحواجز والسدود وضيق عليها آفاق الحياة الواسعة وصدت أمامها طرق المشي الكريم والتقدم والحركة فظلت تمشي داخل حدودها الضيقة ذليلة محرومة يائسة لا تجرؤ أن تتخطى حواجزها الفاصلة او تحطمها لترتقي الى مستوى من فوقها من الطبقات العليا والفئات الممتازة . وهذه الطبقات والفئات المتحالية على الناس والمتسلطة على رقابهم كانت ترعى المدالة لنفسها بينما كانت تنكرها على من سواها وكانت تحرض أشد الحرض على حقوقها في حين كانت تنكر ان تكون للآخرين حقوق وتمتبر كل شيء في الحياة مخلوقا من اجلها ولمصلحتها فقط .

والا سلام - حين يضع للناس أسس بناء المجتمع المسلم - يقرر وحدة الاصل الذي صدر عنه الناس جميعا ويبين ان البشر جميعا خلقهم الله تعالى من نفس واحدة ، فهم يحيطون خصائص هذه النفس وينتمون اليها على سواء . قال الله تعالى " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . . الآية (١) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ان أباكم واحد وان ديتكم واحد ابوكم آدم وآدم خلق من تراب (٢) . . . الحديث .

( ١ ) سورة النساء آية ( ١ ) .

( ٢ ) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ / ٨٤ وعزاه الى البزار وقال : رجاله رجال الصحيح .

وبهذا هدم الاسلام قواعد التفرقة الزائفة التي أفاضها الناس حواجز  
تفرق بينهم ومما ييسر يحتبرونها في علاقاتهم بعضهم مع بعض ترتفع بها اقام وترقى  
الى درجات عالية في العز والسيادة والسلطان ويتسفل بها اخرون ويثقلون  
في دركات الذل والمهانة والحرمان . ويقرر الاسلام أن الناس جميعا خلق الله  
وعبيده متساوون في القيمة الانسانية غنم أبناء أب واحد وام واحدة لا يفرقون  
الا في الايمان بالله أو الكفر به . فأما المؤمنون فهم جميعا سواء في الحقوق  
والواجبات فليس هناك أحد - مهما عظم شأنه - يمتثل فوق القانون والمسؤولية  
وليس هناك طائفة او طبقة او قبيلة تختص بميزة او فضل في حق من الحقوق العامة  
ولا في اسقاط واجب من الواجبات عنها، وكذلك ليس لها اى حق في التسلط على  
رقاب الناس وتسخيرهم لمصالحها الذاتية وان لا لهم واستعبادهم فمادام الناس  
يجتمعون في اصل واحد وينتمون الى نفس واحدة ويحمل كل واحد منهم غنائمها  
فهم بذلك سواء في الكرامة الانسانية وفي الحقوق والواجبات سواء أمام الحكم  
والتشريع سواء امام الامر والتكليف لا فضل لا حد لهم في ذلك ولا ميزة على الاخرين .  
عن عائشة رض اللعنها ان قريشا اهتمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من  
يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترى عليه الا أسامة حب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فكلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " اتشفع في حد من  
حدود الله ثم قام فخطب فقال يا أيها الناس انما ضل من قبلكم انهم كانوا اذا  
سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف فيهم اقاموا عليه الحد وايم الله لو أن  
فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت محمد يدها (١) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

(١) رواه البخارى في كتاب الحدود باب كراهية الشفاعة في الحد اذا رفع الي  
السلطان ١١٦/٧ .

"الناس مستوون كأسنان المشط ليس لاحد على احد فضل الا بالتقوى (١)".  
ويقول الله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو  
على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا  
الهوى ان تمردوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعلمون خبيرا (٢)" وفي كل  
ما تقدم <sup>من الحديث</sup> يؤكّد الاسلام أن القواعد والمعايير التي تواضع الناس عليها في التفاضل  
والامتياز على الآخرين من شرف الاسرة أو القبيلة وفضل الثراء والغنى وكرم الجنس  
والمنصر ووحدة اللون واللغة والوطن وقوة النفوذ والغلبة والسيادة ولاشتراك في  
المصالح والمنافع كل هذه ليست مقاييس صحيحة لان يجتمع عليها الناس،  
او يفترقون من أجلها . وان كون الناس شعوبا وأجناسا وقبائل متعددة واختلاف  
الالوان واللغات اية من آيات الله في الكون وهو سبيل للتمارف والتقارب والتعاون  
بين الناس . ولقد وضع الاسلام مقاييسا جديدة للفضل والامتياز وذلك هو  
مقياس التقوى والعمل الصالح . وكلما اطاع الانسان ربه في كل ما أمر به وكسل  
مانهى عنه واخذ من اسباب الخير لنفسه وللناس جميعا وتجنب اسباب الشر  
والفساد في نفسه ولم يعمرى لها احدا من عباد الله كان له الفضل عند الله  
تعالى والتقدير في الدنيا والاخرة . يقول الله تعالى : " يا أيها الناس اننا  
خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله  
أتقاكم (٣) . . الآية . وهذا اصبح المجالات مفتوحة في المجتمع المسلم  
امام كل فرد ذي موهبة وذكا واستعداد ليبلغ ما قدر له من المنازل الرفيعة في خدمة

(١) أخرجه الديلمي عن انس ؓ له المجلوني في كشف الخفاء ٤٣٣/٢ .

(٢) سورة النساء اية (١٣٥) .

(٣) سورة الحجرات اية (١٣) .



المجتمع بمقدار نصيبه من البذل والعطى ويجنى ثمار سعيه وجهده دون أن يقف في وجهه عائق من لون أو جنس أو لغة أو يحط من شأنه كونه من عشيرة أو قبيلة ضميعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ومن بطأ به عمله لم يسرع به نصبه (١) "

ومن الجانب الآخر يقرر الاسلام ان من سنة الله في الحياة الانسانية تفاوت الناس في الذكاء والمواهب والكفاءات وفي القدرة على العمل والانتاج وتحقيق النفع العام للمجتمع ، وهذا التفاوت الطبيعي في العقول والافهام والطاقات والخبرات مما يقتضى بالتفاوت في الفضل والتقدير في الدنيا والاخرة وهو ايضا سبيل السى عمارة الكون واستمرار حركة الحياة في تدفق وتفاعل واحتكاك لان تعدد فئات الناس واختلاف شعوبهم وقبائلهم ولغاتهم وتفاوت احوالهم ضرورة تقتضى بالتعارف والتأرب والتعاون بين الناس ، كل فيما يستطيعه ويحسنه من العمل وما أعطيه من قدرة وخبرة . يقول الله تعالى : " ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم .. الآية (٦) . ويقول تعالى : " اهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون " (٣) .

والتفضيل هنا نتيجة اختلاف الكفاءات والمواهب والتفاوت في القدرة على البذل والعمل لا تفضيل امتيازات وتفاخر ولا تسخير اذلال واستعباد لتقسيم المجتمع الى طبقات وفئات مختلفة يتعالى بعضها على بعض ويستعبد بعضها بعضا . وهذه هي الحقائق الناصبة التي قررها الاسلام حول مبدأ المساواة لتحقيق العدالة بين الناس حتى يسود المجتمع روح التضامن والاخوة وتقوم الحياة

( ١ ) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء .. باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٢١/٢٢-٢٢ عن ابن هريرة .

( ٢ ) سورة الانعام اية ( ١٦٥ ) .

( ٣ ) سورة الزخرف اية ( ٣٢ ) .

على المحبة والعدل والإحسان . وهذه المساواة المطلقة التي قررها الإسلام كانت مرتبطة بالعقيدة الصحيحة في الله تعالى والعبودية الحقّة له والتحرر الوجداني المطلق من جميع التيمم والأسس الزائفة التي تتنافى مع الحق والعدل ، فهذا صانها الإسلام من عبث التحايل والتظاهر والدعاوى المريضة المفترضة وأخرجها من عالم الشعارات والنظريات إلى عالم التطبيق العملي في واقع حياة الأمة الإسلامية ، ففي هذا الواقع التاريخي المشرف نازج رائعة لتطبيق مبدأ الأخوة الإيمانية وتحقيق المساواة المطلقة بين أفراد المجتمع المسلم بصورة فريدة في التاريخ . ولقد استطاعت الجماعة المسلمة أن تحقق في عالم الواقع معنى " الأمة " على حقيقتها حيث أنها أرست دعائم بناء مجتمعها على العقيدة الصحيحة في الله وإقامة الحق والعدل بين الناس والأخوة الخالصة في الله والمساواة أمام الحق والعدل والتحرر من جميع القيم والاعتبارات التي تخدش هذه الصناديق الثمينة وتقوّي أركان بناء المجتمع المسلم . وقد تكون المجتمع الإسلامي بعد الهجرة إلى المدينة من المهاجرين والأنصار كان معظمهم أبناء قبائل عربية متمردة وفيهم أفراد متفرقون من أجناس أخرى ، كما كان من بينهم أشرف وأشرس وأضعف من الموالى والفقراء . وقد كان هؤلاء الناس في الجاهلية يعيشون في عداوة وشقاق وتدابير وتفرق لا تجمعهم كلمة ولا تضمهم راية وإنما كانوا قبائل وعشائر وطبقات متنافرة متناحرة بأسهم بينهم شديد وطوبهم متناكرة ولا تكاد تنتهي بينهم حرب حتى توقد نار لأخرى أشد وهكذا ساد الظلم والجور والفساد أجواء المجتمع الجاهلي وعاش الناس في شقاء وهلاك . ولكن لما جاء الإسلام ودخل فيه هؤلاء المهاجرون والأنصار وكانوا من قبائل وأجناس متعددة جمعهم العقيدة في الله على صعيد واحد فالتقت طوبهم على حب الله ورسوله فتألفت وترابطت وأصبحوا بنعمة الله إخوانا متحابين بجلال الله متضامنين مترابطين بحبل الله

متعاونين على البر والتقوى وقد زالت بينهم الحواجز والعوائق المقامة بين مختلف  
الشموب والتبائل والحشائر وذابت الفوارق القائمة بين مختلف طبقات المجتمع  
وفقائه ، وأصبح المسلمون أمة واحدة مترابطة متساندة متضامنة تتساوى أفرادها  
فى الحقوق والواجبات وهم جميعا مطالبون بتحقيق العبودية لله تعالى وتنفيذ  
أمره وإرادته فى شئون الحياة الإنسانية والتحرر من كل عبودية وتذلل وخضوع  
لغير الله تعالى ولا فضل لأحدهم على الآخر عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح ،  
وقد امتن الله تعالى على المؤمنين الأوائل بما أنعم عليهم حيث ألف بين قلوبهم  
وجمعهم على حبه وحب رسوله إخوانا وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى : " واعتصموا  
بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين  
قلوبكم فأصبحتم بمنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها " .  
..... الآية (١) . ويقول تعالى : " هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين  
وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله  
ألف بينهم إنه عزيز حكيم (٢) " . وبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم  
إلى المدينة شرع فى بناء المجتمع المسلم فأخى بين المهاجرين والأنصار وجعل  
كل اثنين منهم أخوين فكانوا يتوارثون بذلك إرثا مقدما على صلة القرابة حتى نسخ  
الله ذلك بآيات المواريث (٣) . وقد أشنى الله تعالى على المهاجرين الذين  
أخرجوا من ديارهم وأموالهم وانضموا إلى إخوانهم الأنصار لتصر الله ورسوله  
وإمامة دينه وبذلوا فى سبيل ذلك أموالهم وأنفسهم متفنين فضل الله ورضوانه  
كما أشنى الله تعالى أيضا على الأنصار الذين آمنوا بالله حقا وأحبوا إخوانهم

( ١ ) سورة ال عمران آية ( ١٠٣ ) .

( ٢ ) سورة الانفال آيتا ( ٦٢ - ٦٣ )

( ٣ ) انظر الحديث الذى رواه البخارى فى ذلك فى كتاب الفرائض باب ذوى الارحام

٨ / ٨ عن ابن عباس .

المهاجرين بحب الله ورسوله وآوؤهم في منازلهم ووأسوؤهم في أموالهم وكانوا يؤثرونهم على أنفسهم ولو فيما اشتدت حاجتهم إليه يقول الله تعالى : " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . . . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . . . (١) الآية . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قد منا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير لقد كفونا المؤنة وأشركونا في الصنأ حتى لقد حسبنا أن يذموا بالأجر كله قال لا ما أثنتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم (٢) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا رجل يضيّف هذه الليلة برحمة الله " فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لا مراثة ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخره شيئا فقالت والله ما عندي إلا قوت الصبية قال فإذا أراد الصبية العشاء فتومهم وتعالى فأطفىء السراج ونطوى بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة " فأنزل الله عز وجل " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٣) " وجاء في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه أن فتى من أسلم قال يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به قال إئت فلاننا

( ١ ) سورة الحشر آيتا ( ٨ - ٩ ) .

( ٢ ) أخرجه الامام احمد في مسنده ٢٠٠ / ٣ .

( ٣ ) رواه البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى " ويؤثرون على أنفسهم " ٥٩ / ٦ .

فإنه قد كان تجهز فمرض فأناه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يترك السلام ويقول أعطنى الذى تجهزت به فقال يا فلانة أعطيه الذى تجهزت به ولا تحبسى عنه شيئا فوالله لا تحبس منه شيئا فيبارك لك فيه (١) . هكذا كانت قوة الرابطة الأخوية التى قامت بين المسلمين الأوائل أخوة خالصة ومحبة وتعاوناً على البر والتقوى وإيثارا نادرا على النفس وتضامنا ووحدة تحت راية الحق والعدل . وكذلك حينما اتسمت رقعة دولة الإسلام وامتد على خارج الجزيرة العربية فى مشارق الأرض ومغاربها جمعت الأمة الإسلامية شعوبا وأجناسا وقبائل ممتدة على صعيد واحد وتحت ظل الأخوة فى الله فشملت الأمة الإسلامية العرب والفرس والروم والمصريين والسودانيين والبرابرة والهنود والأتراك وغيرهم وأصبحوا جميعا إخوانا فى دين الله وأمة واحدة متضامنة متعاونة وأينما ذهبوا فى أنحاء بلاد المسلمين الفسيحة لا يحسون بغربة أو غربة وإنما يشعرون أنهم بين إخوانهم الأحباب الذين يتقدمون لهم كل ما يحتاجون إليه من عون ومساعدة تحة يقا لروح الأخوة الوثيقة التى تربط بينهم .

وأما فى مجال إقامة الحق والعدل وتحة يبق المساواة المطلقة بين أفراد المجتمع المسلم فقد شهد الواقع التاريخى لهذه الأمة نماذج رائدة تعتبر معجزة شرف الله بها هذه الأمة لم يتحقق مثلها إلى اليوم لأمة من أمم الأرض غير هذه الأمة ولا فى أى بقعة من بقاع الأرض غير بلاد المسلمين .

فلننظر الآن إلى الصورة الواضحة لتطبيق المساواة بين أفراد المجتمع المسلم من زاويتين اثنتين : زاوية الأشراف والأقوياء الذين أوتوا نصيبا من الجاه

---

( ١ ) رواه مسلم فى كتاب الجلالة باب فضل إعانة لغازى فى سبيل الله تعالى

والمكانة والمال، وزاوية الضمفاء من الموالى والفقراء الذين انحدروا من قبائل  
أو عشائر أو أسر ضعيفة ولا مال لهم ولا جاه ولا مكانة، فبذلك نعلم كيف يعامل  
الإسلام كل فرد من أفراد المجتمع المسلم، ويا كان أو ضعيفا غنيا كان أو فقيرا  
حرا كان أو عبدا .

ولنبدأ الحديث عن ضمفاء المسلمين من الموالى والفقراء، فإن الإسلام  
يفتح أمامهم مجالا عالحياة الفسيحة في المجتمع ويهيئ بهم ويحثهم على المضل  
لبلوغ أقصى ما يستطيعون من مراتب العز والمجد في كل اتجاه، وكذلك يحترمهم  
ويرفع من شأنهم وينزلهم في مستوى واحد مع الأقوياء في الحقوق والواجبات،  
فهو يحقق لهم حقوقهم كاملة ويطالبهم بأداء ما عليهم من الواجبات حسب  
استطاعتهم ولا يدع أحدا يمتاز عليهم في ذلك بشيء لا بحسبه ونسبه أو جاهه وماله،  
وإنما نجد التطبيقات العملية لهذه المبادئ من الحق والعدل والمساواة  
كثيرة ومتنوعة في واقع حياة الجيل الأول من المسلمين وليس في استطاعتنا حصرها  
أو استيعابها في هذا المقام ولكننا سنذكر شيئا يسيرا من ذلك على سبيل المثال .

فحينما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في أول  
الهجرة كان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين  
وأبو الدرداء وطلحة بن عمار أخوين وخالد بن ربيعة الخشمي وبلال بن رباح  
أخوين . وهذه الأخوة كانت من القوة بحيث إنها تعدل صلة القرابة في النفس  
والمال (١) وسائر مظاهر الحياة . ومن ذلك أيضا تزويج (٢) الرسول صلى الله عليه

( ١ ) وقد نسخ الله تعالى التوارث بهذه الأخواتيات الموارث كما أشرنا إليه  
سابقا .

( ٢ ) انظر الحافظ ابن حجر العسقلاني ، الإصابة في معرفة الصحابة ٤ / ٤٨ ،  
وكذلك ابن الأثير ، اسد الغابة ٢ / ١٣١ .

وسلم إبنه عمته زينب بنت جحش من مولاة زيد ومعلوم أن الزواج من أهم المسائل التي لا يتفاضل الناس فيها عن شرط الكفاة والمساواة . ولقد ارتقى الموالي في الإسلام إلى مستوى المسئولية في الشؤون العامة في المجتمع فكان منهم قواد عظام وحكام على بعض المناطق كما كان منهم علماء أفاضل وفقهاء الصفيون ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد مولاة عائداً لغزوة مؤتة وكذلك بعث بابنه أسامة عائداً لغزوة الروم في جيش كبير يضم مجموعة من كبار المهاجرين والأنصار منهم أبي بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وغيرهم (١) . وقد عين الرسول صلى الله عليه وسلم مهران الفارسي والياً على اليمن واستخلف عليه الصلاة والسلام بلال الحبشي على المدينة عند خروجه لإحدى غزواته وكان بالمدينة مجموعة من المهاجرين والأنصار . " وكان عائشة رضي الله عنها تقول ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليهم ولو بقي لاستخلفه بعده (٢) " . وحين طلب إلى عمر بن الخطاب أن يستخلف أحداً بعده قال " قد رأيت من أصحاب حرصاً سيئاً وإنني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ثم قال لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليهما لو شئت به : سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة بن الجراح (٣) " . وهذا دليل على أن سالماً عنده مفضل على الستة أهل الشورى وفيهم عثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص . وقد رأينا عمر بن الخطاب قبل ذلك يولي عمار بن ياسر (٤) على الكوفة وهو من الموالي كما رأينا عامل عمر بن الخطاب على مكة والطائف نافع بن

(١) انظر الحافظ ابن كثير، البهائية والشيعة ٣٠٤/٦ .  
(٢) ابن الأثير اسد الغابة ١٣١/٢ ، وانظر كذلك ابن حجر المسقلاسي ،  
الاصابة ٤٩/٤ .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/٢٤٢ - ٣٤٣ من رواية أبي رافع .

(٤) انظر المصدر نفسه ٢٥٥/٣ من رواية حارثة بن ضرب .

الحارث الخزاعي قد استخلف على أهل مكة حينما خرج منها لبعض حاجته  
أحد الموالى وهو عبد الرحمن بن أبزى وقال عمر لنافع من استعملت على مكة ؟  
قال عبد الرحمن بن أبزى قال استعملت عليهم مولى قال فإنه تارى لكتاب الله  
عالم بالفرائض (١) . ولما توفى عمر بن الخطاب نظر المسلمون فلما صهيب يلقى  
بهم المكتوبات بأمر عمر فقد موا صهيبا فلقى على عمر (٢) . وما جاء فى احترام  
ضعفاء المسلمين وتكريمهم لمكانتهم فى نصره الدين وأهله وحسن بلائهم فى ذلك  
وتقدريمهم على من دونهم فى ذلك ولو كانوا من أشرف القوم ماروى أن سهيل بن  
عمرو بن الحارث وأبا سفيان بن حرب وجماعة من أشرف قريش وقفوا بباب عمر بن  
الخطاب يوما يستأذنون فى الدخول عليه فأذن قهلبهم لصهيب الروى وبطلال  
الحبشى وهما مولىان فقيران لانهما كانا من اهل بدر ومن أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، فغضب أبوسفيان لهذا التذيم الذى لم يكن معه سودا  
ولامطافا فى الحياة الجاهلية فلم يكن الموالى يتساوون مع السادات فى شئ  
فضلا عن أن يتفوقوا أو يمتازوا عليهم بشئ فقال : " لم أر كاللوم قط يأذن لهؤلاء  
العبيد ويتركنا على بابهم (٣) .

وفى عهد الخليفة عمر ومن بعده كثرت الفتوح الإسلامية وكثر بسبب ذلك  
الأرقاء والموالى من الرجال والنساء والذرارى وقد انتج هؤلاء الأرقاء والموالى  
فى الجيل التالى لعهد هذا الفتح الكبير عددا كبيرا من العلماء والائمة والفقهاء

( ١ ) انظر الحافظ ابن حجر ، الاصابة ٦ / ٢٥٨ .

( ٢ ) أخرجه ابن سعد فى الطبقات ٣ / ٣٦٧ عن سميد بن الصيب .

( ٣ ) انظر : سيد قطب : المعدالة الاجتماعية فى الاسلام ص ١٦٣ .



منهم من يعد من سادات التابعين وغير المسلمين . ولقد كان هناك جملة من العلماء العرب في العصر الأموي مثل سميد بن المسيب وعلقمة وشريح ومسروق وإبراهيم النخعي وغيرهم ولكن الأكثرين كانوا من الموالى ومن هم من أبوين عربى وعجمي . فكان في المدينة سليمان بن يسار وأبوه مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ونافع مولى عبد الله بن عمر وريمعة الرأي وهو شيخ الإمام مالك ، وكان من علماء مكة مجاهد بن جبر مولى بنى مخزوم وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن رباح مولى بنى فهر واشتهر من علماء الكوفة سميد بن جبير مولى بنى والبة ومن علماء البصرة الحسن بن يسار مولى زيد بن ثابت ومحمد بن سيرين وهشام بن غنم البصرة والحسن البصري ، وكان أبوه من سبى ميسان واشتهر من أهل الشام مكحول بن عبد الله وهو معلم الأوزاعي واشتهر في مصر يزيد بن عبد الله مولى الأزدي وكان مفتي أهل مصر وكان بربري الأصل أبوه من أهل د نقة (١) . وهناك أيضا كثير من العلماء غير هؤلاء كانوا من أبوين عربى وعجمي مثل سالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب والفاسم بن محمد بن أبي بكر وعلى بن الحسين ابن علي بن أبي طالب والمصروف بزين العابدين فإن الزمخشري يروى أن أمهاتهم بنات يزيد جر ، وكذلك الشمسي علامة التابعين فإن أباه عربى وأمه من سبى جلولا . ويذكر ياقوت الحموي أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما مات المباركة : عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن المصاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالى (٢) ، ثم عدد جملة من تقدم ذكرهم من العلماء والفقهاء . وكما لا يمنع الإنسان حسبه ونسبه وضعف مكانته في المجتمع

( ١ ) رجعتنا في نسب هؤلاء الموالى ومحل إقامتهم إلى الطبقات الكبرى لابن سعد وكذلك ابن خلكان .

( ٢ ) انظر معجم ياقوت الحموي ، مادة خرسان ،

من بلوغ أقصى مراتب العز والمجد في أى مجال من مجالات الحياة في المجتمع المسلم فكذلك الأمر بالنسبة للحرفة والصناعة والمهنة فلا يخذل منزلة الإنسان في المجتمع المسلم ولا يحط من قدره أن تكون حرفته أو صناعته ما تكون ولا يمنعه ذلك من أن يرقى إلى أعلى المراتب في الشؤون العامة في المجتمع ولا أن يحرز تفوقا يمتدح له به في أهم العلوم الإسلامية كالفقه والحديث وغيرها . ولقد كان كثير من رجال الفقه والحديث تجارا أو صناعا ولم تكن تجارتهم ولا صناعتهم لتضيقهم أو تقيد عائقا يضمنهم من بلوغ مكان الصدارة في مجال اختصاصهم والاعتراف لهم فيه بالفضل والشرف . فالإمام أبو حنيفة كان خبازا وكذا الإمام أحمد بن عمر بن مهيبر صاحب كتاب الفرج وغيره من كتب الفقه فإنه كان يمشي من خصمف النعمان . وهناك عدد كبير من العلماء الأجلاء في خلال حقبة التاريخ اشتهروا بالعلم والفقه والورع والتقى كانوا يعيشون على أعمال التجارة والصناعة منهم الكرابيس والقفال والصغار والحلواني والدقاق والصابوني والتدويري وغيرهم .

ونعود بعد ذلك إلى الحديث عن الزاوية الأخرى وهي معاملة المجتمع المسلم للأشراف والأئمة الذين أوتوا نصيبا وافرا من الجاه والمال والسلطان . فإن الإسلام يسوى بينهم وبين الضمفاء في الحقوق والواجبات فلا فضل لهم عليهم ولا ميزة بسبب الحسب والنسب والجاه والمال وإنما يتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى والعمل الصالح وبذلك كان الأئمة والضمفاء في الإسلام في مستوى واحد أمام الحق والعدل لا فرق في ذلك بين الحاكم والمحكوم والقوى والضعيف والغنى والفقر والرجل والمرأة وما إلى ذلك . وهكذا طبقت المساواة المطلقة بين جميع أفراد المجتمع المسلم على صورة فريدة في التاريخ . ولدينا وفرة من الأمثلة الرائعة

في واقع حياة المسلمين الأوائل نذكر منها هذا الدور اليسير . يروى أن زيد بن  
سفنة اليهودي دأب الرسول صلى الله عليه وسلم بدين وتأخر الرسول صلى الله  
عليه وسلم في أداء الدين لمسرة أمت به وجاء زيد فأصك بتلايبه وجذبه بقسوة  
وقال له أما آن لك يا محمد أن تسدد ما عليك من دين ؟ وارتاع عمر لقسوة زيد  
فأخرج سيفه وهم بضربه فصاح به الرسول " ضع يا عمر سيفك في جرابه لئلا كان  
غيراً لك أن تنصحن بحسن الأداء وتنصحه بحسن الطلب وإن هلك اليهودي  
ما رآه من خلق كريم إمامة للحق والعدل بين الناس رغم اختلاف المكانة والدين  
فأعلن إسلامه (١) " . وقد كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم  
فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إني لم أبعث عالي عليكم ليصيبوا من أبحاثكم ولا  
من أموالكم وإنما بعثتكم ليحجزوا بينكم وليتسموا فيكم بيمينكم فمن فعل به غير ذلك  
فليقم فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال يا أمير المؤمنين إن عامك فلانا ضربني  
مائة سوط قال فمضيت ؟ ثم فاقص منه ، فقال عمرو بن العاص فقال يا أمير  
المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك فقال  
أنا لا أتيه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيده من نفسه <sup>قال</sup> قد عنا فلنرضه ،  
قال دوتكم فأرضوه فأفندي منه بمائتي دينار كل سوط بد دينارين (٢) . وحينئذ  
تطاول ابن عمرو بن العاص واعتدى على ابن المصري ولطمه فاشتكى المصري إلى  
ولي الأمر وكان بحضرة الخليفة عمر بن الخطاب أئاد له الخليفة عمر من ابن عمرو  
وهو يقول للمصري " اضرب ابن الأكرمين " ثم اتجه إلى عمرو بن العاص فقال : " متى  
استمهدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " . وخطب عمر بن الخطاب الناس

( ١ ) روى البخاري حديثاً ينحوه عن أبي هريرة في كتاب الاستقراض باب استقراض  
الابل ٨٣/٣ .

( ٢ ) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٢٩٣/٣ ، ٢٩٤ ، عن عطاء ، وكذلك ص ٢٨١ .

بمعد توليه الخلافة ولما قال : **إِنْ رَأَيْتُمْ فِى أَعْوَجَاجَا فَعُومُوا** \* قام رجل من  
عامة المسلمين فقال : **" لَوْ وَجَدْنَا فِىكَ أَعْوَجَاجَا لَقَوْمَانَهُ <sup>بِحَدِّ</sup> سَيُوقِنَا "** فما كان مشل  
عمر ليفض ب لهذا القول ، وما كان يزيد على قوله الحمد لله الذى جعل فى رعية  
عمر من يقوم بهد سيفه \* لأنه يعلم أن حقه على الناس فى السمع والطاعة مشروط  
باستقامته على الحق وتنفيذه لحكم الله وأنه لا سمع وطاعة له عليهم فى معصية  
الخالق سبحانه وتعالى . وفى عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه غم المسلمون  
أبراداً يمانية فخص عمر منها برد واحد - كأي رجل من المسلمين - ولما لم يكفه  
برد واحد حيث إنه رجل طوال أعطاه ابنه عبد الله برده فضمه إلى برده . ثم وقف  
يخطب فى الناس وعليه ثوب من البردين فقال أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ،  
فوقف سلمان الفارس فقال لا سمع لك علينا ولا طاعة ، قال عمر : ( ولم ؟ قال  
سلمان : من أين لك هذا البرد الذى انتزرت به وقد نالك برد واحد كبقية  
المسلمين وأنت رجل طوال لا يكفك برد واحد . قال عمر لا تمجل ، ونسأدى  
يا عبد الله فلم يجبه أحد ثم قال يا عبد الله بن عمر فقال لبيك يا أمير المؤمنين  
قال ناشدتك الله البرد الذى انتزرت به أهو بردك ؟ قال عبد الله اللهم نعم  
قال سلمان الآن مر نسمع ونطع . وهناك قصة شهيرة عن جبلة بن الأيهم  
آخر ملوك الفساسة ، فعند دخل الإسلام وكان الخليفة عمر يكرمه ويجله وحدث له  
مرة أن وطئ رجل من عامة المسلمين ذيل إزار جبلة وهو يطوف بالبيت فأخذ منه  
الحمية الجاهلية فاستدار قمل الرجل ولطمه لكمة شديدة على وجهه فحشم أنفه ،  
فاشتكى الرجل إلى الخليفة عمر رضى الله عنه فاستدعى عمر جبلة وأجلسه بجوار خصمه  
للنضاء فاعترف جبلة بأنه ضرب الرجل فحكم عمر بالقصاص فقال جبلة كيف ذللك

وأنا ملك وهوسوفة تجلسه بجوارى وتقتض له من ؟ قال عمر إن الإسلام قد  
 سوى بينكما وقد استعمل جيلة عمر بن الخطاب حتى يرض خصمه ويطيئ  
 خاطره فاستجاب له فهرب من وجهه وفر إلى بلاد الروم وارتد عن  
 الإسلام (١) .

...

---

(١) انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ص ١٦١ ، والمقد الفريد  
 ٢٥٩/٢ - ٢٦٠ لابن عديده .

## مبدأ التكافل الاجتماعي

للتكافل الاجتماعي في الاسلام جانبان واضحان يتميز بهما عن سائر النظم والمذاهب جانب التضامن الروحي والترابط الممنوي وجانب التكافل المادي أو الواجبات المفروضة والحقوق المادية المترتبة على التكافل الروحي بين أفراد المجتمع المسلم .

ان الروابط الروحية والاواصر الممنوية التي تربط بين المسلمين تجعلهم أمة واحدة تجمعهم وحدة العقيدة الخالصة في الله تعالى ووحدة الضيق في الحياة وهم يتضامنون ويتمانون في حمل المسؤوليات وأداء الواجبات في مواجهة الحياة وحل مشكلاتها والتغلب على الزمات والخطوب التي قد تواجههم مجتمعهم وتمتري طريقهم الى تحقيق الامن والاستقرار والسعادة .

ومبدأ التكافل المادي في الاسلام يقوم على دعائم التضامن الروحي والترابط الممنوي الذي بينا أسسه وقواعده فيما سبق من مباحث هذا الفصل . وعناية خاصة الاسلام في جعل التضامن الروحي الأساس الاول المتين الذي يقوم عليه التكافل المادي دليل على صدق نظرة الاسلام في معالجة الصلة بين أفراد المجتمع المسلم بعضهم مع بعض وواقعية الاسس والمبادئ التي يقيم عليها بناء هذا المجتمع حيث راعى فيها طبيعة الانسان وفطرته حتى يصدر هذا الانسان في كل ما يقوم به في هذا المجال عن رضا وطوعية ممتلأ بالامر الله تعالى متبعاً لهدي الدين وتعاليمه واخلاقه . ولئن كانت القيم النهائية للحياة البشرية روحية في طبيعتها وحقيقتها فان ذلك لا يعنى ان الحقائق والقيم الروحية أمور منفصلة تام الانفصال عن الجوانب المادية من الحياة . بل اننا نلاحظ ان معظم هذه القيم والمبادئ لا يمكن تطبيقها في واقع الحياة الا من خلال الجوانب المادية وبذلك نعلم أن المجتمع الصالح الذي يطالب الاسلام باقامته لا يقوم من أجل تحقيق المطالب الروحية والقيم الخلقية فحسب ولكن لتحقيق المصالح المادية كذلك ، من أجل عمارة الكون وازدهار الحياة وتوفير وسائل الراحة والأمن

## والسعادة للانسان .

وللتكافل المادى في الاسلام موارد متعددة تشمل جميع مصادر ركب الانسان وعمله وتستخرج من فضولها لتصرف في سد حاجات أفراد المجتمع وفي الصالح العام ، من أجل تحقيق توازن اجتماعى يقرب الفوارق بين الاغنياء والفقراء ، وجعل المال متداولاً بين الناس بحيث يضمن الكفاية لكل فرد أو يمكن الانسان من المشاركة الفعلية في مشاريع العمل والتكسب لاستثمار ضايع الثروة حتى لا تكون متركزة في ايدى فئة قليلة من الناس تستغل مصالح الآخرين وتستذلهم لمصالحها الذاتية .

ومن وسائل الاسلام المحددة لتحقيق التكافل الاجتماعى في المجتمع المسلم ما يكون بالمال الخاص كالزكاة بجميع أصنافها والصدقات والبركات وأنواع المعاملات المالية وغيرها ومنها ما يكون بالاموال العامة كالنفق والخراج والجزية وخمس الفئيمة وعشر الركاز وما الى ذلك ، وان نظام المعاملات المالية في الاسلام جانب مهم في خطط الاسلام ووسائله لتحقيق التكافل الاجتماعى بين أفراد المجتمع . فقد وضع الاسلام في هذا المجال أسساً قوية ومبادئ سامية تقوم على دعائم الحق والعدل وتقوى روح الاخوة والمحبة والتعاون والتساند ونشر الخير والفضيلة بين الناس . ثم ان من واقعية نظام الاسلام في تحقيق التكافل الاجتماعى بين افراد المجتمع المسلم وضمه على مراتب ودرجات بعضها فوق بعض . فقد أوجب الاسلام على الانسان أن يبدأ في البر والاحسان بأهله وعياله ثم ذوى القربى والارحام ، الاقرب منهم فالأقرب ثم الجيران والأصحاب الاذن فالاذن وهكذا تأخذ آفاق التكافل الاجتماعى في الامتداد والاتساع حتى تشمل جميع أفراد المجتمع المحتاجين من الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل والغازمين والأرقاء وغيرهم سواء منهم الاقارب والاباعد حتى يصبح المجتمع المسلم كالجسد الواحد لا يشتكى منه عضو حتى تتداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحس .

ففي واقع حياة المسلمين في المجتمع المسلم الاول تحقق مبدأ التكافل الاجتماعي في أسس معانيه وأعلى صورته . لقد عرف كل فرد في هذا المجتمع ما عليه من مسؤوليات وواجبات وقام بإدائه - في حدود استطاعته - لمصالح الجماعة، كان كل فرد في هذا المجتمع يحب الخير لنفسه ولا غوانه المسلمين ويستبقي الخيرات والمبرات وفضائل الاخلاق ، يقف الى جانب اخوانه المحتاجين يشد أزرهم ويسد غلتهم ويمسح جراحهم وألامهم وينفخ عنهم الكرب ، وهو يصدر في ذلك كله عن قوة ايمانه بالله تعالى واتباعه لتعاليم الدين واخلاقياته وطاعته لامر الله تعالى وامر رسوله صلى الله عليه وسلم واحساسه المرهف بمسئوليته وواجباته تجاه اخوانه المسلمين ، ولم يكن احد من أفراد هذا المجتمع يعيش حياة العزلة والانفراد وحب الذات ويهرب عن حمل المسؤولية والتبعات وينكل عن واجبه تجاه اخوانه او ينكر الصلة الاخوية الوثيقة التي تربط بينه وبين افراد مجتمعه في شيء أو يقدّم مصلحته الذاتية على مصالح الجماعة التي هو فرد منها . وكذلك كانت الجماعة من جانبها أيضا قد عرفت حدود مسؤولياتها وواجباتها تجاه افرادها فلم تهمل العناية بهم ولم تضيع حقوقهم ومصالحهم او تنكل عن السعي لتحقيق الخير والفضيلة وتوفير وسائل الامن والاستقرار والسعادة لجميع أفراد المجتمع ، وبهذا الايمان العميق بالله تعالى وهذا الفهم الصحيح لتعاليم الدين الحنيف واخلاقياته وهذا الاحساس المرهف بالمسؤولية من جانب أفراد المجتمع المسلم الاول بعضهم مع بعض قويت رابطة الاخوة بينهم وتماسكت اركان بناء مجتمعهم على دعائم التحاب والتراحم والتعاون والتساند والتكاتف والحب في الله ونشر الخير والفضيلة والاحسان الى المحتاجين واثار طاعة الله وامثال اوامره في كل شأن ، وبذلك استطاعوا ان يحققوا في عالم الواقع مبادئ المدالة الاجتماعية الرفيعة وان يقضوا على الفقر والموز ويسدوا ثغرات الحاجة والمسكّة ويوفروا الكفاية من المعيشة لكل فرد في المجتمع . لقد استطاع الاغنياء منهم ان يطهروا قلوبهم من البخل والشح واداء الاثرة والانانية ونزعة السيطرة والاستبداد ومشاعر



حب الذات والا استعلاء والظهور والتناول على الآخرين بكثرة المال ورفعة الشأن والمكانة فوسعوا اخوانهم المحتاجين بمالهم وعطفهم ورعايتهم ومحبتهم ، كما استطاع الفقراء من جانبهم ايضا ان يظهرُوا قلوبهم من الحقد والبغض والحسد والنفينة والغل فعاش الجميع اخوانا في الله متحابين متضامنين متساندين كالبنيان يشد بعضه بعضا .

فلنعرض الان بعضا من النماذج المالية والا مثلة الرائعة من واقع حياة الامة الاسلامية في البر والاحسان والتكافل الاجتماعى . فقد حفل واقع حياة المسلمين الاوائل بالنماذج والأمثلة الكثيرة المتعددة في هذا الاتجاه بحيث لا يمكننا استيعابها والاحاطة بها في هذا المقام . وسنكتفى هنا بإيراد بعض الأمثلة من زاوية الحالات الفردية والجماعية التى يرتفع فيها الافراد والجماعات الى الافاق الانسانية العالية في تطبيق مبادئ التكافل الاجتماعى في المجتمع المسلم ، ومن زاوية جهاز الحكم الذى يقوم بمهمته في تطبيق خطط الاسلام ووسائله في تحقيق التكافل الاجتماعى بين افراد المجتمع ويلزم الناس بها في علاقاتهم بعضهم مع بعض .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نتصدق فوافق ذلك ما لعندى فقلت اليوم أسبق أبا بكر ان سبقته يوما ، قال فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أبقيت لاهلك قلت مثله . واتى أبو بكر بكل ما عنده فقال " يا أبا بكر ما أبقيت لاهلك " ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله قلت والله لا أسبقه الى شيء أبدا " (١) ؟ كان أبو بكر صديقا تقيا كريما بذالا لامواله في طاعة الله تعالى ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروى ابن سعد انه يوم أسلم كان له اربعون الف درهم مدخرة من ربح

(١) رواه الترمذى في كتاب المناقب باب في مناقب أبى بكر وعمر ٦١٤/٥ = ٦١٥ وقال هذا حديث حسن صحيح .

تجارته ، وقد نما ماله وكثر ربح تجارته بعد اسلامه ، ولكن ابا بكر قد انفق ماله كله في اقتداء الضعفاء المضطهدين من الموالى المسلمين الذين يسمون سبوء المذاب ويقتنون عن دينهم كما أنفقه في بر الفقراء ومواساة الساكنين المعوزين حتى لم يبق له من هذا المال عند ما هاجر الى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى خمسة الاف درهم ، وقد استمر ابو بكر في المدينة ينفق بسخسائه في سبيل الله (١) . وأما عمر بن الخطاب فهو رجل فقير ، ويذكر ابنه عبد الله انه " أصاب بخير ارضا فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفست منه فكيف تأمرني به قال : " ان شئت حبست أعلمها وتصدق بها " ، فتصدق عمر - انه لا يباع أعلمها ولا يوهب ولا يورث - في الفقراء والقربى والرقاب وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل لا جناح على من وليها ان يأكل منها بالمعروف او يطعم مديقا غير متمول فيه . " (٢) وذكر ابن عبد البر أن بشر رومة كانت ركية ليهودى يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة ؟ " فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى ان يبيعها كلها فاشتري نصفها بأشئ عشرين الف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان رضى الله عنه ان شئت جعلت نصيبى قرنين وان شئت فلى يوم ولك يوم قال بل لك يوم ولى يوم فكان اذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين فلما رأى ذلك اليهودى قال فسدت على ركيكى فاشتري النصف الاخر فاشتراه بثمانية الاف درهم . وكذلك جهز جيش المسيرة بتسعمائة وخمسين بعيرا واتم الالف بخمسين فرسا . (٣)

(١) انظر الطبقات ٣ / ١٧٢ من رواية زيد بن أسلم ذكر المفسرون ان خواتم سورة الليل نزلت في ابى بكر رضى الله عنه وهى قوله تعالى : " وسيجنبها الا تقى الذى يوءتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى " آيات (١٧-٢١) وقد حكى بعضهم الاجماع على ذلك .

(٢) رواه البخارى في كتاب الوصايا ، باب الوقف كيف يكتب ٣ / ١٩٦

(٣) الاستيعاب فى معرفة الاصحاب (على حاشية كتاب الاصابة لابن حجر )

وهؤلاء الانصار في المدينة يضربون أروع أمثلة في الايثار حين رحبوا  
 باخوانهم المهاجرين في ديارهم واشركوهم في أموالهم ومساكنهم وواسوهم  
 خير مواساة حتى ان احدهم ليؤثر اخاه المهاجر على نفسه فيما اشتدت حاجته  
 اليه ، عن ابي هريرة قال قالت الانصار اقسم بيننا وبينهم النخل قال : " لا " قال :  
 تكفونا المؤنة وتشركونا في التمر ؟ قالوا سمعنا وأطعنا (١) . " وعن انس رضي  
 الله عنه انه قال : قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 بينه وبين سعد بن الربيع وكان كثير المال فقال سعد قد علمت الانصار  
 اني من اكثرها مالا سأقسم مالي بيني وبينك شطرين ولي امرأتان فانظر اعجبهما  
 اليك فاطلقها حتى اذا حلت تزوجتها فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك  
 فلم يرجع يومئذ حتى أ فضل شيئا من سنن واقط . . . (٢) الحديث .

وعن انس رضي الله عنه قال : كان ابو طلحة اكثر الانصار بالمدينة  
 مالا من نخل وكان احب امواله اليه بيراها وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال انس : فلما  
 نزلت هذه الآية " لن تتالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون " .

جاء أبو طلحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله  
 ان الله تبارك وتعالى يقول : " لن تتالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون . " وان  
 أحب اموالي الى بيراها وانها صدقة لله ، أرجو برها وذخريها عند الله فضعها ،  
 يا رسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بخ ذلك مال رابع  
 ذلك مال / وقد سمعت ما قلت واني أرى ان تجعلها في الأقربين " . فقال ابو طلحة

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الانصار باب اغاء النبي صلى الله عليه وسلم بين  
 المهاجرين والانصار ٢٢٣/٤

(٢) رواه البخاري ، في نفس الكتاب ونفس الباب ٢٢٢/٤

أفضل يارسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه (١) . " وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له " قال أبو الدحداح الانصاري يارسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال " نعم يا أبا الدحداح " قال ارني يدك يارسول الله ، قال فتأوله يده ، قال فاني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي قال : وحائط له فيه ستانة نخلية وأم الدحداح فيه وعيالها - قال فجاء أبو الدحداح فنادها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجني فقد أقرضته ربي عز وجل (٢) . " وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الأشعريين اذا ارملوا في الفزو أو قتل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثنوب واحد ثم اقتسموه بينهم في اناء واحد بالسوية فهم مني وانا منهم (٣) " وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال جاء النبي صلى الله عليه وسلم يمدوني وأنا بحكة - وهو يكره ان يموت بالارض التي هاجر منها - قال يرحم الله ابن عفراء ، قلت يارسول الله اوصي بحالي كله قال : " لا قلت : فاشطر قال : لا " قلت الثلث ، قال : فالثلث والثلث كثير انك ان تدع ورثتك اغتيا خير من ان تدعهم عالة يتكفون الناس في ايديهم وازك مهما انفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها الي في امرأتك وعسى الله ان يرفعك فينتفع بك ناس ويضربك آخرون ولم يكن يومئذ الا ابنه (٤) " .

- 
- (١) رواه البخاري في كتاب الزكاة باب الزكاة على الأقارب ١٢٦/٢  
 (٢) قال ابن كثير في تفسيره ٢٩٩/١ رواه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود وقد رواه ابن مردويه عن عمر مرفوعاً بنحوه .  
 (٣) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل الأشعريين ٦١/١٦-٦٢ شرح مسلم للنووي .  
 (٤) رواه البخاري في كتاب الوصايا ، باب الوصية بالثلث ١٨٦/٣

ورمما ورد في الأمثلة الرائعة في التيسير على المفسر ووضع الدين عنه ما جاء في حديث عبادة بن الصامت قال خرجت انا وأبى نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل ان يهلكوا فكان أول من لقينا " ابا اليسر " صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غلام له معه غمامة من صحف ، وعلى أبى اليسر برودة ومعارفى وعلى غلامه برودة ومعارفى فقال له أبى : يا عم انى أرى في وجهك سفهة من غيب قال أجل ، كان لى على فلان بن فلان الحرامى فأتيت أهله فسلمت فقلت ثم هو ؟ قالوا : لا فخرج على ابن له جفر فقلت اين أبوك ؟ فقال سمع صوتك فدخل اريكة أمى ، فقلت أخرج الى فقد علمت أين أنت . فخرج فقلت ما حملك على ان اختبأت منى ؟ قال أنا والله احدثك ثم لا اكذبك ، خشيت والله ان احدثك فاكذبك أو اعدك فاخلفك وكنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت والله معسرا قال : قلت آله ؟ قال الله قلت قال الله قلت آله قال الله قال : فأتى بصحيفته فحماها بيده فقال ان وجدت قضاء فاقضنى وإلا أنست في حل فاشهد بصر عينى هاتين ووضع اصبعيه على عينيه - وسمع أذنى هاتين ووعاه قلبى هذا وأشار الى نياط قلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول " من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله . . . " (١) الحديث مطبوعا ولقد قطع المجتمع المسلم شوطا بعيدا في ميدان التكافل الاجتماعى وطبق مبادئ الاسلام وأساسه في تحقيق التراحم والتعاطف والتعاون بين أفراد المجتمع . والذي يراجع أى مجال من مجالات التكافل في المجتمع المسلم يرى صورة مضيئة تعكس ايمان هذا المجتمع بجدأ التكافل وحرصه الشديد على تحقيقه .

ففي مجال الأوقاف مثلا نرى أن ثروات ضخمة قد وضعت عن رضا واقتناع لتحقيق غايات انسانية كريمة من خدمة البائسين وكفاية الفقراء والمساكين وسد

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد باب حديث جابر الطويل وقصة ابى اليسر

حاجات المموزين واعانة الأيتام والارامل والمجزة والمصوتين وغيرهم ———  
 ذوى الحاجات .

ولم يكن أمر التكافل الاجتماعى في الاسلام متروكا للوجدان الفردى والجماعى  
 وحده ولكن جهاز الحكم في المجتمع المسلم قد حمّله على عاتقه يطبقه ويلزم الناس  
 به . وقد وقف القرآن الكريم موقفا حاسما من محاولات فردية لمنع الزكاة في حياة  
 الرسول صلى الله عليه وسلم جعل أصحاب تلك المحاولات عبرة للناس كما جاء  
 في الحديث (١) الذى رواه أبو امامة الباهلى في قصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى  
 الذى نزل فيه قوله تعالى : " ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن  
 ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون  
 فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون (٢)  
 وكذلك حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتنع بعض العرب من دفع  
 الزكاة وصمموا على اسقاطها من الفرائض وقالوا انها نوع من الاتاوات والعرب  
 لا تدب لقرش بالا تاوات وقف أبو بكر الصديق موقفا حاسما من هؤلاء المرتدين  
 وآلى على نفسه ليوجهن كل قوى الدولة لمطالبة هؤلاء بحقوق الفقراء والمساكين  
 وقتالهم ولو منموه ما قيمته حبل يعقل به البعير . عن أبى هريرة رضى الله عنه  
 قال : " لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر وكفر من كفر من  
 العرب فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله  
 ونفسه الا بحقه وحسابه على الله تعالى ، فقال أبو بكر : والله لا قاتلن من فارق  
 بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منموني عناقا كانوا يؤدونها لرسول  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منحها قال عمر فوالله ما هو الا أن قد

(١) وقد أورد هذا الحديث ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/١٨٩-١٩٠)

(٢) سورة التوبة آيات (٧٥ - ٧٧)

شرح الله صدر أبي بكر للقتال فمرفت أنه الحق (١) . \*

ولقد فرض عمر بن الخطاب لـ لا طفال المفطوم وغير المفطوم وكذلك المسن والمريض فريضة من بيت المال وذلك غير مصارف الزكاة والصدقات التي تشمل ذوي الحاجات . ولم تكن آفاق التكافل الاجتماعي في الاسلام مقصورة على أفراد المجتمع من المسلمين بل امتدت الى غيرهم من النصارى واليهود ، روى أن عمر بن الخطاب رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب فسأل فعلم أنه يهودى فقَالَ له ما ألبأك الى ما أرى ؟ قال الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فاعطاه ما يكفيه ساعته وأرسل الى خازن بيت المال ، انظر هذا وضرباه فوالله ما انصفناه ان اكلنا شبيبته ثم نخزه عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين - وهذا من مساكين اهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه . وذكر عنه ايضاً انه لما سافر الى دمشق مر بأرض قوم مجذومين من النصارى فأمر ان يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت . والأثلة في هذا المجال كثيرة متوفرة لا يمكن حصرها وسبنا ما ذكرنا من ذلك .

---

(١) رواه البخارى في كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة ١٠٩/٢ - ١١٠

## سياسة الحكم والمال

في حديثنا عن الواقع الضخم الذي أقامه الجيل الأول الفريد في مجال سياسة الحكم والمال لانتجاً الى عرض الأسس والمبادئ والتوجيهات التي قررها الاسلام في هذا المجال لان ذلك من شأن البحوث المتخصصة في الحديث عن الاسلام عقيدة وعبادة ومنهج حياة وفي توضيح حقائق هذا الدين وبيان قيمه ومبادئه السامية ، ولكننا سنكتفي هنا بوضع اطار عام نبين فيه مدى فهم المسلمين الاوائل وادراكهم لمنهج الاسلام في شئون الحكم والمال ثم نعرض بعد ذلك الواقع العملي الرائع الذي أقامه هؤلاء المسلمون في حياتهم لنعرف كيف طبقوا تعاليم الاسلام وتوجيهاته في هذا المجال .

لقد كان المسلمون الاوائل على فهم عميق وادراك واع بمعناية الاسلام الفائقة بأمر الدين والدنيا من شئون البشر حيث جمع الدنيا والاخرة في طريق واحد وجعل الدنيا دار العمل وطريق الاخرة بينما جعل الاخرة نهاية المطاف في رحلة الحياة ودار الحساب والجزاء، وأن الدين الاسلامي عقيدة وعبادة ونظام حياة وهو بذلك كل لا يتجزأ ولا تنفصل اجزائه لما بين قيمه ومبادئه وأسسهم ترابط محكم وتشابك قوى بحيث لا يمكن بأى حال فصل أحدها مستقلاً عن الاجزاء الاخرى أو أخذ مبدأ او قاعدة بمفردها دون بقية الأسس والمبادئ . وكذلك علم هؤلاء المسلمون أن الله سبحانه وتعالى الخالق المدبر هو وحده الذي له الحكم والتشريع وقد أنزل الكتب وأرسل<sup>الرسول</sup> الهداية الناس الى ما فيه الخير والصالح حتى يقوموا بالحق والعدل فأمنوا بالله حقاً وصدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به واتبعوا النور الذي أنزل اليه وكانوا يحكمون به ويحكمونه في كل شأن من شئون حياتهم ويرضون بحكم الله ويسلطون لأنهم يعلمون أن عدم الحكم بشرع الله وتحكيم غير شرع الله والرضا بحكم الطواغيت اشراك بالله تعالى في الحكم مثل الاشراك به تعالى في عبادته ، فقد اتضح لهم أن الدين هو ما شرعه الله تعالى والحلال



هو ما أحله والحرام هو ما حرمه سبحانه وتعالى لأنه هو المختص بالحاكمة المطلقة وحده لا شريك له وليس هناك أحد من خلقه يشاركه في شيء من صفات الربوبية والالوهية التي اتصف بها واستحق بها أن يكون له الحكم والتشريع دون غيره . ثم إن هؤلاء المسلمين الأوائل قد فهموا من كون الحكم والتشريع لله وحده لا شريك له أن كتابه العزيز وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما مصدر التشريع والحكم في الإسلام . وأن القرآن الكريم هو أساس الشريعة الإسلامية وأصلها الأول وان جاءت نصوصه على الأحكام والنظم والتشريعات في كثير من الأمور على نحو إجمالي ومن غير بيان تفصيلي للجزئيات الدقيقة فان مهمة الرسول صلى الله عليه عليه وسلم هي تبين ذلك وتفصيله وشرحه شرحا وافيا . وهكذا كانوا يقبلون كل ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم مما بينه من أمور هذا الدين وكل ما حكم به وأرشد إليه وكانوا يتبعونه ويطيعونه ويمثلون أمره وينتهون إلى نهيه ولا يخالفون عن أمره في شيء من ذلك . وهكذا كان لهذين المصدرين الكتاب والسنة الهيمنة الكاملة على شئون حياة الرعية الأولى من المسلمين في جميع مجالاتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والأخلاقية والقضائية . لقد فهم المسلمون الأوّلون من أمر الله عبادته بالحكم بما أنزل على رسوله وأمره لهم بتحكيم شرعه في كل ما شجر بينهم أن ذلك معناه إقامة شئون الحياة الإنسانية كلها على هدى دين الله ومنهجه وشريعته وأنه لا يتعين حد الإيمان الكامل ولا يتحقق شرط الإسلام الصحيح سواء للحكام أو للمحكومين إلا بذلك ، وأن مناط الأمر في ذلك هو الحكم بما أنزل الله من الأحكام وقبول هذا الحكم والتسليم له من المحكومين وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والنظم البشرية . وبهذا الفهم الصحيح عرف المسلمون الأوّلون أن ليس لأحد من البشر - لا لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو جماعة - نصيب من الحاكمية أو شيء من أمر التشريع فالبشر جميعا لا يطبقون أن يشرعوا لأنفسهم قانونا وليس لهم أن يغيروا شيئا ماضيا شرع الله لهم أو يلغوه من تلقاء أنفسهم دون أن يكون لهم سلطان من الله تعالى . وعلى هذا فان منهج الحكم

في حياة الجيل الاول من المسلمين كان قائما على أساسين ثابتين هما العدل الرباني الذي هو شرع الله المنزل ومبدأ الشورى الذي قرره الاسلام في الامور المباحسة التي لم تنزل فيها نصوص من كتاب أو سنة . وكان من ولى شيئا من أمور المسلمين يدرك ما أوجبه عليه من الحكم بما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم واتباع هدى الله ومنهجه لاقامة الحق والعدل بين الناس كما يحسن دائما بعظم المسئولية التي تحملها امام الله تعالى فيما استرعاه اياه من أمور عباد الله لعلهم انه سيقصف بين يدي الله تعالى ليحاسبه على كل صغيرة وكبيرة يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم . من أجل هذا كان ولاية امور المسلمين والحكام يحرصون اشد الحرص على تنفيذ امر الله وأمر رسوله في كل شأن ويتوخون الحق والعدل والمصلحة في تصريفهم لأمور المسلمين ويسعون جادين لاقامة جميع شئون حياة الناس في المجتمع على أساس شرع الله ومنهجه ، وكان أفراد المجتمع جميعا عندهم سواء في ميزان الحق والعدل وليس لاحد منهم ميزة على غيره ولا حق يختص به دون غيره الا في حدود ما يقرره الشرع الرباني الذي لا يحابي أحدا ولا يراعى له جانبا في شيء البتة بل يجمل الناس جميعا امام الحق والعدل سواء لافرق بين انسان وآخر حاكما كان أو رعية قويا كان أو ضعيفا غنيا كان أو فقيرا شريفا كان أو رضيعا وهكذا أرسوا دعائم الحق والعدل في المجتمع المسلم الاول وعاش الناس في ظل منهج الله وشريعته ينعمون بالامن والاستقرار والسعادة . لقد علم المسلمون الاوائل ان مهمة ولاية أمور المسلمين محددة بحدود شرع الله ومحصورة في نطاق تنفيذ أمور الله وأمر رسوله والسير في أمور الامة على هدى الكتاب والسنة وروح الدين الحنيف ، واللجوء الى مشاورة أهل العلم والصلاح في الامور العامة المستجدة التي لم ترد لها احكام صريحة واضحة في الكتاب والسنة ، وكانوا يدركون تمام الادراك ببيان الشورى التي قررها الاسلام ليست طليقة المنان في تصريف شئون المسلمين بل هي محددة بحدود الدين التي قررها الله تعالى في شريعته وتابعة للقاعدة الاساسية فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول . . . وعلى ضوء ذلك كان ولاية أمور المسلمين يتولون دراسة الامور العامة في المجتمع لمعرفة ما فيه الخير والصلاح

للناس وما يذفع الضرر والمفسدة عنهم مسترشدين بما جاء في الكتاب والسنة — من القواعد الكلية والمبادئ العامة ليستنبطوا منها الاحكام للامور المستجدة ، كما كانوا يتباحثون في مجال الحكم والتشريع لتوضيح المعنى الصحيح لاي نص — من نصوص الكتاب والسنة او بيان كيفية تطبيقه واخراجه الى حيز التنفيذ — حتى يتحقق مطلبه تحققاً تاماً ، وما كانوا بأى حال يتباحثون فيما أصدره الله ورسوله من حكم في أمر من الامور ليصدروا فيه حكماً تلقائياً من عند انفسهم لانهم يعلمون أن الحكم والتشريع لله وحده لا شريك له وان مهمة العلماء والفقهاء محدودة في نطاق تفهم نصوص الكتاب والسنة لاستنباط الاحكام منها ، والاجتهاد في المسائل التي لم ترد فيها احكام صريحة من الكتاب والسنة سائرين على هدى هذين المصدرين الأساسيين مسترشدين بما جاء فيهما من القواعد والأسس والتوجيهات تفهم بذلك مفسرون وشرح لما تضمنته النصوص من احكام وشرائع وتعليمات وليسوا مشرعين — تلقاء أنفسهم .

للجيل

والآن بقی علينا أن نعرض شيئاً يسيراً عن الواقع التاريخي/الاول من المسلمين في مجال سياسة الحكم والعمال لكي نرى كيف ترجمت المبادئ والقيم والتوجيهات الاسلامية السامية الواردة في هذا الشأن الى واقع على سام في كل اتجاه خلال عهد هذا الجيل الفريد .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرم الناس واقوامهم على العمل بكل ما جاءه من عند الله تعالى وكان مثلاً أعلى في اتباع ما أنزل الله اليه والحكم به بين الناس بما أراه الله لاقامة الحق والعدل بينهم ، وكان الى جانب ذلك — يلجأ الى مشاورة اصحابه في الامور العامة المباحة التي لم ينزل فيها وحى — من الله تعالى كما أمره الله تعالى وقد دلتنا الروايات ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من استشارته لاصحابه في المسائل التي لم ينزل فيها قرآن حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت احداً قط كان اكثر مشاورة لاصحابه من رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ابو بكر وعمر في مقدمة الذين كان الرسول يعتمد عليهم في ذلك . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يصدر قضاءه فيما يعرض له من المسائل العامة التي لم ينزل فيها وحى على ضوء اجتهاده واستشارته لاصحابه فان حاله التوفيق في قضاؤه كان بها وان لم يصب في ذلك نزل الوحي من الله معلما ومقررا الحق والصواب كما هو واضح في قصة الذين استأذنوه صلى الله عليه وسلم في التخلف عن غزوة تبوك فاذن لهم وكذلك مسألة اسرى بدر وولاته صلى الله عليه وسلم على رأس المنافقين عبد الله بن ابي بن سلول وما الى ذلك .

وبعد ذلك تلقى بعض الاضواء على عهد الخلفاء الراشدين لنرى منهجهم في مجال الحكم والمال وسيرهم في تنظيم شئون المسلمين وفهمهم لمهمة الخلافة التي تولوها ومعرفتهم لحدود وظيفتهم وكيف واجهوا المشكلات التي استجدت في عهدهم او باختصار كيف طبقوا تعاليم الاسلام وقيمه وتوجيهاته في مجال سياسة الحكم والمال في واقع حياتهم على تلك الصورة الناصعة المشرفة التي لم تتكرر في التاريخ .

لقد كان عهد الخلافة الراشدة فترة رائعة في التطبيق العملي الكامل لمبادئ الاسلام وقيمه وتعاليمه وتوجيهاته وأخلاقياته ليس فقط في مجال سياسة الحكم والمال وانما في جميع مجالات الحياة ، انها فترة ممتازة في حياة الاممة الاسلامية رغم ان هذه الصورة الممتازة لم تدم طويلا حيث لم تستمر عند الاجيال الاسلامية اللاحقة على طول تاريخ هذه الاممة . وليست العلة في ذلك راجعة الى طبيعة النظام الاسلامي في حد ذاته ولكن كانت هناك عوامل متعددة واحوال وظروف ألمت بالمسلمين وأدت الى فتن عويصة قاصمة كانت تزداد شدة وتفاقما

(١) سورة التوبة آية (٢) وما بعدها

(٢) سورة الانفال آية (٦٧ - ٦٨)

(٣) سورة التوبة آية (٨٤)

على مر العصور وتعاقب الأجيال - على ما سنبينه فيما بعد - " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (١) " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير. (٢)

جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال . . . " وأن امتكم هذه جعلت عافيتها في أولها وان آخرها سيصيبهم بلاء وامور ينكرونها تجي \* فتنة فيدقق بعضهم لبعض فتحي \* الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تتكشف ثم تجي \* فيقول هذه مهلكتي ثم تتكشف فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأت به منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت الى الناس الذي يحب أن يؤتى اليه ومن بايع املا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعمه ان استطاع فان جاء آخر ينازعهم فاضربوا عنق الآخر . " (٣)

وأما عن منهج الخلفاء الراشدين في سياسة الحكم فاننا سنوجز الحديث عنه مكتفين بذكر اهم الاسس والمبادئ التي قام عليها منهاجهم في هذا المجال . ونرى أن من خير ما يوضح لنا هذا المنهج ويبين لنا تصورهم للحكم هو الخطاب التي ألقوها على الناس بعد توليتهم امر الخلافة ، وقد ضمنوها مجموعة من المبادئ والقيم الاساسية التي قررها الاسلام في سياسة الحكم وأوضحوا فيها الطريقة التي يسيرون عليها في تنظيم الامور العامة في المجتمع المسلم وذلك الى جانب الواقع الضخم الذي أقاموه في مجال التطبيق العملي لتعاليم الاسلام ، وكما نرى من غير شاهد على صدقهم ووفائهم وإخلاصهم . فلنعرض بعضا من هذه الخطب لنرى مدى فهمهم للتصور الاسلامي الصحيح للحكم وادراكهم التام لمهمة الولاية

(١) سورة الرعد : آية (١١)

(٢) سورة الشورى : آية (٣٠)

(٣) رواه النسائي في كتاب البيعة باب ذكر ما على من بايع الامام واعطاه صفقه يده . . الخ ١٥٣/٢ وابن ماجه في كتاب الفتن ، باب ما يكون من الفتن ١٣٠٦/٢

والحكم في الاسلام ،

خطب أبو بكر رضي الله عنه الناس في المسجد عقب البيعة فقال : " أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فاعينوني وان أسأت فقوموني الصدق امانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عصم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . (١) "

وقال في خطبة أخرى : " أما بعد فاني وليت هذا الامر وأنا له كاره ووالله لو ددت أن بحضكم كهانيه الا وانكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمته الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني فإذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني وان رأيتموني زغت فقوموني واعلموا ان لى شيطاناً يعترينى فاذا رأيتموني فضيت فاجتنبوني لا أؤثر في اشعاركم وأبشاركم . (٢) " وجاء فى الخطبة التى ألقاها عمر بن الخطاب عقب البيعة قوله : " أيها الناس ما أنا الا رجل منكم ولولا أننى كرهت أن أرد امر خليفة رسول الله ما تقلدت امركم . . . " وجاء في خطبته الثانية قوله : " ولكم على أيها الناس خصال أذكركم لكم فخذوني بها ، لكم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه ولكم على اذا وقع في يدي الا يخرج منها الا في حقه ولكم على الا القيك في المهالك ولا اجرمكم في شغورك واذا غبتم في البعوث فانا أبو العيال " ، وكذلك خطب على بن أبسى طالب عقب البيعة فقال : " أيها الناس انما انا رجل منكم لى مالكم وعلى ما عليكم وانى حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمرت به . . . ألا ان كل قطيمة أقطعها عثمان وكل ما أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فان الحق لا يبطل بسبه شئ " ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك الاماء وفرق في البلدان لردته فان في العدل سمة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق . رأيها الناس . . . ألا لا يقولن

(١) روى ابن اسحاق هذا الاثر في السيرة عن انس بن مالك وذكره السيوطى في تاريخ

الخلفاء ص ٧٧

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢١٢/٣ عن الحسن البصرى

رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الانهار وركبوا الغيـسـل  
واتخذوا الوصائف المرققة . اذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم الى حقوقهم  
التي يعلمون حرما ابن ابي طالب حقوقنا . ألا وأيما رجل من المهاجرين والانصار  
من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فان الفضل غدا عند  
الله وثوابه واجره على الله . ألا وأيما رجل استجاب لله ورسوله فصدق ملتقا ودخل  
ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده فانتم عباد الله والمال  
مال الله يقسم بينكم بالسوية ولا فضل فيه لاحد على احد وللمتقين عند الله أحسن  
الجزاء .

هذه الخطب البليغة وغيرها تشتمل على عدة مبادئ\* واسس مهمة فسي  
سياسة الحكم ، وهي في غاية البيان والوضوح بحيث لا تحتاج الى شرح أو تعليق  
ولكننا نذكر على سبيل المثال بعضها ورد فيها من القيم والمبادئ\* . ومن ذلك أن مهمة  
الحاكم تنفيذ أمر الله وأمر رسوله والحكم بين الناس بما أنزل الله على رسوله لا قلمة  
الحق والعدل بينهم فالحاكم يستحق طاعة الرعية له ما أطاع الله ورسوله في تصريف  
أمرهم ولا طاعة له عليهم اذا عصى الله ورسوله وخالف أمرهما . وان واجب  
الرعية طاعة أمره ما استطاعوا واعانته في أمره وموازرته ومساندته مادام متقيدا بشرع  
الله كما أن من واجبهم أيضا تقديم النصيحة له وتقويمه اذا رأوا فيه اعوجاجا أو انحرافا  
عن منهج الله القويم ، ولا يجوز للحاكم أن يكلم أفواه الناس من الكلام فيما ينكسرون  
عليه من الامور المخالفة لتعاليم الدين بل الواجب عليه ان يستمع لتوجيهاتهم  
ونصائحهم ويقبل الحق بمدر رحب ثم يبادر الى العمل بما فيه الخير والصالح وفق هدى  
كتاب الله وهدى سنة رسوله ، وكذلك لا يجوز للرعية أن يسكتوا عما يجب التنبيه  
اليه والامر به من المعروف وما يجب النهي عنه من المنكر لان في ذلك هلاك الامة وذهاب قوتها  
وخيرها وفشو الفساد والشر والظلم بين الناس حتى يعمهم الله بعقاب أليم . ومن  
ذلك أيضا التزام الحاكم بفرائض الاخلاق وكريم الصفات كالصدق والاخلاص والعدل  
والوفاء والمعة وحب الخير للناس وما الى ذلك وتجنب مساوىء الاخلاق والصفات

الذميمة مثل الكذب والخيانة والظلم والتجبر والكبر والتعسف والعنف والطغيان والسعى بالفساد في الارض ونحو ذلك .

ومما ورد في هذه الخطب أيضا وجوب تطبيق مبدأ المساواة بين المسلمين جميعا ، فان واجب الراعي ان يسوى بينهم في اعطائهم حقوقهم ومطالبتهم بالواجبات فلا يفضل أحدهم على الآخر ولا يخصصه بشيء إلا بالحق فان الفضل عند الله يوم القيامة للمتقين ، ولا يقرب اليه احدا منهم ولا يخصصه بأمر من الامور العامة أو يعطيه شيئا من المال الحرام ان كان قريبه أو صديقه أو محبه بل عليه ان يلتزم حدود الحق والعدل في كل أمر فالظلم ظلمات يوم القيامة . وان الناس جميعا امام شرع الله سوا . فمن اتبع امر الله واطاع ولى الامر فيما استطاع في حدود شرع الله وان كان فقيرا ضعيفا فهو قوى في ظل عدل الله ، قوى في ميزان الحاكم المسلم اذا ظلمه احد كان لزاما على الحاكم أن يأخذ له حقه كاملا من أى يد كانت . وأما من عصى امر الله وامر رسوله واعتدى على حقوق الآخرين معتمدا على قوة بأسه وسلطانه الصريح فهو امام شرع الله وعند ولى امر المسلمين ضعيف يجب اخضاعه لامر الله حتى يرد ما فى يده من حقوق الآخرين . ومن المبادئ الستة اشتملت عليها هذه الخطب أيضا واجب الحاكم في احقاق الحق وابطال الباطل وبذل أقصى الجهد في القضاء على الفساد والفواحش ورفع الظلم والجور وسد جميع مسالك الشر والهلاك ، واذا وقعت مظالم من بعض الولاة فان واجب الحاكم المسلم رفعها عن كواهل الناس ثم الاقدام بعزم وقوة على اصلاح الاخطاء وتقريب الحق لان الحق لا يبطله شيء والباطل لا يصير حقا بأى حال . وكذلك تؤكسد بعض فقرات هذه الخطب واجب المسلمين في الدعوة الى دين الله والجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله ونشر الخير والصلاح والعدل بين بنى البشر ، فما ترك قوم الجهاد الا أصابهم الله بالذل والهوان ، الى غير ذلك من الأسس والمبادئ التى تقوم عليها سياسة الحكم في الاسلام .



ولقد سار الخلفاء الراشدون في حكمهم بقوة وحزم وإخلاص على هدى تعاليم الإسلام وتوجيهاته القيمة وترسموا في أعمالهم خطى المنهج النبوي العادل ولم ينحرفوا عنه قيد شبر ، فكان دستور حكمهم كتاب الله العزيز وسنة رسوله المطهرة لم يخرجوا عن حدود مبادئ الإسلام وتعاليمه وأسسها في قليل ولا كثير وبذلك أقاموا صرح الحق والعدل بين الناس . وكانوا يهتمون بطريقة الشورى في تنظيم شؤون المسلمين العامة ، وقد جعلوا من كبار الصحابة مجلس مشورة لا يبرمون أمرا ولا ينقضونه إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وما عندهم من أحاديث الرسول ومأثوراته وكانوا كثيرا ما يلجأون للشورى العامة فيدعون الناس إلى الاجتماع في المسجد ويعرضون عليهم الأمر الذي يهمهم فيستمعون لأرائهم ويفيدون من اتجاهاتهم وأفكارهم ، أخرج أبو القاسم البغوي عن ميمون بن مهران قال : " كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى به بينهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله عليه الصلاة والسلام في ذلك الأمر سنة قضى بها فان أعياء خرج فسأل المسلمين وقال : اتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قضى في ذلك بقضاء ؟ فرما اجتمع إليه نفر كلهم يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء فيقول أبو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا فان أعياء ان يجد فيه سنة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فان اجمع أمرهم على رأى قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياء أن يجد في القرآن والسنة نظره لكان لا يرى بكر فيه قضاء فان وجد أبابكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رؤوس المسلمين فاذا اجتمعوا على أمر قضى به (١) . " ومن الأمور العامة التي تمتعوا بها عن طريق الشورى في عهد الخلفاء الراشدين مسألة اختيار (٢) الخليفة وقتال (٣) مانعي

- (١) الامام السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٤٧ - ٤٨  
 (٢) وقد وردت في ذلك آثار كثيرة ، انظر ابن هشام ٣٧٢/٢ - ٣٧٣ في قصة مبيعة أبي بكر وكذلك تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٤ - ٧٧ ، وعن استخلاف أبي بكر عمر والبينة له ص ٩١ - ٩٣ وعن تعيين عمر الستة أهل الشورى وكيف تم اختيار احدثهم خلافة ص ١٤٨ - ١٥٠ ، وعن مبيعة على بن أبي طالب ص (١٩٢ - ١٩١)  
 (٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٠٤ ، والمبرد الكامل في التاريخ ٣٤٣/١ - ٣٤٤ والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٨٣ .

الزكاة ومسألة جمع (١) القرآن وتدوين (٢) الدواوين ومسألة (٣) الخراج وتطبيقاتها  
مبدأ الضرورة في كثير من الاحداث المهمة كما في قصة المرأة التي زنت لحاجتها  
الشديدة الى الماء ، وغير ذلك من المسائل .

ولقد كان الخلفاء الراشدون على معرفة تامة وادراك كامل للمهمة التي تولوها  
من أمر المسلمين ، فهي لا تزيد في تصورهم على القيام بتنفيذ أمر الله وتحكيم شريعته  
بين الناس فلذلك لم يكونوا يعتقدون أبدا أن توليهم منصب ولاية أمر المسلمين يجعل  
لهم حقوقا جديدة او امتيازات لم يكونوا يتمتعون بها قبل ذلك أو أنه يسقط عنهم  
شيئا من الواجبات والتكاليف التي يؤدونها سواء في ذوات أنفسهم أي بينهم  
وبين ربهم أو في شئون عشيرتهم واخوانهم المسلمين . وما كان يخطر على بال  
أحد منهم انه يملك حرية مطلقة في التصرف في شئون المسلمين العامة كيفما يريد وحسبما  
يهوى لا في شئون الحكم ولا في سياسة المال ولا في غيرها ولكنهم على العكس من  
ذلك كانوا يصرفون حدود وظيفتهم ومقدار الصلاحية المخولة لهم ، ويدركون عظم  
المسئولية والتبعات التي حملوها وان اعباءها لتتوزع بجميع قواهم وطاقاتهم ان لم  
تتداركهم عناية الله وتوفيقه ، ولذلك كانوا دائما في يقظة تامة لطبيعة واجبههم  
وحدود مهمتهم يشعرون في كل لحظة شعورا عميقا ويحسون احساسا مرهفا بما عليهم  
من الواجبات نحو رعيتهم ، وكان هذا الاحساس المرهف مصاحبا لهم في كل  
ظرف وكل ملاسة حتى انهم كانوا يعدون انفسهم مسؤولين عن حاجة كل فرد من  
الرعية لا ينفصل عنهم عن هذه المسؤولية عدم علمهم بذلك أو عدم رفع المحتاجين  
حاجاتهم اليهم بل كانوا يشعرون أن من واجبههم ان يتفقدوا احوال الناس ويسألوهم  
عن حاجاتهم .

(١) ثبت ذلك في الاثر الذي أخرجه البخاري عن زيد بن ثابت .

(٢) أخرج ابن سعد في ذلك اثرا عن جبير بن الحويرث انظر الطبقات ٢٩٦/٣

(٣) اقرأ قصة الخراج في الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٣١ - وابويوسف ،

الخراج ص ٢٩ - ٣٠ يحيى بن آدم الخراج ص ٢٧ - ٢٨ - ٤٨٤

عن أبي صالح الفخاري : أن عمر بن الخطاب كان يتماهده عجوزا كبيرة عيا<sup>ة</sup>  
 في بعض حواشي المدينة من الليل فيستقي لها ويقوم بأمرها فكان إذا جـاء<sup>ا</sup>  
 وجد غيره قد سبقه اليها فأصلح ما أرادت فجاءها غير مرة كلا يسبق اليها فرصده  
 عمر فإذا هو بأبي بكر الصديق الذي يأتيها وهو <sup>يؤمئذ</sup> خليفة فقال لعمر أنت هــو  
 لعمرى (١) .

ومما يدل على شدة حساسية عمر بن الخطاب بشعوره العميق بحق المسلمين  
 عنده ومسئوليته عن كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ما جاء في الاثر الذي رواه زيد  
 ابن اسلم عن ابيه ان عمر بن الخطاب طاف ليلة فإذا هو بأمرأة في جوف دار لها  
 وحولها صبيان يبكون وإذا قدر على النار قد ملأتها ما<sup>ة</sup> ، فدنا عمر بن الخطاب  
 من الباب فقال يا أمة الله ايشى بكاه<sup>ة</sup> هؤلاء الصبيان ؟ فقالت بكاهم من الجوع  
 قال فما هذه القدر التي على النار ؟ فقالت قد جعلت فيها ما<sup>ة</sup> اعطاهم بها حسنتي  
 يناموا او همهم ان فيها شيئا من دقيق وسمن فجلس عمر فبكى ثم جاء الى دار الصدقة  
 فأخذ غرارة وجعل فيها شيئا من دقيق وسمن وشحم وتمر وثياب ودرهم حسنتي  
 ملاء الغرارة ثم قال يا أسلم احمل على فقلت يا أمير المؤمنين انما احمله عنك فقللى لى  
 لا أم لك يا أسلم انا احمله لاني انا المسئول عنهم في الاخرة قال فحمله على عنقه  
 حتى اتى به منزل المرأة قال واخذ القدر فجعل فيها شيئا من دقيق وشيئا من  
 شحم وتمر وجعل يحركه بيده وينفخ تحت القدر قال أسلم وكانت لحيته عظيمة فرأيت  
 الدخان يخرج من خلل لحيته حتى طبخ لهم ثم جعل يفرغ بيده ويطعمهم حتى  
 شبعوا ثم خرج ورضى بحذائهم كأنه سبغ وخفت منه ان اكله فلم يزل كذلك حتى  
 لمبوا وضحكوا ثم قال يا أسلم اتدرى لم رضت بحذائهم قلت لا يا أمير المؤمنين قال  
 رأيتهم يبكون فكرهت ان اذهب وادعهم حتى أراهم يضحكون فلما ضحكوا طابت  
 نفسي (٢) . وقد كان عمر بن الخطاب يحذ نفسه مسئولا عن اخطاء عماله وولاته  
 وما كان يمتد أن مجرد حسن اختياره لهم يعفيه عن هذه المسئولية فلذلك اوجب

(١) أخرجه ابن الاثير في اسد الغاب في معرفة الصحابة ٢٢٣/٣

(٢) ابن الاثير في نفس المصدر ٦٦٢/٣ - ٦٦٣

على نفسه متابعة اعمالهم ومحاسبتهم كلما لزم الامر ذلك وقد قال رضى الله عنه  
مرة لمن حوله " أرايتم اذا استعملت عليكم خير من اعلم ثم امرته بالعدل اكتسبت  
قضيت ما على ؟ قالوا نعم قال<sup>ل</sup> حتى انظر في عمله لأرى عمل بما أمرته أم لا " . وقد  
جعل عمر موسم الحج وقت استطلاع ومحاسبة فكان يستقبل فيه ولا ته فيسمح منهم  
ويستقبل المسلمين من جميع المناطق ويسألهم عما يشكون منه . وكذلك يستقبل الذين  
يوفد هم الى مختلف المناطق ليروا احوال الناس وسلوك الولاة ثم كان يعطى كل  
ذى حق حقه كاملا دون تردد أو خوف او محاباة (١) .

ومن خلال كل ما تقدم في الحديث نرى نوع الحكام الذين رباهم الاسلام  
من الجيل الاول من المسلمين وكيف اعدوا انا نمودجيا فريدا حتى ارتفعوا  
الى مستوى عال من المعرفة بتعاليم الاسلام وقيمه وبادئه وبلغوا منزلة رفيعة سامقة  
في الايمان والتقوى والصالح والاخلاص فكانوا احرص الناس على اقامة الحسنى  
والعدل بين الناس والالتزام بتعاليم الاسلام واخلاصها له واقامة دين الله وتنفيذ  
شرعه في الارض وكانوا حكاما ورعين اتقيا ما كانوا يتطلعون الى الولاية ولا يحرصون  
عليها ولا يطلبونها ، وقد ولوا هذا الامر وهم له كارهون ولولا اشفاقهم من وقسوع  
الفتنة على المسلمين وحرصهم على خيرهم وصالحهم ما تقلدوه ولطالما كانوا يرجون  
لو أن غيرهم كفاهم ذلك لعلمهم بعظم المسؤولية وثقل الاعباء ، وعن عبد الرحمن  
بن عوف قال : خطب ابو بكر فقال : والله ما كنت حريصا على الامارة يوما ولا ليلة  
قط ولا كنت راغبا فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية ولكنى اشفت من الفتنة ، وما  
لى في الامارة من راحة لقد قلت امرا عظيما مالى به من طاقة ولا يد الا بتقوية  
الله . (٢)

ولقد تجرد هؤلاء الخلفاء له تجردا كاملا ونموا انفسهم واهل بيهم منسدا  
تولوا امر المسلمين وقد بلغوا من التنزه والتقوى والاخلاص مبلغا رفيعا حتى كانوا

(١) انظر ابن سعد ، الطبقات ، ٢٩٣/٣ - ٢٩٤ ، وكذلك ٢٨١

(٢) ازرد هذا الامام اليسوعي هذا الاثر في تاريخ الخلفاء ص ٧٧ - ٧٨ وقال

اخرجه موسى بن عقيب في مخازيه والحاكم وصححه .

وكأنما ليس لهم في الحياة هوى أو مصلحة ، وبذلك استطاعوا ان يقيموا بين الناس عدلا منزها لا يصرف محاباة ولا مجاملة ولا مصالح ذاتية ولا قرابة او صداقة وانما يصرف حدود شرع الله الذي يطبق بين الناس جميعا ليمشوا في ظل عدل الله آمنين مطمئنين . وكذلك كانوا حكاما رحما متواضعين ورعين يحيون حياة التزهد والحرمان والشطف يأخذون ادنى ما يحل لهم من مال المسلمين وكثيرا ما كانوا يتخرجون ويتعففون من الشيء اليسير الذي رضوه لانفسهم من ذلك ومن عطاء بن السائب قال لما استخلف ابو بكر أصبح غاديا الى السوق وعليه رقبته أثواب يتجر بها فلقبه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال السوق ، قالا تصنع ماذا وقد وليت امر المسلمين ؟ قال فمن اين اطعم عيالي ؟ قال له انطلق حتى نفرض لك شيئا فانطلق معهم ففرضوا له كل يوم شطر شاه وماكسوه في الرأس والبطن (١) . ولما أشرف ابو بكر على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من مال المسلمين نظير تفرغه لمصالحهم فقال : " ان عمر لم يدعى حتى اصبحت من بيت المال ستة آلاف درهم وان حائطى الذى بكان كذا وكذا فيها ، فلما توفى ذكر ذلك لعمرفقال يرحم الله أبا بكر لقد أحب ان لا يدع لاحد بعده مقالا (٢) . " وعن ابي بكر بن حفص قال : قال أبو بكر - لما احتضر - لعائشة رضى الله عنها : " . . اما انا منذ ولينا امر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ولكننا قد اكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا وليس عندنا من في المسلمين قليل ولا كثير الا هذا العبد الحبشى وهذا البعير الناضج وحرد هذه القطيفة فانما مت فامشى بهن الى عمر وابرتي منهن ففعلت فلما جاء الرسول عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الارض ويقول رحم الله ابا بكر لقد اتعب من بعده رحم الله ابا بكر لقد اتعب

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ١٨٤ من طريق مسلم بن ابراهيم

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٩٣ من طريق يزيد بن هارون .

من بعده (١) ، وجاء في الاثر الذي رواه الاحنف بن قيس ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل يوما عما يحل له من مال الله تعالى فقال : " انا اخبركم بما استحل منه ، يحل لي حلتان حلة في الشتاء وحلة في القيظ وما احج عليه واعتمر من الظاهر وقوتى وأهلى كقوت رجل من قریش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم انما بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم (٢) " وعن البراء بن مسرور ان عمر خرج يوما حتى أتى المنبر وكان قد اشتكى شكوى فتعت له الحسل وفي بيت المال عكة فقال : ان انتم لي فيها أخذتها والا فهي على حرام فأذنوا له (٣)

واذا كان المهد بالحكام انهم يجمعون الاموال بينهم وطمع بالغيثون ويزيدون في ثرواتهم من أى طريق كان ، معتمدين على قوة السلطان والشرف حيث لا يخضعون للمراجعة والمحاسبة امام احد من الرعية فيما يأخذونه لانفسهم من الاموال العامة مهما كان كثيرا ، فاننا قد رأينا لأول مرة في الاسلام حكاما كانوا قبل اسلامهم أو بعده اغنيا ثم فقدوا اموالهم من كثرة انفاقهم منها في سبيل الله . وكان مثلهم الاعلى في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فقيرا ذا عيال فاغناه الله عن سواه " الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى (٤) " وقد خيره به بين أن يكون ملكا رسولا أو عبدا رسولا فاختر أن يكون عبدا رسولا . وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم أهله ويبيت على الطوى وقد مات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودى في قوت عياله .

وكان ابو بكر غنيا قبل الاسلام وكان له في منزله من ربح تجارته يوم أسلم أربعون الف درهم ولما خرج الى المدينة في الهجرة لم يبق له من ذلك سوى خمسة آلاف فقد أنفق كله في الرقاب والسنون على الاسلام . ثم انه لم يـسـزل

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٩٦/٣ . وأورده السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٨٨

(٢) أخرجه ابن سعد ، نفس المصدر ٢٧٥/٣ - ٢٧٦ من طريق اسماعيل بن ابراهيم

(٣) جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٤

(٤) سورة الضحى ايات (٦ - ٨)

كذلك في دار الهجرة وكان يعيش من رزقه في التجارة وينفق أكثر ما يحصل عليه من ربح في سبيل الله حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من أمن الناس على في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا فيؤرني لا اتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الاسلام ومودته " (١)

وأما عمر فكان رجلا فقيرا ومع ذلك فقد جاء يوما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف ماله لينفقه في سبيل الله فسأله رسول الله ما أبقيت لأهلك فقال مثله (٢) ولما أصبح خليفة على المسلمين وقد امتد الاسلام في عهد الى بلاد الفرس والروم وسوريا ومصر وغيرها وكثر عدد رعيته وانفتحت أبواب الخير على المسلمين وكثرت موارد بيت المال الذي تحت يده لم يزل عمر يسكن في بيته الصغير وكان أحيانا ينسجم في المسجد على حصير يوتر في جنبه ويرتدي لباس الفقراء ، قال قتادة " كان عمر يلبس - وهو خليفة - جبة من صوف مرقوعة بمضها بأدم " وقال أنس: " رأيت بين كفتي عمر أريح رقاع في قميص له " (٣)

وأما عثمان رضي الله عنه فكان من أغنى تجار العرب، وقد أنفق أكثر ماله في سبيل الله . وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان الى النبي عليه الصلاة والسلام بألف دينار حين جهز جيش المسرة ففرغها عثمان في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يقلبها ويقول : " ما ضر

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي " سدوا الابواب الاباب أبي بكر ١٩١/٤ عن أبي سعيد الخدري .

(٢) انظر الحديث بتمامه في سنن الترمذي كتاب المناقب باب في مناقب أبي بكر وعمر ٦١٤/٥ - ٦١٥ عن عمر بن الخطاب .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/٣٢٧ من طريق عفان بن مسلم ، وذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١٤٣ .

(١)

عثمان ما عمل بعد هذا اليوم قالها مرارا \* وكذلك كان علي بن أبي طالب - فقد روى النضر بن منصور عن عقيبة بن علقمة قال : دخلت على علي بن أبي طالب عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض أتتى حموضته وكسر يابسة فقلت يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟ فقال لي يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا الحق به . \*

وأما منهج الخلفاء الراشدين في سياسة المال فهو قائم على روح الاسلام العامة وفكرته الشاملة وتابع لتصورهم الصحيح لسياسة الحكم وطريقة تسيير دفتسه ومعرفتهم لحدود وظيفة الراعى وحقوق الرعية . وكما هو معلوم في الشريعة الاسلامية أن الشارع الحكيم لم يضع في سياسة الحكم ولا في سياسة المال تفصيلات ثابتة جامدة حتى لا تصطدم بالنمو المطرد والتطور المستمر في أحوال الجماعة المسلمة على ممر المصور وتماقب الاجيال ولكنه في الوقت نفسه لم يترك الناس يتصرفون في شئون الحكم والمال على هواهم من غير أن يضع لهم أصولا ثابتة وقواعد كلية وتوجيهات عامة يسيرون على هديها في وضع منهاج العمل ورسم الخطط وتنفيذها وكيفية اتخاذ الاساليب المناسبة لمعالجة أوضاع المجتمع وحل مشكلات الناس المستجدة في هذا المجال ففي سياسة المال لم يحدد الاسلام طريقة معينة لاشتراك الناس في مال الله الذي أعطاه الجماعة هل تكون طريقة الاشتراك بتأميم المرافق العامة أو بإشتراك العمال في رأس المال وتقسيم الربح أو تكون باعطاء العمال أجورا تكفل حاجاتهم الضرورية في الحياة ، لم يحدد الاسلام صورة معينة من هذه الصور أو غيرها وإنما ترك الأجيال المتعاقبة تفكر لنفسها وتختار الصورة التي تناسب ظروفها وتتلاءم مع أحوالها ومكاناتها في حدود تعاليم الاسلام وقيمه وتوجيهاته .

(١) أخرجه الترمذى في كتاب المناقب باب مناقب عثمان بن عفان ٦٢٦/٥ عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة وأخرجه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة ، باب ذكر مقتل أمير المؤمنين عثمان ١٠٢/٣ عن عبد الرحمن بن سمرة .



لقد كانت سياسة المال في المجتمع المسلم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفترة الخلافة الراشدة تسير وفق التصور الاسلامي الصحيح وعلى هدى تعاليم الدين وأسسهِ القويمة ، كان المال العام مال الجماعة ولا حق للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئاً الا بحقه وكذلك العمال والولاة . ولا حق للحاكم ولا لواليه أو عامله أن يعطى أحداً من هذا المال الا بمقدار ما يستحق .

وفي أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن موارد بيت المال وفيرة لاسباب كثيرة منها أن المهاجرين قد اضطروا الى ترك ديارهم وأموالهم فراراً بدینهم وأصبحوا في مهجرهم فقراء مساكين فوسّعهم الانصار وشاركوهم أموالهم ، وكان عدد المسلمين بعد محمداً ، وقبل فرض القتال لم يكن لبيت المال مورد غير الزكاة وهو يومذاك مورد ضئيل لا يفي بحاجات الفقراء لقلّة عدد الاغنياء . وكانت أموال الزكاة مع قلتها تصرف للاصناف الثمانية المذكورة في سورة التوبة . ولما فرض القتال زاد مورد آخر هو الغنيمة - ويقرر الاسلام للمحاربين منها أربعة أخماس وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطى الراجل سهماً والفرسان ثلاثة أسهم كما كان يعطى الاغنياء سهمين والمتزوج سهمين . وأما الخمس الباقي من الغنيمة فكان صلى الله عليه وسلم يوزعه حسب مصارفه المذكورة في سورة الانفال ، وكذلك كان يصرف الفئ للاصناف التي يصرف لها خمس الغنيمة على ما قرره الآيات الواردة في ذلك في سورة الحشر .<sup>(١)</sup>

وعندما وقع أول فية في غزوة بني النضير جعله الرسول صلى الله عليه وسلم للمهاجرين خاصة ولم يحط الانصار منه الا رجلين فقيرين وذلك لتحقيق التوازن بين الجماعة الصلحة .

(١) آية رقم (٦٠) .

(٢) آية رقم (٤١) .

(٣) آيات رقم (٦ - ٨) .

ولما جاءت فترة الخلافة الراشدة كانت موارد بيت المال وفيرة بسبب ما فتش الله على المسلمين من الفتوح العظيمة . وكان التصور الاسلامي الصحيح في سياسة المال هو السائد في المجتمع حيث ان الخلفاء الراشدين كانوا يسيرون في تصريف المال العام وفق هدى تعاليم الشريعة الاسلامية ولقد كان الخليفة يأخذ لنفسه من بيت مال المسلمين قدرًا ضئيلاً يفرغ له مقابل تفرغه لرعاية مصالح المسلمين وانشغاله بذلك عن كسب الرزق لينفق منه على نفسه وعياله ، كما كان يمدى يده الى بيت المال بـ الفرائض حسبما يستحقون وما بقي بعد ذلك يحفظه في بيت المال وينفق منه في مصالح المسلمين العامة وفي اعانة المحتاجين وفي تجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله .

أخرج ابن سعد عن سهل بن أبي حيثمة وغيره أن أبا بكر كان له بيت مال بالسنح معروف ليس يحرسه أحد فقيل له يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجعل على بيت المال من يحرسه ؟ فقال لا يخاف عليه قلت لم ؟ قال عليه قفل ، وكان يمدى ما فيه حتى لا يبقى فيه شيء فلما تحول أبو بكر الى المدينة حوله فجعل بيت ماله في الدار التي كان فيها وكان تقوم عليه مال من معدن القبلية ومن مصادن جهينة كثير وانفتح معدن بنى سليم في خلافة أبي بكر فقدم عليه منه بصدقة فكان يوضع ذلك في بيت المال فكان أبو بكر يقسمه على الناس نقرأ نقرأ فيصيب كل مائة انسان كذا وكذا وكان يسوى بين الناس في القسم الحر والعبد والذكر والانثى والصغير والكبير فيه سواء وكان يشتري الابل والخيل والسلاح فيحمل في حبل الله واشترى عاماً قطائف اتى بها من البادية ففرقها على اهل المدينة في الشتاء فلما توفي أبو بكر ودفن دعا عمر بن الخطاب الأمان ودخل بهم بيت مال أبي بكر وسمعه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه ديناراً ولا درهما ووجدوا غيشة للمال فنقضت فوجدوا فيها درهما فرحموا على أبي بكر . . . (١) وأما عمر بن الخطاب فكان يقول " والله الذي لا اله الا هو ثلاثاً ما من الناس أحد الا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد احق به من أحد

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ٢١٣ من طريق محمد بن يحيى بن سهل وغيره .

الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لياتين الراعى بجبل صنم<sup>(١)</sup> حظه من هذا المال وهو مكانه (١) ويقول ايضا : انى انزلت نفسى من مال الله منزلة والى اليتيم ان استغنيت استغففت وان افتقرت اكلت بالمعروف فان ايسرت قضيت (٢) وعند ما رتب عمر بن الخطاب المرتبات جعل لكل طفل من اطفال المسلمين نصيبا وكان يعطى الاسر بحسب عدد الاولاد فيها ، وكان في يادى<sup>(٣)</sup> الامر لا يعطى الطفل الا اذا جاوز الرضاع ولكنه عدل عن ذلك فكان يعطى كل طفل نصيبا لافرق في ذلك بين رضيع وغيره . (٣)

وهكذا نرى من خلال هذه النماذج الفريدة الحية في واقع المجتمع المسلم الاول في مجال سياسة المال ان المبرر الاكبر للاستحقاق من مال الجماعة انما هو الحاجة والجهد والمصلحة ، فالرجل يعطى حسب حاجته والرجل يعطى حسب مقدار جهده وغناؤه في الاسلام وبلائه فيه . فالزكاة توزع على المستحقين الاضاف الثمانية لسد حاجتهم ، والفق<sup>(٤)</sup> وخمس الفخيمة وخمس الركاز يصرف على مصارفه الخاصة وعلى المصالح العامة للمسلمين . والضمان الاجتماعى الذى اقتره الاسلام لكل عاجز وكل محتاج والتكافل الاجتماعى العام لا يستحق الانسان نصيبه منهما الا بسبب الحاجة والمصلحة . ثم ان التفاوت في مقدار ما يعطى الانسان من المال العام وتخصيص بعض الناس بالمطاء دون غيرهم قد يكسبون للحاجة والمصلحة كما يظهر من هديه صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده مسن

(١) الطبقات الكبرى ٢٩٩/٣ من طريق محمد بن عمر . واخرج عبد الرزاق نحوه في الكتاب المصنف ١٠١/١١ من طريق الزهري وعكرمة بن خالد .

(٢) الطبقات الكبرى ٢٧٦/٣ من طريق وكيع .

(٣) انظر الاثر الذى اخرج ابن سعد في ذلك في الطبقات الكبرى ٣٠١/٣ من طريق يزيد بن هارون وجاء فيه ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه امر مناديا فنادى " ألا لا تصجلوا صبيانكم عن الطعام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام "

تقديم الأهم فالأهم والاحوج فالأحوج وتوزيع الميزب وقضاء ديون الفارمين وإجائته  
 ذوى الحاجة ، وفي اعطاء الاعزب حظا والمتزوج حظين . وقد يكون هذا التفاوت  
 لمقدار الجهد المبذول في خدمة الدين والدود عن حماه وفي مصلحة الجماعة  
 قياسا على مايمطى العاملین على الزكاة بسبب جهدهم وعملهم وعلى طريقة توزيع  
 أربعة اخماس الغنيمة على المحاربين الفارس منهم والراجل . وقد تحقق في واقع  
 المجتمع المسلم الأول مبدأ تحقيق التوازن الاقتصادي بين الجماعة المسلمة  
 لئلا تكون مصادر الثروة دولة بين الاغنياء ، فعند الضرورة القصوى والحاجة  
 الشديدة أو قيام الاوضاع السيئة الناتجة عن اختلال التوازن في المجتمع وظهور  
 الفوارق الواسعة بين فئات المجتمع كان ولي أمر المسلمين يخصص الفقراء والمحتاجين  
 ببعض المال العام أو يلزم الاغنياء القادرين بحمل قسط من الانفاق العام فـي  
 سبيل محاولة انتهاء الازمة القائمة واصلاح الاوضاع المختلفة ولكي تتعادل المقاسم  
 في المجتمع المسلم ويعيش الناس في توازن وتقارب وتعاون وتساند وتحاب . أخرج  
 ابن سعد عن ابي محمد بن الحجازي قال : " سمعت عمر بن الخطاب وهو يطعم  
 الناس زمن الرمادة يقول : " نطعم ما وجدنا أن نطعم فان اعوزنا جملنا مع  
 أهل كل بيت ممن يجد عدتهم ممن لا يجد الى ان يأتي الله بالحق (١) " . وروى عن  
 ابن عمر ايضا ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال " لو لم أجد للناس من  
 المال ما يسمعهم الا ان <sup>يدخل</sup> على كل أهل بيت عدتهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم  
 حتى يأتي الله بحيا فعلت ، فانهم لن يهلكوا عن انصاف بطونهم " . (٢)

(١) الطبقات الكبرى ٣/٣١٦ من طريق محمد بن عمر

(٢) المصدر نفسه ٣/٣١٦ من طريق محمد بن عبيد

## الباب الثاني

خط الانحراف التاريخي في حياة  
الامة الاسلامية ومجالات  
الانحراف عن حادة الاسلام  
في التاريخ الحديث والآثار السيئة  
التي ترتبت على ذلك في شتى  
مجالات الحياة في القرون الأخيرة .

## الباب الثانى

### الفصل الاول : خط الانحراف التاريخى فى حياة الامة الاسلامية

من خلال ما تقدم من بحث حول المجتمع الاسلامى الاول رأينا الذروة العالية التى وصلت اليها الامة الاسلامية وسنرى فيما يأتى من نصول<sup>١</sup> دراسة احوال المجتمع الاسلامى المعاصر - الهوة السحيقة التى انحدرت اليها هذه الامة . ويجب علينا أن نحدد جسرا تاريخيا يمتد من نهاية الفترة **الثالثة** فى حياة هذه الامة حتى ينتهى الى الفترة الاخيرة البائسة التى يعيشها المسلمون اليوم ، فقد كان بين الفترتين نقلة بعيدة امتدت فى احداث وعهود كثيرة مرت على الاجيال الاسلامية المتعاقبة خلال ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن على وجه التحديد وحصلت فى هذه الفترة الطويلة من الزمن تغيرات خطيرة واحداث جسام انمكنت اثارها على الحياة الاسلامية فى شتى مجالاتها على طول الرقعة الاسلامية الفسيحة وعرضها . وان هذا التحول الخطير الذى بدأ فى حياة المجتمع المسلم منذ انقضاء الفترة الثالثة وأخذ هذا المجتمع فى التدنى والهبوط والانحطاط حتى بعدت الشقة بينه وبين ماضى الامة الاسلامية فى رفعة وقوته وامجاده لا يمكن باى حال ان يكون قد حدث كله فجأة وبدون اسباب ، فسنن الله فى حياة المجتمعات البشرية وتطورها قسوة وضمفا وتبدل احوالها رفعة وانهيارا تبنى ذلك وترفضه " ذلك بان الله لم يك منفيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم" (١) .

لقد أنعم الله على هذه الامة بنعمة الاسلام ، فتدرت هذه النعمة حق تدبير وكانت جادة فى الاخذ بالاسلام وتحقيق مبادئه وتعاليمه وتطبيق شريعته

(١) سورة الانفال اية (٥٣) .

فى جميع شئون حياتها ، وآمنت بربها حق الايمان وعبدته حق العبادة  
 وقامت بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ونفذت ارادة الله فى الارض ،  
 وجهدت فى الله حق جهاده ، فبذلك تحققت فيها شروط الخيرى المطلقة  
 من بين سائر الامم وتمكين الله لها فى الارض واستخلافه لها فاصبحت قوة  
 مستعملة فى الارض تقود البشرية الى الهدى والطور<sup>والخير</sup> والصلاح " كنتم خير  
 أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " (١) ،  
 " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف  
 الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم  
 أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا " (٢) وطالما بقى المسلمون محافظين على  
 هذه الشروط مراعين عوامل توتهم وعززهم فان وعد الله لهم متحقق على السدوام  
 فالله لا يخلف وعده لعباده المؤمنين . ولكن لما بدأ المسلمون ينحرفون عن  
 جادة الطريق ويخرجون عن الخط السوى كان لابد ان يصيبهم الانهيار والضعف  
 والهوان حسب سنة الله فى خلقه ، والسنة الالهية لا تتبدل ولا تتحول أبدا  
 " سنة الله التى قد خلقت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٣) " . ومن سنة  
 الله تعالى ان الانحدار والانهيار فى حياة المجتمعات البشرية لا يحدث فجأة  
 ولا يحدث بدون أسباب ، وهذا واضح فى تاريخ المجتمع المسلم الذى كان فى عهده  
 الاول متين البناء قوى الاركان ثم بدأت تنخر فى كيانه عوامل الهدم من الداخل  
 والخارج حتى انقضى وقوته وانهارت به فى حضيض الضعف والهوان رغم ان هذه

(١) سورة آل عمران اية (١١٠) .

(٢) سورة النور اية (٥٥) .

(٣) سورة الفتح اية (٢٣) .

العوامل لم تستطع أن تحطم قوة هذا المجتمع وتضعف تماسكه إلا بعد قرون طويلة اصطلحت فيها العوامل المتمردة للنيل من الاسلام وكسرة قوة المسلمين وتزايدت الانحرافات جيلا بعد جيل وانتشرت عوامل الفساد التدريجي وعمت أنحاء المجتمع فكانت الحال البائسة والظروف الحرجة التي يعيشها المسلمون في أرجاء العالم الاسلام كله . ولا شك أن تحولاً كبيراً قد وقع في حياة المسلمين وان انحرافاً خطيراً قد حدث على طول تاريخ المجتمع المسلم وهذا ما يتضح للانسان عندما يثاقن بين صورة المجتمع المسلم الاول وصورة المجتمع المعاصر لما بينهما من فارق كبير في كل اتجاه .

ولندرس الآن حركة هذا المجتمع وتطوره وسنن تغييره وتبدله في شتى مجالات الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية وغيرها في خلال أطواره التاريخية التي مر بها لكي نعرف كيف بدأ الانحراف وكيف أخذ خط هذا الانحراف في التوسع والامتداد حتى صارت حال المجتمع المسلم المعاصر ما صارت اليه في عصور الانحطاط وفي القرنين الأخيرين بصفة خاصة . يقول أحمد الأرباء " أمران لا يحدد لهما وقت بدقة ، النوم في حياة الفرد والانحطاط في حياة الأمة فلا يشمر بهما إلا اذا غلبا واستوليا " . هذا الكلام وان صدق في حق كثير من امم الارض التي لا تسير على هدى الله ونوره فانه في حق هذه الأمة غير صحيح البتة ، فواقع حياة هذه الأمة أكبر برهانا على تفنيد هذا القول لأن بدء الانحطاط والتدنّي في حياتها أوضح منه في حياة الامم الاخرى الجاهلية . فالاسلام خطه مستقيم لا اعوجاج فيه ، وهدى به بين واضح فأى انحراف او ميل عن صراط الله السوي وأى خروج عن طريقه المستقيم لا بد ان يتبين ويظهر من أول الطريق " وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١) " .



### البحث الاول : : العهد الاموى :

لقد بدأ الانحراف فى العصر الاموى محصورا فى زاوية ضيقة من الحياة الاسلامية وكانت المظاهر البارزة لهذا الانحراف تتمثل فى تحويل الخلافة الاسلامية الى ملك عضوى فى نظامه الوراثى وبهجة الخلفاء والامراء فى بيت المال العام وظهور النمرة التبعية والجنسية فى المجتمع وظهور الفساد النسبى والتحلل الخلقى فى عاصمة الدولة الاموية . . . ففى مجال سياسة الحكم تحولت الخلافة الاسلامية الى ملك عضوى يقوم على اساس النظام الوراثى . وقد نزع حق اختيار الخليفة من الجماعة وصار من اختصاص ولاية بنى أمية فأصبحت الجماعة غير حرة وغير مختارة فى تعيين امامها . وقد كانت الدولة - المتمثلة فى شخص الخليفة وحوله بنو أمية - هى التى تفرغ على الامة من تختاره لولاية العهد استنادا الى قوة الجند وسلطان الوراثة . وكان ولاية بنى أمية يلزمون الناس بالسمع والطاعة لكل من تد موه منهم لولاية الامر بما كانوا ينزلون على المخالفين والمنازعين لهم فى هذا الامر من أشد العذاب واتس انواع المنع والتكيل كما حدث لخصومهم العلويين والعباسيين وانصارهم . وقد كان بعض الصحابة الافاضل امثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن ابي بكر ومحمد بن علي بن ابي طالب وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم يتقبلون ويسلمون للامر الواقع خوفا من وقوع الفتن بين المسلمين وتفريق كلمتهم وتشتيت وحدة الامة ذاكرين ما حذرهم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم من شق عصا الطاعة ومفارقة الجماعة والدخول فى كل مامن شأنه ان يحدث الفتن بين المسلمين ويفرق وحدتهم مما جاء فى احاديث كثيرة عنه صلى الله عليه وسلم مرزا قوله صلى الله عليه وسلم : " انكم سترون بعدى أثره وامورا تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال أد واليهم "

حقهم وسلوا الله حقكم (١) . وقوله عليه الصلاة والسلام : " من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شراً فمات إلا مة ميتة جاهلية (٢) . " وقد روى الثبت العدل عن محمد بن المنكدر قال قال ابن عمر حين بويى يزيد " ان كان خيراً رضيها وان كان شراً صبرنا " (٣) . وثبت عن حميد بن عبد الرحمن قال : دخلنا على رجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استخلف يزيد بن معاوية فقال : تقولون ان يزيد بن معاوية ليس بخير أمة محمد لا افقهها ولا اعظمها فيها شرفاً وأنا اقول ذلك ولكن والله لان تجتمع أمة محمد أحب الى من أن تفرق أرايتم باباً دخل فيه أمة محمد ووسعهم أكان يمجز عن رجل واحد لو كان دخل فيه ؟ قلنا لا . قال أرايتم لو أن أمة محمد قال كل رجل منهم لا أرى دم أخى ولا آخذ ماله أكان هذا يسعهم ؟ قلنا نعم قال فذلك ما اتول لكم ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يأتيك من الحياة الا خير " (٤) . وهناك بعض كبار الصحابة خافوا من هول الفتنة واشفقوا على انفسهم من التلطيخ والتدنس برزاياها فاعتزلوا موطن الفتنة وانحازوا الى خاصة انفسهم طلباً للسلامة والخلاص متعظين بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ستكون فتن الفاعد فيها خير من الثائم والثائم فيها خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى من تشرف لها تستشرفه فمن وجد فيها ملجأ او معاذاً فليمد به (٥) . " وكان هناك فريق من الناس ان هلتهم الفتنة

(١) رواه البخارى فى كتاب الفتن باب قول النبى صلى الله عليه وسلم سترون بعدى

أمورا تنكرونها " ٨٧/٨ عن عبد الله بن زيد .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الفتن ٨٧ / ٨ .

(٣) الفاضى ابوبكر بن العربى الحواصم من القواصم ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

(٥) رواه البخارى فى كتاب الفتن ٩٢/٨ .

وخافوا وطأة الحذاب والاضطهاد الذى يصيب المخالفين لولاية بنى أمية  
فقدموا عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما كان يتج من حكام بنى أمية من  
المخالفات فى مجال سياسة الحكم . وهذه المخالفات وان كانت فى حد ذاتها طفيفة  
ومحصورة فى زاوية ضيقة فى مجال الحكم الا انها كانت ذات قيمة فى ميزان الاسلام  
لأنها تمثل بداية الانحراف الذى أخذت تعاني منه مبادئ العدل الاسلامى  
فى مجال الحكم على مدار تاريخ الامة الاسلامية . وهكذا بدأ الانحراف فى بعض  
نواحي الحكم فى العهد الاموى حيث قصر الامويون الخلافة الاسلامية على بنى  
أبيهم وجعلوها خالصة لهم من دون المسلمين واحدثوا بدعة ولاية العهد بالوراثة  
واعتمدوا على ما فى ايديهم من القوة والسلطان فى فرضى من يختارونه خليفة على  
المسلمين . ولما قد معاوية ابنه يزيد لولاية العهد من بعده وتفرق الناس فى  
أمره لجأ الى سلطان القوة فى فرضى ارادته على الناس واخضاعهم للامر الواقع  
حتى الذين يشهد معاوية نفسه انهم خير منه (١) مثل ابن عمر وغيره . وعن عكرمة  
ابن خالد عن ابن عمر قال : " دخلت على حفصة ونسواتها تنظف قلت قد كان  
من أمر الناس ما ترين فلم يجعل لى من الامر شئ فالتألم فانه ينتظرونك  
واخشى أن يكون فى احتباسك عنهم غرة فلم تدعه حتى ذهب فلما تفرق الناس  
خطب معاوية وقال " من كان يريد ان يتكلم فى هذا الامر فليطلع لنا قرنه فلنحسن  
أحق به منه ومن ابنيه قال حبيب بن مسلمة فهلا أجيته قال عبد الله : فحلفت  
حبوتى وهمت ان أقول احق بهذا الامر منك من تلك وإياك على الاسلام فخشيت  
أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عنى غير ذلك فذكرت ما أعد الله  
فى الجنان فقال حبيب : حفظت وعصمت (٢) " وهكذا نرى كيف أصبح الرشيد

(١) اقرأ خطبة معاوية التى اعترف فيها بوجود من هو خير منه لولاية امر المسلمين  
بعد منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو . البداية والنهاية للحافظ ابن كثير

والاختيار لمنصب الخلافة في هذا العهد قائما على اساس مبادئ لروح الاسلام وتوجيهاته السامية التي وضعت لتمكين الجماعة من تعيين الاصلح والا قوى على تنفيذ أمر الله - بارادتها ورضاها وقبولها - من الاشخاص المرشحين الذين تتوفر فيهم شروط الاهلية من الاستقامة في السيرة والقيام بحرمة الشريعة والعمل باحكامها والمعدل بين الناس والنظر في مصالحهم وحب الخير لافراد الامة والرفق بهم والقيام بأعباء الجهاد في سبيل الله لحفظ بيضة الدين وتوسيع آفاق الدعوة في مشارق الارض ومغاربها . وهكذا نرى أيضا كيف كانت عطية أخذ البيعة للخليفة أو ولي عهده تتم في أجواء يسودها الترهيب والتسلط والتحكم حيث جنود الدولة تحيط بالجموع المحتشدة لأخذ البيعة ويوارق السيوف تلمع فوق رؤوس الناس فالويل كل الويل لمن تسول له نفسه المخالفة . نقل التاض ابوبكر بن الصري الاخبار (١) المروية عن وهب بن جرير بن حازم فيما جرى من وتأسيس عند ما عهد معاوية بالولاية من بعده لابنه يزيد وعلق عليها قائلا : لسنا ننكر ولا بلغت بنا الجهالة ولا لنا في الحق حمية جاهلية ولا نخطو على غل لأحد من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بل نقول : " ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم " الا أننا نقول : ان معاوية ترك الأفضل في ان يجعلها شورى والا يخص بها احدا من قرابته فكيف ولدا ، وأن يتدبى بما أشار به عبد الله بن الزبير في التمسك أو الفعل فعدل الى ولاية ابنه وعقد له البيعة وبايعه الناس وتخلف عنها من تخلف . . . (٢) " وعلى هذا النحو سار الامر من بعد معاوية حيث استأثر بنو أمية بالولاية وتوارثوها فيما بينهم فأخذ المروانيون الامر من السفينيين بعد

(١) راجع هذه الاخبار في كتاب الحواصم من التواصم ص ٢١٥-٢٢٢ +

(٢) الحواصم من التواصم ص ٢٢٢ .

خلافة يزيد بن معاوية وظل فيهم حتى نهاية العهد الاموي . ولكن رغم هذا كله ظل الانحراف محصورا في نطاق الضيق ولم يستطع ان يسرى الى بقية الجوانب المهمة في سياسة الحكم ذاتها . وقد كانت الدولة تتربأ عن شريعة الله همتها مصدرها الدائم لتصريف شئون الحياة وتنظيم علاقات الناس بعضهم مع بعض في المجتمع المسلم كما تقر ايضا بان هذه الشريعة هي دستورها الوحيد الذي لا تقبل به بدلا ولا تعدل الى غيره تحولا . وفي الواقع العملي كان حكام الدولة الأموية حريصين كل الحرص على تحكيم شريعة الله وتطبيق روح الاسلام وتعاليمه وتوجيهاته في كل شأن من شئون المجتمع ، ولم يكن الانحراف اليسير الذي ظهر منهم في سياسة الحكم ليؤثر في تصور افراد المجتمع المسلم لفهم الحكم في الاسلام او يؤثر كثيرا في سلوكهم العملي تجاه حكام بني أمية بل ظل أثر هذا الانحراف مقصورا على حكام بني أمية وامرائهم الذين أصبحوا يرون لانفسهم حقوقا وامتيازات تخصهم من دون بقية المسلمين ويتبعهم في ذلك انصارهم المتمطون المستنفعون الذين يمدون لهم في هذا الامر ويثرون لهم بهذه الحقوق الزائدة التي لا يعترف بها الاسلام . ولكن رغم كل ما تقدم من مظاهر هذا الانحراف في الناحية العملية والسلوكية لهؤلاء الولاة فان تصورهم لجادة الشريعة الاسلامية وروح الاسلام وتوجيهاته كان صحيحا وسليما لم تشبه شائبة فلذلك رأينا الحكام ملتزمين بعدد الشريعة لا يعتمدونها في قليل او كثير ، ولم يجزوا أحدهم ان يضع للناس قانونا خارج نطاق الشريعة فضلا عن ان يعدل عن شريعة الله الى غيرها فليس اى شان من شئون المجتمع وحتى في تلك المخالفات التي تصدر منهم فيما يخص باشخاصهم وامرائهم في شئون الحكم والمال فانهم كانوا يتحاملون على احكام الشريعة ويتوسعون في حدود مهمة الحاكم وفي حدود الحق الذي أعطاه الاسلام في عمل ما يراه مناسبا لرعاية مصالح المسلمين ودرء المفسد عنهم . يقول شيخ الاسلام

ابن تيمية في وصف أول الخلفاء الامويين " كانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سمر الولاية وكان رعيته يحبونه " (١) . ويقول فيه ايضا " لم يكن من ملوك المسلمين ملك خيرا من معاوية ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيرا منهم في زمن معاوية إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده وأما إذا نسبت إلى أيام ابن بكر وعمر ظهر التفاضل " (٢) . وقد ولي معاوية الشام للخلافة الراشدة مدة عشرين سنة ثم اضطلع بولاية امر المسلمين في الوطن الاسلامي الكبير مدة عشرين سنة أخرى " فكان معاوية في الحالين قواما بالعدل محسنا إلى الناس من كل الطبقات يكرم أهل المواهب ويساعد هم على تنمية مواهبهم ويسع بحلمه جهل الجاهليين فيمالج بذلك نقائصهم ويلتزم في الجميع احكام الشريعة المحمدية بحزم ورفق ومثابرة وإيمان . يؤمهم في صلواتهم ويوجههم في مجتمعهم ومراقبتهم ويتودهم في حروبهم (٣) . "

وأما في مجال سياسة المال فكان الانحراف فيه في هذا العهد متمثلا في بحبة الخلفاء والامراء الامويين في اموال بيت المال حيث كان الخلفاء يتصرفون في الاموال العامة وكأنها أموالهم الخاصة التي هم في حل من التصرف فيها حسبما يرون أو يشاءون . فقد كانوا يطلقون ايديهم في المال العام ينفقون جانبا منه لتحقيق اغراض سياسية ومصالح شخصية وأمور أخرى جانبية مما لا يمت بصلة إلى اهداف الاسلام في هذا المجال وهذا - بطبيعة الحال - إلى جانب ما يقومون به من تحقيق الاهداف الانسانية والمصالح العامة التي تعود على افراد المجتمع بالخير والسعادة .

(١) منهاج السنة النبوية في نفي كلام الشيعة والقدرة ١٨٩ / ٣

(٢) المصدر نفسه ١٨٥ / ٣

(٣) من تعليق محب الدين الخطيب على كتاب المواسم من القواصم لابن العربي

كان خلفاء بني أمية يستخدمون جانباً من المال العام في تأليف القلوب  
 وشراء الانصار والمؤيدين لكي يفتقوا الى جانب الدولة يمكنون لها في الارض ،  
 وينصرونها في التغلب على الجانب المنازع لها في هذا الامر وكذلك كانوا يخصصون  
 قسماً من هذا المال ليفة ووه على المتلقين والشعراء والمطربين الذين يغشون  
 مجالس الخلفاء والامراء ويتزاحمون على ابوابهم طمعا في العطايا والمنح فأصبحنا  
 نسمع في هذا العهد بخليفة يمنح عطاء ضخماً لمغن او مطرب يقدر بالالاف من  
 الدينار او الدراهم كما نسمع بخليفة يعطي العطاء الجزيل لاحد اقربه او محبيه  
 يقدر بمشترات الالاف من الدينار لا لحمل قام به او خدمة اداها للصالح العام  
 وانما لمجرد الترابية او الصداقة . واما الامراء الامويون فقد اصبحت لهم امتيازات  
 واسعة فكان الخليفة يخصص ببعض الاموال العامة ويمطيههم قدرا كبيرا من  
 الاعطيات والعطائين بين الحين والحين حتى تجمع لديهم اموال طائلة ونشأ في  
 صفوفهم ما يشبه الاقطاع بما كانوا يملكون من الاراضى الواسعة والضياع الكثيرة  
 والحدود الهائلة من العهد والجواري الذين يستخدمونهم لصالحهم . وكان  
 هؤلاء الامراء وكبار رجال الحاشية يبعثون الاموال التي في ايديهم في صنوف  
 اللهو والتسلية واعمال الترف والترفيه . وانه يمكن القول من غير مبالغة  
 ان شطر اموال الامة او ثلثها على الاقل كان يلاشك في ايدي بني امية قد  
 استأثروا به من غير وجه حق .

وقد كان في العهد الأموي بيتان للمال : بيت المال العام الذي كانت  
 موارد ومصارفه للجماعة وبيت المال الخاص الذي كانت موارد ومصارفه من خاصة  
 الخليفة ولكن رغم اختلاف موارد ومصارف هذين البيتين فانا نجد ان قدرا كبيرا من

الاموال العامة كان يحمل الى بيت المال الخاص كما نجد ايضا ان مصارف خاصة كانت تؤخذ من بيت المال العام . كانت المطايا وجميع نفقات دار الخلافة تؤخذ من بيت المال العام وكانت موارد بيت المال الخاص تأتي من وجوه متعددة منها الاموال المخلفة التي يتركها الخلفاء في بيت المال الخاص ومال الخراج والضيايع العامة الذي يجبي من اعمال فارس وكرمان واموال الجزية التي تأتي من مصر والشام واموال الضيايع والخراج بالسواد والاهواز والاموال التي يستفضلها الخلفاء في كل سنة وما الى ذلك (١) . ويظهر لنا مما تقدم كيف كان الانحراف في سياسة المال في العهد الاموي حين صرف الحكام جانبا من الاموال العامة في وجوه لا تتفق مع مبادئ الاسلام وتوجيهاته ولا تحقق العدالة الاجتماعية بين افراد الامة الاسلامية . وكان من آثار ذلك أن كثرت المظالم وبخس الناس بمضى حقوقهم في حين كان الخلفاء والامراء والوزراء يعيشون في بحبوحة من الميش وكانت ثروة الامة دولة بينهم فتكدست في ايديهم اموال طائلة وكان ذلك سببا لارتفاع مستوى الثراء والترفع في هذه الطبقة الى جانب حالة البؤس والفقر التي يعيشها بعض افراد المجتمع فاختلف بذلك التوازن في المجتمع وان كانت نسبة هذا الاختلال في هذا العهد قليلة بالقياس الى العهد الذي جاء بعده . ولكن رغم ذلك كله لم يكن هذا الانحراف اليسير الذي وقع من الحكام الامويين في مجال سياسة المال ليعتمد في هذا الجانب المصمين الذي وصفناه الى بقية الجوانب الاخرى المهمة في هذا المجال . فقد كان هؤلاء الحكام يترون بان المال مال الله وان الله قد اعطى هذا المال للجماعة وان الخليفة نائب عن الجماعة في التصرف فيه حسبما يراه معة للمصالح العامة . وكان الواقع العملي لهؤلاء الحكام دائما في جملته

---

(١) اقرأ كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري تأليف ادم ميتز ترجمة

الاستاذ محمد عبد الهادي ابوريدة .



على أساس هذا التصور الصحيح إلا أنهم توسموا في حدود هذا الحق المعطى لهم وأصبحوا يتحايلون على مبدأ الاستحقاق وأسباب التخصيص بالمعطاء فيما يختص بأشخاصهم وأثاريهم وانصارهم ومحببيهم فوسموا على الجميع من المال العام . وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بما عليهم من مطالب الدولة واعطاء الناس حقه وهم وإنشاء المرافق العامة وتحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع والعناية بأعداد الجند وتنظيم أعمال الجهاد لحماية البيضة وسد الثغور والظهور على أعداء الدين في البر والبحر ونشر دعوة الاسلام في الافاق . وكذلك كانوا حريصين على إقامة جميع العلاقات المالية من طرق الكسب ووسائل تنمية المال ووجوه انفاذه على هدى الصady والاسس الاسلامية حتى يكون التعامل بين أفراد المجتمع قائما على اساس المحبة والتعاون وحب الخير للناس .

ومن مظاهر الانحراف كذلك ظهور النعرة القبلية والجنسية في المجتمع فمنذ أيام الحكم الاموي ظهرت النعرة القبلية والجنسية ونشط الصراع بين بعض القبائل العربية . كما اشتد النزاع بين العرب والفرس بوجه خاص . وقد عادت العصبية الجاهلية تعمل عملها في هدم كيان الامة وتفريق وحدتها واضطاف قوتها حيث وقع عداء شديد ونزاع عنيف بين بني امية وبني هاشم والعلويين والمباسبين . وكذلك كان هناك نزاع وعداء بين القحطانية والمدنانية في مختلف البلدان والاقطار كالشام والمراق والاندلس وخراسان . ووقع من الامويين ضغط شديد على الفرس بصورة لا تتفق مع روح الاسلام ومبادئه السامية فكان رد فعل هذا الصنيع من العناصر الفارسية ان اشتد حقد ها على العرب واصبحت تنظر اليهم نظرة عداء شديدا وتتحين الفرصة للكيد لهم وانزالهم والانتقام منهم ، ولم يغب عن بال هؤلاء الفرس

ان ما يدبرونه للحرب من المكاييد وما يحيكونه لولاة امر المسلمين من مؤامرات سيضر ولا شك بهذا الدين ويتوضى بناء المجتمع المسلم ويضعف قوة المسلمين حين يصبح مجتمعهم صرحا للاحداث الجسام التي تراق فيها الدماء وتهتك فيها الحرمات وتداس فيها الحريات وهذا ما حدث في النهاية ان لم تزل العناصر الفارسية المتهورة تحمل في تدبير المكاييد وحياسة المؤامرات ضد الدولة الاموية حتى استطاعت ان تستطعها في نهاية الامر بوقوفها الى جانب بنى هاشم .

والى جانب تلك الانحرافات السابقة كان الفساد والتحلل الخلقي النسبي الذى ظهر في عاصمة الدولة الاموية بسبب انفتاح الدنيا على هذه الامة وكثرة الاموال ودخول الشعوب والاجناس المختلفة في الاسلام والثقة الحضارة الاسلامية بحضارات هذه الشعوب وتقاليدها التي كانت متناقضة ومناخية لروح الاسلام وقيمه وتعاليمه نحدث ان انتقل مع هذه الشعوب الى المجتمع المسلم شي قليل من مظاهر الفساد التي كانت تنشأ في اجواء تلك الحضارات ظهرت اثارها في العاصمة وفي صفوف الاسرة الحاكمة ورجال حاشيتهم بصفة خاصة .

ولكننا نعود بعمد ذلك كله لنقرر ان المجتمع المسلم في هذا العهد - رغم تلك الانحرافات التي ذكرناها - ظل مجتمعا اسلاميا في مجموعه حيث بقى محتفظا بكيانه المتميز وبنائه المتين لم تؤثر الانحرافات في عوامل قوته ونهضته ولم تحوّه عن الانطلاق بدعوة الاسلام في الافاق . فقد كان معظم المسلمين جادين في الاخذ بالاسلام والالتزام بحدود الشريعة في جميع امورهم وكانوا يمشون في مفهوم الاسلام الشامل ويطبّقون تعاليم الدين ومبادئه وقيمه في شئونهم الخاصة والعامة . وكانت اخلاقيات الاسلام ومبادئه في المدالة الاجتماعية والاخاء الاسلامي

ونحو ذلك تظلل المجتمع بظلالها الوارفة . وكان المسلمون عريضين على نشر الدعوة في ربوع الارض فواصلوا الجهاد الاسلامي بكل عزم وقوة فكانت راية الاسلام تخترق الافاق برا وبحرا على ايدي المجاهدين المسلمين لدعوة الناس الى دين الحق . وبذلك كله استطاعوا ان يحققوا الميزة التي ارادها الله لهذه الامة خلال فترة قصيرة من الزمن .

...

## المبحث الثاني : العهد العباسي :

ان الانحرافات التي ظهرت في العهد الاموي قد ازدادت حدة وتعمقا في شئون حياة المجتمع المسلم خلال العهد العباسي ونشأت الى جانب ذلك انحرافات اخرى خطيرة في الحياة الاسلامية .

ففي مجال سياسة الحكم كان الطك الحضور بنظامه الوراثي الذي تحولت اليه الخلافة الاسلامية منذ العهد الاموي قد استقرت دعائمه ورسخت قواعده في الحياة الاسلامية السياسية . ويضاف الى ما تقدم شرحه حول انحراف حكام بني أمية في سياسة الحكم أن مطالبة بني هاشم بولاية الحكم على المسلمين قبل تسيام الدولة العباسية وحصر الحكم فيهم بعد ذلك بالوراثة كانت تستند الى اساس القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تجعلهم - في نظرهم - احق الناس بهذا الامر . ولئن كانت وراثة الحكم في العصر الاموي تتم بصورة تضمن - في اغلب الحالات - اختيار الشخص الصالح الذي تتوفر فيه شروط الاهلية - وان كان يوجد امثاله اذن من هو افضل منه احيانا من غير بني أمية - فقد صار الامر فوضى في العصر العباسي حيث كانت وراثة الحكم تتم . بالدور اكثر منها بالاختيار واعتبار الاهلية مما جعل ولاية العهد مثار نزاعات ومتاعب لخلفاء بني العباس وبخاصة بسبب سياستهم في ولاية العهد لاكثر من واحد ان كان منهم من اختار اثنين او ثلاثة من ابناؤه لولاية العهد من بعده بالتعاقب كما فعل هارون الرشيد وكان منهم ايضا من خلج ولي عهده وقد م عليه ابنه كما فعل المنصور ومنهم من حاول ذلك ونشل وهو محمد الأمين . وقد كان ذلك سببا لحدوث نزاعات حادة داخل صفوف بني العباس انفسهم حتى وصل الامر في بعض الحالات الى ان يحارب بعضهم بعضا ويضرب بعضهم رقاب بعض فوقت الامة المسلمة في مشكلات عويصة

زادت في حدة التوتر في المجتمع . ونلاحظ ما آل اليه الامر في العصر العباسي الثاني حين قبض الاتراك على السلطة الفعلية في الدولة بسبب ضعف الخلفاء العباسيين واعتمادهم الكلي على العناصر التركية في كثير من امور الدولة الكبرى حيث كان هؤلاء الاتراك يحرضون اشد الحرص على ان تظل ولاية العهد بالادور حتى اذا جاء الدور على شخص جاهل ضعيف او صبي دون العاشرة من عمره فلا يكون هناك اى مانع من ان يتولى هذا الامر وبذلك تمنح لهم الفرصة لبحقنوا ماريهم ويمشوا في الارض فسادا . وفي عهد الخليفة المعتضد بالامر من بعده لابنه جعفر المعتذر وهو صبي دون سن الرشيد وذلك بمشورة الاتراك المقربين اليه ودعمهم وتأييدهم . نياترى بيد من تكون السلطة الفعلية في مثل هذه الحالة ؟ أف تكون في يد صبي لا يحسن التصرف في اموره الشخصية فضلا عن الامور العامة التي لا علم له بها ولا خبرة له فيها ام تكون في ايدي هؤلاء الزعماء الاتراك الذين صار لهم نفوذ كبير وسلطان واسع في ايام ابيه وايام الذين كانوا قبل ابيه .

واما في مجال سياسة المال فان الانحراف الذي وقع من حكام بني أمية في بحبحتهم النسبية في بيت المال العام قد زاد في العصر العباسي وكثرت مظاهره وامتدت مجالاته نتيجة انفتاح الدنيا على هذه الامة وتدفق الاموال على الدولة من موارد الفىء والخراج والجزية والغنائم والزكاة وهم من التجارة الواسعة التي يقوم بها المسلمون ومن ازدهار النشاط الصناعي وقيام النهضة الممرانية . ففي عهد الرشيد الذي يعتبر ذروة عهده بنى العباس كان المحمول الى بيت المال من مصر وهدها في ايام الرشيد يبلغ مائة الف دينار في كل سنة كما بلغ المحمول اليه من الزاب اربعين الف دينار كل سنة (١) . وذلك الى جانب ما يحمل اليه من الاقاليم الاخرى سواء ايرادا

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٢٢٨/٣ .

كهذا في تلك الايام كان ايرادا كبيرا . ومن لك في خليفة كان يستلقى على ظهره وينظر الى السحابة المارة ويقول " اذهبى الى حيث شئت فسياتينى خراجك " .  
 وقد ترك الرشيد في بيت المال تسعمائة الف دينار (١) . وكان المعتضد يستفضل في كل سنة من سنى خلافته بعد النفقات ما كان يحصله بيت مال الخاصة الف الف دينار حتى اجتمع في بيت المال تسعة الاف الف دينار . وهكذا نرى كيف بسطت الدنيا على هذه الامة .

ولقد كان الخلفاء المباسيون يطلقون ايدى بهم في الاحوال العامة ينفقونها بسخاء لتأليف القلوب لا للاسلام كما قررت الشريعة وانما للدولة . فكانوا يعطون عطايا وهبات ضخمة لكسب الانصار والمؤيدين الذين يناصرون الدولة ويمكنون لها في الارض من المتزلفين والمتعلقين والشمرء كما يعطونها لا قربائهم وندمائهم وللعلميين والمطربين والمغنيين . وقد اصبحنا نسمع في هذا العهد بخليفة يمنح قريبا له او شاعرا او مطربا عشرات الالاف او بضع مئات الالاف من الدنانير دون ان يشير ذلك استغرابا للناس ولا استنكارهم . واما الامراء فقد زادت امتيازاتهم فكانوا يعطون المعطايا والتطائع الكثيرة والعبيد والجواري وكان تلهم ضياع والتطاعات واسمة في بعض المدن الكبرى واملاك كثيرة في البلاد المفتوحة . وكان بعضهم يعيشون حياة اقرب الى الاتطاعية منها الى الحياة الاسلامية الطاهرة التي تقوم على دعائم الحق والعدل الرباني . وكذلك كان الوزراء والتواد وكبار رجال الحاشية حيث صار لهم سلطان عريض واملاك واسمة . والبرامكة قبل نكبتهم على يد الخليفة هارون الرشيد كانوا يملكون اتطاعات واسمة في بعض ضواحي

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٢٩٩/٣ .

الخاصة شيدوا فيها قصورا رفيعة شاهة فيها كل الوان البذخ والترف .

بدأ الانحراف في سياسة المال في مجال ضيق كما رأينا ثم أخذ يزداد على تماقب اليهود مع انبساط الدنيا على الامة وكثرة ايراداتها المالية حتى أدى الامر في هذا العصر الى نشأة الترف في حياة المسلمين وما يسير وما في ركاب الترف من الفساد والتحلل الخلق وحياة المريدة والمجون والتفاهة . ومن المعلوم ان الترف في جميع حالاته داء قاتل وهو المول الهدام لصرح حضارات الامم في التاريخ .

لقد بدأت مظاهر الترف في هذا العصر في مدينة بغداد العاصمة داخل قصور الخلفاء والامراء والوزراء حيث ظهرت فيها صنوف اللهو والمحب والطرب والوان الفساد والانحلال الخلقى متحلة في الشراب والجوارى - والجوارى المغنيات والراقصات بصفة خاصة - والمطهين والمطربين والشمرء والمخاللة في أدوات الزينة وفي الأكل والشرب واللباس ثم سرت العدوى الى قصور الأغنياء وكبار التجار الذين يملكون ثروات طائلة ثم أخذ هذا الترف في الانتشار والذيع فتخطى حدود العاصمة الى بعض المدن الكبرى في العالم الاسلامي فانتقل الى قصور الامراء وحكام المناطق وقصور الاثرياء في الكوفة والبصرة ودمشق والقاهرة وخراسان ونيسابور وغيرها . وفي هذه القصور التي تموج بالرياش الفاخر والاثاث الثمين وتمتع بالجوارى والقيان تمام الحفلات الزاهية التي تزخر بالوان اللهو والطرب والغناء وما الى ذلك من الاعمال التي تلهي السراة المترفين وتصرف اهتماماتهم عن الامور المهمة والاعمال الجادة . وقد روى لنا التاريخ اخبار هؤلاء الجوارى الحسنات والمغنيات والراقصات اللاتي لعبن أدوارا بارزة في افساد قصور الخلفاء والامراء وشغلن بالهم بمكاسد

النساء وحيلهن مما ألهاهم عن التفرغ لجديات الأمور والتفكير في المشكلات الجادة. وقد سجل التاريخ صوراً من ترف الخلفاء العباسيين ومجونهم واستهائهم نذكر منها هذه الناحج القليلة . ذكر المؤرخون ان الخليفة العباس الاول ابا المباس السفاح كان في اوائل ايامه يظهر للنداء ثم احتجب عنهم بمسد سنة اشار عليه بذلك اسيد بن عبد الله الخزاعي فكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة " احسنت والله اعد هذا الصوت " وكان لا يحضره نديم ولا مخن ولا مله فيصرف الى بصلة او كموة قلت او كثرت وكان لا يؤخر احسانه لقد " (١) . واذا كان الخليفة المنصور لا يشرب الخمر ولا يسمح بشرايه على مائدته فقد خطا الخليفة المهدي الخطوة الاولى بان سمح لنداءه بالشرب في حضرته معاً انه كان لا يشرب واما الهادي والرشيد فقد كانا يشربان في قصرأيهما منذ كانا اميرين " (٢) . واما محمد الامين ابن الرشيد فقد ذكر انه " أرسل عقب بييمته في طلب الخصيان وابتاعهم ووجه الى جميع البلدان في طلب الملهمين وضمهم اليه واجرى عليهم الارزاق . . . . . وقسم مافى بيوت الاموال وما يحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الاسد والفيول والعقاب والحية والفرس وانفق في عملها مالا عظيماً . وهذا شاعرا الامين الحسين بن الضحاك وابونواس ثم سجلاله مديحا طيبا نقبين منه ملامح مجونه وترفه الزائد حين وصفا حراقات دجلة وليالى الانس فيها التي ينغمس فيها في المرح واللهو وسط الجوارى والفلمان (٣) " ويروى ابن طباطبا ان الحسن بن

(١) انظر الجاحظ : التاج في اخلاق الملوك ص ٣٣ ، والمصمودى : مروج الذهب

٢٢٩/٣

(٢) انظر الاثير اسد الغابة ٦/٣٤-٣٥ ، وكذلك ابن طباطبا: الفخرى ص ١٢٥-١٢٦ .

(٣) اقرأ ديوان ابن نواس ، وكذلك فريد رفاعى " عصر المأمون " ٢٩٢/٣ - ٣٠٢ واتراً

ترجمة الحسين بن الضحاك في كتاب الاغانى ٦/١٦٥ - ٢٠٥ .



سهل وزير الخليفة المأمون بذل في زواج المأمون من ابنته بوران اموالا طائلة  
 ونثر من الدرر ما يفوق حد الكثرة وشرش للمأمون حصيرا منسوجا من الذهب  
 ونثر عليه الف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ (١) " . . . ولا شك ان شيئا من مظاهر هذا الترف  
 والفساد قد انعكس على المجتمع المسلم ولكن من الخطأ الفاحش أن نتصور ان المجتمع  
 المسلم كله في هذا العهد كان على صورة مدينة العاصمة وتصورها الزاخرة بالسوان  
 الترف والفساد وحياتها الماجنة المبردة ان المعلوم ان واقع الامر في كل عصر  
 وجيل يختلف كثيرا في مدى قوة انتشار الفساد وذيوع الترف وتقبل الناس لدواعيه  
 بين الحياة في العاصمة والمدن الكبرى العاصرة وبين الحياة في القرى والارياف  
 وحتى في مدينة العاصمة نفسها يختلف الامر بالنسبة للانرا والاسر والجماعات .

والى جانب هذا الترف البالغ والانغماس في متاع الحياة نشأت الصوفية  
 وهي دعوة الى الحياة الروحية المحضة والتربية النفسية بالاستعلاء على متاع الحياة  
 مع اتخاذ موبخ سلب انعزال من مفاصل هذه الحياة من اجل تحقيق التطهير  
 الخلقى والارثى النفس . فالصوفية في مفهومها هذا انحراف خطير في فهم  
 العبادة والزهد والتوكل على الله تعالى . وقد انعكست اثار هذا الفهم السىء  
 المنحرف الذى بنيت عليه عقائد الصوفية على الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية  
 في العالم الاسلامى منذ العصر العباسى وظلت الصوفية بانحرافاتهما تؤثر فى  
 هذه المجالات وتزيد الشقة اتساعا بين المسلمين وحقبة الدين وفهم مبادئه وتيممه  
 على المصطفى الصحيح الشامل واخذ يتزايد خطرهما ويهدد فى الافاق حتى نهايته  
 العصر العثمانى . وقد تكون نشأة الصوفية فى العصر العباسى امرا طبيعيا  
 لانها جاءت رد فعل للترف والفساد الذى انهك فيه بعض الناس فى ذلك العصر

و (١) انظر تفاصيل القصص الفخرى لابن طباطبا ص ١٨٠ .

ولكن ياترى هل الحل المناسب للتضاء على الفاسد وكبح جماح النفوس عن الشهوات واللذات والارثاء بهامن الاخلاص الى متاع الحياة هو بحرمان هذه النفس من المتاع والانمزال عن معترك الحياة خوفا من التلطح بارجاسها . ؟ حاشا وكلا

ولذلك فشلت الصوفية في اصلاح المجتمع المسلم عن طريق اصلاح افراد ه اصلاحها جزئيا ناقصا ومتطرفا وبالتالى فشلت فى تحقيق القوة والعزة للامة الاسلامية فى شتى مجالات الحياة . ولو ان الحركة الصوفية اخذت بالمفهوم الاسلامى الصحيح فى الزهد والتوكل على الله وهو الاستمسك على متاع الحياة مع الاخذ بوسائل القوة فى الحق وفى الجهاد فى سبيل الله والايجابية الكاملة فى الحياة والتفاعل التام مع نوايس الكون لكان لها الاثر الفعال فى التضاء على ادواء المجتمع ومشكلاته . ولكن الانبياء المتطهرين واجهوا الفساد الذى انتشر فى المجتمع بالانمزال عن الناحية العظمية والانتباض فى زوايا المسجد والخلوات يرددون الاذكار والتسابيح ويقيمون بانواع الرياضات النفسية تاركين الميدان فسيحا للشر وأهله ليمطوا وحدهم فى معترك الحياة دون محاولة تقويم او اصلاح او مقاومة حتى استشرى الشر ونفس اهله الصعداء وعشوا فى الارض فسادا . ولاشك ان الصوفية بهذا المفهوم الخاطى نبت غريب فى ارض الاسلام لشدة تأثرها بالاديان التى تدن بها الشموخ التى دخلت الاسلام أثناء هذه الكبير فى الافاق كاليهودية والنصرانية والبوذية والهندوكية . وتو واكب الصوفية انحراف اخر هو التواكل وعدم الاخذ بالاسباب وهو نتيجة طبيعيسة لما يمكن أن تؤدى اليه انحرافات الصوفية بسبب سوء فهم الناس لحقيقة التوكل على الله حيث ظنوا انه يعنى التمدد عن العمل وعدم بذل الجهد واهمال الاخذ بالاسباب اعتمادا على قدر الله وقضائه ، ولم يعلموا أن ذلك ليس من التوكل فى شئ وانما هو من التواكل الذى أصاب المسلمين حين بدأوا ينصرفون

عن حقيقة الاسلام وادى الى ضعفهم وتخلفهم وانحطاطهم . ان التوكل في المفهوم الاسلامي هو اللجوء الى الله تعالى وطلب معاونته والاعتماد عليه مع الاخذ بالاسباب التي تتحقق معها الغاية المنشودة . فالاسباب في حد ذاتها لا تحقق الغايات بدون مشيئة الله تعالى والغايات ايضا لا تتحقق من تلقاء نفسها بدون اخذ اسبابها الا اذا اراد الله ذلك غرقا للمادة ، ان هو الذي يرتب النتائج على الاسباب وهو على كل شيء قدير .

وأما النعرات القبلية والجنسية التي بدأت في عهد بنى امية فقد أصبحت قوة متأصلة في العهد العباسي وكانت تتوهم بسببها النزاعات الحادة والصراعات العنيفة . وقد عاد العنصرية القبلية الى حياة المجتمع المسلم بكل قوتها وطفئانها ومساوئها وفي صورة تربية من صورتها البشعة في الحياة الجاهلية . وامت نزاعات عنيفة بين التباثل والمحشائر المربية واشتدت بينهم روح العدا والنكاية وتفرقوا شيما واحزابا يضرب بعضهم رقاب بعض وقد رأينا النزاع العنيف الطويل الذي قام بين بنى امية وبنى هاشم وراح ضحيته الالف المؤلفة من المسلمين وكذلك قام صراع مرير بين العلويين والعباسيين طيلة العهد العباسي وقتل فيه مسن العلويين خلق كثير في حروب دامية وامثال هذا العدا وهذه الصراعات الناجمة عن التمصبات القبلية كثيرة جدا . ثم الى جانب ذلك اشتد الصراع في المصير العباسي بين العرب والشعوب التي دخلت الاسلام والفرس والترك بوجه خاص . وكان من اهم اسباب هذا الصراع عقد بعض هذه الشعوب على الاسلام الذي ازال عروش ملكهم ورفع العرب الى قمة القيادة والريادة على البشرية وكذلك اعتمد العباسيين على العناصر الفارسية والتركية في الامور المهمة في الدولة مما رفع شأن هؤلاء وجعلهم يحاولون استغلال الخلافة العباسية لآرائهم الشخصية وسلب السلطة

من ايدى الخلفاء . واما الفرس فقد انكشفت نياتهم الخبيثة منذ وقت مبكر من العهد العباسى الاول فأُزيل الخلفاء العباسيون بسمهم زعماء الفرس ألوانا من التنكيل والتمذيب حيث قتل ابو مسلمة الخلالى وابو مسلم الخراسانى والفضل بن سهل والمتى الخراسانى ونكل الخليفة الرشيد بسمهم زعماء البرامكة . واما مشكلة الاتراك فقد بدأت منذ عهد الخليفة المعتصم الذى فتح لهم باب الدولة على مصراعيه فاتخذ منهم جيشه واكثر من استعمالهم فى الامور العامة وعين عليهم الرؤساء منهم ومنحهم ساطانا واسما حتى انه قد اسلم الى يد الاتراك امر سلامته الشخصية حيث جعل منهم حرسه الخاص وسأحت الفرصة للاتراك ان يزحفوا تدريجيا الى السلطة الكاملة وخاصة فى عهد الواثق والمتوكل . وقد استطاعوا فى عهد المتوكل ان يهجموا على مقر الخلافة ويقتلوا الخليفة فبدأت منذ تلك الفترة سلسلة اعتداءات تاسية ظالمة من هؤلاء الساسة الطغاة على الخلفاء استمرت طيلة عهد المماليك وامتدت الى عهد البويهيين . وقد تمرغ الخلفاء خلال هذين العهدين لاعمال عنف شملت القتل وسمل العيون والايقاف ففى الشمس المحرقة والضرب والخلع وما الى ذلك فقد اوتقوا الممترى بالله فى الشمس وضربوه ثم قتلوه بعد ذلك صبرا . كما قطعوا راس المعتذر والواقف جثته بالطريق عدة ايام واما المستنكى فقد خلعوه وسلموا عينيه ثم اعتقلوه حتى مات . والقاهر والطائع هما اخف الخلفاء عذابا فقد قُبض عليهما الاتراك بسوء وخلصوهما واهانوهما اهانة شديدة (١) .

ان الاحداث الداخلية الجسام التى وقعت خلال العهد العباسى والصراعات السياسية العنيفة التى واجهها العباسيون والحروب الطاحنة واعمال الضغط

---

(١) انظر النهايات الايمية التى تمرغ لها خلفاء هذين العهدين فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ، والفخرى لابن طباطبا وغيرهما .

والاضطهاد والتكيد التي لجأوا إليها لاختضاع الطوائف المناوئة لهم كل ذلك قد أدى إلى ازمتات قاسية وصدمات عنيفة متوالية عانت منها الدولة العباسية الامرين وكادت تخضع شوكتها وتتضيق عليها التضايق النهائي في بعض الفترات .

فهناك صراع العباسيين مع بني أمية وحروبهم الطاحنة في أول عهد همام للتضايق على بقية الامويين وكذلك نزاعهم العنيف مع الملوين وما وقع بين الطرفين من حروب دامية قتل فيها خلق كثير من العلويين وتضيق على معظم زعمائهم منهم محمد بن عبد الله بن الحسن (المعروف بالنفس الزكية) واخوه ابراهيم اللذان قُتلا في عهد المنصور ، والحسين بن علي بن الحسن الذي قُتل في عهد الهادي ويحيى بن عبد الله وادريس بن عبد الله (( مؤسس دولة الادارسة )) اللذان قُتلا في عهد الرشيد ومحمد الديباج الذي قُتل في عهد المأمون وهذا كله من جانب ومن جانب اخر كان الصراع المحتدم بين العباسيين والمناصر الفارسية في العهد العباسي الاول واسفر ذلك عن تشكيل العباسيين بزعماء الفرس وقوادهم وابعاد المناصر الفارسية عن شئون الدولة لقليل فكانت النتيجة ضعف قوة خلفاء بني العباس السياسية والحربية وظهور عوامل التفكك في الدولة حيث استفلت الطوائف المناوئة للدولة الفرصة لعلان الانفصال فانشق الاندلس وقام فيه حكم اموي بزعماء عبد الرحمن الداخل وقامت دولة الادارسة والغالبية والزياديين مستقلة عن الحكم العباسي كما انحاز الفرس المتهربون إلى بلادهم وأنشأوا الدولة الظاهرية . وبعد ذلك جاء دور الاتراك حين قصفت الدولة العباسية لهمس المجال فصار لهم سلطان عريض ونفوذ كبير في الامور العامة حتى وصلوا إلى السلطة الكاملة فترة من الزمن واعتقب ذلك هجوماً جيوش المماليك الاتراك على عاصمة

الدولة واحتلالها وقيام حكمهم فيها ثم جاء من بعدهم البويهيون والسلاجقة وتمدد  
امتد عهد المماليك الا تراك بطوائفهم الثلاث الى ما يتارب اربعة ترون منذ عهد  
المتوكل سنة ٢٣٢ هـ حتى عهد الناصر سنة ٦٢٢ هـ . وخلال هذه الفترة  
الطويلة سلب الاتراك السلطة من ايدي الخلفاء العباسيين بحيث لم يبق لهم  
اى نفوذ ولا سلطان واصبحوا كالدنى ينتفع بها الاتراك المتسلطون ويستغلونها  
فى مصالحهم الذاتية كما ذهب اهمية بغداد السياسية وانتقلت الى شيراز ففى  
ايام البويهيين كما انتقلت الى نيسابور ثم الى فى ايام السلاجقة . وعندما تمت  
للأتراك السيطرة الكاملة على عاصمة الدولة حولوا البلاد الى مسارح للنزاعات  
والمؤامرات والمذابح واماتوا فى المسلمين روح الكفاح والجهاد بخسفهم وجبروتهم  
فتوالت على المجتمع المسلم احداث مروعة انهكت قواه واضعفت مقومات حياته وصار  
ينحدر ويتدرج يوما بعد يوم فى هوة وانهييار وهلاك . ويضاف الى ذلك أن حركة  
التوسع والامتداد التى كانت قوية ونشيطة فى العهد الاموى قد اصبحت فى العهد  
العباسى ضعيفة جدا حيث توفى العباسيون عن الانطلاق واكتفوا باغارات الصوائف  
والشوائى لغرض اظهار القوة وتخويف العدو وصد هجومه وتأمين حدود البلاد .

وفى وسط خضم هذه الاحداث الجسام التى وقعت خلال العهد العباسى  
وفى ادواره المختلفة كانت الدولة تعيش فى حالة بائسة من الضعف والوهن مما كان له  
الاشرا الخطير فى العالم الاسلامى كله . ومن ذلك ان كثيرا من ولايات العالم التابعة  
للخلافة العباسية حينما ظهر لهم ضعف الخلفاء وانكماش سلطانهم وذهوله وانتقال  
السلطة الفعلية الى ايدي الاتراك الذين استبدوا بالامردون وجهه حق انف هؤلاء  
الولاة من الخضوع للاتراك فبدأت حركات الانفصال والانقسام فتصدع بناء المجتمع

المسلم المتماسك وتفرقت وحدته السياسية وانتسم العالم الاسلامي لأول مرة في التاريخ الى دويلات وامارات متعددة . ومن الدول التي استقلت عن الحكم المباسي خلال هذه الفترة الدولة الصفارية بفارس والسامانية بخراسان والزيدية بطبرستان والرى والجبل واليمقرية بصنعا والحمدانية بالموصل وحلب والطولونية والاشيدية بمصر والشام والفاطمية في الشمال الافريقي . ولم يبق تحت سلطان الخليفة المباسي في اواخر العهد السلجوقي غير السواد والعراق . وهكذا صار الاسلام منقطع الاوصال منصوص المعزى ليس له جامعة سياسية وكل فريسق من المتفلبين على الاقطار الاسلامية يحادى الاخر ويكيد له (١) . ولكن رغم كل ما اصاب الخلافة العباسية من ضعف وتخلف وانحطاط نتيجة الانحرافات المتزايدة عن حقبة الاسلام في بعض مجالات الحياة وانتشار الفساد والتحليل الخلقى واحتدام الصراعات السياسية والنزاعات القبلية والجنسية فقد بقيت الدولة تتقلب في طور شيخوختها الواحدة حتى دهمتها جيوش المغول سنة ٦٥٦ هـ وتضرت عليها القضاة النهائي . لقد كانت هذه الفترة الاخيرة عتاف فترة عصيبة بائسة في تاريخ المجتمع المسلم ظلت القيادة الاسلامية خلالها غير قادرة على اصلاح حالها والدفاع عن نفسها ومقاومة الاخطار المحدقة بها من كل جانب . وعند ما وصل الامر الى هذا الحد من السوء والخطورة البالغة سنحت للاعداء المثيرمين الفرصة التي طالما كانوا يترقبونها فانقضوا على العالم الاسلامي لأرض للقضاء على الاسلام وكسر شوكة المسلمين وانها ساطانهم في الارض . فكانت الحروب الصليبية الرهيبة التي شنتها القوى الاوربية المسيحية على العالم الاسلامي خلال العهد السلجوقي واستفترقت ما يترب من ترنين من الزمان . لقد كانت الحروب

(١) انظر الشيخ محمد الخضرى : تاريخ التشريع الاسلامي ص ٢٣٣-٢٣٤ .

الصليبية اكبر خطر واجهه المسلمون بعد فتنة الردة حيث ان الصليبيين  
وجهوا حملات عنيفة للاستيلاء على العالم الاسلامي وقد استطاعوا ان يستولوا على  
بيت المقدس وفلسطين كلها بعد سلسلة حروب طاحنة باء اكبرها بالفشل ،  
ولم يكف الصليبيون باعمال العنف والتدمير والتكيد والتخيل التي اتبعوها في  
حروبهم مع المسلمين ولكنهم قصدوا ابادتهم وانقضاءهم عن اخرهم ولذلك لم  
يكونوا يستثنون احد امن القتل لا امرأة ولا ولدا صغيرا ولا شيخا كبيرا (١) . وفي هذه  
الفترة الحرجة من تاريخ الامة الاسلامية تغيى الله للاسلام بعض القادة العظام  
حفظ الله بهم شرف هذا الدين وعزته وأعاد بهم القوة الى العالم الاسلامي المنهار  
فجاء القائد عماد الدين ايبك زنگي ومن بعده والده نور الدين محمود زنگي  
فتصدى لغارات الصليبيين والحق بجيوشهم هزائم تكرار في معارك كثيرة ثم بعد ذلك  
جاء القائد المظفر صلاح الدين الايوبي الذي هياؤه الله لهذه الامة فقاتل  
الصليبيين بعزيمة صادقة ومسالمة نادرة فحقق الله على يديه انتصارات عظيمة  
للمسلمين وبخاصة في معركة حطين سنة ١١٨٧م التي استرد فيها بيت المقدس ،  
وفلسطين كلها . وهناك عدة تان مهمتان نحب ان نترهما في هذا الصدد :  
اولاهما ان ظهور صلاح الدين الايوبي في هذه الفترة العصيبة كانت شميشة <sup>التي</sup> -  
الامة الاسلامية وتكالب عليها القوى الاوربية الحاكمة على الاسلام وانتصاره  
المظيم على اعداء الله وتحقيق القوة والعزة للمسلمين لدليل تاطع على ان الاسلام  
لم يكن لينتهي دوره / تلك الفترة بضعف قوة القيادة السياسية وانهارها ولم يكن  
هذا الدين ليفقد الحيوية والقوة المكنونة فيه رغم كل ما اصاب المسلمين من الصدمات

(١) اقرأ سلسلة اعتداءات الصليبيين على المسلمين وحملاتهم العنيفة الموجهة  
للد مير العالم الاسلامي في كتاب حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون ص  
٣١٩ - ٣٣٩ وكذلك التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية الجزء الخامس للدكتور  
احمد شليبي فصل الحروب الصليبية د واغصها وادوارها ونتائجها .



العنيفة والضربات القاصمة في الحروب الصليبية وتبل الحروب الصليبية . فقد استطاع صلاح الدين الايوبي ان يوحد اجزاء مهمة من العالم الاسلامي طبعين نهر الفرات والنيل تحت قيادة الغدة وان يؤلف بين العناصر الاسلامية المتنازعة والقبائل والعشائر العربية المتناحرة فكون منهم جامعة اسلامية موحدة للمرة الاولى . بعد انهيار قوة الدولة المباسية فغاض بهم المعركة الفاصلة مع الصليبيين فأحرز للإسلام نصرا عظيما ، والحقبة الثانية هي ان العالم الاسلامي عاد بمجد صلاح الدين الى حالته الباطنة التي كان عليها منذ عهد المماليك الأتراك وعاد المسلمون مرة اخرى الى سيرتهم الاولى من تفكك وانتقام ونزاعات وشناحر وانحرافات متزايدة عن حقيقة الاسلام وانحلال اخلاقي وثرف فاحش وحياة ماجنة نافهسة ولم يبرزق الامة الاسلامية خلال هذه الفترة بقاء مخلص للإسلام مجرد لله ولنصرة دينه حريص على الجهاد والتفاني في سبيله <sup>الى</sup> محبب المسلمين بحسن سيرته واستقامته على الحق تلتف حوله الطوب كما التفت حول صلاح الدين . واذ كان من بين الملوك والقبائل المسلمين الذين ظهوروا في هذه الفترة من يعدون نماذج حسنة في دينهم وثقافتهم وفي سيرتهم واخلاصهم وحزمهم وعزيمتهم الصادقة فمضى نصرة الدين فقد كان معظم هؤلاء الملوك شديدي الانحراف عن الاسلام وممالئهم في سيرتهم واخلاصهم حتى انهم لا يذكرون في التاريخ الاسلامي الا تجملا .

وفي اثناء ضعف قوة الصليبيين في اخر عهد السلاجقة في منتصف القرن السابع الهجري زحف التتار زحفهم المدمر على العالم الاسلامي فدخلوا عاصمة الدولة المباسية وقتلوا الخليفة ورجال حاشيته واسرفوا في اراقة ماء المسلمين وازهاق ارواحهم وقتلوا بهم فتكا قاسيا وعظموا بممالك الحضارة الاسلامية واستطوا الخلافة

العباسية . ولقد كان لهجوم التتار الكاسح أثر خطير ووقع اليهم على الاسلام والمسلمين ان لم يكن من بين الخطوب التي نزلت بساحة الاسلام خطب أشد هولا ولا فتنة أعظم خطورة من فتنة المغول في هجومهم الكاسح الماحق الذي انسابت فيه جيوشهم انسياب الثلوج من قم الجبال مكتسحة ما في طريقها من المدن الاسلامية حتى أتت على بغداد العاصمة فدمرتها اثنى عشر شهرا ثم اخذ التتار بعد ذلك يعمشون في الارض فسادا يتجاسرون على المسلمين ويسومونهم سبوا العذاب ويقتلونهم شر قتيل حتى كادوا يمحون الاسلام وحضارته من الوجود . ولما زال الشبح الذي كان يخيف الاعداء بسقوط الخلافة العباسية آلت قيادة العالم الاسلامي الى ايدي التتار الهمجيين الجهلاء الوحشيين الذين لا دين لهم ولا علم ولا حضارة ولا مدنية وكفى بؤسا وشقاء للمسلمين ان يرث تيسار مجتمعاتهم قوم هذه صفاتهم . ظل خطر التتار فترة من الزمن يدور العالم الاسلامي ويهدد بنيان المجتمع المسلم من اساسه وكانت جيوشهم تواصل هجماتها المنيعة للاستيلاء على بقية بلاد المسلمين حتى وصلت في غطرساتها وكبرياتها الى عيّن جالوت في الشام فهزمت شر هزيمة ولم تقم لها قائمة بعد ذلك . وبذلك زال خطر التتار عن العالم الاسلامي . ولكن المسلمين نتيجة هذه النكبات والازمات العاسية المتوالية ازدادوا ضعفا الى ضعفهم واضططوا فوق اضططاطهم فانهزلت وحدتهم وتفككت عرى المجتمع الاسلامي وذل شأن المسلمين بعد قوة وعزّة وضعة الى أن من الله عليهم بالقيادة المثمانية التي ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي وكانت قوة اسلامية عظيمة ظلت ترهب اعداء الاسلام وتحقق للمسلمين امجادا عظيمة طيلة ما يقرب من خمسة قرون .

### البحث الثالث : العهد التركي " العثماني "

في أعقاب الحروب الصليبية وانتصار المسلمين على التتار في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي قام الأتراك العثمانيون بتأسيس دولتهم في الجزء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى ومنذ أول عهدهم برهنوا على كفايتهم الحربية الفائقة وقوة شكيبتهم وعزيمتهم الصادقة في نصرة الدين الاسلام وتغوثهم على الامم المصاصرة في فنون القتال فاصبحوا بذلك موضع ثقة المسلمين في القيام بمهام القيادة الاسلامية فتجدد رجاء المسلمين وانبعثت البهجة في نفوسهم فملقوا على هذه الدولة الاسلامية الفتية آمالا كبيرة في استرداد قوة المسلمين وسيادتهم على الامم وحمل رسالة الاسلام الى الافاق . ولم تحض فترة طويلة من الزمن حتى قويت شوكتها وظهر نفوذها ومهارتها في مجال السياسة وفي ميدان القتال مما فظهرت على مسرح التاريخ كقوة كبرى في العالم وبدأت حركة الجهاد الكبير لنشر الاسلام في الافاق فاخذ العثمانيون يتوغلون في المناطق المسيحية المجاورة في آسيا الصغرى ثم اتجهوا بعد ذلك الى اوربا الشرقية فتوغلوا داخل اراضي الدولة البيزنطية والدول الاوربية المسيحية فاحرزوا انتصارات عظيمة اهلتههم لتبوء مركز القيادة والسيادة على الامم فترة غير يسيرة من الزمان كانت الدولة العثمانية خلالها مهدومة الجانب تحسب الامم الكافرة لها الك حساب وترتعد فرقا من قوتها الهائلة ويهرع ملوكها الاقوياء الى الدخول في ذمة السلاطين العثمانيين . وقد شملت الدولة العثمانية اجزاء شاسعة من اوربا واسيا واغريقيا وظلت قائمة تضطلع بمهام القيادة الاسلامية في العالم وترهب أعداء الله وتحفظ بيضة الدين ما يقرب من خمسة قرون رغم ما اصابها في عهودها الاخيرة من عوامل الضعف والوهس والانهيار .

لقد توغل العثمانيون في شرق أوروبا حيث فتحوا أهم مدنها التاريخية  
 المرموقة وعلى رأسها مدينة القسطنطينية العظمى عاصمة الدولة البيزنطية التي استعصت  
 على المسلمين طوال ثمانية قرون وعد فتحها محمد الثاني بن مراد في منتصف  
 القرن الخامس عشر الميلادي . وتم بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها  
 في القرن السادس عشر الميلادي في عهد سليمان القانوني حيث امتدت في التارات  
 الثلاث " ففي أوروبا كانت تشمل شبه جزيرة البلقان كلها حتى نهر الدانوب  
 شمالا وفي شمسال نهر الدانوب  
 كانت تملك ترانسلفانيا ومولدافيا وولاشيا وأغلب أراضي المجر وألمانيا وروسيا  
 في بولندة كما كانت تملك كل الشاطئ الشمالي للبحر الاسود . وفي آسيا  
 كانت الدولة العثمانية تشمل آسيا الصغرى وارمنيا وأغلب التوتاز ووادي دجلة  
 والفرات حتى الخليج العربي جنوبا وكل بلاد الشام وفلسطين وجزء واسعة من  
 شبه الجزيرة العربية كما شملت في افريقيا مصر وطرابلس وتونس والجزائر وفي البحر  
 الابيض المتوسط كانت تملك علاوة على كل ذلك جزيرة كريت وجزيرة قبرص وكل جزائر  
 بحر ايجة (١) يقول المؤرخ الانجليزي فنلي *Finlay* في التعليق  
 على عظمة الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني " لقد أصبح  
 السلطان سليمان سيديا لعدة ممالك وحكاكا لثلاث تارات ومتحكما في بحرين هما  
 البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر " (٢) .

لقد كان للعثمانيين حماسة شديدة في خدمة الاسلام وعزم قويهم لتحتة ببق القوة  
 والسيادة للمسلمين ونشر رسالة الاسلام في العالم . ويشهد التاريخ لهم بمهارة  
 العسكرية وقوتهم السياسية العظيمة التي استخدموها باخلاص لنشر الدعوة الاسلامية

(١) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية د . محمد كمال الدسوقي ص ٦٢ .

(٢) *The History of Greece P. 6* (٢)

وبسط قوة المسلمين في الارض ورد عادية الامم المناوئة للاسلام (١) . فمنذ  
اول عهدهم ابدوا اهتماما كبيرا بفنون الحرب وتنظيم الجيوش وتجهيزاتها وقد  
برعوا في استعمال المعدات الحربية واستخدموا البنادق والمدافع والبارود على  
نطاق واسع وانشأوا قوة بحرية عظيمة لا قبل لاوربا بها فحقق لهم التفوق العسكري  
في البر والبحر على السواء .

ومن مآثر العثمانيين ومزاياهم التي يستحقون عليها الثناء والتقدير  
انهم عوضوا المسلمين عما فقدوه من بلاد الاندلس في اوربا الغربية بما فتحوه  
من اراضي واسعة في اوربا الشرقية كما استطاعوا ان يحطموا القوى الصليبية التي  
تتداعى على المسلمين بين الحين والحين وتحاول الانقضاض على العالم الاسلامي  
ومن انتدوا بلاد شمال افريقيا من الحملات البحرية الاسبانية التي كانت تلاحق  
فلول المسلمين فيها بعمد طردتهم من الاندلس . وظل العثمانيون يحمون العالم  
الاسلامي من خطر الغزو الصليبي الذي لا يزال يهدده زهاء اربعة قرون  
ولم تتمكن القوى الاوربية من تحقيق غاياتها الصليبية التي كانت تسمى اليها  
منذ الحروب الصليبية الاولى الا بعد انهيار الدولة العثمانية .

ولكن هذه المزايا التي خلدتها التاريخ للعثمانيين لم تكن لتنفى وجود  
انحرافات ورثتها الدولة العثمانية عن اسلافها فاخذت تمد خطها وتوسعه وتزيد  
انحرافات اخرى حتى أدى بها الامر في النهاية الى الانهيار .

---

(١) راجع توماس . و . ارنولد . الدعوة الى الاسلام . الفصل الخاص بالأتراك العثمانيين  
ص ٢٣٤-١٧١ نقل هذا الكتاب الى العربية وعلق عليه . حسن ابراهيم حسن  
ود . عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى .

لقد استمرت الدولة العثمانية تسير على خط الانحراف الذى بدأ منذ  
المعهد الاموى وظل يزداد توسعا على مر العصور الاسلامية حتى بدأت حيث  
انتهت اليه الحال من السوء والخطورة عند قيام سلطانها . ففي مجال سياسة  
الحكم والمال كانت الحال أسوأ بكثير مما صورناه في اواخر ايام الحكم العباسى  
فقد استمر الحكم على طريقة الملك العضوى بنظامه الوراش الاستبدادى حيث  
استبد آل عثمان بالامر وحضروا الحكم فيهم كما فعل الامويون والعباسيون من قبله ،  
ولم يجعلوه شورى بين المسلمين . وقد سبب النظام الوراش واتباع طريقة  
ولاية المعهد في الحكم متاعب كثيرة واحداث مشكلات فاصمة ادت الى فوضى  
واضطرابات وتلاقل ذاق العثمانيون وبالها وفتنتها طيلة عهدهم وبخاصة حين  
أخذت دولتهم تضعف منذ اواخر القرن السادس عشر الميلادى . كانت تنشب  
خلافت حادة وتقوم نزعات عنيفة بين آل عثمان فكان من السلاطين العثمانيين  
من يقتل ولي عهده ليفسح المجال لابنه كما وجد منهم من يقتل اخوته عن اخرهم  
لا زاحة المشكلات عن طريقه وضمان استمرار الامر له وبقاء الحكم في عتبه وكانوا  
يعتمدون على مساندة جند الانكشارية لتوطيد دعائم ملكهم وفرض ارادتهم على الناس  
وازالة الموائق عن طريقهم . وقد نشبت خلافت حادة بين ابناء بايزيد الاول ،  
استمرت عشر سنوات حتى انتهت بانفراد محمد الاول بالحكم بعد التكنيـل  
باخوته ويذكر المؤرخون أن بايزيد الثانى هو اول من سن سنة سيئة تـلـه  
لاخيه الذى يرث الحكم من بعده فظل ذلك متبعاً من بعده لمدة ثـلـث من الزمان .  
وهذا محمد الثالث بن مراد الثالث الذى استهل حكمه بقتل اخوته التسعة عشر  
الذكور لكن يضمن عدم وجود منافسين له على العرش يسببون له المتاعب والمشكلات .  
ومع تزايد الصراعات بين الاسرة الحاكمة واعتماد السلاطين على جند الانكشارية

في تغلب بعضهم على بعض وضرب بعضهم رقاب بعض ضعفت قوة هؤلاء السلاطين وبدأ نفوذهم وسلطانهم في التقلص والذبول في الوقت الذي أخذت قوة جند الانكشارية في النمو والظهور حتى استفحل خطرهم واصبحوا يظهرن التمرن والطفيان ويثورون ضد السلاطين بين الحين والحين وينصبون على العرش من يشاءون ويخلصون من يشاءون حسب اهوائهم ومصالحهم. وقد ظهرت قوة جند الانكشارية بشكل واضح بعد عهد محمد الثالث حيث تعاقب على عرش الملك سلاطين ضعفاء امثال مصطفى وعثمان الثاني ومسراد الرابع وغيرهم ممن كانوا ضحايا ثورات الانكشارية وطفيانها. وعند ما اسند هؤلاء الجنود المخربون الامر الى مراد الرابع بعد خلع مصطفى كان مراد صبيا ففسد الحاد يتعشر من عمره فساحت لهم الفرصة للتحكم في أمور الدولة وسلب السلطنة الفعلية من يد السلطان الجديد فكثرت المظالم والمخاسد واعمال العنف والاضطهاد دون ان يملك السلطان القدرة على القضاء عليها.

ولم تنزل الانكشارية تحتل مركز الثقل في شئون الدولة وتتحكم في مصائر السلاطين وتحدث القلاقل والفتن وقد ازداد الامر خطورة منذ ايام السلطان ابراهيم في اوائل القرن السابع عشر الميلادي واستمر في عهد محمد الرابع وسليمان الثاني وسليم الثالث ومصطفى الرابع فحاشت البلاد في ظروف قاسية انتشرت فيها موجات الفساد والفوضى والاضطرابات وكثرت فيها المذابح الجماعية ولم يكن في مقدور السلاطين اخضاع<sup>جند</sup> الانكشارية لارادتهم فظل الامر على هذه الحال السيئة حتى جاء السلطان محمود الثاني فاستطاع بحسن تدبيره ومقدرته السياسية الفائقة ان يتخلص من شرور هؤلاء الجنود المخربين الذين عاشوا في الارض فسادا ففقدوا عليهم القضاء النهائي ، ولكن ذلك جاء متأخرا جدا ان كانت عوامل الضعف

والوهن قد نخرت في كيان الدولة العثمانية فصارت قوتها الرهيبة تسرع الخطى الى مرحلة الانهيار والزوال منذ عهود السلاطين الضعاف الممتدقة . وقد ظهرت هذه النتيجة الحتمية - حسب السنة الربانية - في القرن التاسع عشر الميلادي حين اعادت القوى الصليبية الكرة على العالم الاسلامي فحطمت القوة العثمانية واهتسمت اسلابها وكافة ملاكها .

ونلاحظ في فترة ضعف الدولة العثمانية ان الحریم ورجال البلاط قد اصبح لهم نفوذ كبير في شئون الدولة ، وكانت سيطرة الحریم على بعض السلاطين العثمانيين سمة بارزة من سمات الحكم وسببا من اسباب ضعف قوة الدولة منذ نهاية القرن السادس عشر الميلادي . وقد روى التاريخ ما كانت تتمتع به السلطنة بافو *Baffo* من السيطرة والنفوذ المريع في امور الحكم طوال فترة حكم ثلاثة من السلاطين وكذلك مثيلاتها من بعدها اللاتي كن عظيمات التأثير في شئون التعيين للموظائف والمناصب كما كن يثرن جند الانكشارية للقيام بالثورات كلما احتجن للضغط على السلطان حتى يفزل على ارادتهن ويحقق رغباتهن (١) .

واما في مجال سياسة المال فقد ازداد الانحراف توسعا وامتدادا على مر العصور الاسلامية . وفي هذا العهد كان السلاطين اكثر انحرافا من سبقوهم وقد كانوا يتصرفون في الاموال العامة بلا قيود ولا حدود فكانوا ياخذون ما يطيب لهم ويخصون الامراء بنصيب وافر منها ويمطون انصار الدولة اعطيات ضخمة لكسب حبهم وولائهم لهم . ولما كان من سياسة الدولة العثمانية تعيين الوالى لمدة محدودة يمزل عن العمل بعد انتهائها كانت نتيجة ذلك ان الولاة اصبحوا

(١) انظر الدكتور الدسوقي ، الدولة العثمانية ص ٨٦ .



يوجهون اهتمامهم لتكوين ثروات ضخمة خلال هذه الفترة المخدودة فكانوا يلجأون الى ظلم الناس وابتزاز اموالهم واقتطاع تسط مما في ايديهم من الاموال العامة ولا يهتمون كثيرا بتحقيق المصالح العامة بقدر ما يهتمون بمصالحهم الذاتية . والى جانب ذلك تطورت ظاهرة الاقطاعية التي نشأت منذ العهد العباسي حتى اصبحت في هذا العهد على صورة الاقطاعيات الاوربية غلبت مظاهرها وويلاتها . وكان البكوات في الاقطاعيات الزراعية يقدمون للسلطان عددا من الفرسان المدربين بخيولهم وسلاحهم وزاد هم حسب مساحة اقطاعياتهم واهميتها لكي يحصلوا على مزيد من التظايع . يقول الاستاذ محمد كرد علي :  
 " ان المشرانيين لما كانوا يهتمون بتطهير المملكة من اهل الفساد ولا يتغذون من ناموس الادارة ما يخفون به فقر البلاد ومؤسسا فتركوا الاهل يعملون ماشاءوا اذا ادوا عليهم لخزانتها (١) " .

ولقد انتشر الفساد والتحلل الخلقي في العهد العثماني فكان السلاطين والامراء يمشون عيشة الترف والبذخ والتفاهة وقد اسرف بعض السلاطين المشرانيين في اعمال القتل والتعذيب فانتشرت القوضى والاضطرابات في البلاد . يقول الاستاذ محمد كرد علي عن حياة الترف والمجون التي كان يمشيها بعض السلاطين المشرانيين : " اجمع مؤرخوهم ( اي الترك ) ان بايزيد الثاني كان من السفاهة على جانب عظيم فانتشرت المفاسد والفكرات في ايامه في كل مكان بين الخاص والعام ونسوا الشرع وعيثوا باحكام الدين وكانت تحمل الى قصر بايزيد اجمل الفتيات والفتيان من كل ارض كما تحمل اليه اطيب المسكرات والطقس الممنين والمفنيات والموسيقىين والموسيقىات والمهرجين والمساخر ولا شمساً

للكبراء وفى طليعتهم صدره الاعظم الا ان ياتوه بما ترغب فيه نفسه من الجوارى  
والفلان (١) .

ومن عيوب الدولة العثمانية وانحرافاتهما ان المثمانيين وان كانوا قد  
امتدوا بالاسلام فى ميدان الفتح ماشاءت لهم غيريتهم الحربية فقد جمدوا به فى  
ميادين كثيرة كان من اهمها ميدان الفقه وميدان العلم وميدان الاقتصاد وميدان  
السياسة وما الى ذلك من مجالات الحياة .

ففى ميدان الفقه مثلاً اعتمدت الدولة المذهب الحنفى وكانت تطبقه بتمصب  
شديد وعارضى السلاطين المثمانيون والعلماء فتح باب الاجتهاد الذى أغلقت  
منذ القرن الرابع الهجرى لاسباب ليس هنا مجال ذكرها . وكانت حجتها —  
ان التراث الفقهى الذى خلفه فقهاء الحنفية السابقة فيه الكفاية ان لم يتركوا  
شيئاً الا بينوه حتى انهم قد تخطوا حدود الفقه الواقعة الى الفقه الافتراضى  
فكفوا من باتى بعد هم مؤنة البحث وذلك بالاضافة الى ان المحدثين ليس فيهم —  
من تتوفر فيه شروط الاجتهاد . وفى هذا الوقت الذى قيد فيه الفقه فى دائرة  
محدودة فجمد جموداً مقيماً ونوّف عن النماء كانت الحياة البشرية جارية مطبوعة  
تتغير فيها الظروف والاحوال وتستجد فيها الوقائع والاحداث فضاقت دائرة  
الفقه المدون عن الاطّبقها ان لم يستنبط لها الفقهاء التماس الاحكام من  
الشريعة وكانت النتيجة ان السلاطين الذين دفعتهم قواهم الى عدم الاذن بفتح  
باب الاجتهاد كانوا يلجأون الى قوانين اصلاحية لاستغلال بطل الشريعة  
الاسلامية . وقد فات هؤلاء السلاطين والعلماء المعارضين لفتح باب الاجتهاد  
فى العهد التركى ان التغيرات والوقائع التى تحدث فى الحياة لا يستطيع المقتسل

البشرى ان يتصور ابعادها ومراحلها على مر الازمان والعصور لانه محسوب  
 عن علم الغيب ومن ثمة فان اى مجتهد فى الشريعة مهما بلغ علمه وقوى ادراكه  
 ودق نظره سيظل محصورا بواقع بيئته وعصره لا يملك القدرة على تعديده . وقد  
 أدى تجميد الفقه الى توقف نمو المجتمع المسلم وتجميده على صورة معينة لمرحلة  
 من مراحل الحياة كانت البشرية قد قطعت بعدها اشواطا فى التطور والنمو  
 وهكذا تصرف الفقه المستنبط عن مجارة تطور الحياة ونموها فى المجتمع المسلم  
 نتيجة سوء فهم الحكام والعلماء الى ان جاء الوقت الذى كسر فيه باب الاجتهاد  
 بدافع من حاجات المجتمع الملحة فاصبح الامر فوضى لا يراعى الناس شروطه  
 ولا يقدرون عظم المسؤولية . يقول الشيخ محمد الفزالى : " شأن الزمن لا يقف  
 ومع انه تحدث للناس اتضية بذكر ما احدثوا من فجور ومع ان الجماعة الانسانية  
 تدخل فى الطوار متبانية من ناحية العلاقات الدولية والوضع الادارى والاقتصادية  
 والسياسية ومع ضرورة بقاء الدين مهيمنا على توجيه القافلة السائرة مع هذا كله  
 فان التفكير الاسلامى الفقهى توقف فى اغلب ميادين المعاملات ان لم يكن جمدا  
 فيها كلها واغلقت ابواب الاجتهاد بضمة ترون حتى انكسرت اخيرا تحت ضغط  
 الحاجات الملحة وصحب انكسارها فوضى منكرة فى الفهم والتطبيق (١) .

والى جانب ذلك كانت انحرافات الصوفية تزداد انتشارا وسوءا مع مرور الأيام  
 وقد اصبحت الصوفية فى هذا العهد وكأنها الطريقة المثلى الوحيدة للتدريس  
 والصورة الحقيقية للاسلام . وكان التركيز على جانب الشمائل التعبدية من  
 الدين دون بقية جوانبه الاخرى المهمة . وقد حصل تحول خطير فى معنى الدين

( ١ ) الاسلام والطائفة المعطلة ص ١٠٠-١٠١ .

بسبب سوء فهم المتصوفين لمعنى العبادة والتوكل على الله ومعنى الزهد فعلى الاسلام حيث انحسر الدين ومفهوماته في نظرهم في زاوية ضيقة من نشاط الانسان ومهمته في الحياة . فقد تقرر في حش الناس في هذه العصور الاخيرة ان الدين انما هو شعائر تعبدية فقط وعلاقة خاصة بين العبد وربّه واما بقية جوانب حياة الانسان من تصرفاته واعماله وجهوده في واقع الارض فكانها خارجة من اطار الدين . وهذا الفهم الخاطئ \* للدين من أشد الانحرافات التي اصابها المسلمون في العصور الاخيرة وادت الى نتائج لا يزالون يعانون منها حتى اليوم . وقد ادى انحراف الصوفية في مفهوم العبادة الى انحرافات اخرى خطيرة سرت معها وواكبته في مسيرته وتلك هي التواكل والتعود عن العمل وتركها لاختد بالاسباب وقد وصل الامر في هذا المهد الى حالة سيئة جدا نتيجة هذه الانحرافات اذ صار الدين - وحتى الشعائر التعبدية - مظاهر خالية من الروح وتاليه لا معنى لها ولا حقيقة . ثم دخلت الخرافات والبدع مع تحول الدين الى مظاهر وتاليه لا تحمل دلالة ولا رصيدا في واقع الحياة فانحسر مفهوم الدين في نظر العامة في أولياء ومشايخ وكرامات واضرحة ومساجد وانكار وبدع وخرافات وفبائح واحتفالات وأمور اخرى كثيرة ليست من الدين في شيء \* .

## الفصل الثانى

---

مجالات الانحراف عن جادة الاسلام فى التاريخ الحديث

- الانحراف فى مفهوم عقيدة الألوهية .
- الانحراف فى مفهوم العبادة .
- الانحراف فى مفهوم القضاء والتدر .
- الانحراف فى مفهوم الجهاد فى سبيل الله .
- الانحراف فى مسألة الاجتهاد .

...

## الفصل الثانى

### مجالات الانحراف عن جادة الاسلام فى التاريخ الحديث وأسبابه

ان مجرد الموازنة بين صورة المجتمع الاسلامى منذ العصر الاموى حتى القرون الثلاثة الاخيرة وصورة المجتمع الاسلامى الاول فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفترة الخلافة الراشدة يبين لنا الفرق الكبير والتفاوت البعيد بين صورة المجتمعين فى صفاتهم وخصائصهما ولكن هذا الاختلاف والتهدل الذى وقع فيه المجتمع المسلم قد ازداد وضوحا وظهورا منذ عصور الانحطاط حتى عصر الفزو الاجنبى وتوغل الحضارة الغربية فى انحاء العالم الاسلامى .

بدأ غلط الانحراف فى تاريخ الامة الاسلامية منذ فترة مبكرة جدا كما رأينا فى الفصل السابق واول ما بدأ هذا الانحراف كان فى ناحية السلوك العطنى من حياة المسلمين . ولم يقع فيها انحراف واحد وانما وقعت عدة انحرافات جزئية تفرعت عن الخط المنحرف كما انه فى الوقت نفسه لم يحدث هذا الانحراف فجأة وانما بدأ فى صورة ضئيلة وفى زاوية ضيقة ثم اخذ بعد ذلك فى التزايد والانتشار فى شتى مجالات الحياة الاسلامية . ولكننا نلاحظ فى المجهود الاسلامى الثلاثة التى تقدم الحديث عنها ان الانحرافات التى وقعت فى مجال سياسة الحكم والمال وفى مجال الاخلاق والاجتماع قد ظلت فى ناحية السلوك دون ان تمتد الى مجال التصور وذلك الى جانب ما ظهر من بعض الفرق الاسلامية وبخاصة الصوفية والمرجئة من انحرافات عديدة وسلوكية متعددة منذ العصر العباسى . وهكذا حتى جاءت القرون الثلاثة الاخيرة فاصبح المجتمع المسلم يتدنى وينحدر فى ادراج الانحراف

في فهم حقيقة الاسلام واستيعاب مفهوماته التصورية في معانيها ومدلولاتها الواسعة الشاملة فعانت هذه المفاهيم الاسلامية انحسارا خطيرا ادى الى نتائج سيئة وعوآب وخيمة شكان في اثناء ذلك الفوز الاجنبى وتوغل الحضارة الغربية فاصابت الامة الاسلامية صدمات وهزات عنيفة حين تنبعت من نومها العميق فرأت موقعها في ذيل الامم الراقية وهى تتلعب في حمأة الضعف والوهن والانهيال بينما تناطح هذه الامم عنان السماء في التقدم الحضارى والعلم والتفوق السياسى والعسكرى فانبهرت الامة المغلوبة على امرها ايما انبهار فاشتد ولعها بتقليد الامم الغالبة فاوقعتها ذلك بطبيعة الحال في انحرافات خطيرة لم ينف عند خروجها في السلوك عن الخط المستقيم وانما وصل الامر الى زعزعة العقائد والقيم والمفاهيم الثابتة التى كانت تؤمن بها فانجرفت مع موجة الالحاد الماثية التى اجتاحت المسدول الاوربية وقادتها الى التكرار لاديان والقيم الانسانية الثابتة ومحاربتها بكل سلاح وفى كل ميدان من ميادين الحياة . ومن المعلوم فى ستن تبدل احوال المجتمع وتغيرها ان الانحراف والتشويه يبدأ اول ما يبدأ فى ناحية السلوك العظمى ثم يمتد منها مع مرور الاجيال وتعاقب الميود الى ناحية التصور نتيجة غشو الجهل واتباع هوى النفس . عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى : " وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا " (١) قال : " صارت الاوثان التى كانت فى قوم نوح فى المرب بمعد . . . . . الى ان قال " اسما " رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا اوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون انصبا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك اولئك وتنسخ

العلم عبت " (١) . ان الصورة المعروضة عن الاسلام في اذهان الناس وفهمهم واقع حياتهم في القرون الاخيرة تتصف بالتشويه والانحراف حتى تجسد الاسلام في صورة منحرفة فكريا واعتقادا وعملا وسلوكا بمدت الشقة بينها وبين الصورة الصحيحة بقدر ما دخل عليها من عناصر غريبة وما اعتراها من تشويهات وانحرافات واذابحثت عن الاسلام في اذهان المسلمين وترسست روحه ورسالته ومبادئه السامية في واقع حياتهم تجد انحرافا كبيرا في مفهوماته التصورية وانحسارا لمعاني هذه المفهومات في زاوية ضيقة من مجالات الحياة الانسانية . ومن ذلك انحرافهم في مفهوم اللوهمية والعبادة والجهاد والقضاء والقدر والثوكل والزهد وما الى ذلك . يقول الشيخ محمد الغزالي : " وقد نظرت الى الامة الاسلامية ( في القرون الاخيرة ) فوجدت اوضاعها العامة تدعو الى الرثاء . ان الغدر سرى في كيانها حتى لتحسبه اعراض موت . . . . . والذي يفلغل النظر في علل هذه الامة يلحظ على عجل انها تتنفس في جو فكري خائق وان تغذيتها النفسية والاجتماعية والمقالية والعاطفية رديئة اشد الرداءة " (٢) . ويقول في موضع آخر : " ومن بضعة قرون والمادة المستخلصة من الاسلام لتغذى مشاعر المسلمين واغكارهم مشوية باخلاق غريبة . . . ان تصلح الاسلام والدعوة اليه اتخذ طريقا شاردة انتهت بالامة الاسلامية الى هذه الوحشة الهائلة وجعلت الوفا مؤلفة من الناس تحيا باسم الاسلام وهي اقصى ما تكون عن فقهه وادبه وأتأى ما تكون عن روحه ونصه . ونحن نلتفت يئسة ويسرة في طول العالم الاسلامي وعرضه فترى شعوبا بينها وبين " محمد " العظيم " وراثه " الضخم مثل ما بين عابد المعجل وعالم الذرة ، ومع هذا اليون البعيد فان هذه الشعوب تزعم انها مسلمة وتعترف في انحاء العالمين

( ١ ) رواه البخاري في كتاب التفسير باب ود لا سواعا ولا يفوت ويفوق ٧٣ / ٦ .

( ٢ ) الشيخ محمد الغزالي : كيف نفهم الاسلام ص ٦ .



بهذه الإشارة وان كانت تجر وراءها اثقالا من الجهالة والخرافة والتخلف  
تزرى بكل نسب (١) . ان هناك مجموعة ضخمة من الناس في انحاء الرقعة  
الاسلامية الفسيحة اعتنقت هذا الدين وعرفت به ولكنها تحيا في صورة من الصور  
المشوهة المنحرفة للاسلام وهي بمديدة عن حقيقة هذا الدين في تصورهم  
وتطبيقاتها حتى لو ان محمدا رسول الله بعث حيا ثم قيل له هذه أمك ما عرف  
فيها رسالته ولا ترسم فيها سنته من كثرة ما دخل عليها من تاليد نافهة وعرج  
مطرد وانحرافات عريضة ومظاهر جوفاء يتشدد بها الناس ويحسبونها حقيقة  
الاسلام .

فلنستمرغرا لان اهم المفاهيم الاسلامية التي انحرف فيها المسلمون في  
القرون الاخيرة لكي نعرف مدى خطورة هذا الانحراف الذي أبعد المسلمين  
عن صورة الاسلام الصحيحة وادى الى نتائج سيئة وبخاصة في هذا القرن الأخير  
لذلك بأن الله لم يك صغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله  
سميع عليم (٢) .

...

( ١ ) الشيخ محمد الفزالي : كيف تفهم الاسلام ص ٩٠ .

( ٢ ) سورة الانفال آية ( ٥٣ ) .

### المبحث الأول : الانحراف في مفهوم عقيدة الألوهية

ان أهم المفاهيم الإسلامية التي انحرف فيها المسلمون ، في القرون الأخيرة هو مفهوم لا اله الا الله ، وذلك لان عقيدة الألوهية هي الاساس المتميز الذي تبنى عليه نظرة الاسلام العامة ، كما أنها الاساس الفكري لمعطية المسلم والاساس النفس لسلوكه المملى في الحياة حيث ان نظرتة الى ميادين الحياة الفكرية المختلفة وسيره في جميع مجالات الحياة العملية تقوم على اساس عقيدة صحيحة في الله وتنبثق من هديها " قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١) " يقول الاستاذ أبو الأعلى المودودي : " أول ما امر النبي صلى الله عليه وسلم ان يؤمن به وأهمه هو " لا اله الا الله " وهذه الكلمة هي التي يقوم عليها بناء الاسلام وهي التي تميز المسلم من الكافر والمشرک والملحد ، وهي التي تحدث الفرق العظيم بين الانسان المؤمن بها والانسان المعرض عنها فالذين يؤمنون بها طائفة لهم الفلاح والسعادة والفوز والرفق في الدنيا والاخرة والذين يعرضون عنها طائفة اخرى لهم الخسران والخزى والغد لان في الدنيا والاخرة " (٢) . ويقول في موضع آخر في بيان أهمية كلمة لا اله الا الله وأهميتها بالنسبة لمعتقدات الاسلام وأحكامه ونظمه " وهذا الايمان بـ " لا اله الا الله " هو الركن المهم الاساس من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم وهو مركز الاسلام وأصله ومصدر قوته وكل ما عداه من معتقدات الاسلام وأحكامه وقوانينه انما تقوم على هذا الاساس ولا تستمد قوتها الا منه والاسلام لا يفتقر منه شيء بعد زوال هذا الاساس من مكانه " (٣) .

(١) سورة الانعام آيتا (١٦٢-١٦٣)

(٢) ميادين الاسلام ص ٧٢ ، تمرييب محمد عاصم الحداد .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٩٠ .

لقد قامت الدعوة الاسلامية طوال عهدها الاول على اساس ترسيخ عقيدة  
 الالهية والوحدانية في نفوس الناس وتوضيح مدلولاتها الواسعة الشاملة <sup>لهم</sup> حتى  
 فهم المسلمون الاوائل انها دعوة الى نظرة جديدة شاملة الى الوجود تحسّر  
 الانسان من الخضوع للسلطان ومن المعبودية لكل ماسوى الله تعالى من بنى البشر  
 والحيوانات والجمادات وتجعله خليفة في الارض يخضع لله دون غيره ويوحده بصفته  
 الهية وخالقه ورب المعبود ويطيعه وينفذ لامره ويتربى بالمسئولية امامه في الحياة  
 الآخرة وفهموا معنى كلمة لا اله الا الله على انه ليس في هذا الكون أحد يستحق  
 ان يعبده الناس ( على المعنى الواسع الشامل للعبادة ) ويسجدوا له بالطاعة  
 والعبادة الا الله تعالى كما ليس لهذا الكون من مالك ولا حاكم الا هو وحده  
 وكل شئ مفتقر اليه مضطر الى استعانه في جميع الامور (١) والحالات . وهذا  
 المعنى باختصار هو رد السلطة المطلقة في كل شئ الى الله تعالى ونزعها من  
 يد كل ماسواه والالتزام بكل ما جاء من عنده سبحانه وتعالى . يقول العلامة  
 ابن القيم : " فان التصديق الحقيقي بلا اله الا الله يستلزم التصديق بشعبها  
 وفروعها كلها وجميع اصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة فلا يكون المعبود  
 مصداقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ولا يكون  
 مؤمناً بالله اله المالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونحوه كماله ولا يكون مؤمناً  
 بأن لا اله الا الله حتى يسلب خصائص الالهية عن كل موجود سواء ويسلبها في  
 اعتقاده وارادته . . . . الى ان قال : والتصديق بلا اله الا الله يقتضى الانعان  
 والارادة وقها وهى شرائع الاسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع

( ١ ) انظر الشيخ محمد المبارك نظام الاسلام ، العقيدة والعبادة ص ٣٤٣ وكذلك  
 مبادئ الاسلام للمودى ص ٧٢ وما بعد ها .

أخباره وامثال أوامره واجتناب نواهيه هو تفصيل لا إله إلا الله فالمصدق بها على الحقيقة لذي يأتي بذلك كله وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبإلقيام بحقتها وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقتها" (١) وكان حصيلة الفهم الصحيح الذي كان عليه المسلمون الأوائل قوة وفاتة في نفوسهم ونعتهم إلى الالتزام بمقتضى هذه الكلمة واستيعاب مدلولاتها على أوسع نطاق فاستسلموا لأمر الله في جميع شئون حياتهم الاختيارية وقاموا بمجاهدة الوضع الجاهلي القائم في الأرض وتقويته لئلا يركنه واقامة حكم الله وتنفيذ أمره في الأرض بتطبيقهم العمل الواقي لاسيما لسلام ومبادئه وتوجيهاته والسعي إلى ذلك بكل قوة وعزيمة صادقة . وهذا ما كان عليه المسلمون الأوائل فالإيمان بكلمة التوحيد هو المدخل إلى بناء الإسلام وبه يدخل الإنسان في زمرة المسلمين ولكن لا يستكمل إسلامه حتى يترجم ذلك في واقع عمله حين يطيع طاعة الله صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى من الأحكام والأوامر ويتبين من ذلك أنه بعد ما يكون التزام المرء بما يقتضيه ويتربى به يكون كمال إيمانه كما أنه بعد ما يكون الفرق بين مقتضيات الإيمان ومدى التزامه بها يكون إيمانه ناتجا غير كامل . وفي المرحلة الأولى من تاريخ الدعوة الإسلامية كان الواحد من الصحابة الكرام إذا دخل في الإسلام ونطق بكلمة التوحيد خلع على عنقه كل ما فيه في الجاهلية وقطع صلته به وتبرأ من رواسيه جملة وتفصيلا وانتقل نقلة بعيدة من حياة جاهلية جهلاء وتصورات خاطئة للكون والحياة والإنسان وعادات وتقاليد مخيفة وعبودية وخضوع لغير الله تعالى إلى حياة رحية يملؤها نور الله وهدى وقوامها تصور كامل شامل منبثق عن أمر الله ، واستملاء على كل عبودية إلا العبودية لله

الحجة لله وحده (١) . وقد تقدم حديث مستفيض حول هذا الموضوع في فصل مل  
العناصر الأساسية في تكوين الجيل الاول :

وبينما نرى هذا الافق الاعلى الذى كان المسلمون الاولون يخلقون فيهم  
في فهمهم الصحيح لمقيدة الألوهية والتزامهم بمقتضاها في واقع الحياة نرى في  
الجهة المقابلة الهوة السحية التى انحدار اليها المسلمون في فهم هذه المقيدة  
في القرون الاخيرة حيث بلغ انحرافهم مداه في فهم هذه المقيدة فعلى حقيقة  
ومعناها الشامل كما فهمها الاولون .

وتحسان نقرر حقيقة كبرى قبل ان نبدأ الحديث عن انحراف المسلمين  
المتأخرين في مفهوم عقيدة الألوهية وغيره ، هذه الحقيقة هى ان المقيدة  
الاسلامية في جملتها حين التفت بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي الاول وتأثرت  
بها تحولت عند خسارة الناس الى مناقشات فلسفية كلامية (٢) ، فشغلوا انفسهم  
بقضايا ومساائل جعلوها موضوعا للبحث والنظر والخلافات لم يكن السابغون الاولون  
من هذه الامة يشغلون انفسهم بها . وقد خاض علماء المسلمين منذ العصر  
العباسي في مسائل العقيدة الاسلامية مثل مسألة الذات والصفات هل هى  
عينها او غيرها ومسألة خلق القران والبحث في جزئيات الحياة الآخرة وفي العرش ،  
والكرسى ايها آدم . . الى غير ذلك من المسائل التى شغلت الخاصة عمن  
المقيدة الاسلامية الصافية التى تحرر الانسان من عبادة ما سوى الله تعالى وتدفعه الى  
تحرير بني البشر من الخرافات والاساطير وتحمله مسئولية كبرى امام خالقه واليه ، كما  
أن البحث في هذه المسائل قد نقل المقيدة الاسلامية من حيز القوة الحيوية الدافعة

(١) انظر معالم في الطريق ، سيد قطب ، ص ١٥-٢٦ فصل جيل تراني فريد .

(٢) انظر المجتمع الاسلامي المعاصر ، محمد المبارك ص ٥٤-٥٦ .

الى حيز المناشآت الفلسفية والمناظرات الكلامية والخلافات المذهبية التي لا طائل تحتها ، يقول الشيخ محمد الفزالي : "وأشد الاساءات الى الاسلام ان تسلك به مناهات الفلسفة وان تدور به مع حيرة العقل الانساني في البحث عن الحق بعيدا عن هدايات الله وستن المصطفين الاخيار من عباده . . . الى ان قال : " فان الاسلام لم يصب في ميادين الحياة من شيء مثلما اصاب في هذه الاشوا ب المزورة التي اظهر فيها وتلك التشويهات التي الصت به " (١) . وأما عند العامة فقد اصبحت المة يدة الاسلامية مزيجا من اخلاط غريبة تحتوى على نزر يسير من عائد الاسلام مخلوطا بمجموعة من المعتقدات الباطلة مثل الاعتقاد بقبور " الاولياء " وقصد ها للعبادة وتقديس هؤلاء الاولياء وطلب قضاء الحاجات منهم احياء وامواتا والاعتقاد بتصريفهم لشئون الكون ومعرفة لهم الحليم الغيب ، بالاضافة الى تعلق الناس بانواع الرقى والتائم والتولة والاطلاس ونحوها مع تمطيل ال اخذ بالاسباب في القالبوا الى ذلك من الامور المخالفة للمعيدة الاسلامية .

وأما بالنسبة للانحراف الذى حصل فى مفهوم عتيدة الالوهية فى القرون الاخيرة فقد شابت مفهوم هذه العتيدة شوائب كثيرة واصابه انحسار خطير فى الناحية الفكرية التصورية وفى ناحية الحياة المعطية السلوكية فتصلت مدلولاته الواسعة فى نطاق ضيق محدود . واصبح الناس يعتقدون ان مجرد النطق بلا اله الا الله يكفى لضمان نجاه الانسان فى الدنيا والاخرة ظنا منهم ان التلفظ بهذه الكلمة يعطى الانسان صفة الاسلام الكامل وان لم يعرف مضمونها معرفة تامة ولم يلتزم بمقتضاها . وهناك مجموعة من الناس تردد هذه الكلمة صباح مساء باعداد

هائلة ولكنها تجهل ما لهذه الكلمة من مقتضيات والتزامات كما ان معظم الذين يصرفون ان لهذه الكلمة مقتضيات لا يتبلور ذلك في ان هاتهم بصورة واضحة شاملة . وانك تجد عددا كبيرا من عامة المسلمين وبخاصة المتصوفين منهم يجلس احد هم في زاوية من المسجد او في مكان خلوته في داره وهو يردد كلمة التوحيد في ساعات الليل والنهار من دون معرفة ومع وتدبير لمعناها وادراك صحيح لمقتضاها ولوازمها حتى اذا فرغ من عبادته وخرج الى الحياة العملية تجده ينخرط فيما يناقض العقيدة التي يقر بها بلسانه ويجهد نفسه بترديد هالف مرة لتتطلىق اصداؤها في الفضاء وتذروها الرياح كما تجد اخرين وبخاصة في هذا العصر يزعم احد هم انه مقر بعقيدة الالوهية ولكنه لا يشمر باى غضاضة او عيب حين ييسوح باعتناق نظريات اجتماعية واقتصادية او سياسية بينها وبين نظم الاسلام ومبادئه فرجة بعيدة واسعة لا يمكن معها اى التمسك او تقارب او تفاعل باى حال من الاحوال .

ولقد لعبت طائفة المرجئة دورا خطيرا في انحسار مفهوم عقيدة الالوهية في نطاق ضيق في اذهان الناس وفي واقع حياتهم العملية حيث اسسوا مذاهبهم في العقيدة على قاعدة خاطئة تقرر ان الايمان بالله هو المعرفة فقط او الاقرار او التصديق بالقلب واللسان وان الكفر هو الجهل فقط وان الكفر لا يكون الا باللسان دون غيره من الجوارح (١) . ومن اخروا العمل عن الايمان وقالوا انه لا يضر مع الايمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة ، واوردوا بعض النصوص العامة لتقرير صحة

( ١ ) انظر مثلا التالاسلاميين للاشعري ١ / ٩٧ - ٢٠٧ وكذلك الفرق بين الفرق

مذهبهم دون النظر لجميع النصوص العامة والخاصة التي وردت في هذه القضية الخطيرة ولم يرجعوا الى ما بينه السلف في هذه المسألة في كتب الحديث والتفسير . وقد كان اكثر السلف يتسمون "توحيد الالهية الى توحيد المعرفة والاشياء وتوحيد الطلب والتصد ويعملون التزام طاعة الله وامره ونهيه من حقوق التوحيد ومكملاته . وبعضهم يقسمونه الى قسمين ملازمين الاول توحيد الطاعة والاتباع (اي الالهية) والثاني توحيد الارادة والتصد (وهو عبادة الله وخلع ما يعبد من دونه) . وقد رد شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من السلف على المرجئة ونسبوا اراءهم الفاسدة وكشفوا عن معتداتهم الباطلة وبينوا للناس المفهوم الصحيح للمتيقنة الالهية بحجج ساطعة متينة ليس هنا مجال ذكر تفاصيلها ولكن رغم ذلك كان لمذهب المرجئة تاثير كبير في افكار المسلمين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون . ومن الخطأ ان نعتقد ان عقيدة المرجئة هي وحدها التي اثرت في افكار المسلمين وسببت لهم هذا الانحراف الخطير في مفهوم الالهية ان المعلوم ان هناك عوامل اخرى داخلية وخارجية عملت الى جانبها فيما بعد ووسعت الشقة بين المسلمين والفهم الصحيح لهذه المتيقنة ولكن الشيء الذي لا يمكن انكاره هو ان عقيدة المرجئة تعتبر اول واهم العوامل الفكرية المنحرفة التي ادت الى هذه النتائج السيئة . وقد استدلَّت المرجئة ببعض النصوص العامة لاثبات صحة مذهبها منها قوله صلى الله عليه وسلم "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله" (١) . وقوله صلى الله عليه وسلم لابن هزيرة " . . ان ههنا

(١) رواه مسلم في كتاب الايمان باب الامرية قال الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ٢١٠/١ - ٢١١ عن ابن هزيرة .



بنعملى هاتين فمن لتيك من وراء هذا الحائط يشهد ان لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه فيشره بالجنة<sup>(١)</sup> . . . . الحديث . وحديث ابى ذر رضى الله عنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم عليه ثوب ابيض ثم اتيته فاذا هو نائم ثم اتيته وتر استيقظ فجلست اليه فقال " ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة " . قلت وان زنى وان سرق ؟ قال وان زنى وان سرق ، قلت وان زنى وان سرق ؟ قال وان زنى وان سرق ثلاثا ثم قال فى الرابعة على رغم انف ابى ذر فخرج ابواذر وهو يقول وان رغم انف أبى ذر<sup>(٢)</sup> . وجاء فى حديث طويل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله " . . . فان الله قد حرم على النار من قال لا اله الا الله يبتغى بذلك وجه الله " (٣) . وحديث ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه " أو " نفسه " (٤) . وكذلك الحديث الذى أنكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أسامة قتل من قال لا اله الا الله (٥) . الى غير ذلك من النصوص والحكاية التى وردت فى هذه المسألة . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى توضيح هذه المسألة : " وقد عليها اضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم اتفقت عليه الامة ان اصل الاسلام واول ما يؤمر به الخلق شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فهذا يكفى الكافر مسلما والعدو وليا والباح دمه وماله معصوم الدم والمال ثمان كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الايمان وان قاله بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الاسلام دون باطن الايمان (٦) . ويقول العلامة

( ١ ) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب من مات على التوحيد دخل الجنة طعما ،

٢٤٠ - ٢٣٤ / ١ الحديث مطولا .

( ٢ ) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب من مات لا يشرك بالله دخل الجنة ٢ / ٩٤ .

( ٣ ) رواه البخارى فى كتاب الصلاة باب المساجد فى البيوت ١ / ١١٠ عن عتب بن مالك .

( ٤ ) رواه البخارى فى كتاب العلم باب الحرر على الحديث ١ / ٣٣ عن ابى هريرة .

( ٥ ) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب تحريم قتل الكافر بعد قوله لا اله الا الله ٢ / ٩٨ = ١٠١ .

( ٦ ) الشيخ عبد الرحمن بن حسن ال الشيخ ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد

ابن التيم : " ليس التوحيد مجرد اقرار المبدأ بأنه لا خالق الا الله وان الله  
رب كل شئ ومايكه كما كان عباد الاصنام مقرين بذلك وهم مشركون بل التوحيد  
يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له وكمال الانقياد لطاعته واغلاص  
المباداة له وإرادة وجهه الاعلى بجميع الاقوال والاعمال والمنع والعطاء والحب  
والبغى ما يحول بين صاحبه وبين الاسباب الداعية الى المحاص والاصرار عليها ومن  
عرف هذا عرف قول النبي صلى الله عليه وسلم " ان الله حرم على النار من قال لا  
اله الا الله يبتغى بذلك وجه الله " . وقوله : " لا يدخل النار من قال لا اله  
الا الله " وما جاء في هذا الضرب من الاحاديث التي أشكلت على كثير من الناس  
... الى ان قال " فان الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا  
بمجرد القول باللسان فقط فان هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام  
فان المنافقين يتولونها بالسنتهم وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الاسفل  
من النار (١) " . ويتول الشيوخ عبد الرحمن بن حسن ال الشيخ في بيان  
المراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث عبادة بن الصامت " من شهد  
ان لا اله الا الله ... الى ان قال " ادخله الله الجنة على ما كان من العمل " (٢)  
يقول الشيخ : " اي من تكلم بها (عتيدة التوحيد ) عارفا لمعناها عاملا بامتثالها  
باطنا وظاهرا فلا بد في الشهاداتتين من العلم واليتين والعمل بدلولها كما قال  
الله تعالى " فاعلم انه لا اله الا الله " وقوله تعالى " الا من شهد بالحق وهم  
يملكون " اما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما يقتضيه ممن

(١) مدارج السالكين ٣٣٠ / ١ - ٣٣١

(٢) رواه البخاري في كتاب الانبياء باب قوله تعالى يا اهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم

. الآية ١٣٩ / ٤ .

البراءة من الشرك وإخلاص القول والصلح - قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح - فغير نافع بالاجماع " (١) . ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي بعد ان اورد بعض تلك الاحاديث المذكورة التي تحتج بها المرجئة : " الخطأ في هذه الاحاديث . موجه للأفراد الذين لا شك في انهم بلغوا الذروة في حسن الاسلام وكماله ولم يكونوا يدركون تمام الادراك تعاليم القرآن وتوانيسن الاسلام فحسب بل كانوا نوق ذلك يتكيفون بها في حياتهم الواقعية . فالذي آله صلى الله عليه وسلم لهم لا يخش منه ابد انه يجعلهم يتنصون بهتيدة التوحيد ويعتبرون كل ما سواه من الصوامت الأساسية للاسلام وحقه والتزاماته امرا لا لزوم فيه للمسلم . ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم اقتصر على ان يستعرض انتباههم الى جوهر الاسلام وركنه الاساس وهو عقيدة التوحيد وان يذكر لهم ان الغاية الحقيقية التي استهدفتها بعثة الانبياء والرسل هي ان يخرجوا الناس من ظلمات عبودية غير الله الى نور عبودية الله وحده وان سعوا الى ان تصان في الدنيا وفلاحه في الآخرة يكمن في خروجه من عبودية غير الله الى عبودية الله وحده . ومن ادرك هذه الحقيقة السامية وعلم أحسن العلم ان ليس في الدنيا غير الله يملك ولو جانبا يسيرا من الألوهية وان الله هو الواحد الذي يجب على الانسان ان يعبد ويطيعه وينقاد له ويفزع اليه ، من أدرك ذلك يتجنب في حياته بدون ماريب الطرق المتوية المؤدية الى الدمار ويسلك سوا سبيل وتستقيم فطرته فلا يبتغي الا الصدق ولا يتحرى الا سبيل التقوى ولا يمانع انما الزمه الله من الحقوق ولا يقصر في القيام بما فرضه الله عليه من الفروض (٢) . وبذلك نرى أن عقيدة

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٤٠ .

(٢) مفاهيم اسلامية ص ٤٨ . تمريب خليل احمد الحامدي مدير دار الصروة للدعوة الاسلامية .

التوحيد تكفل للانسان سلامة الفكر وسداد الرأى ونزاهة السلوك والاستقامة على الحق وان كان ذلك لا يمنع ان تصدر منه أخطاء وذنوب فى بعض الاحيان بحكم ما هو مفسطور عليه من الضعف الا ان قوة ايمانه سترغمه على التدم عليها والتوبة الى الله وعدم الاصرار . ومن خلال كل ما نرى من تقوى على المصطفى الصحيح لتلك الاحاديث السالفة الذكر ونحوها كما فهمها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الكاملون فى ايمانهم الراسخون فى العلم الذين بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة الكبرى وفهموها فهما صحيحا وعموا ولولا تبها الواسعة الشاملة وما كان احد هم يفهم من هذه الاحاديث ان مجرد الاقرار بعبادة الالهية كاف لضمان الفوز والنجاة للانسان فى الدنيا والاخرة وقد نهىهم الرسول صلى الله عليه وسلم ان ييؤخوا بهذه الحقيقة لعامة المسلمين حتى لا يسيئوا فهمها كما جاء فى حديث أنس رضى الله عنه عندما قال للرسول صلى الله عليه وسلم : « افلا أخبر به الناس فيستبشروا فقال عليه الصلاة والسلام : " اذن يتكلموا " (١) . وقد حصل ذلك لطائفة العرجة ثم امتد خطؤهم الفاحش وسوء فهمهم الى المتأخرين من هذه الامة حين اكتفوا بمجرد التلفظ بمعية الالهية وحسبوا ان ذلك يعطيهم صفة الاسلام الكامل وان لا مانع بعد ذلك ان ينادوا بما شاءوا من النظريات الباطلة والمعتقدات المنحرفة وان يقتربوا ما احبوا من الوان الفسق والفجور وانواع الرذائل والمناصى والبدع والخرافات وقد فاتهم الا نجا فى الاخر بعدون العمل الصالح ( وهو التزام طاعة الله واتباع اوامره واجتناب نواهيه ) فالقران الكريم لا يبشر بالفوز والنجاة والجنة الا من

" (١) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب من مات على التوحيد دخل الجنة ٢٤٠/١ - ٢٤٢ عن قتادة عن أنس بن مالك .

جاء يوم القيامة بالايان والعمل الصالح كما جاء ذلك في آيات كثيرة منها وتلوه  
 تعالى : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات (١) . . . الآية .  
 وتلوه : " ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من  
 تحتها الانهار (٢) . . الآية .

وتدكان من نتائج سوء فهم المسلمين لمعقيدة الألوهية في القرنين الأخيرين  
 بوجه خاص انحرافهم الخطير في السلوك المعطى في مآضى توحيد الطاعة والاتباع  
 ( اى حاكمية الله ) فقد نسوا او تناسوا تلك القاعدة الإيمانية الكبرى " لاطاعة لمخلوق  
 في معصية الخالق " وعملوا او تغافلوا عن معنى قوله تعالى : " اتبعوا ما أنزل اليكم  
 من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء " (٣) . وتلوه تعالى : " وانزلنا اليك الكتاب بالحق  
 مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع  
 اهواءهم عما جاءك من الحق (٤) . . الآية . وتلوه تعالى : " أفحكم الجاهلية  
 يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون " (٥) . وكان نتيجة ذلك ان صرف  
 المسلمون هذا النوع من المعقيدة ( اى الحاكمية ) اومض خصائصها الى فئتين من  
 الناس ولا هما الحكام والولا قواغراهما الأولياء ومشايخ الطرق الصوفية . واما الحكام  
 والولا فقد ازداد انحرافهم في منهج الحكم واخذوا يتوسمون في خطط " الاصلاحات"  
 التنظيمية والادارية والدستورية وكانوا يتبنون النظم والتوانين من الامم الاكبر  
 حضارة منهم . واننا لانكر ان بعض هؤلاء الحكام يصدر عن حسن نية ولكن هذا  
 العمل بدون شك تد مهد الطريق لمن جاء بعدهم من الحكام المارقين الذين

( ١ ) سورة النساء آية ( ٥٧ ) .

( ٢ ) سورة التغابن آية ( ٩ ) .

( ٣ ) سورة الاعراف آية ( ٣ ) .

( ٤ ) سورة المائدة آية ( ٤٨ ) .

( ٥ ) سورة المائدة آية ( ٥٠ ) .

استوردوا النظم والقوانين الوهمية وأحلوها محل شريعة اللّه ونحوها شرع الله عن  
 مجال الحكم والسياسة وكان على رأس هؤلاء مصطفى كمال أتاتورك ثم جاء بعده عدد  
 كثير من أمثاله في أنحاء العالم الإسلامي . وكان علماء المسلمين والمشايع قد  
 لزموا السكوت وعدم الاعتراض بالمرء والمصروف والنهي عن المنكر فيما يخص مسألة الحكم  
 وتحكيم شريعة الله في واقع الأرض وقد رأيناهم يدعون الناس إلى تحقيق عقيدة  
 الألوهية والالتزام بمقتضاها حين يقولون لهم ليل نهار إن من سجد لغير الله  
 فقد أشرك ومن اعتد أن هناك من يخلق ويرزق ويدبر الأمور من دون الله فقد  
 أشرك إلى غير ذلك من الأمور التي تنافي عقيدة الألوهية والوحدانية ولكنهم خوفاً من  
 الفتنة لا يصرحون على ذكر من يحكم بغير ما أنزل الله من رضى بهذا الحكم ، وقد  
 استمرت الحال على هذا الوضع فترة من الزمن ، قامت في أثنائها عوامل أخرى داخلية  
 وخارجية تهد خط هذا الانحراف وتوسعته وأصبح مفهوم الدين ينحصر في أذهان  
 الناس في دائرة ضيقة في شئون حياة الناس وتفصل مجال الحكم والسياسة والتنظيم  
 الإداري عن نطاق توجيهات الدين حتى غاب عن حسامة المسلمين أن تحكيم شرع  
 الله في شئون الحياة العملية من أهم وأكبر مستلزمات عقيدة الألوهية وكان  
 بعضهم إذا حدثته عن ذلك يصرخ في وجهك ويقول لك يا الدين والسياسة ..  
 السياسة لعبة قذرة يجب أن ينزه الدين وأهله من التلطيخ بأدرانها وهكذا  
 توطئ في أذهان الناس عدم قيام علاقة بين الدين والسياسة حين أساءوا فهم  
 عقيدة الألوهية وأصبح الدين في تصورهم وفي سلوكهم محصوراً في زاوية الشرائع  
 التعبدية ومجرد علاقة بين العبد وربه وهو لاخرة وليس لدين الناس وللجانسب  
 الروح والنفس وليس له علاقة بالجانب المادي وبذلك أصبح الناس في حل أن ينظموا  
 شئونهم الدينية كما اتفق لهم وكيفما شاءوا دون أن يلتزموا بمنهج معين ينبثق

عن العقيدة الصحيحة في الله ويقوم على توجيهات الدين ، ونقول لهؤلاء . . . .  
 ان الاسلام كل لا يتجزأ فاما ان يؤخذ كله واما انه لا يتحقق في الواقع ولا تنطبق  
 صفته على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض فينتقص من اجزاء بنائه ويهدم  
 بعض مقوماته الاساسية فهو عتيدة وعبادة وشريعة ومعاملات واخلاق ( اى منهج  
 متكامل لشئون الحياة الانسانية ) ولا فائدة في الاكتفاء ببعض اجزاء بناء الاسلام  
 وترك البعض الآخر " يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات  
 الشيطان انه لكم عدو مبين فان زللتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا ان الله  
 عزيز حكيم " ( ١ ) . " فالأورك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا  
 في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " ( ٢ ) . " ومن لم يحكم بما انزل الله  
 فأولئك هم الكافرون " ( ٣ ) .

واما العلماء ومشايخ الطرق الصوفية والمشفون فقد انحرفوا كثيرا وانحرف  
 عامة الناس باتباعهم فانتشرت بينهم المعتقدات الباطلة والبدع والخرافات والباطيل ،  
 فجاوزوا الحد المشروع في تعظيم من يسمونهم اولياء وصالحين وغلوا في تقديرهم  
 واصبحوا يأتون عند تبورهم واضرحتهم بامور مستنكرة ومناقضة لعقيدة الالهية  
 حيث يطلبون منهم ما لا يطلب الا من الله تعالى ويسألونهم قضاء حاجاتهم  
 سواء كانوا امواتا ام احياء ويتخذونهم واسطة ووسيلة لا يدعون الله الا عن طريقهم  
 ويتفون عند هم شفاء المرضى وتفريج الهم والكرب وزيادة الرزق وجلب المنفعة

( ١ ) سورة البقرة آيتا ( ٢٠٨ - ٢٠٩ ) .

( ٢ ) سورة النساء آية ( ٦٥ ) .

( ٣ ) سورة المائدة آية ( ٤٤ ) .

ودفع الضرر ويعكفون عند القبور والاضرحة والمشاهد للعبادة والتبرك معتقدين ان لهم بذلك عند الله الزلفى والقرى وانهم يثابون على ما يقومون به من النسك والذبايح والصدقات ثريا الى الموت . وكانوا ينسبون الى هؤلاء الاولياء القدرة على التصرف فى شئون الكون فى حياتهم وبعد موتهم كما ينسبون اليهم الكرامات والكشوفات وجعلوا ذلك مقياس تقواهم وقرىبتهم الى الله ودليل صدقهم ووجوب اتباع الناس لهم وكذلك يعتقد هؤلاء الجهال ان من اوليائهم ابدالاً ونقباءً وأوتاداً ونجباً وسبعين وسبعة واربعين واربعة والقطب الذى هو الفوت للناس والذى عليه المدار بلا التباس . الى غير ذلك من معتقداتهم الفاسدة التى اخلت بصفاء العقيدة الاسلامية ونقلتها من حيز القوة الحيوية الدافعة الى مجموعة من الخرافات والخزعبلات والباطيل نتيجة ضعف تفكيرهم وسخافة عقليتهم وجهلهم بحقيقة دين الله وعقائده الناصحة وتحاليمه الرشيدة وأدى ذلك الى ضعفهم وتخللهم فى مضمار الحضارة والرقى والتقدم فى مجالات الحياة .

...



## المبحث الثاني : الانحراف في مفهوم العبادة

ان مفهوم العبادة من أهم المفاهيم الاسلامية التي انحرف فيها المسلمون عبر تاريخهم الطويل ، فقد عانى المفهوم الصحيح للعبادة انحسارا كبيراً وتشويهاً خطيراً في الناحية القصورية الفكرية والناحية العملية السلوكية من حياة المسلمين منذ قرون طويلة .

والعبادة - كما يقررها الاسلام وكما فهمها المسلمون الاولون في العهد الاول من تاريخ الدعوة الاسلامية - هي الغاية العليا التي خلق الله الجن والانس من أجلها . وهي مهمتهم في الارض . قال الله تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (١) . يقول الاستاذ ابو الاعلى المودودي في بيان معنى العبادة وحقيقتها : " ان تصور العبادة هي حقيقة تصور شامل يكتسب بامتزاج تصورين ضمنيين هما العبودية والتسك . اما العبودية فمعناها ان يقر الانسان بالكبرياء والجبروت في قوة أعلى ثم يطيعها ويسلم لها قيادته . واما التسك فمعناه ان يعتبر الانسان في قوة أعلى تداسة وعصمة وسموا ثم يطاقى لها رأسه ويؤدى لها العطاوس وينذر لها النذور والقرابين (٢) " . ويتابع حديثه ويقول : " ان التوحيد بين العبودية والتسك هو الذي يمتاز به الانسان عن سائر مخلوقات الله في الارض وبه ينال عليها الفضل وينضمها للمكانة التي قال الله عز وجل عنها إنها خلافة في الارض . ومعنى عبودية الانسان لله تعالى انه متذلل له خاضع لآتونه

(١) سورة الذاريات اية (٥٦) .

(٢) مفاهيم اسلامية ، شكري خليل احمد الحامدي ص ١٢٠ .

فطرته بدون قصد ولا معرفة وفي هذا لا يختلف الانسان عن سائر مخلوقات الله ،  
ثم اذا استخدم هذا الانسان ما عنده الله من حرية الارادة والاختيار وما وهبه  
من قوة العلم والادراك لكي يعرف الله الذي خلقه ثم يحمده ويطيعه في كل ما شرعه  
لعباده من الدين فقد جمع بين العبودية والتنسك ونال الشرف والفضيلة  
على سائر المخلوقات واستحق منزلة الخلافة في الارض (١) . ويوضح الاستسكان  
المورد في معنى التنسك وحقيقته بذكر امرين لا يتحقق التنسك في صورته الكاملة  
الا بهما ، أولهما " أن يعرف الانسان معبوده الحقيقي معرفة خالصة لا تشوبها  
ادنى شائبة للشرك او الكفر او الجحود او الريب والشك ، ولا يخاف معها  
أحدًا غيره ولا يطمع في انعامه ولا يتوكل على قوته ولا ينسب اليه الالهية او الربوبية  
ولا يرجو منه نفعًا او ضرًا ولا يتعلق به علاقة الجود بمعبوده فهذا هو ٢ الايمان " .  
وثانيهما : ٣ أن يطيع فيما يخص (يختص) بحياته الاختيارية الحكم الخلق لهذا  
المعبود كما يطيع حكمه الطبيعي فيما يخص (يختص) بحياته الاجبارية حتى يصير عيانه  
بناحيتهما قائمة على منهج الله سائرة على هديه وشرائعه وتحاليله وتكون مصطفية  
بصفتها بحيث لا يبدو فيها شيء من التخالف والتناقض من أى جهة من الجهات  
فهذا هو العمل الصالح " (٢) . ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية في بيان معنى  
العبادة وداثرتها الرحمة التي تشمل شئون الانسان كلها وتستوعب نواحي الحياة  
كلها : " العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال  
الباطنة والظاهرة . فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث واداء الامانة  
وبر الوالدين وصلة الارحام والوفاء بالعهود والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) مناهج اسلامية ص ٢٥-٢٦ (بتصرف بسيط) .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩-٣٠ (بتصرف بسيط) .

والجهاد للكفار والمنافقين والا حسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبييل  
والمملوك من الادميين واليهائم والدعاء والذكر والتراة وامثال ذلك من  
العبادة . وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والانابة اليه واخلاص الدين له والصبر  
لحكمه والشكر لنعمة والرضا بفتائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه  
وامثال ذلك هي من العبادة لله " (١) . ويقول في موضع آخر عن شمول معنى  
العبادة لاعمال الانسان في الحياة الطارئة من الاخذ بالاسباب ومراعاة السنن  
التي افاد الله عليها الكون : " فكل ما أمر الله به عباده من الاسباب فهو عبادة " (٢) .

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا المفهوم الصحيح للعبادة كما بينه كتاب الله  
وشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فهمه المسلمون الاولون وعاشوا حياتهم  
كل لحظة من لحظاتها وكل حين من احيائها في دائرة العبادة الواسعة ومجالاتها  
الفسحة . وقد فهم المسلمون الاولون ان خوفهم لله تعالى في كل شأن من شئون  
حياتهم وابتغاءهم مرضاته في كل اعمالهم واتباعهم شريعة الله وسيرهم على منهجه  
وصدورهم عن مقتضى امره فيما يفعلونه او يدعون من الاعمال وصبرهم على كل ما ينالهم  
في سبيل طاعة ربهم ورفضهم كل ما يخالف امر الله كل ذلك يجعل اعمالهم وتصرفاتهم  
في كل لحظة من لحظات حياتهم عبادة لله تعالى . وبذلك كانت حياتهم من  
اولها الى آخرها عبادة لله تعالى وفي حياة تلك صفاتها ومقاماتها . لا يكون الاكل  
ولا الشرب ولا النوم واليقظة ولا التمرد والقيام والمشى ولا الكلام والسكوت  
والفكير ولا العمل والسمى الا من عبادة الله تعالى . وكما كانوا يعبدون الله حين  
يؤدون عباداتهم المفروضة من صلاة وزكاة وصوم وحج فكذلك كانوا يعبدونه حين يتخلون

(١) المبدئية ص ٣٨ ، طه المكتب الاسلامي .

(٢) نفس المصدر ص ٧٣ .

عن الحرام في حياتهم ويتلمسون الحلال ويرضون بما قسمه الله لهم وحين يتجنبون الظلم والكذب والفش والفحش ويلتزمون بالصدق والامانة والعدل والخير وحين يماطلون الناس بالحسن ويؤدون اليهم حقوقهم ولا يبخسونهم شيئاً <sup>منها</sup> وحين يتماطلون انواع التجارة والصناعة ويؤمنون بالخدمات ويؤدون الواجبات . كانوا يعبدون الله حين يفعلون ذلك كله لأنهم لا يفعلونه الا لان الله يحبه ويأمرهم به ، انهم يصدرون عن مقتضى امر الله ويراعون احكامه وشرائعه ويتفنون وجهه ومرضاته في كل شأن من شئون حياتهم ، فالذي يقض حياته على هذا الطريق تكون لحظات حياته كلها في عبادة الله . هذه هي العبادة في معناها الحقيقي ومفهومها الصحيح وهدف الاسلام حين يدعو الناس الى عبادة الله هو ان يعيشوا اللحظات حياتهم كلها في عبادة الله على هذا المعنى الواسع الشامل وليس هدفه ان يخصص الانسان دقائق معدودة او سبوعات محدودة من حياته اليومية لبعض الساعات المبادات المفروضة ليحيا في اجوائها بنفحات المعبودية وحلاوة التقرب الى الله ثم يحدها ينقطع عن عبادة الله في بقية لحظات حياته ومجالاتها (١) . وهذا المفهوم الصحيح للعبادة هو معنى قوله تعالى : " ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " (٢) . فالعبادات المفروضة المفروضة من صلاة وزكاة وصوم وحج وذكر وتسبيح ودعاء ونحوه ان هي الا تمرينات تربوية تعد الانسان نفسيا وروحيا للعبادة الكبرى التي تسمى بحياته السنية أرفع درجات الحياة الانسانية وتجعله في كلتا حالتيه الاجبارية والاختيارية خاضعا لله مطيعا لا وامره منفذا لارادته في جميع حركاته وسكناته (حسب استطاعته) يعيش

(١) انظر مبادئ الاسلام للمودودي ص ١١٧-١١٩ ، و " مفاهيم اسلامية " للمؤلف نفسه ص ٢٩-٣٢ .

(٢) سورة الأنعام آيتا (١٦٢-١٦٣) .

في دائرة المبودية الرحبة في جميع نواحي حياته (١) . ومن هذه الناحية حظيت هذه العبادات بأهمية كبيرة في الاسلام حيث جعلت اركاناً اساسية لبناء الاسلام كما اعتبرت غرائض وتكاليف لا يتم بناء الحياة الاسلامية الا بها . وهكذا فهم الاولون من المسلمين العبادة على اوسع معانيها وفي شمولها للدين كله كما تقدم في كلام الشيخ ابن تيمية ولنواحي الحياة الانسانية كلها ولكيان الانسان وروحه وقلبه وجوارحه (٢) . وبهذا الفهم الشامل الكامل الذي تعمق في قلوب الاولين شملوا عن ساعد الجد وواصلوا مسيرتهم الميمونة لبلوغ اعلى درجات العبادة في شتى مناحي الحياة فاخلصوا دينهم لله واجهدوا انفسهم للوفاء بما عاهدوا الله عليه وقصدوا وجه الله تعالى ومرضاته في جميع امورهم واعمالهم فعاشوا حياتهم كلها في عبادة ربهم وطاعته ولم يكتفوا بتطبيق تعاليم الدين والتزام منهجه وشريعته في ذوات انفسهم وفي مجتمعهم المحدود بل سمووا بجهد وعزم بالغين لنشر دين الله وتنفيذ اوامره وارادته في العالم كله . ولم يقتنعوا بما كانوا يتمتعون به في ظلم الاسلام من السعادة والامن والاستقرار بل جاهدوا جهاد المستميت في سبيل نشر الحق واقرار الامن والاستقرار في المجتمعات البشرية من حولهم لانقاذها مما ترزح تحته من الوان الذل والهوان والظلم والفساد وتخليصها من قبضة الطغاة المتجبرين وانظمتهم الظالمة وقدموا في سبيل ذلك أمثلة رائعة من التضحية والتفاني فكان جزاؤهم في الدنيا هو ما بينه الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهن دينهم الذي ارتضى <sup>لهم</sup> وليبدلنهم من بعد خوفهم " امنا يعبدون لا يشركون بي شيئاً (٣) . .

الاية .

- (١) انظر الاستاذ محمد قطب : " هل نحن مسلمون " ص ٤٤-٤٥ .  
 (٢) راجع كلام العلامة ابن التيم حول قواعد العبادة ومراتبها واستيعابها للنشاط البشري كله وشمولها لكيان الانسان كله في مدارج السالكين ١/ ٩٠ ( وما بعد ها .  
 (٣) سورة النور آية (٥٥) .

هذا هو الأفق الأعلى الذى وصل اليه الاولون فى فهم العباد وتطبيقها على  
أوسى معانيها فى واقع حياتهم كما رأينا ثم اننا نلاحظ منذ عصور طويلة من  
تاريخ هذه الامة ان هذا المفهوم الصحيح للعبادة قد عانى (لا يزال يعاني )  
انحسارا خطيرا وتشويها كبيرا فى الناحية الفكرية التصورية والناحية العملية  
السلوكية معا ، فقد وقع المسلمون فى خطأ كبير فى فهم العباد على حقيقتها  
ومعناها الصحيح وحصرها فى نطاق محدود وضيقوا مجالاتها الواسعة  
وابعدوا معظم مقوماتها الاساسية عن مقاصدها وغاياتها وبذلك تبدلت صورة  
العبادة الصحيحة وتحولت الى صور ناقصة ومنحرفة مشوهة تحوى نسبة هائلة  
من ملامح ومقومات الصورة الأصلية للعبادة قد اضيفت اليها مجموعة من  
أخلاق وعناصر غريبة تتناقض مع عقائد الاسلام ومبادئه ومبادئه .

فلننظر الان متى بدأ هذا الانحراف فى الظهور وكيف أخذ فى التزايد  
والانتشار حتى غطت ، مظاهره أجواء الحياة الاسلامية وأدى ذلك مع مرور  
الزمن الى هذه الحالة السيئة التى يعيشها المسلمون اليوم فى أنحاء العالم  
الاسلامى .

(١)

بدأ الانحراف فى مفهوم العباد منذ العصر العباسى حين ظهرت الصوفية  
فى الحياة الاسلامية رد فعل لا تكبى الناس على الدنيا وانغماسهم فى حياة العزف  
والعزلة والمجون وانصرافهم عن الاهتمام بالدار الآخرة . ولكن رد الفعل نفسه  
كان انحرافا آخر خطيرا لان الصوفية تنهت نظرة عدائية للحياة الدنيا وتدعو  
الى الانحزال عن ركبها وتصر نشاط الانسان وعمله فى الحياة على جانب التربية  
الروحية النفسية والتطهر الخلقى وكان من نتائج ذلك كله انحصار مفهوم

(١) كلامنا عن الصوفية هنا وفى جميع المواضع التى وردت فيها لفظة الصوفية  
او المتصوفين فى هذا البحث انما نقصد بها تلك التى لم تأخذ بمنهج  
القران الكريم والسنة المطهرة فانحرفت عن جادة الطريق قليلا او كثيرا .

العبادة في دائرة الشعائر التعبدية والاذكار والبراسم واعتبار مجالات الحياة المتعددة خارجة عن نطاق العبادة لان الدنيا ملعونة وملعون ما فيها وليس ينقذ الانسان من شر الدنيا الا الهزوف عنها والفرار منها والابتال على الاخيرة . وقد ادى هذا الانحراف الى انتسام الناس في المجتمع المسلم الى فئتين كبيرتين كل منهما يسوء فهم العبادة على حدة بآثارها ومعناها الصحيح وينظر الى الدنيا والاخرة نظرة غاطئة وكانت الفئة الاولى تعد نفسها صالحة بانصرافها الى انواع الشعائر والقربات وتركها الدنيا ومجالاتها الواسعة التي يعتبر الاسلام المممل فيها من العبادة والطاعة اذا حسنت النية وتصد به وجه الله تعالى . وأما الفئة الثانية فقد أخذت الى الحياة الدنيا وهي مفعونة بشهواتها وزخارفها فآلهاها ذلك عن جانب كبير من مهام الدين وصرفها عن الاهتمام بالممل للاسلام وتضايها المسلمين .

وهكذا أقبل العامة بقيادة المتصوفين على الطقة وسروا ولا وراة واتبل الحكماء ومن في حواشيهم موركابهم على الشهوات والملذات . وهذا الخلط الصوفي الاحمق يعتبر اول صدع أصاب التفكير الاسلامي في صميمه بل اول تصدع أصاب كيان الامة الاسلامية - فيما بعد - بالانهيار " (١) . والواقع ان مجموعة كبيرة من الناس لم ينتطعوا عن الدنيا والممل فيها ولكن نظرتهم الى الحياة المادية كانت مشوبة بافكار الصوفية السقيمة وكان احساسهم حين يقومون باعمال دينوية أنهم خارجون عن دائرة عبادة الله مخربون في الناحية المذمومة من الحياة لانهم لا يرون انفسهم يعبدون الله ويطيعون امره حين يعملون في مجالات الحياة المادية لان العبادة في نظرهم تقتضي الانتطاع الكامل عن الدنيا بكل ما فيها

---

(١) الشيخ محمد الفزالي : الاسلام المفترى عليه ص ٦٨ .

لا خلاص الوجه والتلب والعمل لله والتفرغ لأنواع الشعائر والازكاز والقرابات لنيل  
 الآخرة . وهكذا نرى كيف أُنسَدَت أفكار التصوف نظرة المسلمين إلى الحياة الإنسانية  
 - كما رسم خطوطها القرآن - ونرى كذلك كيف أُنسَدَت عقل المسلمين بدنيهم  
 وعلمهم له ، وكانت لذلك آثاره السيئة في نواحي حياة الأجيال الإسلامية المتأخرة (١).  
 وإن الانقسام التدريجي الذي بدأ يظهر في الحياة الإسلامية منذ ظهور  
 الصوفية وانتشار أفكارها الخاطئة بين الناس قد كان الدعاة إليه والحاملون لتمكينه  
 في المجتصم يتخذون له حجة وسندا من عمل الفقهاء المتأخرين في تقسيم أحكام  
 الشرع إلى " عبادات " و " معاملات " ( أي أعمال تعبدية محضة وأعمال أخرى  
 تتعلق بالنشاط الاجتماعي والاقتصادي وما إلى ذلك ) . وقد أصبح هذا  
 التقسيم فيما بعد دعامة قوية يستند إليها هؤلاء المنحرفون في مفهوم العبادة  
 فازدادوا انزواءً عن الحياة الدنيا وازداد الانقسام المطلق ظهوراً وتمتد في  
 الحياة الإسلامية . هذا ولم يكن تصد الفقهاء المتأخرين في هذا التقسيم  
 الدلائل على أن بعض نشاط الإنسان عبادة وأن البعض الآخر خارج عن نطاق  
 العبادة ولا أن الجانب التعبدى المحض هو الطزم للامة وأن الجانب الآخر  
 المتعلق بالنشاط الاجتماعي والاقتصادي وغيرهما غير ملزم لهم . ولكن علمهم في  
 هذا التقسيم إنما هو لمجرد اعتبارات فنية واصطلاحية تتضيها طبيعة التصنيف  
 والتأليف العلمى وكان تصد هم مجرد التفريق بين نوعين من الأحكام الشرعية لبيان  
 أصولها وصورها وموقف الشارع منهما . فالنوع الأول يضم الصور والكيفيات المحددة  
 التي شرعها الله تعالى ليتقرب عباده إليه بأدائها فالمنشئ لهذا النوع من  
 العبادة والامر به هو الشارع الحكيم وليس من حق غيره أن ينشئ أو يستدع صوراً

( ١ ) اقرأ فصل " علوم الحياة ونشاطها " في كتاب كيف نفهم الإسلام للشيخ محمد  
 الغزالي ص ٤٨-٧٢ .



للعبادۃ من عند نفسه وأما الفرع الثانى فهو يشمل الاحكام التى تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض فى حياتهم ومعاشهم فالعباد هم المنشئون لهذه العلاقات ولكن مهمة الشارع هى أن يعد لها ويهذبها ويقر الصالح والنافع منها ويمنع الفاسد الضار . يقول الشهيد سيد قطب حول مسألة التسييم والاثار السيئة التى نتجت عنها فى الحياة الاسلامية من الناحيتين التصورية والمطلية : " ان تسييم النشاط الانسانى الى عبادات و " معاملات " مسألة جاءت متأخرة عند التأليف فى مادة " الفقه " ومع انه كان المتصور به فى اول الامر مجرد التسييم " الفنى " الذى هو طابع التأليف الملقى الا انه - مع الاسف - انشأ فيما بعد اثارا سيئة فى التصور تبعته - بعد فترة - اثار سيئة فى الحياة الاسلامية كلها ان جعل - يترسب فى تصورات الناس ان صفة ( العبادۃ ) انما هى خاصة بالنوع الاول من النشاط الذى يتناوله " فقه العبادات " بينما اخذت هذه الصفة تبهتها للناس الى النوع الثانى من النشاط الذى يتناوله " فقه المعاملات " . ان ذلك التسييم - مع مرور الزمن - جعل بعض الناس يفهمون انهم يملكون ان يكونوا " مسلمين " اذا هم اداوا نشاط " العبادات " وفق احكام الاسلام بينما هم يزاولون كل نشاط " المعاملات " وفق منهج آخر لا يثلقونه من الله ولكن من اله آخر هو الذى يشرع لهم فى شئون الحياة ما لم يأذن به الله . وهذا وهم كبير فالاسلام وحدة لا تنقسم وكل من يفصمه الى شطرين - على هذا النحو - فانما يخرج من هذه الوحدة او بتمبير آخر يخرج من هذا الدين " (١) .

لقد استمر انحراف المسلمين فى مفهوم العبادۃ طوال العصور الاسلامية الطويلة وكان المفهوم الصحيح يمانى انحسارا وتقلصا يوما بعد يوم حتى اصبحت

(١) خصائص التصور الاسلامى ومثوماته ص ١٣١-١٣٢ .

صورة العبادة الناصحة مشوهة وقد غشيتها كومة من الفبرة كادت تخفى معالمها الأساسية وبلغ الامر مداه من السوء والخطورة في اواخر العهد العثماني وفي القرنين الاخيرين بوجه خاص حين امتد خط هذا الانحراف واتسعت دائرته حتى شملت افاق الحياة الاسلامية كلها فانتهت العبادة في تصور المسلمين وفي واقع حياتهم العملية الى صورة مشوهة منحرفة هيئيلة لا تحمل في عناصر تركيبها الا نسبة ضئيلة من العبادة الحقة مزوجة <sup>بمجموعة</sup> من البدع والخرافات والباطيل .

واذا استعرضت صورة عامة لما تحولت اليه العبادة في حياة المسلمين تجد تشويها كبيرا لحقيقة العبادة وانحرافا خطيرا عن معناها الصحيح الذي شرره الاسلام وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله ثم عاش حياته الظاهرة كل لحظة من لحظاتها في عبادة الله وطاعته وكذلك صحابته الكرام وفي حياة المسلمين المتأخرين اصبحت العبادة متصورة على الشوائب التعبدية وتهدد وجهها اهتماماتهم اليها وصرفوا اليها وجوههم وتوليهم وقواهم وكانها هي العبادة كلها . وقد انمزلوا عن بنية المتومات الأساسية للعبادة واعتقدوا ان انواع الصعافات والعلاقات العامة في الحياة الانسانية لا علاقة لها بعبادة الله بل هي من فضول الاعمال التي يشغل الانسان عن الله وعن عبادته وطاعته . وبذلك ترك الناس كثيرا من مهام الدين في مجالات الحياة العامة مما يعتبره الاسلام من اهم انواع العبادة كالجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة الظلم ورد الطغیان والنظر في الكون والتفكير في آيات الله وسننه واتخاذ الاسباب وعمارة الارض وما الى ذلك من الامور المهمة . وقد ابتدعوا في دين الله صورا متعددة من العبادات والقرابات كصيام ايام مخصوصة لم يرد الامر بصومها واختراع ادعية واورد وانكار يلتزمون بها ويجهدون انفسهم بترديدها باعداد

كبيرة في ساعات الليل والنهار وممارسة الهان من الامور البدعية عند قبور الاولياء  
والصالحين "وكانوا يدسون الموى ويخالون في احترامهم وينذرون لهم النذور  
ويذبحون لهم الذبائح ويشدون الرحال الى قبورهم ويمكثون عليها ويتمسحون  
بها ويتخذون عند هذه الاعياد والمراسم والاحتفالات ويطلبون من اوليائهم قضاء  
حاجاتهم من جلب رزق او دفع ضرة . وقد غدت العبادة بهذه الصورة المنحرفة  
المشوهة تشغل حيزا كبيرا من حياة الانسان بحيث لا تبقى مكانا للعبادة الحقة  
والاهتمام بمقوماتها الاساسية . كما ان المقاصد الحقيقية للعباد قواياتهم  
السامية التي تحتها في الحياة الانسانية تحولت الى امور معنوية بعييدة  
المنال واخرى خيالية حيث ان العباد المثبتين والمرشدين الاقطاب يفرسون في  
نفوس اتباعهم ويوجهونهم الى ان الغاية العليا التي ينبغي ان يسموها ويتفانوا  
في سبيل بلوغها بعبادتهم هي "الوصول الى الله والى المعرفة" وخصول  
"الفتوح والكشوفات الربانية" كما يفرسون في نفوسهم ان العبد لا ينال ولاية الله  
له الا بالتقوى والتماوت في العبادات المخصوصة والاعمال الفردية التي انحصرت  
فيها العبادة الحقيقية عندهم كما تقدم بيانها . وية ولون لا تبايعهم ان من  
علامات ولاية الله لعبد من عباده فعل الخوارق والكرامات وهو مقياس التقوى والصالح  
وهو دليل بلوغ العابد اعلى منازل العبادة ونيله شرف الولاية وبذلك يستحق  
اتباع الناس له ويكون اهلا لضمان النجاة له في الآخرة . ولقد اسرف كثير من الشيوخ  
المتصوفين في دعوى محبة الله وولايته لهم حتى لا تبلغ الامر ببعضهم الى ان  
يدعوا دعاوى عريضة تتنافى مع مقام المبودية وكانوا يطلبون امورا عظاما لا يجوز حتى  
للانبياء والمرسلين ان يطلبوها فضلا عن هؤلاء الجهلاء الحق . وهذا باب وقع  
فيه كثير من الشيوخ المتصوفة واسباب ذلك ضعف تهذيب المبودية وضعف المثل

الذى يعرف به المبد حقيقته . يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " وكثير ممن  
 السالكين سلكوا في دعوى حب الله انواعا من امور الجهل بالدين اما من تعدى  
 حدود الله واما من تضييع حقوق الله واما من ادعاء الدعاوى الباطلة التى  
 لا حقيقة لها كقول بعضهم : اى مريد لى ترك فى النار احدا انا بريء منه فقال  
 الاخر : اى مريد لى ترك احدا من المؤمنين يدخل النار فانما منه بريء . قالوا  
 جعل مريده يخرج كل من فى النار . والثانى جعل مريده يمنح اهل الكبائر  
 من دخول النار . ويقول بعضهم : اذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم  
 حتى لا يدخلها احد ، وامثال ذلك من الاقوال التى تؤثر على بعض الشايخ  
 المشهورين هى اما كذب عليهم واما غلط منهم . . . . الى ان قال : وكثير ممن  
 يدعى المحبة يخرج عن شريعته وسنته صلى الله عليه وسلم ويدعى من الحالات  
 ما لا ينسج هذا الموضع لذكره حتى قد يظن اعداهم سقوط الامر وتحليل الحرام  
 له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسنته وطاعته (١) .

وهكذا نرى من خلال ما تقدم كيف كان انحراف المسلمين فى الفهم — و  
 الصحيح للعبادة وكيف حصروا دلولاتها الواسعة الشاملة فى نطاق ضيق محدود  
 لا يتجاوز بعض انواع العبادات المخصوصة ومجموعة من الطقوس والمراسم  
 التعبدية ولا يتناول الا جانباً ضيقاً من مجالات الحياة الانسانية ، وكانوا  
 يحسبون ان من أدى العباد تعلقى هذا المسمى الضيق والمفهوم الخاطئ\* فقد  
 أدى حق العبادة لله تعالى واصبح فى عداد العابدين الذاكرين لله والمصطفين  
 الاخيار من خلقه . وقد وقع فى هذا الخطأ الجسم عامة المسلمين وخاصتهم .  
 اما الخاصة فقد انتظموا الى العبادة فى مفهومها الخاطئ\* واخذوا سبحانه وسجداتهم

(١) المبدية ص ١٢٩-١٣١ المكتب الاسلامى .

وانحازوا الى خاصة انفسهم وتبعوا في حجراتهم وفي زوايا المساجد يؤدون  
العبادات المفروضة ويتبعونها بالصلوات النافلة في ساعات الليل والنهار وصيام  
الطوع ويتحجبون بالانكار والاوراد والادعية المأثورة والمخترة المتدعة ويتسرون  
القرآن آناً الليل واطراف النهار ولكن لنيل ثواب التلاوة فقط وقد يختم احدهم  
القرآن في يوم وليلة وبعضهم في ثلاثة او سبعة ايام ومنهم من يلتزم ذلك طـمـسـول  
حياته لا يتوانى فيه ولا ينتطح وكذلك يقرأون احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم  
ويدرسون سيرته العطرة وسيرة اصحابه الكرام ولكن لمجرد التبرك والاعجاب بروعة  
القصص والاخبار ، انهم لا يجدون في قراءتهم لايات القرآن الكريم واحاديث  
الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في دراستهم لسيرته ما وجدته الاولون من قوة وحيوية  
دفعتهم الى القيام بواجبات الدين ودعوة الناس الى الخير والامر بالمعروف  
والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله بكل ما يملكون من نفس ونفيس . ان هؤلاء  
الاولياء والائمة الصوفية والعلما العابدين قد انتمزلوا عن ركب الحياة واستغفروا  
في العبادات المخصوصة والاعمال الفردية مغلقة على انفسهم ابواب بيوتهم  
مغمضين عيونهم في بلاهة وجهل عما يجري من حولهم في واقع مجتمعهم البائس  
الضلل الذي عمته ظلمات متراكمة من الشر والظلم احاطت بالجهل والضلال  
بالناس في فكرهم وعلوهم وسلوكهم وكادت السيول الجارفة من الفسق والفجور والانحلال  
تبلغ الزنى على مرأى من هؤلاء العباد المتبتلين ومسمع وهى تناطح جدران بيوتهم  
وتطاولها وتحاول ان تهجمها عليهم ولا يزيدهم ذلك الا هروبا عن الدنيا وتضايضا  
المجتمع وانزوا الى خاصتهم تاركين ميدان الحياة للطفافة الجبابة فيسيطروا على  
مآلئد الامور في المجتمع ونشروا افكارهم ومعارفهم المضللقوطأ طأت لهم الرؤوس ،  
وخضعت لهم الرقاب فقال هؤلاء الضعفون المارقون والطفافة الجبابة السيادة

والقيادة في الارض في حين ترى العباد المبتلين الذين يعبدون الله على فهمنا صومعنى خاطئ\* ويحسبون انهم يؤدون العبادة على أكمل وجهه ، ويستوفونها حقها غير منقوص / <sup>نراهم</sup> يجرون اذيال الذل والهوان ليس لهم حظ من الدنيا ولا لهم نصيب من سياد العالم لا رض وقيادتها ولا يحظى دينهم بالتمكين والظهور ولم يتحقق لهم الامن والاستقرار ، وان اكان وعد الله لعباده المؤمنين الذين يعبدون الله حق عبادته ويعملون الصالحات هو استغفارهم في الارض ، وتمكين دينهم وتحقيق الامن والاستقرار لهم وكان حال هؤلاء العباديين هو ما وصفناه سابقا - مع العلم ان وعد الله لعباده لا يتخلف ولا يتبدل - افلا يكون ما أصاب هؤلاء من ذل وهوان وضعف وتخلف وخذلان امام أعدائهم هو نتيجة عدم تحقق الشرط الرباني فيهم وهو انهم لا يعبدون الله حق عبادته وعلى الوجه الذي يريد الله تعالى وكما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام بيانا شافيا ؟ . واما العامة فقد بلغ بهم الجهل بالدين مداه حيث لا تشغل العبادة من حياتهم اليومية الا دقائق معدودة أو سويما تمحوردة يتومنون خلالها بانواع الشعائر والطقوس والمراسم والبدع والخرافات ويقضون بتيه اوثانهم في مختلف مجالات الحياة في حل من عبادة الله وطاعته . فتراهم يسيرون في اتجاهات متناقضة لمنهج الله وهم يهيمون ويحكمون من دون الله اولياء وينكسون رؤوسهم لكل اله من الالهة الباطلة من اهلواء وتقاليد واعراف وطواغيت ، ويتعدون حدود شرع الله ولا يأترون بامر ولا ينتهون الى نهيه ، ويجترحون السيئات والمنكرات من الكذب والخيانة والفسخ ويفسدون في الارض ، ويمشون بين الناس بالخيبة والنميمة ، وينكثون العهد والمواثيق ، ويستحلون المحارم ، ويظلمون الضعفاء ، ويخسونهم حقوقهم ، ولكنهم حين يفعلون ذلك كله يحسبون انهم مسلمون

حقيقيون عابدون الله مخلصون له الدين لانهم يؤدون الصلوات الخمس ولو أداء آليا لا روح فيه ولا معنى ويترأون القرآن ولو مجرد قراءة لا تتجاوز اللسان والحلقوم ولا يصحبها تدبير لمعاني الايات وعمل بها فيها من شرائع واحكام وتوجيهات وآداب ولا نهم يصومون شهر رمضان ويؤدون زكاة بمعنى اموالهم ويؤدون فريضة الحج وسنة العمرة بالاضافة الى ما تقدم بيانه مما يقومون به من الطقوس والمازسم والا ذككار والادعية والمزارات والتزيات والنذور والاحتفالات . وقد وصل بهم الامر من السوء حتى جعلوا هذه الامور بدلا عن اخذ الاسباب المشروعة لتحقيق الفايات المادية فواقع الحياة فكانوا يكتفون بهذه الامور من صلاة النوافل وصيام التطوع وقراءة الادعية وقراءة القرآن كله او بعض سورة لجلب الرزق بدل السعى والحمل ولطلب الشفاء بدل استعمال الدواء ولطلب النصر على الاعداء بدل اعداد القوة للجهاد وقد يلجأون الى انواع الرقى والتائم والطلاسم والتملكات وزيارة بعض الامكنة الخاصة من اجل التماس المنفعة ودفع الضرر عن انفسهم . وقد نسوا أو تناسوا ان المسلمين الاوائل كانوا يتخذون الاسباب المشروعة لتحقيق امورهم الدنيوية ، كانوا يعدون لكل امر عده بكل ما أوتوا من قوة وعلم وخبرة كما أمرهم ربهم ثم الى جانب ذلك كانوا يدعون الله ويبتهلون اليه ويتقربون اليه بما يحب من صلاة وصيام ودعاء وأعمال صالحة يرجون بها رحمته ويبتغون بها فضله ونصره وتأيدده . وهكذا كان الاولون يجمعون بين الامرين مما كما علمهم الله في كتابه العزيز . يقول الله تعالى : " واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بيه عدو الله وعدوكم (١) . . . الآية . وقال تعالى قبل ذلك : " :

" يا أيها الذين آمنوا إذا لم يمت فئة فاشتبوا واذكروا الله كثيرا لحكمم تفلحون " (١) .  
ويقول الله تعالى : " فإذا عزمتم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين " (٢) وتوله  
تعالى : " يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسموا إلى ذكر  
الله . . . . . إلى قوله تعالى " فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض واقتربوا لله  
من فضل الله واذكروا الله كثيرا لحكمم تفلحون " (٣) .

...

---

( ١ ) سورة الانفال آية ( ٤٥ ) .  
( ٢ ) سورة آل عمران آية ( ١٥٩ ) .  
( ٣ ) سورة الجمعة آيات ( ٩ - ١٠ ) .



المبحث الثالث :

## الانحراف في مفهوم القضاء والقدر

ان الايمان بالقضاء والقدر أصل من أصول الايمان الستة ، ولا يتم ايمان المسلم الا بالتسليم للقضاء والقدر والقيام بالمعبودية الواجبة لله والتوكل عليه والرضا بما كتب والصبر على ما يصيب العبد من مكروه . قاله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق وهو المليم بكل شئ \* المحيط بدقائق الامور وجلائلها ومبتدئها ومنتهائها المدرك لمستقرها ومستودعها \* ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير \* (١)

" عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصفر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين " (٢) وكل شئ في هذا الكون بقضاء الله وقدره وهو خالق كل شئ " انا كل شئ \* خلقناه بقدر " (٣) وخلق كل شئ \* فقدره تقديرا (٤) " والذي قدر فهدى (٥) " ولا يقع في هذا الكون الا ما يريد به سبحانه وتعالى وكل شئ \* مسطور في سجلات علمه الدقيق المحيط \* ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير (٦) " وعن عبد الله ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة " وزاد ابن وهب " وكان عرشه على الماء " (٧) . الى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من الأدلة القاطعة

(١) سورة الطك : آية (١٤)

(٢) سورة سبأ : آية (٣) .

(٣) سورة القمر : آية (٤٩) .

(٤) سورة الفرقان : آية (٢) .

(٥) سورة الأعلى : آية (٣) .

(٦) سورة الحديد : آية (٢٢) .

(٧) أخرجه مسلم في كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى . ٠٠ ٢٠٣/١٦

على قدرة الله تعالى وخلقه كل شيء \* وكتبه مقادير الخلق وعلمه الواسع المحيط  
وارادته ومشيئته النافذة .

ولقد كان المسلمون الاوائل على فهم عميق بمقيدة القضاء والقدر وكانوا  
على ادراك تام لمدلولاتها الواسعة بحيث لا يشوب ايمانهم بها لبس أو غموض  
أو نقص أو تشويه . وقد فهموا أن كل شيء في هذا الكون بقضاء الله وقدره وأن الله  
عليم بكل شيء أزلا وأبدا . لا يخفى عليه شيء ولا يند عن علمه مثقال ذرة في الأرض  
ولا في السموات ، وكذلك علموا أن اقدار الله تجري على الناس وفق سننـــــــــــــــــه  
الثابتة التي أوضحها لهم ، وبذلك وضع لهم ان الارادة الالهية ليست  
كخبط المشوا ولا هي المصدف العمياء انما لاتتم بدون قيام المقدمات التي  
رتب الله عليها حصول النتائج ، ولكن هذه النتائج لا ترتب على قيام المقدمات  
والاسباب بصورة حتمية انما تتعلق بالمشيئة الالهية ، كما أن هذه المشيئة  
الطليقة يمكن ان تنشئ الامور انشاء بلا مقدمات ولا اسباب . ولم يفهم هؤلاء

المسلمون الاوائل أن معنى صفات الله تعالى من الخلق والعلم والمشيئة والارادة  
والقدرة على كل شيء هو أن البشر امام الارادة الالهية كالريش في الهواء لا كيان  
لهم ولا تماسك ، وانما الذي فهموا من ذلك " ان الارادة الالهية هي سنن الله  
التي بشها في الكائنات وانتظمت بها احوال الأرض والسموات " (١) وقد تلقوا  
من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الايمان بقدرة الله وعلمه المحيط وكتبه المقادير  
قبل خلق الأرض والسموات كل ذلك لا يمنع الانسان من العمل وفعل الاسباب  
بل الواجب عليه السعى وتماطى الاسباب لعدم علمه بما هو مقدر له ولا ن قدر الله  
انما يجري من خلال أفعال العباد ، فليس ما جفت به الاقلام وجرت به المقادير  
الا ميدانا فسيحا للعمل والسعى فكل انسان ميسر لما خلق له . عن علي بن أبي  
طالب رضي الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع الخرق فأتانا رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقمعد وقعدنا حوله ومعه مخرصة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال :  
" مامن نفس منقوسة الا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار والا وقد كتبت شقيسة

أوسعيدة " قال فقال رجل يارسول الله أفلا نمكت على كتابنا وتدع الحاصل ؟ فقال : " من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير الى عمل أهل الشقاوة ثم قال : اعطوا فكل ميسر ، وأما أهل السعادة فييسرون لحمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لحمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسر وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للحسرى " (١) وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : جاء سراق بن مالك بن جهمش فقال يارسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيم الحمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأتلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال لا بل فيما جفت به الأتلام وجرت به المقادير قال فقيم الحمل ؟ قال زهير ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه فسألت ما قال ؟ فقال اعطوا فكل ميسر . " (٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان " (٣) يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في بيان المراد بالحرص على ما ينفع العبد : " والمراد : الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مباشرة الله تعالى لمساعدته من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ويكون العبد في حال فعله السبب مستمينا بالله وحده دون كل ماسواه ليتم له سببه وينفعه ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك لان الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب ولا ينفعه سبب الا اذا نفه

- 
- (١) رواه مسلم في كتاب القدر ، باب كيف خلق آدمي في بطن أمه . . . الخ ، ١٦/١٩٥ - ١٩٦ شرح مسلم للنووي .  
 (٢) رواه مسلم في كتاب القدر في نفس الباب ١٦/١٩٢ - ١٩٨ شرح مسلم للنووي .  
 (٣) رواه مسلم في كتاب القدر باب الايمان للقدر والاذعان له ١٦/١٢٥ ، شرح مسلم للنووي .

الله به فيكون اعتماده في فعل السبب على الله ففعل السبب سنة والتوكل على الله توحيد فاذا جمع بينهما تم له مراده باذن الله .<sup>(١)</sup>

وقد كانت حصيلة هذا الفهم الذي كان عليه الاولون وادراكهم الشامل الواعي وايمانهم العميق بمقيدة القضاء والقدر ما انبعث في نفوسهم من قوة دافعة للعمل والحركة والانتاج في شتى مجالات الحياة ومن شعور عميق بمسئوليتهم عما يفعلونه بإرادتهم وما يترتب على أعمالهم من نتائج ، فبذلك كانوا يسمعون بكسل عزم وقوة من أجل<sup>تحقيق</sup> المنافع والخيرات ، من كسب الرزق وطلب الشفاء ، وعمارة الأرض - واكتشاف مجاهليها ، والتفاعل مع سنن الله في الكون ، والعمل في مجال إقامة الحق ، والدعوة إلى الخير ، والجهاد في سبيل الله لانهم يعلمون أنهم مطالبون بالعمل والسعى في هذه المجالات وغيرها وفق أوامر الله وتعاليم دينه وليسوا مسئولين عن النتائج ما داموا قد أدوا ما عليهم من العمل ولكنهم مسئولون عن العمل وعليه يشابون ان أدوه طبق أمر الله وأرادته أو يماقبون ان قصر وافي شيء من ذلك أو أهملوا أو فوضوا . وهكذا كان الايمان بالقضاء والقدر عاملا قويا يبعث في نفوس الأفاضل القوة والحيوية التي دفعتهم إلى العمل والانتاج في واقع الحياة حتى استطاعوا أن يقدموا للبشرية أعمالا خيرة وانجازات ضخمة في شتى مجالات الحياة .

وسمع مرور الأيام وتماقب الاجيال واتساع الرقعة الاسلامية ودخول مختلف الاجناس البشرية في هذا الدين واحتكاك المسلمين بأصحاب النحل والطل المختلفة والتقاء حضارة الاسلام بحضارات الامم ، سرت العقائد الباطلة والأفكار المنحرفة والمعارف المملولة إلى الحياة الاسلامية فأخذت المفهومات الاسلامية تعاني انحسارا

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٤٧٤ .

وتشويها في الناحية التصورية والناحية السلوكية معا ، وكان من بين هــ هذه المفهومات مفهوم عقيدة القضاء والقدر . وقد أساء المسلمون منذ قرون فهم هــ العقيدة على حقيقتها ومعناها الصحيح . والفهم الخاطيء الذى رسخ فـسى اذ هـانهم وقام عليه سلوكهم السملى فى الحياة هو أن الايمان بقضاء الله وقـدره معناه الاستسلام للواقع والخضوع لما تقوم عليه الحياة البشرية من خير أو شر ولزوم السكون وعدم الحركة تجاه ما يجسرى من المقادير ، والرضا به والصبر عليه باعتباره - تقدير الله السابق و ارادته النافذة دون أن يبذل الانسان من جانبه أى جهـد أو يتخاطى الاسباب التى وضعها الله تعالى فى الكون وقدر أن تجرى عليها مقاديره فى الخلق وجودا وعدما وهادته تعالى . وقد كانت نتيجة هذا الفهم السقيم أن الايمان بالقضاء والقدر يدل أن يكون قوة دافعة للعمل والحركة مع طمأنينة القلب اصبح عاملا مخدرا أدى الى السلبية والانعزالية وترك الاخذ بأسباب الحياة ووسائلها المباحة ، ويدل أن يكون هذا الايمان باعـثا للشعور بالمسؤولية والتبعية اصبح المسلمون المتأخرون يحتجون بالقدر فى تأخرهم وفجـزهم ونـلهم وهوانهم على أن ذلك قدر الله الذى يجب الاستسلام له والرضا به دون أن يبذلوا وسعهم فى محاولة تخيير حالهم واصلاح أمرهم . صحيح ان كل شىء بقول الله وقضائـه وأن ما اصاب المسلمين فى عصور الانحطاط من نـل وضعف ونكبات وهزائم معنوية وحسية من قدر الله الذى لا يقع فى الكون الا ما يريد ولا يخفى عليه شىء مما يجرى فيه ولكن المسلمين قد أساءوا فهم عقيدة القضاء والقدر وأساءوا تطبيق مقتضياتها فى واقع حياتهم حيث اتخذوها حجة لمجزهم وضعفهم . وقد غفلوا أو تناسوا أن القرآن الكريم الى جانب تقريره لعقيدة القدر وبيانه لقدرة الله القاهرة وعلمه الواسع المحيط و ارادته النافذة فى كل شأن من شئون الكون يوجه المسلمين ويرشد هم إلى الصل والسعى واتخاذ الاسباب والوسائل من أجل تحقيق المنافع والخيرات كما يدعوهم الى اصلاح الواقع السىء بانكار المنكر ومحاولة ازالته ومقاومة الظلم والظالمين

والدعوة الى الخير والجهاد فى سبيل الله قال تعالى : " هو الذى جعل لكم  
الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور. " <sup>(١)</sup> " الله الذى سخر لكم  
البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما فى السموات  
وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. " <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى " ولتكن  
منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. " <sup>(٣)</sup>  
وبينما نرى القرآن الكريم يقرر بتأكيد جازم ان الكفار مهما بلغت قوتهم العاديّة  
وأعدادهم الحربى لا يمجزون الله لانه تعالى قد قضى فى عليائه أن الخلية ستكسبون  
للمؤمنين فى النهاية وأن المواجهة للمتقين وأنه حق عليه أن ينصر المؤمنين ولو بمسند  
حين ، بينما يقرر القرآن ذلك كله نراه من الجانب الآخر يهيب بالمؤمنين ويأمرهم  
باعداد كل ما وسعهم من قوة لقتال اعداء الله ومقاومة طغيانهم وازالة الآثار والاغلال  
التي كهل بها الطواغيت ايدى الناس وأرجلهم عقولهم قال تعالى : " ولا يحسبن  
الذين كفروا سبقتنا انهم لا يمجزون وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل  
ترهبون/ أعدوا الله وعدكم . . . الآية " <sup>(٤)</sup> وفى غزوة أحد انهزم المسلمون وكانست  
هزيمتهم بقضاء الله وقدره ، ما فى ذلك شك ولا ريب ولكن القرآن الكريم يبين أسباب  
هذه الهزيمة بكل وضوح وجلاء يؤكد أن المسلمين هم المسئولون عن ذلك ، فقد وعدهم  
الله بالنصر ووعد ، لا يتخلف ، وقد صدقهم الله وعده منذ بداية المعركة حين بدأوا  
يحققون الانتصار على العدو حتى اذا فشلوا وتنازعوا وعصوا امر الرسول جاءهم البلاء  
واصابتهم المصيبة . يقول الله تعالى : " ولقد صدقكم الله وعده ان تحسونهم باذنه  
حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا

(١) سورة الملك آية ( ١٥ )

(٢) سورة الجاثية آيتا ( ١٢ - ١٣ ) .

(٣) سورة آل عمران آية ( ١٠٤ ) .

(٤) سورة الانفال آيتا ( ٥٩ - ٦٠ ) .

ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم<sup>(١)</sup> . . . الآية " أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم ان الله على كل شىء قدير وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا<sup>(٢)</sup> . . . الآية يقول المستشرق الالماني باول شغرتى فى حديثه عن حال المسلمين فى القرون الأخيرة مقارنا بين اثر الايمان بالقدر فى حياة سلف هذه الأمة واثره فى حياة المسلمين المتأخرين : " طبيعة السلم التسليم لازادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار . وكان لهذه الطاقة اثران مختلفان ، ففى العصر الاسلامى الاول لعبت دورا كبيرا فى الحروب ان حقت نصرا متواصلا لانها دفعت فى الجفدى روح الفداء . . . وفى المحصور الأخيرة كانت سببا فى الجمود العذى خيم على العالم الاسلامى فقفذ بهم إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الاحداث العالمية . " <sup>(٣)</sup> ولقد فطن هذا المستشرق للفارق الكبير بين اثر الايمان بالقدر فى حياة سلف الأمة الاسلامية وخلفهم ، ولكنه لم يدرك السبب الذى أدى الى هذا التباين فى الاثر . وكان يمتقد أن الايمان النى كان قوة وحيوية فى الاولين هو الذى كان سبب الضعف والانهيار فى المتأخرين . ويجب ان نقسأ عما اذا كان يمكن ان يكون للشىء الواحد اثران مختلفان بل متضادان فى آن واحد ، كيف يمكن ان يكون الايمان بالقدر قوة دافعة وعامل صعود وارتقاء وتقدم لسلف هذه الأمة فى كل اتجاه ثم يكون هذا الايمان نفسه عامل تخلف وضعف وجمود وانهيار للأجيال المتأخرة ؟ ان المنطق السليم يأبى هذا ويفرضه إذا فلا بد أن يكون هناك شىء غريب / الامر ، وذلك ما أفننا فى الحديث عنه ، غيما تقيد م . ونزيد هنا الموضوع ايضا فنقول ان الاجيال الاسلامية المتأخرة تمتد أن الايمان

(١) سورة آل عمران آية ( ١٥٢ )

(٢) سورة آل عمران آيتا ( ١٦٥ - ١٦٦ )

(٣) الاسلام قوة الفداء العالمية ص ٩٠ تصريح د / محمد شامة .

بالقضاء والقدر محتاه الاستسلام الخائض للواقع الفاسد والتقاوى من الصمل والحركة فى واقع الحياة لان الله تعالى له كل شىء وليس للناس منه شىء بأى حال ، وأن الشىء المقدر للانسان لا بد أن يصير اليه وان لم يعمل لتحصيله . ولا بد أن هو "لا قد تأثروا قليلا أو كثيرا بأفكار الجبرية الذين غلوا فى اثبات القدر وزعموا أن التدبير فى افعال الخلق كلها لله تعالى وهى كلها اضطرارية كحركات المرتعش والمروى النابضة وحركات الاشجار ، واضافتها الى الخلق مجاز وهى على حسب ما يضاف الشىء الى محله دون ما يضاف الى محصله . " (١) ولكن لو كان ما عليه هؤلاء المتأخرون صحيحا لكان أولى الناس بانتهاج هذا النهج والمسير على هذا الدرب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم المكلف ببيان ما نزل اليه من ربه وكذلك صحابته الكرام الذين اخذوا الدين عنه غضا طربا وكانوا على فهم صحيح وادراك شامل لقيم الاسلام ومبادئه وتعاليمه والواقع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستسلم للواقع الفاسد الذى كان يعيشه قومه فى الحياة الجاهلية على أن ذلك قضاء الله وقدره وانما بعاهم الى الحق والخير وانكر ما كانوا عليه من الظلم والجهل والفساد وقاومه وحاربه حتى استطاع بان الله ان يحقق نصرا مبينا وكذلك كان دائما يوجه اصحابه الى ضرورة اتخاذ الاسباب والوسائل لتحقيق غاياتهم المعنوية والحادية ~~مؤيوة~~ كد لهم أن الله تعالى هو خالق الاسباب والمسببات وهو الذى رتب ان يكون جريان المسببات من خلال تماطى الاسباب وفق ارادته ومشيئته . ولا يجوز للعبد أن يتحدث عن حول الله وطوله وقوته ومشيئته اعتذارا عن تكليف أو فـراراً من واجب ، انما يحلو الكلام عن القضاء والقدر وعن سلطان الله المطلق عند مطالعة النتائج لا عند مباشرة الاسباب . ذلك أن العبد عند مباشرته للاسباب يؤدى رسالته المتاحة له والتى خلق لها ، فاذا جاءت النتائج كما يحب سر بما أدى وحمد الله الذى أعان ووفق وقد كان قديرا على التوفيق والمنع . واذن تخلفت النتائج

(١) شرح المفيدة الطحاوية ، للعلامة على بن على بن محمد بن أبى المز ، ص ٤٩٣ ، المكتب الاسلامي .



عما قدر العبد - لأسباب خارجة عن طوقه - استكان لمشیئة الله وسلم له ما أراد ولم يجزع لهزيمة او حرمان (١). " ما أصاب من مصیبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور (٢). "

وبهذا الفهم الصحيح عمل سلف هذه الأمة في واقع الأرض في شئتي مجالات الحياة عن معرفة حقة بقدره الله واطمئنان تام لقضائه وقدره سائرین على هدى القاعدة الكبرى التي قررها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق ذكره بقوله " اعلموا فكل ميسر لما خلق له " (٣) .

ان سوء فهم المسلمين المتأخرين لمقيدة القضاء والقدر وانحرافهم فسي تطبيقها على حقيقة تها ومعناها الصحيح في سلوكهم العملي في الحياة قد أدى الى انحراف آخر خطير في مفهوم التوكل على الله . فالجبرية في غلوهم المريض فسي اثبات القضاء والقدر يعتقدون أن الله هو الخالق لافعال المباد فهي بقضاء الله وقدره ، والمباد ليسوا فاعلين على الحقيقة لان الافعال التي تصدر منهم تأتي اضطراريا لا اختياريا فهي بمنزلة طول الانسان ولونه . وبناء على هذا فان الاسباب لا تولد النتائج والقول بتوليدها للنتائج يناقض ويمارضي الاعتقاد بأن الله هو الخالق للحوادث ، وبذلك هونت الجبرية من شأن اتخاذ الاسباب مادية كانت أم معنوية لانهم لا يرون في ذلك فائدة مع الامور المقدرة وقد أدى ذلك ببعض الناس الى ترك الاسباب وتعطيلها وانك ترى هؤلاء يتماوتون ويقولون لا قدرة لنا لإرادة ويتسكعون في الحياة ويقولون لم العمل ؟ كل شئ مكتوب وما شاء الله كان .

(١) الشيخ محمد الفزالي ، " هذا ديننا " ص ٢٥ - ٢٦ بتصرف بسيط

(٢) سورة الحديد آيتا (٢٢ - ٢٣)

(٣) وردت زيادة " لما خلق له " في رواية اخرى لحديث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، الذي رواه مسلم انظر شرح مسلم للنووي ١٦ / ١٩٢ .

وأما الصوفية وإن لم يذهبوا مذهب الجبرية لأنهم يعتقدون أن العباد يفعلون باختيارهم ومشيئتهم ، ولا يكون إلا ما أراد الله تعالى فهم بذلك لا ينكرون توليد الأسباب للنتائج فقد تأثروا ببعض أفكار الجبرية بسبب سوء فهمهم للآيات والأحاديث الواردة في الإيمان بالقدر والتوكل على الله حيث اعتقدوا أن العابد لا يبلغ أعلى مراتب التقوى واليقين إلا بالاستسلام للواقع على أنه تقديرا لله والرضا به والصبر عليه وعدم الأخذ بالأسباب . وهذا ما يفهمونه من قول الله تعالى " ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه . . . الآية (١) " وقول الرسول صلى الله عليه وسلم " من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله اليها " (٢) وغير ذلك من الآيات والأحاديث ثم إنهم من ناحية أخرى لم يكونوا تاركين الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية جميعا ولكنهم بسبب انحراف تصورهم لعلاقة الإنسان بالناحية المادية من الحياة حيث يعتقدون أنها مؤومة مطلقا وأن الواجب على الصبد المزوف عنها حتى لا تشغله عن إخلاص الوجه لله ولا تصرفه عن عبادته ، قصرُوا جهودهم وأعمالهم على الناحية الروحية والتربية النفسية وطلب الآخرة بحرمان الإنسان من الناحية المباحة له من الدنيا وإضاعة نصيبه منها وإهمال مسؤوليته فيها .

إن الفكرة الشائعة بين المتصوفين وتبعهم فيها عوام المسلمين جهلا وحماقة هي أن المؤمن بقدر الله حق الإيمان والمتوكل على الله حق توكله هو المنقطع إلى العبادة (على المفهوم الخاطئ للكلمة) المأبش في نفحات التربية الروحية المحضة في عزلة عن الحياة الدنيا واستسلام خانع لواقعة المادى من دون عمل وانطلاق في الأرض لطلب أسباب الحياة ولوعاش عمره كله في حرمان وفقر

( ١ ) سورة الطلاق آيتا ( ٢ - ٣ ) .

( ٢ ) رواه ابن أبي حاتم بسنده من حديث عمران بن حصين ، قاله ابن كثير في

تفسيره ٣٨٠ / ٤ . ( سورة الطلاق ) .

وذل وهو ان . وهذا عند هؤلاء القوم هو الايمان الكامل المثالي الذي يسلخ  
أعلى مراتب التقوى وأرفع مقامات التوكل يقول الامام ابو حامد الغزالي . في بيان  
مقامات التوكل على الله تعالى : " الأول : مقام الخواص ونظرائه وهو الذي يمدور  
في البوادي بخير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه  
أو تهسير حشيش له أو قوت أو تثبيت على الرضا بالموت ان لم يتيسر شيء من ذلك .  
المقام الثاني أن يتحد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والامصار وهذا أضعف  
من الأول ولكنه أيضا متوكل لانه تارك للكسب والاسباب الظاهرة مفلح على فضل  
الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالقعود في الأمصار  
يتمتع بأسباب الرزق . . (١) الخ " وإذا كان هذا الكلام من الامام الغزالي وهو  
يحد من معتدلى المتصوفة فطالك بفلاتهم : وماذا يكون نظر الدعاة في علاقة  
الانسان بالحياة الدنيا ومسؤوليته فيها ؟ وكذا نرى مدى انحراف المسلمين  
في مفهوم التوكل حتى جعلوا العيش على هامش الحياة وترك العمل وتعطيل الاسباب  
الظاهرة هو أعلى مراتب الايمان والتوكل ، وسموا ذلك يقينا أو قناعة ودعوا  
الناس الى هذا التواكل المذموم الذي ما أنزل الله به من سلطان وليس له دعوة في الدنيا  
ولا في الآخرة ولا يعلمه الانبياء ولا المرسلون ولا سلف هذه الأمة من الصحابة  
والذين اتبعوهم باحسان . " وعند ما قيل للإمام احمد بن حنبل ان في المسجد  
جماعة لا يعملون ويقولون انهم متوكلون قال رحمه الله " هؤلاء مبتدعة هؤلاء قوم  
سوء أرادوا تعطيل الدنيا . ولما قيل له انهم يحتجون بقول الرسول صلى الله  
عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم الله كما يرزق الطير تغدو خماصا  
وتروح بطانا " قال أي شيء هذا غير العمل تغدو وتروح " وفي قول آخر لــــه  
" انهم نسكوا نسكا أعجميا (٢) . " ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

كله

(١) احياء علوم الدين : ٣٣٣/٤ اقر اكتاب التوحيد والتوكل / ٣٠٢/٤ ٣٦٥

(٢) المجتمع الاسلامي المعاصر للشيخ محمد المبارك ، ص ٦٠

في تعليقه على حديث ابن عباس الذي جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عرضت على الأمم . . . الى أن قال " فنظرت فإذا سواد عظيم فقيسل لي هذه امتك ومصهم سبعمون ألفا يدخلون الجنة بخير حساب ولا عذاب " . . . فقال هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون (١) . . . " يقول الشيخ عبد الرحمن " واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا فان مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لاحد عنه بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى ٣/٦٥ " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " . أى كافيته . وانما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم اليها توكلا على الله تعالى كالأكتواء والاسترقاء فتركهم له لكونه سببا مكروها لا سيما والمريض يتشبث - فيما يظنه سببا لشفائه - بخيط الصنكوت . أما مباشرة الأسباب والتداوى على وجه لا كراهة فيه فخير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعا لما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعا " ما أنزل الله من داء الا أنزل له شفا " علمه من علمه وجهله من جهله " وعن اسامة بن شريك قال : " كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب فقالوا يا رسول الله أنتدأى ؟ قال نعم يا عباد الله تداؤوا فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له شفا غير داء واحد قالوا وما هو ؟ قال الهرم ؟ " رواه أحمد . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى وقد تضمنت هذه الأحاديث اثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها والامر بالتداوى وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافي دفع ألم الجوع والمطش والحر والبرد بأضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد الا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدرا وشرعا وان تعطيلها يقدر في نفس التوكل كما يقدر في الامر والحكمة ويضعه من حيث يظن مصطلها أن تركها أقوى في التوكل . فان تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ودفع ما يضره في دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتقاد

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بخير حساب ولا عذاب ٣/٩٣ - ٩٤ .

من مباشرة الأسباب والا كان معطلا للحكمة والشرع فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزا (١) .

وبواكب هذا الانحراف في مفهوم القدر والتوكل على الله ويسايره انحراف آخر في حقيقة صلة المسلم بالحياة الدنيا . وجاء خطأ التصوف في ذلك من سوء فهمهم لهذه الصلة وتشويرهم لمفهوم الزهد الذي رأوه علاجا ناجما لما انطوت عليه الدنيا من شرور ومساوى وأدواء .

تتبني المتصوفة فكرة خاطئة عن الحياة الدنيا حيث اعتقدوا أنها مذمومة مطلقا لما ورد في الكتاب والسنة من وصفها بأنها لعب ولهو وأنها متاع الفسور وأنها دنيئة فانية زائلة وأنها دار فتنة وبلاء وأنها طعمونة وطمعون مافيهما وأنها في جانب الآخرة لا تساوى شيئا ، بينما ورد في وصف الآخرة أنها خير وأبقى وأنها دار قرار ونعيم وأنها الحياة الحقيقية التي لا نهاية لها . وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تمقلون (٢) وما الحياة الدنيا إلا متاع الفسور (٣) . فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبحه ههنا وأشار بالسبابة في اليم فلينظر بما ترجع . " (٥) وفهم هؤلاء القوم من هذه النصوص وغيرها أن الحياة الدنيا كلها طعمونة وان مافيهما كذلك مذموم وملعون فلا عاصم للانسان من شر الدنيا وفتنتها الا العزوف والانزواء عنها لانه لا يمكن

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٢٤ - ٢٥

(٢) سورة الانعام : آية (٣٢)

(٣) سورة آل عمران : آية (١٨٥)

(٤) سورة الشورى : آية (٣٦)

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر ١٩٢/٧

عن مستورد .

أن يصح للإنسان إيمان ولا تتحقق عبوديته<sup>لله</sup> إلا بنبذ الدنيا ولا يخلص عمله في طلب  
الآخرة إلا بهجر الدنيا . وبهذا الفهم السقيم نفروا الناس عن حب الدنيا ومتاعها  
وراحوا يحصون مثالبها ويعددون شرورها وأدواءها ويقبحون الاتجاه اليها  
في أى صورة كان . وكانوا يعمرون عن فكرتهم في صلة المسلم بالحياة بضرورة خلع  
الكون وترك الوجود وسحوا الأفيار من القلب من أجل خلوص الوجه والقلب لله وحده .

يقول أحد شعرائهم :

فاخلع نعال الكون كي تسراه      وفنى طرف القلب عن سواه

وقال آخر :

حسن بأن تدع الوجود بأسره      حسن فلا يشغلك عنه شاغل

وقد طلبت الصوفية من الناس قطع علائق النفوس بالحياة الدنيا لأنها تشغلهم  
وتلهيهم عن ذكر الله وعبادته ، ولكي يخلص قصد الآخرة والعمل لها فلا بد من  
خلو القلب من هموم الدنيا وخواطرها وهواجسها وقالوا " ان الهواجس البشرية  
كالطير السارحة في الجو كلما وجدت شجرة مورقة أوت اليها واتخذت من فصوصها  
أعشاشا ومسارح للغناء . . ، ومادامت شجرة الدنيا باسقة في القلب قلن تفتأ  
الهواجس والخواطر تهجم على الإنسان وتمكسر عليه مناجاته لربه وتجعل صلاته  
مشوشة ، والطريقة المثلى لخلوص القلب ، قطع هذه الشجرة من الفؤاد  
ومن ثم تنطرد هموم الدنيا من تلقاء نفسها إذ لن تجد مكانا تحوم فيه . . وأول آثار  
هذا الكلام - في وعي مسلم يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم - أن علاقته  
بالدنيا سوف تضعف بل سوف تنقطع يقينا . (١)

ان النظرة السلبية للحياة الدنيا وقطع علاقة الإنسان بها واعتبار لذاتها  
ومنافعتها محرمة على الإنسان لأنها جيفة ولا يطلب الجيفة إلا الكلاب ؟ هذه النظرة  
التي تبنتها المتصوفة ان هي الا طريقة مبتدعة في الدين لم يقل بها نبي ولم تسرد

بها شريعة ، ولكن القوم انساحوا مع الجهل وقصور الفهم فاحدثوا في دين الله  
طريقة غريبة هي في أصلها تنقي الى العقائد الوثنية والرهبانية التي ابتدعتها  
النصارى . والذي يصرفه الاسلام هو أن صلة الانسان بالدين لا صلة بغيره وأن طلب  
الدين والاهتمام بشئونها لا يخرج فيه ديننا مادام الانسان يعتبر الدنيا وسيلة لا غاية ،  
ولا يجعلها مقصودة لذاتها أو اكبر همه ومبلغ علمه بل طريقا لنيل الآخرة ، ومادامت  
منافعها ومتاعها تنال بالوسائل المشروعة ، ومادام التعلق بالدنيا لا يسيء  
الانسان حبا ينسيه ذكر الله والدار الآخرة ويقصد به عن أدائه مهمته الكبرى فسي  
الحياة من عبادة الله والجهاد في سبيل الحق . " قل من حرم زينة الله التي  
أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة  
يوم القيامة كذلك فصل الآيات لقوم يعلمون . " (١) وابتغ فيما آتاك الله الدار  
الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . . الآية " (٢)

وان الفكرة الخاطئة التي كانت شائعة بين المتصوفين حول صلة الانسان  
بالحياة قد أدت بهم الى الترويج والدعوة الى ضرورة انتهاج حياة الزهد والحرمان  
للظفر بالآخرة ونعيمها المقيم ، فقد رسخ في اذهان هؤلاء الناس أن لا علاج  
لشور الحياة وفتنتها سوى اللجوء الى حياة التزهد والتقشف والرضا بالفقر والحرمان ،  
وهدم التملك وترك الاشتغال بالكسب والاخذ بالحلال من متاع الحياة ، وراحوا  
يساندون موقفهم بالاشادة بالفقر والدعوة اليه محتجين بما ورد في مدح الفقراء ودعوتهم  
الى الصبر وأنهم هم العناصر الطيبة في كل مجتمع وهم المستجيبيون للرسول والانبياء  
وهم انصارهم وموئيدوهم في كل زمان ومكان ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان  
فقيرا ومات ودرعه مرهونة عند يهودى في قوت أهله . وكذا شوهوا الزهد الاسلامي

( ١ ) سورة الاعراف : آية ( ٣٢ ) .

( ٢ ) سورة القصص : آية ( ٧٧ ) .

الذى حقيقته ايثار الآخرة وتفضيلها على الدنيا وجعل موازينها مرجحة ومقدمة على موازين الحياة الدنيا والتضحية بأكبر قدر ممكن من نصيب الانسان في الحياة في سبيل نيل الآخرة مع الممارسة الكاملة لكل الجوانب الايجابية من الحياة . فالاسلام لا يعرف الزهد الذى يطرح الناس فيه الحياة جانبا ويهملونها اهمالا كاملا بل لا يسد من العمل في الدنيا والسعى لكسب الرزق وتحصيل المال ليس فقط لان ذلك مباح ولكن لانه مطلوب <sup>طلباً</sup> من أجل سد حاجة الانسان وحاجة من يعمل ونفسه عباد الله وعارة الارض .

ومن الآثار السيئة لهذا الاتجاه المنحرف في تصور علاقة السلم بالحياة وتشويه مفهوم الزهد التخلف الحضارى وركود الحياة الاقتصادية وضعف قوة الانتاج وموت روح الحركة والانطلاق وقد ذاق المسلمون من ذلك الإغرين طووال عصور الانحطاط وأصبحت أيديهم صفراء من أسباب الحياة المادية ومقوماتها فعانوا الام الجوع والفقر والمرض والذل والهوان .

واذا بحثت عن أسباب ذلك تجد أن المسلمين قد تأثروا بهذه المفاهيم المنحرفة الى حد كبير حتى انك ترى كثيراً منهم اذا تقدم بهم العمر وضعفت قواهم أو تعبوا من ضجيج الحياة العامة وأفاقوا من غفلتهم وتنبهوا لما هم فيهِ من التقصير . في واجبهم الدينى ثم ارادوا القوة الى الله والعودة الى جادة الدين فانهم يفكرون أول ما يفكرون في الانسلاخ من الحياة الدنيا واعتزال الناس والانزواء الى خاصتهم والانضمام الى صفوف التصوف حيث الرياضات النفسية والتربية الروحية والاوراد والاذكار وكان هذا وحده هو طريق الحق والدين الخالص الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى .



## المبحث الرابع

### الانحراف في مفهوم الجهاد في سبيل الله

ان مفهوم الجهاد في سبيل الله من المفهومات الاسلامية التي عانت انحسارا وتشويها بالنين من الناحيتين التصورية والسلوكية في حياة المسلمين . فقد بدأ الانحراف في مفهوم الجهاد نتيجة لسلسلة انحرافات اخرى وقع فيها المسلمون حين أساءوا فهم معاني الاسلام ومبادئه وتعاليمه وقلبوا حقائقه الناصعة وغلطوها بمجموعة خرافات وبدع وترهات وانحصرت لولا تلك الواسعة الشاملة في زاوية ضيقة ونطاق محدود من الحياة الواقعية . وكان من ذلك تقلص المعنى الواسع للجهاد وانحساره وتشويه صورته بسبب الفهم الخاطئ وما أصاب المسلمين من وهن شديد وحبهم للدنيا وكراهية الموت والتضحية بشئ من متاع الدنيا وطذاتها مما أدى بهم الى ترك معالي الامور وتسكوا بسفاسفها قال حالهم الى ضعف وتأخر وذل وهوان .

وقد كانت الانحرافات المتعددة تنحرف في كيان الامة الاسلامية وتعمل عليها في تقويض بنية الحياة الاسلامية رويدا رويدا حتى جاء عهد الحروب الصليبية الماتية فكانت حال المسلمين من التفرق والتباعد والضعف والتخلف ما لم يكن لهم عهد به من قبل . فقد اتجه كثير منهم - كما هي الحال اليوم - الى ايثار المافية وطلب السلم الرخيصة واختاروا لانفسهم حياة الانعزالية والزهد والتقشف والتنسك وتخلوا عن تبعات الجهاد لحمل دعوة الاسلام وتبليغ رسالته للناس كافة ومتابعي الرسول صلى الله عليه وسلم في جهاده ومواصلة السير على الدرب الذي سار فيه اصحابه الكرام في قوة عزيمتهم وتضحياتهم وتفانيهم في سبيل الله ، وقد كرهوا الجهاد البطلي القتالي واعرضوا عن مواجهة قوى الكفر والبغى ومنازلة اعداء الله في ساحة الوفاء فانصرفوا الى ما يعتبرونه جهادا اكبر من هذا ، جهاد النفس

والهوى أو التزمية النفسية والتطهر الاخلاقي ، فأكثروا من الصلاة والصيام والذكر والتسبيح والدعاء زاعمين ان ذلك وحده هو ما تحصل به النجاة في الدنيا والآخرة وما ينال به العبد جنة الخلد يوم القيامة . وقد غفلوا أو تخافلوا عن الايات المتعددة والا حاديث النبوة التي وردت في بيان وجوب الجهاد والقتال وتحديد مفهومه وبيان مراحلها وانواعه والخاية منه ، وما تحمل هذه الايات والا حاديث المؤمنين من التبعات الجسام للقيام بفريضة الجهاد حتى تكون حياتهم كلها في سبيل الله ويكون اعلاء كلمة الله اعظم غاياتهم ، ونيل الشهادة في سبيل الله اكبر امانهم . قال الله تعالى أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (١) وقال تعالى " انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون . " (٢)

وقد كان للاتجاه الصوفي المنحرف أثر كبير في تشويه معاني الاسلام السامية وقلب حقائقه وتماليه وتحويلها الى مجموعة أهيلة وأوهام وخرافات وغزعات منافية لروح الدين وقيمه مناقضة للمثل الراجح والفتوة السليمة . ان مفهوم الجهاد الواسع الشامل ، والاحتكام الجاد بأمر الدعوة ونشرها في الآفاق ، والتصدي للقوى الصاهضة لها لانقاذ البشرية وتحريرها من العبودية لغير الله وبذل النفس والمال في ميادين الجهاد الصلي القتالي لكي يكون الدين كله لله الواحد الاحد ، كل ذلك قد أصبح لا يشغل تفكير المسلم " العابد " ولا يمثل جانباً يذكر في واقع حياته بقدر ما يكون اهتمامه بحياة العزلة والفسسرار الى الزوايا والمخارات وترك تبعة الجهاد الصلي والاستماتة عنه بالتعاطف في التربية النفسية والاخلاقية الناقصة والظهور في مسوح التنسك القاصر .

( ١ ) سورة آل عمران : آية ( ١٤٢ )

( ٢ ) سورة الحجرات : آية ( ١٥ )

وهكذا نرى كيف تبدلت حقيقة الجهاد الاسلامي وتقلص مفهومه ففسي  
 اذهان المسلمين وفي سلوكهم المعلى حتى اننا نجد معظم المسلمين اليوم  
 في الأقطار الاسلامية الفسيحة بعيدين عن التصور الصحيح والفكرة الشاملة  
 من الجهاد . فقد جهلوا منهج هذا الدين في الجهاد وانحرفوا فيه انحرافا  
 كبيرا ، وفعلوا عن رسالة الاسلام الى البشرية ، وأبوا حمل المهمة الطقاة على  
 كواهلهم وأدأها على الوجه المطلوب ، ومنوا أنفسهم بالخرافات والترهات ،  
 وعللوا بالتماويل والطالسم والسبحات والرياضات انهم يتلمسون طرقا شستى  
 للنجاة سهلة مصعدة تريحهم من أهوال الجهاد ومشقات الكفاح وشدائده ،  
 فوجهوا وجوههم الى القبور والاضرحة والمشاهد يتوسلون بها وبرجالها لبلوغ  
 غاياتهم المادية والمعنوية . وهناك بعض المسلمين شغلوا أنفسهم بمسائل  
 شتى من فروع الدين عن أصول الاسلام ومبادئه الكلية الشاملة ، وجروا وراء  
 الجزئيات الدقيقة في القضايا التي لم يكلفوا البحث عن ماهيتها وكنهها وتفصيلاتها  
 فأهبطوا روح الدين ، وقصروا في الشذية التي خلقوا من أجلها وتركوا الأمور  
 المهمة الى أمور لا وزن لها ولا اعتبار .

وهناك كثير من كبار الصوفية الذين عاصروا الحروب الصليبية وحمـلات

التتار لم يكن لهم أثر<sup>في</sup> الدعوة إلى الجهاد وتحريض المسلمين على قتال الأعداء .

ولقد مالاً بعضهم التتار أثناء حملتهم القاسية على الشام وتد ميرهم لها واراقتهم

دماء المسلمين بنفارة ، وقد شاركوا التتار الافساد في الأرض بمالأتهم اياهم

وترك قتالهم وتشبيطهم للمسلمين عن القتال وخاصة عندما تظاهر التتار بالاسلام

فأتى هؤلاء المنحرفون الناس من ناحية الدين فقالوا ان القوم قد نطقوا بالشهادتين

ودخلوا في دين الله ولم يبقوا على الكفر كما كانوا من قبل فكيف نقاتلهم وهم

مسلمون ؟ وقد رد عليهم شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله : " كل طائفة خرجت

عن شريعة الاسلام الظاهرة المتواترة فانه يجب قتالها باتفاق المسلمين

وان تكلمت بالشهادتين . فاذا أقرروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس

وجب قتالهم حتى يصلوا وان امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة (١)

وهذا العماد الأصفياني يقول في إحدى رسائله في تصوير دقيق لحال

أعداء الاسلام أثناء الحروب الصليبية ومقارنتها بحال المسلمين " وماينقض عجنسا

من تضافر المشركين وقعود المسلمين فلا ملبي منهم لعداء . . فانظروا الى الفرنج

أى مورد وردوا وأى حشد حشدوا . . ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم ولا عظيم

ولا كبير من عظمائهم وكابريهم الا جارى جاره في مضمار الانجاد وبارى نظيره فسي

الجد والاجتهاد . . والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ولزموا

الحيرة وعدموا الخير . " (١) وهذا يدل دلالة واضحة على مدى بعد المسلمين من حقيقة دينهم وانحرافهم في مفهوم الجهاد وانصار معناه في نطاق ضيق محدود .

وان لانحراف المسلمين في مفهوم الجهاد في سبيل <sup>الله تعالى</sup> مظاهر متعددة وصورا كثيرة ولكننا سنكتفي بالحديث عن أهم <sup>هذه</sup> المظاهر والصور .

نبدأ حديثنا في هذا الصدد بالفكرة الشائعة بين كثير من المسلمين أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس والهوى وأن الجهاد الأصغر هو جهاد العدو والمظاهر لاقامة دين الله ونشره في الآفاق ، ويستدل على ذلك بما ذكره الخطيب في تاريخه من طريق يحيى بن الملا قال حدثنا ليث عن عطاء بن أبي رباح عن جابر قال " قدم النبي صلى الله عليه وسلم من غزاة له فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد تم خير مقدم وقد متم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر مجاهدة العدو " وفي رواية أخرى " رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر قالوا وما الجهاد الأكبر ؟ قال جهاد القلب أو جهاد النفس " . (٢) قال الباجوري " الجهاد أى القتال في سبيل الله ما غنود من المجاهدة وهى المقاتلة لاقامة الدين وهذا هو الجهاد الأصغر أما الجهاد الأكبر فهو مجاهدة النفس فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول اذا رجع من الجهاد رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر " . (٣) وقال الصاوى " الجهاد الأصغر هو جهاد العدو والمتبين والجهاد الأكبر هو جهاد العدو والمخالط (٤) " (أى النفس)

- 
- (١) ذكره د . محمد أمين المصرى ، المجتمع الاسلامى ، ص ٦٩  
 (٢) قال البيهقى اسناده ضعيف وتبعه العراقى في تخريجه أحاديث الأحياء وحكم السيوطى أيضا بضعفه في جامع الصغير وقال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس هو مشهور على اللسنة وهو من كلام ابراهيم بن عيسى نقله عنه احمد محمد جمال ، الجهاد في الاسلام ، ص ١٢ - ١٣  
 (٣) د . محمد أمين المصرى ، سبيل الدعوة الاسلامية ، ص ٨٠  
 (٤)

يقول الدكتور محمد البهي أحد الباحثين المصريين وهو يدعو الى مواجهة أخطار الغزو الفكري في النظامين الرأسمالي والشيوعي ومقاومتها في مجال التربية والتدريب : " ان جهاد المسلمين اليوم يكفى أن يكون في المرحلة الاولى جهادا ببقائه الحقل والقلب والدعوة واللسان حتى لا يقع بعضهم في صدقة أو مسودة لأصحاب الاتجاه الراديكالي الماركسي أو الاتجاه العلماني الرأسمالي فعدم الولاء لأي من الجانبين الراديكالي والرأسمالي هو الصورة التي يجب أن يبرز فيها جهاد المسلمين اليوم في سبيل الله (١) . " ولقد أساء كثير من المسلمين فهم الجهاد في معناه الواسع الشامل وانحرفوا فيه انحرفا بنا بمثل هذا الحديث الضعيف الواهي ، وكانوا منذ قرون طويلة يدعون دعوى عريضة يقولون انهم في جهادهم الاكبر مجاهدة النفس والهوى والشيطان بينما تدال دولة المسلمين وتتداعى عليهم الامم لتحطيم قوتهم وسلطانهم والقضاء على دينهم وبنهار بنيان مجتمعهم تحت وطأة أقدام الفزاة الذين أوقفوا المسلمين في شرسطير وأحاطوا بهم احاطة السوار بالحصم يستمرون ديارهم ويسلبون أموالهم وينهبون ثرواتهم ويقتلونهم شر تقتيل ويذلون كل جهودهم لحوج عقيدتهم أو عزيمتها في نفوسهم ليوجهوهم الوجهة التي يرضونها لهم ، بينما يحدث هذا كله على رأى من هؤلاء " ومسمع فانهم لا يزالون يمتدنون أنهم في جهادهم الاكبر وهم يتماوتون في التربية النفسية الناقصة والاعداد الخلقى القاصر وحسبون أنهم بذلك يؤدون ما عليهم من فريضة الجهاد . وأما الجهاد الملقى القتالي لاقامة دين الحق ونشره في العالم ، وصد كيد الاعداء ، ودفع عادية أهل الكفر والطغيان ، وانقضاء البشرية من الظلم والجهل ، وتخليصها من قبضة الطغاة المتجبرين ، وبذل الجهد والنفس والمال في هذا السبيل ، فلا يزالون يمتدنون ذلك جهادا أصفر لا يعطونه من الاهتمام والاقبال الا قدرا ضئيلا جدا لا يبلغ عشر معشار ما يولونه للجهاد الأول .

(١) في بحث له حول " الجهاد " نشرته مجلة الوعي الاسلامي ، العدد ٦٦ ، سنة ١٩٩٠ هـ .

وان هذا الحديث الضعيف الذى اعتمد عليه هو " لا في دواءهم يمارض

معارضة بينة قول الله تعالى : " لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكذا وعد الله الحسنی وفضل الله المجاهدین على القاعدین أجرا عظيما . (١) كما يمارض الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه انه قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل قال لا تستطيعونه فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول لا تستطيعونه ثم قال في الثالثة : " مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى . (٢) وهذا الحديث والآية السابقة يقرران فضل المجاهد على القاعد ، فلاشئ يعدل الجهاد في سبيل الله لا القعود مجردا ولا القعود للتربية النفسية والتطهر الخلق . وذلك لأن

الجهاد بمعنى الخروج لقتال الأعداء وبذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله هو ثمرة الايمان وثمره المباداة ومقياس صدق العبد في تقوى الله وطاعته أمره . فمن آمن بالله حق الايمان وعده حق المباداة هان عليه أن يقدم نفسه وماله في سبيل الله . وقد كان المسلمون الأوائل يجمعون بين الجهاد النفسى والجهاد العلمى القتالى لأنهم كانوا على فهم عميق بأن المجاهد في سبيل الله قبل خروجه للجهاد وفي أثناء ادائه مهمته في ساحات القتال هو أحرص ما يكون الى أعلى مراتب الجهاد النفسى والاعداد الخلق ليقوى ايمانه ويقينه في الله تعالى وعده المبذول له ، ويتغلب على أكبر رغبة من رغبات النفس : رغبة البقاء ورغبة الحياة ، فهو لا يستطيع الاقدام ولا يقدر على تحمل الشقات والصبر والشبكات

الا ببلوغ مرتبة عالية في التربية الايمانية الصحيحة ، وكذلك كانوا يفهمون أن الجهاد

القتالى هو الميدان الذى تظهر فيه/التربية من قوة الايمان وهيمنته على القلب وشبه يميز الصادق من الكاذب ويمحص المؤمن من الكافر قال تعالى : " ان يحبسكم قرح فقد من القوم قرح

(١) سورة النساء : آية (٩٥)

(٢) رواه مسلم في كتاب الامارة ، باب فضل الشهادة في سبيل الله ، ٢٤/١٣ - ٢٥

مثله وتلك الايام نبدأ اولها بمن الناس  
وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء<sup>١</sup> والله لا يحب الظالمين ولينص الله  
الذين آمنوا ويحق للكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين  
جاهدوا منكم ويعلم الصابرين .<sup>٢</sup> (١)

وانما لم يكن الغرض من جهاد النفس هو تطهيرها من ادراك الشرك  
والكفر وتربيتها على الايمان بالله لتخلص لعبادة الله وطاعته فيما أمر به ونهى  
عنه والعمل على اقامة دين الله والدعوة اليه والتضحية والتفاني في سبيل ذلك  
فهو جهاد ناقص ، بل هو تشويه للمفهوم الصحيح للجهاد في الاسلام . ولست  
ننكر أهمية الجهاد النفس والاعداد الخلق ووجوبه في دين الله وأنه يجب ان  
ينسب اليه الجهاد القتالي كاعداء له ، كما يجب أن يسير معه جنباً  
الى جنب ليتمكن المجاهد من تحقيق النصر على الاعداء باذن الله . " وأن المسلم  
قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون خاض معركة الجهاد الاكبر في نفسه  
مع الشيطان ، مع هواه ، وشهواته ، مع مطامعه ورغباته ، مع مصالحه ومصلح  
عشيرته وقومه ، مع كل شارة غير شارة الاسلام ومع كل دافع<sup>ال</sup> الصودية لله وتحقق  
سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المفتصبين لسلطان الله (٢) " ويقول  
العلامة ابن القيم تعليقا على قول الله تعالى " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم  
سبلنا (المنكبات ٦٩) : " طلق سبحانه الهداية بالجهاد : فأكل الناس هداية  
أعظمهم جهادا وأقرض الجهاد جهاد النفس و جهاد الهوى و جهاد الشيطان و جهاد  
الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة الى جنته ،  
ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد . قال الجنيد :  
والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الاخلاص ، ولا يتمكن من  
جهاد عدوه في الظاهر الا من جاهد هذه الاعداء باطنا فمن نصر عليها نصر على

(١) سورة آل عمران : آيات (١٤٠ - ١٤٢)

(٢) الاستاذ سيد قطب ، معالم في الطريق ، ص ١٠٣ - ١٠٤



عدوه ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه . " (١) وبذلك يتبين لنا أهمية جهاد النفس في عملية التربية والاعداد فهو الذى يؤهل لجهاد العدو ويقوى في المؤمن روح الكفاح ويبعث فيه روح الشجاعة والاقدام حتى يندفع للقتال في ساحة الرغى وهو فرح مستبشر لا يثنيه شئ من متاع الدنيا ورغباتها ، لا يقاتل الا لـ"كلمة الله ولا يرجو الا احدى الحسنين . ولكن رغم ما للجهاد النفسي من الاهمية فانه وسيلة لا غاية في نفسه وليس هو وحده الجهاد في مفهوم الاسلام ولا هو بأفضل من الجهاد القتالى الذى وعد الله المؤمنين عليه أجرا عظيما . يقول الله تعالى : " فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يخلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما . " (٢) وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . . " (٣) الحديث . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : " مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفصل حتى استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تفعل فان مقام احدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما لا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ، اغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة " (٤)

ولقد كان لحديث جابر الذى تقدم ذكره \* قدم خير مقدم قد متم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر مجاهدة البعد هواه \* أثر كبير في تشويه مفهوم الجهاد في أذهان كثير من المسلمين حيث اصطاحم الطمانينة وحيد لهمم القمود فصرفوا وجوههم وقلوبهم الى ما تقرع عندهم أنه الجهاد الاكبر وأقبلوا

(١) كتاب الفوائد : ص ٥٩

(٢) سورة النساء : آية (٧٤)

(٣) أخرجه البخارى في كتاب الجهاد والسير ، باب الجنة تحت بارقة السيوف ٣ / ٢٠٨

(٤) رواه الترمذى ، في فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل العدو والروح في

سبيل الله : ١٨١ / ٤

على التربية النفسية نتيجة سوء فهمهم للجهاد وانحسار معناه الواضح في أذهانهم وتهوينهم من شأن الجهاد المعلى والخط من قدره بتصويره جهادا اصغر الى جانب التثويه بشأن جهاد النفس ورفع قدره وتفضيله على الجهاد المعلى بتصويره جهادا اكبر مما أدى الى عدم الاهتمام بهذا الجانب المهم من الجهاد وقعود المسلمين عن الحمل لاعلاء كلمة الله وبسط سلطان دينه في الأرض وتحمل المشقات وتجزع المرائر في سبيل هداية الناس جميعا الى نور الاسلام .

ومن مظاهر انحراف المسلمين في مفهوم الجهاد في سبيل الله تشويشه بعض مبادئ الاسلام التي تتعلق بالعلاقات بين المسلمين وغيرهم مثل التسامح والامن والسلام وغير ذلك مما يقرره الاسلام ويدعو اليه . ولقد اساء بعض المسلمين فهم الآيات الكثيرة الواردة في ذلك ومن بينهم فريق من الباحثين المصريين الذين تأثروا بما يروجّه الاعداء من أفكار كاذبة بخاطئة حول الجهاد في الاسلام فماد بعضهم يقول بقولهم والبعض الآخر حين يحاول دفع الاتهامات يخبسط خبط عشواء ويلبس الحق بالباطل ، يقول هؤلاء المنحرفون ان دعوة الاسلام الى قتال اصحاب الديانات والمعتقد الاخرى بعد تقريره مبدأ التسامح بين المسلمين وغيرهم ومطالبة اتباعه بالسمي لتحقيق الامن والسلام في العالم ان هذه الدعوة تجعل للاسلام موقفين متضادين متعارضين في علاقات المسلمين مع المخالفين لهم ، فهو من جانب يدعو الى اقرار الامن والسلام بين بني البشر وتحقيق التسامح والتعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم ويطلب من اتباعه ان يتحملوا عقائد غيرهم واعمالهم على كونها باطلة في نظرهم ولا يطعنون فيهم بما يؤلمهم رعاية لمواطنهم واحاسيسهم ولا يلجأون الى وسائل الإكراه والقهر لاخراجهم من دينهم و صرفهم عن عقائدهم أو منصفهم مما يقومون به من الاعمال وهو بهذا يعطيهم الحرية الكاملة في البقاء على أديانهم وعقائدهم ويمنع اتباعه من التدخل فسي شئونهم . ويستدل هؤلاء على ذلك بآيات كثيرة من كتاب الله العزيز منهيلا

قوله تعالى : " لا اكرهه في الدين قد تبين الرشد من الغي " . الآية وقوله تعالى : " قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين " (١) . وقوله تعالى : " فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمسرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير " . (٢) وغير ذلك من الآيات . ثم يقول هو " لا " ان الاسلام من الجانب الاخرى أي أن يعترف لخير المسلمين بأى حق في اقامة نظام الحكم على أسس عقيدتهم ودينهم ويلجأ الى فرض نظامه عليهم قسرا والغسالة قوانينهم وانظمتهم ويعلن عليهم حربا شعواء بحجة أنهم ينظمون شؤون الحياة وفق نظرياتهم وافكارهم ومبادئهم المناقضة لاسس الاسلام وقيمه ومبادئه وهذا ما يعتبره الفتنة التي يجب ان ينتهى منها الكفار . ويستدلون على ذلك بآيات الجهاد والقتال منها قوله تعالى " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يسطروا الجزية عن يد وهم صاغرون " . (٣) وقوله تعالى " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين " . (٤)

وانذا كان المراد من الانتهاه في الآية الاخيرة ليس هو انتهاء المخالفين من كفرهم وشركهم وانما هو انتهاءهم من الفتنة فان الغاية من الجهاد والقتال اذن هي القضاء على هذه الفتنة لا اقامة نظام الاسلام في الأرض وذلك يتبين

- 
- (١) سورة البقرة : آية (٢٥٦)  
 (٢) سورة الكافرون :  
 (٣) سورة الشورى : آية (١٥)  
 (٤) سورة التوبة : آية (٢٩)  
 (٥) سورة البقرة : آية (١٩٣)

بوضوح أن غاية الجماعة المسلمة هي القضاء على نظم الحكم التي أسس بنياتها على غير قواعد الاسلام واستئصال شأفتها وبذل أقصى الجهد لاقامة نظام الحكم الموقر على قواعد الاسلام . وتعتبر هذه الجماعة مقصورة في تحقيق البنية التي انشئت من أجلها ان لم تسع سعيا حثيثا ولم تجاهد حق الجهاد في هذا السبيل . وبالإضافة الى ذلك فان آيات الجهاد والقتال تقرر أن الواجب على الجماعة المسلمة ابتغاء للإصلاح العام المنشود وسعيا وراء ضمان السلام العالمي وتحريم البشرية من قبضة الطغاة الجبابرة وحفظا لكيانها واستقرار الأمن في حدود بلادها أن لا تنزع باقامة دين الله ونظام حكمه داخل حدود بلادها فحسب بل عليها ألا تدخر وسعا في مواصلة صيرتها لنشر هذا الدين وبسط نفوذه وسلطانه في أرجاء المعمورة ، فلن يتوقف المسلمون عن الجهاد وقاتل الأعداء ما لم ينتهوا عن فتنة الناس وتسلطهم على رقابهم وتطبيق قوانينهم وأنظمتهم الباطلة في الأرض وتعبيد هم الناس للالهة المزيفة من دون الله .

ويقول الأعداء ومن لف لفهم ممن يدعون الفكر والعلم من المسلمين المنحرفين اذا كانت هذه هي رسالة الاسلام ومهمة المسلمين وفريضة الدينية فان معنى ذلك أن الاسلام يدعو أتباعه الى حرب هجومية شاملة ضد المخالفين لهم لا تنقطع ولا تنتهي في وقت من الأوقات ولا يهدأ أوارها في أية بقعة من العالم . وهذه الفريضة التي فرضها الاسلام على أتباعه من شأنها أن تجعل وجود الجماعة المسلمة تحديا سافرا للأمم غير المسلمة لأنها تعتمد على وسائل القوة والقمع والاكراه لفرض عقيدتها ونظامها على الناس قسرا والقضاء على عقائد الأمم الأخرى وقلب أنظمتها وقوانينها وهذا بلاشك يجعل المسلمين في موقف عدائي مستمر مع هذه الأمم الامر الذي يكون من المحال معه أن يحيا المسلمون في الدنيا حياة آمنة مستقرة وأن يتمايشوا مع غيرهم في تسامح وتعاون وأمن وسلام . فكيف يمكن ذلك اذا كانت عقيدتهم الدينية هي العقبة الكاداة في سبيل تحقيق الأمن والسلام العالمين . وبالإضافة الى ذلك فان الاخذ بمفهوم الجهاد على هذا

النطاق الواسع لا يجعل المسلمين يرفعون لواء الجهاد في مواجهة الأمم الكافرة فحسب بل يحتم عليهم أيضا مواجهة الدول المسلمة " المنحرفة " التي تحكمهم بغير شريعة الله . وهذا يجعل المسلمين في موقف حرج ليس فقط مع الدول الواقعة خارج حدود بلادهم فقط بل مع المخالفين لهم في المجتمع نفسه . ومعلوم أن السياسة العالمية في العصر الحديث تسير في اتجاهات معينة لا تتمكن منها أى جماعة من المسلمين من التعامل مع الأمم غير المسلمة - ولا حتى مع المسلمين المخالفين لها في الاتجاه فضلا عن غير المسلمين في داخل المجتمع المسلم نفسه إلا بطرق مقبولة ومعترفة بها ، فان الدول القوية غير المسلمة لا يمكن بأى حال أن تتحمل كيان جماعة من المسلمين تسير في تعاملها مع غيرها في اتجاه مخالف لميول هذه الدول واتجاهاتها ، فانها لا تجد بدا في التردد لها وتترقب وجودها لتحطمها قبل أن تقوى شوكتها ويستفحل خطرها .

وليس هنا مجال مناقشة هذه الأفكار ، ولكننا نحب أن نورد بعض حقائق مهمة توضح ما في كلام هؤلاء من زيف وغلط وتشويه وتحريف وما ينطـوون عليه من فهم سقيم وعقلية سقيمة .

ان ما قرره الاسلام من مبدأ التسامح مع غير المسلمين وهدم اكرامهم في الدين معناه ان الاسلام لا يفرض عقيدته عليهم قسرا لان العقيدة لا يمكن ادخالها في قلوب الناس قسرا ، وكذلك لا يرغمهم على قبول شعائره التعبدية لانها ذات صلة وثيقة بالعتيدة اذ لا معنى للعبادة في الاسلام بدون ايمان صحيح . فالاسلام يرضخ الناس حريتهم في هاتين الناحيتين ولكنه لا يرضى أبدا أن تكون القوانين المدنية والانظمة الاجتماعية التي تسير عليها الدولة وضميمة يرضها وينفذها الطغاة الذين لا يؤمنون بالله ولا يدعون دين الحق ويميش الناس مسلمين وغير مسلمين - تحت سيطرتهم وجبروتهم خاضعين مستسلمين - مقهورين . وان موقف الاسلام في هذه الناحية مبني على اعتبار أن نظامه هو الحق والمدل وهو الذي فيه السعادة والفلاح للبشرية لانه من الله الغالب

العليين وأن كل نظام سواء باطل لأنه من وضع البشر . ومن أجل هذا يطالب السب  
الاسلام أتباعه برفع راية نظامه خفاقة في أرض الله واقامة شرع الله بين عباده وتكيس  
راية كل نظام آخر غيره في الأرض . وان حكم الاسلام ببطلان النظم الاخرى الوضعية  
يستلزم رفض علوها وتخليها ومطالبة أتباعه بتعطيمها والقضاء عليها واقامة نظامه  
الصادق مكانها حتى يكون الدين لله الواحد الاحد ولكن دون أن يكون هناك  
اكراه للناس فيما يخص عقائدهم وعباداتهم . يقول الاستاذ سيد قطب رحمه  
الله : " ان الاسلام لله هو الأصل العالقي الذي على البشرية كلها أن تفتى  
اليه أو تسأله بجمليتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي أو قوة مادية  
وأن تخلو بينه وبين كل فرد يختاره أو لا يختاره بمطلق ارادته ولكن لا يقاوم  
ولا يحاربه فان فعل ذلك أحد كان على الاسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حسمتي  
يعلمن استسلامه . (١)"

ويجب أن يعلم أن تدخل أهل الكفر والطغيان في شئون الحياة المدنية  
وفرض الوصيتهم وحاكمتهم على الناس يجعل لا هوائهم ونظرياتهم السيادة والسيطرة  
على جزء كبير من شئون حياة الناس . وليس من التسامح أبدا ان يرضى الاسلام  
بسيطرة الطغاة الخارجين عن طاعة الله وتسلطهم على رقاب الناس في شئون الحياة  
الاجتماعية لان معنى ذلك مطالبة الاسلام بالتنازل عن ركائزه الاساسية وتعاليمه  
وافساح المجال أمام النظم والنظريات الباطلة للسيادة والتحكم في مصائر الناس  
المستضعفين . إن الخف بمبدأ التسامح على المعنى الذي يريد هو " لا  
المنحرفون ان يحملوا قوله تعالى " لا اكراه في الدين " لا معنى الا أن يظل  
الناس مقرين بسيادة الباطل وظهور الظلم والفساد في الارض ويصح المسلمون  
مستسلمين لهذا الواقع السيء خاضعين لما يجري في مجالات الحياة الاجتماعية  
معاينة مع مبادئ الحق والعدل ومنهج الله في الحياة الانسانية ، وبالتالي  
أي نوع هذا من أنواع التسامح وبموجب أي دليل يصح تفسير " لا اكراه في الدين "  
بأن يبقى جماهير الناس مستضعفين في الأرض مغلوبين على أمرهم خاضعين

لجبروت حفنة من الطخاة المستكبرين في الأرض أو أن يتحمل المسلمون الاكراه في دينهم من قبل المخالفين لهم الذين كفروا بالله ونصبوا أنفسهم آلهة من دون الله ويظن بعض الناس أن الاسلام قد جاوز حد التسامح في بعض النواحي حين رفض اعطاء المخالفين حقهم في التعامل على الطرق الفاسدة التي تتنافى مع الحق والعدل الذي يقرره شرع الله ، ولكن الحق أن الاسلام لا يريد من وراء هذا التضييق عليهم ولا اضطهادهم وإنما يريد الزامهم حدود الحق والعدل ويقصد الى القضاء على كل مافيه شر على المجتمع وفساد للاخلاق وخراب للممران وظلم وافتئات على حقوق الناس .

والله سبحانه وتعالى حين يوجب على المسلمين دعوة الناس جميعا الى دين الحق وينهاهم عن اكراههم على اعتناق العقيدة الاسلامية فانه تعالى ممن الجانب الاخر يحملهم مسئولية كبرى في بذل كل مافي وسعهم من جهود واعداد ما استطاعوا من قوة لانهاء الفتنة الناتجة عن غلبة الكفر واستعلاء الكفار وطغيانهم في أرض الله وعلى عباده حتى تملو كلمة الله ويسود نظامه أرجاء المعمورة وتكون كلمة الذين كفروا السفلى حتى يحملوا استسلامهم وخضوعهم لسلطان الله ودينه وعباده الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والذين يعبدون الله ويسلمون له ويطيعونه ويقيمون له الدين .

ومن سمات منهج هذا الدين في الجهاد كما يقول شهيد الاسلام الاستاذ سيد قطب أنه " حركة تواجه واقعا بشريا . . وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي انها تواجه جاملية اعتقادية تصويرية تقوم عليها أنظمة واقعية عملية تسندها سلطات ذات قوة مادية . ومن ثم تواجه الحركة الاسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه . تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات تواجهه بالقوة والجهاد لازالة الانظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ، وتخضعهم

بالقهر والتضليل وتمبدهم لغير ربهم الجليل ، انها حركة لا تكفى بالبيان  
 في وجه السلطان المادى كما أنها لا تستخدم القهر المادى لضائر الاغترار  
 وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين . وهو يتحرك لاخراج الناس من  
 العبودية للعباد<sup>الى العبودية</sup> لله وحده . (١) . ويقول الاستاذ المودودى (٢) رحمه  
 الله " ولا يظن أحد أن المسلمين مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين يمثلون الناس  
 في المساجد ويدعونهم الى مذاهبهم ومسالكتهم بالخطب والمقالات ، لا ، ليس  
 الامر كذلك وانما هم جماعة أنشأها الله لتحمل لواء الحق والعدل بيدها وتكون  
 رائدة للناس ، ومن مهمتها التى ألقيت على كاهلها من أول يوم أن تقضى على  
 منابع الشر والمدوان وتقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال المقيت ،  
 وأن تكبح جماح الالهة الكاذبة الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق وجعلوا  
 أنفسهم أرباباً من دون الله ، وتستأصل شائفة ألوهيتهم وتقيم نظاماً للحكم  
 والصران يتفياً ظلاله القاصى والدانى والفنى والفقر . والى هذا المسمى  
 أشار الله تعالى في غير واحدة من آى الذكر الحكيم . " وقاتلوهم حتى لا تكون  
 فتنة ويكون الدين كله لله (٣) . . الآية " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين  
 الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٤) . "

ان كثيرا من المسلمين اليوم يمتقدون أن السلام الذى يدعو اليه الاسلام

(١) معالم في الطريق ، ص ٧٧ - ٧٨

(٢) الجهاد فى سبيل الله ، ص ٣٠ - ٣١ بتصرف

(٣) سورة الانفال : آية (٣٩)

(٤) سورة التوبة : آية (٣٣)



هو أن يعيش المسلمون عيشة وادعة آمنة في ظل أى نظام قائم في الأرض يسيّر في شئون حياتهم وفق الفلسفة والنظريات التي يؤمن بها الواضعون له ، فمادام المسلمون يتمتعون في ظل هذا النظام بأكبر قسط ممكن من المنافع والمصالح ولا يمتنعون من ممارسة شعائرهم التعبدية ولا تصيبهم مصيبة في أنفسهم ولا في أموالهم فإنه لا يضيرهم أن يسلموا قيادهم لهؤلاء الذين فرضوا ألوهيتهم على الناس ونفسدوا حاكميتهم في الأرض ويكونوا مطايا لدولة لهم . وهذه نتيجة الوهن الذي أصاب المسلمين في القرون الأخيرة وأدى بهم الى ايثار العافية وطلب السلم الرخيصة وترك الجهاد في سبيل الله . وقد نهاهم الله عن ذلك في كتابه العزيز — حيث قال جل شأنه \* فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاطعون والله معكم ولن يتركم أعمالكم (١) . ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام وقفوا مع مشركي مكة مثل هذا الموقف ورضوا بهذا النوع من التسامح والتعايش السلمى مكثفين بالجانب العقائدى والتعبدى وكانوا من اللين والمرونة بحيث لا يجدون غضاة من التضامن مع القوة المسيطرة والخضوع لها والسير في ركابها مسلمين لها القياد لتنفيذ في شئونهم أنظمتها وقوانينها لو أنهم وقفوا هذا الموقف لما وجدوا مشركي مكة من التمتع بالمنازل والقصور بحيث يرفضون اعطاءهم حريتهم في اعلان دينهم وعقيدتهم وممارسة شعائرهم التعبدية وبذل دعوتهم لمن يريد أن يسمعها منهم وهم بعد قوم خاضعون مسالمون مستسلمون .

ان الجهاد الاسلامي بمفهومه الواسع الشامل فريضة الله على عباده ، لا يبطله شئ \* ، ولا يتذرع لافائه بما يردده الاعداء والمنحرفون من المسلمين بأن الجهاد يجعل وجود المسلمين تحديا سافرا للامم غير المسلحة ويمتنع منه

تحقيق التعاون والتعامل مع غير المسلمين وأنه يتعارض مع ما يشر به الاسلام ويدعو اليه من تحقيق الامن والسلام واقامة الحق والعدل ونشر الفضيلة بين بنى البشر . انما ذلك كله أقاويل يراد بها صرف المسلمين عن الجهاد في سبيل الله وقتال الاعداء لتحرير البشرية من العبودية للبشر وانقاذها من قبضة الطغاة الجبابرة ونشر دعوة الحق بين العالمين . جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " . . والجهاد ما مضى بمتنى الله الى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . (١) .

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم الجهاد في هذا العصر الحديث أن كثيرا من المسلمين تحت ضغط الواقع البائس الذي يعيشه العالم الاسلامي في هذا العصر وثقل هذا الواقع في ميزان القوى المادية قد انخدعوا بحملات المستشرقين الحنيفة في تشويه حقيقة الجهاد الاسلامي وبواعثه وغاياته . فقد صوروا الاسلام حركة تسلط وقهر وعنف حملت السيف على رؤوس الناس لا كراهمهم على اعتناق العقيدة الاسلامية وصرفهم عن دينهم . ان هذه الصورة المنكرة التي صور بها الغرب الاسلام قد أفزعت المسلمين المخدوعين وهالهم الامر واعتراهم الخجل ، فراح فريق من الباحثين الحصريين المهزومين روحيا وعقليا ينافحون عن سمعة الاسلام ويدفعون عنه الاتهام . ولكنهم حين يتلمسون الاعذار ويبحثون عن المبررات الدفاعية لتبرئة ساحة الاسلام قد غفلوا عن طبيعة هذا الدين ودوره في الأرض وأهدافه العليا التي أرسل الله من أجلها رسوله محمدا بالهدى ودين الحق وتكفيل باظهاره على الدين كله . انهم لم يجدوا للجهاد والقتال مبررات سوى بعض الملابس الدفاعية الوقتية في المهدين المكى والمدنى وكان الجهاد سينطلق

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب الفزوم مع أئمة الجور ١٨/٣ عن أنس بن مالك .

في طريقه سواء وجدت هذه الملابس أم لم توجد . ان هؤلاء الباحثين كانوا يلبسون منهج<sup>(١)</sup> الاسلام في الجهاد لبسا مضللا ويخلطون بين النصوص خلطاً شديداً ويحملونها مالا تحتل من المبادئ وقد كانوا يسوقون النصوص الواردة في القتال دون مراعاة طبيعة منهج الاسلام في الجهاد والمراحل المتعددة التي مربها والوسائل المختلفة التي تقتضيها كل مرحلة لانهم لا يدركون الارتباط القائم بين النصوص المختلفة بعضها ببعض ولا يفهمون علاقة هذه النصوص بكل مرحلة من مراحل حركة دعوة الاسلام . انهم يصلون في دراستهم لهذه النصوص المختلفة الى أن الاسلام لم يقرر القتال الا للدفاع فقط فالمسلمون دعاة خير وحملات لواء الحق والعدل يدعون الناس الى دين الله القويم دين الامن والسلام دين الرحمة والبر والاحسان ، يدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة بالخطيب والرسائل والمقالات ويجادلون الذين يخالفونهم ويعارضونهم بالتي هي أحسن بالحجج الواضحة والبراهين الساطعة حتى يؤمن<sup>من يؤمن</sup> منهم بدعوة الاسلام عن بينة ويبقى على دينه من أي . فهم لا يكرهون الناس حتى يكونوا مسلمين ، هذه هي دعوة الاسلام من غير مازيادة ولا نقصان . وأما القتال واستعمال القوة فهو شأن عارض مقيد بملابسات وظروف تذهب وتجيء من دفع الظلم وصد العدوان وحماية الدعوة والمستجيبين لها وتأمين حدود بلاد المسلمين أو باختصار مايسمونه اليوم الحرب الدفاعية . فقد اضطر المسلمون في العهد الاول من الدعوة الى القتال للدفاع عن أنفسهم واموالهم وحريرتهم في الاعتقاد والتدين ، ولم يكونوا محبي القتال وسفك الدماء ولكنهم كانوا دعاة خير وسلام . يقول الاستاذ محمد عطية الابراشي بعد سرد تاريخ بدء الدعوة في مكة وبيان ملاقاه الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه من قريش من معاملة كليلة قسوة وفلظة واضطهاد حتى أمره الله تعالى ومن معه بالهجرة الى المدينة ورغم ذلك لم تكف قريش عن اذى الرسول وطلبه وملاحقته حيثما كان ، يقول الاستاذ الابراشي : لكن رسول الله لم يهاجم ولم يقف موقف الهجوم ولكنه وقف موقف المدافع فقط حتى جاءته قريش فهاجمته

وعند ذلك فقط قام ليدافع عن نفسه وقومه ودعوته ، وهذا هو الجهاد المشروع في الدين الاسلامي . وتتسع دائرته فيكون لحماية الدعوة الاسلامية والمستجيبين اليها مطلقا ولو كانوا في السجون بمكة يحذبون ليعبدوا اللات والعزى والاصنام والاوثان " ومالك لا تقاثلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا . " (٧٥/٤) وتتسع دائرة الجهاد في الاسلام فتشمل ازالة العقبات من طريق الدعوة حتى تأخذ طريقها المشروع لها لأن الدعوة الاسلامية دعوة حق وعدل وانصاف يجب الا يحول بينها وبين الناس حائل ويمكننا أن نقول ان موقف المسلمين من مخالفيهم في العقيدة الدينية لم يكن عدائيا ولكنه كان موقف دفاع لا موقف هجوم ، ولم يكن القتال أساسا للعلاقات بين المسلمين وغيرهم ولكن السلم كان هو الأساس . وان اذن الله للمسلمين بالقتال لم يكن لأكراه الناس على العقيدة الاسلامية بل لحماية الدعوة الى الاسلام وحماية اصحابها فقط . ولو لم يشر المشركون من قريش في وجه الدعوة ويؤذوا الرسول ومن تبعه من المسلمين وبهاجموا محمدا حيث هو ما شهر عليهم المسلمون سيفا ولا أراقتوا دما . . . . " الى أن قال " : ومن ذلك يتبين أن القتال في الاسلام كان تدبيرا وقتيا لأسباب خاصة محدودة ، وأن المسلمين اضطروا اليه اضطرارا وحملوه تحميلا ، وأن الاسلام يأبى على المسلمين أن يقتلوا من يخالفهم في العقيدة والدين لمجرد هذه المخالفة ويأبى عليهم أن يكرهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين (١) . " ويقول في موضع آخر (٢) " فالمنصفون من الباحثين يرون أن الاسلام لم ينتشر بالسيف ولم يأمر باراقة الدماء كما يتضح من الآيات القرآنية المتعددة . . . . ولم يدخل محمد في حرب الا مضطرا وقد روى عن

(١) كتاب روح الاسلام ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٥ - ١١٦ .

عائشة رضى الله عنها " هاخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار  
أيسرهما ما لم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس عنه " وقد بين الله ذلك  
في قوله " ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة " (١٩٥/٢) .

والحق أن الجهاد الاسلامي أمر آخر لا علاقة له البتة بحروب الناس  
اليوم لا في طبيعته ولا في بواعثه وغاياته ، وهو شأن دائم لا حالة عارضة .  
وذلك لأن الحق والباطل لا يمكن أن يتمايشا تمايشا سلميا جنبا الى جنب ففي  
هذه الأرض ، وأن الله في عليائه قد تكفل أن يدفع الناس بعضهم ببعض لرفع  
الفساد والظلم عن عباده " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع  
وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله  
لقوى عزيز (١) " يقول الاستاذ المودودي " ان ما اصطلح عليه الناس اليوم  
من تقسيم القتال الى الهجومي والدفاعي لا يصح اطلاقه على الجهاد الاسلامي  
البتة وانما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنية فقط لان هاتين  
الكلمتين المصطلح عليهما لا ينطق بهما وما جرى استعمالهما الا بالنسبة الى قطر  
مخصوص أو أمة بعينها (٢) .

والمسلمون خير أمة أخرجت للناس فهم يؤمنون بالله ورسوله ويحملون  
على كواهلهم نشر رسالة الحق والعدل وإقامة دين الله في الأرض وتطبيق منهج  
الله الشامل للحياة الانسانية ، فدينهم ورسالتهم لا تفرق بين أمة دون أمة ولا تخص  
قطرا دون قطر ، وهم يدعون جميع الامم والشعوب على اختلاف اجناسهم  
ولغاتهم الى فكرتهم ومنهجهم مفتوحة أبوابهم لكل من يريد أن يشارك في دفع  
مسيرة الخير والحق الى الامام ، وهم لا يسمون بجهادهم الا للقضاء على القوى  
المادية الجائرة وأنظمتها وقوانينها المناقضة لمبادئ الحق الخالدة ليقموا مكانها  
نظاما صالحا مؤسسا بنيانه على قواعد الحق والعدل التي يقرها دينهم

(١) سورة الحج : آية (٤٠)

(٢) كتاب الجهاد في سبيل الله ص ٤٢ بتصريف بسيط

ويدعو اليها . . من أجل هذا المجال البتة في دائرة أمة هذه صفاتها . .  
لما اصطلموها عليه من نوعي القتال الهجومي والدفاعي .

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم الجهاد في سبيل الله أن كثر من المسلمين اليوم قد غلب على قلوبهم الوهن وحب الدنيا وكراهية الموت وراحوا يتعلقون بجملعة اعداء واهية لدفع فريضة الجهاد يقولون في انحرافهم كيف يمكن الجهاد في هذا العصر والمسلمون يعيشون في حالة بائسة من ضعف وتخلّص ذل وهوان وتشتت وتناحر وجهل وبعد عن روح الإسلام وتعاليمه السامية وقد تفرقوا شيئا واحزابا فلا تجمعهم كلمة ولا تضمهم راية ، بأسهم فيما بينهم شديد ، بينما أعداؤهم متفوقون عليهم تفوقا ظاهرا في النواحي المادية من الحياة وبخاصة الناحية العسكرية والتنظيم الحربي ، وصناعة الاسلحة والمتاد . فالمسلمون اليوم يعيشون في ظروف قاسية صعبة ويمرون بمرحلة حرجة لم يسبق لها مثيل في تاريخهم الطويل ، وذلك لان كيد الاعداء ومكرهم مابلغ في يوم في احكامه وشدته واتساع مداه مابلغه في القرون الثلاثة الاخيرة ، كما أن خضوع المسلمين واستسلامهم للواقع البائس ورضاهم بالذل والهوان لم يبلغ في يوم مدى مابلغه في هذه الفترة الاخيرة . ان الذي حدث بالمسلمين في هذه الفترة العصيبة هو هزيمتهم النفسية امام اعدائهم حين رأوا قوتهم الهائلة وتفوقهم في النواحي المادية من الحياة فأيقنوا الا قبل لهم بجيوشهم فوهنوا واستكانوا واستسلموا لحكم الواقع . ولكنهم لجأوا في هذه الايام الاخيرة الى سلاح المهزومين فأخذوا يتشدقون بمبررات عديدة ومماذير عريضة ليخففوا عن أنفسهم شدة الهزيمة ووقع الضربات والآلام الجراح . وان وسائل التخدير المتعددة التي يستخدمها الاعداء لاتزال تعمل عملها في عقول هؤلاء المسلمين بحيث لا يشعرون معها بما حل بهم من نكبات جسمية وما يحفهم من مخاطر وما يدبر لهم من مكائد وحيل ومواعير . ولو أنهم وعوا رسالة الاسلام الى بني البشر وفهموا مهمتهم ودورهم في الارض وأحسوا مآلهم به العالم كله من خسارة كبيرة بسبب تخليهم عن مهمتهم لا اجتمعت قلوبهم

من تفرقها وتناكرها ورجعوا الى دينهم ليقوموا بمهمتهم في هداية البشرية .

وان بعض المسلمين يقولون ان حال المسلمين اليوم تشبه حال المسلمين في مكة عند بدء الدعوة حيث كان اعداؤهم متفوقين عليهم ماديا وممنوبا فلم يقتصروا على مواجهتهم وقتالهم ففيل لهم "كفوا ايديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . (١) الآية

ان الذى نحب أن نوضحه هنا هو أن المسلمين الاولين في مكة لم يكونوا في ذل ووهن ، لم يكونوا خاضعين لعلو الكفر ولا مستسلمين لغلبة الاعداء ولكنهم كانوا في جهاد كبير مع الكفر وأهله ، فقد أعلنوا ايمانهم بالله وكفرهم بالطواغيت في عقائدها وأنظمتها وتقاليدها مجاهدين ببراءتهم منها وخروجهم عنها عليها وكانوا في تحد مستمر للاعداء وفي صبر لا يعترف الضعف واليأس لما يصيبهم من أذى وتمذيب واضطهاد وتتكيل في سبيل دينهم . انهم لم يكونوا في لسب ولهو وآمان ممسولة وانما كانوا في مرحلة اعداد وتهيؤ وتخطيط وجد وعزم مستعدة ثم أنهم كانوا في فترة كان القتال فيها منهيًا عنه لم يشرع بعد ولم يؤذن لهم به . ولما فرض عليهم الجهاد والقتال استجابوا لامر ربهم وجاهدوا في سبيل الله حق جهاد بأموالهم وانفسهم حتى نصرهم الله على أعدائهم ومكن لهم ولد دينهم في الأرض .

## المبحث الخامس

### " افعال باب الاجتهاد "

الفقه هو الذي يمثل الجانب العملي التطبيقي في الشريعة الإسلامية وهو الذي يسير الناحية المتطورة من الحياة الانسانية لمعالجة الامور المستجدة وحل المشكلات ووزن القنايا والأحداث بميزان المصلحة والمفسدة على ضوء مبادئ الاسلام الكلية وقواعده العامة حتى لا يجد الناس عسرا ولا مشقة ولا حرجا فيما يعرض لهم من أمور ومشكلات واحداث وما يستحدث في مجتمعاتهم من وسائل النمو والتطور . فالتجدد والتطور من سنة الحياة فهو ضروري لحياة المجتمع المسلم وضروري أيضا لحياة الدين نفسه من أجل الحفاظ على قوته وسيادته وسيطرته على الناحية المتطورة من شؤون الحياة والانسان وتقرير ملاحيته لكل زمان ومكان . وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها " (١) فالامة بعد مئتي حقب من الزمن بحاجة الى تجديد ومصلح قد ير يدعوا الى اقامة الدين وعدم الانحراف عن جاداته ويصلح ما فسد من أحوال الناس وما أهملوه من أمور دينهم ويدلهم على أحكام ما استحدثت في المجتمع من قنايا وسائل لم يكن للناس بها عهد من قبل .

وان الاجتهاد في طلب أحكام الأمور المستحدثة والاحوال المتجددة في المجتمع واجب من واجبات هذا الدين الاسلامي الذي لا يخصص أمة دون أمة وليس محدودا بفترة معينة من الزمن أو مكان خاص في الأرض وانما هو دين الناس أجمعين في كل زمان ومكان . وانما كان من طبيعة الحياة التبدل والتغيير

(١) رواه ابو داود في كتاب الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المائة ١٠٩/٤ هـ  
ابن هريرة .



والتطور ، الأمر الذي تختلف معه شئون الناس وأحوالهم وحاجاتهم بحسب اختلاف ظروف الزمان والمكان ، وكانت مهمة الدين إقامة الحق والعدل بين الناس وتوجيههم إلى الخير ورعاية مصالحهم وتحسين أحوال معاشهم وتحقيق السعادة لهم في رحلة الحياة . . . إذا كانت تلك هي طبيعة الحياة وكانت هذه هي مهمة الدين ورسالته فلا بد من الاجتهاد المؤسس بنيانه على قواعد العدل والمصلحة التي قررها الاسلام لرفع الحرج عن الناس وعدم تنقيق آفاق الحياة الواسعة في وجههم . كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعري مرة في شأن الاجتهاد يقول " . . . الفهم الفهم فيما تلجأ في صدرك مالميس في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ثم اعرف بالأشياء والا مثال فقس الامور عند ذلك بنظائرها واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . . . " (١)

ولقد برهنت العصور الاسلامية الزاهرة على ملائمة الاسلام للحياة الانسانية في أطوارها المختلفة وقدرته على الاستجابة لكافة شوائها وظروفها وأنواعها بما يحتوي<sup>عليه</sup> من مبادئ كلية وقواعد عامة . فقد اجتهد الخلفاء الراشدون فيما استجد على الناس من أمور ومعارض لهم من مشكلات وأحداث واقترحوا لها الحلول ، وكانوا داعما يوائمون بين مبادئ الدين وتعاليمه وحاجات الناس ومصلحتهم . وكان إلى جانبهم علماء مجتهدون من أفاضل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يدينونهم في ذلك . فقد اجتهد أبو بكر الصديق رضى الله عنه في مسائل كثيرة وقعت في عهده منها مسألة جمسع القرآن وقتال مانع الزكاة وتعيين الخليفة من بعده وغير ذلك . ولما جاء عهد

عمر بن الخطاب وقد استقرت الفتوح واتسعت رقعة الدولة الإسلامية وقامت في المجتمع المسلم ظروف وأحوال ووقعت أحداث لم يكن للناس بها عهد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وزمن أبي بكر وكانت حاجة المجتمع شديدة إلى وضع نظم جديدة تتلاءم مع هذه الأحوال وتحل مشكلاتها (١) ، لما حدث هذا كله في عهد الخليفة عمر ، واجه الفاروق الأربعة أيمان وصدق عزيزة واجتهاد لمواجهة الظروف الجديدة معمره على أن تكون اجتهاداته ملائمة لأحوال المجتمع ومتفقة في الوقت ذاته مع روح العبادات والتعاليم الإسلامية ، وميسرة نماذج اجتهاد عمر رضي الله عنه موقفه من كبار الصحابة في عدم السماح لهم بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك السباع بها ، واقتراح مسألة الخراج ، وضع عطاء المؤلفة قلوبهم ، وتطبيق مبدأ الضرورة في كثير من الأحداث المهمة وغير ذلك . وهكذا سار موكب الاجتهاد في عهد الخليفة عثمان وعهد علي بن أبي طالب ومن جاء بعدهم حيث كان الخليفة يتولى مهمة الاجتهاد ومعه عدد من العلماء يمينونه في ذلك .

وقد استمر الأمر هكذا حتى جاء زمن الخلفاء الذين لاحظ لهم من العلم والفقه ولم يكن لديهم من التربية الدينية وملكة التفقه والاستنباط ما يؤهلهم للاضطلاع بمهمة الاجتهاد في المسائل الدينية والأمر الديني (٢) فتركوا هذه المهمة إلى العلماء واخذوا على عاتقهم شؤون الحكم والسياسة ووكلوا إلى العلماء والفقهاء مهمة القضاء والفتيا واتخذوا منهم مستشارين يستعينون بهم في الأمور المهمة .

ولقد امتازت القرون الإسلامية الأولى بالابداع العلمي وازدهار الفقه

(١) انظر أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥

(٢) انظر ، أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ،

منذ عهد الصحابة حتى عهد الأئمة المجتهدين في القرن الثاني الهجري وبعد ذلك بقرنين أو ثلاثة على الأكثر حيث شهد المجتمع الاسلامي نهضة علمية هائلة في شتى مجالات العلوم النظرية والعملية والدينية والدنيوية . ففي عصر الأئمة المجتهدين بلغ الفقه والاجتهاد مبلغا كبيرا من النشاط والازدهار ، ولم يقف هؤلاء العلماء في عملهم الجاد الحثري في مجال البحث والدراسة عند حدود حل مشكلات عصرهم ومعالجة احوال مجتمعهم والأمر المستجدة على الناس فيه فحسب بل تخطوا ذلك الى افتراض مشكلات واحداث واقتراح الحلول المناسبة لها . لقد أطلقوا لخيالهم العنان فقدروا آلافا مؤلفة من الاسئلة والافتراضات في جميع أبواب الفقه ، منها ما يمكن حدوثة عقلا ومنها ما لا يحتمل تصوره عقلا فضلا عن وقوعه . والذي يستعرض أعمال هؤلاء الأئمة الاعلام وجهودهم المظنية في مجال الفقه والاجتهاد وجهود تلاميذهم النجباء من بعدهم ، الذي يستعرض هذه الاعمال والجهود يعلم يقينا أنهم خلفوا ذخيرة علمية واسعة للأجيال المسلمة من بعدهم وكأنهم كانوا يريدون أن يحملوا عن الأجيال اللاحقة مشقة البحث والدراسة ويريحوها من متاعب كد الذهن فيما سيعرض لها من مشكلات وأمر وأوضاع جديدة .

ولما جاءت الاجيال التالية لعهد الأئمة وجدت أن الأئمة السابقين قد نالوا أمامها الطريق وقد موارها كل ما كانت بحاجة اليه في عصرها ، وجدت أن الفقه قد دون بتفصيلات دقيقة واسعة شاملة بحيث لم يدع لها مجالا تحتساج معه الى اجتهادات جديدة . وقد رأت تلك الاجيال أن نشاط الأولين شمل معظم ما استجد في عهدهم من أمور وأحداث فاكفوا بما خلفوه . وقام كل فريق من فقهاء المذاهب المختلفة باظهار علل الاحكام التي استنبطها امامه وبالترجيح بين الآراء المختلفة في مذهب امامه وينصرة هذا المذهب جملة وتفصيلا وذلك بنشر ما كان عليه امام المذهب من العلم الواسع والورع الصادق

وحسن الاستنباط والاتباع التام لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وترجيح مذهبه في كل مسألة خلافية (١) . وهكذا وقف موكب الاجتهاد عند النقطة التي انتهى اليها الأولون حيث ان الاجيال التالية لهم رأيت عدم الحاجة الى اجتهادات جديدة .

ثم جاء بعد ذلك جيل متأخر فوجد أن فقهاء الاجيال السابقة قد تركوا الاجتهاد فأساء فهم موقفهم وظن أنهم لم يجتهدوا لأن باب الاجتهاد قد أقفل وأنه لم يعد جائزا للفقهاء أن يجتهدوا في الدين اذ لم تتوافر فيهم شروط الاجتهاد كما توافرت في الائمة السابقين ، وأن الواجب على المتأخرين انما هو تقليد هؤلاء السابقين واقتفاء آثارهم . وهكذا أقفل باب الاجتهاد منذ القرن الرابع أو الخامس للهجرة ، وكان الفقهاء يحذرون تقليد أئمة المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة ، كان المالم أو الفقيه يتبع اماما من هؤلاء الائمة ويستوعب مذهبه ويتعصب له ثم لا يجيز لنفسه ان يتعداه الى غيره وظل الامر هكذا فترة طويلة من الزمن حتى جاءت القرون الأخيرة ومخاصمة بعد القرن الماشر الهجري حين جرى الفقهاء على شرح مؤلفات من سبقهم في كتب مطولات أو اختصارها في متون موجزة وأخذ اقوالهم مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة ، وقد كانوا يعتمدون على أقوال الائمة المتقدمين وآرائهم في حل المشكلات ومعالجة القضايا والمسائل دون النظر الى الادلة الشرعية العملية ومراعاة مقاصد الشريعة والمصلحة العامة حتى وصل الامر بهؤلاء الفقهاء الى أن يجعلوا قول الامام أصلا يطبقون عليه الدليل الأصلي من الكتاب والسنة (٢) ، فان كانت الآية أو الحديث مخالفا لقول الامام فهما اما منسوخان واما مؤولان

(١) انظر الشيخ محمد الخاضعي ، تاريخ التشريع الاسلامي من ٢٤١ - ٢٤٣

(٢) انظر الشيخ محمد المبارك ، المجتمع الاسلامي المعاصر ، ص ٥٦

بما يوافق رأى الامام ، ذكر الشيخ محمد الخضرى أن أبا الحسن عبيد الله الكرخى وهو الملقب بـ "الليمة فقهاء الحنفية" في زمانه يقول : كل آية تخالف ما عليه أصحابنا —————  
فهي مؤولة أو منسوخة وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ . (١)

ويقول الشيخ الخضرى في تصوير الدور الخامس والسادس من الأدوار التى مربها الفقه منذ شرف الله محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته الى يومنا هذا :  
" لا شك أنه كان في كل دور من الأدوار السابقة مجتهدون ومقلدون ، فالمجتهدون هم الفقهاء الذين يدرسون الكتاب والسنة ويكون عندهم من المقدرة ما يستنبطون به الاحكام من ظواهر النصوص أو من معقولها . والمقلدون هم العامة الذين لم يشتغلوا بدراسة الكتاب والسنة دراسة تؤهلهم الى الاستنباط فهم ————— مؤلاء  
كانوا اذا نزلت بهم نازلة يفرعون الى فقيه من فقهاء بلدهم يستفتونه فيما ننزل  
بهم فيفتيهم ، أما في هذا الدور (أى الدور الخامس (٢) ) فان روح التقليد  
سرت سريانا عاما واشترك فيها العلماء وغيرهم من الجمهور ، فبعد أن كسان  
مريد الفقه يشتغل أولا بدراسة الكتاب ورواية السنة اللذين هما أساس الاستنباط  
صار في هذا الدور يتلقى كتب امام معين ويدرس طريقته التى استنبط بها مادونه  
من الاحكام فاذا تم ذلك صار من العلماء الفقهاء ومنهم من تعلوبه همته فيؤلف  
كتابا في احكام امامه اما اختصارا لمؤلف سابق أو شرحا له أو جمعا لما تفرق  
في كتب شتى ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه ان يقول في مسألة من المسائل  
قولا يخالف ما افتى به امامه كأن الحق كله نزل على لسان امامه وقلبه (٣) . ويقول  
عن الدور (٤) السادس : " وأعظم مميزات هذا الدور تمكن روح التقليد المحض

- 
- (١) تاريخ التشريع الاسلامي ، ص ٢٣٦  
(٢) هو دور القيام على المذاهب وتأييدها وشيوع المناظرة والجدل من أوائل  
القرن الرابع الهجرى الى سقوط الدولة العباسية .  
(٣) تاريخ التشريع الاسلامي ، ص ٢٣٦  
(٤) هو دور التقليد المحض ، منذ فترة سقوط الدولة العباسية الى الان .

من نفوس العلماء فلم ير منهم من سمت نفسه الى رتبة الاجتهاد الا القليل منهم وذلك في النصف الأول من هذا الدور وهو العهد الذي حلت فيه القاهرة محل بغداد وصارت مقراً لمملكة اسلامية وخلافة عباسية ففي هذا العهد كان ينبغي من آن لاخر من يصلون هذه الرتبة لكثرتهم مع ذلك واقفون عند الانتساب الى الائمة المصروفين أما في النصف الثاني وهو من أوائل القرن العاشر الهجري الآن فان الحال قد تبدلت والمعالج قد تغيرت وأعلن انه لا يجوز لفقهاء ان يغتسروا ولا أن يرجع وأن زمن ذلك قد فات وحيل بين الناس وبين كتب المتقدمين واقتصر الحال بهم على تلك الكتب التي بين أيديهم . . . الى ان قال " فلانسمع باسم عالم كبير أو فقيه عظيم أو مؤلفاً مجيد بل نجد قوماً غلبت عليهم القناعة فسي الفقيه فقلما نجد من يشتغل بتغيير مذهبه وانما اشتغل بمذهبه اقتصر على تلك الكتب التي اشتد بها الاختصار حتى كأنها ما ألفت لتفهم ، كأن السقوط السياسي سقط بالعلم ولا سيما الديني منه الى هوة بعيدة الغاية" (١)

لقد منى الفقه الاسلامي في العصور الاخيرة بظاهرتين كان لهما آثار سيئة في الحياة الاسلامية أولا هما التقليد الاعمى في اخذ اقوال المذاهب من غير مصرفة الدليل الشرعي ، والثقا عن دفع موكب الاجتهاد الى الامام ومواصلة البحث والدراسة استجابة لطبيعة الحياة الانسانية في تطورها وتبدل أحوالها واختلاف ظروفها وازماعتها . وثانيتهما التعصب الشديد لعلماء المذاهب المختلفة وبخاصة من الفقهاء المتأخرين ، والاعتقاد بخطأ المذاهب الاخرى وخطأ المنتسبين لها ، ومجافاة اتباع المذاهب بعضهم لبعض (٢) . وقد قام بسبب ذلك خلاف كبير بين اتباع المذاهب المختلفة اسفر عن عداء طوييل

(١) تاريخ التشريع الاسلامي ص ٢٦٦ - ٢٦٧

(٢) انظر الشيخ محمد المبارك ، نظام الاسلام (العبادة) ص ١٣ - ١٤

عنيف وأدى في كثير من الأحيان الى اندلاع نار حروب طاحنة بينهم سفكست فيها الدماء بغزارة ودمرت فيها البلدان وأهلك فيها الحرث والنسل ، ولسـو أردت ان تقف على مدى ماضي به المسلمون من الضرر البالغ والخسارة الفادحة بسبب التقليد والتعصب الممقوت والخلاف الحاد بين اتباع المذاهب المختلفة فاقراً لياقوت الحموي كتابه معجم البلدان تجده في مواضع كثيرة بمد الحديث عن بلدة من البلدان الخاوية الخربة يقرر أن هذه البلدة قد خربت بسبب حـرب قامت بين الشافعية والحنفية .

ومن الجانب الاخر فقد أدى التقليد والتعصب الشديد الى ضعف القدرة العلمية وفقدان ملكة الابداع والاجتهاد وضعف الحركة العلمية الناهضة التي بدأت منذ القرن الثاني الهجري ، فأصاب الفقه الاسلامي ركود وجمود وجمدت معه الحياة الاسلامية بسبب اقبال باب الاجتهاد وسريان روح التقليد والتعصب في المجتمع المسلم ووقفت القافلة عند النقطة التي انتهت اليها في القـرون الخاص الهجري تقريبا . ولكن رغم ذلك لم يخل قرن من القرون الاسلامية من علماء مجتهدين يقومون في هذه الامة على طريقة السلف الصالح يجددون لها دينها ويسيرونها في الطريق الذي يحقق صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ويبدلون كل ما يملكون من جهود لاصلاح ما فسد من أحوال المجتمع وما انحرف الناس فيه من تعاليم الدين . ولقد عانى هؤلاء الشـيء الكثير من الحملات العنيفة التي يشنها عليهم العلماء الذين يدنون بالتقليد وينضمون فتح باب الاجتهاد ومواصلة البحث والدراسة في حل المسائل المستجدة على الناس حيث كانوا يهيجون عليهم العامة ويوقعون بينهم وبين الحكام في كثير من الحالات . وقد أدى ذلك الى توقف كثير من العلماء عن الاجتهاد أو اخفاء ملكة الابداع وقدرة الفهم والتفقه التي منحهم الله اياها خشية الفتنة التي لا تهاون فيها اعراشهم ولا يطعن في عقيدتهم ودنيهم فحسب بل يعرضون في كثير

من الأحيان لانواع المذاب والتكيل . وبذلك قل في هذه القرون من يـرد هذا الطريق الوعر وكثر رواد طريق التقليد ومنع فتح باب الاجتهاد ، وكانت لذلك آثاره السيئة في الحياة الاسلامية ، وقد عانت الامة من جمود هــولاء العلماء وركودهم منذ عصور الانحطاط وفي القرون الاخيرة بوجه خاص . ولم يكن ذلك فقط هو ما حدث في عصور الانحطاط بل الى جانب ذلك كان قصر العلماء عنماتهم في دراسة الفقه على الجانب المادى الجاف واهمالهم للجانب الروحى المعنوى حتى بدت الدراسات الفقهية في صورة جافة لاحياء فيها ولا روح ، وشمل ذلك جميع ابواب الفقه حتى تلك التى كانت وثيقة الصلة بالجانب الروحى والناحية الاجتماعية ، ولم يكن الفقهاء وحدهم هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه القاصر كما لم يكن علم الفقه هو فقط الذى يعانى من هذه المشكلة بل كذلك كان معظم العلماء فى شتى مجالات العلوم الاسلامية كالحديث والتفسير والتوحيد والتاريخ وعلم المنطق والنحو والصرف والبلاغة ، والى جانب ذلك كان هــولاء العلماء فى اتجاههم الناقص المحدود يمدون ماسواه انحرافا وضلالا يحذرون الناس منه وينمقونهم من السير فى الطريق المخالف لطريقهم فى قليل او كثير . وقد بذلوا جهودا مـنية فى حمل المقل على قبول آرائهم وأفكارهم وعدم الخروج عن دائرتها بأى حال . وقد حققوا لانفسهم نجاحا كبيرا فى هذا المجال ، ولكن ذلك ادى الى التخلف والضعف فى الحياة العملية والاجتماعية فى المجتمع المسلم . وقد بلغ الامر فى ذلك بلغا مـن السوء حتى ان بعض الباحثين المعاصرين المتأثرين بالمستشرقين لا يرون اصلاحا لحال المسلمين فى هذا المجال الا بفصل العلم عن الدين واطلاق حرية العلم وعدم اخضاعه لضوابط وقيود تمنعه السير فى الاتجاه الذى يريده أوعبارة صريحة نبذ الدين وراء الظهر أوحصره فى نطاق ضيق محدود كماحدث للأمم الأوروبية الكافرة . وهذا مايدعوا اليه الاستاذ احمد أمين بقوله : " ان اصلاح



حال المسلمين يكون بشيئين احدهما فصل المسلم عن الدين والتوسع فـ...  
 العلم الى أقصى حد مستطاع . (١) "

وبهذا سارت الامور في عصور الانحطاط ، ثم انه لما كان من طبيعة الحياة  
 الانسانية حسب سنة الله أن يجرى فيها التطور والتغير والتبدل باستمرار فقد قامت  
 في المجتمع المسلم خلال تلك الفترة ظروف وأحوال واحداث مختلفة وظهرت حاجات  
 ومشكلات جديدة لم يستقصها فقه مدون ولم يستوعبها مذهب مأثور ولا فتاوى مؤلفسة  
 ولا حتى مجموعة الفروع والاحتمالات التي خلفها السابقون والشيوخ والتعليقات  
 التي أنشأها المتأخرون الى أعمال المتقدمين ، وقد كانت الاحداث والشكلات  
 المستجدة والاحوال والاضغاع القائمة تتطلب من الفقهاء تقديم حلول مناسبة  
 تتلاءم مع روح العصر ومقتضيات الاحوال ولكلهم كانوا يرون في التقليد الطريق  
 الامثل فدانوا به واخذوا يداغمون عنه وبهاجمون من يقدم على الاجتهاد ويرمونه  
 بالكفر والزندقة . ومر الزمن . وكانت حال المجتمع المسلم تزداد سـ...  
 بسبب جمود الحياة الاسلامية وركودها وظهرت امارات الضعف والتخلف  
 والانهياء على العالم الاسلامي وبدأت قيمته تنحط في ميزان القوى العالمية  
 وبخاصة في أواخر عهد الدولة العثمانية . وقد ازداد ذلك وضوحا بعد قيام  
 الثورة الفرنسية في أوروبا وولادة النهضة الحضارية الأوربية على اثر ذلك فتبدلت  
 حال الدول الأوربية وصارت الى قوة بعد ضعف وتخلف ، وتقدمت في شتى مجالات  
 الحياة وبخاصة في المجال الصناعي والحربي والسياسي . وفي الوقت الذي كان  
 يحدث ذلك كله في أوروبا وكانت الدول الأوربية تستجمع كل قواها لدفع عجلة  
 النهضة الى الامام استجابة لمقتضيات الاحوال وتفاعلا مع طبيعة الحياة الانسانية...  
 كانت الدولة العثمانية ( زعيمة العالم الاسلامي آنذاك ) في أواخر عهدها وقد

نأت بها روح التقليد وثلث قواها عن الانطلاق وعرقلتها عن السير في الاتجاه الصحيح ، وأخذت تثن تحت ولادة الجمود والركود وهي في طريقها إلى الانحدار والتدنّي. وبدت عليها امارات الشيوخة والنحف والوهن بعد أن كانت مملكة في الارض قوية الشكيمة مرهبة الجانب يحسب لها أعداؤها ألف حساب وتتهاوى قواتهم امام جيشها الباسل وهو يزحف كالسيل المرم .

ولكن يجب ان نوّكد هنا انه ليس مسيحيا ماشاع في أوساط الباحثين والمفكرين والمؤرخين أن الدولة العثمانية هي التي اقلت باب الاجتهاد ، وقد ذكرنا سابقا أن باب الاجتهاد قد أقفل في القرن الخامس الهجري تقريبا . وقد جرت الدول الاسلامية منذ ذلك الوقت بقيادة كثير من العلماء على منسج فتح هذا الباب لاعتقادهم بأن الاجتهاد قد انتهى بانتهاء عصر الائمة . وان الذي جعل من جاء بعد الأئمة "المجتهدين" خلال جيلين أو ثلاثة يتوقفون عن الاجتهاد انما هو علمهم بعدم جواز ذلك لهم ولعدم توافر شروط الاجتهاد فيهم أو لعدم قيام الحاجة للاجتهاد ، وهكذا اساءوا فهم موقف السابقين من الاجتهاد . وأما الذي حدث من الدولة العثمانية فهو انها رفعت السماح بفتح باب الاجتهاد لان العلماء أنفسهم ذهبوا هذا المذهب ، وتقاعسوا عن بلوغ درجة الاجتهاد بسبب جريانهم على التقليد والتعصب المذهبي حتى لم يعد فيهم من يقدر على القيام بهذه المهمة، فلذلك ضعت الدولة العثمانية فتح باب الاجتهاد لعدم وجود من تتوافر فيه شروطه .

وبينما نجد بعض السلاطين العثمانيين وقد دبت في نفوسهم اليقظة حينما رأوا تدهور حال الامة الاسلامية الى جانب قوة اعدائها وتفوقهم فسي شتى مجالات الحياة وتهديد هم المباشر المستمر للعالم الاسلامي ، وأرادوا أن يقوموا ببعض اصلاحات ضرورية في شئون الدولة عن طريق الاستفادة بما وصلت اليه أوروبا من علم وخبرة وفن وبخاصة في مجال الاعداد الحريس ، بينما كان ذلك من

بعض السلاطين العثمانيين ، رأينا العلماء قد اتخذوا منهم موقف المعارضة وقاوموا محاولاتهم مقاومة شديدة رغم أنهم لم يكن في جعبتهم شيء يقدمون عليه لا صلاح الوضع المتدهور ورفع شأن الأمة وأنهم هم الذين ألجأوا إصمتهم الى ان تمد عينها الى الامم الاخرى . ومن ذلك أن السلطان سليم الثالث رأى في عهدده أن الحاجة تدعو الى اصلاح وضع الجيش العثماني نظرا للظروف العسكرية الدولية التي لم يمد يصلح معها بقاء الجيش العثماني على المستوى الذي كان عليه حيث ان كفة الاعداء تكاد تكون راجحة على كفة دولته . ولكن السلطان رأى أن العلماء - وهم الذين يشلون قادة الفكر في الدولة - ليس في مقدورهم القيام بمهمة وضع لوائح تنظيمية حربية تتفق مع روح العصر وتساير طبيعة الاحوال المتطورة في العالم لانهم يعيشون في عالمهم الضيق المحدود في معزل عن واقع عصرهم ومشكلاته واحداثه كما أن قادة الجيش أنفسهم ليس في استطاعتهم أيضا الادلاء بأى دلو في هذا المجال نتيجة حالة الجمود الفكرى والركود العلمى التي كانت تعيشها الأمة الاسلامية . ولما كان الاصلاح غير ممكن على الصعيد الداخلى وعن طريق العناصر الداخلية اضطر السلطان سليم الثالث الى اللجوء الى دول الغرب المانيا ، وفرنسا والسويد وغيرها يستجلب منها المدربين والخبراء العسكريين ليتولوا تدريب وتنظيم الجيش العثماني . وفي هذه الفترة فقط في تاريخ الاسلام الطويل شمرت الأمة الاسلامية بحاجة ملحة الى الاستفادة من اعدائها من أجل بناء قوتها . وقد عارض هذه المسألة من أسامها وقاوموها بشدة وأسفرت مقاومتهم عن خلع السلطان ثم قتله (١) بعد ذلك . ولكن العملية لم تتوقف بعد القضاء على السلطان لأن حاجة الدولة أخذت تزداد يوما بعد يوم الى الاستفادة مما توصلت اليه أوروبا من الوسائل والخبرات والانتاج العلمى الحديث ، وإذا كانت العملية قد قامت في أول امرها بدافع حسن النية والرغبة في اصلاح الوضع المتدهور فسي العالم الاسلامي فقد نتجت عنها مخاطر جسيمة بسبب انجراف الناس مع سيلها

(١) راجع كتاب ماذا خسر العالم بالخطاط المسلمين للشيخ ابي الحسن الندوى ،

وقد أخذت هذه العملية بعد ذلك تسير في طرق ملتوية وبصورة بطيئة خطـوة  
 اثر أخرى كلما سنحت الفرصة وانفسح المجال وظهرت حاجة جديدة حتى جاء  
 الوقت الذي أصبحت العملية مصدرا ثابتا ومنهجيا لا يرى الناس في التمسك به والسير  
 في ركابه أى عيب أو منقصة أو خطر ، فاستوردت الاجيال الاسلامية المتأخرة القوانين  
 والنظم والطرائق والمناهج الاجنبية في شتى مجالات الحياة أهمها مجال الاعداد  
 الحربى والتنظيم الادارى ومجال الحكم والتشريع والتنظيمات السياسية وفـي  
 مجال الاقتصاد والاجتماع ومجال التعليم والثقافة وما الى ذلك (١) . وهذه هى  
 النتائج السيئة التى أدى اليها سوء فهم العلماء لموقف المتقدمين من الاجتهاد  
 واتخاذهم هم أنفسهم موقفا متضلعا في منع فتح باب الاجتهاد وسريان روح التقليد  
 فيهم وجمودهم وتخلفهم وعجزهم عن توجيه الفقه الاسلامى وجهة صحيحة حيـية  
 متحركة ليكون قادرا على مسايرة روح العصر والاستجابة لطبيعة الحياة . وقد رأينا  
 كيف أدى الامر الى فقدان العلماء سيادتهم ونفوذهم في المجتمع ودورهم في مجال  
 التوجيه والفكر والابداع في شئون الحياة ولم يعد الناس - وبخاصة الحكام - يخضعون  
 لا فكارهم واتجاهاتهم القاصرة التى تضيق عليهم آفاق الشريعة الاسلامية الواسعة  
 وتضيق عليهم بالتالى آفاق الحياة التى تسرع الخطى يوما بعد يوم نحو التطـور  
 والتقدم .

وهكذا فقد الفقه الاسلامى سيادته على شئون حياة المجتمع بسبب سوء  
 فهم العلماء وانحرافهم وحصرهم دائرة الفقه في حدود ضيقة لا تستوعب مجالات الحياة  
 ولا تستجيب لجميع مطالبها فوجد الناس فراغات وثلمات في بناء الحياة الاسلامية  
 عجز العلماء عن سدّها فوجهوا وجوههم شطر الدول الأوربية " المتقدمـة "  
 يستوردون القوانين والنظم والمناهج وساروا في اتجاهات شتى لا تستظل بالشريعة  
 الاسلامية ولا تستنير بتعاليم الدين الحنيف ومبادئه المأمة وقواعده الكلية تاركين

(١) راجع العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الاسلامية المعاصرة ،  
 سفر بن عبد الرحمن الحوالى ص ٥١٤ - ٥١٥

العلماء يمشون بأفكارهم واتجاهاتهم على هامش الحياة بعيداً عن مجـال التوجيه والسلطة الفعلية . ثم ان الهوة القائمة بين اتجاه العلماء واتجاه المجتمع في أحواله المتجددة قد أخذت تتسع دائرتها في المهود الأخيرة ، وأخذ الناس ينفلتون من زمام العلماء حتى لم يبق لهم سوى سلطانهم الديني ، وقصد خرجت مجالات متعددة من الحياة العملية من رقابة الدين وتوجيهه وسيادته فأنحصرت دائرة عمله في نطاق ضيق محدود . ولما جاء أبناء الجيل الحديث نظروا الى هؤلاء العلماء وآرائهم وأفكارهم نظرة استعزاز وازدراء حيث رأوهم عناصر غريبة في المجتمع ترتع في حماة الجمود والتخلف ولا تريد منها نهوضاً ولا تقدماً ، ثم جاءت النتيجة السيئة لذلك حين ظن هؤلاء الأبناء - متأثرين بالافتكار التي يرددونها المرجفون والمارقون المنحرفون - أن جمود العلماء وركودهم وتغلغلهم إنما هو ناشئ عن جمود في الدين الاسلامي وقصور وعجز في تعاليمه ومبادئه عن مسايرة تطورات الحياة وتبدلات الظروف والاحوال ، وبذلك اعطوا الصفة " الشرعية " لعملية تقبل المناهج الاجنبية واتباع الطرائق التي يجسدون فيها ما قصر عنه الدين (في زعمهم) من شئون الحياة العملية فأبعدوا التجمسية وكانوا كمن يستجير من الرمضاء بالنار وازدادت حالهم سوءاً الى سوء وتاهسوا وشقوا في رحلتهم في الحياة .

### الفصل الثالث

---

الآثار السيئة التي ترتبت على هذه الانحرافات التصورية  
في ناحية السلوك المملى في حياة المسلمين  
في القرون الأخيرة،

ووقع العالم الاسلامي تحت الاحتلال الاجنبي •

---

### الفصل الثالث

#### نتائج الانحراف في حياة المسلمين في القرون الأخيرة

ان سلسلة الانحرافات التصورية والسلوكية التي وقعت في الحياة الاسلامية كما عرضنا لها في الفصل السابق - قد أدت الى نتائج سيئة ومواقب وخيمة ذاقها الأمة الاسلامية وبألمها في القرون الأخيرة ولا تزال تعاني من ويلاتها الى اليوم .

وكما قلنا سابقا ان الاسلام قد انتهى في القرون الأخيرة في أذهان المسلمين وفي سلوكهم العملي في واقع الحياة الى صورة مزرية مشوهة تختلف عن الصورة الناصعة الصحيحة التي كان عليها المسلمون الأوائل في العصور الاسلامية الزاهرة . وقد حدث الخلط والمزج في صورة الاسلام وادخل فيها عناصر غريبة ووقعت انحرافات وتشويهات كثيرة لم يبق معها في حياة المسلمين من الاسلام الصحيح الا بعض معالمه رغم أن هذه المعالم الباقية عندهم قد أصبحت خاوية من الروح والقوة والحيوية الدافعة التي امتاز بها الاسلام .

ولقد أدى ذلك كله الى تدهور حالة المجتمع المسلم وانحطاطها وضعف المسلمين وتخلفهم في شتى مجالات الحياة الفكرية والعلمية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية مما أدى بالعدو الصليبي والصهيوني الى شن حروب شرسة وحملات عنيفة على العالم الاسلامي فتناثرت جيوشه الجرارة وسراياه الفكرية المضللة في أنحاء بلاد المسلمين . ولكن مهما بلغت قوة العوامل الخارجية التي تكبد لهذا الدين وتسمى لاضعاف قوة المسلمين وانها "سلطانهم في الأرض" فانهم حسب سنة الله في خلقه - لم يؤثروا الا من قبل أنفسهم ، وما عوقبوا الا بما كسبت أيديهم " ذلك بأن الله لم يكن مغيبرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ( ١ ) . وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : "..... وان ربي قال يا محمد اني اذا قضيت قضاء فانه لا يرد وانسى اعطيتك لأمتك، أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا " ( ١ )

ان العوامل الحقيقية التي نخرت في كيان الأمة الاسلامية تكمن في المسلمين أنفسهم وفي مجتمعاتهم بما أصابهم من علل وأدواء أضعفت قوتهم وشوهت مقومات حياتهم وهولت بهم الى غناء كفضاء السيل قبل أن يقتحم العدو عليهم ديارهم ويحاول الاجهاز عليهم . ومن أجل هذا اعتبرنا القوى الخارجية المعادية للإسلام في غزوها العسكرية والفكرية والعضارية المخطط المدبر بكل وسائله وخططه وأساليبه المتعددة . . . اعتبرناها ضمن النتائج التي أدى اليها انحراف المسلمين عن جادة الاسلام وتشويههم لحقائق الاسلام ومبادئه وقيمه وتعاليمه ، الأمر الذي أورثهم ضمنا بعد قوة وتخلفا وهوانا بعد سمو وعزة ومنعة . " والهزائم الكاسحة التي أصابت الاسلام وأهله من قرن ونصف والتي ما تزال تلمق مرارتها تعود قبل كل شيء الى الدخول الذي غلب في أنحاء حياتنا كلها ولم يبق معه مجال لسنة صحيحة أو هدى نقي . . ان الاسلام الحق لا يكاد يبين في زحمة الموروثات التافهة والعرج المطرد وفي زحمة الرجس الجديد الذي وقع مع الاستعمار الغربي ( ٢ ) ."

ومن نتائج انحراف المسلمين عن جادة الاسلام في المجال الفكري وقوع تفكك وانفصال منذ عصور الانحطاط في الوحدة الفكرية المتكاملة التي امتاز بها الاسلام في مصدره الأصليين الثابتين والتي تمثلها وعى المسلمين الأوائل الذين استوعبوا تعاليم الاسلام ومبادئه وقيمه وتشربت نفوسهم روحه الصافية حتى أصبح الواحد منهم يمثل الاسلام — في حدود استطاعته — فكريا وسلوكيا ووجدانيا ، وقـــــــد

( ١ ) رواه مسلم في كتاب الفتن ١٨ / ١٣ - ١٤

( ٢ ) الشيخ محمد الفزالي — كيف نفهم الاسلام ص ١١



انفصلت هذه الوحدة الفكرية في عصور الانحطاط الى ثلاث شعب ، أولا هـا  
شعبة العقلية وهى من اختصاص علم الكلام والعقائد ، وثانيها شعبة الأحكام  
العملية التطبيقية وهى من اختصاص علم الفقه وثالثها شعبة الوجدانيات وهى من  
اختصاص أهل الزهد والتصوف . وكانت كل فئة من الفئات الثلاث تعطى عن الاسلام  
صورة الجانب الذى توليه اهتمامها وكأنه هو وحده الاسلام . فأهل الكلام قصرُوا  
اهتمامهم على الجانب الذى تولوا دراسته وبحثه ووجهوا عنايتهم لما جاء فى  
القرآن الكريم من أدلة عقلية يحتجون بها فى تأييد مذهبهم وتقرير آرائهم . واعطوا  
جل اهتمامهم للبحث والمناقشة فى المسائل الجزئية المتعددة والقضايا الثانوية .  
ولكن هذه الفرقة لم تكن ظاهرة متميزة فى المجتمع المسلم فى القرون الأخيرة باستثناء  
مدرسة الشيخ محمد عبده فى مصر فى القرن الهجرى الماضى . وقد انقرضت المذاهب  
الكلامية وهدأت النزعات العقائدية الفلسفية ولم تعد ظاهرة تشكل الخطورة على  
المجتمع كما كانت الحال فى العصور السابقة .

وأما أهل الفقه فوجهوا عنايتهم لما فى القرآن من آيات الأحكام وما فى السنة  
من أدلة الأحكام واهتموا بالفروع والجزئيات أكثر من الاشتغال بالقواعد الكلية  
ودراسة مقاصد الشريعة والأصول العامة ، ويقتصر أهل كل مذهب على عرض الاسلام  
من خلال مذهبهم وكأنه هو المدخل الوحيد الى الاسلام ، وبذلك حصل نوع من  
الانغلاق الفكرى فى اطار المذهبية والتعصب لها وقد توزع العالم الاسلامى  
على المذاهب الفقهية الأربعة : المذهب الحنفى والمذهب المالكى والمذهب الشافعى  
والمذهب الحنبلى .

وأما أهل الزهد والتصوف فقد كانت عنايتهم موجهة لما فى آيات القرآن الكريم  
من المعبر والمواعظ والمعانى النفسية التربوية من تزكية النفس واصلاحها والتجسُّد  
لله واخلاص العمل له والزهد والتقشف وما الى ذلك . ثم مع مرور الأيام تأثرت  
النزعة الصوفية بعوامل خارجية فانحرفت عن جادة الحق حتى صارت فى العصور

الأخيرة صورة مشوهة للإسلام مزجت فيها العقيدة الإسلامية والمفاهيم الإسلامية بمجموعة من العقائد والمفاهيم الأخرى المناهضة للدين الحنيف . وقد انتهت الأمر بالنزعة الصوفية إلى أن أصبحت في اتجاه مقابل تماما لاتجاه أهل الظاهر من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين الذين يعتمدون على النقل والعقل . وبذلك قام في المجتمع المسلم اتجاهان متقابلان هما اتجاه سلفي نقلي وعقلي واتجاه صوفي باطني ووجدت النزاعات العنيفة والعداوة الشديدة بين الاتجاهيين ، ثم ان كل اتجاه من الاتجاهين منقسم على نفسه إلى فرق متعددة .

وقد أدت دراسة جوانب الإسلام المتعددة منعزلا بعضها عن بعض وقصر الاهتمام على بعض هذه الجوانب مع إهمال الجوانب الأخرى إلى ضياع الارتباط الوثيق القائم بين هذه الجوانب من الناحية الفكرية التصورية وفقدان التأثير الكبير الذي يكون لها مجتمعة في السلوك العملي في واقع حياة المسلمين . وقد رأينا مظاهر ذلك في المصور الأخيرة حيث انقسم المجتمع المسلم إلى اتجاهات متعددة ومذاهب متنوعة في الجانب الفكري والعقدي والجانب الفقهي العملي السلوكي والجانب التصوفي الروحي الوجداني ورأينا كذلك كيف اشتدت الخلافات والنزاعات والمصائب المذهبية بين المسلمين حتى أقامت حواجز كثيفة حالت دون الوحدة الفكرية والعملية وأضعفت شعور المسلمين بالوحدة الاجتماعية ثم أثارت بينهم روح العداوة والمجافاة وشغلتهم عن مواجهة أعداء الإسلام الذين يكبدون لهذا الدين ليل نهار - ولا يزالون - من قوى الاستعمار الصليبي وجيوشه الجرارة وكيد اليهودية والصهيونية العالمية ورواد الاتحاد المستشرقين وأذئاب الاستعمار المبشرين وتيارات الحضارة الغربية المادية . وقد كان أثر ما مني به المسلمون في القرون الأخيرة من ضعف إدراكهم وتصورهم للإسلام في صورته الكلية المتكاملة بجميع جوانبه وأجزائه هو الواقع المزري الذي شهده المجتمع المسلم منذ قرن ونصف حيث ضعف المسلمون عن مواجهة المذاهب والأفكار الحديثة التي غزت ديارهم وانفسح المجال على أوسع نطاق لتوغل هذه الأفكار والمذاهب

وانتشارها في أنحاء العالم الاسلامي مما أدى الى تراجع الأفكار والمفاهيم الاسلامية عن ميدان الحياة العملية واستبدل بها المسلمون النظريات والأفكار الوافدة الغازية التي جعلت من المجتمعات الاسلامية صورا مطابقة للمجتمعات الاوربية اللادينية في كثير من مجالات الحياة . وهذه هي النتيجة السيئة التي أدى اليها التفكك الفكري والانقسامات والتعصب المذهبية والنظرة الجزئية من جانب علماء الفقه والكلام والتصوف في خرافاتهم وبدعهم وشطحاتهم الصوفية ومناقشاتهم الفلسفية الكلامية وخلافاتهم الفقهية وتقليد هم وتعصبهم المذهبي .

" وان من أشد الاساءات الى الاسلام أن تسلك به مقاهات الفلسفة وأن تدور به مع حيرة المقلد الانساني في البحث عن الحق بعيدا عن هدايات الله وسنن المصطفين الأخيار من عباده كما أن من أشد الاساءات أن يتسلط على هذا الدين أقوام لهم عاطفة جياشة وليس لهم ذكاء أولهم ذكاء ولكن الهوى يميل بهم عن الصراط المستقيم . . . فان الاسلام لم يصب في ميادين الحياة من شيء مثلما أصيب من هذه الأثواب المزورة التي أظهر فيها وتلك التشويهات الزرية التي ألصقت به ( ١ ) ."

وأما نتائج هذا الانحراف في المجال العلمي والثقافي والحضارى فقد أصاب المسلمين في القرون الأخيرة جمود وركود وتخلف وتأخر لأن الحركة العلمية والحضارية التي كانت مزدهرة في العصور الاسلامية الأولى الزاهرة قد توقفت منذ القرن التاسع الهجرى تقريبا . وقد كانت المعامل والمراكز العلمية مثل المدرسة السلمانية ومدرسة الفاتح في تركيا والأزهر الشريف بمصر والمدرسة النظامية في بغداد وغيرها في أنحاء العالم الاسلامي كانت تعاني من آثار هذا الجمود والركود بحيث انه عندما قامت النهضة الأوربية الحديثة على أساس العلم والفكر وقطعت الدول الأوربية أشواطا بعيدة في مجال التطور الحضارى المادى لم تعد هذه المعامل والمراكز صالحة للاسهام في هذا المجال كما لم يعد

علماء المسلمين قادرين على الاضطلاع بأعباء التعليم والتوجيه والافادة على الوجه المطلوب . ويدل أن يواجهوا الواقع بقوة وعزم بادخال علوم الطبيعة والرياضيات في مدارسهم وتحمل تبعات المشاهدة والاختبار لتسخير قوى الطبيعة لمصلحة الاسلام والمسلمين ظلوا جامدين على ما هم عليه ومنعوا توغل الأفكار والعلوم الجديدة الى بلادهم ، وكانوا يبذلون جهودا كبيرة في دراسة الفلسفة الالهية والمباحث الكلامية وقيدوها بسلاسل وقيود جعلتها معقدة غامضة لا يفهم العامة منها شيئا ، ثم أوصدوا باب التحقيق والتفكير والابداع والاجتهاد وأهملوا العلوم التجريبية والعملية المثمرة التي تعود على الأمة بالفوائد الجمّة .

" وان ما وصل اليه المسلمون في العلوم الطبيعية والتجريبية وان كان أرقى من العصور السابقة وأكثر ثروة في العلم والاختبار الا أنه لا يتناسب مع فتوحهم الواسعة في دوائر علمية أخرى ولا يتلاءم مع المدة الطويلة التي تمتصوها بها في التاريخ ولم يظهر فيها من النوابع والعبقريين مثلما ظهر في موضوعات أخرى .

وان ما خلفوه من كتب في الطبيعيات والكونيات والتجارب العلمية وان كانت مما استفادت به أوروبا في نهضتها وأقرت بقيمتها الا أنها تتضاءل جدا أمام هذه المكتبة الهائلة الزاخرة التي انتجتها أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين فقط . فمهما افتخرنا بآثار علماء الاندلس وحكماء الشرق فانهم لا تعد شيئا بجانب الانتاج الفري الضخم في العلم والحكمة والتجربة والاختبار لافي الكمية ولا في الكيفية ولا في الابداع ولا في الابتكار ولا في التدقيق العلمي ولا في الاتقان الفني . واذا أردت أن تعرف مقدار عناية الشرق الاسلامي بالناحية الروحية ونسبتها الى الناحية العلمية والتجريبية فقارن بين كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي مثلا وأكبر كتاب في الطبيعيات والحكمة توفرقا هائلا في ضخامة المادة والعناية بالموضوع والجهاد في سبيله ( ١ ) . وبالإضافة الى ذلك فقد كان العالم الاسلامي وفي مقدمته الدولة العثمانية يرتفع في حالة التدهور

والتخلف العلمى والفكرى عندما أفاقت أوروبا من سباتها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين وبدأت تسخر قوى الطبيعة وتكشف أسرار الكون وتحقق انجازات علمية كبيرة فى نواحي الحياة ، وقد بلغ التخلف العلمى فى العالم الاسلامى مداه حتى ان الدولة العثمانية لم تدخلها صناعة السفن الا فى القرن الحادى عشر الهجرى ولم تدخلها المطابع والمحاجر الصحية ومدارس الفنون الحربية على غرار المدارس الاوربية الا فى القرن الثالث عشر الهجرى .

وقد بلغ الجمود الفكرى والتخلف العلمى والحضارى مبلغه فى الدولة العثمانية وفى كافة انحاء البلاد الاسلامية ، وكان المسلمون منعزلين عن النهضة الحضارية الحديثة التى قامت فى أوروبا بعيدين عن عالم الاختراعات والاكتشافات لدرجة أن الناس فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى لما شاهدوا بالونا يحلق فوق عاصمة الدولة العثمانية ظنوه من أعمال السحر ( ١ ) . وقد منيت مصر بحالة الركود والجمود فى القرن الثالث عشر الهجرى وما قبله حتى ان الدولة عندما أرادت أن تدخل العلوم الرياضية والطبيعية فى مدارسها لم تستطع الاقترام على ذلك الا بعد استفتاء شيخ الأزهر فى الأمر خوفا من معارضة العلماء وقد أجاز شيخ الأزهر تعليمها بشرط بيان النفع من تعلمها ( ٢ ) . من ذلك أيضا أن الأزهر الشريف لم يفكر فى فتح أبواب التعليم للبنات الا فى سنة ١٩٥٦م كما أنه لم ينشئ كلية للبنات الا فى سنة ١٩٦٢م وذلك بعد أن وجدت البنات طريقها من عشرات السنين الى المدارس والجامعات التى انشئت لمزاومة الأزهر والقضاء على تفرد به بمركز التوجيه والتعليم . وبدل أيضا على مدى ما وصلت اليه حال المسلمين فى مختلف البلدان الاسلامية من ضعف وتخلف وتأخر فى مجال العلم والابداع والانتاج والتطور الحضارى حتى فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى انهم حينما رأوا ثمار الحضارة الأوربية المادية لا يكادون يصدقون أنها نتاج علم

( ١ ) راجع ، الشيخ أبو الحسن الندوى ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

ص ١٧٠ - ١٧١

( ٢ ) انظر د . أحمد مصلبى ، المجتمع الاسلامى ص ٢٣٤

وفكر واختبار بل كانوا يعتبرونها من أعمال السحر وحبائل الشيطان ، وقد حدثت  
ذلك عند ما ظهرت الآلات اللاسلكية وشاهد الناس التليفون والمذياع والساعة  
وما الى ذلك .

ومن ذلك أيضا ما ذكر أن الفقهاء في أوائل القرن الهجرى الماضى كانوا  
يرون أن كل شىء خارج عن المألوف كفر أو حرام أو مكروه فتحويل الميضة القذرة  
الى حنفيات حرام وذهاب للهجرة وقراءة كتب فى الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة  
حرام ولبس الجزمة بدعة فان تحركت نفس صالحة للإصلاح خنقت دعوتها فى مهدها  
ورميت بالزندقة ( ١ ) .

ولم يكن انحطاط المسلمين فى مجال العلم والفكر والانتاج فحسب بل  
كان هذا الانحطاط عاما شاملا لجميع نواحي الحياة الاسلامية . وفى مجال القوة  
الحربية حدث ضعف وتخلف ملموسان فى كيان الأمة الاسلامية وقوتها وسيادتها ،  
وقد ظهر ذلك فى هزيمة العثمانيين النكراء أمام جيوش الدول الأوروبية الصليبية  
فى معركة ( سان جونار ) عام ١٧٧٤م واندحار جيوش المماليك بعد ذلك وتلاشيها  
أمام حملة نابليون سنة ١٧٩٨م وما تلا ذلك من وقوع العالم الاسلامى تحت الاحتلال  
الأوروبى خلال القرن الثالث عشر الهجرى ( التاسع عشر الميلادى ) . ومنذ هزيمة  
العثمانيين امام جيوش القوى الأوروبية الصليبية فى أواخر القرن ( الثانى عشر الهجرى  
( الثامن عشر الميلادى ) بدأت صفحة سوداء فى تاريخ العالم الاسلامى ، فقد  
ظهر سبق أوروبا وتفوقها فى ميدان الحرب والقتال وتنظيم الجيوش وصناعة المعدات  
الحربية القوية وارتفعت الى مركز القوة والقيادة فى شتى مرافق الحياة المادية وظهر  
الى جانب ذلك ضعف العالم الاسلامى وانهاره فى هذا المجال وأخذت الزعامة  
الاسلامية فى التقلص والتراجع ليس فقط فى قدرتها على الاضطلاع بدورها القيادى  
فى العالم بل وصلت الحال الى أسوأ من ذلك فقد بدأت تضع من يدها السلطة  
الفعلية فى أرض الاسلام نفسها وقد استطاع الاعداء المحتلون فى النهاية أن

يفتصبوا السلطة الفعلية من أيدي الحكام والسلاطين وأن يفرضوا على الناس طرائقهم ومذاهبهم وأن يحولوا الأمة الإسلامية الى الوجهة التي يريدونها لها .

وفي المجال السياسي كذلك ضعفت الأمة الإسلامية وانهارت قوتها نتيجة التشويهات والانحرافات التي وقعت في المفاهيم الإسلامية السياسية وأصول منهج الحكم الإسلامي حتى صارت لا تستند الا على أهواء الحكام والسلاطين ومصالحهم فكانت المنافسات والمنازعات والخلافات والانقسامات والاستبداد وفرض السلطة على الناس بالقوة وانتشار الظلم والجور وفساد السلاطين وبذخهم وترفعهم العريض ومن وراءهم الأمراء وأصحاب الأموال والدثور وكذلك سوء النظام الاداري وبخاصة في البلاد المفتوحة .

وأما في المجال الاقتصادي فقد انعكست آثار هذا الانحراف على الحركة الاقتصادية التي كانت نشطة مزدهرة على اثر انتشار دوة الاسلام في الاتفاق واتساع رقعة الفتوحات الإسلامية في العصور الأولى وبخاصة في العهد العباسي الأول . وقد أصيب النشاط الاقتصادي بالذبول والضعف والركود منذ عصور الانحطاط وبلغ الأمر منتهاه في القرون الثلاثة الأخيرة فتوقف النشاط الاقتصادي في العالم الإسلامي في شتى مجالاته الصناعية والتجارية والزراعية وغيرها . وكذلك حصل في الحياة الاجتماعية من الناحية الحضارية فقد توقفت الانجازات المادية وقلت مرافق الخدمات العامة التي كانت مزدهرة أيضا حتى العصر العباسي الأول حيث عبت الطرق الكثيرة وبنيت الجسور وأنشئت المحاجر الصحية ودور المجزة والمعوقين كما أقيمت المدارس وغير ذلك من المرافق العامة التي تعود على الناس بالمنافع الكثيرة .

وأما الناحية المعنوية والأخلاقية من الحياة الاجتماعية فقد كان هناك منذ عصور الانحطاط فساد في الأخلاق وانتشار الظلم والجور في صفوف الحكام ومن يتبعهم من أصحاب الجاه والنفوذ والمال . وبينما نجد المترفين يتنعمون في عيشة بطرة نجد الفقراء والمساكين يعيشون في حالة بؤس وفاقة ، وقد فقد كثير من

الناس روح التعاون والبر والاحسان . وهذه هي المشاهد العامة للمجتمع ، وقد كانت توجد الى جانب ذلك نماذج كثيرة رائعة في الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة في البر والاحسان والتعاون وأداء الأمانة والصدق وإقامة الحقوق والمعدل وحب المساكين وما الى ذلك ، ولكنها كانت نماذج متفرقة لا تبلغ من القوة ولا من التجمع ما تدفع به حالة الهبوط والانحيار التي يعانيها المجتمع الاسلامي في مجموعه .

وهذه النتائج السيئة التي ظهرت في المجتمع المسلم في القرون الأخيرة بسبب انحرافه عن جادة الاسلام كما عرضنا لها في هذا الفصل قد أدت الى ما هو أسوأ منها لأن العالم الاسلامي - وهو يعاني ويلات ضعفه وتأخره وتخلفه ويقاسى مرارة انهيار مقومات حياته - لم يكن في عزلة عن الحياة وما يجري فيها من أحداث جسام وصراعات عنيفة بين القوى العالمية المتنافسة المتعادية فقد وجد العالم الاسلامي نفسه فجأة امام خصم قوى حاقده ماكر شهرفي وجهه السلاح يطالب مبارزته في ساحة المعركة وهو في حالة الضعف والوهن يرتصد فرقاً من مجرد رؤية عدوه ويسقط السلاح من يده مرة تلو مرة ، ولما غلب على أمره استسلم وألقى السلاح . وعند ما استقر الأمر للقوة الفازية راحت تبحث عن مواطن الضعف في الأمة المغلوبة فوجدت فراغات في مجالات عديدة في الحياة الاسلامية فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وتعليمية وحضارية فأقدمت في عزم وتخطيط وخبث لعملية " الخلق الجديد " والمسح الفكري فكانت نتائج ذلك سيئة وعواقبه وخيمة على ما سنبينه في الفصل القادم ان شاء الله تعالى .



### وقوع العالم الاسلامي تحت الاحتلال الصليبي

حين بلغ المسلمون مبلغهم من الانحراف عن الدين الحنيف في تعاليمه وقيمه ومبادئه وتوجيهاته ، ولم يبق من الاسلام الصحيح في حشهم وفي واقع حياتهم الا تلك التصورات القاصرة المنحرفة والصورة الهزيلة المزرية التي انتهت حالهم بسببها الى قرارة الضعف والانحطاط وغاية التدهور والانهيـار — من الناحيتين التصورية والسلوكية من الحياة على النحو الذي سبق الحديث عنه في الفصول السابقة . حين بلغت حال المسلمين هذا الذي الخطير من الانحراف والانحطاط كانت قد دبـت في نفس أوربا روح جديدة جياشة وظهرت في كيانها هوامل القوة والحيوية والنشاط من الناحية المادية من الحياة فبدأت تبني مدنيـتها وتقيم حضارتها على الأسس المادية البحتة ولم تـمض فترة طويلة من الزمن على عملها الدؤوب وجهدها المتواصل في هذا السبيل حتى انتعشت حضارتها وارتقت مدنيـتها وقويت بذلك شوكتها ثم أخذت تـمد عينها الى ما وراء حدود بلادها وتتوق تـوقاً شديداً الى أن تتبوأ مركز القيادة العالمية وتفرض سيطرتها المادية والسياسية والاجتماعية والفكرية على شعوب العالم أجمع ، وذلك الى جانب تحقيق أهدافها الصليبية الموروثة . . في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الأمة الاسلامية لم يكن العدو الصليبي اليـمهورى الحاقـد المتربص ليترك هذه الأمة وهو يعلم بما آلت اليه حالها وهو عدوها اللدود الذي لم يتركها حتى في حالة قوتها وعنفوانها فكيف يتركها وقد سنحت له الفرصة المرتقبة للانتقام والأخذ بالشار ؟ وهكذا وثب الغرب الصليبي وثبة وحشية ضارية على العالم الاسلامي في حملات صليبية حديثة شرسة للقضاء على قوة الاسلام وانهاء سلطان المسلمين من الأرض واخضاعهم لنير العبودية والاستعمار والاستغلال والذل والهوان .

ان الحديث عن الحملات الصليبية الحديثة على العالم الاسلامي لا يمكن

أن يأخذ صورته المتكاملة الشاملة الا بربط هذه الحملات مع الحروب الصليبية،

الأولى التي شنتها الدول الأوروبية المسيحية على الأمة الإسلامية واستمرت قرابة قرنين من الزمان . ولقد كانت عداوة طوائف اليهود والنصارى للمسلمين من أشنع العداوات وأعنف الصراعات التي شهدتها البشرية في تاريخها الطويل ، ولذلك فإن الحروب الصليبية الأولى بكل ضراوتها وشراستها وأهوالها ونكباتها لا تمثل الا مظهرا من مظاهر هذه العداوة المتأصلة في قلوب اليهود والنصارى تجاه المسلمين . ولكن الشيء المهم الذي يمكن أن نتلمسه من هذه الحروب هو ما أضفته على طبيعة هذا العداء من روح جديدة ومظهر مغاير يبيد و واضحا في محاولات الدول الصليبية الخطيرة المتكررة وتكتلاتها الضخمة من أجل القضاء على الاسلام ، الأمر الذي جعل آثار هذه الحروب ونتائجها تختلف تماما عما واجهت به هذه الدول المسلمين قبل ذلك من مكاييد وحيل وعداوات ومقارمات . ورغم أن الحروب الصليبية قد حدثت في عهد طفولة أوروبا حين كانت خصائص ثقافتها ومقومات حضارتها ومدنيتها لا تزال في طور التشكل والنمو التدريجي فانها قد أحدثت آثارا عميقة الجذور في نفسية الشعوب الأوروبية فقد أثارت فيها من الحمية الشديدة ما لم يتفق قط أن يحدث لها من قبل ، وكانت النتيجة هي تلك الموجة العنيفة من الغشوة التي اجتاحت القارة الأوروبية بأكملها وامت جميع أرجاء بلدانها وشعوبها وامتدت الى مختلف طبقات المجتمع الأوروبي وأحست الشعوب الأوروبية خلال هذه الموجة العنيفة بحاجتها الماسة الى التجمع والتكامل والوحدة لتكون قوة عظمى قادرة على مواجهة العالم الاسلامي الذي سحقته جيوشه في الحروب الصليبية سحقا وحطمت أطماعها تحطيمًا وتدويرا . وفي وسط هذه الظروف الحرجة التي كانت تعيشها الشعوب الأوروبية في أجواء الهموم والنكسات التي خلفتها الحروب الصليبية ولدت فكرة "المدنية الغربية" ولم تلبث أن صارت هدفها الأوحد الذي علقت عليه أملها الكبير في النهوض من حالة الضعف والانحطاط التي كانت جاثمة فيها . وقد كانت ولادة هذه "المدنية" من روح الحق والعداوة التي هيبتها الحروب الصليبية بصف وقسوة فازدادت شدة

الى شدتها . من أجل هذا ليس غريبا أن تنبت " المدينة الغربية" من طينة روح العداء الشديد للإسلام وتسرى هذه الروح في عروقها ( ١ ) ودورها . كتب صاحب مجلة العالم الاسلامي الفرنسية يقول : " العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، والروح الصليبية كامنة في صدور النصارى كمن النار في الرماد وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا في عناصرها متغلغلا في أحشائها متمشيا في كل عرق من عروقها وهي أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني الممقوت . . . . الى أن قال وجميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداوة الاسلام وروح هذا العداء متمثلة في جهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا لسحق الاسلام سحقا ( ٢ ) ويقول " جان بول رو " لقد اعتدنا أن نتحدث عن ثمان حملات صليبية الأولى بدأت سنة ١٠٩٦ م والأخيرة انتهت سنة ١٢٧٠ م ، غير أن هذا التقسيم لا يبدو متجاوبا كثيرا مع الواقع ويمكننا أن نزيد هذا العدد اذا أخذنا بعين الاعتبار جميع الدفعات التي وجهت الى الشرق . . . . " فقد قذف بملايين الأوربيين الى شواطئ الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ، ومن أجل الوصول الى ذلك كان عليهم أن يخربوا هذا الشرق ( ٣ ) ثم ذكر بعد ذلك أن الحرب بين الاسلام والمسيحية دامت ثلاثة عشر قرنا ، وقد قسم هذه الحرب الطويلة الى أربع مراحل تاريخية وكانت المرحلة الرابعة والأخيرة منها هي الفوز الصليبي الأخير الذي قضت فيه الدول الأوروبية على الدولة العثمانية وأنهت

---

( ١ ) انظر الاسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ص ٥٥ وما بعد ها ترجمة / عمر فروخ  
( ٢ ) أحمد أمين - يوم الاسلام ص ١٠٩ - ١١٠ وهذا الكلام منقول من مقال تحت عنوان " الجامعة الاسلامية والجامعة التركية - نشر في مجلة العالم الاسلامي الفرنسية في مارس عام ١٩١٣ م  
( ٣ ) الاسلام في الغرب ص ٤١ - ٤٣ - ترجمة نجده هاجروز ميله .

سلطان الاسلام في آسيا الوسطى وفرضت الاستعمار أو الحماية على البلاد الإسلامية التابعة للحكم العثماني وبسطات سيطرتها الكاملة على الشعوب المسلمة وفرضت عليها مفاهيمها في الوجود ونظمها في الحياة وطرائقها في المعيشة وأسلوبها في التفكير ، ومع ذلك لم يكن القضاء على الدولة العثمانية الا مظهرا من مظاهر الهجوم العام الذي يشنه الأوربيون على الاسلام . ( ١ )

يقول " ولغرد كانتول سميث " : " كان النبي ( يقصد الاسلام ) هو التحدى الحقيقي الوحيد الذي واجهته الحضارة الغربية في تاريخها كله وأنه لما يستحق التذكر أن نتذكركم كان هذا التحدي حقيقيا وكم كان يبدو وفي وقت من الأوقات تهديدا خطيرا حقا . ولقد كان الهجوم مباشرا في كلا الميدانين الحربي والعقدي وكان قويا جدا . . . . . فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة " أجمل مقاطعات الامبراطورية الرومانية " لتسلمها منها القوة الجديدة وكانت في خطر من ضياع الامبراطورية بكاملها . . . . . وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع - تماما - في يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة ، وفي موجة التوسع الاسلامي الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣م وفي قلب أوروبا المفزعة ذاتها أحاط المسلمون بفيينا سنة ١٥٢٩ بينما ظل الزحف الذي بدأ عنيدا لا يلين مستمرا في طريقه . . كان التهديد والانتصارات ( الاسلامية ) قائمين في عالم القيم والأفكار ، فقد كان الهجوم الاسلامي موجها الى عالم النظريات كما هو موجه الى عالم الواقع وقد عملت العقيدة الجديدة باصرار على انكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية التي كانت بالنسبة لأوروبا الاعتقاد السامي الذي أخذت تبني حوله حضارتها ، وكان التهديد الاسلامي موجها بقوة وعنف وكان ناجحا مكتسحا في نصف العالم المسيحي تقريبا . . . . . وأنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيسي المتطاوّل الأمد أو على آثار الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمان ( ٢ ) ولقد توقفت الحروب الصليبية فترة طويلة من الزمن ولكن توقفها لم يكن فقط بسبب الهزائم الكاسحة المتلاحقة التي منيت بها جيوش الصليبيين - فقد كان الصليبيون يستسيغون الهزائم ويتجرعون مرارتها بصبر عجيب - وإنما كان الى جانب ذلك أن

( ١ ) انظر الاسلام في الغرب، ص ٥٦ وما بعدها .

( ٢ ) الاسلام في التاريخ المعاصر ص ١٠٩ - ١١٠

الصليبيين لما رأوا التتار في زحفهم المدمر على العالم الاسلامي وضرباتهم القاصمة للقضاء على الاسلام وسحق المسلمين بنفس القسوة والعنف الذي يريدونه هم .  
لما رأوا ذلك من التتار وقد انهكت الهزائم المتلاحقة قواهم تركوا لهم الميدان ليريدوهم من أعدائهم فترة من الزمن ريثما يعودون للحرب عدتها من جديد ويضمدون جراح الهزيمة ثم يأخذون بوسائل القوة والنصر في حروبهم القادمة مع المسلمين وما أن قويت شوكة أوروبا وصلب عودها ونهضت من سقطاتها المنكرة حتى لمت شعنها من جديد وحشدت قواتها فشنت هجمات بربرية عنيفة على الاندلس لتصفية الوجود الاسلامي منه وكان ذلك في أيام قوة الدولة العثمانية الا أن الدولة العثمانية قد عوضت العالم الاسلامي عن خسارته في الاندلس بانتصاراتها وفتوحاتها الجبارة في أوروبا الشرقية وبخاصة فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية الذي روعدول أوروبا كلها وأذهب عنها فرحتها وفطرسيتها بالانتصار على المسلمين في الاندلس.

وبعد ذلك كله جاءت طلائع الحملات الصليبية الحديثة المكتشفون ( ١ )

الجغرافيون الذين جالوا في أقطار العالم في رحلاتهم ومغامراتهم يكتشفون مجاهل الأرض من المدن والقرى والجبال والسهول والأنهار والطرق والمناخ ويتعرفون على مختلف الشعوب والأجناس ودياناتها ولفاتها وعاداتها وتقاليدها وأحوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحربية وما الى ذلك . وقد قدموا في ذلك تقارير ضخمة تحتوي على معلومات مستفيضة ووضعوها تحت خدمة دولهم . وقد أفادت هذه الدول منها كثيرا في غزوها الاستعماري واحتلالها للبلدان الواقعة وراء حدودها في القرنين الماضيين .

وعلى أثر المكتشفين الجغرافيين طلائع الحملات الصليبية الحديثة جاءت القوى الاستعمارية الأوروبية في محاولاتها الضخمة لاستئصال شأفة الاسلام وسحق المسلمين وقد بدأت المرحلة الحاسمة من هجومها الكاسح على العالم الاسلامي منذ معركة

(١) أمثال الأمير هنري الملاح ، ونيوطين *Newton* وفاسكودى غاما *Vasco Dagama* ومغلين *Maglin* ومنغوبارك *Mungo Park* وغيرهم .

(سان جونار ) سنة ١٧٧٤م التي انهزمت فيها جيوش العثمانيين هزيمتها  
النكراء أمام القوى الأوروبية الصليبية ثم تلت ذلك حملة نابليون العنيفة على مصر  
سنة ١٧٩٨م وأعقب ذلك احتلال هذه الدول للبلدان الإسلامية وفرض حكمها  
المباشر عليها ما عدا تركيا وحكومة الشريف حسين في الحجاز .

ولقد كانت الحملات الصليبية الحديثة أعنف وأخبث من سابقتها فسي  
العصور الوسطى حيث ان الغرب لم يكتف في هذه المرة بالفزوات العسكرية  
الموجهة لكسر شوكة المسلمين كما هو الحال في الحروب الصليبية الأولى ، ولم  
يرض بما حققته في حروبه الحديثة من الاستيلاء على أراضي المسلمين وفرض السيطرة  
السياسية عليهم ولا بالاستغلال الاقتصادي الذي كان يمارسه بخططه الخبيثة وانما  
أضاف الى ذلك كله خطة خبيثة اهدى اليها في هذه المرة وهذه الخطة الخطيرة  
هي الغزو الفكري والمسح الثقافي للقضاء على الاسلام في داخل قلوب المسلمين  
وتقليص دائرة عمله أو عزله عن واقع حياة المسلمين . وقد علم الغرب أن الاسلام  
بمقيدته وتعاليمه وقيمه وتوجيهاته هو السر الأعظم لقوة المسلمين وعزتهم وهو الذي  
يمنحهم روحا دافقة لا تنفاضاتهم المفاجئة المتكررة ، واذا لم يبعد المسلمين عن  
هذا الدين ولم يقطع صلته به أو يوهن قوة ارتباطهم به بصرف قلوبهم عنه فلن يقر  
له قرار مهما بلغت قوته العسكرية والسياسية ومهما ألحق بهم من هزائم وقتبيته  
ومهما طال أمد الاستعمار والغلبة السياسية فسرعان ما يلزم المسلمون شعبيهم  
ويعدون عدتهم من جديد ليعيدوا الكرة تلوا الكرة في مقاومة أعداء دينهم  
ما بقيت فيهم شحنة من روح هذا الدين . وهذا ما أشار اليه رئيس وزراء بريطانيا  
جلاد ستون بقوله في مجلس العموم البريطاني : " ما دام هذا القرآن موجودا بين  
أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في  
أمان (١) " . وكذلك قول المبشر بالكراف : " متى توارى القرآن ومدنية مكسوة  
عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة " الغربية

(١) جلال المال : " قادة الغرب يقولون " ص ٣٨

التي لم يبعده عنها الى محمد وكتابه ( ١ ) . ومن أجل هذا اتخذت الحملات الصليبية الحديثة سمة مغايرة ولم يكتف الغرب بالأساطيل والمدافع والرشاشات والفرق العسكرية للاستيلاء على الأراضي وفرض العبودية والاستعمار على الشعوب ولكنه أراد أن تكون ضرباته في هذه المرة أوجع وأكثر فعالية وأعمق تأثيراً فوجسه اهتمامه منذ تمت له السيطرة الفعلية على زمام الأمر على غزو القلوب وتسميم الأفكار وتشويه المفاهيم من طريق التربية والتعليم والثقافة وإقامة المؤسسات والمدارس ووضع المناهج مع مراعاة اخفاء روح الصداوة ودفن جذوة الحقد والضغينة تحت الرماد والظهور في مظهر الصديق الناصح الأمين عند تنفيذ هذه الخطط ، وهكذا اتخذت هذه الحرب ما شاء لها مكر الغرب ودهاؤه من شعارات وصفات متنوعة فتمتعت بواعثها بأنها اقتصادية بحتة أو أنها انسانية من أجل نشر الحضارة ورفع مستوى الشعوب المتخلفة وانقاذ البشرية من الفقر والجهل والظلم أو أنها من أجل تحقيق المصالح القومية وما الى ذلك ، مع غاية الحذر من الإشارة الى الباطن الديني والحقد الصليبي من قريب أو بعيد حتى لا تستثار الروح الجهادية في المسلمين بانكشاف الخطة المدبرة لهم قبل اكتمال أدوارها فتكون العاقبة وخيمة وتكرر مأساة حطين مرة أخرى . وقد كانت هذه الخطة الخبيثة من بنات أفكار القديس لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثانية ، وقد بنيت الخطة على العناصر الأساسية التي تضمنتها النصائح التي قدمها هذا القديس لبني جنسه كخطة مستقبلية في حربهم مع المسلمين . وكانت خلاصة وصاياه تنظيم حملات صليبية سلمية تتألف رسلها من المبشرين الأوربيين والمسيحيين المحليين وتكون مهمتهم محاربة الاسلام في عقائده وتعاليمه ومحاولة وقف انتشاره وإضعاف قوته في نفوس المسلمين أنفسهم ، وبذل أقصى الجهد في اتخاذ التدابير اللازمة لايجاد قاعدة حربية للغرب في الشرق الاسلامي لتكون مركزاً لقوات الغرب العسكرية ونفوذ سياسي والديني ويكون الانطلاق منه للقضاء على الاسلام وتحطيم قسوة المسلمين حينما تنهياً الفرصة المربحة ( ٢ ) . وقد كان نابليون أول من حاول

( ١ ) الفارة على العالم الاسلامي ، ا . ل . شاتليه ترجمة محب الدين الخطيب ص ٣٧

( ٢ ) ( راجع الشيخ محمد الفزالي ، معركة المصحف ص ٢٠٤ - ٢٠٨ )

تنفيذ هذه الخطة فقد رأيناه بعد حملته العنيفة على مصر يصدر بيانه الخطير الذي افتتحه بسم الله الرحمن الرحيم وأكد فيه للمصريين أن الفرنسيين مسلمون وأنصار الاسلام وأنه هو نفسه مسلم - وأن عزّ على المسلمين أن يصدّ قوه في ذلك فهو على الأقلّ حام وصديق للاسلام ، وكان نابليون يرتدى الجبة ويلبس العمامة ويحضر الاحتفالات الدينية وصار يرأس مجلس العلماء ويتظاهر بالتودد والاحترام للعلماء ولكنه رغم ذلك كله لم يستطع اخفاء الأعمال الحقيقية والأهداف الصليبية التي دفعتها الى احتلال مصر المسلمة ( ١ ) . فقد انكشفت خطته وسقط القناع من وجهه وظهرت حقيقة أمره بما استهل به فترة حكمه لمصر من محاولة جادة لتعطيل الشريعة الاسلامية واحلال القانون الفرنسي محلها والعمل على القضاء على قوة الاسلام بقسوة وعنف وحقاقة مما حطّم أطماعه واضرم عليه نيران المقاومة حتى اضطر الى الانسحاب . ولكن الدول الاستعمارية قد قدرت وصايا القديس لويس التاسع أحسن تقدير يصد أن رأت فشل نابليون بسبب حماقة وتهوره وحميته الصليبية الشديدة ، فكانت هذه الدول - وبخاصة انجلترا - تحاول دائما أن تتجنب الأساليب الاستفزازية وتعمل في تنفيذ خططها بطرق ملتوية لاتنبئ عملاء وراءها من مقاصد وغايات صليبية حتى تأخذ الخطط طريقها دون أن يحس الناس بما تنطوى عليه من مكيدة ومكر وروح عدا .

كان القرن التاسع عشر الميلادى مرحلة عملية نشطة في تاريخ الدول الغربية الاستعمارية في احتلالها العسكرى وتوسعها السياسى واستغلالها الاقتصادى لأقطار العالم وراء حدودها فى آسيا وأفريقيا . فقد شهد العالم الاسلامى خلال هذا القرن حملات صليبية ضارية شنتها عليه أوروبا المسيحية . وبسبب عوامل الضعف والانهار التى نخرت فى كيان الدولة العثمانية فى أواخر عهد ها والهزائم المتلاحقة التى نزلت بساحتها هوت هذه الدولة أمام هجمات الدول الأوربية الصليبية وأصبحت " الرجل المريض " واقتحمت جيوش الاحتلال الأوربى عليها الدار تجوس



خلالها لتقطع أجزاء بلادها وتحتلها وتفرض سيطرتها عليها . وبمقتضى اتفاقية " ساكس - بيكو " توزعت في الأقطار الإسلامية قوى الاستعمار الغربي من إنجلترا وفرنسا والبرتغال وهولندا والدنمرك وإيطاليا وغيرها ( ١ ) . ثم لما خرت الدولة العثمانية صريعة أمام جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى أجهزت القوى الصليبية والصهيونية على الرمح الباقي في جسم " الرجل المريض " فأسلم الروح وقضى نحبه فأحكم الأعداء قبضتهم على ممتلكاته وقسموا بينهم باقى تراثه وكان لانجلترا وفرنسا في ذلك أكبر نصيب وأوفر حظ . وقد كانت هذه المرحلة بالنسبة للمسلمين قاسية ومليئة بالآسى والنكسات تداعت عليهم قوى العدوان وأحاطت بديارهم من كل جانب وأجلبت عليهم بخيلها ورجلها فكانت الضربات موجعة وقاصمة حيث استطاعت أن تقتلع جذور العقيدة الإسلامية من نفوس المسلمين أو على الأقل استطاعت أن تزعزعها وتوهن قوتها وتنقض مراها ثم فرست في قلوب الأجيال الناشئة عقائد وأفكارها وطرأ عليها الحياة ، فحدث تحول خطير في المجتمع المسلم لاتزال آثاره البالغة قائمة حتى اليوم في واقع حياة المسلمين والمثقفين منهم بصفة خاصة . ولكن الأمر لم يكن سهلا ميسورا بالنسبة لقوى الاستعمار نفسها رغم كل مارصده لهذا العمل من خطط مرسومة ومكائد مدبرة ووسائل متنوعة ، فقد احتاج الأمر الى جهود مضنية متواصلة ووقت طويل لحافل بالمشقات والمراغر ولكنها استطاعت بمكرها ودائها أن تتجاوز المرحلة بنجاح وتحقق مطامعها في نهاية المطاف ( ٢ ) لأنها ظلت مدفوعة بروح الحروب الصليبية الأولى التي لاتزال تبعث في نفسها الحماسة الشديدة للانتقام والأخذ بالثأر .

ونريد الآن أن نعطي فكرة واضحة عن جهود قوى الاحتلال الغربي في العالم الإسلامي ووسائلها وخططها المرسومة في صراعها المستمر مع المسلمين منذ قرنين من الزمن ، وقد قدر لها بلوغ أهدافها ولا تزال حتى اليوم تحقق المزيد من النجاح . ان الحديث عن تاريخ القوى الاستعمارية الغربية في العالم الإسلامي

(١) راجع أحمد أمين ، يوم الاسلام ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) راجع " هل نحن مسلمون " للاستاذ محمد قطب ص ١٠٩ - ١١١ وكذلك ص

حديث طويل ومتشعب ليس فقط لطول هذا التاريخ من الناحية الزمنية ولكن لما وقع خلاله من أحداث جسام وتقلبات مذهلة وتحولات خطيرة لم يحدث مثلها في تاريخ العالم الاسلامي كله حتى في اثناء الهزات العنيفة والصدمات الكاسرة التي تعرض لها من قبل من الاضطرابات الداخلية والأدواء الذاتية التي استشرت في كيانها والعوامل الخارجية المناهضة له كفارات التتار المدمرة وهجمات الصليبيين العنيفة . ان الجهود الضخمة التي بذلتها قوى الاحتلال الصليبي في غزوها الأخير

للعالم الاسلامي وما استخدمته من وسائل متنوعة وما سعت نحو تحقيقه من أهداف صليبية متعددة ، كل ذلك لا يمكن أن نستوعبه جملة وتفصيلا في صفحات معدودة نكتبها في هذا الفصل . من أجل هذا سنكتفي هنا باستقراء الخطوط العريضة الأساسية لهذه الجهود والمصاعب مع بيان الخطط والوسائل وبيان من هم رسل الحرب وجنوده في حربه مع المسلمين ثم نذكر في النهاية نتائج هذه الحرب وآثار هذا الصراع في شتى المجالات .

وأما عن الخطوط الأساسية لجهود قوى الاحتلال الصليبي في العالم الاسلامي من قرنين من الزمن فنستطيع أن نلخصها في هذه النقاط الأربع الآتية :

( ١ ) محاولة جادة في سبيل القضاء على الاسلام وتنحية الشريعة الاسلامية عن مجال الحكم والتشريع واحلال مناهج الغرب وقوانينه الوضعية محلها .

( ٢ ) التمرّد للحركات الاسلامية الاصلاحية وبذل كل الجهد في القضاء عليها لمنع عودة قوة الاسلام من جديد . ومحاولة صرف حركات المقاومة الشعبية عن اتجاهها الصحيح بتجريد ها من النزعة الدينية وتحويلها الى اتجاهات وطنية محضة لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد .

( ٣ ) بذل أقصى الجهد لتحقيق السيطرة التامة على مجال التربية والتعليم والثقافة والفن ، والقضاء على المصادر الاسلامية وما يكون لها من آثار في هذا المجال .

( ٤ ) اصطناع العملاء من المسلمين وبخاصة من الزعماء المحليين والمعلماء المستغفلين لاستغلال نفوذهم في توطيد دعائم الحكم الاستعماري في البلاد ، وتكوين النخبات الوطنية المثقفة ثقافة غربية لاستخدامها في ربط عجلة الشعوب المستعمرة بقاطرة الاستعمار .

#### النقطة الأولى : =====

محاولة القضاء على الاسلام وتنحية الشريعة الاسلامية من مجال الحكم والتشريع واحلال مناهج الغرب وقوانينه الوضعية محلها .

ما أن تدخل جيوش الاحتلال الصليبي أى بلد من البلدان الاسلامية حتى تفرض سيطرتها السياسية على المسلمين بقوة وعنف وقسوة ، ثم تبدأ بعد ذلك فى عملية الهدم وتقويض الحياة الاسلامية وقد كانت القوى الاستعمارية عازمة على القضاء على الاسلام وتنحية الشريعة الاسلامية عن مجال الحكم والتشريع من أول يوم دخولها البلاد ولكنها كانت تحسب ألف حساب لتفادى الصدام مع السلطات المحلية واستشارة حفيظة المسلمين ، من أجل ذلك لجأت الى الكيد والمكر والخداع واتخذت الأساليب والطرق الملتوية لبلوغ غايتها . وقد ساعدتها فى ذلك الوضع السيئ الذى كان يعيشه العالم الاسلامى فى هذه الفترة من الضعف والتخلف والانحيار فى شتى مجالات الحياة وبخاصة مجال السياسة والقضاء والقوة الحربية . وكانت النتيجة أن أصيبت الأمة الاسلامية بالصدمة النفسية العنيفة حين احتكت فى هذه الفترة بأوروبا " القوة " وحضارتها المادية " الراقية " وأدت هذه الصدمة الى الشعور بالنقص والقصور فى بنية الحياة الاسلامية القائمة ثم أعقب ذلك انهيار شديد بمعطيات الحضارة الغربية الحديثة . وقد توهم المسلمون أن سبب ما يعانونه من الضعف والتخلف إنما هو عجزهم فى مجال التنظيم والادارة فارتموا بأنفسهم فى احضان الدول الأوروبية الصليبية لتسعفهم فى القضاء على أعراض هذا الضعف وتعيد اليهم " القوة والحيوية والنشاط " حتى يستطيعوا التخلص من الجمود الذى تعانيه الحياة الاسلامية أمام التغيرات

الحيوية الجديدة ، وبذلك تهيأت الأرضية الخصبة لقوى الاستعمار لكى تنفذ خططها المرسومة فى هذا السبيل .

ففى مصر مثلاً كان أول عمل قام به نابليون بعد حملته العنيفة لمصر هو إلغاء الشريعة الإسلامية واحلال القانون الفرنسى محلها . ولكن الفرنسيين ذاقوا وبال أمرهم حيث ووجهوا بمقاومة عنيفة من قبل المسلمين اضطروا معها الى الانسحاب من مصر فى النهاية . وبعد رحيل جيوش نابليون جاء محمد على باشا واليا من قبل السلطان العثمانى وكان يسير فى ركابه النفوذ الفرنسى . فبدأ عملية " الإصلاحات " فى مجال التنظيم والادارة والتعليم وقد أنشأ عدة مدارس بمساعدة الفرنسيين وأرسل البعث الى فرنسا . وكان عمله هذا مما هيا الأجواء لتوغل النفوذ الأجنبى والغزو الفكرى الغربى فى البلاد فيما بعد . وقد سار أبناؤه على نهجه من بعده حتى جاء عهد الخديوى اسماعيل الذى أدخل القانون الفرنسى الى مصر ثم اسفرت سياسته الفاشلة عن احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ م . ثم ان بريطانيا كانت فازمة على إلغاء الشريعة منذ قبضت على زمام الأمر ، ولكن هداها مكرها وكيداً الى أن تجرى العملية وفق خطة ملتوية فاحتضنت دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب للتعليم والقضاء والحياة الاجتماعية وأنشأت مجلس شورى القوانين الذى كانت تحكم مصر من خلاله ثم بدأت محاولتها الخبيثة فى تفريغ المحاكم الشرعية من محتواها ووضعت الخطة لتدريب القضاة فى معهد خاص ينشئ على غرار كلية سراجيفو التى أنشأتها حكومة النمسا والمجر لتخريج قضاة الشرع المسلمين ( ١ ) . وقد قدم الشيخ محمد عبد الوهاب خدمات جليلة لحكومة كرومر فى مجلس شورى القوانين وفى وضع خطة إنشاء هذا المعهد الذى يخرج القضاة ذوى الطابع التحررى والذين لا تنحصر ثقافتهم فى الدراسات الدينية الخاصة كما جاء فى تقرير كرومر . ثم أخذ الأمر بعد ذلك اتجاهاً آخر حين آتت

(١) راجع تقرير كرومر السنوى الذى بعثه الى حكومته عام ١٩٠٥ م فى كتاب الفكر الإسلامى دراسة وتقويم - فازى التوبة ص ٣٠ .

الخطة ثمارها فأستت المحاكم المدنية الى جانب المحاكم الشرعية واطلقت مجال اختصاص المحاكم المدنية وقصرت المحاكم الشرعية على النظر في مجال الأحوال الشخصية وظل الأمر هكذا فترة من الزمن حتى جاء الوقت الذي رؤى فيه أن هذه المحاكم غير قادرة على الاحتفاظ باستقلالها في هذا المجال الضيق أيضا فألغيت هذه المحاكم وضمت اختصاصاتها وضم قضاتها الى المحاكم المدنية **منذ أيام حكم عبد الناصر** وقد كانت عملية اقتباس نظم الحكم والقوانين من أوروبا قائمة على قدم وساق وكانت حاجة المجتمع وظروفه وأحواله المتدهورة تدفعه بقوة نحو الاستزادة من الاقتباس والتعلق بأهداب الغرب . وكان السبب الأكبر لذلك حالة الجمود التي تعانيها الحياة الإسلامية بسبب توقف الفقهاء عن الاجتهاد مما أوجد فراغات واسعة في شتى مجالات هذه الحياة وأدى الى النقص الواعي لعروة الاسلام في مجال الحكم والتشريع حتى استوردت الحكومات الإسلامية النظريات والمناهج الأوروبية اللادينية في مجال السياسة والتشريع ثم في مجال الاقتصاد والاجتماع والأخلاق .

وأما في تركيا رغم أنها لم تقع تحت الاحتلال الأجنبي المباشر فقد قامت حركة " الإصلاح " في عهد السلطان عبد المجيد الأول حين أصدر مرسومه الشهير ( خط شريف جلخانة ) سنة ١٨٣٩م وأعلن فيه وجوب وضع قوانين جديدة في شئون التنظيم والادارة ( ١ ) . هذه الحركة التي كانت ضرورية في تلك الفترة والتي كانت عن حسن نية قد استغلت فيما بعد من قبل أذناب المخطط اليهودي الصليبي من المثقفين ثقافة غربية الذين اعتبروا الأمم الغربية متمدنة متفوقة قوية وانبهروا بكل ما عندها . وقد وضعوا لهذه الحركة مواصفات خاصة وخلقوا حولها الأجواء المناسبة للوصول الى غايتهم في السير نحو الاتجاه اللاديني وسحق الاسلام ونبذوا وراء ظهورهم . وهكذا قامت حركة ثورية في صفوف هؤلاء المثقفين في عهد السلطان عبد الحميد وهي تطالب بالإصلاح الداخلي

(١) راجع نص المرسوم في تاريخ الدولة العلية العثمانية ، لمحمد فريد ص ٢٥٤ وما بعده وكذلك محمد كمال الدسوقي الدولة العثمانية والمسألة الشرقية

عن طريق اقامة حكومة دستورية . وكان يتزعم هذه الحركة مدحت باشا وصباح الدين وأحمد رضا . ثم أسست عصبتهم فكرة الطورانية وأعلنت دستورها الذي عبروا فيه عن أهدافهم اللادينية التي تتمثل في رفعهم الشعارات الماسونية وتقريرهم لمبدأ الحرية الدينية والمساواة التامة بين أصحاب الديانات المختلفة تحقيقا للوحدة الوطنية ثم الفائم المحاكم الشرعية عن طريق احداث " الاصلاحات التنظيمية والتقنية " . وهكذا أخذ الأمر يسير على هذا المنوال حتى جاء أتاتورك فسحق الشريعة الاسلامية بكاملها وأعلن تركيا دولة علمانية لادينية ، "فقام بالقضاء" وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية وتحديد الزي الديني وعدم السماح بارتدائه الا لطائفة خاصة كالأئمة والخطباء والوظائف ، ثم وضع قانونا مدنيا بدل مجلة الأحكام العدلية حرم فيه تعدد الزوجات وخول لكل من الزوجين الحق برفع قضية الطلاق لأسباب معينة ، وتحرير المرأة من حيث سفورها ، ومساواتها بالرجل سياسيا واجتماعيا ومدنيا ففتح لها مجال الكسب والتوظيف واعتبر الزواج شركة تتألف من جزئين متساويين وشرع للمرأة حق أن تنتخب وتنتخب ، وفصل الدين عن الدولة فلم يستخدم الدين في التشريع ولا في الحكم ولا في الادارة الى غير ذلك وغير كتابة اللغة التركية من الحروف العربية الى الحروف اللاتينية وهكذا كانت مدنية لادينية . . ( ١ ) " وقد وضع مصطفى كمال أتاتورك للشعب التركي المسلم قانونا مستقي من القانون السويسري والقانون الايطالي وغيرهما مع شروح واضافات من عنده ومع ذلك كان يتيجح ويقول بأنه لا يريد شيئا من الماضي ولا يريد أن يأخذ مما قاله الآخرون " نحن لا نريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول ( ٢ ) . " وقال : " ان التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادئ ولا للتقاليد ( ٣ ) . " وقال وزير العدل التركي

(١) راجع أحمد أمين ، يوم الاسلام ص ١١٨-١١٩

(٢) الأمير شكيب ارسلان ، حاضر العالم الاسلامي ٣ / ٣٤٣

(٣) المصدر نفسه ٣ / ٣٤٤

محمود أسعد بك : " ان الشعب التركي جدير بأن يفكر لنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله ، وقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية مدونة بكلمة " قال " المقدسة فأما الآن فلا يهمننا أصلا ماذا قالوا في الماضي بل يهمننا أن نفكر نحن ونقول نحن ( ١ ) ."

وأما في بقية البلاد الاسلامية فقد سار الأمر على أساليب المكر والكيد حيث قام رجال الاستعمار بتنفيذ خططهم ومحاولاتهم في تدرج وعلى مهل حتى تمت تنحية الشريعة الاسلامية عن مجال الحياة العملية في مجال الحكم والتشريع والقضاء واحلال نظم الغرب وقوانينه ومناهجه محلها . فالفهنيـسـد التي كانت الشريعة تطبق فيها حتى سنة ١٧٩١م عملت بريطانيا على تنحيتهـا منذ احتلالها لهذا البلد المسلم حتى تم لها ذلك في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي وكذا لك فعلت فرنسا في الجزائر حيث أدخلت قانونها اليها بـسـد احتلالها سنة ١٨٣٠ م ، وحدث ذلك أيضا في تونس والمغرب وليبيا في أوائل هذا القرن الميلادي كما حدث في بقية البلاد الاسلامية من قبل ومن بعد . ثم ان الأمر قد تطور في العالم الاسلامي كله بعد رحيل الاستعمار حيث رأينا الحكام المحليين يواصلون السير على الطريق الذي مهد له رجال الاستعمار كل تمهيد فازدادوا تمسقا بالغرب واقتباسا من نظريات اللادينية وأفكاره وقوانينه وطرائق حياته ، ولا تزال البلاد الاسلامية تتخبط وتضطرب بين أفكار وأنظمة ومناهج الغرب اللادينية وتزداد خطورة الأمر يوما بعد يوم حتى مع ما نتج عن المحاولات المتعددة في التطبيق من الفشل والاختفاق . وقد سمي هؤلاء الحكام الي ابعاد الاسلام عن شئون الحياة العملية وافراغ المجتمع من هيمنة الدين . وفرفروا الحكم والتشريع والقضاء من الاسلام وفصلوا بين الدين والدولة وألغوا المحاكم الشرعية وأحلوا محلها المحاكم المدنية ، وأفسحوا المجال لتوغل المبادئ والنظريات والمذاهب الغربية اللادينية الى بلاد المسلمين ورفعوا شعار القومية والوطنية وترصدوا للحركات التي تدعو الى العودة الى التمسك بالدين والسير

على هديه وعذبوا المسلمين واضطهدوهم وفتنواهم من دينهم . وقد وصل الأمر في تونس مثلا الى أن أعلن رئيسها أن الصيام في شهر رمضان بسبب انخفاضه في الانتاج وأصدر الأمر بمنع العاملين في حقول الانتاج من الصيام كيلا تتناقص نسبة الانتاج وأسقط عنهم بذلك الركن الثاني من أركان الاسلام الخمسة ( ١ ) . وأكثر من هذا ما جاء في الخطاب الذي ألقاه هذا الرئيس في مؤتمر المدرسين والمربين لمناسبة الملتقى الدولي حول الثقافة الذاتية والوعي القومي من تصريحات ( ٢ ) خطيرة تتضمن القول بتناقض القرآن وانكار قصة عصا موسى وقصة أهل الكهف والقول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان انسانا بسيطاً يسافر كثيرا عبر الصحراء العربية ويستمتع الى الخرافات البسيطة السائدة في ذلك الوقت وأنه قد نقل تلك الخرافات الى القرآن وكذلك انكار اعطاء المرأة نصف ما يعطى الذكر في الميراث لأنه لا يناسب تطور المجتمع . وأن على الحكام أن يطوروا الأحكام حسب تطور المجتمع ، ثم انكار تعدد الزوجات وحججه ذلك على الشعب التونسي والقول بأن المسلمين قد وصلوا الى تأليه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم دائما يكررون " محمد صلى الله عليه وسلم - الله - يصلي على محمد " . ( ٣ )

وكذلك أعلن رئيس وزراء تونس في أواخر سنة ١٩٥٦م أن الحكومة قررت وضع قانون للأحوال الشخصية يتناول شروط الزواج والطلاق وتعدد الزوجات ويحرم هذا القانون على الرجل التونسي أن يتزوج أكثر من واحدة لغير ضرورة

(١) انظر المودودي ، الاسلام اليوم ص ٥١

(٢) نشرتها صحيفة الشهاب اللبنانية في عدد ٥١ الصادر في ٢٣ ربيع الأول سنة

١٣٩٤هـ الموافق ١ نيسان سنة ١٩٧٤م .

(٣) اقرأ الرسالة التي كتبها سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله بن باز في الرد على هذه الأمور الشنيعة التي جاءت في هذا الخطاب الخطير ، وهذه الرسالة بعنوان " حكم الاسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض أو مشتمل على بعض الخرافات أو وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بما يتضمن تنقصه أو الطعن في رسالته والرد على الرئيس أبي رقية |نسب اليه من ذلك " .



وأن يطلق زوجته بغير سبب ( ١ ) " مقبول " وقد حدث أكثر من ذلك في تونس وفي عدن في اليمن الجنوبي وفي الصومال وأفغانستان وبنجلادش وغيرها من البلاد الإسلامية حتى أبعدت الشريعة الإسلامية ليست فقط من واقع الحياة العملية بل حتى من ناحية التصور والشعور والوجدان .

وفي الآونة الأخيرة اجترأ رئيس ليبيا على الإسلام فأعلن عن إلغاء فريضة الحج ودعا إلى إعادة كتابة القرآن الكريم . وهكذا حدث ما تنبأ به "جب" حين قال : " . . . . . وكان طبيعياً أن يبقى الإسلام . . . . . وقد يكون الدين الرسمي للدولة ولكنه سلب الحقوق التشريعية ونزل إلى مكانه الديانة المسيحية في الدول الأوروبية ، وقد يختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل إقليم ( ٢ ) " .

#### النقطة الثانية :-

=====

الترصد للحركات الإسلامية الإصلاحية وبذل كل الجهد في القضاء عليها لمنع عودة قوة الإسلام من جديد ومحاولة صرف حركات المقاومة الشعبية عن اتجاهها الصحيح بتجريد ها من النزعة الدينية وتحويلها إلى اتجاهات وطنية محضة لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد .

منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي كان العالم الإسلامي قد بلغ مبلغه من الضعف والانحيار وكانت الدولة العثمانية زعيمة العالم الإسلامي قد وصلت حالة من السوء حتى صارت تدعى فيما بعد " الرجل المريض " في هذه الفترة نشطت أوروبا الصليبية من عقال الجهل والجمود والتخلف المادي وودبت فيها عوامل القوة والحيوية والنشاط فتحفزت في نفسها الروح الصليبية وأقبلت بخيلها ورجلها تبسط نفوذها في أنحاء بلاد المسلمين ، ولكن العالم الإسلامي رغم ما كان يعانيه من الضعف والجمود والتخلف لم يكن في طريقه إلى الزوال - والاضمحلال . وذلك لأن العقيدة الإسلامية فيها من الروح الدافقة والحيوية

(١) د . أحمد شلبي - المجتمع الإسلامي ، ص ٢٥٠

(٢) وجهة الإسلام ص ٥١ ترجمة محمد أبو ريده

الجياشة ما يجعلها تجتاز العقبات الكأداء وتحتمل الهزات والصدمات مهما كانت قوية وعنيفة ، وقد حدث من قبل أن ابتليت هذه الأمة وزلزلت وصدمت صدمة عنيفة كاسرة ولكنها لا تلبث طويلا حتى تنبعث في نفسها هذه الروح والحيوية فتفيق من الصدمة وتتغلب على الوضع المتردى ثم تأخذ طريقها مرة أخرى نحو البناء والنشاط والانطلاق . وقد بدأت هذه الروح الحيوية تتحرك في مكانها لتعاود النشاط والانطلاق من جديد ، ويتمثل ذلك في ظهور حركات اصلاحية دينية في مختلف الاقطار الاسلامية خلال القرن التاسع عشر الميلادي . كدعوة الامام محمد بن عبد الوهاب في نجد والحجاز والشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجيريا وعبد القادر الجزائري في الجزائر وعبد الكريم الخطابي في المغرب الأقصى ومحمد علي السنوسي وعمر المختار في ليبيا ومحمد أحمد بن عبد الله المهدي في السودان واسماعيل الشهيد في الهند والحاج عمر بن سعيد تال في دولة السنغال وكذلك حركة الاخوان المسلمين في مصر ، والجماعة الاسلامية في باكستان وغيرها من النصف الأول من هذا القرن الميلادي .

وقد كانت قوى الاستعمار في صراعها المرير مع العالم الاسلامي حريصة كل الحرص على أن تبقى الأمة الاسلامية ضعيفة متخلفة منهارة القوى ، وكانت تضع خططاً متعددة وتبذل جهودا كبيرة لمنع عودة قوة الاسلام ومجد المسلمين وعزتهم . وكان من سياسة قوى الاستعمار في هذا المجال أن ترصد الحركات الاسلامية الاصلاحية وتتحسس أخبارها في أنحاء البلدان الاسلامية لتكبتها وتقتلها قبل أن يمتد نفوذها خارج حدود قطرها الى بقية أنحاء العالم الاسلامي ، فان قوى الاستعمار كانت تعلم ان قيام حركات اصلاحية واعية تتبنى اصلاح الحالة المتدهورة في العالم الاسلامي ورفع الجهل والجمود والذل والنظم وتعمل على المحافظة على وحدة العالم الاسلامي وقوة العقيدة الاسلامية وهيمنتها على الحياة الاسلامية بما يحقق للمسلمين القوة والعزة والتكفين . . علمت القوى الصليبية أن قيام حركات دينية كهذه من شأنه أن يشكل خطرا كبيرا على كيانه

النفوذ الاجنبى في بلاد المسلمين لان هذه الحركات لا تنظر فقط الى كون الاستعمار قوة غازية معادية يجب قتاله ومجاهدته ومقاومة شرائعه وتعاليمه ومناهجه وخططه ومكائده حتى ينجلى خطره وتنقشع سحابته عن سما البلاد الاسلامية بل انها ستعمل على اعادة قوة الاسلام وسلطان المسلمين وفي ذلك يكمن الخطر الجسيم حيث ان المسلمين لا يكتفون بطرد القوى الغازية من بلادهم ولكنهم سيلاحقون عدوهم القديم الى عقر داره كما حدث بعد الحروب الصليبية الاولى .

من أجل ذلك كله كانت قوى الاستعمار ترفض باصرار قيام حركات اصلاحية كهذه وتبذل كل ما في وسعها من قوة وكيد ومكر للقضاء عليها حتى تستطيع أن تضمن لنفسها الامن والاستقرار وتتمكن من العمل بمنتهى الحرية في محاولة تقويض بناء الحياة الاسلامية وهدم مقوماتها واقامة مناهج حياتها وطرائقها مكانها . وقد أدركت ان نجاحها في هذا السبيل سيجعل لمطية الاحتلال والاستيلاء نوعا من " الشرعية " ولولفترة من الزمن كما يعطى بعض المبررات لبقائه حكمها واستمرار وجودها أو على الاقل يؤخر الثورة ضدها الى أقصى المدى . وهكذا وقفت قوى الاستعمار من الحركات الاسلامية بالمرصاد فكلما احست بظهور حركة اصلاحية دينية في أى قطر من الأقطار الاسلامية عاجلتها بضربات القاصمة قبل أن تأخذ صورتها المكتملة وتبلغ من القوة والتمكن ما يمكنها من بسط سلطانها على العالم الاسلامي كله . فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد والحجاز وحركة المهدي في السودان قد سمت أوروبا الصليبية لتحطيمهما بخطة خبيثة حيث أغرت عليهما صدور الحكام الاتراك ثم استغلت محمد علي باشا وأبنائه للقضاء عليها الواحدة تلو الأخرى بعد أن احتضنت فرنسا محمد علي باشا وساعدته في بناء قوته الحربية حيث صنعت له أسطولا بحريا ضخما وترسانة حربية وجيشا بريا كبيرا ، كل ذلك لتشجعه على محاولة الاستقلال عن سلطان الحكم العثماني ثم استغلاله هو وأبنائه للقضاء على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مصر

دائمة وقعت بين الفئتين ثم القضاء على حركة المهدي على يد الجيوش الانجليزية المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر (١) . وأما بقية الحركات الاصلاحية فسي أنهاء العالم الاسلامي فقد تمدت جيوش الاحتلال الصليبي للقضاء عليها وبخاصة فرنسا وانجلترا فدارت معارك طاحنة بينها وبين جيوش هؤلاء الدعاة المجاهدين استمرت فترة طويلة من الزمن على طول بلاد شمال افريقيا وفي بلاد السودان الغربي وفي الهند وغيرها وأما في مصر منذ أن قامت حركة الاخوان المسلمين في العقد الثالث من هذا القرن الميلادي فقد أخذت الحرب الموجهة ضد هذه صورة مفارقة حيث أن دوائر الاستعمار والمخابرات اليهودية العالمية حين فشلت في محاولة احتواء دعوة الاخوان لجأت الى خطة خبيثة شبيهة بالخططة المدبرة مع محمد علي باشا وأبنائه لتحطيم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركة المهدي ، وهذه الخطة هي استغلال أناب المخطط الصليبي الصهيوني من أبناء المسلمين لضرب الحركة من الداخل . وهكذا ضربت الحركة ضربة عنيفة قاسية بقصد التصفية الكاملة للوجود الاسلامي الصحيح من المنطقة ولكن الله أبهى إلا أن يظهر دينه ولو بعد حين .

وبينما نرى هذه المحاولات الضخمة التي كانت قبلها قوى الاستعمار من أجل القضاء على الحركات الاسلامية الاصلاحية نرى من الجانب المقابل ما كانت تبذله من جهود متواصلة لخلق الاجواء المناسبة لحدوث تحولات خطيرة وانقلابات جذرية وقيام ثورات مدمرة في المجتمعات الاسلامية على نمط الثورة الفرنسية في أوروبا . فقد كانت القوى الصليبية تتبنى فكرة قيام " حركات اصلاح " لا تقوم على أساس ديني تتولى مهمة توجيهها والارشاف عليها وتمدها فكريا وسياسيا وتضع لها المشاريع والخطط والبرامج وتساعد في تنفيذها كحركات التفرغيب

(١) راجع " هل نحن مسلمون " للاستاذ محمد قطب . ص ١٢٧ - ١٢٩



وحدث في مصر أي أن الشعب المصري المسلم نظم ثورة ضخمة ضد الحاكم البريطاني سنة ١٩١٩ م ، وكانت هذه الثورة دينية بحتة لأنها كانت نابضة من الأثر حيث أن علماء كانوا يبعثون روح الجهاد في قلوب المسلمين ويدعونهم إلى حشد الطاقات من أجل إنهاء الوضع السيئ القائم في البلاد ولرد العدوان الكافر الذي تسلط على رقاب المسلمين (١) . وقد لاقى الناس أشتاء هائلة هذه الثورة الكبيرة العنت والقسوة والاضطهاد من جانب قوى الاستعمار ولكن الروح الدينية الجياشة ظلت تدفعهم نحو التضحية والتفاني ولم تزد هم نسوة جنود الاحتلال الأجنبي وتصرفاتهم الوحشية لانها المقاومة الا قوة وثبات ورغبة في بذل المزيد من الجهد والتضحية حتى يحققوا النصر على العدو والتسلط ولكن هذه الانتفاضة الشعبية الكبيرة التي قامت على أساس الدين وتشكلت من الحماسة الدينية والروح الجهادية قد حول اتجاهها بين عشية وضحاها إلى اتجاه وطني محض لا علاقة له بالدين البتة . فقد ظهر على مسرح الأحداث زعيم شعبي كبير رضع لبان التفرنج والوطنية من مدرسة لطفي السيد ومن جرى مجراه ، وهذا الزعيم الشعبي هو (٢) سعد زغلول الذي تزعم قيادة هذه الثورة واستطاع ان يحول اتجاهها عن وجهتها السلمية ويستقلها لمآربها الوطنية حين أطلق شعارا خطيرا جعله ركيزة حركته الوطنية فقال " الدين لله والوطن للجميع " وكان يرى وجوب مراعاة مشاعر الاقلية القليلة من الأقباط والنصارى المشتركين في الثورة ولو أدى ذلك إلى رفع شعارات ضافية للاسلام وابعاد الاسلام كلية من ميدان النضال الشعبي من أجل دفع الظلم والعدوان . وهكذا تحول الحديث باسم الاسلام لاستنهاض المهمة وبعث روح الجهاد إلى الحديث باسم الوطن والوحدة القومية واستبدلت المشاعر الوطنية والوحدة القومية

(١) راجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر د . محمد محمد

حسين ٨/٢ ، و ١٨ - ١٩

(٢) انظر المصدر نفسه ٣٧٣/٢ - ٤٠٤

واستبدلت المشاعر الوطنية والوحدة القومية بالمشاعر السلامية ورابطة العقيدة وأبعد الاسلام عن مجال النشاط السياسى ثم عن بقية مجالات الحياة العملية وازدادت النخب المثقفة تعلقا بأذيال الغرب وترسم خطاه في كل شىء وتذهب مذهبه حتى اصبح من أبناء المسلمين من ينكر صراحة كون مجالات الحياة العملية من السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك داخلة في نطاق الدين ويرمونه من يرى ذلك بالجمود والرجعية والتأخر.

كانت النخب المثقفة التي رباها الاستثمار قد رضيت - من حيث لا تدري ومن حيث لا تدري - بأن تكون القوى الاستثمارية نفسها هي المنظمة والموجهة لحركات المقاومة فسارت الامور في الاتجاه الذي خطط له الاستثمار . وان حركات مقاومة الاحتلال الاجنبى التي تتمثل في الحركات القومية والشعوبية كانت منذ نشأتها حركات عاطفية مشبوبة موجهة ضد أعمال التعسف والاعتداء والاحكام التي يلحقها الاستثمار بالشعوب المستضعفة . ولم يكن في امكان الشعوب المستعمرة التي كانت متخلقة علميا وحضاريا ان تدرس وتتفهم الخطط التي وضعها رجال الاستثمار لاستعبادها واستغلالها لانهم كانوا أرقى منها عقلا وادراكا وتفهما للامور فكانوا يخضعونها ويستذلونها بالعلم والنظام والتخطيط الدقيق الماكر بينما راحت هذه الشعوب تحاول التخلص من كيدهم بحركات عاطفية واعمال مرتجلة لا تنفذ الى الأعماق ولا تقوم على الأسس السليمة . وقد كان الاستثمار يسعى لضمان مستقبله في البلاد الغائصة لنفوذه فوضع الخطط ليسد الطريق أمام الشعوب المستعبدة ويحول بينها وبين كل تنبه ويقطعه ووعى سليم ، وقد كان عازما منذ استيلائه على مقاليد الامور على افساد الحياة السياسية والاجتماعية وتفريغها من المحتوى الاسلامي لضمان سير الامور في الاتجاه الذي يريده هو . ومن أجل هذا رأينا انه عندما أحس بتحرك روح المقاومة ضد وجوده لجأ الى اثاره روح القومية والوطنية وتولى مهمة الاشراف على الحركات الوطنية والقومية وتوجيهها حتى تسير وفق الخطط المرسومة لها وتتجه نحو الاتجاه

الذى يريد الاستعمار لا تعيد عنه قيد شبر لتأتى النتائج فى النهاية فسي  
 صالح الاستعمار . وهكذا نرى أن الحركات القومية والوطنية هى من أفاعيل  
 ايدى الاستعمار ورسله وأذنايه ، فهم الذين نفخوا فى روحها واحتضنوها  
 لقصد اغتاف وحدة الشعوب وتحطيمها واخماد النزعة الدينية وتفريغ  
 قضية النضال وحركة المقاومة من قيمتها الأساسية وتحويلها عن الاتجاه السليم .  
 وذلك لأن فكرة القومية والوطنية والاقليمية وفكرة النقابات الصالية والاحزاب  
 السياسية التى تزعمت حركات المقاومة وقبضت على زمام الأمر بعد رحيل الاستعمار .  
 كل ذلك لم يأت من القاعدة وإنما نبت فى المجتمعات الاسلامية ونما وترعرع  
 بين الطبقة المثقفة ثقافة غربية التى كانت تسير بوجهى وتوجيه من رجال الاستعمار ،  
 وقد شحن فكرها بالتقسيم الاقليمى المحدود والرابطة العنصرية والدونية  
 والعرقية واللفوية باعتبارها عوامل التجمع والوحدة بين الشعوب حتى اصبحت  
 هذه الطبقة لا تقر بفكرة التجمع والوحدة على اساس الرابطة الروحية والأخوة  
 الدينية . ولا شك أن الحرب فى ذلك كله موجهة ضد الاسلام لمحورابطية  
 المقيدة التى يعتبرها عاملا أساسيا أكبر ترتكز عليه جميع عوامل التجمع  
 والوحدة والتجانس بين بنى البشر .

نعود بعد هذا كله لنقرر أن السياسة الاستعمارية التى أنشأت السروح  
 القومية ابتداء لم تكن لترغى عنها إذا تجاوزت حدودا معينة وأصبحت خطرا  
 على المصالح الاستعمارية ولكنها فى الوقت نفسه لم تكن لتقضى عليها قسرا  
 كاطلا خشية ظهور البديل الأخطر وهو الروح الإسلامية المجاهدة التى تحسب  
 لها ألف حساب ، لذلك فإنها كانت تقاوم الحركة القومية أحيانا لا لتقتلها  
 ولكن لتردها الى الحدود التى لا تشكل خطرا كبيرا على مصالحها وتعرض فى  
 الوقت ذاته على بذل وسعها فى استمرار دعما وتغذيتها فكريا وسياسيا  
 حتى تظل المسيطرة على مجرى السياسة فى المجتمعات الإسلامية وذلك  
 لابعاد شبح الإسلام الذى يمكن أن يجمع الشعوب الإسلامية المتفرقة ويحشد



الطاقات المشتتة" ويوحدها تحت راية واحدة في حركة جهادية خطيرة ضد القوى الاستعمارية الصليبية والصهيونية مجتمعة في معركة فاصلة تنتصر فيها قوة الحق على قوى الباطل والكفر والعدوان كما حدث من قبل في الحروب الصليبية الأولى وبخاصة في عهد القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي وكذلك في فتوحات الدولة العثمانية التي استطاعت ان تبسط سلطان الاسلام في اوربا وآسيا وافريقيا قرابة خمسة قرون متتالية .

النقطة الثالثة : بذل أقصى الجهد لتحقيق السيطرة التامة على مجال التربية والتعليم والثقافة والفن ، والقضاء على المصادر الاسلامية وما يكون لها من آثار في هذا المجال

قبل الاحتلال الصليبي للعالم الاسلامي في القرن الماضي كان التعليم والثقافة في انحاء العالم الاسلامي اسلاميين في أساسها ويمثلان في التراث العلمي والفكري الذي توفره المدارس والمعاهد المنتشرة في ربوع بلاد المسلمين ولو أن المستوى العلمي والثقافي القائم في هذه المعاهد والمدارس لم يكن يمثل - في واقع الامر - حقيقة التعليم الاسلامي والثقافة الاسلامية فسي صورتها الصحيحة المتكاملة ، وذلك لان التعليم والثقافة ككل شيء في اواخر العهد العثماني كانا راكبين متأخرين موضوعا واسلوبا وجامدين محدودين لا يصلحان لمواكبة الحياة المتطورة .

فبينما كانت مراكز العلم في البلاد الاسلامية الى عصر غير بعيد تدرس العلوم الطبيعية والرياضيات كالفلك والجبر والهندسة والفيزياء والطب الى جانب العلوم الدينية من الفقه والحديث والتفسير واصل الدين وعلوم اللغة من النحو والصرف والمصانئ والبيان والبديع والضطق فقد بلغ تقلص ميدان العلم والثقافة وانزوائه مرحلة خطيرة منذ القرون الثلاثة الاخيرة - على الاقل - نتيجة ذبول الحضارة الاسلامية وانحطاط المسلمين فاقصر هذا الميدان الفسيح على بقايا

التراث العلمي والفكري الذي خلفه علماء الكلام والفقه واللغة منذ عصور ازدهار الحضارة الإسلامية وتوقفت هذه العلوم أيضا عند النقطة التي انتهى إليها السابقون وجمدت وتحجرت ، ثم أهملت العلوم الاخرى المهمة التي قدم فيها المسلمون انجازات كبيرة في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية . وقد حدث ركود علمي وتخلف فكري في المجتمعات الإسلامية خلال القرون الثلاثة الاخيرة نتيجة عجز المسلمين وتهاونهم وانحرافهم مما أدى الى الواقع السيء الذي يعيشونه في كل ناحية من نواحي الحياة .

وفي أثناء احتكاك الأمة الإسلامية بالحضارة الغربية المسيحية وخاصة بعد حملة نابليون على مصر استيقظت الأمة من رقتها الطويلة ولكنها أصيبت بصدمة نفسية فقدت معها وعيها ورشدتها فانهت بالحضارة الغربية أيما انهيار ، فظهر لها ما يمانيه التعليم المحلي الذي توفره المعاهد والمدارس الدينية من نقص وقصور وعجز في توفير متطلبات المجتمع الفكرية والعلمية والثقافية والحضارية . ولكن التعليم الغربي الذي يشمل جميع نشاطات الفكر في العلم والثقافة والحضارة كان يعد عند علماء المسلمين تعليما خاصا بالكفار لأنه قائم على أسس غير دينية ويحوى أفكارا وقيما منافية لتعاليم الدين كما يتجسسه اتجاهها لادينيا ، وبسبب هذا حدثت نفرة شديدة بين المعلمين " الدينيين " أو المحلي والغربي ثم نشأت على أساس ذلك ازدياد حجة خطيرة في مجال التعليم عندما أنشئت المدارس الأجنبية في عهد الاستعمار فظلت المدارس والمعاهد الإسلامية تقدم تعليما " دينيا " ضيقا محدودا وأصبحت المدارس الأجنبية تقدم الى جانب التعليم النصراني تعليما غربيا لادينيا يشمل مجالات العلم كلها .

وقبل دخول الاستعمار وفي أثناء قيام حكمه في العالم الإسلامي بدأت محاولات قوية في معظم المراكز العلمية في العالم الإسلامي لاصلاح التعليم ورفع

شأنه الى المستوى اللائق به وان كانت بعض هذه المحاولات جزئية وناقصة  
بينما بعضها الآخر نابع من الشعور بالنقص والقصور وبالتالي تأثرت بالأساليب  
الفربية مما جعلها تعيد عن الطريق السوى في الاصلاح والتقويم ولكن بصرف  
الأنظارها يمكن أن يأتي من وراء هذه المحاولات من نتائج فقد كان الاستعمار  
الصليبي عازما على القضاء على التعليم الاصلى واحتواء المراكز العلمية فسي  
انحاء العالم الاسلامي لانها تعتبر معارقل الاسلام التي يرد لها المسلمون لتلقى  
العلم والمعرفة وهى بذلك تكون مصدرا من مصادر قوة الاسلام من الناحية  
العلمية والفكرية والروحية وعاملا من عوامل الوحدة بين الامة الاسلامية رغم  
ما كانت تعانيه من الجمود والتخلف والتحجر .

ولم تكن قوى الاستعمار - ماعدا فرنسا - بغططها الخبيثة وطرقها  
الطوية الماكرة لتقدم على الفاء التعليم الدينى وهدم المدارس والمعاهد  
الدينية بطريقة مباشرة ، فقد اتمطت بما وقع للفرنسيين بعد حملتهم العنيفة  
على مصر حين ارادوا احداث تغيير جذرى في شؤون البلاد واستباحوا الأزهر  
لغلولهم وقد قوه بالمدافع لا تخضع علمائه للموجة الكاسرة المدمرة وكان ذلك سببا  
مباشرا لقيام ثورة شعبية عارمة ضدهم لقي فيها القائد العسكري الفرنسى مصرعه  
على يد طالب أزهرى ثم اضطروا بعد ذلك الى الجلاء عن البلاد وكذلك ملاقوه  
من مقاومات شديدة متواصلة في بلاد المغرب حيث كانوا يحولون المساجد  
والزوايا الى اصطبلات للخيول ومغازن للسلاح بعد طرد طلابها وتشريدهم  
في الأرض (١) ، وكذلك الفشل الذريع الذى كان يعقب حملات التبشير الهجومية  
ضد الاسلام واستخدام وسائل القهر والاكراه مما ينهى المسلمين الى الكي  
المدبر لهم ويستثير حفيظتهم للمقاومة ثم يزدادون استمساكا بدينهم وقوة وحماسة  
لرد العدوان .

ولكن الذى فعلته قوى الاستعمار - وبخاصة بريطانيا - بعد أن استتب

(١) راجع محمد جلال كشك ، الفز والفكرى ص ٣٤ وما بعدها

لها الأمر وتحققت لها السيطرة السياسية والعسكرية واهكمت قبضتها على مقاليد الأمور في البلاد الإسلامية هو أنها وضمت المخططات الدقيقة الماكورة للقضاء على التعليم الديني واحتواء الثقافة الإسلامية لافساح المجال أمام التعليم الغربي المسيحي أو اللاديني كما يحظر رجاله ويأخذ طريقه في الانتشار على انقاض التعليم الديني والمعاهد الدينية المحلية . وقد كانت السياسات التعليمية التي وضعها الحكام المستعمرون في هذا السبيل دقيقة الخطى بعيدة المدى وأكيدة المفعول .

ففي مصر مثلاً أثناء الاحتلال البريطاني تولى لورد كرومر ومستشاره التعليمي دنلوب المهمة فوضع منهاجاً تعليمياً دقيقاً للمدارس الجديدة التي انشئت في تلك الفترة ، وكان التركيز الكبير في هذا المنهج على مادة اللغة العربية والدين والتاريخ الإسلامي وكان هذا المنهج يحتوي على نماذج كثيرة من الأكاذيب والدسائس والتشويهات والشبهات فيما يتعلق بالإسلام وتاريخه وحضارته كانت بعضها غفية بينما بعضها الآخر صريحة ، وكان ذلك كله يدرس لأبناء المسلمين في مدارس الحكومة بقسميها الابتدائي والثانوي إلى جانب تصوير أوريسا وتاريخها وحضارتها في صورة جذابة على أنها هي القوة الصاعدة ، هي التقدم والرقى ، هي الحضارة "الحقة" التي كان واجباً على الأمم المتخلفة أن تحذو حذوها وتترسم خطاها وتأخذها مثلها الأعلى في كل شيء (١) . وكذلك وضع المستر كوك منهاجاً مماثلاً في العراق .

وفي شمال نيجيريا قام " هانس فيشر " *Hanns Fischer* أول وزير

للتعليم سنة ١٩٠٨ م بوضع مخطط للتعليم العالي وفق الطريقة التي اختارها

---

(١) راجع د . علي عبد الحليم محمود ، الفزوة الفكرية وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ، فصل حملات التفريب الموجهة ضد الإسلام " في مجال التعليم والثقافة " ص ١٢٣ - ١٣٩ .

لورد كرومر للمصريين (١) . وكذلك وضعت الخطط المماثلة في بقية العالم الإسلامي . وكان الهدف من وراء هذه السياسة هو تحطيم الروح المعنوية عند أبناء المسلمين الذين يدرسون في هذه المدارس ومحاولة إبعادهم عن دينهم من خلال مناهج التعليم .

وأما عن خطط قوى الاستعمار في هذا المجال وان اختلفت قليلا او كثيرا بحسب ظروف كل بلد ومدى قوة الاسلام فيه الا أنها في الجلة تتلخص فـي فتح مدارس غربية لادينية واخرى تبشيرية على اختلاف مراحل التعليم في معظم البلاد الاسلامية ، وإهمال المآهد والمدارس الاسلامية ومحاولة القضاء عليها والقضاء على الاوقاف التي كانت تعتمد عليها ثم محاولة احتواء التعليم الديني عن طريق ادعاء اصلاحه وتطويره وادراجه ضمن مناهج التعليم الموضوعية لمدارس الحكومة الاستعمارية وبخاصة مادة اللغة العربية والدين والتاريخ الإسلامي ، ثم وضع مناهج التعليم على أساس تشويه حقائق الاسلام والاسس على تعاليمه وتلفيق الاكاذيب واثارة الشبهات حول تاريخه وحضارته . ثم الاعتماد في تحقير المواد الدينية والتحكم في الوضع الاجتماعي والاقتصادي لمدرسي المواد الدينية لاشعارهم بضآلة موردتهم وحقارة شأنهم الى جانب غيرهم ممن المدرسين الذين يدرسون اللغة الانجليزية والعلوم " المدنية " ويلقون احتراما كبيرا في المدرسة والمجتمع حيث تضمن لهم الخطة مستقبلا زاهرا ليتدرجوا فـي المراكز الاجتماعية العالية وينعموا بقسط وافر من الرخاء المادي . وقد كانت مهمة هذه المدارس في تلك الفترة هي تخريج موظفين كفة للعمل في الدواوين التي يسيطر عليها الحكام المستعمرون ويدبرونها وكانوا يُعْطَوْنَ رواتب مغرية في الوقت الذي كان المتعلمون في المدارس الدينية المحلية لا تتاح لهم هذه الفرصة

(١) عن التبشير والاستعمار في نيجيريا ( رسالة ماجستير ) ص ١٢٢

وان وجدوا شيئا من العمل فلا يبلغ عائدہ مايسد به الرق . وقد ثارت ثائثرة المسلمين على هذه المدارس الأجنبية وخافتها الخبيثة في بادى الامر حيث رفض كثير منهم ادخال أبنائهم فيها ولكن بعضهم بتأثير الاغراء المادى المبرس قد اتجهوا نحو هذه المدارس من ذوات انفسهم فأدخلوا أبنائهم فيها ، ولم تضر فترة طويلة حتى أصبح المتعلمون في هذه المدارس الجديدة " طبقه جديدة " في المجتمع تستند طبقيتهم الى كونهم حصلوا قسطا من العلوم المدنية الحديثة وأصبحوا يتلقون تشجيعا ظاهرا وخفيا من السلطة الاستعمارية المتسلطة حيث كانت تبوئهم مراكز اجتماعية في وظائف الحكومة وتفتح أمامهم جانبا من الحياة الجديدة المتطورة حتى يظلوا خاضعين لنفوذها (١) . وقد كان للمناهج الغربية والمدارس الأجنبية التي أقامها الحكام المستعمرون في معظم بلاد المسلمين آثار عميقة الجذور في تأسيس النهضة العلمية والفكرية وتشكيلها وتوجيهها وجهة غربية لادينية واقصاء التعليم الديني والثقافة الدينية عن ميدان الحياة العملية في كافة بلاد المسلمين . ولا أدل على نجاح خططهم في هذا السبيل من بقاء آثارها وانتشارها وسيطرتها على شتى مجالات الحياة في المجتمعات الاسلامية منذ عهد الاستعمار حتى يومنا هذا .

ولم يقتصر الامر على الخطط التي وضعها الحكام المستعمرون في مجال التعليم لتوجيه العالم الاسلامي نحو الوجهة الغربية اللادينية فقد كان أذناب مخططهم الخبيث من أبناء المسلمين وغيرهم لا يقلون عنهم حرصا وجهدا في سبيل صبغ المجتمعات الاسلامية بالصبغة الاوربية ، ويظهر ذلك جليا فسي

---

(١) اقرأ سياسة دولوب التعليمية للقضاء على التعليم الديني والمهادد الدينية في مصر في كتاب " هل نحن مسلمون ؟ " للاستاذ محمد قطب ص ١٣٢ - ١٤٣ . وقد تحدث عن خطة " هانس فيشر " التعليمية في شمال نيجيريا بشئ من التفصيل في رسالتى للماجستير " التبشير والاستعمار في نيجيريا " ص ١٢٢ - ١٢٤ . (غير مطبوعة)

في ولائهم لقوى الغرب المسيطرة ودعمهم ومساندتهم لكل ما يقوم به رجال الاستعمار من أعمال ومخططات وقبولهم السير في الاتجاه الذي يريدونه حيث كانوا يصعدون في أعمالهم عن توجيهات رجال الاستعمار وإرشاداتهم ويمهدون الطريق لعملية المسخ والصبغ الكاملين بفتح المدارس ووضعها تحت إشراف الأوروبيين وأرسلوا مجموعة كبيرة من الشبان في بعثات علمية ثقافية إلى أوروبا . وقد حدث ذلك فسي مصر في أيام حكم محمد علي باشا وفي عهد الخديو إسماعيل حتى قال : " جب " كانت المصادر الأولى التي أخذ الفكر الأوروبي يشع منها هي المدارس المهنية التي أنشأها محمد علي والبعثات العلمية التي أرسلها إلى أوروبا .

وأما المرحلة الثانية من مراحل التغريب في مصر فكانت في عهد الخديو إسماعيل حتى أن الخديو نفسه في إحدى لحظات انبهاره الشديد بالحضارة الغربية وافتخاره بتمسك مصر بأهداب أوروبا قال : " ان مصر أصبحت قطعة من أوروبا " ولذا كان لابد للادب المصري من أن يمر عن استقلاله عن التقاليد الآسيوية والأفريقية .<sup>(١)</sup> ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الحاسمة بعد الاحتلال البريطاني منذ عهد الخديو توفيق فكانت خطة دلتوب التعليمية والمدارس الإنجليزية والبعثات العلمية إلى بريطانيا بوجه خاص .

وهكذا سار الأمر في الجري وراء أوروبا والتعلق بالثقافة الغربية والحرص على أخذ كل ما أتى من الغرب فانتشرت المدارس الأجنبية في البلاد واحتل الفكر الغربي والثقافة الغربية مكان الصدارة في المجتمع وسيار على مجالات الحياة يوجهها الاتجاه الغربي اللاديني واستمر الأمر هكذا حتى عقد مؤتمر تبشيري في القاهرة سنة ١٩٠٦ م وأوصى المؤتمر بإنشاء مدرسة جامعة نصرانية في القاهرة

(١) راجع هـ . جب ، دراسات في حضارة الإسلام ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ وكذلك ص ٣٢٥ - ٣٢٧ ترجمة د . إحسان عباس ود . محمد يوسف نجيب ود . محمود زايد .

لصناهة الأزهر الذى أبدوا قلقهم ازاء وجوده حيث يهدد كيسة المسيحية بالخطر ، واتفقت الآراء على كونه عقبة كاداة تعترض طريق جهود التبشير وأعمال المدنية الأوروبية فى المنطقة (١) . ولم تمش فترة طويلة على هذا المؤتمر حتى قام أستاذ المخطط الصليبي من النخبات المحلية المثقفة أمثال سعد زغلول وزميله أحمد لطفى السيد وأقرانهما بإنشاء الجامعة المصرية وكان هدفهم مزاحمة الأزهر وإزالة نفوذه بالتعليم والثقافة منذ عصر طويلة . وإذا لم تكن هذه الجامعة الجديدة نصرانية قلبا وقالبا كما أراد لها المؤتمر التبشيري أن تكون وكما كان واضحا من كلام المبشر الذى قدم اقتراح إنشاء جامعة نصرانية فى القاهرة حين قال " ربما كانت العزة الالهية قد دعنا الى اختيار مصر مركز عميل لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الاسلامية (٢) . " أقول اذا لم تكن هذه الجامعة كذلك فى ظاهرها لا مرفق كانت علمانية لادينية . فقد جاء فى النص الاول من شروط انشائها " ألا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف جنسياتهم وأديانهم فتكون واسطة للآلفة بينهم (٣) . " ويضاف الى ذلك كله أن المدارس الأجنبية التى أنشئت فى أنحاء العالم الاسلامي وإن كان الاستعمار قد فرغ فيها اتجاهات الغرب اللادينية فى المناهج التى وضعها فترة حكمه وسيطرته على مقاليد الأمور فى بلاد المسلمين إلا أن هذه المناهج لا تزال تطبق بعد رحيل الاستعمار وقد تعدى الامر حدود قبول مناهج الغرب فى التعليم الى استيراد النظريات والأفكار والمذاهب ، والأخذ بالصادات والتقاليد الأوروبية المناهية للإسلام حتى أقيمت فى كثير من المسند

- 
- (١) راجع تفاصيل وقائع هذا المؤتمر فى الفارة على العالم الاسلامي ص ٣٣ وما بعدها  
 (٢) الفارة على العالم الاسلامي ص ٣٣  
 (٣) أحمد لطفى السيد، لحسين فوزى النجاره فى سلسلة اعلام العرب، ص ٢٦٢



الاسلامية الكبرى معاهد لتعليم الفنون الجميلة من الرقص والغناء والموسيقى والنحت والتشيل والتصوير.

ولم يكن رجال الاستعمار وحدهم هم الذين يعملون في مجال التعليم والتربية رغم تلك الجهود الضخمة والمساعى الكثيرة التي قاموا بها فقد كان السى جانبهم المبشرون الذين يعملون في هذا المجال على أوسع نطاق وفي قسوة وتخطيط ومكر لا يقل عما يقوم به رجال الاستعمار . وكما صرح القس زويمر ————— المبشرين هم طلائع الفتح الاستعماري في الممالك الاسلامية حيث أن مهمتهم التي نذبتهم لها دول المسيحية في البلاد الاسلامية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية (كما قد يتوقع) وانما هي نشر الافكار الغربية المسيحية واللا دينية وخاصة عن طريق التعليم لانتزاع العقيدة الاسلامية من قلوب المسلمين أو على الأقل زعزعتها ليصبحوا مقطوعى الصلة بالله وبالتالي تذهب عنهم مكارم الاخلاق التي تعتمد عليها الامم في رقيها وازدهار حضارتها (١) . وقد قامت الجمعيات والارساليات التبشيرية على اختلاف نحلها ومدآنها بفتح مجموعة كبيرة من المدارس والكليات والجامعات والمحاضن ورياض الاطفال ومدارس أيام الاحد ومدارس صحو الامة للكبار في شتى انحاء العالم الاسلامي . وكان من بين هذه المدارس والكليات أو على رأسها الكليات التبشيرية التي انشئت في بيروت ولاهور واسلامبول والقاهرة وجنوب السودان وجنوب نيجيريا (٢) وغيرها . وبأتى اهتمام المبشرين بفتح المدارس بناء على ما تقرر عندهم من أن المدارس هي اكبر وسيلة وأقصر طريق للوصول الى قلوب المتعلمين والتأثير فيها . وقد قال أحد المبشرين " ان المدارس هي أحسن الوسائل لترويج أغراض المبشرين " (٣) وقد يظن أن نتائج

(١) اقرأ خطبة القس زويمر التي ألقاها في مؤتمر القدس التبشيري في كتاب

جذور البلاد لعبد الله التل ص ٢٧٥ وما بعدها

(٢) راجع كتاب " اين محاضن الجيل المسلم ليوستف الحظم ص ٣٤ وما بعدها ، للوقوف على نموذج من احصاء عدد مدارس التبشير في مختلف بلدان افريقيا

(٣) كتاب الفارة على العالم الاسلامي ص ٤٨

مارس الرسائل التبشيرية تختلف عن نتائج المدارس العلمانية التي أقامتها الحكومة الاستعمارية في بلاد المسلمين نظرا لاختلاف غايتها في الظاهر وتباين طريقتيها في التعليم ولكن الامر ليس كذلك وقد اوضح ذلك شاتلييه بقوله : " نعم ان غاية المدرسة اليسوعية ( في بيروت وهي مدرسة تبشيرية ) وطريقة التعليم فيها تختلفان عن غاية وطريقة المدرسة الكلية الفرنسية في الاستانة ( وهي مدرسة علمانية ) الا أن النتائج كانت متقاربة من حيث تصميم التعاليم والافكار التي تنشرها اللغة الفرنسية ، ومن هذا يتبين لنا أن الرسائل التبشيرية الدينية التي لديها أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة تأتي بالنفع الكثير في البلاد الاسلامية من حيث انها تثبت الأفكار الاوروبية " (١) وقد بين شاتلييه الخرض الأساسي الذي يتوخاه التبشير عندما كان يستحث حكومة فرنسا على ضرورة انشاء جامعات فرنسية للمسح الفكري في العالم الاسلامي قال : " ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل ( أي الخزو الفكري ) ان لا تقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم بها الرهبان والمبشرون وغيرهم . . فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة الى الخرض الذي نتوخاه وهو غرض لا يمكن الوصول اليه الا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنسية نظرا لما اخص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الارادة . وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم الى حيز الفعل لبيت في دين الاسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنسية (٢) " وقد كان حظ المبشرين في ادخال الافكار الأوروبية اللادينية في الحياة الاسلامية أكثر من حظ الحضارة الضربية كما أكد ذلك القس زويمر ، وذلك لان المبشرين رأوا ضرورة تركيز جهودهم على بث الافكار الضربية الصافية للاسلام كوسيلة لنزع العقيدة الاسلامية من نفوس المسلمين . وفي ذلك يقول شاتلييه : " ولا شك

( ١ ) من مقدمة كتاب الفارة على العالم الاسلامي .

( ٢ ) نفس المصدر

في أن ارساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تمجز عن أن تترشح المقيسدة  
الاسلامية من نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك الا ببث الافكار التي تتسرب  
مع اللغات الاوربية فبنشرها اللغات الانجليزية والالمانية والهولندية والفرنسية  
يحتك الاسلام بصحف أوربا وتتمهد السبل لتقدم اسلامى مادي وتقضى ارساليات  
التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التي لم تحفظ كيائها ، وقوتها  
الا بعزلتها وانفرادها (١) . " ولا شك أن الجهود الضخمة التي تبذلها ارساليات  
التبشير في مجال التربية والتعليم انما هي في سبيل نشر التعاليم النصرانية  
والافكار الغربية اللادينية التي تؤدى في النهاية الى نزع المعتقدات الاسلامية  
ومحوها من نفوس المسلمين والى ذلك اشار شاتلييه بقوله : " ومهما اختلفت  
الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثاني من خططهم وهو الهدم  
فان نزع الاعتقادات الاسلامية ملازم دائما للجهودات التي تبذل في سبيل  
التبوية النصرانية . " (٢) وان ما نقصد اليه في هذا الصدد هو أن نبين مدى علاقة  
التبشير مع الاستعمار وبخاصة في الجهود التي يبذلها الطرفان في مجال التربية  
والتعليم ونسبم كذلك المكاييد المدبرة في هذا المجال للقضاء على الاسلام  
ثم نؤكد ان هذه المكاييد لا تزال قائمة على اشدّها في علاقات أم الغرب  
مع الأمة الاسلامية وان جرت الخطة بعد رحيل الاستعمار في شكله الرسمي  
على اسلوب التستر والتكتم الشديد بين وذلك لان الخطة قد نجحت نجاحا  
كبيرا ولا تزال تحقق المزيد يوما بعد يوم وبلاضافة الى ذلك فقد استطاع  
رجال الاستعمار والتبشير أن يوجدوا انصارا وعلماء من العناصر الداخلية يواصلون  
المسيرة التي بدأوها فوكلوا اليهم مهمة إكمال ادوار الخطة بعدهم فكانوا عند  
حسن ظن سادتهم المستعمرين في اتمام عملية الهدم والتقويض . وان كان ميدان

(١) من مقدمة كتاب الفارة

(٢) نفس المصدر

عمل رجال الاستعمار في مجال التعليم يتشمل في وضع سياسات التعليم والمناهج التعليمية وتمويل المشاريع المتعددة المقامة في هذا الشأن ، والاعتماد على السيطرة السياسية والعسكرية لفرض ارادتهم وتحقيق مصالح دولهم عن طريق التربية والتعليم فان ميدان عمل التبشير في هذا المجال يتلخص في بذل الوسع في ادخال من استطاعوا في المسيحية من بين الجبهة والمواو من الناس فسي المدن والأرياف عن طريق نشاطاتهم التربوية والاجتماعية كانشاء المراكز الصحية والمهنية والاجتماعية واقامة المدارس والمعاهد المختلفة وتنظيم برامج توطين البدو واقامة قرى حديثة وغير ذلك من الجهود التي يبذلها المبشرون اثناء احتكاكهم مع مختلف فئات وطبقات المجتمع بقصد النفاذ الى عقولهم لتغيير معتقداتهم وطريقة حياتهم .

والى جانب رجال الاستعمار والتبشير في جهودهم المتواصلة وكيدهم المدبر للاسلام والمسلمين في هذا المجال كان المستشرقون يعملون على أوسع نطاق في مجال الفكر والثقافة ، فقد كانوا يشيرون ضد الاسلام قضايا مختلفة تشرعية واجتماعية واقتصادية وتاريخية وفكرية . وكانت جهودهم في مجال الثقافة والفكر مقصودا بها المتعلمين والمثقفين لانهم هم الذين لديهم ملكة الفهم والادراك لاستيعاب ما يشيرون به من "المستشرقون من قضايا ومساائل في هذا المجال ، وحيث قد تم تشكيل افهامهم ومداركهم في قوالب معينة وتوجيههم نحو وجهة خاصة بما رضعوا من السموم في مراحل التعليم فهم أسرع الناس الى الاستجابة لافكارهم والتأثر بما يدسونه في الاسلام وتعاليمه وحضارته وتاريخه . وان الخاية المظلمة وراء ما يبذله المستشرقون من جهود ضخمة وما يشنونه على الاسلام من حرب شرسة في ميدان الفكر والثقافة هي القضاء على الرمق الباقي في جسم الأمة الإسلامية بتحطيم مصادره وقوة الاسلام وتدمير المقومات الأساسية للحياة الإسلامية عن طريق تمهيد الارضية الفكرية التي تقود في النهاية الى قيام الحياة اللادينية في المجتمعات الإسلامية وسد جميع الطرق التي تهبط لبث الحياة

في الأمة الإسلامية حتى لا تعود إلى قوتها وعزتها مرة أخرى . وان هــوـلا المستشرقين الذين خاضوا غمار الخزو الفكري والثقافي في العالم الإسلامي هم الرهبان والاحبار والخبراء السياسيين<sup>والعسكريين</sup> الذين تسللوا إلى ديار المسلمين متكررين في مسح العلم والمعرفة . ونقبوا في أنحاء العالم الإسلامي بحثا عن مصادر التراث الاسلامي في آلاف المخطوطات التي خلفها علماء المسلمين في شتى مجالات العلم . وقد أقاموا مئات المؤتمرات الثقافية عكفوا فيها على البحث والتحقيق والدراسة المستفيضة ، وبذلوا في هذا السبيل جهودا كبيرة ولكنهم لم يقصدوا بها خدمة الاسلام ولا مصلحة المسلمين وإنما هي من أجل الكيد للاسلام وتلويت مصادره النقية وتشويه صورته الناصعة في نفوس المسلمين واضعاف تمسكهم به أو ابعادهم عنه بالكلفة . يقول ليوبولد فايس (محمد أسد) " . . . . وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الاجنبية ويواجهونها بشيء من الصفاء أما فيما يتعلق بالاسلام فان الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول الى بحوثهم العلمية . وبقي هذا الخليج الذي حفزه التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي غير معقود فوقه بجسر ثم أصبح احتقار الاسلام جزءا أساسيا من التفكير الأوربي ، والواقع أن المستشرقين الأولين في العصر الحديث كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الاسلام وتاريخه مدبرة على اساس يضمن التأثير في موقف الأوروبيين من الوثنيين ( أي المسلمين ) غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسمى "توجيهها" ، أما تحامل المستشرقين على الاسلام فخرصة مورثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية بكل ما لها من ذيول في عقول الأوروبيين الأولين .(١)"

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٦٠ - ٦١ ترجمة د / عمر فروخ .

لقد كانت الجهود الضخمة التي يبذلها المستشرقون في مجال الفكـسر والثقافة موجّهة للكيد لهذا الدين وتلبّيس العقيدة الإسلامية والقاء الغبش في التصور الإسلامي بما يوجهونه ضد الإسلام من طعون متعددة وما يضمنونه حول تعاليمه وحضارته وتاريخه من شبهات وتشويهات كثيرة. (١) وقد تصدوا للطعن وإثارة الشبهات حول أصول الشريعة الإسلامية وتشويه مصادر التراث الإسلامي فتقولوا أقاويل كثيرة ولفقوا أكاذيب متعددة على القرآن والوحي والنبوة والسنة النبوية والفقه الإسلامي ، وقد قالوا إن القرآن من وضع محمد صلى الله عليه وسلم وأنه من أملاء الراهب النسطوري الذي كان يتردد عليه محمد أثناء رحلاته إلى الشام ، ثم شككوا في النسخة الموجودة اليوم بين أيدي المسلمين فقالوا إنها نسخة واحدة من بين النسخ المتعددة التي جمعت من العظام المبعثرة والجلود الرميّة بعد موت معظم الحفاظ ، وإن السلطة الحاكمة فترة عملية جمع القرآن هي التي فرضت هذه النسخة المميّنة بعد إحراق بقية النسخ المخالفة ، وأن هذه النسخة المعتمدة غير متحدة الموضوع ولا متناسقة السياق ، وقد احتسوت على أخطاء لغوية ونحوية كثيرة لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم . (٢) وعن الوحي والنبوة قالوا إن ما كان يحدث للنبي صلى الله عليه وسلم أثناء تلقى الوحي إنما هو

---

(١) ويحسن الرجوع إلى كتب المستشرقين للوقوف على حملاتهم العنيفة على الإسلام وللاطلاع على طعونهم المستفيضة الموجهة ضد الإسلام وحضارته وتاريخه . ومن هذه الكتب على سبيل المثال " الإسلام في التاريخ المعاصر " لولفرد كانتول سميث و " العقيدة والشريعة في الإسلام " لجولك تسيهر ، و " الدولة العربية " لفلهوزن ، و " الإسلام " لمرونيبيام و " حياة محمد " لكل من ويليم موير وأميل درمنغم و " محمد في مكة " لمونتغمري واط ، و تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ، و " الحضارة الإسلامية " لادم مترز ، و " الصوفية في الإسلام " لينكلسون و " دراسات في حضارة الإسلام " و " وجهة الإسلام للمستشرق " جب . ومختصر دراسة للتاريخ لارنولد توينبي وغير ذلك .

نويات من الصرع والهستيريا ، وأن الذى كان يطلى عليه ما يقول انما هو الراهب بحيرا ثم شككوا في نسبه صلى الله عليه وسلم وقالوا انه مجهول النسب لانه كان يدعى محمد بن عبد الله جريا على عادة العرب الذين كانوا يطلقون على من يجهلون نسبه اسم عبد الله . وأما عن السنة النبوية فقد تعدوا انكار وجودها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا انها لم تولد الا في اثناء النزاعات السياسية الداخلية التى وقعت بين المسلمين حيث كان كل فريق من الفرق المتنازعة يضع أقوالا على لسان الرسول لتأييد موقفه في كل شأن . ثم جاء علماء المسلميين بعد ثلاثة قرون فجمعوا هذه الاقوال وهذبوها ورتبوها في كتب سموها كتب الحديث والسنة ثم الزموا الناس بالاطمان بها على أنها المصدر الثانى من مصادر الشريعة الاسلامية . ولم تقتصر جهود المستشرقين في الطعن في السنة عند هذا الحد بل تعدت الى الطعن في الأسانيد فقالوا من كبار الرواة والحفاظ من الصحابة والتابعين وغيرهم . وقالوا عن الفقه الاسلامى انه مستمد من القانون الرومانى . والى جانب ذلك شنوا هجمات عنيفة على مصادر التراث الاسلامى فهونوا من شأن الحضارة الاسلامية وشوهوا تاريخ الاسلام وقالوا ان كل ما حققه المسلمون من مآثر حضارية انما كان نايبا من التراث اليونانى كما أن الفن المعمارى الرائع الذى برع فيه المسلمون كان مقتبسا من الفن البيزنطى . وأما عن التاريخ الاسلامى فالى جانب تشويههم لحقائق هذا التاريخ وتفسير أحداثه على هواهم فقد ركزوا على الجانب السياسى منه وأبرزوه في صورة سلسلة من النزاعات والمشاحنات والمؤامرات للوقعية بالمخالفين وتحقيق المطامع الذاتية ، الى جانب انحرافات الحكام والأمرأ ومن في حاشيتهم وترفعهم وبذخهم ، وكان حد يثهم يدور حول ما يجرى داخل قصور الحكام فيما يتعلق بالحريم والجوارى والخمر والشمع والأعطيات وصنوف الطرب واللهو وكأن هذا هو كل شىء في تاريخ الاسلام حتى في عصور انحطاط المسلمين . وأما اللغة العربية فقد شنوا عليها هجمات عنيفة في ألفاظها وتراكيبها وأساليبها ودعوا الى نيلها وعجز حروفها بحجبة

عدم قدرتها على مسايرة النهضة الحضارية الحديثة . وكانت غايتهم من ذلك قطع صلة الأمة الإسلامية بدنيا وتراثها الحضارى الضخم حين تقطع صلتهم باللغة العربية التى هى أداة العلم والفكر والثقافة بالنسبة للأمة الإسلامية كما أنهم ————— احدى المقومات الأساسية لتكوين الشخصية الإسلامية بالنسبة للفرد والمجتمع .

والى جانب ذلك كله فقد وجه المستشرقون جهدا كبيرا للطعن فى حقيقة الاسلام وتشويه صورته وتضييق دائرة عمله فى نطاق محدود وانكار دعوة شموليته لجميع نشاط الانسان فى الحياة وملاحيته لكل زمان ومكان وملاءمته للحياة المتطورة وقالوا ان الاسلام ليس فيه شىء جديد فهو اما أن يكون تطورا محرقا لليهودية والنصرانية واما ان يكون مزيجا من الوثنية العربية وأديان فارس والهند وهو مجموعة افكار والاراء الهلينية ، وأن الجانب الفقهى التطبيقى من الاسلام مقتبس من القانون الرومانى ، ونظامه السياسى مؤسس على النظريات السياسية الفارسية والرومانية . وقالوا ان الاسلام دعوة اخلاقية ظهرت للقضاء على بعض المصادات والتقاليد الجاهلية المنتشرة فى المجتمع العربى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أو هو حركة اجتماعية كان هدفها تغيير بنية الحياة الاجتماعية القبلية و————— األ

اخرى أوسع منها محلها تقوم على أساس القومية العربية أو أنه ثورة ضد الطبقة الرأسمالية المتسلطة على رقاب الضعفاء والمساكين فى المجتمع المكى أو عوفى —————

الجملة ظاهرة معينة قامت فى فترة زمنية محدودة لمعالجة أمور وقتية خاصة مثل أى دعوة أو حركة قامت قبلها أو بعدها لهدف اصلاح اخلاقى أو اجتماعى —————

وهذه الحركات والدعوات تمثل فى مجموعها جانبا من تاريخ البشرية القديم وصورة من صور الماضى المتفق فلا علاقة لها البتة بالواقع المعاصر . —————

ان المستشرقين انكروا شمولية الاسلام لجميع نشاط الانسان فى الحياة وراحوا يمشرون بمفهوم جديد للدين الاسلامى واتخذوا لذلك دليلا من الواقع السىء الذى يعيشه المسلمون فى انحاء العالم الاسلامى منذ عصور الانحطاط وحصرُوا الاسلام فى



نطاق ضيق محدود فقالوا أنه طوقوس وشعائر تعبدية وروحية فلا علاقة لـه بالحياة العملية من شؤون الحكم والسياسة وشؤون الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك . وقالوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم مؤسس دين ( على المفهوم الضيق للدين طبعا ) ولم يكن مؤسس دولة . وإنما الفكرة القائلة بأن الاسلام دين ودولة او نظام متكامل للحياة البشرية ، هذه الفكرة نبتت اثناء احتكاك المسلمين بالروم والفرس فترة الفتوحات الاسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين معين أعجب المسلمون بما كان لدى الروم والفرس من التنظيمات السياسية والادارية فاقبضوه ليدخلوه في صميم عقيدتهم ودينهم حتى يضمنوا لأنفسهم السيطرة السياسية الى جانب السلطان الروحي ، الى غير ذلك من الأقاويل . ويضاف الى كل ماتقدم جهود المستشرقين المتواصلة واهتماماتهم البالغة ببعض الحركات الضالة والطوائف المنحرفة ونشر افكارهم السخيفة لاحداث البلبلة الفكرية بين المسلمين ، فكان التركيز على فرق الباطنية من اسماعيلية وقراطة وبابكية والمبيدين ، والزنج والدروز والمتصوفين على اختلاف فرقهم والبابية والبهائية والبيانية والقاديانية وما الى ذلك . وكذلك عمل المستشرقون وعلماء الآثار على بحث الحضارات القديمة البائدة واحياء معارفها ولغاتها والتنقيب عن آثارها . وقد قدموا في ذلك سلسلة من البحوث والدراسات المستفيضة فـي مأسموه " التاريخ الحضارى أو القوسى " للشعوب الاسلامية . وكان الفرض من ذلك اثاره النزعات الانفصالية والنمرات القومية بين الشعوب الاسلامية واضعاف رابطة العقيدة التى تجمع بينها او محوها وازالتها وقطع صلة <sup>هذه الشعوب</sup> بماضيها المجيد وتهئية الاجواء واعداد النفوس للصودة الى الحياة الجاهلية من جديد والتمسك بحضاراتها ونيزد الاسلام وحضارته على اعتباره نشارا في الحلقات المتسلسلة المتحدة أو هو - على أحسن تقدير - عامل من بين عوامل أساسية عدة ومرحلة من المراحل المتعددة في تاريخ الشعوب الاسلامية . ومن أمثلة هذه الحضارات القديمة التى بذل المستشرقون وعلماء الآثار في سبيلها جهودا

كبيرة احياء الفرعونية في مصر والفينيقية والأشورية في العراق والشام والحميرية في اليمن والقومية الطورانية في تركيا ، و احياء أصول قبائل هوسا الستة في شمال نيجيريا وقومية "أودودوا" في بلاد يوريا في جنوب نيجيريا وغير ذلك في انحاء البلاد الاسلامية . يقول المستشرق الانجليزى د . ا . جيب في صراحة كاطلة . " وقد كان من أهم مظاهر فرجة العالم <sup>الاسلامى</sup> تنمية الاهتمام ببعض الحضارات القديمة التى ازدهرت في البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون الان فمثل هذا الاهتمام موجود الآن في تركيا وفي مصر وفي اندونيسيا وفي العراق وفي فارس ، وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور المداء لاوروبا ولكن من الممكن ان يلعب في المستقبل دورا مهما في تقوية الوطنية الشعبوية وتدعيم مقوماتها" (١)

وهناك قضية اجتماعية خطيرة أثارها المبشرون والمستشرقون ضد الاسلام وهى " قضية تحرير المرأة " وقد قالوا ان الشريعة الاسلامية تحتقر المرأة لذاتها ولا تجعل لها قيمة معنوية معتبرة سوى كونها مجرد وسيلة للاستمتاع ، وقسدا أباحت بيعها وشراءها وسبيها والتسرى بها فهى بذلك لا تعدو في نظرها مجرد متاع يملك صاحبه حرية التصرف فيه ؛ وقالوا انها أوجبت على المرأة أن تولد وتعيش ثم تموت وهى تتقلب في أحضان الجهل والتخلف لا قيمة لها فى المجتمع ولا وزن لها في شئون الحياة وذلك بما فرضت عليها من الحجاب والقيود الثقيلة وكان الغرض من ذلك كله تحطيم بنية الحياة الاسرية الاسلامية بافساد المرأة ونشر الاباحية والانحلال الخلقى في المجتمع المسلم حتى تأتى الاجيال الاسلامية بعد ذلك على النمط الذى يريده هؤلاء ويسمون اليه حين تربسوا في بيئة اسرية فاسدة وفي مجتمع ضحل .

(١) د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ١/١٣٤ ،  
نظلا عن كتاب " الى اين يتجه الاسلام " ( Whither Islam ? )  
الذى اشرف على نشره المستشرق جيب عام ١٩٣٢ م ، ص ١٦٤ .

هذا وإن ما قصدنا اليه من إيراد هذه النماذج من القضايا المتعددة التي يثيرها المستشرقون ضد الاسلام في ميدان الفكر والثقافة هو فقط لكي نعرف مدى ما بذلته جنود الغزو الاوربي الصليبي من جهود ضخمة وما دبرته من كيده ومكر عريضين لتحطيم العقيدة الاسلامية ومحوها من الوجود . وليس هنـــــــــــــــــا مجال الرد على شبهات المستشرقين وافتراءاتهم واكاذيبهم الطغرافية ضد الاسلام فقد تولى هذه المهمة الجليلية نخبه من العلماء والكتاب والمفكرين والمؤرخيين المسلمين فأبطلوا مزاعمهم ودحضوا حججهم الواهية وبينوا اغاليطهم وكشفوا عن سوء طويتهم وغيب نياتهم وروح الحقد والعداء المتأصلة في قلوبهم والتي يصدرون عنها فيما يكتبونه عن الاسلام في كتاباتهم وبحوثهم " العلمية " .

وحيث قد استعرضنا فيما سبق جهود المستعمرين والمبشرين والمستشرقين في مجال التربية والتعليم والفكر والثقافة فلا يفوتنا هنا أن نبين ما يستخد مســـــــــــــــــه هؤلاء الاعداء من وسائل متعددة في هذا المجال ، وكان الهدف من وراءها انشاء أجيال " جديدة " في المجتمع المسلم تجهل حقيقة الاسلام وصورته الناصعة وانما تعرف الصورة المشوهة المغفرة التي تقدم لها عن الاسلام عن طريق هذه الوسائل المتنوعة الى جانب ما يقدم لها بعناية فائقة عن أوروبا وحضارتها في صورة خلاصة جذابة تشد نفوسها اليها شدا قويا على أنها هي المثل الاعلى في كل شيء وان لا حياة للام المتخلفة ولا تقدم ولا رقي ولا ازدهار الا بترسم غطى أوروبا والسير فــــــــــــــــس ركبها والغنوع والتذلل لها من أجل الاخذ باسباب القوة والحركة والانطلاق .

فالإلى جانب السياسات التعليمية ومناهج الدراسة التي تسير عليها المدارس الأجنبية على اختلاف أنواعها ومراحلها وغاياتها ، كانت تعمل وسائل الاعلام المتعددة من الصحافة والكتب الثقافية ودور السينما والاذاعة والتلفزيون . ففي مجال الفكر والثقافة كان المستعمرون واعوانهم يستخدمون الصحافة والكتب الثقافية لتحقيق غاياتهم . وأما الصحافة فقد جعلت لمخاطبة المتعلمين

من الجماهير على اختلاف مستوياتهم المعنوية وكان لها دور كبير جدا في افساد مجال الفكر والثقافة في المجتمعات الاسلامية وربط مستقبل الشعوب الاسلامية بالامم وحضارتها<sup>الاوربية</sup> . وذلك لان الصحافة منذ انشائها كانت تركز على الحدوث عن أوروبا وحضارتها ومدنيتها وتقدمها وثقافتها وفنها ، وكانت تعرض مشكلاتها الخاصة وقضاياها وأزماتها الداخلية وكأنها مشكلات وقضايا انسانية عامة لا بد أن تحدث لكل الشعوب في تاريخها . وهكذا كانت الصحافة تمهد الارضية الفكرية حتى تتجه النفوس والعقول بكليتها الى أوروبا على اعتبارها طريق المستقبل بالنسبة للشعوب المتخلفة التي كان لزاما عليها ان تتخذ وجهات النظر الغربية في كل شأن من شئونها وتأخذ الحلول التي تقدمها أوروبا لتستطيع أن تتغلب على مشكلاتها وترفع من شأنها في مضمار الحضارة والمدنية الراقية . وأما الكتب الثقافية فكانت ميدان عمل المستشرقين فقد اتخذوها وسيلة لمخاطبة المثقفين لتشكيل افكارهم وافسادها حتى يصبحوا في النهاية يقولون بقول الغربيين — ويندهيون<sup>مدهم</sup> في الدين والاخلاق ويسيروا سيرتهم في شئون الحياة كلها ويقودون شعوبهم وراءهم نحو الاتجاه الذي تريده جيوش الفزو الفكرى الصليبي .

وأما السينما والاذاعة والتلفزيون فقد وضعت هي الاخرى لافساد المعتقدات والقيم والاخلاق والتقاليد في المجتمعات الاسلامية وكانت تعمل على نطاق اوسع وأرحب حيث تشمل دائرة نشاطها مختلف فئات المجتمع من المتعلمين والمثقفين والجهلة والعوام والكبار والصغار وفي المدن والأرياف . وقد كان التركيز الكبير في الانتاجات السينمائية والبرامج الانواعية والتلفزيونية على عوامل الافساد والتحلل الخلقي ومحاولة قتل القيم الروحية وصهر المقومات الدينية الاصيلية عن طريق نشر الافكار والنظريات اللادينية والاخلاقية والتقاليد والماريات الغربية الى جانب الاعتماد على عوامل الاثارة من الصور المارية والاستعراض المثير والأغاني الخليعة والتمثيلات التماهية التي لا تحمّل في طياتها قيمة فنية عالية ولا مبدأ اخلاقيا سليما وانما <sup>وضعت</sup> المسخ العقول وتحويل المعتقدات

وافساد الاخلاق أو لصرف الناس عن الاتجاه الصحيح وشغلهم عن الأمور الجادة ومل \* أوقاتهم بتفاهات الأمور وسفاسفها التي لا تعود عليهم بأدنى فائدة . وأما في مجال الفن فلم يكن رجال الاستعمار وأعوانهم ليوجهوا " المثقفين " المحليين في مجال الترجمة والتأليف الى نقل ما هو نافع وضروري من العلوم الفيزيائية والعملية التي تفوقت فيها أوروبا وازدهرت بها حضارتها لأنهم لا يريدون أن يهتدى المسلمون الى أسباب قوة أوروبا حتى لا يأخذوا بها وينهضوا من تخلفهم العلمي وركودهم الفكري لينازعوا أوروبا في مركز القيادة العالمية الذي صار اليها ، كما أن المثقفين أنفسهم في يقطعتهم المنبهة التي فقدوا فيها وعيهم وصوابهم لم يكونوا قادرين على تمييز الخبث من الثمين وأخذ ما هو خير من مصارف الفير وترك ما هو شر . وقد تلقوا التوجيهات من أسيادهم الذين لا يريدون لهم تتدما ولا رقيا فاندفعوا الى نقل الاخلاقيات والتقاليد والمادات الغربية التي تتنافى مع الاسلام في عقيدته وأخلاقه وتقاليده . وكانت العناية الكبيسة موجهة الى ترجمة القصص والروايات الغرامية والمسرحيات الخفيفة التي تتحدث عن العلاقات بين الجنسين وتصور اللقاءات تترى مايجرى فيها من المفاضلات والمناجيات في صورة مغرية شيرة . وهكذا حتى جاء دور التأليف بعد أن مسخت المقول وشوهت الافهام والمدارك فساروا فيه سيرتهم في الترجمة حتى وصل بهم الامر في النهاية الى نقد الاخلاق والتقاليد الاصلية واعتبار التصك بهما رجعية وتخلفا وجمودا ، ومن هذه الراوية نفذا الى النيل من الدين والطعن في تعاليمه على أنه هو العائق الذي يوق نشاط الانسان وانطلاقه ويكبسه بالأصاف والقيود كما يقول الغربيون الذين حاولوا تفسير الاسلام بالمفهوم الغربي للدين في مثل قول كرومر : " أن الاسلام ناجح كمقيدة ودين ولكن فاشل كنظام اجتماعي فقد وضمت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع

الانساني . . (١) \*

وقد صدقهم المثقفون المستغفلون فراحوا يبشرون بالمفهوم الغربي للدين ومطالبون بحصر الاسلام في نطاق ضيق محدود وتحطيم سلطانه الواسع لأنه في نظركم عائق دون التقدم والرقى وهذا شبلى شميل يقول " والأمة تقوى بعقدار ما يضعف الدين فهذه أوروبا لم تصبح قوية ومتمدنة فعلا الا عندما حطمتم الاصلاح والثورة الفرنسية سلطة الاكليروس على المجتمع وهذا يصح أيضا على المجتمعات الاسلامية . (٢) \*

#### النقطة الرابعة : اصطناع العلماء من المسلمين وبخاصة من الزعماء

المحليين والعلماء المستغفلين لاستغلال نفوذهم في توطيد دعائم الحكم الاستعماري في البلاد، وتكوين النخب الوطنية المثقفة ثقافة غريبة لاستخدامها في ربط عجلة الشعوب المستعمرة بقاطرة الاستعمار.

ان من خطط الاستعمار تكوين قوى محلية تعمل على عينه وتصدر عن أوامره وتوجيهاته وإرشاداته وقد بذل جهدا كبيرا في هذا السبيل حتى استطاع في نهاية الامر أن يكون مجموعة كبيرة من أبناء المسلمين الضعاف الايمان، اتخذ من بينهم عملاء مأجورين ونفخ في أذنه من سموا بالمثقفين روح الاتجاهات الفكرية المنحرفة ووجه بعضهم نحو تأليف احزاب سياسية ذات ميول وطنيية ونزعات لادينية . وكانت هذه المجموعة مدفوعة بالاحساس بالنقص والضعف وشدة الانبهار والافتتان بما عند الغرب والشعور بالموالاة والتبعية والخضوع

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ١/٢٤٠  
(٢) عن القومية العربية في ضوء الاسلام (رسالة ماجستير) اعداد صالح العبود ص ٨٣ - ٨٤ . (غير مطبوعة)

المذل لقوته . ولم تكن كل العناصر المحلية الخاضعة أو الموالية لقوى الاستعمار في أول الامر قد تلقت تعليما غربيا أو ثقافة أوربية حتى يمكن أن يقال أنها قد تأثرت بذلك في قبولها السير في ذيل قافلة الاستعمار ولكن كان من بين هذه العناصر حكام وزعماء كان لهم نفوذ عريض وسلطان واسع في البلاد قبل الاحتلال الأوربي وفي اثنائه وعز عليهم أن ينتزع هذا السلطان من أيديهم ، ولكنهم حين رأوا قسوة الحرب وتفوقه السياسي والتفاني وعلموا الا قبل لهم بها ارتعوا في احضار المستعمرين وطأوا لهم الرؤس وآووا الى ركنهم الشديد ليتمكنوا لهم فسي الارض حتى يستطيعوا أن يحققوا أطماعهم ويثبتوا وجودهم تحت ظلال قسوة الاحتلال الاجنبي أو على الاقل ليبقوهم على عرش الملك مصتدين على قوتهم اعتماد المملوك الذي هو كل على مولاه . وهناك نماذج كثيرة من هؤلاء الحكام والزعماء في أنحاء العالم الاسلامي ابان الاحتلال الاوربي خضعوا خضوعا مذلا للموجة الاستعمارية الكاسرة . ولا شك أن ذلك كان نتيجة الصدمة المنيفة التي أصابت الامة الاسلامية حين دهمتها جيوش الاحتلال وحقق انتصارات كبيرة وظهر للامة الاسلامية ما كانت تعانيه من الضعف والتخلف والانهيال الى جانب قوة أوروبا الرهيبة وتقدمها الحضارى . وقد اقتضت خطط الاستعمار أن يكون هؤلاء الحكام والزعماء مطايا ذليلة لتوطيد دعائم الحكم الاستعماري في البلاد الاسلامية واسنادا قوية يمدون المستعمرين في عملية الهدم والتقويض التي أزمعوها في شئون البلاد .

وبعد أن أتى التعليم الغربي ثماره في المجتمع المسلم وتوافلت الفلسفات والنظريات والافكار الغربية اللادينية لغزو النفوس ومسح العقول قامت في المجتمع طبقة جديدة من المثقفين ثقافة أوربية الذين رباهم الاستعمار بحنايصة فاعقة ليتأهلوا لاداء المهمة التي سيكلفون بها في سوق الشعوب المستعمرة وراء السادة المستعمرين . وقد اختار المستعمرون من صفوف هذه الطبقة أفسرانا قلائل من الزعماء أقاموا حولهم حالات كاذبة وخلقوا لهم بطولات ضخمة وخصصوا

دورهم على صعيد العمل القومي والنضال الشعبي حتى خيل لشعوبهم ———  
 - وهي مخدوعة بالجمجمة التي تسمع ولا يرى لها طحن - أنهم منقذوهم ———  
 مما كانت يجثم فوقها من الضعف والانهيار والدمار وأنهم بناء مجد لها ونهضتها ———  
 فملقت هذه الشعوب عليهم الآمال وأسلمت لهم قيادها . ولما تمكن هؤلاء ——— من  
 القبض على زمام الامر ساروا على الطريق الذي مهد له أسيادهم المستعمر ———ون  
 كل تمهيد وقادوا شعوبهم الى الذل والهوان والدمار . وقد هطموا المشعل  
 والقيم والتقاليد الاصيل واستهانوا بالمعتقدات وأفسدوا الاخلاق وتبجح بعضهم  
 بالكفر والاحاد ، وقد نازت الامة على أيديهم من الانلال والاهانة مالم تذوقه  
 على أيدي الاعداء المستعمرين رغم ما دبروا لها من كيد ومكر وخطط خبيثة .

ففي تركيا مثلا ظهرت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية بعد فترة قصيرة من قيام  
 العلاقات الوثيقة بين تركيا والمانيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي ثم قامست  
 في أوساط هؤلاء المثقفين اتجاهات فكرية منحرفة وتأسست جمعيات تعبرية عميلة  
 مثل جمعية الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة . وكان الهدف من وراء محاولات  
 الضرب في انشاء طبقة المثقفين واصطناع العملاء في تركيا هو حل " المسألة  
 الشرقية " كما يقولون . وقد واتت الظروف المرتقبة عندما اندلعت نار الحرب  
 العالمية الاولى الرهيبة واقتضت ظروف الحرب أن تنضم تركيا الى جانب المانيا  
 لانها كانت على علاقة وثيقة معها منذ اوائل القرن التاسع عشر الميلادي . واقتضت  
 ظروف الحرب ايضا ان تسمى جيوش الحلفاء الى كسب الدول العربية ———  
 الى جانبها كما اقتضى الكيد الصليبي والصهيوني ان يصطنع في تركيا " بطلا عظيما "  
 تثار حوله الامجاد والبطولات ويضخم دوره في الفضال الشعبي ليستغل في تحقيق  
 مآرب الصليبية والصهيونية فيما بعد . ولما غزا اليونان آسيا الوسطى بعهد  
 الحرب العالمية الاولى هب مصطفى كمال يقحم نفسه في الجيوش التركية وفي يده  
 مصحف وناشد هم بحماس دافق ، أيها الترك هل تعلمون ما هذا الكتاب  
 الذي بيدي ؟ فيجيبونه انه المصحف الشريف ؛ فيقول لهم انكم اذا لم تخرجوا



مضى للحرب مع اليونان فلن يكون لهذا الكتاب بقاء في هذه الأرض ، وهكذا فان مصطفى كمال حرض المسلمين الاتراك على الجهاد . . . فطردوا اليونان من أرضهم . . . (١) " وقد أثار هذا الانتصار المجب والكبرياء في نفوس البطل فوقف في وجه جيوش الحلفاء الجرارة يتحداها ويهددها فتراجعت هذه الجيوش متظاهرة بالهزيمة أمام قوته " التي تهد وعنيدة لا تقهر " ثم جنحت الحلفاء للسلم وفق خطة مرسومة فأحصى البطل في نفسه المظمة والكبرياء ، وأشاد الناس بدوره في النضال والكفاح . ولكن ماذا حدث بعد انتصار البطل على اليونان وتراجع جيوش الحلفاء أمام قوته : فقد عاد البطل بعد الحرب لينفذ اتفاقية " كيرزن " المبرمة بينه وبين جيوش الحلفاء القاضية بسحق الاسلام في تركيا سحقا لا هوادة فيه ، وقد أصبح يرى أن العداوات التي تتعرض لها تركيا من جانب الغرب كانت بسبب تخليها عن رسالتها القومية واحتمالها حمل غيرها تستमित في الدفاع عنه قرابة خمسة قرون متتالية ، وانها لن تكون في مأمن من هجوم الغرب وكيد وايداعه ولا تحقق لنفسها السيادة والتقدم والازدهار الا بقطع صلتها بماضيها الاسلامي وتمسكها بامجادها القومية الخاصة ، وهذا ماتضمنته اتفاقية " كيرزن " في شروطها الاربعة التي تنص على الغاء الخلافة في تركيا وقطع الصلة مع الاسلام ووقف نشاط العناصر الاسلامية الباقية فيها والحمل على اقامة دستور مدني بحث في تركيا بدل الدستور العثماني القائم على أساس الاسلام " (٢) وهكذا ظهر البطل ودبر وخطط لفرض سيطرته على رقاب الناس حتى اذا بلغ أوج عظمته وكبريائه انقض بمنصف وقسوة على العرمق الباقي في جسم الدولة العثمانية التي تسمى آنذاك " بالرجل المريض " فأجهز عليه ليقتضى

(١) أبو الأعلى المودودي ، الاسلام اليوم ، ص ٤٧ - ٤٩ .

(٢) راجع نص اتفاقية " كيرزن " في كتاب المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام

عليه القضاء الأخير (١) . ولكن ماذا فعل البطل لتعطيم ماضي الاسلام المجيد في تركيا ؟ وكيف نفذ خطوات اتفاقية "كيرزن" الخطيرة ؟ لقد كان عازما على التحطيم الشامل والهدم الكامل لحاضر الاسلام ومستقبله في تركيا ، فبدأ بفكسـل تركيا عن ماضيها الاسلامي وكل ما يرتبط بذلك أو يرمز اليه ، وقد سعى الى تحطيم الجهاز السياسي القائم والفاء الخلافة مظهر قوة المسلمين السياسية وخطط لجعل الدولة الدينية جمهورية لادينية وتحويل الامبراطورية العثمانية العظيمة الى قطر صغير وقطع جميع الصلات مع بقية اجزاء الامبراطورية . وعلى الصعيد الداخلي ألغى وزارة الاوقاف والمحاكم الشرعية ، وأحلى القوانين المدنية المستمدة من الغرب محل الشريعة الاسلامية ، وحدد عدد المساجد ، وأقل كثيرا منها وقد حول مسجد "اياصوفيا" الى متحف ومسجد الفاتح الى مستودع ، وحرم الأذان باللغة العربية وألغى كتابة اللغة التركية بالحرف العربية وكتب المصحف باللغة التركية وألغى الاعياد الاسلامية وجعل بدلها أعيادا قومية ، وحظر جميع الطرـق الصوفية وأغلق زواياها ومنع أى نقد ديني لتدابير الحكومة وحدد عدد الواعظين وحصر مجال عملهم في نطاق ضيق ، والى جانب ذلك كله فرض المسخ الفكرى لتغيير عقلية الشعب التركي المسلم وتبديل تصوراته وأخلاقه وتقاليده عن طريق اقتباس المذاهب والمناهج الغربية وإقامة المدارس " المدنية " وإرسال البعثات الى أوروبا واستيراد المادرات والتقاليد الغربية حتى فى اللباس وأسلوب الحياة المائليـة . وقد ركز على افساد الحياة الاجتماعية وتحطيم مظاهر الحشمة والحياء والمفـة والطهر التى امتازت بها الاسرة المسلمة فأكره المرأة المسلمة على الخروج على تماثيل الدين ونبتذ التقاليد الاسلامية الرفيعة وتقليد المرأة الغربية في جاهليتها

---

(١) اقرأ كتاب " الرجل الصنم " لضابط تركى سابق ، ترجمة عبد الله عبد الرحمن .

وربى الناشئين على طرائق الحياة الغربية وأشرعهم روحاً غربية لا دينية ليقتطع  
صلتهم بالاسلام من قريب أو بعيد .<sup>(١)</sup> يقول الاستاذ أبو الأعلى المودودي عن  
معرفة القبة في تركيا " اننا لانستطيع ان نتصوركم استفدتم من الوسائل  
لجعل المسلمين غير مسلمين في تركيا وروسيا . . . فقد اريقت في تركيا دماء  
الآلاف من المسلمين لاذنب لهم الا أنهم عارضوا استبدال القبة بالطريرسوش  
كأن هذا الامر ايضا من الاصلاحات الجذرية التي ما كانت لتتم الا به ، ومن الطريف  
في الأمر أن قادة الاصلاح المزعومين لما لم يجدوا الكمية الوافرة من القبعات  
الاوربية استوردوا من أوروبا اكواما من القبعات المعدة لاستيفاء حاجة الشعب  
التركي الى القبعات وكان هذا الاصلاح من الاهمية بمكان في نظر القسادة  
حتى لجأوا لتطبيقه الى وسائل الحديد والنار والى اعلان الحكم العرفي فسي  
البلا (٢) . ويمتبر مصطفى كمال أتاتورك البطل التركي المفوار أول نموذج  
صارخ للحكام المصطنعين المارقين في العالم الاسلامي فقد اتبع أسلوب حكيم  
استبدادى ليس لادينيا فقط وانما كان مضادا للدين ماضيا له . يقول الامير  
شكيب ارسلان . " ان حكومة تركيا العلمانية الكمالية ليست حكومة لادينية  
من طراز فرنسا وانجلترا فحسب بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية  
في روسيا سواء بسواء ، ان انه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها  
المعروفة لم تتدخل في حروف الاناجيل وزى رجال الدين وطقوسهم الخاصة  
وتلغ الكنائس . (٣) " ويقول الاستاذ أنور الجندى : " ثم جاء " مصطفى كمال  
بعد الحرب العالمية الاولى وتمزق تركيا وسقوطها ليقم الدولة التركية العلمانية  
التي ألغت الخلافة واللفة العربية والشريعة الاسلامية والان ان وأغلقت المساجد

(١) راجع "كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلامية ترجمة خير المصطفى وآخر،  
ص ٦٦٨-٦٦٩ . وكذلك "جان بول رو" الاسلام في الغرب ص ١٨١-١٨٦  
ترجمة نجده هاجر وزميله . وقرأ كذلك "الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة  
الغربية للندوة ص ١٦ ، ٥٥ - ٦٣ وما بعدها وكذلك / محمد كمال الدسوقي  
الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ٤٢٨ - ٤٣٣

(٢) الاسلام اليوم ، ص ٥٦

(٣) حاضر العالم الاسلامي ، ٣ / ٣٣٦

وفي انقلاب مصطفى كمال أتاتورك وهو من اليهود الدونمة جرت المجازر للمسلمين وسلمت البلاد الإسلامية التي كانت تابعة للدولة العثمانية الى الاستعمار والصهيونية بعد أن سلم الاتحاديون طرابلس الغرب ، لقد خلق عبد الحميد مقدمة لافاء الخلافة ، وكان الفاء الخلافة هو الذي فتح الباب واسعا خلال حكم الاتحاديين منذ ( ١٩٠٩ - ١٩١٦ م ) للسيطرة على فلسطين وتحقيق هدف اليهود باستيلاء المسيحية ممثلة في بريطانيا على القدس ١٩١٧ م كمقدمة لاستيلاء اليهود عليها بعد خمسين عاما ١٩٦٧ م وكان ذلك من أخطر أهداف اليهودية والمسيحية : تمزيق الدولة الإسلامية الكبرى وفصل العرب عن الترك وهدم الجامعة الإسلامية والفاء الخلافة (١) \*

وقد جاء بعد أتاتورك حكام مازقون نسجوا على مؤاله تماقبا على مقاليد الحكم في تركيا ذاق الشعب التركي المسلم على ايديهم مالم يذقه على أيدي أعداء الاسلام الخارجيين ولم يزل يذوق على ايديهم الويل والشبور حتى اليوم . وكذلك ظهرت في انحاء البلاد الإسلامية منذ عشرينيات هذا القرن الميلادي نماذج صارخة من الحكام المصطنعين المارقين في مختلف بلاد العالم الاسلامي وان كان كثير منهم لم يبلغ المدى الذي بلغه أتاتورك في الجرأة على سحق الدين وطمس تعاليمه وعلان الحرب الصريحة على الدين وأهله وفي السعي لتحطيم المبادئ والقيم والتقاليد الأصيلة بلاحياء ولا تورع .

وأما في مصر فقد كان الاتجاه نحو الاضطباع بالصبغة الأوروبية منذ عهد محمد علي باشا وفي عهد الخديو اسماعيل نتيجة إحساسهم بالتقص والضعف امام قوة اوربا الرهيبة وافتتانها بحضارتها وعزمهم على اصلاح الداخل والاعتماد بوسائل النهضة الحديثة عن طريق السير في ركاب الغرب والغنوع له . ويؤكد

"ارنولد توينبى أن مصر كانت متفوقة على تركيا في هذا السبيل وقد قال : " ان عملية صبغ مصر بالصبغة الغربية التى بدأها المفارم الالبانى محمد على خـسـسـلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر . . كان اكثر شمولاً من أية محاولة سعى اليها او انجزها السلاطين الاتراك في العقبة نفسها . " (١)

وما ان جاء الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م نتيجة سياسة الخديـسـو اسماعيل الفاشلة والتى أسفرت عن خلمه وتولية الخديو توفيق بعده حتى بسـدأ الحكام المستعمرون بوضع مخططهم الخبيث البعيد المدى فوجدوا أسنادهم من نتاج مدارس التفريب التى أقيمت منذ عهد محمد على باشا من الزعماء والعلماء والـمـثـقـفـين المستغربين بعضهم متأثرون ضيـهـرون بالحضارة الغربية وبعضهم عـلـاء مأجورون يعطون لصالح القوى الاجنبية . فهو لا هم الذين تطوعوا بخدمة رجال الاستعمار في تنفيذ مخططاتهم وهم الذين مهدوا الارضية الفكرية التى استند اليها الاتجاه اللادينى الذى كان الظاهر العام للنشاط السياسى في مصر فيما بعد . فـضـد وقت مبكر من الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢م . رأينا أول حزب سياسى قام في مصر وهو الحزب الوطنى ينشر برنامجه الرسمى القائم على أساس القومية المصرية وحدها دون تفريق بين الاديان ، جاء فيـسـه " الحزب الوطنى حزب سياسى لادينى ، فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب واغلبيته مسلمون لان تسعة اعشار المصريين من المسلمين وجميع النصارى واليهود وكل من يحترق ارض مصر ويتكلم بلفتها ينضم اليه لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع اخوان وان حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية (٢) "

(١) مختصر دراسة للتاريخ ١١٣/٣ ترجمة فؤاد محمد شبل .

(٢) د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المصرى ١٣٦/١

وقد تحدثنا فيما سبق عن الدور البارز الذي لعبه الشيخ محمد عبده خلال الحكم البريطاني لمصر ومساندته وخدمته (١) " الجليلة " لكرور وحكومته في مجلس شورى القوانين . ونريد ان نضيف هنا أن حركة الشيخ في محاولة اصلاح الأزهر و اصلاح التعليم بشكل عام بإدخال العلوم الحديثة / ونقد المحاكم الشرعية ونقد الحياة الاجتماعية والدعوة الى اصلاحها عن طريق اقتباس القوانين التشريعية الغربية والانظمة الاوربية وفي مساندة الحكومة الاستعمارية والدعوة هسالة الانجليز ومصالحهم والنظام / والدعوة الى التقريب بين الأديان وفتوى الشيخ حول اباحة الربا بطريق صناديق التوفير كل ذلك يمثل ركيزة من الركائز الاساسية التي استند اليها الاتجاه اللاديني في مصر <sup>فيما بعد</sup> وقاعدة انطلق منها دعاة التفريب (٢) الذين تعلقوا بأذيال الغرب حتى جاء منهم من دعا صراحة الى نبذ الاسلام واقصائهم عن توجيه الحماية العملية ولم يزل هسوا<sup>لا</sup> يكيدون للاسلام في كل ميدان وينقضون منه عروة بعد عروة حتى سلبوه هيئته الكاطعلى شؤون الحياة الانسانية وحصره في نطاق ضيق محدود لا يتعدى جانب الاحوال الشخصية . وفي السنوات الاخيرة نظمت حرب شعواء في بعض

---

(١) للوقوف على مدى تعاون الشيخ ومساندته لحكومة كرومر الاستعمارية وخدمته لها في " مجلس شورى القوانين " اقرأ تقرير المستشار القضائي الانجليزى عن سير المحاكم عام ١٩٠٥ م ، وتقرير كرومر السنوى لحكومته في نفس السنة في كتاب الفكر الاسلامي دراسة وتقويم لفازى التوبة ، التقرير الاول فسي ص ٢٥ والثاني في ص ٣٠ .

(٢) راجع د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر

البلدان الاسلامية على هذه البقية الضئيلة التي بقيت في حياة المسلمين من آفاق الشريعة الاسلامية الواسعة فوضعت لها قوانين بدعوى اصلاح وضمت الى اختصاصات المحاكم المدنية التي تحكم بغير ما أنزل الله . والذي يبدو لى من أمر الشيخ محمد عبده أنه لم يكن زعيما مصطنعا ولا عميلا لقوى الاستعمار ، فقد اثاره ما يعانيه المسلمون من تخلف وتأخر وانهار الى جانب تقدم الغرب وتفوقه في شتى مجالات الحياة فاندفع نحو اصلاح متأثرا بما عند الغرب داعيا الى الاخذ بالطريقة التي راها مناسبة لإصلاح حال المسلمين .

وقد "قصر الشيخ محمد عبده همه على استنهاض الهمم لاصلاح الازهر الشريف وادخال العلوم الحديثة في مناهجه وتنظيمه تنظيما تربويا . يقول المغفور له الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق : تنتظم دعوة الشيخ الى الاصلاح الديني امورا ثلاثة :

- ١ - تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الدين .
  - ٢ - اعتبار الدين مديقا للعلم لاموضع لتصادمهما اذ لكل منهما وظيفة يؤديها وهما حاجتان من حاجات البشر لا تغنى احدهما عن الاخرى .
  - ٣ - فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى منابعه الاولى (١) " .
- ويقول الدكتور محمد البهى : " اراد الشيخ محمد عبده ان ييسر الطريق للعمل العقلى فى الاسلام ويضع نواة للمنهج العلمى لتربية الناشئة وتوجيهها ..... وهكذا الشأن فى كل ما سار فيه . كان يرمى الى توضيح مبادئ اساسيين :

- ١ - مناوأة التقليد ودفع الباحثين الى الاستقلال فى البحث والفهم ان استطاعوا الى ذلك سبيلا .
- ب - تأكيد حرية الفرد واختياره فى افعاله اذ ان ربط الانسان فى تصرفاته بغيره على الاطلاق لا يتفق وتكريم الله للانسان كما ان الفرد الحر المختار هو اللبنة الايجابية فى بناء المجتمع الانسانى المنتج . (٢) "

(١) محمد حبيب احمد، نهضة الشعوب الاسلامية فى العصر الحديث ، ص ٧٥-٧٦

(٢) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ، جمع ومراجعة وتقديم محمد خلفال

ولكن مدرسة الشيخ محمد عبده قد انقسمت الى قسمين ، قسم سار على منهجه وطريقته في الإصلاح ، وكان من هذا الفريق السيد رشيد رضا والشيخ محمد مصطفى المراغي والشيخ مصطفى عبد الرزاق وغيرهم . وقسم آخر انحرف عن منهجه وطريقته فانجرف مع تيار التفريب وكان من بين هذا الفريق دعاة مارقون وزعماء وطنيون كانوا جميعا اصابع مخططات القوى الاجنبية . ويمثل هذا الفريق في اتجاهاته الفكرية المنحرفة حركة تحررية استقلالية نفخ الاستعمار في كيرها واستغلها لتوطيد دعائم حكمه وتنفيذ مخططاته الخبيثة في تحويل اتجاه التعليم وتوجيه شئون الحياة العملية نحو الاتجاه اللاديني في نهاية الامر وتخنية الدين عن مجال النشاط القومي والاجتماعي بالكلية .

وهناك نماذج كثيرة من الزعماء والعلماء المفتونين

بالحمارة الفكرية وطرائق الحياة الاوربية خدموا مصالح الاستعمار في البلاد الاسلامية ودعموا الاتجاه اللاديني الذي كان يخطط ويسعى لتثبيت دعائمه في بلاد المسلمين ويوجه اليه ان تابه المثقفين في اتجاهاتهم الفكرية المنحرفة . وممن ظهر قبل محمد عبده شيخه جمال الدين الافغانى (١) ورفاعة الطهطاوى (٢) .  
وخير الدين التونسي وغيرهم . (٣)

- 
- (١) ولمعرفة شئ من اتجاهاته الفكرية والسياسية راجع كتاب الاتجاهات الفكرية عند العرب على الحواظ ص ١٠٢ وما بعدها .
- (٢) اقرأ عن اتجاهاته الفكرية في مؤلفاته ومنها " المرشد الأمين " وتخليص البربر في تلخيص باريز ، وكان شديد التأثير بالفكرة الوطنية ، وله كتاب عن تاريخ مصر قبل الفتح الاسلامي ، وله ايضا كتابات وقصائد امتلأت بحشائر الامم بامجاد المصريين القدماء ، وكانت كتاباته خالية من النظرة الاسلامية بل وحتى النظرة المصرية انظر الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ٢٨/١
- (٣) اقرأ كتابه أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك .



وأما الفريق الثاني من تلاميذ الشيخ محمد عبده وأتباعه وأنصاره فقد اتخذوا آراءه وأفكاره قواعد أساسية لاتجاهاتهم الفكرية المنحرفة . وقد ظهر من بينهم جماعة بدأوا يشنون هجوما كاسحا على الاسلام في عقيدته وشريعته وتعاليمه وينظمون ضده حملات عنيفة للتشكيك في صلاحيته وملاءمته لمقتضيات الحياة المتطورة . وقد سددوا سهامهم على الاسلام وراشقوه من كل جانب . ففي الجانب الاقتصادي تولى الهجوم على الاسلام حقن (١) ناصف وتبعه كثير من المثقفين المستغربين . وأما الجانب الاجتماعي وبخاصة جانب وضع المرأة في المجتمع وهو ما يعبرون عنه بقضية " تحرير المرأة " فقد تزعم الحركة المناهضة للدين في هذا الجانب قاسم أمين (٢) بعد رفاة الطهطاوى . وقد ناصر قاسم أمين وأيد اتجاهاته وأفكاره كثير من الزعماء والكتاب والادباء والصحفيين أمثال سعد زغلول ومصطفى كامل (٣) وأحمد لطفي السيد وعلى شمرراوى واسماعيل مظهر (٤) وطه حسين ولطفى السيد وغيرهم . وأما الجانب السياسى والقضائى فقد تصدى لابعاد الاسلام عن الهيمنة عليه مجموعة من الكتاب " المسلمين " من أمثال عبد الحتمال الصعدي الذى حاول هدم الحدود الاسلامية الثابتة في الكتاب والسنة (٥) وعبد الله النديم الذى سعى للتقريب بين الاسلام والاشتراكية (٦) ،

- 
- (١) اقرأ عن افكاره واتجاهاته في كتاب " حقن ناصف " تأليف محمود غنيم  
 (٢) اقرأ مؤلفاته . ومنها تحرير المرأة " و " المرأة الجديدة " وغيرهما  
 (٣) اغلب كتاباته بل كلها كانت في حب الوطن والحث على الدفاع عنه وهى خالية تماما من النزعة الدينية . ( راجع في ذلك احمد أنس الحجاجسى في كتابه روح وريحان من حياة داع وداعية ص ٥٢ ) وقرأ عن اتجاهاته في كتاب " مصطفى كامل حياته وكفاحه " ل احمد رشاد . وكذلك كتاب " مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية " لمعيد الرحمن الرافعى بسبك  
 (٤) اقرأ كتابه " المرأة في عصر الديمقراطية "  
 (٥) انظر الشيخ محمد الفزالى " من هنا نعلم " ص ١٣  
 (٦) انظر على الموافقة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ص ١٨١ - ١٨٢

وعلى عبد الرزاق صاحب كتاب "الاسلام وأصول الحكم"، وطه حسين الذي ألف كتابا بعنوان "في الشعر الجاهلي" أثار فيه الشك حول تاريخ العرب قبل الاسلام وتطرق شكه لحقائق وردت في القرآن حيث اعتبر صلة ابراهيم الخليل بالعرب وبنائه وابنه اسماعيل للكعبة أسطورة وليست حقيقة (١) كما حاول في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" أن يجيب على تساؤلات المصريين عن المستقبل بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦م وأكد ضرورة ادخال تعديلات في مناهج التعليم ودور الجامعة المصرية وخريجها . وقد دعا الى ضرورة تعلم اللغتين اللاتينية واليونانية باعتبارهما أساسا للتعليم العالي " الصحيح " وأن يسير المصريون سير الأوربيين وأن يسلكوا طريقهم ليكونوا لهم أنداد وشركاء في الحضارة " غيرها وشرها " وحاول أن يثبت أن مصر بعيدة عن العقلية الشرقية وانها لم تتأثر بالفرس أو الرومان أو العرب أو الاسلام وأن العقل المصري عقل يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، ودعا الى تطوير اللغة العربية " . . . لتصبح ملائمة لما ظفروا به في التعليم المدني " وأكسب أن الازهر لا يستطيع القيام بهذه المهمة بل يجب أن تتولاه كلية الآداب التي يجب أن تمتنق كذلك بالدراسات الاسلامية على نحو علمي صحيح (٢) وقد دعا صراحة الى الارتقاء في أحضان الغرب وتتبع سننه في شئون الحياة العملية وبخاصة في مجال الحكم والتشريع والادارة ، وما قاله في هذا الصدد: " . . . بسمل نحن قد خطونا أبعد جدا مما ذكرت فالتزمنا أمام أوروبا ان نذهب مذهبهم في الحكم ونسير سيرتها في الادارة ونسلك طريقها في التشريع ، التزمنا هذا كله أمام أوروبا . وهل كان امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الفاء الامتيازات

(١) انظر د . محمد البهي ، الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر الاستاذ سيد قطب ، نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر ص ٥٣ - ٦٨ وكذلك د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ٢١٨/٢ - ٢٣١ . ود . محمد البهي المرجع السابق ص ١٢٨ .

الا التزاما صريحا قاطعا امام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين —  
 في الحكم والادارة والتشريع ، فلو همنا الآن ان نمود أدراجنا وان نحى النظم  
 المتبعة لما وجدنا الى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمانا عقابا لا تجتاز ولا تذلل ،  
 عقابا نقيمها نحن لاننا هراس على التقدم والرقى ، عقابا تقيمها أوروبا لأننا  
 نهابدناها على أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة " (١) ومن الكتاب  
 النصارى لوى موسى وعيسى وسلامة موسى الذى عبر في عدة مقالات عن كرهه للشرق وحسبه  
 لأوروبا وتعنى ان تصبح كل ظواهر المجتمع المص —  
 كـأوروبا وأن يقترب الشعب المصرى والحضارة المصرية من أوروبا وهاجم  
 الرابطة الشرقية والجامعة الاسلامية مفضلا عليهما الوطنية المصرية وداعيا الى  
 الارتقاء في أحضان الغرب والتعلق بحضارته المادية ، جاء في مقدمة كتابه  
 " اليوم والغد " : " كلما ازدادت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى  
 أغراضى في الادب كما أزاوله ، فهى تتلخص في انه يجب علينا أن نخرج من  
 آسيا وأن نلتحق بأوروبا . فانى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى  
 له وشعورى بأنه غريب عنى وكلما زادت معرفتى بأوروبا زادت حى لها وتعلقى بها  
 وزاد شعورى بأنها متى وأنا منها . هذا هو مذهى الذى أعمل له طول حياتى  
 سرا وجهرة فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب " (٢)

وقد وجد هذا الرجل في نفسه الجرأة لأن يكتب ( الجامعة الدينية  
 وقاحة ) عنوانا لفقرة من فقرات خاتمة كتابه ، وقال تحت هذا العنوان : " اذا كانت  
 الرابطة الشرقية سخافة لأنها تقوم على أصل كاذب فان الرابطة الدينية وقاحة .  
 فاننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتد على الدين جامعة تربطنا (٣) . "

(١) د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢٢٣ - ٢٢٤

(٢) نفس المصدر ٢/٢١٢ وما بعدها

(٣) المصدر نفسه ٢/٢١٨

والى جانب ذلك كله قام حسين مؤنس بمحاولة هدم الماضى الاسلامى المجيد فسي  
مصر وابرازه في صورة مزينة حقيرة لا قيمة له ودعا الى قطع جميع الصلات مع الشرق  
ونبذ الاسلام والاتجاه نحو الوطنية و " الحضارة " الفرعونية (١) ، وهكذا سار  
الامر مع المثقفين المستغربين حتى رأينا في الآونة الأخيرة رجلا يدعى الدكتور  
نديم البيطار يؤلف كتابا بعنوان " من النكسة الى الثورة " شن فيه حربا شعواء  
على الاسلام وسخر من الجهاد الاسلامي وجاهر بحركة الحادية كما رفض الحروب  
ضد اسرائيل ودعا الى محاربة بعض الدولة العربية والجزيرة العربية بالذات (٢) .  
وهؤلاء وكثيرون من أمثالهم في انحاء البلاد الاسلامية هم نتاج كيد قوى الاستعمار  
ومكرها في صراعها المرير مع العالم الاسلامي . وقد بذلت في سبيل تكوين هذه  
الطبقة كل ماوسعها من جهد ومكر وتخطيط حتى تم صبغها بالصبغة الاوربية  
ورضعت لبان الفلسفات والمناهج ، وافكار الفرية اللادينية وبلغ بها الانهيار  
بالغرب وحضارته مبلغا فوق المتصور واصيبت بالتبعية والاستعباد واشتدت فيها  
روح الاستعداد الذاتي لتقبل كل ما عند الامم الفرية من دون تمييز او تمحيص ولا  
وعي واختيار . وقد وصف كرومر هؤلاء المثقفين بأنهم عادوا من الغرب متشبعين  
بروحه ويتبنسون برئته ويفكرون بحسب له ويردون في بلد هم صدى أساتذتهم  
المستشرقين وينشرون افكارهم ونظرياتهم في ايمان عميق وحماسة زائدة (٣) . هؤلاء  
هم الذين اسند اليهم تهيئة الارضية الفكرية لتسويخ المناهج الفرية والنظم  
اللا دينية ونشرها في المجتمعات الاسلامية . وقد بذلوا جهودا مضنية لاعداد  
النفسية الاسلامية لتقبل هذه المناهج والنظم والافكار على أنها هي المقومات

(١) اقرأ كتابه " مصر ورسالتها "

(٢) عبد الله عبد الجبار ، الفزو الفكري في العالم العربي ، ص ٨٩

(٣) ابو الحسن الندوي ، الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص ١١٩

الأساسية للحياة المتطورة الراقية التي لا تناقش فيها وجهة نظر الدين إطلاقاً لأنها خارجة عن نطاق الدين (على المفهوم الضيق) أو أن هذه المناهج والنظم والأفكار - في أحسن الأحوال - مستقاة من أصول إسلامية قد أخرجتها أوروبا في أثواب جديدة وصاغت في قوالب حديثة وفق مقتضيات الحياة المتطورة . وإذا كان من بين هذه الطبقة الجديدة التي صنعتها قوى الغرب الصليبية قلعة قليلة كانت مفتونة ومنبهة بتفوق الغرب وازدهار حضارته المادية فاندفعت بدوافع نفسية ذاتية تريد الإصلاح لإنقاذ الأمة الإسلامية ورفع شأنها ولكن هذه الفئة قد أخطأت خطأ شنيعاً حين ولت وجهها فطرت الغرب اللاديني تريد أن تربط عجلة الأمة الإسلامية بقاطرة الامم الغربية حتى تسير سيرتها وتتجه نحو اتجاهها وتقيم شئون حياتها على الأسس والقواعد التي قامت عليها الحياة الغربية . . أقول إذا كان من بين هذه الطبقة المستعبدة للغرب من يصدر في محاولة تهم الإصلاحية الخاطئة عن مثل هذه الدوافع النفسية القابلة للجدال والنقاش فقد كان معظمهم أناساً مفرضين صرخاء وعملاء مأجورين اتخذتهم قوى الغرب الصليبي اسناداً لتنفيذ مخططاتها ومحاول لهدم كيان الأمة الإسلامية وتحطيم مقومات الحياة الإسلامية . وقد قام على أثرهم متأثراً باتجاهاتهم الفكرية زعماء سياسيون وطنيون تزعموا حركات النضال الشعبي لمقاومة قوى الاحتلال وألغوا أحزاباً سياسية رفعوا فيها شعارات مناهضة للدين مثل شعار " الدين لله (١) والوطن للجميع " وشعار " مصر للمصريين (٢) " وشعار " سياسة المنافع لا سياسة العواطف " (٣) وغير ذلك وقد شن هؤلاء الزعماء على الاسلام حرباً شعواء في كل ميدان وأقصوا الشريعة

(١) اقرأ كتاب " سعد زغلول " لمحمد ابراهيم الجزيري

(٢) راجع كتاب " الغرب والشرق الاوسط " برنارد لويس ص ١٢٢ (وقد أطلق

هذا الشعار الصحفي المسيحي " سليم نقاش " وعمه اليهودي " ابونداره "

وطبقه القائد " المسلم " عرابي باشا .

(٣) اقرأ كتاب " أحمد لطفى السيد " لحسين فوزي النجار .

عن مجال الحكم والقضاء وشئون الحياة الاجتماعية ومنذ تلك الفترة أصبحت الأحزاب السياسية تسير في اتجاه لاديني وتتبنى أفكاراً مناهضة للدين والاخلاق وتتفق جميعها في عدم رفع شعار الاسلام او الدعوة الى تحكيم الشريعة أو ادخال عنصر الدين في مجال الحياة الاجتماعية بأي شكل . وهكذا أصبح المجتمع المصري يمحى بالنظريات والمناهج والنظم الغربية اللادينية في مجال الحكم والتشريع والاقتصاد والاجتماع وكلما أخفق منهج أو نظام أبدل به آخر من طينة غربية ومن أرومة الشجرة اللادينية ، وأما الاسلام ونظامه للحياة الإنسانية ففي شتى مجالاتها فقد أسدل عليه الستار وأقصى تماماً ليس فقط عن الحياة العملية وإنما كذلك في الناحية التصورية .

وأما في بقية البلدان الإسلامية فقد اتبعت قوى الاستعمار الصليبية خطة مماثلة لإنشاء طبقة محلية جديدة في المجتمعات الإسلامية عن طريق التربية والتدريب والتوجيه ونشر الأفكار الغربية والنظريات والمناهج الأوروبية اللادينية . وتتزعّم هذه الطبقة مجموعة من هجنا الفكر والثقافة ممن تربوا على عين رسل الاستعمار وسممهم فوكل اليهم أسيادهم مهمة سوق شعوبهم وراء أوربا وحضارتها في نل وهوان وعبودية ، ففي كل بلد من البلدان الإسلامية تتألف هذه الطبقة من فئتين كانت الأولى متأثرة مفتونة بالحضارة الغربية قد أثارها ماتمانيه الأمة الإسلامية من التخلف والضعف والانحيار الى الارتقاء في أحضان الغرب وقبول السير في اتجاهه واقتفاء آثاره . وكانت الفئة الثانية قد اختيرت واصطنعت خصيصاً لمهمة العمالة لصالح دوائر الاستعمار الغربي . وكان منها المثقفون المارقون والزعماء السياسيون والقادة الوطنيون والعلماء المستغفلون الذين ساندوا قوى الاستعمار وخدموا مصالحها ومكثوا لها في بلاد المسلمين بكل ما أوتوا من قوة وسلطان وجاه وعلم حتى انتشرت مناهج الغرب وافكاره ونظرياته اللادينية وطرائق الحياة الغربية في المجتمعات الإسلامية . وقد كان هؤلاء العملاء يتسترون وراء شعارات براقصة ويدعون انهم إنما يريدون للأمة الإسلامية كل الخير ويسمون إلى إصلاح حالها

ورفع الاصر والقيود والاغلال التي عاقتها عن النهوض والانطلاق حتى تستطيع  
 اللحاق بركب الحضارة والمدنية والتقدم . ولكن كل ذلك مجرد ادعاءات جوفاء  
 لا قيمة لها في واقع الامر ، والحق أن هؤلاء كانوا اسنادا قوية لقوى الاستعمار  
 وكانوا أصابع مخططاتها ومكايدها . وهم الذين حملوا مهمة خدمة مصالح الاستعمار  
 في البلدان المستعمرة فحملوها على اكتافهم يبتئون النظريات والافكار الغربية  
 ويدعون الى طرائق الحياة الاوروبية حتى استطاعوا - بدعم قوى الاستعمار  
 وتأيدها - أن يحدثوا تحولا جذريا في شئون المجتمعات الاسلامية على النحو  
 الذي تريد هذه القوى الاجنبية وتبذل في سبيله كل ماوسعها من جهد ومكر وكيد وتخطيط  
 وقد استطاع هؤلاء ان يجعلوا من المجتمعات الاسلامية صورا مطابقة أو مشابهة  
 أو قريبة من صورة المجتمعات الاوروبية في شئون الحكم والسياسة والاقتصاد  
 والاجتماع وفي مجال الاخلاق والتقاليد والعادات . وان مثل هذا النجساح  
 الكبير الذي حققته أوروبا وحضارتها في انحاء العالم الاسلامي على أيدي العناصر  
 المحلية من الازناب والعملاء لم يكن ليتم على هذا النحو لو اکتفت أوروبا باستغدام  
 العناصر الخارجية لتحقيق غاياتها ولم تسع لتكوين العناصر المحلية واصطناع  
 العملاء ، فصها اوتيت من قوة ومكر وتخطيط فسيظل الناس ينظرون اليها على أنها  
 قوى اجنبية معادية ، من أجل هذا رأى رسل الاستعمار أهمية انشاء العناصر  
 المحلية الخاضعة لنفوذ الضرب والمالية لقوى الاستعمار وأكدوا ضرورة الاهتمام  
 عليها واستغلالها لتحقيق مصالح الضرب في البلدان المستعمرة . جاء في  
 تقرير اللورد ميکالي وهو رئيس اللجنة التعليمية في الهند سنة ١٩٣٥ م : " يجب  
 أن ننشئ جماعة تكون ترجمانا بيننا وبين ملايين من رعيتنا وستكون هذه الجماعة  
 هندية في اللون والدم انجليزية في الذوق والرأي واللفة والتفكير . . . (١) " وقال

(١) ابو الحسن الندوي ، التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد  
 الاسلامية ص ٢٨ نقلا عن كتاب تاريخ التعليم ، لميجر باسوس ص ٨٠

القس زويمر : " تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لان الشجرة يجب ان يقطعها احد اعضاءها (١) " ويقرر المستشرق " جب " في كتابه ' وجهة الاسلام " أن التجدد والتفرنج في الشرق انما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الاسلامي الشرقي ، يقول : " والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التفريب (أوالتفرجة) هو أن نتبين الى أي حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي ، والأساس الاول في كل ذلك هو أن يجرى التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي . هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره ، وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الاسلامي ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين (٢) " .

" ويلاحظ " جب " أن النشاط التعليمي والثقافي ( عن طريق المدارس المصرية والصحافة ) قد ترك في المسلمين - من غير وعي منهم - أثرا جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين الى حد بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله " وذلك خاصة هو اللب الثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الاسلامي على حضارته من آثار (٣) . ويتساءل " جب " الى أي مدى أصبح العالم الاسلامي غربيا ؟ وجيب على ذلك ، مستعرضا نفوذ الثقافة الغربية في العالم الاسلامي بلدا بلدا فيقول " ان تركيا قد انقلبت الى بلد غربي كأعنف ما يكون الانقلاب وأما فسي شبه الجزيرة العربية فان النفوذ الغربي لم يستطع أن يضع قدمه بعد ، وفي شمال افريقيا بدأت حركة التفريب وهي ماضية في طريقها وان كان أثرها أبرز في تونس . أما في مصر فهي تتطور في هدوء بعيد عن العنف ، ولكنها تتقدم تقدما واضحا

(١) الفارة على العالم الاسلامي ص ٨٠

(٢) عن الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر . محمد محمد حسين ٢/٢٠٧ - ٢٠٨

(٣) نفس المصدر ٢/٢٠٩



في هذا الطريق . أما العراق وسوريا فهي تتبع خطوات مصر ، بينما تتبع  
 ايران خطوات تركيا ، وان كانت أكثر منها اعتدالا وتوسطا ، أما افغانستان  
 فقد تراجعت في هذا السبيل بعد تجربة الملك أمان الله خان التي فقد فيها عرشه .  
 ويمضى المؤلف على هذا النحو في تتبع ما أحدثت الحضارة الغربية من آثار  
 بين المسلمين في روسيا السوفيتية وفي الهند وفي اندونيسيا وفي افريقيا ، ويخلص  
 من ذلك الى ان نجاح التطور يتوقف الى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم  
 الاسلامي وعلى الشباب منهم خاصة ثم يقول : ومن ثم نستطيع أن نقول - حسب  
 سير الامور الآن - ان العالم الاسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة لادينييسا  
 في كل مظاهر حياته مالم يطرأ على الامور عوامل ليست في الحسبان فتتغير  
 اتجاه التيار (١) .

---

(١) عن الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، د . محمد محمد حسين ،

## الباب الثالث

ردود الفعل للفوز والأعني  
وظهور حركات البعث الإسلامي  
إلا صلاح حاله الانحطاط التي  
تعاين منها الأمة الإسلامية.

## الباب الثالث

- تمهيد :

ردود الفعل لمقاومة الغزو الأجنبي المتسلط

منذ القرن الثاني عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى كانت الأمة الاسلاميـة تخوض غمار حرب ضارية تعتبر معركة مصير تفوق في حدتها وشراستها الحروب الصليبية الأولى لأن الأعداء المتربصين قد تصدوا للإسلام وناصبوا المسلمين العداء في جميع الجبهات ، وقد اتسعت ساحة المعركة فشملت كافة المجالات العسكرية والفكرية والسياسية والتشريعية والاجتماعية والاقتصادية وما إلى ذلك .

ان المجتمع الاسلامى منذ أكثر من قرنين من الزمن قد تعرض لأخطار جسام وتحديات شرسة مختلفة لو تعرض لمثلها مجتمع آخر من المجتمعات البشرية التى قامت على غير هدى الله ومنهجه لعفى أثره وانطوى ذكره ولم يبق له في واقع الحياة وجود .

حقا ان صدمة زحف الاستعمار الصليبي في الحروب الصليبية الحديثة لم تكن من قبيل صدمة الحروب الصليبية الأولى عند المسلمين ، ففي الحروب الأولى كان المسلمون - رغم ما كانوا يمانونه من الضعف والتخلف والانحطاط - على مستوى من الدين والأخلاق جعلهم يفوقون أعداءهم معنويا وماديا ، وقد كانوا ينظرون الى أنفسهم على انهم الاعلون وأن الصليبيين في حضيض الجهل والكفر فلذلك لم ير المسلمون في أحوال أعدائهم ما يغيظونهم عليه ولم يروا انهم مفتقرون الى اقتباس شئ من طرائق حياتهم فهم يترفعون عن الحالة السيئة التى كان عليها الصليبيون ويحسبونها من التخلف والهمجية . وهكذا خرج المسلمون من الحروب الصليبية الأولى بقوة ايمانهم وتمسكهم بدينهم منتصرين على أعدائهم مالكين لبلادهم رادين للمفجرين عليها . وأما صدمة زحف الاستعمار الصليبي الحديث عند المسلمين

فلم تكن بالصدمة العابرة التي تمر في ساعتها ولا تترك بعدها عبرة للمعتبر ولا أثراً للمتأثر بل كانت صدمة عنيفة ماثلة أمام كل نظر ، صدمة ملحة في كل حين متجددة في كل جهة معاودة على نحو واحد في جميع الاقطار وعلى اختلاف التجارب والاحداث (١) . ولكن الهزائم المتعاقبة التي منعت بها الأمة الاسلامية فسي الحروب الصليبية الحديثة قد أعقبتها ردود فعل متعددة في أرجاء العالم الاسلامي قبل أن ينقضى على زحف الاستعمار المدمر جيل واحد ، وفي ذلك دلالة واضحة على عمق الأثر الذي تركته ضربات الاستعمار في أرجاء العالم الاسلامي ، وأن الأمة الاسلامية لم تزل بنية حية - رغم ما أصابها من التدهور والانحطاط بسبب انحرافها عن جادة الاسلام - فقد تنبهت للخطر المحدق وأحست بنقصها في مقومات الحياة وعدد الكفاح . ولقد بقيت فيها بقية من الدين توحى اليها انها ليست ضائعة هالكة ، بقيت لها بقية من الايمان بدينها جعلتها تؤمن أن هناك خطأ ما كان سبب الضياع والانهيار وان ذلك حالة لا يمكن أن تدوم وانها قمينـة أن تغير هذه الحالة لو بدأت بتغيير ما في نفسها واستقامت على الحق وأن الله تعالى يريد منها هذا التغيير ويمنها عليه اذا رأى منها الاستعداد الحقيقي والعزم الصادق .

وقبل الزحف الاستعماري الاوربي الذي طالما كان يترصد بهذه الأمة الدوائر ويتربص فرصة الانقضاض على العالم الاسلامي للقضاء على سلطان الاسلام وتقويض صرحه العالي وكسر شوكته وتمزيق قوته شرمزق كان العالم الاسلامي قد وصل الى حالة سيئة من الانحطاط والتدني والتدهور بسبب سلسلة الانحرافات التصورية والسلوكية التي يمانى منها المسلمون والتي بلغت مداها في أواخر العهد العثماني فاجتاح العالم الاسلامي خلال هذه الفترة موجة عاتية من الجمود والركود

(١) انظر الاسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله ، عباس محمود العقاد ،

والضعف والتخلف والجهل شملت كافة مجالات الحياة الاسلامية فأثرت في مجال العقيدة والتصورات ومجال المبادئ والشعائر ومجال السلوك والاخلاق ومجال تطبيق الشريعة ونظام الحكم ومجال العلوم النظرية والتطبيقية ومجال القوة الحربية على النحو الذى تقدم الحديث عنه مفصلاً في الفصول السابقة .

ولكن الأمة الاسلامية قد احتملت هذه العوامل الداخلية الذاتية التى تعرضت لها عبر قرون الانحطاط والضياع والانحراف واحتملت تلك الصدمات العنيفة والهزات المدمرة التى أصابتها من الغزو الأجنبى المخطط والكيـد الصليبي المدبر دون أن تودى هذه العوامل الداخلية والخارجية بحياة هذه الأمة وتسلمها للفناء والهلاك . ولئن كانت حال المجتمع الاسلامى فى القرون الثلاثة الأخيرة تشبه حال الامبراطوريتين المظيمنتين الرومانية والفارسية فى أواخر حياتهما حيث كان مهدداً من الخارج من القوى الصليبية الحاكمة فى الوقت الذى كان يعاني من الاتهيار الداخلى والاضمحلال والذبول فقد خرج من محنته ونكبتة منهكاً راكداً ضعيفاً هزيراً الا أن الله تعالى لم يرد زوال هذه الأمة وفناءها ، وقد شاءت ارادته تعالى أن تصحو هذه الأمة من رقادها الطويل وأن تعود اليها القوة والحيوية ، فهياً لها الفرصة لقيام حركات البحث الاسلامى التى تنير للأمة طريقها من جديد وتجدد لها أروادها ، وتقوم بالدعوة الى العودة الى الاسلام الصحيح فى صفائه ونقاؤه وبساطته . وهذه الحركات الاسلامية التى قامت فى أرجاء العالم الاسلامى منذ أواخر القرن الثانى عشر الهجرى حتى القرن الرابع عشر ( منتصف القرن الثامن عشر الميلادى حتى القرن العشرين ) ان هى الا محاولات جادة من رجال الفكر والدعوة والاصلاح لا يقاط الأمة من غفلتها واصلاح حالها المتردية ودعوتها الى استئناف الحياة السعيدة المبنية على أساس منهج الله القويم وهدى الرشيد لتعود الى المسلمين المزة والسيادة والريادة التى ضاعت من أيديهم عبر قرون الانحطاط والتخلف . ومنذ ان انطلقت من قلب الجزيرة العربية دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب تجاوزت أصداءها

في أرجاء العالم الاسلامي فقامت حركات بمح ودعوات اصلاح متمددة في مختلف الأقطار الاسلامية خلال القرنين الأخيرين (١) جمعت قلوب المؤمنين على الدين الحنيف وطهرتها من البدع والخرافات وأدران الجهل والشرك ونفخت في المسلمين روح الجهاد في سبيل الذود عن حيا الدين وسد الثغرات وحماية الجبهات وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها . " (٢)

وأحب أن أقرر حقيقة في هذا الصدد وهي أن من الخطأ الفادح أن ينظر الناس الى آثار الانحراف المطرد والجهل المتفشى في المجتمعات الاسلامية والبدع والخرافات المنتشرة بين العامة وبعض الخاصة والى نجس المكائد الصليبية في شتى المجالات وانتشار مذاهب الغرب وأفكاره اللادينية وطرائق الحياة الغربية المنحرفة في المجتمعات الاسلامية . . . من الخطأ أن ينظر الناس الى ذلك كله فيحسبوا أن الملل والأدواء قد أعيتا لاطباء وأن المدد قد استفحل خطره واستعصى على المقاومة والتغيير حيث ان حركات البعث الاسلامي لم تفلح في القضاء على الانحراف المطرد والجهل المتفشى وخطر المدد والخارجي المستشري في كيان الأمة وشره المستطير . كلا ان هذه الحركات قد عملت جاهدة لاسترداد قوة الأمة وعزتها وان لم تبلغ غايتها بعد فانها مصممة على بلوغها مهما يكلفها ذلك من جهود وتضحيات وقد استطاعت ان تحقق بمسار أهدافها وأن تنجح في بعض الميادين حيث وقفت سريان الأدواء قليلا ومشيت بالليل خطوات في سبيل النقاها كما تصدت لهجوم المدد وقاومت شروره وكشفت مافى مذاهبه وأفكاره ومناهجه من زيغ وضلال وكفر ولم يكن بإمكانها في مثل هذه الظروف الصعبة أن تحقق أكثر من ذلك لتمتد الأدواء وتشعب آثارها وتفاقم

(١) راجع د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، حركة التجديد الاسلامي في العالم

العربي الحديث ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) أخرجه أبوداود في كتاب الملاحم ، باب ما ذكر في قرن المائة ١٠٩ / ٤ عن أبي هريرة .

الأخطار وعظم كيد الاعداء وشدة وطأتهم وتنوع اساليب المكر والخداع التي يستخد منها في سبيل الوقعة بهذه الأمة وتقويض بنائها من أساسه وانها وجود الاسلام من الأرض (١).

ولقد تمثلت ردود الفعل لاصلاح حالة التدهور والانحطاط في المجتمع الاسلامي ومواجهة خطر الغزو الاجنبي في اتجاهات ثلاثة رئيسية سنتولى الحديث عنها في هذا الصدد بايجاز :

أولا : الاتجاه الذي اعتنق الفلسفة التي قامت عليها الحضارة الغربية ودعا الى الارتقاء في احضان الغرب والأخذ بمنهج الحياة الأوربية في كل مجالات الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي سياسة التملص من الثقافة والفن والتقاليد والعادات . وتمثل هذا الاتجاه الطبقة المثقفة ثقافاً غربية والقادة السياسيون والزعماء الوطنيون وفريق من المفكرين والادباء وأهمل الفن الذين تأثروا بتيارات الحضارة الغربية المادية التي غزت المجتمع الاسلامي ، وانساقوا وراءها ، وخضعوا للتوجيهات المفرضة الهدامة التي قام بها الحكم الاجنبي في ديار الاسلام من أجل الكيد وتشويه حقيقته وتقويض سلطانه . وقد علمهم أساتذتهم المبشرون والمستشرقون وزعماء المستعمرين أن الدين الاسلامي هو الذي قضى على أهله بالتأخر والتخلف بسبب دعوة المسلمين الى الامتناع والخضوع لأوامره واجتناب نواهيه التي لم تعد مواكبة للمجتمعات الانسانية الزاكية في عصرنا الحاضر فهو يصرفهم الى العبادة ويحطهم على الاتصاف بالقناعة والرضا بالمكتوب ويحذرهم من المخامرة ويقعد بهم عن الاخذ بوسائل التقدم التي أصبحت ضربة لازب في المجتمعات الحضارية اليوم . وقد تأثر هذا الاتجاه بهذه المزامم الباطلة حتى رأى الا استقامة في الحياة العملية الا بأحد ثلاثة : بنيد الدين الذي لم يمد صالحا في نظره لحكم الحياة العملية وتوجيهها والمهيمنة عليها

أو يفهم هذا الدين فهما آخر غير الفهم الذى عليه الأولون باعتبار الدين مسألة شخصية بين الانسان وربه أو بالصدع بوجوب فصل الدين عن الدنيا وقطع علاقة الدين بشئون الحياة العامة (١). ومن هذا الفريق الميم شطر الغرب من انخلع من الماضى البعيد والقريب ومن الاسلام سواء في صورته الصافية الأصلية أو صورته المشوهة الهزيلة التى آل اليها في قرون الانحطاط . ومن هؤلاء أيضا الساعون الى المزاجية بين الاسلام والحضارة الأوروبية المتفوقة . وقد تقدم حديث مستفيض عن هذا الفريق الذى جرفته موجة التخريب وليس القصد من الحديث عنه هنا سوى التسجيل لوجوده وكونه يمثل اتجاها مميذا من الاتجاهات التى تمثلت فيها ردود الفعل لمقاومة الغزو الأجنبى ورفع مستوى الأمة وإصلاح حالها وخاصة في الفترات الزمنية الممتدة بين قيام الحكم الاستعماري وانتصاب أنظمة الغرب ومناهج حياته في ديار الاسلام وبين فترة الانتفاضات والتحركات التحريرية التى تحاول أن تميد الى الأمة عزتها وسيادتها . وقد نشأ هذا الفريق اثناء الاحتلال الغربي للبلدان الاسلامية وتوغل المدنية الغربية فيها ومحاولات الغرب وسعيه الحثيث لتغيير شئون الحياة المحلية في المجتمع الاسلامي . وقد تم تكوين هذا الفريق بعناية فائقة وخطط مدروسة محكمة ثم فعلت فيه مؤثرات الحضارة الغربية فعلها فأصبح ينظر الى هذه الحضارة المادية الجديدة على أنها القوة والحيوية والحركة والاتلاق نحو التقدم والتطور والازدهار ، في الوقت الذى بدا له ماتمانيه الحضارة الاسلامية من جمود وركود وضعف وتخلف وهكذا تولدت عنده عقدة الشعور بالنقص الذاتى وعقدة اليأس من استقامة القيم الدينية لبناء حضارة انسانية راقية ، وبخاصة فقد رأى هذا الفريق ان المدرسة الفكرية القائمة في مختلف البلدان الاسلامية في قرون الانحطاط كانت عاجزة عن مواجهة ظروف الحياة المستجدة وتوفير متطلبات احوالها المتطورة وذلك

---

(١) انظر مواقف الاسلام ، محمد الحبيب ابن الخوجة ص ٩٤ - ٩٥



بالإضافة إلى ما يحمله العلماء والفقهاء ورجال الفكر المسلمون من الجمود والتزمت والتخلف واتخاذهم موقف الرفض والاستنكار تجاه تيار التقدم والتطور المادي . وهكذا نرى أن الأحداث الفكرية والاجتماعية العامة التي كانت تجري في هذه الفترة على الصعيد الداخلي والخارجي هي التي مهدت الطريق لظهور هذا الفريق وبروز دوره في شئون المجتمع ولكنه يزداد يوما بعد يوم يُعَدُّ عن قيمه الروحية والأخلاقية الأصيلة ليسارع الخطى في الاتجاه الذي اختاره له ساداته الغربيون في طريق المادية واللا دينية .

**ثانياً :** الاتجاه الذي يدعو إلى التمسك بالاسلام في صورتها المشوهة المسوخة التي امتزج فيها الاصيل بالدخيل والسليم بالعليل والخالص بالمشوب ، وأثرت فيها آفات الجمود والركود والانحراف عن حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل . ويمثل هذا الاتجاه موقف الجمود والتخبر والانحطاط الفكري والتخلف العلمي حيث يرفض كل ما وصل إليه الغرب في مجال التقدم المادي ويعتبره كرا وضللا بصرف النظر عما يحققه للبشرية من المنافع . ولو أنه اكتفى برفض المفاهيم الخاطئة والانحرافات الفكرية والخلقية التي صاحبت التقدم العلمي في أوربا لما كان عليه لوم في ذلك فان هذه الانحرافات اللادينية كانت قمينة بالفعل أن يرفضها كل مسلم يؤمن بهذا الدين ، ولكن جمود أصحاب هذا الاتجاه جاء من حرصهم على صورة من الحياة لا تمثل حقيقة الاسلام من جهة ، ورفضهم للتقدم العلمي في ذاته من جهة أخرى ، فلا هم حققوا الصورة الاسلامية الحقيقية ولا هم أباحوا الاستفادة من ثمار التقدم العلمي . وهكذا اتخذ هذا الفريق موقف التزمت والجهل بأمور الحياة المادية والرفض والاستنكار لتيار التقدم والتحضر ، وتقاعس عن الأخذ بأساليب الحياة الحديثة ودراسة العلوم الطبيعية والتجريبية والاستفادة من انجازات العلم الحديث ، بل وصل به الجهل والانحراف إلى اعتبار ذلك كله مخالفاً لروح الاسلام متنافيا مع قيمه ومبادئه ، وقد انمزل هذا الفريق بعيدا عن التفاعل مع مجرى الحياة المتدفقة بالحياة والحركة ولم يحاول التأثير فيه وذلك بسبب مانع

روحه الدينى من شلل يمنعه من النهوض بعد الكوة ومن الانطلاق بعد الجمود .  
ولو بحثت عما باعد بين هذا الفريق وحقيقة الاسلام وصورته الناصحة ومفهوميته  
الصحيح الشامل لم تجد شيئا سوى انه ورث صورة الاسلام المشوهة التى نسجت بها  
آثار الجهل والجمود والانحراف منذ عصور الانحطاط وتعضت عنها الاتجاهات  
الفكرية المنحرفة التى عكست احوال المجتمع الاسلامى فى النواحي الثقافية  
والاجتماعية والسياسية . وهكذا نرى العلماء والفقهاء ، ورجال الفكر الذين  
يمثلون هذا الاتجاه وبخاصة فى القرنين الأخيرين قد اخذوا هذه الصورة الهزيلة  
الموروثة وهكفوا عليها وألزموا أنفسهم عدم الخروج عن حدودها اذ انها - فى  
نظرهم - هى الصورة الاصلية للاسلام وماخرج عن اطارها لا يمت بصلة الى الدين  
الحق .

وقد كان هؤلاء من الجمود والتزمت بحيث لا ينفع معهم أى محاولة لردهم  
الى الحق وتغيير موقفهم المتصلب وتخليب صميم ما رسخ في أذهانهم من مفالطات  
وما علق بتفكيرهم من أخطاء وسخافات .

ولقد كان لهذا الفريق وجود ثابت قبل الفزوال اجنى وتوفل الحضارة  
الاوربية فى المجتمع الاسلامى ولكن لم يبرز هذا الوجود فى شكل موقف فكرى محدد  
يحاول ان يمكن لنفسه ويدافع عن وجوده ويصارع من أجل البقاء الا بعد ظهور  
مؤشرات الحضارة الغربية فى شتى مجالات الحياة وظهور تيار للفكر الغربى يوجه  
هجومه العنيف الى الفكر الاسلامى الراك الذى خلفته عصور الانحطاط كما ينقصد  
مايمثله هذا الفكر الراك الخافت من اتجاهات وافكار ونظم وتقاليد وأوضاع اجتماعية  
ومايستند اليه من قيم روحية واخلاقية . وهكذا انبرى أصحاب هذا الاتجاه الثانى  
من العلماء والفقهاء ليشكلوا موقفا فكريا معاكسا يرفض كل ما توصل اليه الفكر الغربى  
من النهضة العلمية وقوة الابداع المادى ويستنكر ذلك كله على أساس انه مخالف  
للاسلام وقيمه وروحه . وقد تحدثت فيما سبق عن سلسلة الانحرافات التصورية  
والسلوكية التى تفشت فى المجتمع الاسلامى منذ عصور الانحطاط ، ومن حمأة هذه

الانحرافات والافات استقى هذا الفريق أصول أفكاره واتجاهاته الخاطئة التي نسبها الى الاسلام .

ثالثا : الاتجاه الذي تمثل في حركات البحث الاسلامي التي قامت في المجتمع الاسلامي لاصلاح حالته المتدهورة ورفع مستوى الامة ومواجهة الغزو الفكري الأوربي . ولقد دعت هذه الحركات الاصلاحية المسلمين الى الرجوع الى حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل بمبادئه الاساسية وقيمه الاصلية المستقاة من كتاب الله العزيز والسنة النبوية المطهرة . كما دعت أيضا الى اخذ التصور الاسلامي الصحيح عن الكون والحياة والتقدم في النواحي المادية من هذه الحياة من هذين المصدرين الأصليين ، واختبار مواقف المسلمين الفكرية واتجاهاتهم المستحدثة وقياسها على هذين المصدرين وفهم السلف الصالح لما ورد فيهما من الأصول والقواعد الكلية .

وقد أوضح هذا الاتجاه ان الدين الاسلامي منهج الله المتكامل الشامل لشئون الحياة البشرية فهو يوجه الانسان الى العمل في الدنيا على اعتبارها سبيلا طريق الآخرة ، ويحضه على طلب العلم والبحث عن كل ما يمينه في اصلاح شئون حياته في جميع جوانبها كما يوجهه الى عمارة الأرض واستكناه الاسرار الطبيعية التي اودعها الله في هذا الكون الفسيح ، ويؤكد له أن أى نشاط يقوم به فسي الحياة يكون عبادة الله تعالى مادام يصدر فيه من أمر الله ويلتزم فيه هدى الله وتوجيهه ويتوجه بعمله الى الله تعالى . وقد كشف هذا الاتجاه عن الصورة الاصلية للاسلام مبينا ما في الاتجاهات الفكرية الشائعة بين المسلمين من زيغ وخطأ وانحراف وما ترتب على هذه الافكار الخاطئة من آثار سيئة ظهرت في أحوال المجتمع الاسلامي ، فأصبح هذا المجتمع حامدا خافتا بعد حيوية واشراق ، مضطربا حائرا بعد أمن واستقرار ، ضعيفا متخلفا بعد قوة وتقدم وازدهار ، وفي سبيل الاصلاح والبناء دعا هذا الفريق الى العودة الى الاسلام في مفهومه الصحيح وفهم أصوله ومبادئه وقيمه الروحية وأساسه الحضارية في آفاقها الواسعة ، والقيام بالعمل الجاد المثمر

لاسترجاع العزة والمجد للامة الاسلامية وتحقيق وسائل النهضة في المجتمع المسلم حتى يكون قادرا على مواكبة تيار التطور والتقدم ، والتفاعل معه ثم السير به نحو الاتجاه السليم الذي يحقق للبشرية الخير والسعادة ، ويجنبها المهالك والدمار ، ويضمن سير أمور الحياة في توازن وتناسب .

وسنمضى للحديث عن حركات البحث الاسلامي التي تمثل هذا الاتجاه الاخير في ضوء ما تقدم في هذا البحث من دراسة عناصر القوة والرفعة وأسباب الضعف والهبوط في حياة الامة الاسلامية وما تعرضت له خلال القرنين الاخيرين من الخطر الصليبي المدمر والكيد الصهيوني المخطط وقيام هذه الحركات لاصلاح حال هذه الامة ورد اعتبارها وعيشها من جديد لتتبوأ المكانة اللائقة بها في قيادة البشرية وريادتها .

#### البارزة

وحركات البحث الاسلامي التي قامت خلال القرن الثالث عشر الهجري هي دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب (١) في نجد والحجاز ودعوة الامام محمد بن علي السنوسي الكبير في ليبيا وحركة الامام محمد احمد بن عبدالله المهدي في السودان .  
وأما حركات البحث الاسلامي المعاصرة | فبرزها حركة الاخوان المسلمين بمصر وحركة الجماعة الاسلامية بباكستان والحركات الاسلامية الاخرى في تركيا وايران واندونيسيا .

..

---

(١) قامت دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب منذ النصف الاول من القرن الثاني عشر الهجري .

### الباب الثالث

#### الفصل الاول : حركات البعث الاسلامى فى القرن الثالث الهجرى

- المبحث الاول : دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب .
- المبحث الثانى : دعوة الامام محمد بن على السنوسى الكبير .
- المبحث الثالث : حركة الامام محمد أحمد بن عبد الله المهدى

....

## الفصل الأول : حركات البحث الاسلامي في القرن الثالث عشر الهجري

### البحث الاول : دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب

حين قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) كان العالم الاسلامي يعاني اضمحلالا يشمل جميع نواحي الحياة الاسلامية . ولم يكن لدى القوى المحلية الموجهة من الوعي الصحيح ما تستطيع به أن تقوم بتوجيه المجتمع المسلم نحو مثله العليا وحفظ مقومات حياته واصلاح ماظهر فيه من أنواع الفساد ، فقد انهارت هذه القوى الموجهة ولم تملك ما تحافظ به على تماسك المجتمع غير التعلق بالتقاليد والعبادات البالية والمعتقدات الباطلة وجمع قلوب الناس على البدع والخرافات فتعرضت الأمة الاسلامية للانحراف العقيدى والشلل الفكرى والجمود العقلى والتخلف العلمى والثقافى ومايتبع ذلك من الاضمحلال السياسى والضعف المسكرى والفساد الاخلاقى والركود الاقتصادى . (١)

ولقد بلغت حال الأمة الاسلامية في هذه الفترة مبلغها من السوء والانهار ، واستحوذ على الدولة العثمانية - زعيمة العالم الاسلامى - الضعف والوهن والفتور وظلت ترتع في حمأة الجهل والجمود لا تقوى على اصلاح الفساد الداخلى ومواجهة الاخطار الخارجية الماحقة . وعندما صدع الامام محمد بن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية وأخذ يجمع الناس حوله ويدعوهم الى العودة الى دين الله الخالص والتصك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والتزام نهج السلف الصالح من هذه الأمة ، كانت الدولة العثمانية تستثار ضد هذه الحركة من قبل أعداء الدين من اليهود والنصارى وكذلك بعض خصوم الدعوة من الزعماء المحليين الذين أثاروا الدعايات الكاذبة والاشاعات الباطلة ضد هذه الحركة ، ومازالوا

(١) اقرأ كتاب حاضر العالم الاسلامى ، للكاتب الأمريكى ستودارد ، لوشروب . ترجمة عجاج نويهض ، تعليق الامير شكيب ارسلان الفصل الأول عن " اليقظة الاسلامية" في القرن الثامن عشر الميلادى (الثانى عشر الهجرى) ١/٢٥٩ - ٢٧٧ .

يستفزون الدولة العثمانية بأساليب المكر والخداع حتى أوغروا صدرها على دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب وبخاصة بعد تمهيد الأمير محمد بن سعود للدعوة وتحولها الى حركة جهادية تدعمها قوة سياسية وعسكرية مكنتها من الامتداد والتوسع وبسط النفوذ في أرجاء شبه الجزيرة العربية . فقد صورت هذه القوة الاسلامية الفتية للباب العالي على أنها جماعة ضالة خارجة من الدين داعية الى بدعة منكرة وأنها حركة تحد سافر ضد سلطته السياسية ومكانته الروحية في العالم الاسلامي فكانت نتيجة ذلك أن أبدى الباب العالي سخطه واستياءه لهذه الحركة وعمل كل ماوسعه لتعطيم قوتها . ولكن الدولة العثمانية ما لبثت أن شعرت بما نادى به الامام محمد بن عبد الوهاب من حاجة المجتمع المسلم الى الاصلاح والتعمير وواجب المسلمين في القيام بذلك ، غير أنها لم تحس بضرورة هذا الأمر الا في اواخر القرن الثاني عشر الهجري ( الثامن عشر الميلادي ) حين شددت عليها القوى الصليبية هجماتها الشرسة وألحقت بها هزائم متلاحقة فظهر لها من أمرها ما لم تكن تعلمه من قبل أو كانت غافلة عنه ، ولكن سلاطين آل عثمان قد أخطأوا في تشخيص الأمراض التي يعاني منها المجتمع المسلم ومن ثم أخطأوا في تقدير الدواء الناجع ، فقد ظنوا أن أسباب ضعف هذا المجتمع وتخلفه إنما هي في مجال التنظيمات فاتجهوا الى الأخذ بأساليب العلم التطبيقي الأوربي وطرائق التنظيم الغربي وبخاصة في المجال العسكري والنشاط الاقتصادي والتنظيمات الادارية ، وقد اتسمت حركة الاصلاحات التنظيمية فسي الدولة العثمانية خلال القرن الثالث عشر الهجري ( التاسع عشر الميلادي ) فشطمت مجالات الحياة المتعددة ومن بينها التنظيم الحربي والاداري ومجال التعليم والثقافة . وإذا كان صحيحا أن المجتمع المسلم في تلك الفترة كان بحاجة ملحة الى الاصلاحات التنظيمية فقد كان قبل ذلك أحوج ما يكون الى الاصلاحات التصورية والعقيدية التي تبنى على أساسها شعور الحياة الانسانية كلها وهذا ما دعا اليه الامام محمد بن عبد الوهاب .

وتعتبر حركة الامام محمد بن عبد الوهاب أول حركة اصلاحية سلفية قامت في العالم الاسلامي خلال عصور الركود والانحطاط ، وهي حركة اصلاحية واجهت الاضمحلال الذاتي والفساد الداخلي الذي يعانيه المجتمع المسلم . ولم تكن رد فعل لخطر الغزو الاجنبي فقد نشأت في ابعد البلدان الاسلامية عن الاحتكاك بالغرب وعن المؤثرات الخارجية كما أن الجزيرة العربية لم تكن في تلك الفترة معرضة للخطر الاوربي المباشر . ولكن حين اشتد ساعد هذه الحركة وصلب عودها ومكن لها في الأرض وقامت لها دولة بسطت سلطانها في أنحاء الجزيرة العربية أصبحت هذه الحركة صيحت الخوف والقلق في قلب أوروبا الصليبية ، فلم تكن تنظر اليها باعتبارها حركة محلية تهدف الى اصلاح الاوضاع المتدهورة القائمة في العالم الاسلامي فحسب بل كانت فوق ذلك تنظر اليها على أنها حركة ثورية خطيرة كان من الممكن أن تجدد حيوية الاسلام وتبعث في المسلمين القوة والحركة والانطلاق ، وفي هذه الحالة لم تكن أوروبا عدو الاسلام اللدود لتترك العالم الاسلامي لتتفاعل قواه الذاتية وتتحرك الحيوية المكونة فيه نحو البناء والتعمير ، فحفظت لتحطيم هذه القوى وخنق هذه الحيوية لتتمكن من اخضاع الكتلة المسلمة للتيارات الفكرية اللادينية الكاسحة والمذاهب المادية الماحقة وسوق المسلمين وراءها بقوة السلاح وأساليب الكيد والمكرر أن لا صا غرين بعد تحطيم سلطانهم وتحويل مقومات حياتهم في حروب صليبية جديدة .

ولقد رأى الامام محمد بن عبد الوهاب أن سبب سوء حال المجتمع المسلم وانهار قوته وتهدم اركان بنائه وماتلا ذلك من الهزائم والمصائب التي أصيب بها المسلمون هو بعد هم وانحرافهم عن حقيقة الدين الاسلامي وتشويهم لفهمهم الصحيح (١) . وقد ظهر ذلك للامام من خلال اتصالاته وتنقلاته الكبيرة فسي



مختلف البلدان الإسلامية حيث وقف على ما كان عليه معظم المسلمين من الانحراف العقيدى متشلا في الاتجاهات العقيدية المنحرفة التي تتجاذب أفكار الناس وتفرقهم شيئا واحدا وتنشر بينهم انواع البدع والخرافات والشركيات والمادات الفاسدة (٢). وكذلك رأى الامام ما يعانيه المجتمع المسلم من الجمود الفكرى والضعف العلمى وما نكب به المسلمون من جراء قفل باب الاجتهاد وانتهاج العلماء طريقة التقليد وما رافق ذلك من التمسبات المذهبية والانقسامات الطائفية ومعاداة اتباع المذاهب بعضهم بعضا، وكذلك ما كان من الاضمحلال السياسى والفوضى الاجتماعية بسبب ضعف الامامة الإسلامية القائمة وتفكك الوحدة السياسية للأمة الإسلامية واعتماد سلاطين آل عثمان وحكام الولايات وأمراء الاقاليم على العادات والتقاليد والأهواء في تصريف أمور المسلمين اكثر من اعتمادهم على أحكام الشريعة وتعاليم الدين الإسلامى وتوجيهاته . وقد أعلن الامام محمد بن عبد الوهاب أن المجتمع المسلم خديق أن يستعبد قوته وعزته بالعودة الى الدين في حقيقته وجوهره وفي شموله واتساع أسسه ومبادئه لجميع شئون الحياة الانسانية . كما فهمه السلف الصالح ، وبازالة مطلق بهذا الدين عبر القرون من الانحرافات التي طمست معالمه المميزة وحولته الى ركام وأخلاق من المقائد الباطلة والعادات الفاسدة والبدع والخرافات المستحدثة ، وكذلك باصلاح الاحوال الفاسدة السقيمة تخيم على المجتمع المسلم وأدت بالمسلمين الى فقد ان عناصر قوتهم ومقومات حياتهم ومميزاتهم الحقيقية .

(١) انظر الشيخ أحمد بن حجر آل ابوطامى آل بن على ، في كتابه الشيخ محمد ابن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية، ص ١٨ - ٢٠ ، فقد ذكر فيه أن في نجد كثيرا من القبور تنسب الى بعض الصحابة وبعض الاشجار والغيران كان الناس يؤمنونها ويستغيثون بها لدفع كروبهم ويسألونها حاجاتهم وساد كبر زيد بن الخطاب في الجبيلة وقبر ضرار بن الأزهر في شعب غبيراء وفحل النخل في بلدة المفتوحة، والغار الذى في الدرعية وكذلك قبر الصحابة وأهل البيت وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحجاز.

وتتلخص دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب في الأمور الرئيسية التالية :-

أولاً : بيان حقيقة توحيد الألوهية وخصائصها وصفاتها ، وحقوق الله تعالى على المبيد، وما ينبغى له من الاجلال والتعظيم والتتزيه . وقد دعا الامام الى تحقيق توحيد الله تعالى في الوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، وافراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة دون شريك وعبادته بما شرع . فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال . فعبادة الله هي طاعته بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه . وقد أنكر الامام ما تسرب الى أذهان المسلمين في مسائل المقيسدة من التصورات الباطلة ومظاهرها في شئون حياتهم المعطية من الشراكيات والبدع - والخرافات كالاعتقادات الباطلة في الأولياء (١) والصالحين الأحياء والاموات والمخلالات في حقهم في التعظيم والاجلال ودعائهم لقضاء الحاجات وتفريج الكربات، والبنائا على قبورهم وكسوتها واسراجها والعبادة عندها والتسجع بها والطواف حولها وكذلك التوسل والاستغاثة والحلف والذبح والنذر لغير الله تعالى ، وليس الحلقة والودعة والخيط لرفع البلاء أو دفعه واتخاذ الرقي والتائم للوقاية والتبرك بالأشجار والاحجار والفيران . وكذلك انكر الامام الكهانة والمياه والتطير والتنجيم وفنون السحر، وبين أن هذه الأمور وأمثالها من مظاهر الانحراف في تصور حقيقة التوحيد وتحقيق مدلوله الواضح . والى جانب ذلك هاجم الامام الفلاسفة والفرق المنحرفة كالقدرية

---

(١) كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى يقر بكرامات الاولياء ويعترف لهم بالحق وأنهم على هدى من ربهم مهما ساروا على الطريقة الشرعية، ولكنهم يؤكّد تأكيداً جازماً أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئاً كأنواع العبادات لا في حال الحياة ولا بعد الممات. انظر رسالة الشيخ لأهل القصيم وكذلك رسالة ابنه الشيخ عبد الله بعد دخول الأمير سعود مكة المكرمة سنة ١٢١٨هـ

النفاة والجبرية والمرجئة والشيعة ونحوها وكذلك أنكر طرائق الصوفية في اتجاهاتها المقيدية كمقيدة الجبر والاتحاد والحلول كما أبطل ادعاءات المتصوفة وتأويلاتهم وشطحاتهم وحول التصريف بحقيقة ألوهية الله تعالى وتوضيح مدلولاتها وخصائصها بين الامام محمد بن عبد الوهاب أن من أخص خصائص الألوهية الحاكية المطلقـسنة، فالله تعالى وحده هو المشرع للمقائد والاحكام وهو الذي يحلل ويحرم فلا مصدر للتشريع الا الكتاب والسنة الصحيحة . فالواجب على المسلمين اقامة الدين واخلاصه لله تعالى وعبادة الله حق عبادته والتمسك بالكتاب والسنة وتطبيق تعاليم الدين ومبادئه وتوجيهاته وتحكيم شريعة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانياً : الدعوة الى فتح باب الاجتهاد والرجوع في كل أمور المجتمع المسلم الى المصادر الاسلامية الأصلية وهي الكتاب والسنة الصحيحة . وقد أوضح الامام محمد ابن عبد الوهاب أن كل مستوف لشروط الاجتهاد له الحق في أن يجتهد حسب فهمه لنصوص الكتاب والسنة على نهج السلف الصالح ، وهو لا يرى ايجاب ما قاله المجتهد الا بدليل تقوم به الحجة من الكتاب والسنة ، وقد أنكر على العلماء التقيد بمذهب معين والتقليد الأعمى والتعصب الشديد لآراء الرجال وكذلك أنكر تقليد أحد غير الأئمة الأربعة لعدم ضبط المذاهب الأخرى وقلة المناينة بتدوينها . وقد أوضح الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب هذه المسألة غاية الايضاح في رسالة كتبها عند دخول الأمير سعود مكة المكرمة سنة ١٢١٨ هـ جاء فيها : " وعرفناهم ( أي أهل مكة ) بأن صرح لهم الأمير حال اجتماعهم بأننا قابلون ما وضحو برهانه من كتاب أو سنة أو أثر عن السلف الصالح . . . وعن الأئمة الأربعة المجتهدين ومن تلقى العلم عنهم الى آخر القرن الثالث . . . وعرفناهم أننا دائرون مع الحق أينما دار وتابعون للدليل الجلي الواضح ولا نبالي . . . حينئذ . بمخالفة ما سلف عليه من قبلنا . . الى أن قال " ونحن أيضا في الفروع على مذهب الامام أحمد بن حنبل ولا ننكر على من قلد الأئمة الأربعة دون غيرهم لعدم ضبط مذاهب الغير ( كالرافضة والزيدية والامامية ونحوهم ) . . . ولا نستحق مرتبة الاجتهاد ولا أحد منا يدعيه الا أنا . . في بعض

المسائل - إذ أصبح لنا نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا مصارفي بأقوى منه وقال به أحد الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب . . . فإذا قوى الدليل أرشدناهم بالنص وإن خالف المذهب وذلك يكون نادرا جدا ، ولا مانع من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض ولا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد المطلق وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفة للمذهب المتزمن تقليد صاحبه .<sup>(١)</sup>

وقد كان الامام محمد بن عبد الوهاب يرى أن قفل باب الاجتهاد مطلقا وركون العلماء إلى التقليد والمضالاة الجافة والتمسك الشديد لأقوال المذاهب وعدم مواصلة البحث والدراسة واستنباط الأحكام ، كل ذلك كان نكبة على المسلمين إذ أضع شخصيتهم المتميزة وأضعف قدرتهم على الفهم والابداع العلمي والانتاج الفكري مما ظهرت آثاره في شتى مجالات الحياة الإسلامية حتى أصبحت الأمة الإسلامية ضعيفة متخلفة راكدة فأنحط قدرها وضعف شأنها وأصيبت بالوهن والذلة بعد أن كانت قوية عزيزة ممكنة في الأرض .

**ثالثا :** دعوة المسلمين إلى توحيد الصفوف وجمع الكلمة لإقامة الإمامة الراشدة التي تسير في جميع شئون المجتمع المسلم وفق منهج الله القويم للحياة الإنسانية . وكان الامام محمد بن عبد الوهاب يعتقد أن حركته الإصلاحية لكي يكون لها القوة والفعالية والتأثير الكبير يجب أن تستند إلى قوة سياسية تتمثل في أمير صالح قوى يقوم بمهام إمامة المسلمين خير القيام في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والتسك بكتاب الله العزيز وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة شعائر الإسلام وتطبيق تعاليمه ومبادئه وتحكيم شريعة الله في المجتمع المسلم وان المسلمين جميعا مسئولون عن السعي في سبيل إقامة الإمامة الصالحة لنصرة الدين

(١) راجع نص الرسالة بكاملها في كتاب " الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية " جمع وترتيب الشيخ سليمان بن سحمان والكتاب يشتمل على خمس رسائل للكبار علماء نجد .

وحمل لواء دعوة الحق وإقامة شرع الله في الأرض ، ومتى ما وجد المسلمون شللاً هذا الإمام فإن الواجب عليهم الانضواء تحت لوائه ومساندته بكل ما يملكون من نفس ونفيس لكي تعود للإمامة الإسلامية قوتها وفعالياتها وتتمكن من أداء مهمتها في إقامة الدين والتعمين له في الأرض وإعلاء كلمة الله فيها فالله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . ومن توجيهات الإمام محمد بن عبد الوهاب في وجوب الجهاد مع أئمة المسلمين برهم وفاجرهم ووجوب السمع والطاعة لهم في المعروف ما جاء في رسالة لأهل القصيم : " وأرى الجهاد ماضياً مع كل إمام برا كان أو فاجسراً ، والجهاد ماض منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطفه جور جائر ولا عدل عادل . وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم ما لم يأمرُوا بمحضية الله . ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به أو غلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته وهرم الغسروج عليه .

أما منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب في حركته الإصلاحية فيتلخص في الدعوة إلى الله بالارشاد والتوجيه والبيان والتعليم في أثناء اجتماعاته بالناس وتنقلاته الكثيرة في مختلف مدن وقرى الجزيرة العربية ، وكتابة الرسائل العلمية لتوضيح حقائق الإسلام والرد على الأسئلة والاستفسارات التي كانت ترد ، فسي مسائل العقيدة وغيرها ، وإلى جانب ذلك ركز الإمام على تربية أتباعه تربية علمية على التزام حقيقة الإسلام وتطبيق مبادئه وتعاليمه وتوجيهاته حتى استطاع أن يكون منهم جماعة مؤمنة تنورت أذهانها وصدت قلوبها وصحت عقائد ها . وقد أطلق الإمام على أتباعه اسم الموحدين (١) ، وهو هؤلاء الإخوان الموحدون كانوا في طليعة

---

(١) ويطلق خصوم هذه الحركة عليها اسم " الوهابية " ليبرهنوا للناس أنها بدعة جديدة خارجة على مبادئ الإسلام منكرة للمذاهب ، لا تحب النبي والصالحين .. وذلك كله لتضليل الناس وتنفيرهم منها ، ثم جرى على استعمال هذا الاسم المستشرقون في كتاباتهم . وأما أعداء الدعوة من الترك وغيرهم فكانوا يغالون في ذلك ويطلقون على أتباعها اسم " الروافض والخسواج " انظر كتاب الدولة السعودية الأولى ، لعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ص ٢٤ - ٢٥ وكذلك كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية " للشيخ أحمد بن حجر بن محمد آل أبو طامي ص (٥)

الذين استجابوا لدعوة الامام حين نادى بالجهاد في سبيل نصرته الدين والدعوة الى التمسك بالكتاب والسنة واقامة دين الله وشرعه والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر عقيدة التوحيد الخالصة وازالة البدع والخرافات والشركيات والمعادن الفاسدة عندما قيض الله لحركته الأمير محمد بن سعود الذي آزره في نشاطه في نشر الدعوة وأمد حركته بالقوة السياسية والعسكرية . ولقد عمل خصوم دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب كل ماوسعهم من كيد ومكر لاستثارة القلوب وحشد القوى لمحاربة الدعوة بكل الوسائل والأساليب (١) ، ولجأوا الى قوة العنف والبغى والجور والاعتداء على صاحب الدعوة وأتباعه ، ونقض بمضهم المهادنة تلومرة ، ورصد الجميع العراقيين والمقباط في طريق الدعوة ولم يكن هنالك من بد من اعلان الجهاد ضد هم لازالة الموائق والمقبات المرصودة في طريق الحركة حتى تصل دعوة الحق الى المسلمين لاعادتهم الى صراط الله المستقيم ودينه الخالص الذي لا تشوبه شوائب الشرك والبدع والخرافات والمعادن الفاسدة . ولئن كان استناد الحركة الى هذه القوة السياسية وقيامها بالجهاد في سبيل الله لنشر دعوة الحق في الآفاق قد أتاح لها قوة التأثير وسرعة الامتداد والتوسع في داخل الجزيرة العربية فقد جعل أعداء الدين وخصوم الدعوة من الزعماء المحليين ذلك مرتكزهم الأساسي لشن الهجوم على الحركة وتشويه صورتها وكييل

---

(١) راجع رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى السويدي أحد علماء العراق ، ففيها ذكر الشيخ أن الرؤساء جعلوا قد همهم وعداوتهم فيما أمر به من التوحيد ونهى عنه من الشرك ولبسوا على الموم أن هذا خلاف ما عليه أكثر الناس ونسبوا الى الشيخ انواع الفطريات فكبرت الفتنة وأجلبوا على الشيخ وجماعته بخيل الشيطان ورجله ، وكان من مقترياتهم اشاعة البهتان أن الشيخ يكفر جميع الناس الا من اتبعه وأنه يزعم أن انكحتهم غير صحيحة الى غير ذلك ، واقرأ كذلك كتاب " تاريخ نجد " لمحمود شكرى الألوسى للاطلاع على المناظرة التي جرت حول افتراءات الخصوم على دعوة الامام بين داود بن جرجيس البغدادي العراقي والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن أحد علماء نجد ومؤلف كتاب " منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس " . في " تاريخ نجد " ص ٤٩ - ٨٧ .

الاتهامات وتلفيق الاكاذيب لاستشارة الدولة المثمانية ضدها . ولقد اكسدت ادعاءات الاعداء والخصوم لدى الباب العالي في الاستانه وأثار المخاوف في قلبه ما حققته هذه الحركة من انتصارات عظيمة خلال فترة قصيرة من الزمن حيث انتشرت دعوتها في الافاق وامتدت قوتها السياسية في أرجاء الجزيرة العربية حتى شملت مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم شرعت في توسيع رقعة دولتها الى خارج الجزيرة فوصل سلطانها فعلا الى عمان وبدأت ترسل جيوشها لفتح العراق ومصر والمدن في أطراف الشام ، وهند ذلك أيقن الباب العالي بصدق ما يروج ضد هذه الحركة فحشد القوى وعبا الجيوش الجارة (١) لاضمار هذه الحركة وتحطيم هذه القوة الاسلامية الفتية قبل أن تتجاوب أصداء دعوتها في أنحاء العالم الاسلامي ويستفحل خطرهما .

ولكن الأسس الفكرية التي تستند اليها هذه الحركة وتعمل جاهدا لبثها في الافاق كانت من الأصول والعمق والقوة بحيث لم يكن بإمكان القوى المعادية أن تسحقها في ميدان الفكر والثقافة كما سحقت القوة السياسية التي كانت تدعما في ميدان القتال . وهكذا أخذ الجانب الفكري من هذه الحركة يمتد الى أنحاء العالم الاسلامي (٢)

- 
- (١) لقد أصدرت الدولة المثمانية أمرا لواليتها على مصر محمد علي باشا بتجهيز الجيوش لمحاربة قوة الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد ، واستجاب الوالي للأمر فجهز جيشا عرمرما بقيادة ابنه ( طوسون ) ثم ابنه ( ابراهيم ) سنة ١٢٢٦ هـ وقد انكسر الجيش المصري عدة مرات أمام قوة الأمير سعود الا انه استطاع أن ينتصر في نهاية الامر سنة ١٢٣٣ هـ .  
راجع كتاب " محمد بن عبد الوهاب " لأحمد عبد الغفور .
- (٢) وقد أنتشرت الدعوة الى عمان والعراق والشام والهند وجاوة ، وفي شمال افريقيا في ليبيا والجزائر والسودان ومصر وفي بلاد غرب افريقيا وكذلك في فارس وغيرها .

فتأثر رواد الحركات الإسلامية التي قامت في بعض الأقطار الإسلامية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ( القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين ) بما أمدتهم هذه الحركة الرائدة من إشعاع إيماني ومدد فكري ومنهج إصلاحى وروح جهادية جياشة دفعتهم إلى الحركة والانطلاق في سبيل الإصلاح ، فجاءت حركاتهم الإصلاحية صدى لحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب وامتداد طبيعيا لخط التجديد لحيوية الإسلام وقوته وإصلاح حال المجتمع المسلم ، وهكذا كانت هذه الحركات الشعلة الأولى لليقظة الإسلامية الحديثة في العالم الإسلامى كله .

• • •



## المبحث الثاني :

### حركة الامام محمد بن علي السنوسي الكبير (١)

لست بحاجة الى تكرار ماقلته سابقا في وصف حالة المجتمع المسلم فترة قيام حركة الامام محمد بن عبد الوهاب ، وسأنتقل من ذلك المنعطف التاريخي للأمة الاسلامية في عهود انحطاطها وتدنيها مكثفيا بالقول هنا بأن الحالة المدهورة التي كان يعيشها المسلمون منذ قرون طويلة قد أخذت تزداد سوءا على سبيل الزمن حتى بات مجتمعاتهم عند قيام حركة الامام محمد بن علي السنوسي يتقلب

(١) من أصل جزائري ولد في بلدة مستغانم بالجزائر سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) وهو من أسرة ذات شهرة ذائعة في مجال العلم والدعوة . كان محبا لتلقي العلم مولعا بالدراسة والاطلاع . وقد حفظ القرآن الكريم كاملا منذ صغره والتحق بأحد معاهد بلدة فازون ، ثم بعد ذلك رحل الى مدينة فاس بالمغرب وأقام بها سبع سنوات ، ودرس العلوم الاسلامية في جامع القرويين ، وكان في نفس الوقت يتتلمذ في التصوف في زاوية "عين مهدي" على الشيخ احمد بن محمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية . وقد قام بزيارة بعض البلدان الاسلامية مثل مصر واليمن وبلاد الحجاز ، وكان يتنقل بين مختلف مدن ليبيا من برقة وطرابلس وبنى غازي والكفرة وغيرها . وقد تردد على مكة عدة مرات والتقى خلالها بعلمائها ، ومكث في زيارته الأولى لها نحو ست سنوات وفي الثانية ثماني سنوات ولم يلبث طويلا في الثالثة . كانت للامام السنوسي جهود جبارة في سبيل الدعوة والاصلاح آتت ثمارها الطيبة في الساحل الشمالي من افريقيا وبخاصة في ليبيا والمغرب والسودان والمناطق الواقعة في جنوب الصحراء الكبرى . توفي رحمه الله تعالى عام ١٢٧٦ هـ ( ١٨٥٩ م )

راجع الطيب الأشهب ، في كتابه " السنوسي الكبير "

ص ٧ وما بعدها .

في أدراج الهبوط والانحدار والضعف دينيا واخلاقيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا ، فتفرقت الامة الاسلامية شيئا وأحزابا وطوائف لا تجمعها كلمة ولا تضمها راية ، ووطخت الانقسامات المذهبية والتعميمات الطائفية على روح الوحدة والترابط والأخوة وشغلت المشاحنات والخصومات والنزاعات تفكير المسلمين ونشاطهم وتصرفاتهم أكثر مما شغلهم السعي الجاد لخير الاسلام والامة الاسلامية وكان فهمهم للدين لا يعدو اعتباره دعوة الى التواكل والخمول والانزواء عن الحياة العملية وانه مجموعة من المعادات والتقاليد والمعتقدات الباطلة أو أنه مذهب امام أو طريقة شيخ أو خرافة دجال أو منجم . وكان من نتائج ذلك أن ضعفت قوة المسلمين وانهار سلطانهم واصطلحت عليهم عوامل الضعف والوهن والفتور فغلبوا على أمرهم في كل مكان وتمرض العالم الاسلامي لهجوم أجنبي كاسح وأخذت المقاطعات والمدن تذهب من أيدي المسلمين الى يد عدوهم الذي تأججست نار الحقد الصليبي في قلبه فأقبل بخيذه ورجله يريد الانقضاض على العالم الاسلامي في حروب صليبية مدمرة . وهكذا أهدق الخطر الصليبي الماكر بالعالم الاسلامي يسعى لسحقه وتحطيمه دون أن تملك الدولة العثمانية - زهيمه العالم الداخلي - له دفاعا فقد تضرعت قوتها وأصبحت عاجزة عن اصلاح الاضمحلال الداخلي وحماية الامة من الاعتداء الخارجي ، ثم ازداد ضعفها مع مرور الايام وأخذت تسرع الخطى نحو الأفول والزوال حتى خضعت شوكتها وحطم سلطانها فذهبت ريحها في نهاية الامر في أواسط القرن الرابع عشر الهجري ( أوائل القرن العشرين الميلادي ) .

لقد تعرضت الجزائر لهجوم جيوش الاستعمار الفرنسي فسقطت تحت نير الاحتلال سنة ١٨٣٠م وبعد هذه الكارثة المفجعة خرج الامام محمد بن علي السندوسي من البلاد قاصدا مكة في زيارته الثانية لها عام ١٢٥٠هـ - ١٨٣٣م ومر في طريقه اليها ببعض الأقطار الاسلامية وتعرف على أحوال المسلمين فيها ، وقد آلمه كثيرا ما انطبع على المجتمع المسلم من الضعف والوهن والانحلال فمقصد

المزم على الإصلاح ورسم الخطة لتنظيم حركة اصلاحية تميد القوة الى المسلمين وتصلح مافسد من احوال مجتمعتهم وتمكنهم من الانتصار على اعدائهم . وفي أثناء عودة الامام السنوسي الكبير من رحلته الطويلة الى بلده بلغه أن الفرنسيين قد استولوا على جميع مقاطعات الجزائر واحكموا قبضتهم عليها بعد أن طوقوا جيوش المقاومة الشعبية التي كان يتزعها السيد عبد القادر الجزائري وقتلوهم شرقتة في مسارك بربرية دامية ، ولم يستطع الامام السنوسي الكبير دخول الجزائر فرجع الى طرابلس ومنها الى برقة ثم بنى غازي .

لقد رأى الامام محمد بن علي السنوسي عند بدء حركته أن ينحزل في الصحراء ليتجنب بقدر الامكان الاصطدام بالسلطة العثمانية التي كانت بعهد حركة الامام محمد بن عبد الوهاب تتحسس من الحركات وتوجس فزعا من الانتفاضات الشعبية لأن اصابع الحقد الصليبي والمكر الصهيوني ومغزى مرضى القلوب ممن الزعماء المحليين كانوا يصورون لها الحركات الاصلاحية في صورة ثورات تمرد لشق عصا الطاعة ومحاولة الانفصال عن سلطان آل عثمان وذلك لتحريضها على خنقها وتحطيمها في مهدها حتى لا تتمكن من تحقيق أهدافها السامية في تجديد الحياة الاسلامية وحياتها . وكذلك رأى الامام السنوسي الكبير أن يتجنب مناطق نفوذ الدول الاستعمارية لكي يتمكن من تنفيذ خطته وبرامجه ومواصلة عملية الاعداد والتكوين في أجواء هادئة بعيدا عن مواقع قوة العدو وحتى لا يستثار للمقاومة والمواجهة في وقت مبكر قبل أن يستكمل أدار خطته ويخرج جماعة مسلمة قوية مجاهدة تضطلع بأعباء العمل الاسلامي بايمان عميق وعزيمة صادقة وجهاد كبير . وهكذا نرى ان حركة الامام محمد بن علي السنوسي مع كونها حركة سلفية اصلاحية في حد ذاتها تدعو الى الرجوع الى الحياة الاسلامية الصحيحة فقد كانت الى جانب ذلك رد فعل غير مباشر ضد الخطر الاجنبي ، فالامام السنوسي كان يحس بخطر توغل الفرنسيين الاجنبي وامتداد نفوذ الاستعمار الصليبي في أنحاء ديار المسلمين فاختر لمقامه صحراء برقة في أول الأمر ، ولما خاف من افارة الايطاليين على جماعته أوغل بمركزه

في واحة جفبوب لكي يتمكن من الاعداد للإصلاح الداخلي وإزالة عوامل الضعف  
والاضمحلال التي أدت الى ذهاب قوة المسلمين وسلطانهم وهزيمتهم النكراء أمام  
قوة أعدائهم .

وتتلخص مبادئ دعوة الامام محمد بن علي السنوسي في الأمور الآتية :-

### أولاً :

دعوة المسلمين الى العودة الى الاسلام بفهمه الصحيح الشامل المستمد  
من كتاب الله العزيز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والسير في ذلك على نهج  
السلف الصالح من هذه الأمة حيث انه لن يصلح آخر الأمة الا بما صلح  
به أولها . ولم يكن الامام السنوسي يقتصر في دعوته هذه على جانب الشمائير  
التعبدية والتصوف والتطهر النفس والاخلاقي أو الناحية الروحية والاخلاقية  
من الحياة بل دعا الى الاسلام باعتباره منهجاً متكاملًا لشئون الحياة الانسانية  
في جميع مجالاتها ، من أجل ذلك كان تأكيده على أهمية الجانب المادي المسمى  
جانب الناحية الروحية والاخلاقية من الحياة وتشجيعه أتباعه على العمل والكسب  
والإنتاج وجعل الزوايا التي أقامها منابع للحياة الروحية والعلمية والسياسية والزراعية  
والتجارية والإصلاح الاجتماعي . (١) وبذلك نرى أن دعوة الامام محمد بن علي  
السنوسي الى العودة الى الاسلام في صورته الصحيحة لا تقتصر على جانب التطهر  
النفسى بالاذكار والعبادات الفردية وغيرها بل تشمل تطبيق تعاليم الاسلام  
وتوجيهاته في جميع جوانب الحياة الانسانية بما فيها الناحية الروحية والتعبدية  
والأخلاقية والسلوكية والمادية . وقد بنيت الحركة السنوسية على أسس العقيدة  
الاسلامية الخالصة وروعي التطبيق العملي الصحيح لهذه الأسس والقيم فـ في

---

(١) انظر د . محمد البهي " الفكر الاسلامي في تطوره " ص ٥٤ وما بعدها

تنظيم شئون حياة الناس في الزوايا ، وكان الامام السنوسى يرى أتباعه على صفا<sup>١</sup> النفس والتطهر الأخلاقي والالتزام بتعاليم الاسلام وتوجيهاته الى جانب صقل عقولهم وتنمية مداركهم بعلوم القرآن الكريم والسنة الصحيحة ونشر الوعى الصحيح بينهم .

**ثانياً:** الدعوة الى التمسك بالحقيدة الاسلامية الصحيحة المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واخلاص العبودية لله وحده لا شريك له واقامة الدين على حقيقته دون زيغ ولا انحراف ولا تطرف . وقد أنكر الامام السنوسى ما نفى بين المسلمين من البدع والخرافات والعمادات والتقاليد الجاهلية والمعتقدات الباطلة كالفلو في تقديس المشايخ الأحياء والاموات ورفعهم الى المنزلة التي لا يعلمون اليها ، والبدع التي يحدثها بعض الناس عند قبور الأولياء والصالحين وأضرحتهم من دعائهم لجلب النفع ودفع الضر ، والتبرك بالقبور والقباب والتسبح بها وما الى ذلك من الأمور البدعية التي يتشدق بها الجهال ويعتقدون أنها من جوهر الدين . وعلى الرغم من أن الامام السنوسى الكبير قد تأثر بالنزعة الصوفية بسبب طامه بدراسة التصوف وتعرفه على بعض الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية وغيرها وتتلذذ على الشيخ أحمد بن محمد التيجانى صاحب الطريقة التيجانية في زاوية " هين مهدى " أثناء اقامته بمدينة فاس ، وان اتجاهه الصوفى قد برز بجلاء في مؤلفاته (١) ، وفى منهج التربية النفسية والتطهر الوجداني والأخلاقي الذى سار عليه في تكوين أتباعه وفى أسلوب الزوايا المتبع في حركته فقد كان صوفياً معتدلاً لم يشتط في صوفيته ، وكان ينتقد بشدة انحرافات المتصوفة واعتقاداتهم الباطلة وشطحاتهم كما كان ينكر حياة العزلة

(١) وبخاصة كتابه " السلسيل المعين في الطرائق الأربعين " وكذلك كتابه المسائل المشتركة وهو المعروف بكتاب بنية المقاصد وخلاصة المرامد .

والخمول والاستجداء التي كانت طابع أغلب الطرق الصوفية المتطرفة . يقول الدكتور محمد البهي : " وفي كتاب " السلسبيل الممين في الطرائق الأربعين " وهو على هامش كتاب " المسائل العشر " ( وكلاهما للامام السنوسي ) تحدث السنوسي عن الطرق الصوفية ووصف الطريقة المثلى التي رضى بها والتي عرفت بنسبتها اليه ، وحى طريقة تقوم على البساطة في التعبير وقت العظة وتستند في وصاياها السنية آيات القرآن الكريم وتذكر العظة وتقرنها بالآية القرآنية ، وما في العظة هو معنى الآية مبسطا . كما تقوم هذه الطريقة على دعوة التعاون والأخوة والتماسك والاجتماع التي تهينها الطرق الأخرى للذكر والدعاء توجهها " الطريقة " السنوسية في عمل تعاوني كاطعام الفقراء واستقبال الوافدين وكرامهم وتوجيههم نحو المحبة والصفاء ، وقد أبعد السنوسي الكبير من طريقته التي اختارها الحديث عن كرامات الأولياء وخوارق العادات وميزات " المتقدمين " والمريدين " واستمسك عن ذلك بالحديث عن " أحذية الله " ورعايته لخلقه . . . كانت طريقته تدريباً عملياً لتصفية النفوس ومحبة بعضها لبعض طبقاً لمنهج الاسلام القويم . . وميزة طريقته انها وجهت خصيصة الطرق الصوفية في الاجتماع الاسبوعي الى غاية عملية ثمرة لاشعونة فيها ولاجل والحديث فيها هو الحديث عن الله جل شأنه ومن كتابه ولا يذكر فيها انسان آخر من شيوخ الطريقة ومقدميها . . (١)

### ثالثاً :

الدعوة الى فتح باب الاجتهاد وانكار التقيد بمذهب ممين والزكون السني التقليد والتعصب الأعني للمذاهب الفقهية المختلفة ، وقد نعى على العلماء تقديسهم لاراء الائمة المجتهدين على دلالات الكتاب والسنة الصحيحة ودعا هم الى وجوب اتباع نصوص الكتاب والسنة وتقديم دلالاتها على أقوال المجتهدين

(١) كتاب الفكر الاسلامي في تطوره ، ص ٩٤ - ٩٥ .

كما أنكر أيضا انحصار التقليد في المذاهب الأربعة دون غيرها . وقد كان  
 الامام السنوسى مولعا بالدراسات الفقهية ولم يترك التجمد عند الحدود التى انتهت  
 اليها المذاهب الفقهية القائمة وكان ينكر القول الشائع بأن الاجتهاد قد انقطع  
 بالاجماع ، ويدعو الى مواصلة البحث والدراسة لاستنباط الاحكام للأمور المستجدة  
 في حياة الناس من المصدرين الاصليين الكتاب والسنة الصحيحة على نهج  
 السلف الصالح . وقد أوضح الامام السنوسى الفرق بين الاجتهاد والتقليد وبين  
 أنواع الاجتهاد والمجتهدين ، وسط شروط الاجتهاد ليعين للناس أن الاجتهاد  
 ليس حجرا على المتقدمين فقط بل كل مستوف لشروط الاجتهاد في أى عصر لسه  
 الحق في أن يجتهد في استنباط الاحكام من نصوص الكتاب والسنة الصحيحة  
 حسب فهمه مادام يسير في ذلك على نهج السلف الصالح . (١)

#### رابعاً :

دعوته الى الجهاد بأنواعه المتعددة من جهاد النفس بالتربية الروحية  
 والمعنوية والالتزام بالاسلام عقيدة وعبادة وسلوكا ، ومجاهدة الامواء والنزعات  
 وتماليه وروحه وجهاد المدول نشر الاسلام  
 والتقاليد والمعاداة المتنافية مع عبادى الاسلام / بين القبائل الوثنية والتصدي  
 لعدوان قوى الاحتلال الصليبي التى نزلت بساحة الاسلام واعتدت على المسلمين  
 وعرضتهم للذل والهوان واستولت على بلادهم . وكان الامام السنوسى يؤمن ايحانا  
 راسخا بوجوب البدء بالاصلاح الروحى والتغيير الوجدانى والاخلاقى قبل  
 أى محاولة لاصلاح احوال المسلمين السلوكية المتدهورة ، كما كان يرى وجوب اعداد  
 العدد اللازمة معنويا وماديا قبل التصدي لمواجهة المد ووقته . وانطلاقا  
 من هذا المبدأ سار الامام السنوسى في تنظيم حركته على منهج التربية الصليبية  
 الشاملة لتكوين العناصر الصالحة التى تضطلع بمهام الدعوة الاسلامية وتتأهل

(١) انظر محمد فواد شكرى ، السنوسية دين ودولة ، ص ٣ وما بعدها .

لاداء الدور القيادي الذي أنيط بالمسلمين من أجل اسعاد البشرية ونشر الخير والفضيلة في العالم . وكان التركيز في عملية التربية على الناحية الروحية والفكرية ثم تتبعها الناحية الاخلاقية والسلوكية والاصلاح الاجتماعي ، وجانب التدريب البدني والاعداد الحربي . وكان الامام السنوسي يهدف بهذه التربية العملية الشاملة الى تحقيق الأمور التالية :-

أولاً : تكوين الفرد المسلم وتنشئته على تعاليم الاسلام وعبادته وأخلاقياته ، وتخليصه من شوائب الشرك ورواسب الجاهلية من الاوضاع والمعادن والتقاليد حتى يكون طاهر النفس نقي السريرة يمرف الله حق معرفته ويمعبده حق عبادته ويستحضر عظمته وجلاله في كل حين ويتوجه اليه بكل نشاطه في الحياة ويصدر في أعماله وتصرفاته عن أمره ويحمل جهده ألا يحيد عن هديه وتوجيهاته قدر الاستطاعة ، ويستعلى بالايمان على كل أوضاع الارض لا يثنيه عن الحق شئ مهما لقي في سبيل الله من الأذى والشدائد والمحن والمكائد من جانب أعداء دينه .

ثانياً : اقامة نماذج من المجتمع المسلم يتكون أفراد من العناصر الصالحة التي اجتازت مرحلة التكوين الاولى ، وكل من عنده استعداد للانضمام الى هذه الجماعة المؤمنة ويلتزم بطريقها ويسير سيرها في الحياة . فالاصلاح الفردي ليس الا خطوة أولى يقصد من ورائها توفير النواة الصالحة واعداد البنات القوية لبناء المجتمع المسلم الذي يفهم أفراد الاسلام فهما صحيحا ويسيرون على هدى الله ومنهجه وشريعته في جميع شئون حياتهم ثم يهيئ لهم بعد ذلك بمهمة الاصلاح في أنحاء العالم الاسلامي لاعادة القوة والسلطان الى المسلمين . وان الهدف من اقامة الزوايا هو لتكوين اجيال اسلامية صالحة يربي أفرادها تربية عملية على أصول الايمان وتعاليم الدين وأخلاقياته، واخراج جماعة مؤمنة قوية مترابطة متساندة متضامنة . وكان يتولى مهمة الاعداد والتكوين والتوجيه



في الزوايا الى جانب الامام السنوسي مجلس يسمى مجلس " الاخوان " .

ثالثا : العمل على انكاس روح الجهاد وتنشيط الحماسة الدينية في نفوس أفراد هذا المجتمع المسلم الجديد لينطلقوا في موكب الجهاد لحماية بيضة الدين وصد المدوان والعمل على نشر دعوة الاسلام في الآفاق ، ورغم أن حركة الامام السنوسي لم تشترك مع قوى الاحتلال في ميدان القتال كما فعلت حركة السيد عبدالقادر الجزائري فقد وفرت العناصر والنماذج الصالحة من الدعاة والمجاهدين الذين ملثوا بالحماسة الدينية المتوهجة وشحنوا بروح الجهاد فكانوا الطليعة المؤمنة التي انطلقت في أنحاء الشمال الافريقي وفي مناطق جنوبي الصحراء الكبرى تدعو المسلمين الى العودة الى الدين الحق وتبصث في قلوبهم روح الجهاد وتضطلع بدور القيادة والتوجيه في أعمال المقاومة التي قامت لمواجهة قوى الاحتلال الصليبي ، وقد رأينا كيف تحولت الزوايا السنوسية الى مراكز عسكرية ينطلق منها الجنود المتطوعون لمقاومة حملات جيوش الاستعمار الايطالي في هجومها الكاسح لاحتلال ليبيا عام ١٩١١ م .

وأما طريقة الامام السنوسي في تنفيذ برامجها الصلاحية وخطته التربوية فقد اتبع أسلوب اقامة الزوايا ونشرها في أرجاء العالم الاسلامي . وأول زاوية أنشأها الامام السنوسي هي الزاوية البيضاء المقامة في وسط الجبل الأخضر ببرقة عام ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٣ م فكانت أم الزوايا والمركز العام لدعوته ، ثم انتقل الامام السنوسي من برقة الى واحة الجنبوب لاهميتها الجغرافية وأسس بها زاوية مركزية كبيرة كانت الزاوية النموذجية في حركته من حيث اختيار موقعها وكثرة مؤسساتها والمشاركة العملية الممتازة من جانب الطلاب والاخوان في تنظيم شؤون الزاوية . وقد استقر الامام السنوسي في هذه الزاوية ، وعكف فيها على الدعوة والتوجيه والتعليم وتأليف الكتب وتلقين أتباعه طريقته الصوفية لانهماش حياتهم الروحية ، وأنشأ بها مدرسة كبيرة تضم نحو ثلاثمائة طالب كما أقام فيها



ويكون له وكيل يتولى الاشراف على شئون الدخل والخرج وينظر في الشئون الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها . ولكل زاوية شيخ يؤم الناس فسي الصلاة ويقوم بتعليم الطلاب والاتباع المعلوم الاسلامية وتدريبهم على الفروسية والرمية وغير ذلك من فنون القتال ، والى جانبه شيوخ آخرون يسمون " الاخوان " يتعاونون جميعا في الدعوة الى الله وارشاد الناس وتوجيههم الى طريق الحق وتربيتهم على تعاليم الاسلام وأخلاقه . (١)

---

(١) انظر محمود الشنيطي ، قضية ليبيا ص ٣٦ ، وما بعدها . وقرأ كذلك كتاب " السنوسية دين ودولة للدكتور محمد فؤاد شكرى .

المبحث الثالث :

## حركة الامام محمد أحمد بن عبد الله المهدي (١)

ان حركة الامام محمد أحمد بن عبد الله المهدي قد تبدت ولأول وهلة حركة خارجية عن دائرة حركات البعث الاسلامي التي نهضت للتجديد والاصلاح والبناء على الأسس والمبادئ الاسلامية الاصيلية وبخاصة حين ينظر الى الأساس الذي استند اليه صاحب هذه الحركة في اثبات شرعية إمامته وقيادته للأمة الاسلامية ان هذا الأساس لا يعدو مجرد دعوى ادعاها لا تزال لنفسه منزلة لا يحلو اليها ولم ينزله الله فيها وقوام دعواه هذه أنه هو المهدي المنتظر

(١) ولد الامام محمد أحمد بن عبد الله سنة ١٨٤٥م ، ذكر الاستاذ الصادق المهدي في كتابه "يسألونك عن المهديّة" ص ١٥٨ أن الامام المهدي كان معروفًا منذ صباه بالصدق والامانة والزهد والتقوى والورع ولم يختلف أحد من أقرانه ممن ناصره أو عاداه في وصفه بتلك الصفات . وقد أبدى اهتماما كبيرا بتلقي العلوم الدينية ، فتعلم التراوة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ثم رحل الى الخرطوم واستقر فيها فترة من الزمن تلقى خلالها على أيدي علمائها علم الفقه والحديث والتفسير والتصوف . ثم تصرف على الطريقة السمانية وأخذ اهتمامه بها يزداد يوما بعد يوم حتى أصبح عضوا بارزا فيها . ثم انحاز الى جزيرة أبا في النيل الأزرق حيث عكف على المباداة والتدريس والدعوة . ثم انتقل من هذه الجزيرة الى كردفان التي اختارها مقر اقامته ومركز دعوته ، وفيها أعلن عن بدعته وأخذ يجمع الناس حوله ، ولقد لقي التأييد والموايزة من قبيلة البقارة . ذكر الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه "الاسلام في القرن العشرين" ص ١٥٩ "ان دعوته الاولى كانت باسم الامام الثاني عشر الذي يترقبه الشيعة الاماميون" . وفي سنة ١٨٨١م أعلن أنه المهدي المنتظر ، وقد أطلق على اتباعه اسم "الانصار" ، ولكنهم كانوا يعرفون عند خصوصهم باسم "الدرابيش" توفي الامام المهدي عام ١٨٨٥م وتولى امر بعده ساعده الايمن في حركته وجهاده عبد الله ابن محمد التمايشي .



الاسلامية من آثار هذه الأوضاع السيئة المتفشية من الانحراف الديني والاضمحلال السياسي والفساد الأخلاقي والركود الاقتصادي والتخلف الاجتماعي والضعف الفكري والعقلي والعلمي والفنوي والاجنبى المخطط ومحاولاته في فرض السيطررة واحداث تحول جذرى في شئون البلاد (١) .

وفي وسط هذه الأوضاع المتعددة قامت حركة الامام المهدي في السودان تهدف أولا الى تخليص السودان من تسلط الحكم المصرى الموالى لقوة الاستعمار البريطانى ثم تخليص مصر من كيد هذا الاستعمار الذى كان يحرض مصر على الانفصال عن سلطان الدولة العثمانية ويشجعها على الاستقلال بكل ماأوتى من كيد وحيلة حتى يتمكن من احكام قبضته عليها وخنقها بعد ذلك ، وكذلك تهدف هذه الحركة الى انقاذ العالم الاسلامى من سيطرة السلاطين العثمانيين ورفع الظالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يمارسونها فى رعاياهم المسلمين (٢) ، ثم ايجساد

- 
- (١) راجع عباس محمود العقاد ، الاسلام في القرن العشرين ، ص ١٦ - ١٧  
 (٢) ويشمل ذلك فرض الضرائب الثقيلة على المسلمين وسوء الاساليب المتبعة فى جمعها وتسلط الامراء والمحال على رقاب الرعايا ، وضعف الوازع الدينى فى نفوس السلاطين والامراء ولم يكونوا يمثلون الاسلام تشيلا حقيقيا كاملا فى شئونهم الخاصة والعامة ولم يكونوا يطبقون شرع الله بل اتخذوا قوانين وضعية بدل الشريعة المنزلة واستباحوا حرمان الدولة الاسلامية للأجانب من اليهود واليهود والنصارى ( اقرأ كتاب تاريخ السودان لنعيم شقير وكذلك كتاب الحركة الفكرية فى المهديية للدكتور محمد ابراهيم ابوسليم ) . قال الامام المهدي فى منشوره بتاريخ ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م) عن السلاطين العثمانيين : " ان هؤلاء الترك لما بسط الله عليهم النعم ومد لهم فى العمر وطول المافية ظنوا أن الملك لهم والأمر بأيديهم وغالفوا أمر الله وأنبيائه ومن امرهم بالاعتداء بهم وحكموا بغير ما أنزل الله وغيروا شريعة سيدنا محمد وسبوا دين الله ووضفوا الجزية فى رقابكم مع سائر المسلمين وكل ذلك لكم بآمرهم به الله ولا رسوله ومع ذلك أمهلهم الله وسط عليهم النعم فلم يتفكروا حتى خذلهم الله وسلبهم ثوب الملك والهيبة بتعديهم حسدود الله " ( من كتاب " يسألونك عن المهديية " للاستاذ الصادق المهدي ، ص ١٢٤ ) .

قيادة اسلامية قوية تبسط سلطانها على الرقعة الاسلامية الفسيحة وتوحد الأمة الاسلامية بعد تفرق وتمزق، وتحمل مسئولية احياء الدين وتجديده وتتصدى لهجوم المد والماكر وصد عدوانه المخطط للسيطرة على العالم الاسلامي وتدبير قوة الاسلام وسلطان المسلمين . ويبدو أن انتشار فكرة قرب ظهور المهدي بين المسلمين خلال هذه الفترة المصيبة في المجتمع السوداني بوجه خاص وفي غيره من المجتمعات الاسلامية بوجه عام كان عائدا الى تفشي السخط والاستياء والضجر والسآمة من الأوضاع السيئة القائمة والنكسات المتعاقبة وبالتالي التطلع الطمح للخلاص من سوء الحال وقيام وضع أفضل فيه سلامة الدين وقوته وعدالة الحكم ونفاذ شرع الله ورد الكرامة والعزة السلبية الى المسلمين ، وذلك استنادا الى ماورد في تسميات الاسلام من أدلة كثيرة صحيحة حول ظهور امام أو امير من المؤمنين يوحدهم بعد تفرق وتمزق ويمكن الله له في الارض لاهياء دينه وتحقيق العزة والسيادة للمسلمين .

وتتلخص دعوة الامام محمد احمد عبد الله في هذه المبادئ الأساسية

### الثلاثة الاتية :-

أولاً :- الدعوة الى العودة الى حقيقة الاسلام بمفهومه الصحيح الشامل وتطبيق مبادئه وتعاليمه وتوجيهاته في شئون الحياة البشرية كلها واقامة شرع الله في الأرض . وقد دعت هذه الحركة الى تصفية العقيدة الاسلامية معانق بها من البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة والعادات والتقاليد المخالفة لتعاليم الدين . وقد أتكراه الامام المهدي ادعاء أحد الوساطة بين الخالق والمخلوق وكذلك اتخاذه الجاهل بصير الأولياء وسطاء بينهم وبينهم وأوضح أنه لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يضمن السلامة والنجاة لغيره في دنياه وآخرته عن طريق الأحبسية المكتوبة والبركات المنسوبة أو غيرهما من الأمور التي يتشدد بها الجاهل الأدياء (١) .

(١) راجع الاستاذ الصادق المهدي ، "يسألونك عن المهدية" ص ١٦٥ .

وكذلك منع الاستمادة (١) والاستفاضة بغير الله تعالى وأبطل جميع أعمال السحر والشعوذة والرقى والتائم والحلف بغير الله تعالى وما إلى ذلك .

ثانياً : الدعوة إلى أحياء الإسلام ببحث الكتاب والسنة المجهوريين  
وفتح باب الاجتهاد، والاستمداد من هذين المصدرين الثقلين في استنباط الأحكام حسب فهم المجتهد للنصوص وما تقتضيه أوضاع الأمة وظروفها وأحوالها المستجدة في الحياة من دون التزام أو تقيد بمذهب معين وذلك اتباعاً لنهج السلف الصالح في استقاء الأحكام الموائمة لظروف عصرهم وأحوالهم الخاصة من نصوص الكتاب والسنة مباشرة . وقد حاول الإمام المهدي التوفيق بين المذاهب الفقهية المختلفة وكان ينظر في أدلة الأحكام من نصوص الكتاب والسنة ويطبقها على أحوال الناس وظروفهم حسب فهمه مسترشداً بطريقة السلف في ذلك ، وهكذا جاءت الأحكام التطبيقية التي استنبطها الإمام المهدي في فروع الدين غير مقلدة لمذهب معين من المذاهب المصروفة (٢) . وكذلك كان خليفته من بعده وقضاة محاكمه يسرون على

- (١) جاء في رسالة الإمام المهدي إلى أحد عماله بجزيرة أبا بتارخ (١٣٠١ هـ (١٨٨٤ م) : " وأما ما ذكرتم في الدعاء الذي يحمل الاستمادة من السقم والصين ونحوه فهذا ليس من مذهبنا إنما مذهبنا التوكل على الله حيث أنه النافع والضار وناصية كل شيء بيده بل لا يخرج من قدرته فله خاطر ولا لفتنة ناظر ، فينبغي لمن كان تابعاً لنا أن يسلك طريقنا ويتوكل على الله وحده ولا يتلفت إلى غير لا وجود له بشيء " (من كتاب " يسألونك عن المهدية " للإستان الصادق المهدي ص ١٧٦ - ١٧٧) .
- (٢) ذكر الاستاذ الصادق المهدي أنه " يوجد الآن كتاب جامع للأحكام التي أجاز المهدي العمل بها ويتضح من دراستها أنها لا تقلد مذهباً من المذاهب المصروفة بل تطابق بعض أحكام هذا المذهب أو ذاك حيناً وتضع حكماً مختلفاً عنها أحياناً ، أنها أحكام إسلامية غير مقلدة لمذهب ما ، وإن كانت في كثير من نصوصها أقرب إلى مذهب الإمام الشافعي من غيره " (من المصدر السابق ص ١٩٢) .





الصفات الحميدة التي تدل على عمق ايمان المؤمنين ، وذلك الى جانب الاعداد العسكرية والجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض .

وقد كان من أهم أهداف حركة الامام المهدي توحيد الشعوب الاسلامية تحت قيادة اسلامية واحدة واقامة دين الله وتطبيق شريعته في ربوع بلاد المسلمين وقد رأينا الامام المهدي بعد أن استتب له الأمر في السودان يوجه الدعوة لخد يوى مصر ولأهلها ولأهالى مراكش وفاس ومالى كما خاطب <sup>محمد</sup> المهدي بن السنوسى في ليبيا وسلطان حياتو بن سعيد بن عثمان في سوكونتو، وبعد وفاته جدد علميته الدعوة للامام السنوسى ولأهل مصر والحجاز وقبائل نجد والسلطان عبد الحميد والملكة فكتوريا وملك الحبشة وسلطان وادى وسلطان سوكونتو والسلطان زايح . ولكن رغم ان هذه الحركة لم تمكن من تحقيق جميع أهدافها وبلغ غاياتها في رفع لواء الاسلام خفاقا في أنحاء العالم الاسلامى والتمكين لدين الله واقامة شرعه في الأرض وتوحيد المسلمين تحت قيادة اسلامية واحدة فقد استطاعت أن تخلص السودان من قبضة الحكام المارقين وأن ترد اطماع الانجليز من البلاد فترة من الزمن لتقيم فيها دولة اسلامية تطبق شرع الله وتنشر العدل وتوجه جميع نواحي الحياة نحو الوجهة الاسلامية . ومن مآثر هذه الحركة من الناحية الاجتماعية أنها استطاعت أن تعيد توزيع الثروة بين الاغنياء والفقراء حيث وزعتها عادلا عن طريق التربية الايمانية والاقناع واثارة الالحاسيين والعواطف الانسانية من دون حاجة الى اللجوء الى استعمال السلطة وأسلوب الاكراه، وقد جاء عن الامام المهدي في هذا الصدد أنه قال : " وتعلمون من تذكير الله وتذكير رسوله صلى الله عليه وسلم أن من بدأ بنصيب الآخرة فأراد حرثها وصل اليه نصيبه من الدنيا وأدرك من الآخرة ما يريد ، وحيث أن الامر كذلك وأنا أحب لكم ما يدوم نفعه فمن كان لسه طين فليزرع منه ما استطاع زرعه وإذا عجز أو كان ( فوق ) ما احتاج اليه فلا يأخذ فيه دقندى ( أجرة الأرض ) لان المؤمنين كالجسد الواحد . وماساوى به أخواه المؤمن يكون له في ميزانه دائما بدرجات عليا عند الله ، وليست المسابقة بين

المؤمنين الا فيما يبقى . وان كل مؤمن ملوكه من الطين له ولكن من باب احمر  
 نصيب الاخرة فما لا يحتاج اليه يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج وما عجز عنه وأراد بسبه  
 الاخرة خير له من نفع دقندي ( أجرة الارض ) ينفي عن قريب ويتحسر عليه اذا لم  
 يصرفه لآخرته (١) . . . والى جانب ذلك كانت جهود هذه الحركة في القضاء  
 على الامراض الاجتماعية والمفاسد الخلقية المتفشية بين الناس من مظاهر السترف  
 والبذخ وشرب الخمر وتدخين التبناك والفساد الجنسي والمعادن والتقاليد الجاهلية  
 مثل النواح والاجتماع على الميت بعد تجهيزه ودفنه وجعل الصمغ في رؤوس النساء  
 وما الى ذلك وقد كانت أحكام المهدي صارمة لتطهير المجتمع من هذه المفاسد  
 الخلقية الماحقة .

ولكن القوى الصليبية الممادية لم تكن لترضى بالهزائم المتلاحقة التي منيت  
 بها أمام قوة الامام المهدي وخاصة هزيمة الحملة التي قتل فيها القائد الانجليزى  
 الشهير " غوردن " كما أنها لم يكن ليرضها أن ترى الدولة المهدية قائمة مكنتة  
 في الأرض مغلبة على أعاصير هجومها المدمر ، فقد نظمت حملات عنيفة ضد هذه  
 الدولة الفتية بعد وفاة الامام المهدي اشتركت فيها الجنود المصرية السـ  
 جانب القوات الانجليزية بقيادة القائد الانجليزى " كشنر " فاستطاعت أن تحتل  
 السودان بعد أن سحق جيش خليفة المهدي وقتلتهم شرقتة ، ثم تمكنت بعد ذلك  
 من التوغل في أنحاء البلاد لاستكمال الأضرار الباقية من الحروب الصليبية الجديدة .

(١) من منشور للامام المهدي بتاريخ ١٣٠١هـ (١٨٨٤م) ، نقله الاستاذ الصادق  
 المهدي في كتاب " يسألوك عن المهدي " ص ١٩٥ .

## الفصل الثاني : حركات البحث الإسلامي المعاصرة

- تمهيد

- المبحث الأول : حركة الإخوان المسلمين بمصر .
- المبحث الثاني : حركة الجماعة الإسلامية بباكستان .
- المبحث الثالث : الحركات الإسلامية في تركيا وإيران  
واندونيسيا .

...

## حركات البحث الإسلامى المصاصرة

### تقديم

منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ( أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ) كان العالم الإسلامى يمر بمرحلة عصيبة فى تاريخه الطويل ، حيث بدأت نتائج الفزو الأجنبى وموثرات الحضارة الأوربية اللادينية تظهر فى كيان الأمة الإسلامية وتتخر فى قواها ومقومات حياتها ، فحدثت فى المجتمعات الإسلامية مشكلات وقضايا وأزمات متعددة فككت عراها وشوهت معالمها وأضاعت مميزات الأساسية وهدلت أحوالها وعكست اتجاهها . وفى وسط هذه الظروف الحرجية التى اشتدت فيها عواصف هجوم الغرب الماكر نشأت حركات تشل ردد فعل للأوضاع الماحقة التى جثمت على صدر الأمة الإسلامية ، وتهدف هذه الحركات إلى إصادة مجد هذه الأمة وعزتها وإنقاذها من السيطرة الأجنبية ومواجهة تحدياتها المتعددة فى جميع الأصعدة .

ولقد تبنت هذه الحركات اتجاهات متعددة فى سبيل تحقيق أهدافها ، ويمكن حصر هذه الاتجاهات فى ثلاث نقاط :-

- أولها : حركات المواجهة السياسية والعسكرية للفزو الأجنبى
- ثانيها : حركات المحافظة على التراث الإسلامى فى وجه الفزو الفكرى والثقافى الأوربى .
- ثالثها : حركات الإحياء الشامل لقوة الإسلام مع التركيز على التطبيق العملي لحقيقة الإسلام وإقامة حكم الله فى الأرض .

وأما حركات المواجهة والمناهضة للفزو الأجنبى فقد ظهرت فى أعمال المقاومة الشعبية العسكرية التى نظمها القادة المناضلون المكافحون لتحرير بلاد المسلمين وطرد جيوش العدو المتسلط كمبد القادر الجزائرى وعمر المختار والحاج عمر بن سعيد نال فى السنغال وغيرهم وكذلك حركات التحرير السياسية

المتعثلة في جهود عدد من الدعاة والمفكرين والكتاب والخطباء الذين نهجوا سبيل بحث الوعى الصحيح في الأمة الإسلامية وملأوا أرجاء العالم الإسلامي بخطبهم ومقالاتهم حماسا ونشاطا وكشفوا عن حقيقة المد و مخططات هجومه الكاسح على الأمة من أمثال جمال الدين الأفغانى وسليمان البارونى ورشيد رضا وأبى الكلام آزاد وغيرهم . ولا يكاد بلد من البلدان الإسلامية يخلو من أمثال هؤلاء الدعاة والمناضلين الذين استثاروا روح الكفاح في أقوامهم ونادوا بهتاف المقاومة لوسائل المد وان أساليب المكر التى يمارسها العدو في شتى المجالات وأذيسن قادوا بالفعل جيوش المقاومة الشعبية في ساحة المعركة لانها التسلط الأجنبي وتخدس الأمة الإسلامية من قبضة الخزاة .

ثم جاء بعد هؤلاء دعاة القومية والوطنية فوجهوا أعمال المقاومة وحركات الكفاح وجهة غير إسلامية وساروا فيها وفق توجيهات رجال الاستعمار وإرشاداتهم ، وأسسوا الأحزاب السياسية وتبنوا أفكار الغرب ومناهجهم في مختلف شئون الحياة وناضلوا لانها الحكم الأجنبى حتى انسحبت قوى الاستعمار تاركة الميدان لأنسابها وريائيتها ليكملوا الأوار الباقية من خططها ويريطوا عجلة المجتمعات الإسلامية بقاطرة الغرب المادى اللادينى ويمكن القول بأن الكفاح الذى قام به دعاة القومية والوطنية في سبيل التحرير قد حقق لهم بعض أهدافهم ومطامعهم في معظم البلدان المستعمرة ، ولكن القدر الذى تحقق من هذه الأهداف والمطامع لا يهزى في حقيقة الأمر إلى هذا الكفاح . وإن كنا لانفكر ماله من ضغط على وجود المد ومصلحه بقدر ما يهزى إلى تطاحن القوى الاستعمارية فيما بينها الأمر الذى وصل مرحلة خطيرة في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وذلك إلى جانب اطمئنان الدول الاستعمارية إلى بقاء سيطرتها على الشعوب المستعمرة حتى مع انسحاب قواتها من الميدان . ورغم تبجح الشعوب المستعمرة بتحقيق الاستقلال وفرحتها بالبلقاء باسترداد الحرية وطرد جيوش المد وفسيان

الدول الغربية الاستعمارية لاتزال تهيمن على شئون هذه الشعوب . وإذا كانت هذه الهيمنة بالأُمس عسكرية وسياسية عن طريق الغزو المسلح والاحتلال المباشر فقد صارت بعد الاستقلال هيمنة صناعية واقتصادية وسياسية عن طريق الغزو الفكرى والتحكم في مجرى السياسات الدولية فذلك أدنى وأمر . (١)

وأما حركات المحافظة فقد اتجهت نحو أحياء التعليم الدينى ونشر التربية الإسلامية بين الأجيال الإسلامية الناشئة لمواجهة خطر التغريب والتبشير الذى أخذ يهدد الأجيال المسلمة، ومكافحة خطط الغرب ووسائله في ميدان التربية والتعليم والخدمات الاجتماعية . من أجل هذا عزم أصحاب هذا الاتجاه على إنشاء جميعات تتولى مهمة إقامة المدارس والمعاهد الدينية لتكوين أجيال مسلمة مثقفة ثقافة دينية تحصنها من أدران مؤثرات الحضارة الغربية الفانية . وممن الشخصيات والجمعيات التى تولت هذه المهمة وأنشأت المدارس والمعاهد لأبناء المسلمين الشيخ محمد قاسم النانوشى الذى أنشأ مدرسة ديونيد في الهند سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٣م) والشيخ سعادات على الذى أنشأ مدرسة مظاهر العلوم في سهارنبور في نفس تلك السنة (٢) وكذلك أنشأ القائمون على شئون الدعوة الملما بالهند مدرسة دار العلوم في لكهنؤ سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٦م) وجمعية الدعوة والإرشاد التى أنشأها السيد رشيد رضا ببهرت عام ١٣٣٤هـ (١٩١٢م) لمهمة الإشراف على المدرسة التى أقيمت باسمها لهدف الإصلاح عن طريق التربية والتعليم (٣) . والجمعية المحمدية وجمعية الإرشاد (٤) اللتان أنشئتَا في اندونيسيا سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٢م) فقد أقامت الجمعيتان عددا كبيرا من

(١) راجع وهيد الدين خان ، المسلمون بين الماضى والحاضر والمستقبل ، ص ٤٦ - ٤٧ .

وكذلك محمد على الضناوى ، الطريق إلى حكم إسلامى ص ٢٠٠ - ٢٠١ .  
(٢) راجع أبى الحسن الندوى ، رسالة الدعوة الإسلامية وتطورها في الهند ، ص ٢٨ - ٣٠ .

(٣) د . أحمد المدوى ، رشيد رضا الإمام المجاهد ، سلسلة أعلام العرب ، ص ٧١ - ٨٠ .

(٤) أسس الجمعية المحمدية الحاج أحمد د صلان وأسس جمعية الإرشاد السوكرتى الأنصارى وهو سودانى الأصل .

المدارس والمؤسسات الاجتماعية ، وكذلك جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت والجمعية الخيرية الإسلامية وإسماف المحتاجين في طرابلس وجمعية التربية الإسلامية وأمثالها المتناثرة في أنحاء البلاد الإسلامية خلال هذه الفترة . ولكن معظم رواد هذا الاتجاه قد قصروا مهتهم على إنشاء المعاهد وركزوا فيها على تدريس اللغة العربية والعلوم الدينية في صورتها الجافة التي لا روح فيها ولا حركة كما ورثوها من عصور انحطاط ثم أهملوا الجوانب الأخرى المهمة من العلوم الطبيعية والتطبيقية . وقد أدى ذلك إلى فشل جهود هذا الفريق في تحقيق غاياته الأساسية لأن التعليم الديني المحدود الذي تولت مدارس هذا الفريق تدريسه في صورته المتخلفة الجامدة لم يستطع أن يحوّز المكانة اللائقة به في شئون المجتمع وذلك بسبب عجزه عن مواكبة التغيرات والتطورات المصرية المستجدة والهيمنة عليها وبالتالي لم يكن قادرا على صد تيار الغزو الفكري الأجنبي ومواجهة وسائل توغله المتعددة . وهكذا تقلص سلطان هذا التعليم المحدود تاركا المجال فسيحا أمام سيطرة الحضارة الأوربية وعلوم الغرب ومعارفه .

وأما حركات الإحياء الشامل لقوة الإسلام فقد رأت أن جميع المشكلات والأزمات التي تواجه المسلمين في العصر الحديث إنما هو بسبب عدم التطبيق العملي لحقيقة الإسلام وقيام الحكم الإسلامي في البلاد الإسلامية . ويقول أصحاب هذا الاتجاه إن المسلمين لو قدر لهم تطبيق حقيقة الإسلام بمفهومه الكامل الشامل الصحيح وتنظيم شئون مجتمعاتهم على أساس هدى الله ومنهجه لحلت جميع المشكلات والأزمات وحاز المسلمون المكانة اللائقة بهم في قيادة البشرية ونشر السعادة والفضيلة في الأرض كما تحقق ذلك لهم في ماضيهم المجيد . وهكذا ركزت هذه الحركات على طلب إقامة الحكم الإسلامي وتطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمعات المسلمة ، كما أبرزت ماتصفته التعاليم الإسلامية من مفاهيم سياسية ونظم تشريعية وقواعد وأسس اجتماعية واقتصادية . فتقبلها كثيرون من المثقفين المسلمين الحائرين أمام النظريات والنظم والأفكار الغربية الوافدة . وهكذا



تجمع المتنورون الفيورون على إقامة هذا الدين في صعيد العمل الإسلامي ساعين للتطبيق الكامل للإسلام مركزين على ضرورة إحداث تحول جذري في مجال السياسة ونظام الحكم وفق منهج الله المنزل . ولكن سرعان ما اصطدمت هذه الحركات مع الحكومات المنحرفة والمارقة القائمة في البلدان الإسلامية والسبتي طالما استبدت بالسلطة وثكمت في مصير الأمة ، فقد رصدت هذه السلطات جميع قواها لسحق هذه الحركات وإبعادها عن حلبة الصراع السياسي المعتمد في البلاد . ولا تزال تتحسس من أخبارها لئلا تمود إلى الحياة والقوة من جديد ليشكل أخطر عقبة في وجهها .

وإن القصد من استعراض هذه الاتجاهات المتعددة التي تهبها الحركات الإسلامية هو لمجرد تسجيل الجهود المبذولة في مواجهة خطر الفوز الأجنبي ، فإننا لا نولي اهتماما كبيرا لتلك الحركات التي اتخذت حلولا جزئية لا تتم بالنظرة الشمولية في دراستها للأوضاع القائمة وما يحيط بالمجتمع المسلم من أخطار وأزمات في جميع الجوانب وبالتالي كانت جهودها في سبيل الإصلاح قاصورة عن بلوغ غايتها حيث لم تتعرف على منبع المشكلة ولم تستوعب صورها وأشكالها ولم تهتد إلى الحل الشامل المناسب وتقدير الداء الناجع لداء الأخطار وإصلاح حالة المجتمع المسلم المتدهورة .

وسنتناول دراسة حركات البحث الإسلامي المعاصرة التي اتسمت بدعوتها بالنظرة الشمولية في العمل والتخطيط . وتتمثل هذه الحركات في حركة الإخوان المسلمين بمصر والجماعة الإسلامية في باكستان وحركة جماعة النور في تركيا وقد ائيان إسلام في إيران وحزب "ماشومي" أو مجلس شوري المسلمين في اندونيسيا .

## المبحث الأول :

## (١) حركة الإخوان المسلمين

في أعقاب ثورة عام (١٩١٩م) ١٣٣٩هـ تضافرت عدة عوامل محلية وأخرى

- (١) مؤسس هذه الحركة هو الإمام حسن البنا ، ولد في قرية المحمودية مديرية البحيرة بمصر سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٦م) وقد انحدر من أسرة مشهورة بالعلم والصلاح حيث كان أبوه عالما جليلا كرس حياته لإحياء العلوم الإسلامية والدعوة عن حمى الدين ، اشتغل بالفقه والتوحيد والحديث والنحو وألف كتباً عديدة منها بدائع السند في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن ، والفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني وشرحه الذي أسماه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني وغير ذلك (راجع د . اسحاق الحسيني ، الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية ، ص ٥٣) نشأ الإمام حسن البنا وترعرع في أجواء هذا المحقل العلمي وفي أحضان هذه الأسرة المسلمة فربى تربية دينية خالصة ، وقد أحفظه أبوه القرآن كاملاً قبل أن يلتحق بالتعليم الابتدائي ودرسه على الدقة والمهارة والصبر والمثابرة من خلال تعليمه إياه صناعة الساعات التي كان يشتغل بها (راجع المصدر السابق ص ٥٣ - ٥٤) درس الإمام البنا في مدرسة الرشاد ولما تخرج منها - وهو لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره - كون هو وبعض زملائه جمعية لمنع المحرمات ، وكانت مهمتهم تقديم النصح للناس عن طريق المراسلة السرية باليد لا قناعهم بالإقلاع عما يتعاملونه من المحرمات (راجع مذكرات الدعوة والداعية ، للإمام حسن البنا ص ١٠ - ١٤) ولما بلغ الرابعة عشرة التحق بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور ولما تخرج منها واصل دراسته في دار العلوم حتى أتمها سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٧م) . كان الإمام البنا في فترة دراسته شغوفاً ومحبباً إلى حضور حلقات التلميم والذكر في المساجد ، وحدث في أثناء ذلك أن تصرف على الطريقة الحشافية الصوفية وكان يحضر جلساتها ، وقد تحرف من خلال هذه الجلسات على عدد من الشخصيات منهم صديقه أحمد السكري الذي كان يرأس " الجمعية الحشافية الخيرية " ثم عين الإمام البنا لشغل منصب أمين عام الجمعية . ونلمس من الآثار الطيبة لحمل الإمام البنا مع هذه الجمعية وضع الدعوة للخير والقضاء على الفساد ومقاومة الرسائل التبشيرية الانجيلية في مقدمة أهداف هذه الجمعية وسهامها .
- (راجع مذكرات الدعوة والداعية للإمام البنا ص ١٦ - ٢٠) .
- وقد اكبر حدث مؤلم بالأمة الإسلامية في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري وكان سن الإمام البنا لا يتجاوز الثامنة عشر وذلك هو سقوط الدولة العثمانية تحت وطأة الكيد الصليبي والصهيوني وإلغاء الامامية الإسلامية الكبرى التي كانت تمثلها هذه الدولة منذ ما يقرب من خمسة

خارجية لقيام حركة بعث إسلامي في المجتمع المصري بوجه خاص وفي الأقطار الإسلامية الأخرى بوجه عام وبخاصة بعد إلغاء مصطفى أتاتورك الخلافة الإسلامية في تركيا عام ١٩٢٤ م . ولم تكن هذه العوامل وليدة هذه الفترة المحدودة وإنما كانت جذورها ممتدة إلى فترة طويلة يمكن تحديد هائلها بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد قاوم أصحاب الفكر الإسلامي التيارات الفكرية المعادية للإسلام والتي تشتمل في الفكرة القومية وما يدعي بحركة التجديد والإصلاح عندما بدأت هذه التيارات تأخذ شكلاً مؤثراً في المجتمع المصري خلال هذه الفترة . ثم جاءت الظروف السياسية القاسية التي كانت سلطات الاحتلال تتحكم في مسارها منذ سنة ١٣٠٢ هـ ( ١٨٨٢ م ) فظهرت هذه التيارات بصورة سافرة خطيرة وقامت على أساسها حركات متعددة تصدرت أعمال الكفاح والنضال الشعبي وخاصة بمسند نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد أدت هذه العوامل إلى اضطراب حالة البلاد ومزيد من التدهور والتأخر والتخلف مما جعل بعض المفكرين المتنورين يحسسون بالحاجة الملحة إلى ضرورة البحث عن أسلوب جديد لمواجهة قوى الاحتلال وضد أخطارها وإجلائها من البلاد والسعى للإصلاح الحقيقي لحالة البلاد ، وكان

= قرون متتالية وماتركه ذلك من فراغ كبير في حياة الأمة الإسلامية بفقدان قيادة إسلامية كبرى تجمع شمل المسلمين وتمثل وحدتهم إلى جانب مآل إليه حال المسلمين في هذه الفترة الحالكة من الضعف والتخلف والوهن والفتور ، كسل ذلك قد ترك في نفس الإمام البنا أثراً بالغا وأثار غيرته الإسلامية وكان الإمام البنا قوى الإيمان بقوة الإسلام وحيويته وصدق وعد الله للمؤمنين بالملو والتمكين في الأرض إن هم حققوا إيمانهم بهذا الدين فلذلك عزم على العمل لمودة المسلمين إلى صدر عزهم وكرامتهم في الحياة يقيمون دين الله ويطبقون شريعته ويجاهدون لإعلاء كلمة الله . وهكذا بدأ الإمام البنا حركته سنة ١٣٤٦ هـ ( ١٩٢٨ م ) وأطلق على جماعته اسم الإخوان المسلمين وقد مرت الحركة بمراحل متعددة وبذلت في سبيل تحقيق أهدافها جهوداً كبيرة ولكن القوى الأجنبية والمحلية المعادية قد أحست بالخطر كل الخطر في وجودها لحقق فكرتها وقوة نشاطها وامتدادها فبرت لاغتيال الإمام البنا ثم وضعت المراقيل والعقبات في وجه حركته ولا تزال تكيد لها وتمكر بها وتدبر لها المؤامرة تلو المؤامرة لإيقاعها في المآزق والمخاطر حتى لا تنعم بوجود ثابت ولا تحظى بالقوة والتمكين والاستقرار في أي بلد من البلدان الإسلامية .

ما قوى عزم هؤلاء على الإقدام قوة إيمانهم بفكرتهم وقد رثها على تحقيق الإصلاح الحقيقي الذي ينشده شعبهم المسلم وبخاصة بعد أن برهنت الأيام على فشل الحركات التي تزعمت النضال الشعبى قرابة خمسين سنة كما برهنت أيضا على إفلاسها فكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

كانت الظروف السياسية الحرجة التي خلقتها سلطات الاحتلال بتسلطهما وتحكمها في مصير الشعب المصرى قد دفعت بعض الزعماء والمثقفين إلى تأليف الأحزاب السياسية لمكافحة شر التدخل الأجنبي الصافر في شئون البلاد والتدرج من المطالبة بالاشتراك في الحكم إلى طلب الاستقلال وتسليم العدو زمام حكم البلاد إلى أهلها . ولكن الأحزاب السياسية التي قامت منذ الأيام الأولى للاحتلال وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد ثورة سنة ١٩١٩م كحزب (١) الأمة والحزب الوطنى الذى أنشئ عام ١٩٠٧م وتغير اسمه إلى حزب الأحرار الدستوريين منذ سنة ١٩٠٨م والحزب (٢) الجمهورى وحزب (٣) الوفد وحزب الاتحاد الذى أنشئ عام ١٩٢٥م وكان يجمع بين ولائه للقصر ولسلطت الاحتلال والحزب (٤) الاشتراكى... هذه الأحزاب جميعا سواء منها مانسأل

(١) ينتسب مؤسسو هذا الحزب إلى مدرسة الشيخ محمد عبده ، تلك المدرسة التي هادنتمسلطات الاحتلال ونالتبذلك كل التشجيع والتأييد من جانبها . ويلاحظ أن أبناء هذه المدرسة كانوا في مقدمة الداعين إلى القومية المصرية المعارضين لفكرة الجامعة الإسلامية .

(٢) أنشئ هذا الحزب في أواخر عام ١٩٠٧ وكان يدعو إلى النظام الجمهورى بدل النظام الخديوى كما طرح بعض الأفكار الاشتراكية لمواجهة تسلط أصحاب الأعمال وإجفافهم بحقوق العمال .

(٣) أول الأحزاب التي أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى ، أسسه أعضاء الوفد الذين مثلوا الشعب المصرى في مؤتمر الصلح للمطالبة بالاستقلال وكان على رأسهم سعد زغلول وكان أغلبهم ينتمون إلى حزب الأمة .

(٤) أنشئ في أعقاب ثورة ١٩١٩م وكان من مؤسسيه شبلى شميل، ونقولا حداد وهما من الذين طرحوا الأفكار الاشتراكية ودعوا إلى إقامة الحكم الجمهورى وهاجموا الدين الإسلامى وفكرة الجامعة الإسلامية هجوماً نيفاً .

تأييد الجماهير ودعمهم أم نال تأييد السراى أو تشجيع سلطات الاحتلال ومساندتها لم تفلح في مساعيها لتحقيق الاستقلال الحقيقي للبلاد وإصلاح حالتها المتدهورة . ويرجع السبب فى ذلك إلى إفلاس النظريات والأفكار والنظم التى تبنتها هذه الأحزاب من القيم الأساسية التى تقوم عليها الحياة البشرية وخلو مناهج عملها من برامج إصلاحية حقيقية لما يمانيه المجتمع من مشكلات وأزمات بالإضافة إلى أن القائمين على أمر هذه الأحزاب كانوا يصرون فى أعمالهم عن توجيهات قادة الاستعمار ومستشاريهم الذين لم يألوا جهدا فى تدبير المكاييد لصرفهم عن المطالب الحقيقية وكانوا يمنونهم بالوعود الكاذبة فراح هؤلاء المستغفلون يشيدون البناء القوي على قواعد مهتزة غير ثابتة فكانت النتيجة أن المصاعى العذولة فى سبيل الكفاح طوال هذه الفترة كانت تذهب أدراج الرياح وتسفر عن مزيد من الفشل والإفلاس فى كل اتجاه . يقول الإمام حسن البنا : " إن نهضتنا لا تزال مبهمه لا وسائل لها ولا غايات ولا مناهج ولا برامج ، سل أى زعيم سياسى ، رئيس الوفد أو رئيس الأحرار أو رئيس حزب الشعب أو رئيس حزب الاتحاد عن المنهج الذى أعد له للنهوض بالأمة والسير بها إلى نوال أغراضها ، لا شىء أبدا . كل ما فى الأمر تطاحن على الحكم وتهاتر بالألفاظ ودس وتقرب من العدو وانتظار لما يلقى إليهم من فضلات مائدة على حساب مصر . (١) وأهل مصر ."

ومن الناحية الفكرية كانت الظروف السياسية القائمة فى ظل الحكم الاستعمارى قد أتاححت الفرصة أمام المثقفين ثقافة غربية لنقل عدوى التيارات الفكرية الغربية إلى المجتمعات الإسلامية . وفى الوقت الذى كشفت هذه الظروف عن ضعف علماء المسلمين وتخلفهم وركودهم بسبب موقفهم السلبي من مؤثرات الحضارة الغربية وحقائق العلوم التجريبية مما أدى إلى اهتزاز منزلتهم وانحطاط مكانتهم فى المجتمع ، فى هذا الوقت برزت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية نادى بهتاف التجديد وتبنيت تصورات وأفكارا تركزت على أساس أن الأخذ عن الحضارة الغربية هو المنهج الأمثل للوصول بالبلاد إلى الرقى والنجاح (٢) . فقد كان هؤلاء يؤمنون بقدرة هذه الحضارة على وضع مثل عصرية راقية تحل محل القيم والمثل الإسلامية التى لم تعد صالحة - فى زعمهم - لإقامة مجتمع متقدم راق . وهكذا دعا هؤلاء إلى إحلال فكرة القومية المصرية

(١) مذكرات الدعوة والداعية ص ١٤٢ .

(٢) راجع محمد الضاللى ، فى موكب الدعوة ص ٧٠٦ .

محل فكرة الجامعة الإسلامية (١) وضرورة فصل الدين عن الدولة وإقامة النظام الليبرالي الديمقراطي والحياة النيابية على النمط الأوربي وإحلال المحاكم المدنية محل المحاكم الشرعية وتمديد قوانين الأحوال الشخصية وضرورة تحرير المرأة من القيود " الدينية " والاجتماعية وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل لإحاقها بأختها الأوربية المتقدمة \*<sup>(٢)</sup>

وكان من بين هؤلاء المثقفين والكتاب الذين أسهموا في مد التيارات الفكرية المناهضة للفكر الإسلامي في المجتمع المصري منذ أعقاب ثورة عام (١٩١٩م) ١٣٣٩ هـ على عبد الرزاق صاحب كتاب الإسلام وأصول الحكم وطه حسين وسلامة موسى ومرقس سمكة وشبلى شميل ونقولا حداد وأميل زيدان ود / محمد حسين هيكل وغيرهم .

كما كانت هناك أيضا صحف ومجلات عديدة استخدمت في هذا السبيل منها صحيفتا المقطم والمقتطف ومجلة الهلال وجريدة السياسة وجريدة البلاغ وغيرها وأما الاتجاهات الفكرية الغربية التي دعا إليها هؤلاء فتتمثل في الاتجاه الليبرالي والاتجاه القومي والاتجاه الشيوعي ، وقد نشطت هذه الاتجاهات في أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما تمكنت فئة من رجال السياسة المصريين من تولي زمام السلطة وبدأت محاولة تطبيق النظام الديمقراطي واطردت عملية استيراد النظم والنظريات والأفكار وأساليب الحياة الغربية . وعندما ألغيت الخلافة الإسلامية في تركيا على يد أتاتورك سنة ١٩٢٤م لقي التيار الليبرالي العلماني والتيار القومي رواجاً كبيراً لدى بعض المثقفين والكتاب ورجال السياسة والحكم فبدأوا يعلنون عن أفكارهم وتصوراتهم الداعية إلى رفع تعاليم الدين وأوامره كسلطة لا تناقش ولا يحق على حكماء ، وإلى قبول

(١) د / احمد عبدالرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة ص ٤٧ - ٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٠ .

(٣) انظر د / محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢ / ٨١ - ٩١ .

سيادة المقل الإنسانى وقد رت على تقرير الأشياء وأن يكون هو وحده الفيصل فى الحكم على الأمور<sup>(١)</sup> . ثم جاء افتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ م ليُفسح المجال أمام هؤلاء الصلانيين لتوطيد دعائم فكرهم فى المجتمع ونشر اتجاهاتهم بين الأجيال الناشئة لتسير على نهجهم فى فهم الدين وتصور علاقته بالحياة الإنسانية.<sup>(٢)</sup>

وأما الاتجاه القومى فكان يتمثل فيما سعى بالأفكار التقدمية التى نادى بها أصحابها لمواجهة فكرة الجامعة الإسلامية وتشمل هذه الأفكار فكرة القومية المصرية والفكرة الوطنية وفكرة القومية العربية وفكرة القومية الفرعونية . وقد واثت الظروف خلال هذه الفترة لسيادة الفكر القومى على مسرح الأعمال السياسية بمصر . وكان - السلطات الاحتلال دور خطير فى ذلك حيث كانت تشجع كل ما يبرز شخصية مصر القومية من وضع الكتب وإعداد البحوث فى التاريخ القومى لمصر واكتشاف الآثار القديمة .<sup>(٣)</sup>

وأما الاتجاه الاشتراكى فقد ظهر فى المسرح السياسى عندما قام (جوزيف روزنتال اليهودى الإيطالى الأصل) بتأسيس أول حزب اشتراكى فى مدينة الإسكندرية بعد ثورة سنة ١٩١٩ م إلا أن القوى السياسية المحلية - ومن ورائها سلطات الاحتلال - قد تمكنت من القضاء على هذا الحزب بعد فترة يسيرة . ولم يظهر للحركة الاشتراكية وجود فى مصر بعد ذلك حتى فترة الحرب العالمية الثانية

(١) راجع د / زكريا سليمان بيومى - الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية .. ص ٤٧ - ١٤٨ وللاطلاع على موقف الإخوان من التيار الصلانى راجع مجموعة رسائل الإمام الشهيد ص ٢٦٦ - ٢٨٢ ، ١١٠ - ١١٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٨ . ١٤٩ .

(٣) وللاطلاع على موقف الإخوان من التيار القومى راجع مجموعة رسائل الإمام الشهيد ، فصل دعوتنا فى طور جديد " مكان القومية والصربية والشرقية والصالية من هذه الدعوة ص ١١٢ - ١١٥ ، وأقرأ كذلك فكرة القومية عند الإخوان للدكتور عاصم الدسوقي ص ١٥٤ وما بعدها .

(٤) د . زكريا سليمان بيومى ، الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية .. ص ١٥٧ - ١٥٨ . وقد تم اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢ م وكان ما زاد فى . تتعلق بمض الاقباط بفكرة القومية الفرعونية .

حين أدت بعض الظروف (١) والأحداث إلى عودة نشاط هذا التيار مرة أخرى فتكونت منظمات يسارية سرية متعددة في كل من القاهرة والاسكندرية ، (٢)

وأما الناحية الاجتماعية فقد كان للظروف السياسية القائمة في ظل الاستعمار وما تمحض عنها من انفساح المجال أمام المثقفين المتأثرين بالحضارة الغربية لنقل النظريات والأفكار الأوروبية إلى المجتمع المصري آثارها السيئة على الحياة الاجتماعية . ومع الممارسات السياسية المختلفة والتقلبات التي كانت تحدث في المسرح السياسي وسرعة انتشار الأفكار والنظريات الغربية بين طبقة المثقفين والزعماء السياسيين ازداد توفل العادات والتقاليد الأوروبية وانتشارها بين مختلف طبقات المجتمع . فقد شهدت البلاد انتشار حانات الخمر ودور الملاهي الليلية ودور البغاء ودور السينما والمضارح الليلية وانتشرت الصور المارية في المجلات ومسرح الأوضاع المثيرة المخرية باسم الفن ، ثم تجاوز هذا الداء المجلات إلى أشرطة الخيالة ثم اقتحم المعاهد الحكومية فدخل مدرسة الفنون الجميلة ولكنه لم يدخل هذه المرة في شكل صورة أو تمثال وإنما دخل جسما حيا فتاة في مقتبل الشباب .

تقف عارية كما ولدتها أمها أمام شباب مرافق ، فكثير حديث الصحف والمجلات عن الفن والفنانين والممثلين والممثلات والمغنيين والمغنيات والراقصين والراقصات واحتلت أخبارهم وأخبارهن في ألقه ما يخطر على البال أبرز الأماكن في الصحف والمجلات حتى كأن الله لم يخلق في الناس أشرف ولا أحق بالرعاية والتقدير ممن هوءلاء ، وانصبت اهتمامات الأذباء على ترجمة القصص والروايات الأجنبية الخليعة وبرزت الاتجاهات الأدبية الهدامة المعادية للدين وكثرت حفلات الطرب والفناء

(١) راجع د . رفعت السعيد - تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ، ص ٨٦ - ٩١ وكذلك عاصم الدسوقي ، " مصر في الحرب العالمية الثانية " ص ٣٢٢ - ٣٢٤

(٢) طارق البشري ، الحركة السياسية في مصر ص ٨٢ .



والرقص في المدن وبخاصة في بيوت الأثرياء المترفين (١) . ولم تقتصر مظاهر الانحلال والبذخ والفساد على طبقة الأغنياء بل تخطتها الى صفوف العمال والحرفيين وغيرهم في المدن وكان ذلك مما أضعف قوة القيم الدينية والتقاليد الأصيلة في نفوسهم وان لم يستطيع نزعها منها كلية (٢) .

وأما في الناحية الاقتصادية فقد تعرضت مصر لازمة اقتصادية منذ احتلال الاحتلال البريطاني سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٢ م) فقد كانت الازمة الاقتصادية القائمة وقتئذ تعتبر عاملاً أساسياً من العوامل التي ارتكز عليها بريطانيا في احتلالها لمصر . ولكن هذه الازمة لم تتحل بهذا الاحتلال والسيطرة السياسية والاقتصادية التي فرضتها قوى الاستعمار بل أخذت تزداد مع الايام حتى تفاقم خطرهما خلال الحرب العالمية الاولى ، وعند ذلك رأى السياسيون والاقتصاديون المصريون - وهم مدفوعون الى ذلك غير مختارين في أغلب الاحيان - ألا سبيلاً الى الاصلاح غير استيراد النظريات والنظم الاقتصادية الغربية ومحاولة تطبيقها لينجلى سحاب الازمة عن سماء البلاد . وهكذا تأسست البنوك والشركات المساهمة على النمط الأوربي . ولكن الطين ازداد بلة حيث زادت حدة التوتر القائم وظهرت مشكلات أخرى جديدة . وشهدت الحياة الاقتصادية مظاهر سيئة من الفوارق الطبقيّة والاجفاف بالحقوق وكثرة المظالم وهرور فئة الرأسماليين . وتحكمها في مسار النشاط الاقتصادي فنتج عن ذلك ظهور الخطر الاشتراكي يهدد باقتحام الدار على أهلها لطرد عملاء الغرب الرأسماليين الذين افقرروا البلاد لحسابهم الخاص واقامة النظام الاشتراكي في البلاد كحل ناجح للازمة القائمة .

(١) انظر د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ،

ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٢) راجع طارق البشرى ، الحركة السياسية في مصر ، ص ٦٩ - ٧٠ .

وأما من الناحية الدينية فقد كان الغاء تركيا للخلافة الاسلامية وماتركه  
 ذلك من فراغ كبير في الحياة الاسلامية من الناحية الدينية والسياسية أكبر حدث  
 وقع بالامة الاسلامية قبل قيام حركة الاخوان المسلمين بسنوات قليلة . وكذلك  
 ماتبع ذلك من صراع فكري حاد بين المتأثرين بالفكر الغربي العلماني والمحافظةين  
 على الفكر الاسلامي الاصيل حول هذه القضية الخطيرة كمنافشة شرعية الخلافة  
 وفرغيتها وأهمية وجودها وصلاحياتها لكل العصور ، وهل يجب ان تستمر بشكل  
 آخر ؟ وهل يجوز الاستغناء عنها بتنظيمات سياسية أخرى ؟ وهل يمكن نقلها  
 الى مصر أو أى بلد اسلامي آخر بعد أن نيزتها تركيا وراء ظهرها وولت وجهها  
 شطر الغرب .

وكانت المعركة التي دارت حول هذه القضية قد بدأت بعد صدور كتاب  
 على عبدالرزاق بجنوان " الاسلام وأصول الحكم " واستمرت فترة من الزمن مسح  
 تتابع صدور الكتب والبحوث والمقالات من المثقفين المتأثرين بالفكر العلماني ممن  
 تلاميذ الشيخ محمد عبده والذين تأثروا بهم واعتبروا قول الشيخ " لمن الله  
 ساس ويسوس ومشتقاتها " قولاً مأثوراً (١) ولكن رغم وجود رد فعل لا فكار هو لا  
 المثقفين العلمانيين من جانب رجال الفكر الاسلامي المتحمسين في علماء الزمر  
 ودعاة الفكرة الاسلامية من أمثال رشيد رضا والشيخ مصطفى صبري والشيخ محمد  
 الخضر حسين وغيرهم فقد كان دورهم في مواجهة هذا <sup>الخطر</sup> ضعيفاً جداً . وقد اقتصر  
 عملهم على الجانب النظري من هذه القضية ولم يشغلوا أنفسهم بدراسة الناحية  
 العملية والتخطيط لاخراج نظرياتهم وتصوراتهم الى حيز الوجود وبخاصة في  
 الحقل السياسي والاجتماعي والاقتصادي ولم يكن ذلك فقط هو كل ما في الأمر  
 بل كان الى جانب ذلك ايضاً الموقف السلبي الذي اتخذته رجال الفكر الاسلامي

(١) راجع د . احمد عبدالرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة .

ص ٩ . وكذلك احمد بهاء الدين " ايام لها تاريخ ص ٢٢٨ .

(٢) في اعقاب الغاء تركيا للخلافة الاسلامية أصدر رشيد رضا كتاباً بعنوان

" الخلافة او الامة المظلي نشره في ستمحقات في مجلة المنار ، وكذلك  
 الف مصطفى صبري كتاباً بعنوان التكبير علي منكر النعمة من الدين والخلافة  
 والامة كما ألف الشيخ محمد الخضر حسين كتاباً بعنوان " القيم " لبيان فرضية  
 الخلافة . راجع د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر

من التيارات الفكرية الغربية التي أخذت تجتاح القيم والمثل الإسلامية ووصلت  
موجتها مرحلة خطيرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن لعلماء الأزهر  
دور فعال في صد خطر هذه التيارات أو عرقلة توطئها وانتشارها ، فلم يتقدموا  
بفكر واضح متكامل لنظام الحكم في الإسلام ولا بنظرية اقتصادية إسلامية مفصلة تتفق  
مع تطور الحياة وتحل الازمات التي تواجهها البلاد .

ولكن هذا الموقف السلبي من جانب العلماء والمشايخ تجاه التيارات  
الفكرية الغربية المعادية للإسلام وخطورها المستشري في كيان الأمة وضعفهم  
واستكانتهم عن المواجهة (١) العملية كان له بالغ الأثر في نفوس الفيورين على هذا  
الدين من الشباب المسلم الذين آلمتهم حالة المجتمع المسلم المتدهورة أمام كيد  
قوى الصليبية الخازية . فتوقدت في نفوسهم المشاعر الدينية ودفعتهم عن إيمان  
وقوة وعزم إلى المبادرة بالقيام بعمل إسلامي لإعادة عزة الإسلام والمسلمين  
باقامة الدين وتطبيق تعاليمه في جميع مجالات الحياة (٢) .

كانت دعوة الإخوان المسلمين امتداداً فكرياً لدعوات بحث إسلامي  
سابقة (٣) . فقد استقت أصول أفكارها من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب  
والدعوة السنوسية كما تأثرت بمدرسة الصنار الفكرية بحكم معاصرة الإمام حسن البنا  
للسيد رشيد رضا مؤسس هذه المدرسة . كانت نقطة الالتقاء بين دعوة الإخوان  
ودعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب والدعوة السنوسية من حيث أصل الفكرة وشمولها  
وبخاصة في الدعوة إلى التطبيق العملي لحقيقة الإسلام وضرورة إقامة دولة إسلامية  
تحكم بالشريعة الإسلامية . وقد أفادت دعوة الإخوان من السنوسية ، خاصة

- 
- (١) راجع الإمام حسن البنا ، مذكرات الدعوة والداعية ص ٥٥ - ٥٨ للاطلاع  
على نموذج من ضعف العلماء واستكانتهم في هذه الفترة وذلك في  
حوار الإمام البنا مع الشيخ يوسف الدجوي أحد علماء الأزهر حول هذا الموضوع .  
(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ .  
(٣) د . اسحاق الحسيني ، الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية ، ص ٦ - ٧

ناحية التنظيم والتخطيط ومنهج التربية الروحية والعملية في تنشئة الاتباع وان كان نصيب حركة الاخوان في ذلك كله أعق وأدق وأشعل ، وأما تأثير الامام البنا بمدرسة المنار فهو في جانب غيرة السيد رشيد رضا الشديدة على مدى الاسلام وحماسته واهتمامه بفكرة الجامعة الاسلامية وانشغال ذهنه بها ليل نهار وجهوده (١) الكبيرة في الدعوة اليها في خطبه ومقالاته وكتبه . وان لم يعمل لاخراج فكرته في مظهر تنظيم عملي وحركي هادف كما فعل الامام حسن البنا . وكذلك جهوده في التصدي للتيارات الفكرية الغربية الخائفة ومحاربتها لها وفي عرض الافكار الاسلامية الناصحة ودعوة المسلمين الى التصك بها ونيل كل ما يخالقها أو يناهضها من النظريات والافكار . وقد أثنى عليه الامام البنا في هذا المجال قائلا :

" وكانت للسيد رشيد رحمه الله جولات قوية موفقة في رد هذا الكيد عن الاسلام (٢) " فيما أن قيام دعوة الاخوان كان في أحلك الظروف وأشد ما قسوة وأكثرها تسوؤا واضطرابا فقد كان من الطبيعي أن تتخذ هذه الدعوة صورة حركية متميزة ومظهرا تنظيميا خاصا يختلف عن مظاهر وصور الدعوات السابقة وان لم تخرج دعوة الاخوان في إطارها العام عن الأصول والمبادئ التي تبنيتها تلك الدعوات . كـمان المجتمع المصري حين نبتت هذه الدعوة يشهد التسلط الأجنبي السافر على جميع شئون البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا دون أن يملك الشعب من أمر نفسه قليلا أو كثيرا . وكانت تدوى في أرجاء البلاد هتافات التجديد " والتطهير " باقتفاء أثر الغرب وتتبع سننه وطريقته في الحياة ، وقامت بالفعل دعوات وحركات متعددة الاتجاه تحمل جاهدة لاحداث <sup>تغيير</sup> جذري في مجال التشريعات والنظم

(١) راجع كلام شيخ الجامع الأزهر الاستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي في تصديره للعدد الخامس من السنة الخامسة والثلاثين من مجلة المنار بمناسبة عودة المجلة للظهور بعد توقفها عن الصدور بوفاة السيد رشيد رضا . وقد سعى الامام البنا الى بحث هذه المجلة بالتعاون مع ورثة السيد رشيد ، وصدر هذا العدد الخامس سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م وتلاه خمسة اعداد أخرى تمت بها السنة الخامسة والثلاثون من المجلة ثم صدر أمر الحاكم العسكري بالقاء ترخيص المجلة . ( من مذكرات الدعوة والداعية للإمام حسن البنا ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ) .

(٢) الامام حسن البنا ، مذكرات الدعوة والداعية ص ٥٥ .

والثقائيد والمعادات . وكان أصحاب هذه الحركات المتشبهون بأفكار الغرب ونظرياتهم لا يرون القوة والعزة إلا فيما أتى من الغرب وكانوا يحترزون ويتجهجون بانتمائهم لمعسكر الغرب وحضارته ويتشكرون لدينهم وحضارتهم وتقاليدهم . وقد ملأوا أرجساء البلاد بضجرات النظريات والأفكار الغربية والمنازعات الحزبية الحادة والحزانات السياسية التي لا تأمل تحتها وليس لها دعوة في مجال الإصلاح والتعمير ونهضة الأمة (١) . وفي وسط هذه الظروف القاسية التي يفور فيها المجتمع المسلم بحركات لا لحاد والتحلل والباحية والاتجاهات اللادينية صدع الامام حسن البنا بدعوة المسلمين الى العودة الى حقيقة الاسلام ومصدر قوتهم وعزتهم وسيادتهم فأعلن عن حركة اصلاحية تطبيقية شاملة ذات مبادئ ومناهج ووسائل ومراحل وأهداف ومقايير طول حياته يدعو المسلمين الى المنهج الاسلامي الشامل السني شرح الله صدره له كما كان يبذل كل ما في وسعه من جهد لحملهم على تطبيقه . هذا المنهج تطبيقا عمليا كاملا .

وتتلخص مبادئ دعوة الإخوان المسلمين في ثلاث نقاط رئيسية تالية :

أولا : الدعوة الى العودة الى حقيقة الاسلام وجوهره الصافي وتطبيقه بفهمه الصحيح الشامل الواسع كما فهمه السلف الصالح من هذه الأمة ، وإزالة كل ما علق بهذا الدين عبر القرون من تصورات باطلة ومفاهيم فاسدة وانحرافات سلوكية خاطئة طمست معالم الدين الاساسية وشوهت صورته الناصعة .

ثانيا : الدعوة الى العودة الى التمسك بالكتاب والسنة باعتبارهما المصدرين الاساسيين لتعاليم الاسلام ، واستقاء النظم والاحكام من مصادرها الصافي .

(١) راجع الامام حسن البنا ، مجموعة رسائل الامام الشهيد ، ص ٩٧ - ٩٨ ، وكذلك مذكرات الدعوة والداعية للامام البنا ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

ثالثا : الدعوة الى الجهاد في سبيل الله لتمكين دين الله واقامة شرعــه  
 ومنهجه في الأرض . وأما الدعوة الى حقيقة الاسلام بمفهومه الصحيح الشامل وإزالة  
 ما تسرب اليه من الانحرافات التصورية والسلوكية فقد ركزت دعوة الإخوان في مجال  
 العقيدة على التعريف بحقيقة توحيد الألوهية وتوضيح مفهومه الصحيح الكامل وبينت  
 أنه أسس عقائد الاسلام بل هو الركيزة الأساسية التي يقوم عليها بناء الاسلام  
 وهو أداة التوجيه الكبرى الى الجوانب الأخرى المنبثقة من الاسلام من عبادة وشريعة  
 ونظام وأخلاق كما أوضحت خصائص هذه العقيدة وصفاتها من ربوبية وقوامة وحاكمية  
 مطلقة ونحوها ثم دعت الى تحقيق هذه العقيدة بدلولها الصحيح الواسع  
 الذي يشمل معرفة الله تعالى باسمائه وصفاته وآياته في خلقه وفي الكون  
 والفسيح ، وتوحيد الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق بجلاله وعظمته وافراده بأنواع  
 العبادة وإخلاص الوجه والعمل له وعبادته بما شرع ، فالاعتقاد الصحيح في الله  
 هو أساس العمل في الاسلام وهو أهم من عمل الجارحة بل عليه مدار صحة المصل  
 وقبوله . وإلى جانب ذلك أنكرت دعوة الإخوان ما تسرب الى صفاء العقيدة  
 الإسلامية من الاعتقادات الباطلة ومظاهرها من بدع وخرافات وتقاليد وعادات بالية ،  
 فكل بدعة استحدثت في دين الله - سواء بالزيادة فيه أو النقص منه أو بتحريف  
 المعنى وتشويه المفهوم - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها مثل التماثيم  
 والرقى والودع والرمل والحرافة والكهانة وأدعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا  
 الباب ، وكذلك الاستحانة بالموتى والاستغاثة بهم وطلب قضاء الحاجات  
 منهم عن قرب أو بعد والندر لهم وتشديد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها  
 والحلف بخير الله تعالى وما يلحق بذلك من المبتدعات المستحدثة في دين  
 الله .

وفي مجال توضيح حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح أعلنت دعوة الإخوان  
 أن الاسلام معنى كل شئ محتوي على مبادئ وتعاليم وأحكام تنتظم شئون الناس

في الدنيا وفي الآخرة ، فهو لا يقتصر على الناحية الروحية أو التعمدية دون غيرها من نواحي الحياة العملية بل يظل جميع مجالات الحياة الانسانية تحت ظل شرعه العادل ومنهجه القويم ، وهو دين الله الى الناس جميعا في كل زمان ومكان وهو لذلك يقرر الاصول العامة والقواعد الكلية في كل شأن من شئون الحياة ويرشد الناس ويوجههم الى الطرق العملية للتطبيق عليها والسير في حدودها . يقول الامام حسن البنا : " الاسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء وهو مادة وثروة أو كسب وغنى وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء (١) " . ويقول : " ونحن نفهم الاسلام على غير الوجه " الخاطئ القاصر الذي عليه الناس " فهما فسيحا واسما ينتظم شئون الدنيا والاخرة ، ولسنا ندعى هذا ادعاء او نتوسع فيه من أنفسنا وانما هو ما فهمناه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرة المسلمين الأولين " (٢)

ثم الى جانب ذلك أوضحت دعوة الإخوان التصور الاسلامي الصحيح للكون والانسان والحياة وبينت أن هذا التصور يحدد للانسان غاية وجوده فني هذه الحياة ويرسم امامه منهاجه الذي أراد له ربه ويوجهه الى الحياة الرفيعة التي تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للانسان . وبعد ذلك كان التركيز الكبير على جانب التطبيق العملي للاسلام بهذا المفهوم الشامل في واقع الحياة وفي مجال العقيدة والتصور وفي مجال العبادات والشعائر والاخلاق وفي مجال الشريعة والنظام . يجب أن تبصّر المعرفة على العمل والحركة وأن تسخير قوة واقعية لتحقيق مدلولها في عالم الواقع ، يجب على البشرية ان ترجع الى ربها وإلى منهجه

( ١ ) مجموعة رسائل الامام الشهيد ، ص ٢٦٨ .

( ٢ ) المرجع نفسه ، ص ١٦ ( بتصرف يسير )

المرسوم لها لتحقيق الحياة الصالحة الكريمة التي تحققت للمسلمين الاوائل في فترات التاريخ الاسلامي حين طبقوا الاسلام تطبيقا عمليا ونفذوا أوامره وتعاليمه حتى أصبحوا مثلاً علمية وصورة ماثلة للاسلام فنالوا السعادة والعزة والسيادة والتمكين في الأرض .

وأما النقطة الثانية من مبادئ دعوة الاخوان المسلمين وهي الدعوة الى التمسك بالكتاب والسنة المصدرين الأساسيين لتعاليم الاسلام - لاستقاء الاحكام والنظم منهما فيعتقد الاخوان أن من أعظم ما منى به المسلمون في عصور الانحطاط والتدني الجمود العلمي والركود الثقافي وقصر النظر والتقليد والتعجب والانقسامات الطائفية والتصببات المذهبية والمجافاة والمعاداة بين أصحاب العذاهب المختلفة بينما كان من اسباب نجاح المسلمين وانتصارهم في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية قوة الحلم والثقافة وفتح الذهن والجهد والنشاط في البحث والدراسة وقوة الاخوة والوحدة والتعاون على الخير والقصد الوصول الى الحق وتحقيق الخير والمنفعة

للناس ولن يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها . وعلى هذا كان منهج دعوة الاخوان في الاجتهاد واستنباط الاحكام قائما على اساس استمداد فهم الاسلام واستنباط النظم والاحكام من الكتاب والسنة كما كان يفعل السلف الصالح ، وعدم الانتماء الى طائفة خاصة أو التقيد بمذهب معين . ويمتقدون أن اساس التعاليم الاسلامية ومعينها هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن كثيرا من الآراء والاحكام المقررة في المسائل الفرعية في العصور السابقة كانت مبنية على مقتضيات ظروف الحياة القائمة في تلك العصور واحوال شعوبها ، ويرون من الواجب في هذا العصر استقاء النظم والاحكام الاسلامية التي تحمل عليها الأمة من هذا الميسم الصافي وفي حدود التعاليم الربانية والتبوية ، ولا ينبغي للمسلمين ان يقيدوا أنفسهم بخير ما يقيدهم الله أو يلزموا عصرهم صورة خاصة محدودة لمعالجة الامور المتغيرة في الحياة قد لا تتفق مع احوالهم ووضاعهم المستجدة وظروف الحياة المتطورة والاسلام دين البشرية جميعا وهو صالح لكل زمان ومكان وهو يسر وسهولة ولين ومرونة . وعلى هذا تقرر دعوة الاخوان ان من استوفى شروط الاجتهاد له أن ينظر في الأدلة



من الكتاب والسنة لاستنباط الاحكام في فروع الدين حسب فهمه متبعا في ذلك نهج السلف الصالح . وأما من لم يبلغ درجة النظر في ادلة المسائل الفرعية فله أن يتبع اماما من أئمة الدين ، ويحسن به مع ذلك أن يجتهد ما استطاع في تحرف أدلتهم وأن يتقبل كل ارشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفاء نفسه ، ولا ينبغي لمن أوتي شيئا من الطعم وكان أهلا للتلقي والاستزادة أن يستكين الى نقصه العلمي والثقافي ويجلس مكتوف اليدين متربعا على بساط التقليد دون أن يسعى لرفع مستواه بالاستزادة في العلم والتحرر على البحث والدراسة بجهد ونشاط ومثابرة ، فعلى قدر جهد أهل المزم يوتون المزمائم .

ثم ان دعوة الاخوان لا تنتسب الى طائفة خاصة ولا تتقيد بمذهب معين ولا تنظر الى الاشخاص وآرائهم الا بمنظار المصدرين الاساسيين ، ومطلبها الاسمي هو الحق المميز بالدليل تأخذ به حيثما وجدت . وقد نمت هذه الدعوة على المسلمين الانقسام والتفرق والمجافاة التي نجمت عن الخلاف في فروع الدين والتقليد المقيت والتمصب الاعى للاشخاص والاراء . فان اختلاف الاراء ووجهات النظر في المسائل الفرعية امر لابد منه لان احكام هذه المسائل تستقي من اصول الدين العامة وقواعد الكلية التي تحتاج الى تحديد وشرح وتفصيل ، والمقول والافهام تختلف بطبيعة البشر قوة وضعفا في التفهم والادراك والاستنتاج وفي سعة العلم وضيقة ، والبيئات والظروف تختلف من مكان لآخر ، والادلة كذلك ليست في درجة واحدة من القوة والصحة مما قد يظهر لبعض الناس دون الآخرين الى غير ذلك من الاسباب التي يتعذر معها الاجماع على امر واحد في فروع الدين فضلا عن كون هذا الاجماع يتنافى مع طبيعة هذا الدين الذي اراد الله له البقاء والخلود يسائر المصير ويمشى الزمان ويواكب تغيرات الحياة . ويتضح من هذا المنهج ان الخلاف في المسائل الفرعية ليس عيبا في حد ذاته لأنفسه خلاف في سبيل محاولة التحرف على الحقيقة لتيسير الامر على الناس ولكن العيب كسل العيب بل المصيبة في الركون الى التقليد والتمصب للرأى والحجر على عقول الناس وتحطيل وظيفتها في اعتبار الامور لاستخراج العبر والفوائد وأكبر من ذلك فنتنتسه

للامة ان يصبح هذا الخلاف سببا للتنازع والتفرق في الدين وان يؤدى الى التباغض والخصام والمصاداة بين المسلمين . وقد حذرنا الله تعالى من ذلك غاية التحذير " وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . . الآية<sup>(١)</sup> " فالأليق بالمسلمين اعتبارا بما جر اليه الخلاف والتعصب من المأساة في المصير الماضية ان يسموا جادين في التقريب بين الاراء عن طريق تحقيق علمي نزيه في ظل الحب في الله ووحدة النهاية وقصد الوصول الى الحقيقة من غير أن يجبر ذلك الى المرء المذموم والتعصب .

وأما النقطة الثالثة من مبادئ دعوة الاخوان وهي الدعوة الى الجهاد في سبيل الله لتمكين دين الله واقامة منهجه في الارض فقد اعلنوا ان مهمة المسلمين في الحياة هي عبادة الله تعالى والجهاد في سبيل التمكين لدين الله واقامة شرعه ومنهجه في الارض، فعدت لهم لتحقيق منهاجهم ونشر فكرتهم هي الايمان العميق والجهاد والتضحية والبذل وتقديم النفس والمال في سبيل نصرته الحق . وكذلك يمتدنون ان الجهاد فريضة اسلامية ماضية الى يوم القيامة وانه على مراتب ودرجات فأول مراتبه انكار القلب واعلاها القتال في سبيل الله وبين ذلك انواع متعددة منها بذل المال وتجهيز الخاوي في سبيل الله وجهاد اليد واللسان والقلم وكلمة الحق عند السلطان الجائر وما الى ذلك . وان جهاد النفس له أهميته ومكانته في الاسلام فهو تربية نفسية عظيمة تقوم على اساس معرفة الانسان بالحقيقة التي يؤمن بها معرفة حقيقية وايمانه العميق بها وقوة ارادته لتطبيقها وخلصه ووفائه وتضحيته وتفانيه في سبيل نشرها ، غير ان هذه الامور كلها من خصوص النفس وحدها فلا بد من استحالتها قوة واقعة تحقق مدلولها في عالم الواقع وذلك في بقية مراتب الجهاد العظمى المتعددة وعلى رأسها الجهاد القتالي . ويتضح من هذا أن جهاد النفس مرحلة أولية تمهيدية لتكوين الفرد المسلم وتربيته وشحنه بقوة روحية

هائلة تجعله صالحا لحمل المسؤولية قادرا على العمل من أجل تحقيق غاياته  
 في الحياة ومناصرة العقيدة التي يؤمن بها . ولكن جهاد النفس لا يفتنى بحال  
 عن مراتب الجهاد الأخرى ولا يرقى الى مرتبة الجهاد القتالي لنشر دين الحق  
 ودفع عادية اهل الكفر والطغيان .

والاسلام قد اوصى باعداد القوة واكد ذلك تأكيدا جازما ولكنه لم يوص  
 باستخدام هذه القوة في كل الظروف والاحوال وانما حدد لذلك حدودا واشترط  
 له شروطا ، وليس استخدام القوة هو اول علاج او وسيلة في الدعوة الاسلاميـة  
 ولكن عندما لا تجدى وسائل اخرى غيره فان اخر الدواعى . فالقوة على ثلاث  
 درجات اولها قوة العقيدة والايمان وثانيها قوة الوحدة والارتباط وثالثها قوة  
 الساعد والسلاح . فالجماعة أو الامة لا توصف بالقوة حتى تتوفر لها هذه الأمور  
 الثلاثة جميعا . وأى جماعة أو أمة لجأت الى استخدام القوة قبل استكمال عدتها  
 اللازمة ستجر على نفسها وبال التدمير والافناء ، فالواجب أولا هو اعداد القوة  
 اللازمة كاملا ثم اتخاذ الوسائل المقررة فى الاسلام لمجاهدة الاوضاع المخالفة  
 لمنهج الله فى الحياة سواء مع الدولة " الاسلامية " المنحرفة أو المارقة أو مع  
 الدول الكافرة فى خارج العالم الاسلامى ، وحيث لا تجدى هذه الوسائل جميعا  
 ويأبى المخالفون الخضوع لمر الله ويقابلون دعوة الحق بالعناد والتمنت لم يبق  
 الا اعلان الجهاد ضد هم لنصرة دين الله واقامة منهجه وشرعه فى الارض . وفى هذا  
 الصدد تؤكد دعوة الاخوان ان ما منى به المسلمون من الذل والهوان وتسلط أعدائهم  
 عليهم وذهاب قوتهم وسلطانهم كان بسبب وهن النفوس وضعف القلوب وخلوها من  
 الاخلاق الفاضلة وصفات الرجولة الصحيحة ومرض الترف وفتنة اعراض العادة وزهـرة  
 الحياة الدنيا والنكوص والتقاعد عن احتمال الشدائد ومقارعة الخطوب والمجاهدة  
 فى سبيل الحق وغير ذلك من الأمور التى حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 اجمالا بقوله : " يوشك الامم ان تداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها فقال  
 قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغشاء السيل

ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن فقال قائل  
يا رسول وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت .<sup>(١)</sup> ولن تستميد الأمة  
قوتها وعزتها وسيادتها الا بالايمان العميق بالله والتمسك بتماليم الدين والجهاد  
في سبيل الله حق الجهاد لاقامة دين الله وشرعه في ارض الله وبين عباده ،  
وأما خطة الاخوان في العمل الاسلامي فهي قائمة على خطوات مرسومة  
تسير فيها الدعوة على اسلوب التدرج والاعتماد على التربية والاعداد وتمحيق الفكرة  
في القلوب، فأى دعوة أو فكرة لا بد لها حتى تستقر وتنتشر وتحقق أهدافها ضمن  
مراحل ثلاث :-

- ١- مرحلة التعريف والدعاية والتبشير بالفكرة وتوضيح حقيقتها وبيان أهدافها  
وبذل الوسع لا يصلها الى مختلف طبقات المجتمع، فالدعوة في هذه المرحلة دعوة  
عامة تبذل للناس جميعا .
- ٢- مرحلة التكوين العملي المنظم باستخلاص العناصر الصالحة واعدادها روحيا  
وعمليا لتكون في مستوى المسؤوليات التي تنتظرها . والدعوة في هذه المرحلة  
خاصة ينصب الاهتمام والتركيز فيها على من لوحظ فيه الاستعداد التام  
لحمل اعباء المسؤولية في نشر العقيدة التي يؤمن بها والجهاد في سبيل  
الله .
- ٣- مرحلة التنفيذ والعمل والتحرك لتغيير الواقع السبى القائم وتحقيق الواقع  
الافضل المنشود وفق خطة مرسومة " والجهاد في هذه المرحلة جهاد  
لا هوادة معه وعمل متواصل في سبيل الوصول الى الغاية وامتحان وابتلاء لا  
يصبر عليهما الا الصادقون المخلصون . " وكثيرا ما تسير هذه المراحل  
الثلاثة جنبا الى جنب نظر الوحدة الدعوة والدعاية وقوة الارتباط بين هذه  
المراحل جميعا . ولكن الاخوان يؤمنون أن الغاية التي يسعون اليها

(١) رواه ابو داود في كتاب الملاحم، باب تداعي، الام على الاسلام ٤ / ١١١ عن ثوبان .

لا تتحقق كاملة الا بعد عموم الدعاية وانتشار الفكرة وكثرة الانصار ومثانة تكوينهم وعق ايمانهم بالفكرة وقوة تشليلهم لها .<sup>(١)</sup>

وأما منهاج العمل الذي اعتمدت عليه حركة الاخوان في نشر فكرتها بين مختلف طبقات المجتمع فيشمل وسائل عامة للتصريف بحقيقة الاسلام وتوضيح فكسرة الجماعة وبيان وجهتها واهدافها ومبادئها ، ووسائل اخرى خاصة لتربية الاتباع تربية عملية حتى يتشربوا فكرة الجماعة ويصبحوا مثلاً عملية وصوراً ماثلة لتعاليم الاسلام ومبادئه . وأما الوسائل العامة فتشمل الوعظ والارشاد بالخطب والدروس والمحاضرات والندوات وتعليم القرآن تلاوة وحفظاً والسنة النبوية حفظاً وتدريب الاخوان على الوعظ والارشاد علمياً وعملياً ، وكذلك اصدار الرسائل<sup>(٢)</sup> والمجلات<sup>(٣)</sup> وتأسيس فـسـرق الرحلات<sup>(٤)</sup> للتجوال في انحاء المدن والقرى البعيدة والقرية وانشاء العديد من الشعب في انحاء البلاد لتوسيع دائرة عمل الجماعة ، وعقد المؤتمرات لدراسة الاوضاع وسير العمل واختبار الخطط والوسائل المستخدمة في الدعوة واتخاذ الخطوات اللازمة حيال ذلك حسبما تطلبه النظرة المستقبلية لعمل الحركة . ومن هذه الوسائل العامة ايضاً توجيه الرسائل والمذكرات الرسمية الى الملوك وكبار المسؤولين في الدولة لتقديم النصيح والتوجيه لهم في الشئون التي تخص الأمة المسلمة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كلما اقتضى الامر ذلك ، وكذلك النشاط

(١) راجع الامام حسن البنا ، مجموعة رسائل الامام الشهيد ، فصل رسالة المؤتمر الخامس ص ١٥٩ - ١٦٠ وكذلك فصل رسالة التعليم الطاعة ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .  
(٢) بدأ صدور هذه الرسائل برسالة المرشد العام التي صدر العدد الأول منها عام ١٣٥٠ هـ ( ١٩٣١ م ) .

(٣) أول هذه المجلات مجلة الاخوان المسلمين الاسبوعية التي بدأت تصدر سنة ١٣٥٢ هـ ( ١٩٣٣ م ) ومنها مجلة النذير بدأت عام ١٣٥٧ هـ ( ١٩٣٨ م ) والشمع والمنار والتعارف والنضال - ومجلة الشهاب الشهرية بدأت عام ١٣٦٦ هـ - ( ١٩٤٧ م ) وجريدة الاخوان المسلمين اليومية ١٣٦٥ هـ ( ١٩٤٦ م ) .

(٤) كانت فرق الرحلات أو ( الجواله ) النواة الاولى لفكرة الكتاب والجهاز الخاص فيما بعد .

التعليمي عن طريق فتح العديد من المدارس (١) للبنين والبنات والكبار من العمال والفلاحين . وهذه الوسائل العامة التي اتخذها الاخوان لنشر فكرتهم لم تقتصر على الوعظ والارشاد والتعليم وإنما تشمل ناحية الخدمات الاجتماعية كافتتاح المستوصفات والناحية والاقتصادية حيث الحق بدور الجماعة فيما بعد بعض المؤسسات الاقتصادية من المصانع والشركات ولم يكن ذلك لكي تنفق الجماعة من عائدات هذه المؤسسات على سير الدعوة فحسب ولكن لكي تقدم من خلال ذلك النموذج التطبيقي للإسلام في مفهومه الشامل . وأما الوسائل الخاصة فقوامها اختصاص النفس الانسانية بأهمية كبيرة لأنها مركز الثقل في الحياة البشرية ومصالحها يصلح الناس والمجتمع وفسادها يفسد من جصيلها ، والعناية بأعداد الفرد المسلم وتربيته عملية شاملة من طريق معالجة كل ما يتصل بوجود الانسان من جسمه وعقله وروحه وحياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الارض في توازن واعتدال . فالحركة تتمهد الاتباع بعنايتها لتكوينهم وأعدادهم روحيا وعلميا وحطهم على تشيل الفكرة التي يؤمنون بها حتى يكونوا عناصر صالحة وقدوة حسنة لغيرهم يمثلون أوامر الله ويحجبون نواهيهِ سواها ما اتفق مع عرف مجتمعتهم او خالفه وناقضه ، ولكي تتحقق اليقظة الاسلامية الشاملة التي تنشدها الحركة كانت العناية منصبه على اصلاح الأفراد والاسر لتقوية الايمان في نفوسهم وتكوينهم علميا على تعاليم الاسلام ومبادئه ليكونوا نواة صالحة ولبنات قوية لبناء المجتمع المسلم الصالح ، فما الأفراد والأسر إلا خلايسا

---

(١) كان منها رياضي الاطفال ومكاتب تحفيظ القرآن ومراكز لتعليم البنين ومدارس أمهات المؤمنين لتعليم البنات ومدارس لمحو الامية وتنمية الثقافة الدينية ومدارس ليلية لتعليم العمال والفلاحين ودور الصناعات الملحقة بالمعاهد وشعب لتعليم الفلمان الذين حرموا التعليم لاشتغالهم بالصناعات واقسام خاصة للراشدين في الامتحانات العامة ( راجع محمد شوقي زكي - الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ١٧٧ وما بعدها . )

تتكون منها الجماعة والأمة . ويعتبر من الوسائل الخاصة أيضا النظام الخاص الذي أنشأته جماعة الإخوان المسلمين وكانت له صفة شبه عسكرية استنادا إلى الإيمان ببدء الجهاد في سبيل الله ووجوب الاستعداد له بالتدريب والتسلح وبيع النفس لله تعالى حتى يكون الاستشهاد في سبيل الله تعالى أسمى أمانها ، وقد جاء في الحديث الشريف ، " من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق " (١) وقد بدأ هذا التنظيم في صورة نشاط رياضي كشمسي حيث أنشأت الجماعة فرقة الرحلات في كل شعبها ثم تطورت هذه الفرق فيما بعد وتمددت أغراضها وكان منها الرياضة البدنية والتدريب العسكري والتعارف ونشر الدعوة في أنحاء المدن والقرى وكذلك الرياضة الروحية ، ثم أنشئ نظام الكنائس وبعده نظام الجهاز الخاص . وبعد اكتمال نظام الجهاز الخاص تغير نظام الكنائس إلى نظام الاسر التعاوني وهو أدق تنظيما من نظام الكنائس .

ولما أهداف جماعة الإخوان المسلمين فتتلخص في النقاط التالية :-

- أولا : انقاذ الأمة الإسلامية وتحرير بلاد المسلمين من الاحتلال الاجنبي الأوربي وسيطرة حضارة الخرب ومدنيته المادية اللادينية .
- ثانيا : تكوين جيل جديد من المؤمنين يفهم الاسلام فهما صحيحا ويمثل تعاليمه وأخلاقياته ثم يحمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها (٢)

(١) رواه مسلم في كتاب الامارة ، باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ٥٦/١٣ عن أبي هريرة .

(٢) لمعرفة طريقة الجماعة في تكوين الجيل المسلم وبناء المجتمع المسلم ، راجع مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا فصل رسالة المؤتمر الخامس ص ١٦٨ وما بعدها ، وكذلك ص ٣٠٩ - ٣١١ .

ثالثا : اقامة دولة اسلامية تنفذ شرع الله في المجتمع وتطبق تعاليم الاسلام وتصدر عن توجيهاته في كل شأن من شئون الحياة وتقود الانسانية الى الخير والفضيلة . ويعتقد الاخوان ان المسلمين جميعا مسئولون امام الله تعالى ان لم يسعوا لاقامة هذه الدولة ، لان ذلك تقصير منهم وضعف واستكانة .

رابعا : اصلاح ما يعانيه المجتمع المسلم من الانحراف والضعف والتخلف والفساد في نواحي الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والمسكينة على ضوء تعاليم الاسلام وقيمه ومبادئه . ومحاربة الافكار والمفاهيم الباطلة التي اكتسحت ميادين الحياة العملية في المجتمعات الاسلامية واحلال الافكار والمفاهيم المستمدة من الكتاب والسنة محلها . \* ذلك بأن الله هو الحق وأن ما تدعون من دون الله هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير (١) \*

خامسا : توحيد الشعوب الاسلامية جميعا تحت قيادة اسلامية موحدة عن طريق اعادة الخلافة الاسلامية المفقودة وتحقيق الوحدة المنشودة للامة دينيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا وفي ظل هذه الوحدة يستطيع كل شعب أن يعمل لبلاده ولكياناته الخاصة في اطار مسن التعاون العلي التام فيما يتعلق بمصلحة الامة حتى تكون هذه الامة قوية متماسكة البنيان محترمة الكيان مرهوبة الجانب ذات سلطان وسيادة في الارض ويمود اليها دورها القيادي والريادي السني فقدته منذ قرون لتقود البشرية مرة أخرى نحو الخير والفضيلة .



## المبحث الثانى :

الجماعة الاسلامية بباكستان

كانت بلاد الهند - مثلها مثل اى بلد من البلدان الاسلامية - قد تعرضت لاحتلال اجنبى اوروبى خلال القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) حيث استولت عليها قوى الاحتلال البريطانى واحكمت قبضتها على السلطة الفعلية في البلاد وتسلطت على شئون الحياة العملية فكان بأيديهم سلطة التشريع والحكم والقضاء ووسائل الرزق والكسب والانتاج ومصادر الثروة والتنمية ومناهج التعليم والتوجيه ووسائل النشر والدعاية والاعلام وما الى ذلك وقد كان من نتائج هذا الغزو الاجنبى المدمر والتسلط العدائى المخطط وقسوع تفتيرات جذرية هائلة في شتى مجالات الحياة بين مختلف طوائف هذه البلاد وعلى الاخص بين الجماعات المسلمة التي عانت من عداوة الفزاة وحقد هم مالم تعان من عشر معاشره المجموعات والطوائف الاخرى . وقد شملت هذه التفتيرات زعزعة العقائد وتشويه الافكار والتصورات وتبديل الأسس التشريعية والنظم السياسية والاقتصادية والقيم الاخلاقية وطغت على شئون البلاد التصورات والافكار والنظم الغربية اللادينية .

ولما اضطرت قوى الاحتلال الى الانسحاب من الميدان عز عليها أن تضع درة تاجها من أيديها بعد كل ما استنفدت في سبيل الحفاظ عليها من المكابدة والحيل ، ولما لم يجد شيء في هذا السبيل غير الانسحاب ومفادرة البلاد لجأت الى آخر كيد في جمبتها لاذكاء نار العداوة والتفاض والتطاحن بين مختلف الطوائف في البلاد فقررت في أواخر أيام حكمها في البلاد اقامة النظام الديموقراطى اللادينى الذى يجمع قوة التشريع والحكم والغلبة للأغلبية ويفسح المجال واسعا أمام الاغلبية والأقلية لتتخذ كل الوسائل الممكنة لتهيئة رأى العام لصالحها وكان رجال الاستعمار يعلمون يقينا أن التقسيم القائم بين شعوب هذه البلاد الى أغلبية

أو أقلية كان على أساس قوميات مستندة الى عقائد وأديان ولم يكن لمجرد اعتبارات سياسية جديدة أوجدتها قوى الاستعمار ووضعت لها المناهج وخطط العمل ووجهت اليها شعوب المستعمرات .

وهكذا رأينا كيف مهدت قوى الاستعمار الطريق أمام القومية الهندية التي تمثل الأغلبية في هذه البلاد فسعت بقوة وعنف للقضاء على أديان سائر الطوائف ... وتحطيم ثقافتهم ومقومات حياتهم الاجتماعية ، وقد شهدت البلاد خلال سنيين طويلة سلسلة من المذابح والصراعات والنزاعات ومظاهرات التباغض والتطاحن بين واضطهادات وأعمال التعسف والاضطهاد التي تنزلها الأمة الغالبة على من سواها . فقد كانت السلطات المحلية<sup>(١)</sup> التي مكن لها الاستعمار في البلاد في أواخر أيام حكمه تواصل السير على الخطط التي اثبتتها قوى الاستعمار في الكيد للاسلام والمسلمين ومحاولة القضاء على القيم الاسلامية وفساد عقائد المسلمين واخلاقهم وتدمير ما تبقى فيهم من التقاليد الاصيلية والمقومات الاساسية للحياة وحرمان المسلمين من أدنى الحقوق الاجتماعية الطبيعية التي لا يمكن أن يحرم منها الانسان في المجتمع بأي حال من الاحوال فقد ضاقت على المسلمين أرض البلاد بما رحبت واصبحوا غرباء فيها لا وزن لهم ولا قيمة ولا تحترم لهم حقوق ولا تراعى لهم مصالح ، وظل الوضع هكذا حتى تفاقم الامر واستفحل الخطر وبات من المحقق الا حل للأزمة الماثية غير تقسيم البلاد . وعند بلوغ الخطر منتهاه لم يجد المستعمرون بدا من تقسيم البلاد ثم انسحبوا على الفور بعد أن خططوا للمذابح التي سالت فيها الدماء انهارا وتراكت جثث القتلى ترسم التخوم الفاصلة بين الهند وباكستان .

وفي وسط هذه الظروف القاسية التي كان يعيشها المسلمون وهم ما بين الجامدين على الصورة المشوهة للاسلام المتمسكين بتقاليد عصور الانحطاط وبين المتأثرين بالافكار والنظريات والمناهج الغربية اللادينية . وفي وسط هذه الظروف

(١) وكان يمثلها حزب المؤتمر الوطني الهندي الذي يتصدر حركة القومية الهندية .

صدع العلامة المجاهد أبو الأعلى المودودي بدعوته إلى أحياء حقيقة الدين ودعوة المسلمين إلى تطبيق تعاليمه ومبادئه وتأليف قلوب الشباب على هذا الدين وتربيتهم وتعليمهم حتى تتشرب نفوسهم العقيدة الإسلامية الشاملة ويدركوا غاية وجودهم في هذه الحياة، وتتخلص مبادئ دعوة الجماعة الإسلامية في النقاط الرئيسية التالية :-

أولاً : الدعوة إلى تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى بمعرفة عقيدة الربوبية والالوهية وتطبيق مدلولها الواسع الشامل وأفراد الله تعالى بأنواع العبادات دون سواء .

ثانياً : الدعوة إلى إقامة الدين وإخلاصه لله تعالى وتطبيق تعاليمه ومبادئه وقيمه في جميع نواحي الحياة الإنسانية حتى لا تخرج شعبة ولا ينسب مجال من شعب الحياة ومجالاتها عن توجيه الدين وسلطانه وهيمنته .

ثالثاً : الدعوة إلى إقامة نظام الحياة على أسس الشريعة الإسلامية وضج الله للحياة الإنسانية وانتزاع القيادة الفكرية والعلمية من أيدي الطواغيت الذين نصبوا أنفسهم آلهة من دون الله حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويبتغون وجه الله ومراضاته ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .<sup>(١)</sup>

وأما النقطة الأولى من هذه المبادئ فتعتقد الجماعة أن العبودية لا تتحقق إلا باقرار العبد واعتقاده بربوبية الله تعالى وألوهيته ووحداً نيتته وحاكميته المطلقة وجميع أسمائه وصفاته ، وإدراك العبد الكامل لمفهوم هذه العقيدة وعمله بمقتضاه بالتسليم لله والخضوع لأمره وإخلاص الدين له والاندفاع التام لعبوديته في كل شأن من شؤون الحياة الإنسانية . وتؤكد الجماعة وجوب دخول المسلم في دين الله كاملاً بمجموع حياته بحيث لا يشذ عن سلطان الدين وهيمنته شيء ولا يخرج عن دائرة نفوذه جزء من أجزائها ، وأنه ليس من الإسلام في شيء أن يقر العبد بربوبية الله تعالى وألوهيته وعبوديته له

(١) راجع تذكرة دعاة الإسلام للعلامة المودودي فصل هذه هي دعوتنا ص ٩ - ١٠ .

ثم يبقى بعد ذلك يعيش حراً طليقاً في شئون حياته العملية كما يعيش الناس في الحياة الجاهلية وكذلك يتنافى مع المبودية الحققة التفريق بين شئون الحياة بجعل بعضها في صميم الدين كالعبادات والمسائل المتعلقة بالحياة الفردية والا حوال الشخصية والبعض الآخر خارجاً عن دائرته وهو شئون الحياة العملية المتعددة من السياسة والاقتصاد والاجتماع وال عمران والاخلاق وغير ذلك من الامور التي يعتقد بعض الناس الا سلطان للدين فيها ولا نفوذ لأحكامه في دأثرتها وأن الانسان حر في أمور دنياه يفعل فيها ما يشاء ويضع لنفسه ما يراه من النظم والقيم او يختار ما يشاء من النظم الوضعية. وهذه الممانى والتصورات الخاطئة التي تسربت الى المجتمعات الاسلامية مع الغزو الأجنبى الصليبي هي التي شوهت حقيقة الدين ومسخت مفهومه في الازمان حتى تقلص سلطانه في مجرى الحياة العملية .

وأما النقطة الثانية فتمتد القد الجماعة ان ايمان الانسان بالمقيدة الاسلامية يقتضى تسليم امره لله واخلاص وجهه له حنيفاً مسلماً يحمل بجميع تعاليم الدين ويدخل بمجموع حياته في كنف الدين الحق مصطبهاً بصيغة الله كاملاً باذلاً وسمعاً لاظهار هذا الدين والتمكين له في الارض معرضاً ونائياً بجانبه عن كل ما يناقض ايمانه ويتنافى مع المبودية الحققة لله والاتباع الكامل لدينه وشريعته وليس من الاسلام في شيء أن يتبع الانسان أوامر الله ويتصك بتعاليم الشريعة في ناحية معينة معدودة من نواحي الحياة ثم يعرض عن امر الله ويمتدى حدوده في شعبها الأخرى المتعددة، فلا معنى لما نراه من المسلمين اليوم من عدم التطبيق العملى الشامل لتعاليم الاسلام في كل شأن من شئون حياتهم ، فحين يدخلون في مشترك الحياة العملية في مجالاتها المتعددة لا نجد عليهم مسحة من تعاليم الاسلام ولا أثراً من آثار اتباعهم للدين الحق مع أنهم يقولون صباح مساء بأنهم لا يعبدون الا الله ولا يستمعون الا اياه . ولكنهم لا يتخرجون ولا يشعرون بأى غضاظة ومنقصة في اتباع كل ناعق والجري وراء كل داع الى نظرية أو فكرة مناقضة لدينهم وتعاليمه والخضوع

لكل جبار عنيد متسلط على رقاب الناس يسلمون له قيادهم ويذعنون لجبروته ويميشون راضين مطمئنين في كنف ما يفرضه من النظم والمناهج المناقضة لمنهج الله ودينه وشريعته . من أجل هذا كانت دعوة الجماعة الى اقامة الدين لله وتطبيقه بمفهومه الواسع الشامل وتركيز النفوس من شوائب الشرك وتبرئة الاعمال من مظاهر التناقض فلا يمان الحق هو ما وقر في القلب وصدقه العمل ولا ينبغى أن يكون العمل مناقضا لما يمتقده المرء كما لا ينبغى أيضا أن تختلف أعماله في شئون حياته بحيث يناقض بعضها بعضا بل الواجب ان يتبنى المرء فكرة موحدة شاملة تقوم على اساس الايمان بالله واليوم الآخر يسير في حدود مفهومها وتوجيهاتها في جميع شئون حياته فسي اعتدال واتزان . ولا يخفى موقف علماء المسلمين ومشايخهم من هذه المصالبة منذ عصور الانحطاط حيث كانوا يبشرون الناس ويمنونهم بأنه يكفيهم من امور دينهم أن يشهدوا شهادة الحق ويصلوا ويصوموا ويؤدوا المناسك والشعائر المعينة للمحذورة وانه لا يضرهم بعد ذلك شيء ولا يمنهم من سبيل النجاة ودخول الجنة مانع وما يكون من أمرهم من اقرار بعض المنكرات واتباع ما شاءت لهم أهواؤهم من الأفكار والنظريات فكان من نتائج ذلك ان رأينا بعض المسلمين يدعون بالشيوعية والنازية والديمقراطية وغيرها من النظريات والأفكار والنظم والمناهج العادية اللادينية ويحسبون أنهم مزالوا في دائرة الاسلام .

وأما النقطة الثالثة فتمتد الجماعه أن السبب الحقيقي لكل مافي الأرض اليوم من قلق واضطراب وفساد وفوضى إنما هو انحراف المسلمين عن دين الله وفلتتهم عن مسؤوليتهم في الآخرة واعراضهم عن طاعة الله واتباع هدى دينه وطريقته المثلى في تنظيم شئون الحياة . ولا سبيل لتثبيت دعائم الدين ونشر تعاليمه ومبادئه في الأرض وحمل الناس على تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى وتمثيل تعاليمه في واقع الحياة الا باحداث انقلاب عام في نظام الحياة الحاضر الذي يدور قطبسه حول رعى الكفر والاحاد والاباحية والتفسخ . ولو ظلت أزمة امور المجتمع بايدي هؤلاء الذين انحرفوا عن منهج الله واستكفوا عن عبادته واستكبروا في الأرض بخير

الحق وظلت شئون الحياة العامة من التشريع والتنفيذ وأمور الاقتصاد والاجتماع والعلوم والآداب ووسائل النشر والتوجيه كل ذلك بأيديهم يدبرونها كيف شاءوا وشيتصرفون فيها حسب أهوائهم فلا يمكن للمسلم في مثل تلك البيئة أن يعيش في هذه الدنيا مستظلاً بظلال دين الله الكامل المحيط بجميع نواحي الحياة وشعبها ، وإن رغب في أن يتصك بتعاليم الدين ومبادئه ويتبع شريعة الله ويسير على هديته في حياته ، فمادت بلاد التي يعيش فيها تدين بنظام للحياة مخالف لتعاليم دينه مناقض لمنهجه جملة وتفصيلاً فلن ينال المسلم بفيتة السامية في اخلاص دينه لله وإقامته كاملاً غير منقوص . يقول العلامة المجاهد أبو الأعلى المودودي :<sup>١</sup> " أن الجماعة الإسلامية واضحة نصب عينيهما غاية عالمية حيوية مستقلة هي أن تستأصل شائفة كل نظام للحياة أسس بنيانه ووضعت قواعده على الانسلاخ من العبودية لله وعدم المبالاة بالمسؤولية الأخروية والاستغناء عن تعاليم الأنبياء وإرشاداتهم ، فإنه مبيد للإنسانية مقوض لدعائمه ، وأن تقيم مكانه نظاماً للحياة مبناه على طاعة الله عز وجل والإيمان بالآخرة واتباع الرسل والأنبياء ، فإنه لا سمادة للإنسانية ولا فلاح إلا فيه . فاحداث الانقلاب في الحياة الاجتماعية على هذا الوجه هو الخاية التي تدور حولها مساعي الجماعة ومجهوداتها كلها (١) . وبناء على اعتقاد الجماعة أن أصل جميع المشكلات ومنبع المفساد التي يعانيها المجتمع المسلم هو نظام الحياة الحاضر الذي يجري تصريف أمور الناس طبق أصوله وقواعده وقيمه ، ترى الجماعة أن أي إصلاح جزئي لهذه المشكلات والمفساد - دون اجتثاث النظام الذي تتولد منه من أساسه - لا يكاد يجدي شيئاً في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية . وإن أنشاء المدارس الدينية وتلقين الناس مسائل الدين من عقائد وعبادات ونحوها والقاء الوعظ والإرشاد والمحاضرات في مجالس

( ١ ) كتاب موجز تاريخ تجديد الدين وأحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض

بهم ، من القسم الثاني الخاص بواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم

تعريب محمد عاصم الحداد ص ١٢٥ - ١٢٦ .

أنواع الفساد الاجتماعية والخلقية المتفشية في المجتمع ومحاربة الفرق الضالة وتصوراتها الفاسدة كل ذلك قد يكون له بعض الأثر في إعادة الحياة إلى بعض الشرايين والمروق الميتة في جسم المريض حتى ينشأ في عمره قليلا ، ولكن مهما بلغت المجهودات المبذولة في الإصلاح الجزئي مع بقاء نظام الحياة الحاضر على أسسه وقواعده بكل ماله من قوة وسلطة وهيمنة على شئون الحياة فدن تتحقق الغاية المنشودة من التغيير الجذري الشامل . فليس هناك من سبيل لازالة فساد متأصل شامل للحياة كلها الا وضع برنامج عمل شامل للإصلاح والبناء يجتث الفساد من جذوره ويسد منافذ الشر وينشر الخير والفضيلة ويقيم الحق والمعدل في الأرض ، ولا يبقى أبدا لتجديد الدين في زمن من الأزمان أحياء الملوك الدينية ودعوة الناس إلى اتباع الشريعة بالوعظ والارشاد فحسب بل يلزم لذلك انشاء حركة شاملة جامعة تشمل تأثيرها جميع العلوم والفنون والأفكار في نواحي الحياة الانسانية جميعا وتستخدم ما أمكن من الوسائل والاساليب لانقاذ أمر الله واقامة دينه وتحقيق العبودية الحقة لله تعالى في كل شئون الحياة .

هذا ويتلخص برنامج الجماعة لتحقيق هذه الغاية في أربع نقاط تالية :-

- أولا : تصحيح الأفكار والمفاهيم وتمهيدها بالفرس والتفنية .
- ثانيا : استخلاص الأفراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم تربية اسلامية حالية .
- ثالثا : السعي في الإصلاح الاجتماعي الشامل لكل طبقات المجتمع وفئاته .
- رابعا : اصلاح نظام الحكم والادارة <sup>(١)</sup> .

وحول النقطة الاولى وجهت الجماعة جهودها للتعريف بحقيقة الاسلام وتوضيح مبادئه وقيمه ومفاهيمه الصحيحة وبيان كيفية التطبيق العملي لهذه المبادئ والقيم على شئون حياة الناس <sup>(٢)</sup> ، وازالة كل ما دخل جوهر هذا الدين من تشويهات

(١) انظر المودودي ، مؤجر تاريخ تجديد الدين واهيائه وواقع المسلمين

وسبيل النهوض بهم ، من القسم الثاني الذي قام بتعريبه محمد عاصم الحداد ص ١٨٢ ، فصل برامجننا .

(٢) راجع مقاله العلامة المودودي في هذا الصدد في المرجع السابق ، ص ١٢٢

وانحرافات وبدع وخرافات حتى يتميز الخبيث من الطيب وتبين حقائق الدين الناصحة من ركام الاخلاط والباطيل التي مزجت معها ويظهر جوهر الدين الخالص السدى يثبت خدوصه ونقاؤه وأصالته في ميزان الكتاب والسنة المطهرة . والى جانب ذلك كان انتقاد الجماعة على علوم الغرب وافكاره ونظمه ونظرياتة في الاخلاق والاجتماع وفلسفته للحياة لبيان ما ينطوى عليه ذلك كله من مفاصد وظلالات يحسب ألا يدنس المسلمون شئون حياتهم بادرائها وكذلك ما في علومه ومعارفه من المنافع التي ليس الواجب على المسلمين هو الاستفادة بها فحسب بل عليهم كذلك بسذل الوسع لاستيعاب هذه العلوم والمعارف وتطويرها واخضاعها للقيم الاساسية الصالحة التي تحقق النفع للبشر وتبعد عنهم الشر . وفي ذلك كله تزويد العقول بالفكر الفكري السليم وبعث روح العمل والحركة في النفوس وحث الناس على السعى من أجل تغيير مجرى الحياة واصلاح اوضاعها لتحقيق النهضة الشاملة في المجتمع .

وأما النقطة الثانية فقد كانت الجماعة تنشر دعوتها بين المسلمين في المدن والقرى وبين مختلف طبقات المجتمع لتجمع الأفراد الذين أبدوا استعدادهم التام لقبول السير في الاتجاه الذي تسير فيه الجماعة ويرغبون في دعم حركته الاصلاح بكل ما يتطلبه الامر من الجهود والتضحية بالأموال والافات والمصالح وتكون منهم جماعة موحدة منظمة وتخرجهم من حياة الدعة والعافية التي لا يكادون يقصون فيها بشيء نافع في خدمة الاسلام الى ميادين العمل والسعى والحركة ليحملوا مسئولية الاصلاح والبناء وفق برنامج الجماعة المخطط . وينقسم المستجيبون لدعوة الجماعة الى مجموعتين كبيرتين حسب استعدادهم لحمل أعباء العمل والكفاح ، فالذين آمنوا بعهدة الجماعة وقبلوا دعوتها ونظامها وغايتها ومنهجها للعمل ثم التزموا بالقيام بجهدهم في نصرة الدعوة يشكلون مجموعة الاعضاء العاملين في الجماعة . وأما الذين اکتفوا بتأييدهم للجماعة وموافقتهم اياها على منهجها وغايتها دون الالتزام بتحمل أعباء العضوية وتحقيق شروطها فهم يشكلون مجموعة الانصار



والمؤيدين للجماعة . وهو هؤلاء الذين تنظمهم الجماعة بهذا الطريق - وبخاصة  
 الاعضاء العاملون - تركز عنايتها واهتمامها على تربيتهم الفكرية والخلقية واعدادهم  
 عمليا على تشييل العقيدة التي يؤمنون بها في واقع حياتهم حتى يصبحوا عناصر  
 صالحة بمقيدتهم الصافية وفكرهم السليم وفهمهم الصحيح للاسلام وتمسكهم بالاخلاق  
 الفاضلة وتحديهم بالصفات والسجايا السامية التي تجعلهم جديرين بالثقة  
 والاعتماد عليهم في مراحل العمل القادمة . يقول العلامة المجاهد أبو الاعلى  
 المودودي : " ومقصودنا من كل ذلك أن نستخلص من أمتنا ونجمع على رصيف  
 واحد كل من نجد فيها من الافراد الصالحين الذين لا يكادون يقومون الآن بشيء  
 نافع في خدمة الاسلام اما لتفرقهم وانتشارهم أو لبذلهم جهودهم في الاصلاح  
 الجزئي ، فنريد أن نجتمعهم جميعا ثم نشغلهم بسمى منظم للاصلاح والبنسنة  
 طبقا لبرنامج حكيم موضوع لهذا الغرض (١) . " ويقول في موضع آخر " لانريد  
 أن نحشر الخوفاً ونجعل منهم كتلة صناعية كما يفعل المشعرون والسياسيون بل  
 أن نستخلص من جسد الامة جوهره ونلتقط اجزاءه الخالصة فنجعل من هذا  
 وذاك جماعة متراسة تستمد لمحاربة الجامدين/ معا في سبيل اعلاء كلمة الاسلام  
 الحق يقي الذي جاء به الكتاب والسنة لنجعل منه النظام الثالب للحياة فسي  
 هذه البلاد . . " (٢)

وأما الاصلاح الاجتماعي فقد كانت خطة الجماعة فيه تتناول كل طبقة من  
 طبقات المجتمع حسب أحوالها وأوضاعها ، وكانت تنشئ العديد من الشعب والدوائر  
 للعمل في أنحاء المدن والقرى ، توزع فيها أعضاءها الدعاة المخلصين والعاملين  
 معها من الأنصار والمؤيدين حسب كفاءاتهم ومواهبهم ليقوموا بما يوكل اليهم من

(١) كتاب موجز تاريخ تجديد الدين وحياته وواقع المسلمين وسبيل النهوض

بهم ، من القسم الثاني تمرير محمد عاصم الحداد ص ١٨٣ .

(٢) نفس المصدر ، فصل " ماذا نريد " ص ١٨٠

أعمال في مجال الدعوة والاصلاح . وهو " لا " جميعا وان كان كل واحد منهم يقوم بعمله في شعبته الخاصة وبين طبقة أو فئة معينة الا أنهم جميعا واضعون نصب أعينهم غاية سامية محددة يسمون بمزم وجد ونشاط لتحقيقها في جميع أفراد المجتمع هي نشر العقيدة الاسلامية الصحيحة والدعوة الى اقامة المنهج الاسلامي القويم للحياة الانسانية في جميع شعبيها ، والقضاء على الفوضى الفكرية والميلية والخلقية المتفشية بين طبقات المجتمع نتيجة جمود بعض الناس على التقاليد والافكار البالية وتأثر الآخرين بالاتجاهات الفكرية الخريبة اللادينية . وحيثما ينجس هو " لا " الدعاة العاملون في دعوتهم ويجدون عددا من يستجيبون لندائهم يكونون منهم شعبة يسمونها شعبة الانصار والمؤيدين ثم يرسمون خطط العمل لتحقيق برامج اصلاحية عملية منظمة منها " اصلاح حال المساجد وتعريف عامة الاهالي بتعاليم الاسلام الأساسية والاهتمام بتعليم الأميين وانشاء دار للمطالعة في الحي على الاقل والسمي الاجتماعي لا يفتقر الناس من الظلم والعدوان وبذل المناياضة بالنظافة وتهيئة الاسباب لحفظ الصحة بمساعدة عامة الاهالي وترتيب الفهارس لأسداء اليتامى والايامى والمجزة والطلبة الفقراء والسعى لانقاذهم بطرق ممكنة واقامة مدرسة ابتدائية أو ثانوية أو مدرسة للتصديم الديني تمنى مع تعليم الطلاب بتربيتهم الخلقية على حسب ما تسمح به الظروف وتتسع له الوسائل . " (١) ومسئول المبادئ الأساسية التي يعتمد عليها منهاج الجماعة في اصلاح الاجتماعى أن أى عضو أو عامل وكل اليه عمل في شعبة من الشعب أو بين طبقة من طبقات المجتمع عليه أن يستشعر عظم المسؤولية ويحرص على أداء واجبه واتقان عمله والسهر على أداء مهمته على أكمل وجه لا يضيف عزمه ولا تفتر قوته من العمل والسمي مهما بلغ ما يلاقه في سبيل ذلك من متاعب وعقبات حتى ينتهى باذن الله تعالى الى نتائج مرضية معلومة . ان مهمة العاملين في هذا السبيل شاقة والظروف السستى

(١) العلامة المودودى ، موجز تاريخ تجديد الدين وحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، من القسم الثانى تمرين محمد عاصم الحداد ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

سيواجهونها في مراحل هذا العمل قاسية ولكن عليهم أن يعدوا المدة الكاملة لمواجهة كل ذلك بالمزم القوي والعمل المخطط والجهد الدائب المتواصل والحركة القوية المتدفقة ويعملوا كما يعمل الفلاح في رقعة معينة محدودة من الأرض يفرس فيها البذور ثم لا يستريح عن العمل والسعى وتعهد الأرض والزروع بالاصلاح مسن فترة الخمر الى وقت الحصاد حتى تنتهي جهوده الى نتيجة معلومة .

وأما حول اصلاح نظام الحكم والادارة فتمتقد الجماعة أن أى محاولة لاصلاح مفاصد الحياة الحاضرة بدون اعطاء الاولوية والاهتمام الاكبر لاصلاح نظام الحكم والادارة لا يمكن ان تأتي بنجاح كبير حسبما دلت عليه التجارب في عصرنا الحاضر ، وذلك لان المفاصد التي تثبت في الناس عن طريق ما يوضع من التشريعات والنظم والقوانين في مختلف شئون الحياة وعن طريق التعليم والتوجيه والتربية ووسائل الاعلام المختلفة لا يمكن ان تجدى كثيرا في درء اخطارها جهود اصلاح بطريق الوعظ والدعوة والارشاد فحسب . ولكن لو أن دعاة الحق استطاعوا ازالة نظام الحكم الفاسد الذي وضعه الطواغيت عن مركز القيادة والنفوذ والسلطنة الفعلية واحلال نظام الحكم الاسلامي محله فسيكون بالامكان احداث تغييرات مهمة واصلاحات أساسية في شئون الحياة العامة خلال أعوام قلائل مما لا يمكن تحقيقه على مدى قرن كامل بجهود أخرى غير سياسية . وتمتقد الجماعة الأسبيل لاحداث مثل هذا التغيير في نظام الحكم والادارة في بلد يدين بنظام ديموقراطي غربي كباكستان الا الفوضى في معارك الانتخاب ولكنها ترى أن ذلك لا يكون حتى تسبقه جهود مكثفة لتمهيد الارضية الفكرية الشاملة وتربية الرأي العام وتوجيهه نحو الوجهة السليمة وتصريف الناس بالاصول والمبادئ العامة التي يتبعونها في تحديد الغاية من عملية الانتخاب وفي تعيين الممثلين وانتخابهم ، واصلاح طرق الانتخاب وتطهيرها من أعمال الفس والتزوير والمفاصد الخلقية حتى تجرى العملية في غاية من النزاهة وفق الخطط والقواعد الاصلاحية الموضوعة لتقويم أمور المجتمع واصلاحها .

وأما منهاج الجماعة في تربية الافراد الذين يقبلون دعوتها ويظهرون  
استعدادهم لحمل أعبائها وتبليغ رسالتها في المجتمع فقد كان منهاجها عملية  
تربوية يتلخص في مطالبة أعضائها بالتمثيل الحقيقي للإسلام والتطبيق العملي  
الشامل لتعاليمه ثم القيام بواجب الدعوة الى الحق لاعلاء كلمة الله وانهاء الواقع  
المخالف لمنهج الله في الأرض .

ففي المرحلة الاولى من مراحل هذا المنهاج التربوي كانت الجماعة  
تطالب أعضائها أول ما يدخلون في دعوتها بتمثيل العقيدة التي يؤمنون بها تمثيلا  
حقيقيا شاملا وتطبيق تعاليم الدين تطبيقا عمليا في جميع شؤون حياتهم حتى  
يصطبغوا بصبغة الله كاملا ويتزودوا بكل ما يحتاج اليه سلوك طريق الحق من  
الصلاح والتقوى والاخلاص والاخلاق القويمة ، فيبدأ كل فرد منهم بالعناية الفائقة  
بالتربية النفسية والخلقية البقية يبذل كل وسعه لمجاهدة نفسه ومقاومتها واصلاحها  
وتهذيبها حتى تستسلم لامر الله وتتجرد لدينه وتطيع الله ورسوله في المكسره  
والمنشط وتمثل أوامر الله وتجتنب نواهيه وتهجر المصاىي والذنوب وتفر منها السي  
طاعة الله وطلب مرضاته حتى يستقيم سلوكه ويصبح كالفرس المربوط بالهبل السي  
وتد مثبت في الأرض فهو مهما حال يرجع الى ذلك الوتد الذي شد اليه زمامه .

وحول منهاج الجماعة في هذه المرحلة يقول الملامه المودودي : " الحقيقة أن  
منهاجنا هذا - كدعوتنا - انما هو مأخوذ من القرآن الكريم وسيرة الانبياء عليهم  
السلام ، فالذين يقبلون دعوتنا ويظهرون استعدادهم لحمل أعبائها وتبليغ  
رسالتها معنا فان أول ما نطالبهم به أن يدخلوا في دين الله كافة ويصطبغوا بصبغته  
بجملة شؤون حياتهم من فكرية وعملية ويجعلوا سلوكهم المأم في الحياة هو الدليل  
على اخلاصهم وتجردهم ويبدلوا سعيهم لتزكية حياتهم وتطهيرها من كل شئ  
يخالف ايمانهم . ومن هنا تأخذ أرواحهم تقوى ونفوسهم تصقل وأخلاقهم تتهذب  
وسيرتهم تتزكى ويدخلون مرحلة الابتلاء والامتحان . (١) "

وهذه المرحلة التي يمر بها أعضاء الجماعة مرحلة شاقة قاسية لما يحيط بكل فرد منهم من الاوضاع المخالفة للطريق الذي اختاروا السير عليه في حياتهم ، فما أن يضع الفرد منهم قدمه على هذا الطريق ويخط عليه خطوات أولية حتى يجسد المشكلات والعقبات المتمترضة طريقه لتتممه من السير في اتجاه الحق الذي اختارته لنفسه ، وتتمثل هذه المشكلات والعقبات في أوضاع بيئته وأعراف الناس وتقاليدهم وعاداتهم مما يستند اليه كل من لا يرضى باتجاهه من الناس في معارضتهم لطريقه في حياته ، وقد يلجأون الى التضييق عليه ومناصبته العداء وابتلائه وفتنته من دينه بكل ما يملكون من وسائل . ولكن هذا الفرد المؤمن القوى الذي احتضن في حضن هذه الجماعة ورعى تربية نفسية وخلقية قوية حتى أصبح عنصرا صالحا ونموذجا صالحا حيا مجسدا للمقيدة التي يؤمن بها سيجتاز هذه المرحلة العصيبة بنجاح بفضل اخلاصه لدينه وتجرده له وقوة عزمته على لزوم طريق الحق وإيثاره على الباطل وصبره على احتمال الأذى في سبيل نصرته دين الحق والدعوة اليه ، وبذلك يكون قد انتصر على القوى المادية التي رصدت امامه تلك المحن والعقبات المرهقة القاسية وارتقى الى مستوى المسئولية وأصبح جديرا بالثقة والاعتماد عليه في مراحل العمل المقبلة .

وأما الذين يفشلون في ارتياد هذا الطريق والاستقامة عليه وفسي مواجبة المحن والشدائد واجتياز العقبات لضعف عزميتهم وارادتهم ونقص ايمانهم وتربيتهم فسينسحبون من الجماعة من تلقاء أنفسهم حين يشعرون بهزيمتهم النفسية وضعفهم في مواجبة الوضع القائم والتغلب عليه وقصورهم عن بلوغ مستوى هدفه الدعوة والتزام طريقها في واقع حياتهم . ولكن الجماعة لا تزال تبذل لهم الدعوة وتسمى لارجاعهم الى طريق الحق بكل ما تملك من وسائل الاقتاع لمصلح الله أن يهديهم الى سواء الصراط .

وأما المرحلة الثانية فهي الزام الجماعة أعضائها بالقيام بواجب الدعوة

الى العقيدة الصحيحة" التي شرح الله لها صدورهم ووفقوا في التربية عليها —  
والاصطباغ بصيغتها . وقد أصبح لزاما عليهم بعد هداية الله لهم وتوفيقه أن يبذلوا  
وسمهم في دعوة الناس الى الله ويمسكوا بجد ونشاط وجهد متواصل لتعريفهم  
بدين الحق ومنهج الله القويم للحياة الانسانية بيد أن بأسرتهم وأقاربهم ثم  
جيرانهم ومعارفهم ومن يرتبطون بهم بعلاقة العمل أو التجارة أو نحو ذلك ثم  
يبدلونهم للناس جميعا حتى يفيئوا الى ظل الاسلام الوارف . وهذه المرحلة التي  
يحمل فيها الاعضاء أعباء الدعوة الثقلية ويحتملون مشاق العمل المجهد هي فسي  
الحقيقة مرحلة قاسية مليئة بأنواع المحن والمشكلات والمقبات التي لا يصبر عليها  
ولا يثبت في مواجهتها الا المؤمنون المخلصون الراسخون في العلم والايمان  
الذين لا تنال مثل هذه الظروف القاسية من عزيمتهم شيئا ولا توهن من قوة ارادتهم  
ولا تنحرف بهم عن طريق الحق أو ترغصهم على الاستسلام للواقع السيء ومجاراته  
أو الانجراف مع سيوله الماتية الكاسحة<sup>(١)</sup> ، ومن خلال قيامهم بأداء واجبهم في سبيل  
الدعوة الى الله واصلاح الواقع المفروض بكل أوضاعه وملابساته يتدربون على كثير من  
الخصال والصفات التي لا يكون نجاح العمل الاسلامي الا بالتزود بها من قوة الايمان  
والاخلاص والبصيرة النافذة والحكمة والصبر على الانذى والثبات على الحق وسمو  
الاخلاق وكريم الصفات وروح الجدية والنشاط والاحساس بما على الفرد المسلم من  
واجبات وعظم مسئوليته عن تقصيره وضعفه في أدائها . وبعد ذلك كله تؤكّد الجماعة  
أن منهاج عملها في الدعوة والتربية والاعداد قد يسير عليه الداعي فترة طويلة من  
الزمن ويتراعى له أنه لا يحقق من النتائج الكبيرة مثلما قد يتوقع تحقيقه بوسائل  
واساليب أخرى سطحية غير مركزة ، ولكنه سيري مع الايام أن من يروم الاصلاح والتعمير  
أحوج ما يكون الى منهاج عمل دقيق هادف يسير فيه على خطوات راسخة مستحكمة

(١) راجع العلامة المودودي تذكرة دعاة الاسلام ، تعريب الاستاذ / خليل  
أحمد الحامدي ص ٢٥ - ٢٧ .

ليتمكن من استخراج العناصر الطبية الصالحة من المعادن الانسانية المختلفة  
واعداد هذه العناصر حتى يصبح الواحد منهم أرجح في كفة الميزان من الآلاف  
المؤلفة من اخلاط الناس وأرائلهم وسفهائهم . ولا يكون ذلك الا بمنهاج عمسل  
دقيق هادف يسير عليه القائمون بهذا الامر بالحكمة والحسنى متزودين بصبر  
لا يعرف اليأس وثبات لا يعرف الميل والانحراف وجهد جهيد متواصل لا يعرف الملل  
والخصف والوهن .

وأما وسائل الجماعة لتحقيق غاياتها في سبيل الاصلاح والبناء فتشمل  
الدعوة بالوعظ والارشاد والتوجيه وتنظيم اللقاءات الاسبوعية والشهرية والسنوية  
لا لقاء الدروس والمحاضرات واقامة الندوات العلمية والثقافية واصدار الكتب والبحوث  
ونشرها بلغات كثيرة محلية ودولية واصدار الصحف والمجلات<sup>(١)</sup> وانشاء الفروع والجمعيات  
والدوائر في مختلف المدن والقرى لتنظيم شئون الدعوة وتوسيع دائرة العمل وانشاء  
الحديد من دور المطالعة<sup>(٢)</sup> تحتوى على مجموعة كبيرة من الكتب الاسلامية القيمة  
والرسائل والبحوث المفيدة في الثقافة الاسلامية وكذلك اقامة المعاهد الدينية<sup>(٣)</sup>  
المالية لتعليم العلوم الاسلامية من التفسير والحديث وعلومه والفقه والتاريخ الاسلامي

- 
- (١) ومن الجرائد اليومية جريدة تسنيم وجريدة كوهستان وجريدة آسيا الاسبوعية  
وغيرها ومن المجلات مجلة ترجمان القرآن التي انشأها العلامة المودودي عام  
١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) قبل قيام الجماعة الاسلامية وظلت هذه المجلة تصدر حتى  
سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) حين صادرتها الحكومة وألغيت ترخيصها ، ومنها ايضا  
مجلة بنتول التي يصدرها قسم النساء في الجماعة ، ومجلة النور للأطفال ومجلة  
الحسنات المختصة بشئون الطلبة والطالبات ومجلة Criterion التي تصدر  
باللغة الانجليزية وغير ذلك من الجرائد والمجلات (من منشورات دار المروية)  
للدعوة الاسلامية بلاهور ، بعنوان " الجماعة الاسلامية في سطور " ص ٩ - ١٠ .
- (٢) يبلغ عددها في أنحاء البلاد خمسمائة وستة وثلاثين دارا ، انظر المصدر السابق ص ١٣
- (٣) كان للجماعة نحو ثلاثين معهدا دينيا عاليا كلها أهلية ، وتخرج هذه المعاهد  
عددا كبيرا من الدعاة والمثقفين الاسلاميين الذين يتولون مهام التدريس وامامة  
المساجد وشئون الفتوى وما الى ذلك .

وعلوم الصرف والنحو والادب العربي، كما أنشأت الجماعة عددا من المعاهد  
 (١) لتحفيظ القرآن الكريم للأطفال والصبيان، وأقامت المدارس المصرية على اختلاف  
 مراحلها الابتدائية والثانوية والمالية. وإلى جانب ذلك تقوم الجماعة بخدمت  
 اجتماعية منها إنشاء العديد من المستشفيات والمستوصفات (٢) في بعض المدن  
 والقرى وتقديم إعانات مالية وعينية للفقراء والمساكين والمجزة والارامل والأيتام  
 والطلبة الفقراء كما تقوم بأعمال الإغاثة والانتقاذ عند النوازل كالفيضانات والزلازل -  
 والحرائق وما إلى ذلك .

- 
- (١) تشمل مناهج التعليم في هذه المدارس العلوم " المصرية " والثقافة -  
 الإسلامية بالإضافة إلى العناية الفائقة بالتربية الخلقية - وكان على رأس -  
 الكليات التي أنشأتها الجماعة كلية الشاه ولي الله الدهلوى في مدينة  
 منصوره بمدينة حيدرآباد بالسند . وقد سيطرت الحكومة الباكستانية منذ  
 سنوات على مدارس الجماعة عن طريق برنامج تأمين التعليم . ( انظر " الجماعة  
 الإسلامية في سطور " اعداد دار الصروة للدعوة الإسلامية بلامهور ص ١١-١٢ )
- (٢) يبلغ عدد هذه المستشفيات والمستوصفات أربعة وخمسين مستشفى  
 ومستوصفا في أنحاء البلاد .



### المبحث الثالث: الحركات الإسلامية في تركيا وإيران وأندونيسيا

هناك حركات إسلامية أخرى متعددة قامت في مختلف البلدان الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري ( هذا القرن الميلادي ) كانت أقل شأنًا من حركة الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية من حيث قوة الحركة والنشاط ودقة التخطيط والتنظيم وعمق الأثر ومدى اتساعه ، وأحب أن أعطي فكرة عامة عن نشاط بعض هذه الحركات تسجيلًا لجهودها في سبيل إصلاح حال الأمة الإسلامية وردّها إلى مصدر عزّتها ومجدّها وإنقاذها من الأخطار المحدقة بها خلال القرنين الأخيرين والتي زادت زحفًا إلى ضعفها وتخلفًا إلى تخلفها حتى أصبحت في مؤخرة قافلة الحياة تسير إلى حيثما يوجهها المتسلطون على زمام أمره القافلة وهي فاقدة القوة مسلوبة الإرادة والاختيار . ومن هذه الحركات حركة جماعة النور في تركيا وجماعة فدائيان اسلام في إيران وحزب " ماشومي " في اندونيسيا .

وأما جماعة النور في تركيا فقد بدأت حركتها خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ( أوائل هذا القرن الميلادي ) . وكانت تركيا منذ القرن

---

(١) مؤسس هذه الحركة هو العالم الكردي سعيد النورسي المطبق ببديع الزمان بدأ دعوته الإصلاحية في أوائل هذا القرن الميلادي ، وقد دخل معترك الحياة السياسية صغيراً وهو لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره . وفي سنة ١٣٢٨ ( ١٩٠٨ م ) حين ظهرت حقيقة محمد رشاد وجمعية الاتحاد والترقي وظهر انتماؤها إلى الماسونية بادر الشيخ سعيد النورسي إلى إنشاء جمعية إسلامية باسم " الاتحاد المحمدي " فانضم إليه عدد كبير من الشبان المسلمين . وقد تصدى في هذه الفترة للرد على دعاة الماسونية والقومية من الكتاب والمثقفين المستغربين فأثار ذلك مخاوفهم وسعوا لتدمير الكيد للشيخ سعيد النورسي فقبض عليه مع آخرين في حادثة ٣١ آذار عام ١٩٠٩ م التي قتل فيها خمسة عشر مسلماً وقد حكم على الشيخ سعيد نفسه ولكن أخلى سبيله تحت ضغط الجماهير المسلمة ، ثم بعد ذلك نفى إلى مدينة تلبس فترة من الزمن . ولما عاد من منفاه بدأ تنظيم حركته من جديد .

وعندما ظهرت ثورة أتاتورك عام ١٩٢٠ هـ ( ١٩٢٠ م ) عين الشيخ سعيد النورسي عضواً في المجلس الملي الكبير الأول الذي أسسه أتاتورك . ثم بدأ صراع حاد بين الشيخ ببديع الزمان وأتاتورك عندما اتضح أنه من المعارضين

الثالث عشر الهجرى ( التاسع عشر الميلادى ) تميش في حالة سيئة حيث تشهد  
تدخلا أجنبيا سافرا في شعونها وقيام حركات " تجديد " لادينية قوية في صفوف  
المثقفين ثقافة أوروبية من المدنيين والعسكريين تدعو الى السير في اتجاه الغرب  
واتباع طريقته في الحياة وقد بلغ هذا الامتنعنى الخطورة في اعقاب الحرب العالمية  
الاولى حين قامت ثورة مصطفى كمال أتاتورك العاتية المدمرة للقضاء على الاسلام  
وحضارته وتحطيم قوته وسلطانه واصبحت تركيا بل العالم الاسلامى كله بحاجة ماسنة  
(١)  
الى قيام حركة بحث اسلامى لانقاذ الامة من المآزق والمهالك والنكبات التى نزلت  
بساحة الاسلام فى هذه الظروف المصيبة من تاريخ هذه الامة .

= للانقلاب فنج به في السجن . وكان مما أثار حفيظة أتاتورك عليه خطابه المطول  
الذى بحث به الى المجلس النيابى الذى كان يرأسه أتاتورك وضمنه نصائح  
مثيرة فى عشر فقرات بدأ كل فقرة بهذا العنوان " اعلما ايها المبعثون أنكم  
مبعثون ليوم عظيم " وقد كان لهذه النصائح اثر كبير فى نفوس اكر اعضاء  
المجلس ، وأما أتاتورك فقد اشأز منها قلبه وأخذته المزة والكبر بالاشتم  
والخطيئة فجمع كيد ه وصد كل قواه لتضييق الخناق على الشيخ سعيد النورسى  
والمكر به ولم يزل ينال من أذى أتاتورك وكيد ه واضطهاد ه حتى ضاقت عليه  
أرض البلاد بما رحبت فاعتزل الحياة السياسية وعكف على كتابة الرسائل لنشر  
التوعية الاسلامية بين اتباعه وتوضيح حقائق الاسلام وافكاره الصحيحة فى  
مواجهة الاتجاهات اللادينية التى تسمى ثورة أتاتورك جاهدة لنشرها فى  
المجتمع . وقد لقيت هذه الرسائل - وهى تسمى رسائل النور - قبولا واستجابة  
كبيرة فى صفوف الشبان وكانت تتناقل بينهم فى غاية من السرية ، وبعد مضي  
فترة من الزمن انتشرت فى انحاء البلاد واكتسحت الجامعات والمعاهد ( انظر  
مجلة المسلمين السنة الثالثة - العدد الثانى ص ٩٦ - ٩٧ ) وعندما نما خبر  
رسائل النور الى اسماع رجال الثورة عام ١٣٥٥ هـ ( ١٩٣٥ م ) اتهموا الشيخ  
سعيد النورسى بتأليف جممية سرية مناوئة للحكومة وانه أساء الى مقام أتاتورك  
بتميير شخصيته بوصف الدجال فقد م للمحاكمة للمرة الثالثة ولكن الله نجاه  
من كيد هم ( راجع الشيخ عبد الله الخالدى ، " حياة بديع الزمان سعيد النورسى  
ص ٣٦ وما بعدها ) ورغم كل هذه المضايقات والاضطهادات فقد ظل لحركة  
النور وجود ثابت في المجتمع التركى حتى انه حينما توفي الشيخ سعيد النورسى  
عام ١٣٧٩ هـ ( ١٩٥٩ م ) كان اتباعه قد قويت شوكتهم وكثر عدد هم حتى كادت  
كشهم ترجح على كفة الكمالين فى حلبة الصراع السياسى المتقدم فى البلاد غير  
ان قوى الاستعمار من اميركا وغيرها حين أدركت خطورة الوضع خططت لقلب  
الأوضاع لصالح حزب الشعب الجمهورى وهو حزب أتاتورك - فعاد الكماليون الى  
الحكم مرة أخرى ( راجع المصدر السابق ص ٦ - ٧ ) .

(١) راجع مجلة المسلمين ، السنة الثالثة العدد الثانى ص ٩٥ - ٩٦ ( القاهرة )  
رغم تحريرها الاستاذ / سعيد رمضان .

وقد قامت في تركيا حركات دينية متعددة لمواجهة ثورة أتاتورك العنيفة كان فـي طليمتها حركة الطائفة النقشبندية التي نظم رجالها سلسلة من الحركات الجهادية ضد هذه الثورة كان أهمها تلك الانتفاضة الشعبية الكبيرة التي أعلنت عن رفضها لهذه الثورة في المنطقة الجنوبية الشرقية سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٥م) وكذلك الانتفاضة الثانية في " ميممين " سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣٠م) وإلى جانب ذلك كانت جهود الطائفة التيجانية وحركة جماعة النور . ولقد لقيت هذه الحركات الشيء الكثير من عناد أتاتورك وعنفه وتنكيله واضطهاده ولكن رغم ذلك ظل للحركة الإسلامية وجود ثابت في المجتمع التركي وبخاصة بعد وفاة أتاتورك . وكانت حركة جماعة النور أقوى هذه الحركات وأنشطها وأدقها تنظيما وأعظمها أثرا وقد أخذت في النمو والانتشار رغم كل المقاومات والمضايقات حتى بلغ عدد أعضائها ما يقرب من مليون عضو وكان لها في الأونة الأخيرة عدد من الصحف والمجلات التي تنشر دعوتها وتدعم نشاطها .

ويغلب على جماعة النور الجانب الصوفي حيث تأثرت بالطريقة النقشبندية إلا أنها كانت مع ذلك على تفهم صحيح لحقيقة الإسلام وادراك تام لمنهجية المتكامل الذي يشمل جميع مجالات الحياة البشرية كما كانت على التمام كبير بالوضع المحيطة بالمسلمين وامنوا به من النكبات بسبب انحرافهم عن حقيقة الدين ومفهومه الصحيح الشامل . ولم يؤمن الجانب التصوفي الروحي الذي أولاه رجال الجماعة اهتمامهم الكبير إلى الانعزال عن الحياة العملية وترك الدنيا وشؤونها على أساس النظرة الخاطئة التي تعتبر الدنيا كلها جيفة وطلابها كلاب وأن طلاب الآخرة هم الذين تسمو بهم نفوسهم عن طلب الدنيا والاشتغال بأمورها . فقد كان أتباع جماعة النور يقومون بالعمل والحركة في شتى مجالات الحياة وقد دخلوا غمار العمل السياسي في محاولة التأثير في مجرى الحياة العملية وتحقيق غايتهم في هذا السبيل . وكانوا لا يرون استعمال قوة السلاح لتنفيذ برامجهم الإصلاحية في المجتمع وإنما يفضلون أن يسير العمل بالوسائل السلمية لنشر الدعوة والتربية العملية حتى يعم الوعي الإسلامي الصحيح أفراد

المجتمع وتكسب الحركة الى صفها مجموعة كبيرة من الأنصار المؤمنين الواعين الذين يحملون مهمة نشر عقيدتها وتبليغ رسالتها والتمكين لها في الأرض، وتحقيق أهدافها . وتشمل دعوة جماعة النور تفهيم المسلمين حقيقة الاسلام ودعوتهم الى تطبيق تعاليمه وأفكاره والتمسك بقيمه ومبادئه الأساسية التي تنتظم شؤون الحياة كلها واقامة شرع الله في الأرض، والسعى الجاد لتوحيد صفوف المسلمين في وحدة اسلامية مترابطة قوية . وقد أوضح الشيخ سعيد النورسي هذه المبادئ والاهداف في كتبه الكثيرة التي منها " دليل الشباب " " وعصا موسى " وغيرها (١).

وأما حركة فدائيان اسلام في ايران فقد قام بتأسيسها السيد نواب

صفوي (٢) . وكانت مبادئه حركته تشمل الدعوة الى حقيقة الدين والتمسك بتعاليمه

(١) راجع مجلة المسلمين ، السنة الثالثة ، العدد الثاني ، ص ٩٦

(٢) كان السيد نواب صفوي شاباً قوى الايمان متوقفاً بالحملسة لا يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره حين بدأ حركته الإصلاحية . وقد تلقى العلوم الإسلامية في مدينة النجف بالعراق . ولما عاد الى بلاده استثاره ما وصلت اليه حال المسلمين من الضعف والذلة والهوان بعد سقوط البلاد تحت وطأة الاحتلال الاجنبي حيث أصبح المسلمون هدفاً لغزو العدو والعقائدي والفكرى والثقافي واستغلاله السياسي والاقتصادي وظهرت آثار ذلك كله في شؤون حياة المسلمين بشكل واضح مخيف لم يسبق له مثيل في سابق عهودهم مع أي عدو ومن أعدائهم الأعداء . وقد سلك السيد نواب صفوي سبيل الجهاد لتحقيق أهدافه الإصلاحية وقاتل جيوش الاحتلال في مواقع كثيرة كما تصدى للنظام القائم في ايران الذي رفض السير على هدى الاسلام واقامة شرعه في الأرض . وقصد قتل السيد نواب صفوي عام ١٣٧٦ هـ ( ١٩٥٦ ) مع نفر من أتباعه وهم يقاومون جيوش الاحتلال البريطاني بعد نقض اتفاقات تأميم مصافي " عبادان " . وكان السيد نواب صفوي لا يعترف لقوة الاحتلال البريطاني بأى حق في المساومة أو ابرام اتفاق مع الشعب الإيراني على شبر من أرض البلاد أو شمس من مصادره ثروته بل فوق ذلك كان يرفض رفضاً باتاً وجود هذه القوة في أرض البلاد .

### وفى الخلافات

ومبادئه ودعوة المسلمين الى الاعتصام بحبل الله المتين /والانقسام الى شيعة وسنيين ليكونوا جبهة موحدة قوية والجهاد في سبيل الله لتحرير الوطن الاسلامى الكبير من ايدى قوى الاستعمار الصليبية وانقاذ الأمة الاسلامية من أخطار احتلالها الخاشم ومكاييد الصهيونية العالمية ، ثم السعى لتوحيد العالم الاسلامى فى وحدة سياسية قوية متعاونة ومتساندة تربط بين شعوبها رابطة العقيدة والأخوة فى الدين وتجمعها كلمة الحق فى ظل شرع الله ومنهجه . وقد أوضحت الجماعة أن الاسلام لا يعارض انتقام الانسان الى قومه ووطنه ولكنه يشن حربا شعواء لاهواء فيها على الوطنية والقومية الحمقاء التى تتخذ رابطة أساسية للتجمع والتفرق وهى مصدر عنها الناس فى علاقاتهم وتصرفاتهم بعضهم مع بعض (١) .

وتو من هذه الجماعة بوجوب الاعداد القتالى وتنظيم حركة جهاد يسيرة لتحقيق غايتها فى تطهير أرض الاسلام من ايدى الاعداء المستعمرين الصليبيين واليهود ، ونزع زمام امر البلاد من ايدى المملاء المحليين الخونة رباب الاستعمار والصهيونية واصلاح الاوضاع الفاسدة فى المجتمع . وهكذا نرى أن السيد نواب صفوى الى جانب استيائه الشديد من قوى الاحتلال الاجنبى كان شديدا المعارضة للنظام القائم فى ايران لرفضه السير على هدى الاسلام وتحكيم شريعته واقامة شئون الحياة على أسسه ومبادئه وتوجيهاته . وكان السيد نواب صفوى يريد الاصلاح الشامل ، ولما تبين له ألا سبيل الى ذلك الا بالجهاد عقد المزم على تنظيم حركته الجهادية وأخذ يبحث فى المسلمين روح الشجاعة والاقسام ويستحثهم على التضحية والتفانى فى سبيل الذود عن الدين وتغيير الواقع السيء بطرد جيوش الاحتلال ونزع السلطة الفعلية من ايدى المملاء المارقين ليتسلمها المؤمنون الصادقون الذين يقيمون دين الله ويتفدون شرعه ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا .

(١) راجع مجلة المسلمين ، المجلد الخامس ، ص ٧٤ - ٧٧ .

وقد اشترك رجال حركة فدائيان اسلام في معارك التحرير من النفوذ البريطاني ويرز دورهم في اعمال المقاومة ضد جيوش الاحتلال البريطاني وبخاصة عند تأميم مصافي " عبادان " وعندما نقضت بريطانيا اتفاقات هذا التأميم وأخضعت الكتلة الشعبية لقبول الامر الواقع بقوة السلاح وزجت بقيادة حركات المقاومة في السجون والمعتقلات أكد رجال فدائيان اسلام رفضهم لمبدأ المساومة والمصالحة مع جيوش الاحتلال وأعلنوا الجهاد ضدها وقاتلوا ببسالة حتى قتل السيد نواب صفوى وبعض أنصاره . وقد كان السيد نواب صفوى يقول دائماً : " أننا متأكدون من أننا سنقتل ان لم يكن اليوم فغداً ولكن دماءنا وتضحياتنا سوف تحيي الاسلام وتحفزه الى النهوض ، ان الاسلام بحاجة الى هذه الدماء اليوم ولن ينهض بدونها أبداً (١) .

وقد أشيع عن حركة فدائيان اسلام انها حركة ارهابية (٢) متطرفة تتعطش الى اشغال نار الفتنة والفوضى واعمال التخريب واراقة الدماء ، وذلك بسبب اعلانها الجهاد ضد جيوش الاحتلال والمملاء المارقين الذين أقاموا نظام الحياة على أسس غير اسلامية ورفضوا اقامة منبر الله في الأرض . وان من شأن الاعداء والمملاء دائماً أن ينسبوا حركات الاصلاح الاسلامي الى المذهب والارهاب والتخريب ويكيلوا لها الاتهامات جزافاً لتغيير الناس منها أولاً ثم ليتخذوا ذلك مبرراً لتدبير الكيد للقضاء عليها . ان اعلان الجهاد ضد قوى الاحتلال لانها سيطرتها على البلاد وانقاذ الامة من ويلاتهما وتتظيم حركة اصلاحية جهادية لتغيير الواقع السي في المجتمع المسلم وتخطيم قوة الطواغيت الذين قبضوا على زمام الامر فيه لاقامة الواقع الصالح المنشود . كل ذلك هو ما بحث المخاوف في قلوب الاعداء والمملاء فلجأوا الى قوة العناد والكيد والمقاومة شأنهم مع كل حركة هادفة ودعوة صالحة تقوم لاصلاح امر المسلمين وبناء مجتمعهم على الحق والخير والعبادة مجد الاسلام وعزته ليكون قوة مهيمنة على شئز الحياة البشرية كلها .

(١) من مجلة المسلمين المجلد الخامس ، ص ٨٦ .  
 (٢) راجع مقاله " برنارد لويس في كتابه الضرب والشرق الأوسط ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

وأما عن الحركة الإسلامية في إندونيسيا فقد قامت جمعيات وأحزاب إسلامية متعددة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (أوائل هذا القرن الميلادي) وكان رجال هذه الجمعيات والأحزاب هم الذين قادوا حركات المقاومة ضد جيوش الاحتلال الهولندي حتى تم تحرير البلاد من أيدي هؤلاء الأعداء المحتلين (١) . وكانت أول جمعية إسلامية شقت الطريق للعمل الإسلامي في هذه البلاد هي شركة اسلام التي أسسها الأستاذ عمر سعيد شكروا مینوتو سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٠ م) فهي تعتبر الحركة الرائدة في مجال الاصلاح في هذه المنطقة . ثم قامت بعدها جمعيات أخرى متعددة منها الجمعية المحمدية وجمعية الارشاد سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٢ م) وجمعية وحدة العلماء سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣٠ م) والحزب الاسلامي الإندونيسي سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٥ م) وحزب التنوير الاسلامي وجمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) وغير ذلك من الجمعيات والأحزاب . وقد ظلت هذه الجمعيات تعمل متفرقة لفترة طويلة من الزمن ثم بدأ لمؤسسيها والقائمين على شؤون العمل الاسلامي ضرورة توحيد الصفوف وجمع الكلمة وتنسيق العمل فمقدوا عدة مؤتمرات إسلامية عامة لدراسة قضايا المسلمين وخطط العمل لمواجهة المشكلات التي يعاني منها المجتمع . وبذلك بدأت حركة التقارب والتعاون والتنسيق بين هذه الجمعيات ، وكانت الخطوة الاولى قيام شبه اتحاد بيسن حزب التنوير الاسلامي والحزب الاسلامي الإندونيسي باسم المجلس الاسلامي الأعلى . ثم تلتها خطوة أخرى باتفاق جميع الجمعيات والأحزاب على تكوين اتحاد أوثق وأقوى وأشمل باسم مجلس الشورى الاسلامي ثم جاء بعد ذلك المؤتمر الأكبر الذي عقد بعد استقلال إندونيسيا في عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٩ م) واشترك فيه جميع

---

(١) انظر مقدمة كتاب "اختاروا احدى السبيلين الدين أو اللادينية للاستاذ محمد ناصر ص ٧ - ٨ ، ١١ ترجمة زين العابدين الركابي (وجاء في ص ٧٧ من الكتاب أن الشعب الإندونيسي قد رزح تحت وطأة الاستعمار الهولندي لاكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن) .

الاحزاب والجمعيات فاعتمد قرار هذا الاتحاد لجمع العمل الاسلامي في حركة موحدة يمثلها حزب واحد باسم حزب " ماشومي " أى مجلس الشورى الاسلامى . ولكن هذا الاتحاد الكبير لم يدم طويلا فقد انشقت منه بعد فترة قصيرة جمعية نهضة العلماء وشركة اسلام وجمعية التربية الاسلامية لتؤلف فيما بينها حزبا واحدا باسم " Muslim League " أى رابطة المسلمين (١) وهكذا أصبحت في اندونيسيا جبهتان اسلاميتان كبيرتان الاولى حزب " ماشومي " ورئيسها الاستاذ محمد ناصر رئيس وزراء اندونيسيا الأسبق والجبهة الثانية رابطة المسلمين ورئيسها الاستاذ دملان (٢) .

وقد اوضح الاستاذ محمد ناصر مبادئ دعوة حزب " ماشومي " وأهدافه يقول : " الاسلام عقيدة ، انه عقيدة يعيش في رحابها السواد الأعظم من أبناء الشعب الاندونيسى والاسلام عقيدة شاملة وليس بالمفهوم الضيق الذى يفهمه الغرب من كلمة " Religion " أى الدين " الذى لا وظيفة له سوى تنظيم العلاقات بين الانسان وربه ، فالاسلام يشمل عنصرين عنصر العلاقة بين الانسان وربه وعنصر العلاقة بين الانسان وبنى نوعه وبالتالى عنصر العبادات وعنصر المعاملات . وهذا العنصر الأخير أى عنصر المعاملات يشمل حياة الفرد والأسرة والدولة . . (٣) وقد أكدت دعوة حزب ماشومي " أن الدين يشمل جميع نواحي الحياة فهو يوجه حياة الانسان بمختلف نواحيها الفكرية والمأطفية والعملية وغيرها . وان الاسلام قد وضع الاسس الرئيسية والقواعد الأساسية لتنظيم شؤون الحياة الدينية .

وهذه الاسس والقواعد تتفق مع نوازع الانسان الفطرية وهي صالحة لكل زمان ومكان ، ثم الى جانب ذلك فتتحقق الاسلام مجالا للانسان لاستخدام عقله واجتهاده في تنظيم الامور في كل نواحي الحياة وفقا لتقدم العقل البشرى ومطالب الزمان

- (١) فير أن الخلاف بين هذه الرابطة وحزب " ماشومي " خلاف فى طريقة العمل فقط فليس هناك أى خلاف بينهما فى المبادئ والأهداف .  
 (٢) راجع مجلة المسلمين ، المجلد السادس ص ٣٣٦ وما بعدها عام ١٩٥٨ م .  
 (٣) كتاب اختاروا احدى السبيلين الدين أو اللادينية ص ٦٨ .



والمكان (١) . ويقول في بيان حقيقة الدين انه " عقيدة ونظام للحياة يشتمل على عدة عوامل منها الايمان بالله كمصدر للحكم وقيم الحياة ، الايمان بالوحي المنسزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ، الايمان بوجود صلة العبودية بين الصبد وربّه الايمان بوجود حياة اخرى بعد الممات ، الايمان بأن العبادات هي وسيلة للتقرب الى الله ، الايمان بالله كمصدر للقيم العليا ، الايمان برضى الله كهدف أسمى في هذه الحياة . . ان ثمة عوامل اخرى يمكن ذكرها غير أن هذه العوامل كافية لتصوير حقيقة الدين وللوقوف على ماله من ميزة عن غيره من النظم اللادينية . (٢)" وقد أكد الاستاذ محمد ناصر مرارا وتكرارا أن دعوة حزب " ماشوي " تهدف الى بناء دولة اسلامية في اندونيسيا تقيم فيها دين الله وتحكم شريعته وتقيم نظام الحياة كلها على أسسه ومبادئه وتوجيهاته . (٣) .

ولقد لقيت الحركة الاسلامية مايفوق الوصف من عناد حكومة الرئيس سوكارنو وعنتها واضطهادها وأعمال القمع والذبح والابادة ، وقد احتدم الصراع بينها وبين حزب " ماشوي " حين اختارت طريق اللادينية فازدادت فجوة الخلاف عمقا واتساعا وازداد النزاع حدة وتفاقما ، وقامت حكومة سوكارنو بحل حزب ماشوي " سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) ثم حلت البرلمان الذي يضم عددا كبيرا من ممثلي حزب " ماشوي " وهينت أعضاء آخرين ممن ترضى عنهم ومعظمهم من اليساريين الشيوعيين الذين يباركون اتجاهها مهددين لها في الأرض . ولقد كانت ضربة حكومة سوكارنو لهذا الحزب قاسية مدرة وتكاد تأتي الحركة الاسلامية من أساسها في هذه المنطقة حيث ان سلسلة المقبات والعوائق المرصودة في طريق الحركة الاسلامية بعد حل حزب " ماشوي " قد أدت الى فراغ كبير في ميدان العمل الاسلامي

(١) انظر الاستاذ محمد ناصر ، اختاروا احدى السبيلين الدين أو اللادينية ،

ص ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٥ .

خلال هذه الفترة ، وقد أوصدت الابواب باحكام لمنع عودة الحركة الى نشاطها وقوتها وفصاليتها فخلت لاجواء لثورة سوكارنو وأخذت ترمى بشررها في كل مكان وتسلطت على زمام الحكم في البلاد عصبة من المنحرفين الماركسيين وأخذت الحركة الشيوعية في النمو والانتشار حتى أصبح الحزب الشيوعي الاندونيسى اكبر حزب شيوعي في العالم بعد الحزب السوفيتي حيث يقدر عدد اعضاءه بثلاثة ملايين عضو (١) . ولما جاءت سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) شهدت البلاد تحركا نسبيا في صفوف الحاملين للخيورين على الاسلام وان كان هذا التحرك موقفاً ومخفوقاً بأنواع الضغوط والمضايقات التي تمارسها السلطة القائمة ، فقد عقد هؤلاء الحاملون الاسلاميون مؤتمراً اسلامياً في مدينة سربانا وتقرر فيه انشاء مؤسسة للدعوة الاسلامية - على غرار المؤسسات الثقافية - لا تتدخل في شئون السياسة اطلاقاً وتعطى باعتراف الحكومة رغم شيوعتها والحادها ، وتكون مهمتها نشر التوعية الاسلامية باصدار الكتب والرسائل لتحريف المسلمين بحقائق الاسلام ومبادئه وأفكاره وكشف مفاصد المذاهب والنظم الخربية الوافدة وأخطارها ودحض مزاعمها وتحذير الناس من خرافات المشركين وأباطيلهم وصد هجومهم وابطال مكائدهم الى جانب العمل على بث روح الاخوة في نفوس المسلمين ودعوتهم الى وجوب العمل لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف ونيل كل أسباب الخلاف والشقاق بينهم . جاء في الخطاب الذي ألقاه الاستاذ حسين الحبشي في مكة المكرمة بالنيابة عن مؤسسة الدعوة الاسلامية باندونيسيا في ٢٧/٧/١٩٦٧م هكذا اخترنا لاسمنا " اى مؤسسة " الاسم الذي بها عند الحكومة ثم ركزنا جهودنا على طبع رسائل ندحض بها مزاعم الاشتراكيين وندحض فيها خرافات الاناجيل (٢) .

( ١ ) انظر مقدمة كتاب " اختاروا احدى السبيلين الدين أو اللادينية للإستاذ

محمد ناصر ص ١١٠ .

( ٢ ) محمد علي الضناوى ، الطريق الى حكم اسلامي ، ص ٢٤٧ .

وهكذا أصبحت الحركة الإسلامية في اندونيسيا مؤسسة ثقافية بعد أن كانت حركة جهادية شاملة .

وبعد أن أطيح بسوكارنو تنفس الماملون في حقل العمل الاسلامي الصعداء واصبح بإمكان الجماعات والاهزاب الاسلامية أن تتحرك وتسمى لجمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم ، ولكن الحوائق والمقبات التي رصدها سوكارنو في وجه الحركة الاسلامية لا تزال تعمل عملها وان خفت وطأتها ما كان عليه الأمر في عهد ———ه ولكننا نلاحظ رغم ذلك أن الحركة لا تحظى بحرية كاملة في ممارسة نشاطها والقيام بواجبها في مجال الدعوة والاصلاح والبناء على أكمل وجه .

من خلال ما تقدم في الفصول السابقة علمنا أن هناك جهودا كبيرة تبذل منذ قرنين من الزمن لمكافحة الدين الاسلامي وما يشتمل عليه من خصائص الشمول والواقعية والهيمنة على شئون الحياة كلها وذلك لحصر هذا الدين في دائرة الاعتقاد الوجداني والشعائر التعبدية ومنعه من الهيمنة الكاملة على الحياة البشرية وعزله عن جميع مجالات الحياة الواقعية وجعله مجرد طريق الى الآخرة لا شأن له بتنظيم شئون الحياة العملية البتة ، كما تبذل الى جانب ذلك جهود مماثلة لمحور هذا الدين من الوجود وتفتيته حتى عن مجال العقيدة لاهلال نظريات وتصورات وضعية أخرى مكان الدين تنبثق منها مفاهيم وأنظمة ومناهج وأوضاع تلاه الفراغ الذي ينشئه اخلاء الحياة البشرية من حقائق الدين ومبادئه وأفكاره وتعاليمه ، فالاعداء اليهود والصليبيون والاستعماريون قد جندوا قواهم كلها وأجمعوا كيدهم ومكرهم لمكافحة هذا الدين وطمس معالمه وتحطيم قوته بوسائل شتى تشمل استعمال قوة السلاح واستعمار الشعوب الاسلامية واحتلال بلدانها وفرض السيطرة السياسية والاقتصادية ، ووسائل الكيد والمكر والغزو الفكري المخطط لنشر الافكار والنظريات والمناهج الضربية المادية اللادينية في المجتمعات الاسلامية وتنظيم حملات التشويه والتضليل والتقصيحات والاكاذيب وكذلك الضربات الوحشية القاسية التي تكال لطلائع

البحث الاسلامي في كل بلد من البلدان الاسلامية . ولقد أفلحت هذه الجهود الضخمة التي كانت تبذلها قوى الاستعمار الصليبي والصهيونية العالمية وحققست انتصارات ملحوظة في أنحاء المجتمعات الاسلامية - وخاصة منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري ( أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ) فانتشرت الاتجاهات والافكار والنظريات والمناهج الغربية وقامت في أنحاء العالم الاسلامي دول وحكومات " علمانية " تت رسم خطى الغرب وتسير في اتجاهاته وتتبنى فلسفته للحياة وتقيم بنيانها على اساس حضارته المادية اللادينية ، وقد أبعد الدين الاسلامي عن الهيمنة على شؤون الحياة البشرية من الناحيتين التصورية والواقعية ونحيت الشريعة الاسلامية عن مجال الحكم والتشريع وحصرت في مجال ضيق محدود لا يتجاوز الاحوال الشخصية واستوردت النظم والقوانين الغربية لبقية مجالات الحياة الفسيحة كما وضمت الى جانب ذلك قوانين أخرى محلية حسبما تطلبه الاهواء والمطامع والمصالح الذاتية . ولكن رغم ذلك كله فان هذا الدين أضغم حقيقة وأصلب عودا وأعسق جذورا من ان تغلج في القضاء عليه هذه الجهود والمحاولات الضخمة والحملات المدائية العنيفة ولا تلك الضربات الوحشية القاسية التي توجه لطلائع البحث الاسلامي في كل مكان . فقد صمد الاسلام خلال تاريخه الطويل لما هو أعنف وأقسى من هذه الحملات والضربات حين كافح هجمات التتار الشرسة وحملات الصليبيين العنيفة ، وقد حقق المسلمون انتصارات عظيمة حفظ الله بها هذا الدين من مكر العدو والجبار كما حفظ بها الجماعات المسلمة التي جاهدت في سبيل الدفاع عن هذا الدين وحماية الاوطان الاسلامية من عبث المباشين وحقد الحاقدين ، ورغم كل ما نراه من حولنا اليوم من ضخامة الاسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية المادية وقوة صراع الغرب وهوائه للاسلام ووسائل كيد المنتشرة هنا وهناك وقسوة الضربات - التي يكيلها للامة الاسلامية لمنع عودة الاسلام مرة أخرى الى مركز القوة والقيادة في العالم فلا يخالجننا ادنى الشك ان الاسلام سيخرج من هذا الصراع العنيف المدمر بإذن الله منتصرا لما فيه من عناصر القوة الذاتية وبقوة صمود اهله للحملات والضربات

وجهادهم في الله حق الجهاد .

لقد رأينا من خلال العرض السابق في هذا الباب تلك الجهود الضخمة التي بذلتها حركات البعث الاسلامي على مدى قرنين من الزمن في سبيل الاصلاح والبناء والذود عن حياض الدين ودوره الاخطار المحدقة بالامة الاسلامية واصلاح حالها عقديا وفكريا وسلوكيا واخلاقيا واعادة بناء المجتمع على الاسس القويمية الصالحة . وقد تعرضت الحركات بسبب دعوتها الاصلاحية هذه لضربات وحشية قاسية من قوى الاستعمار الصليبي والصهيونية العالمية والسلطات المحلية المتأثرة باتجاهات الضرب وطرائقه **والعجيبة** لقوى الاستعمار الغربي . وليس غريبا أبسدا أن تتصدى القوى الصليبية والصهيونية لهذه الحركات وتخطط للقضاء عليها وتحطيم قوتها بكل ما تملك من وسائل الكيد والمكر فهي عدو قديم لدود للاسلام حاقد على المسلمين لا تلتقي على شيء الا على محادة الاسلام والكيد له والفرع من ظهور قوته وقيام حركة بعث اصلاحى في المسلمين . " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . . (١) الآية " يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . " (٢) " ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . . (٣) الآية " ولكن الضريب حقا أن الحركات الاسلامية قد نالت من عناد أبناء المسلمين عملاء الاستعمار ورهاب اليهود ومن عنيتهم واضطهادهم ما لم تنله على أيدي الاعداء الصليبيين واليهود أنفسهم فقد رصد هؤلاء العملاء في طريق هذه الحركات كل الموائق والمعوقات ولجأوا الى قوة البطش وأعمال التمذيب والتنكيل للقضاء على هذه الحركات وتحطيم قوتها وتصفية ساحة النضال الشعبي من العناصر الاسلامية الصالحة والنشاط الحركي الاسلامي ، كما رأينا ذلك في المصاعى المنيفة وأعمال الفساد والتخريب التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك وأتباعه للقضاء على الاسلام وحضارته في تركيا وتحطيم حركة جماعة النور . وكذلك المحاولات الضخمة التي بذلتها

(١) سورة البقرة آية ( ١٢٠ )

(٢) سورة التوبة آية ( ٣٢ )

(٣) سورة البقرة آية ( ١٧٧ )

السلطات المحلية الموالية للاستعمار الصليبي لضرب الحركات الاسلامية ضربة قاسية عنيفة في كل من مصر وباكستان واندونيسيا وايران وسوريا والعراق و الاردن (١) وغينيا وغيرها من البلدان الاسلامية. وهذا كله من جانب ومن جانب آخر فإن الحركات الاسلامية بجهودها الكبيرة وبرامجها وخططها ووسائلها المتعددة قد استطاعت أن تحقق بعض أهدافها في سبيل الإصلاح والبناء ولكنها لم تتمكن من بعد من تحقيق غايتها المنشودة من إقامة المجتمع المسلم على الاسس الاسلامية القويمة وبناء الدولة الاسلامية التي تقيم دين الله في الارض وتحكم شريعته وتطبق تعاليم الدين وتسير على هديّه وتوجيهاته وتوحد صفوف المسلمين وتجمع كلمتهم ليصبحوا أمة واحدة مترابطة متضامنة متعاونة قوية مرهوبة الجانب. وليس السبب الرئيسي في عدم التمكن من تحقيق هذه الغاية هو وجود خلل أو نقائص في الاسس التي تبنيتها هذه الحركات ولا خططها ووسائلها في سير العمل لأن ما يحدث في البناء من خلل بسبب ما قد يكون في الخطط المرسومة من نقائص وأخطاء يمكن التغلب عليه بمون الله وتوفيقه في مستقبل الايام عن طريق المعرفة والخبرة والتجارب. ولكن السبب الحقيقي الذي حال دون تحقيق هذه الغاية هو المواقف والعقبات المرصودة في طريق هذه الحركات وقوة البطش واعمال القمع والابادة الى جانب ما نشاهده في انحاء المجتمعات الاسلامية وفي شتى مجالات الحياة من عمق آثار الاحتلال الاجنبي وانتشار مذاهب الغرب وافكاره وطرائقه ووسائل غزوه الفكرى الذى مسخ العقول والافهام وشوه المبادئ والقيم الاصيلة وزعزع العقيدة الدينية في النفوس وأهل محلها قيما ومبادئ وافكارا أخرى مادية لادينية اكتسحت مجالات الحياة كلها واخترقت جميع الحواجز والسدود ووقرت في نفوس الطبقة

---

(١) وذلك في عهد الرئيس احمد سيكتوري زعيم الحزب الاشتراكي الذي سام علماء المسلمين سوء المذاب وعرضهم لأقسى أنواع الاضطهاد والتنكيل - وقد أعدم أحد عشر عالما في ثمانينيات القرن الرابع عشر الهجرى (بمئينيات هذا القرن الميلادى) .

المثقفة ثقافة أوروبية التي اعتنقت مذاهب الغرب وفلسفاته للحياة وقبلت السير فسي اتجاهاته وكانت تسمى بجد ونشاط بالذين لجعل المجتمعات الإسلامية صسورة مطابقة للمجتمعات الأوروبية أو قريبة منها في ترسم خطى الغرب واقتفاء اثره وتتبع سننه حذو القذة بالقذة فى الفكر والاخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والصادات والتقاليد .

وأريد هنا أن اجمل بعض القواعد الأساسية المهمة فى ميدان العمل الاسلامى وتنظيم شئون الدعوة والتخطيط لسير العمل ، وقد أخذ بهذه القواعد بمسفى الحركات التى عرضنا لها فى هذا الباب بينما قصر البعض الآخر منها فى بعض هذه القواعد حيث لم يعطه ما يستحقه من العناية والاهتمام . ويأتى التركيز على هذه القواعد هنا لأهميتها الكبيرة فى الظروف الحرجة التى تعيشها الأمة الإسلامية وطبيعة الصراع العنيف الذى تواجهه الأمة من المعسكرات المعادية ومن أجل مجابهة وسائل هذا الصراع وأساليبه المتعددة . وهذه القواعد كالآتى :  
أولا : وجوب الأخذ بفكرة الشمولية فى الحركة الإصلاحية بحيث تشمل جميع مجالات الحياة ولا تقصر الاهتمام على جانب معين محدود دون بقية الجوانب .

ثانيا : وجوب اتباع الطريقة المثلى لمعرفة الحق بالرجوع الى المصدرين الأساسيين .

الكتاب والسنة والبعيد عن الخلاف والتمصب الشديد للآراء والاتجاهات والتطرف الشديد والمخالفة الجافة والمعاداة بسبب الاختلاف فى الأمور الفرعية .

ثالثا : بذل الجهود لنشر الوعى الإسلامى وبمعث اليقظة الشاملة فى الأمة

الإسلامية عن طريق الحركة الهادفة والتربية المحلية المركزة واعداد

العدة الكاملة لحمل اعباء العمل الإسلامى فى شتى مجالات الحياة

والتخطيط الدقيق لتجنب الحركة ضربات الاعداء وبخاصة فى مرحلة

تكوين الحركة واعداد العناصر ونشر الدعوة .

رابعاً : وجوب اتخاذ موقف واضح تجاه الحضارة الغربية يبنى على اساس العلم والدراسة والبحث واتخاذ الوسائل الايجابية الواقعية لتنظيم حركة قوية لانعاش الحضارة الاسلامية ورفع مستواها الى المكانة اللائقة بها بين حضارات الامم .

خامساً : التصدي للنظريات والافكار والمذاهب والنظم الغربية لكشف عيوبها ومفاسدها وأخطارها واتخاذ اساليب ايجابية واقعية لمكافحتها بوضع مناهج عملية وبرامج تطبيقية لحقائق الاسلام وافكاره ونظمه في كافة مجالات الحياة .

وأما النقطة الاولى فمادام الاسلام منهجا متكاملًا لكافة شئون الحياة البشرية من العقائد والعبادات والمعاملات فان الواجب على الحركة الاسلامية الاصلاحية تنظيم عملها ونشاطها بحيث يشمل كافة مجالات الحياة كجمال العقيدة والفكر وسجال العبادة والشعائر وسجال الحكم والتشريع وسجال الاقتصاد وسجال الاخلاق والاجتماع وسجال العلم والثقافة وسجال الحضارة والصناعة وفنون الحرب . ولقد كان المفكرون المتنورون يأخذون على بعض الدعاة المصلحين وبعض الحركات الاصلاحية قصر الاهتمام على جانب ممين محدود دون بقية الجوانب المهمة بحيث يأتي نشاطهم جزئيا وناقصا . فان هؤلاء المصلحين مهما بذلوا من جهود في سبيل هذا الاصلاح الجزئي أو حققوا في هذا السجال المحدود من نجاح فسيظل عملهم ناقصا وإن لم يتناول جميع جوانب الحياة التي يشملها الاسلام بمبادئه وتعاليمه وتوجيهاته ، وسيحدث هناك فراغ كبير في المجالات التي لا يتناولها برنامج هذا الاصلاح الجزئي يضطر الناس لسده الى اللجوء الى الانظمة غير الاسلامية وبذلك لا يكون للاسلام الهيمنة الكاملة على كافة شئون حياتهم . ومن أمثال هذا الاصلاح الجزئي الناقص قصر الاهتمام على سجال التعليم الديني " والثقافة الدينية " مع اهمال جوانب العلوم العقلية والتطبيقية ، ومن ذلك ايضا قصر العناية على الجانب التربوي الروحي مع اهمال جانب الاعداد المادي



وكذلك ما ظهر في الآونة الأخيرة من حصر النشاط الاسلامي كله في مجال السياسة بفتح جبهات سياسية على غرار الاحزاب الدستورية في النظام الديمقراطي الغربي واعتبار طريقة الانتخابات وكسب اصوات الناخبين المسلمين أنجح وسيلة لتحقيق الغاية المنشودة من اقامة حكومة اسلامية واصلاح عام شامل في نظام الحياة في المجتمع المسلم . غير ان المنهج الاصلاحى الربانى يقرر أن تفيير الواقع السبىء في أمة لا يكون حتى يمهـد له الأرضية الفكرية الواسعة لأحداث التفيير الوجدانى النفسانى الذى يتركز عليه التفيير السلوكى الواقعى . . . . ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . (١) الآية وعلى هذا فمادام بنيان الفكر في المصر الحديث قائما على أسس علمانية "لادينية" فلا يمكن اقامة نظام الحياة الاسلامي في المجتمع الذى تسوده النظريات والافكار والنظم الغربية اللادينية الا بعد تحطيم أسس هذا الفكر المادى اللادينى أولا وارساء دعائم الفكر الاسلامي في هذا المجتمع ثم اتخاذ الاساليب والوسائل الايجابية التى يقرها الاسلام لبناء المجتمع واقامة الدولة الاسلامية ، لا أن تحاول الحركة تحقيق ذلك من طريق اتخاذ الوسائل والاساليب التى وضعها نظام آخر من الانظمة غير الاسلامية فقد دلت التجارب أن ذلك لا يجدى نفعا ولا يحقق الهدف . وقد يقال بأن الحزب " الاسلامي " سيعمل على تطهير ميدان العمل السياسى من الصراعات والتنافس الحادة وتطهير طريقة الانتخابات من أعمال الفس والخداع والتزوير وشراء الضائير والاصوات وترويج الكاذيب والادعاءات المريضة ، ولكن اذا كان باستطاعته الاعتماد عن هذه الامور كلها والتزام الطرق السليمة الصالحة فهل في مقدوره الزام الاحزاب الاخرى المنافسة باتباع طريقة أو أن هذه الاحزاب ستنتفع كثيرا من تخلى الحزب " الاسلامي " عن استخدام هذه الوسائل التى اصبحت الركائز الاساسية التى تعتمد عليها الاحزاب لتحقيق الفوز في الدول الديمقراطية وأما حول النقطة الثانية فيجب على الحركة الاسلامية أن تبني مبادئها

وأسسها على ضوء تعاليم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن تتبع الطريقة المثلى لمعرفة الحق بالرجوع الى هذين المصدرين الأساسيين ورد كل ما يختلف فيه مع أي جماعة من الجماعات الإسلامية إليهما . ويجب سلوك الطريقة السليمة الهادفة في البحث والدراسة والنقاش بفرض الوصول الى الحق الذي يستند له الدليل من كتاب أو سنة من دون اللجوء الى التأويلات البعيدة وتحصيل النصوص ما لا تحتل ومحاولة إخضاعها للاتجاهات الخاصة ، كما يجب أيضا البعد عن إثارة الخلاف واللجوء الى التطرف الشديد والغلاة الجافة والتصصب الشديد للآراء والاتجاهات . وكذلك يجب التركيز في الدعوة على أصول الدين لأنها الأركان الأساسية والدعائم الثابتة التي يقوم عليها بناء الإسلام ولكن يجب استقواء علوم العقائد نقية صافية من نصوص الكتاب والسنة لا من سفسطات أهل الكسلاط ومجادلاتهم الفلسفية المقيمة . وأما فروع الدين فالأوفق للحركة ان تحسب أول جهد هادفي التقريب بين وجهات النظر والتوفيق بين الآراء والسمي الجاد لانها خلاف ومحو آثاره من التنازع والمخافة والمعاداة حتى تجمع كلمة الأمة وتوحيدها صفوها . ويجب التأكيد هنا على حقيقة مهمة هي انه فضلا عن كون الإسلام يدعو الى الاتحاد والترابط والتعاون بين المسلمين ويحرم عليهم التنازع والتفريق والاختلاف فان طبيعة الصراع المحتدم في العصر الحديث بين الأمة الإسلامية والكتلة الغربية والشرقية المعادية تقضي بضرورة التنسيق بين الجماعات الإسلامية ونهذ الخلافات الجانبية التي شغلت الأمة عن قضاياها المهمة وتوحيد الصفوف وجمع الكلمة وحشد الجهود والتضامن والترابط والتعاون لمحاربة الأخطار الجسام التي تهدد الأمة بالتدمير والافناء . ويجب التركيز في الدعوة على أصول الدين لأنها الأساسيات وأما عن النقطة الثالثة فيجب على الحركة الإسلامية أن تقوم بجهد جبارة لتشر الوعي الإسلامي وتمت النقطة الشاملة في الأمة الإسلامية عن طريق الحركة الهادفة والتربية العملية الدقيقة على حقيقة الإسلام ومفهومه الصحيح الذي غاب عن أكر الصالحين ثم الى جانب ذلك يجب أن تسعى الحركة بجدا ونشاطا الى توحيد قناريه من التنازع والتناقض والتناقض حتى تتجسد كلمة الأمة وتوحيدها ويتركز على التأكيد على حقيقة الإسلام ومفهومه الصحيح الذي غاب عن أكر الصالحين ثم الى جانب ذلك يجب أن تسعى الحركة بجدا ونشاطا الى توحيد قناريه من التنازع والتناقض والتناقض حتى تتجسد كلمة الأمة وتوحيدها

لاعداد العدد الكاملة لحمل أعباء الدعوة ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار طبيعة الصراع وقوته وأشكاله وأساليبه حتى يكون الاعداد بمايكافي ذلك كله ويتناسب معه . من أجل ذلك يجب أن تولي اهتماما كبيرا لمجال العلم وخاصة التجريبي والتطبيقي للتطوير والتصنيع والاختراع حتى تجمع بين القوة الممنوية والمادية . ويجب على الحركة أن تتخذ خططا دقيقة وتدابير مناسبة لتجنيب الجماعة اخطار الاعداء وضرباتهم وخاصة في مرحلة التكوين والتشكيل ، ولا ينبغي التسرع الى الصدام بالقوى المادية سواء في داخل المجتمع المسلم أو في خارجيه قبل استكمال عناصر القوة الممنوية والمادية ويجب أن يتجنب المتهور والانفعالات والتعجل المشوائي ، فان الدعوة على مراتب ودرجات ، والتخطيط الدقيق في الدعوة والجهاد المستمر بشتى أنواعه ومراتبه وتنظيم العمل على المدى البعيد أنفع بكثير من الاعمال المرتجلة والانفعالات الخارجة من نطاق الدراسة الدقيقة للاوضاع واختيار الخطوات المناسبة للعمل . ولا ينبغي أن يتوقع المصلحون حدوث التغيير الكلى في المجتمع بين عشية وضحاها فان سنة الله في الحياة البشرية تأبى ذلك ، من أجل هذا يجب أن يوضع في الحسبان أنه مصادم الفساد لا يحدث في المجتمع دفعة واحدة فذلك عملية الاصلاح لا يمكن أن تتم في لحظات يسيرة . ونحن نعلم أن المجتمع المسلم اليوم يمانى مشكلات عويصة متعددة ولو أرادت جماعة حل هذه المشكلات واصلاح حال هذا المجتمع اصلاحا جذريا شاملا في حدود فترة قصيرة من الزمن وبأعمال ارتجالية لاتخضع للتخطيط الدقيق الشامل على المدى البعيد لما وجدت الى ذلك سبيلا لأن الامر يتطلب جهودا ضخمة منظمة ووقتا طويلا وكفاءة عالية في الماطين وتربية عملية مركزة طويلة المدى لتكوين العناصر الصالحة قد يستغرق ذلك عمر جيل كامل أو جيلين .

وأما النقطة الرابعة فهي وجوب اتخاذ الحركة الاسلامية موقفا واضحا

تجاه الحضارة الغربية يبنى على أساس العلم والدراسة والبحث لتفهم أسس هذه الحضارة والتعرف على أسرارها وما ينبثق منها من قيم ونظم وأفكار ، والوقوف على منافعها ومفاسدها ، وتمييز الخث من السمين ، وأخذ النافع الطيب وترك الضار النكد . ولكن لا ينبغي للحركة ان تقف عند حد الاستيعاب والانتفاع بمنجزات الحضارة الغربية بل عليها ان تأخذ بأسباب العلم المختلفة وبخاصة العلوم العقلية والتطبيقية وأن تسعى جاهدة لتنظيم حركة قوية لتأسيس النهضة الاسلامية على مقومات الحياة الاسلامية وانعاش الحضارة الاسلامية في كل اتجاه وتنميتها وتطويرها بما يتلاءم مع روح العصر وطبيعة الحياة . ولا ينبغي للحركة الاصلاحية الواعية أن تقف حيال طبيعة الحياة وسننها راكدة متجمدة دون تفاعل وحركة وانطلاق والى جانب ذلك يجب الحذر من الانسياق مع تيارات الحياة المادية بسدود رهي وهدي ورشاد . ان اتخاذ مثل هذا الموقف الواضح تجاه الحضارة الغربية لهو من الاهمية بمكان وبخاصة ونحن نعلم أننا نعيش اليوم في عصر " الملسم " و " التكنولوجيا " الذي زها بالانجازات المادية الهائلة التي تبهر العقول وتحير الافهام وتزعزع القيم والأسس الثابتة .

وأما النقطة الخامسة فهي وجوب تصدى الحركة الاصلاحية للمذاهب والافكار والنظريات والنظم الغربية الوافدة ، ولا يكفي في هذا الجانب مجرد شن حرب شعواء على هذه المذاهب والنظريات بإقامة الحججة على بطلانها وفسادها وكشف عيوبها وأخطارها والتحذير من مخبة اهتناقها وقبول السير في اتجاهاتها بل يجب الى جانب ذلك كله اتخاذ أساليب ايجابية واقعية لاستجلاء حقائق الاسلام وتوضيح أفكاره ومبادئه ووضع منهج عملي وبرنامج تطبيقي لهذه المبادئ والافكار والنظم في شتى مجالات الحياة البشرية ، يتناول هذا المنهج استجلاء وتوضيح نظام الحكم الاسلامي شكله وخصائصه ومقوماته والنظام الاجتماعي أسسه ومقوماته والنظام الاقتصادي فلسفته وتشكيلاته وسياساته والنظام الدولي في علاقات الدول

وارتباطاتها بعضها مع بعض والنظام الاخلاقي مصدره وأساسه والسلطة التي يستمد منها . ويجب أن يغطي كل جانب من هذه الجوانب عنابة كبيرة من البحث التفصيلي والدراسة الدقيقة المستفيضة وأن يعرض بطريقة منظمة وأسلوب سهل يسر يلائم روح العصر وطبيعة الحياة حتى تكون مبادئ الاسلام وافكاره واضحة دون لبس أو غموض ويكون الناس على بصيرة من أمرهم . وبهذا العمل الجاد الثمر تستطيع الحركة ان تجابه أخطار مذاهب الغرب ونظريات التي اكتسحت جميع مجالات الحياة في المجتمعات الاسلامية . ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في دراسة كل جانب من جوانب الحياة أن الدين الاسلامي منهج متكامل شامل لجميع نواحي الحياة البشرية ، فهو يحتوى على المقومات الاساسية التي تنظم جوانب الحياة كلها وتتناول جميع اوجه نشاط البشر في كل جانب من هذه الجوانب وهذه المقومات جميعها في ترابط وتوافق وتداخل بحيث لا يمكن فصل بعضها عن بعض ولا اخراج جانب من الحياة في اطار مستقل عن بقية الجوانب .

.....

## الباب الرابع

طريقه الخلاص مما تقاينه الأمة  
الإسلامية ووسائل الإصلاح  
في سبيل استئناف حياة  
الإسلامية صحيحة.

## الباب الرابع :-

الفصل الأول :-

حاجة المسلمين اليوم الى الاسلام في صورته التطبيقية السليمة .

ان الامة الاسلامية خلال القرنين الاخيرين تعيش واقفا سيئا مترد يا تواجهه فيه موجة عاتية من الغزو الأجنبي اللاتيني ، وهي أعنف موجة عدائية خارجية واجهتها هذه الامة في تاريخها الطويل فقد اكتسحت بلاد المسلمين من أقصاها إلى أقصاها وبزت جميع الموجات المماثلة في عنفها وقوتها وفي شمولها وتأثيرها على حياة المسلمين كما فاقت جميع الصدمات والهزات التي زلزلت كيان هذه الامة . فقد دامت هذه الموجة المنيقة الأقطار الاسلامية كلها ونزل خطرهما بساحة المسلمين ولم يخل قطر ولا بلد ولا دار في بلاد المسلمين من آثار غزو أوروبا المخطط للاسلام والمسلمين . . . الغزو العسكري والسياسي والفكري والثقافي والاقتصادي والاجتماعي ولكن الخريب من طبيعة هذا الغزو الأجنبي المدمر أن الجانب المادي البشري من حضارة الغزاة قد بهر عقول معظم المسلمين وهزم أرواحهم وأنقذهم وعيهم ورشدهم ولم ينتبه منهم لما في هذا الغزو من أخطار ماحقة إلا عدد قليل ولم ينهض لصدد هذا العدوان ويجند القوى والطاقات والمواهب لدرء أخطار هذا الغزو ومحاربه آثاره السيئة إلا قلة قليلة من المسلمين . وإذا كان قد حدثت من قبل في المجتمع المسلم موجة الاحاد والزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية كما ظهرت ايضا موجة العقائد الباطلة فقد تصدى لها علماء المسلمين <sup>المجاهدون</sup> وقاوموها بسعة علمهم ورجاحة عقولهم وفهمهم الصحيح للاسلام ووعيهم السليم لما يجري في مجتمعهم وجهادهم في سبيل الذود عن حصى الدين حتى خرج الاسلام من هذه المحنة منتصرا محتفظا بأصالته وقوته وهويته لم يفقد شيئا من قيمه ومبادئه وأخلاقه وظل المجتمع المسلم كذلك محتفظا بحقوقات الحياة الاسلامية الاساسية دون أن تؤثر فيه موجة الاحاد والزندقة والعقائد الباطلة أو تطفئ على مجرى الحياة فيه كما حدث في هذا العصر الأخير

مع موجة " الحضارة " الغربية المادية اللادينية .

لقد كانت الفلسفات والنظريات التي غزت بها أوربا العالم الاسلامي قائمة على انكار الله تعالى وانكار قوته المصرفة لهذا العالم والتي أخرجت العالم من المدم الى الوجود ، وعلى انكار الدين وأسس وقيمه وانكار عالم الغيب والوحي والنهوات وانكار الشرائع السماوية وانكار القيم الروحية والاخلاقية ، ومن هذه الفلسفات والنظريات ما يبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء ومنها ما يبحث في علم النفس ومنها ما يبحث في الاقتصاد والسياسة ولكنها جميعها على اختلاف أسمائها ومباحثها وقواعدها وأهدافها تلتقي على النظرة المادية المحضة الى الانسان والكون والحياة والتعليل المادي الصرف لمظاهر الكون والحياة وحوادثهما وأفعال الانسان وتصرفاته في هذه الحياة<sup>(١)</sup> .

ان هذا الغزو الاجنبي اللاديني كان موجها لتحطيم أعز ما يملكه الاسلام من عقيدة وشريعة وقيم خلقية رفيعة ثابتة وكان يستهدف الاجيال الاسلامية الناشئة أعز أبناء الاسلام وأقوى جنوده ، فيا ترى هل يبقى للامة الاسلامية وجودها الحقيقي وشخصيتها المتميزة وقوتها الفاعلة وسيادتها الحضارية بعد ضياع الدين وضياح أبناء الاسلام وسقوطهم صرعى تحت رحمة الغزاة الماكرين الحاقدين ؟ من أجل هذا تداعت الامم الاوروبية الى الامة الاسلامية منذ قرنين من الزمن تفزوها في حقول دارها غزوا فكريا مخططا تختصب فيه عقول شباب المسلمين وتعمل كل ما في وسعها لزمنة عقيدتهم وفتنتهم عن دينهم ونزع ثقتهم بالقيم الدينية والحقائق الايمانية والغيبية ، كما تفرس في عقولهم بذور الكفر والاحاد وتمحق في نفوسهم الايمان بفلسفاتها ونظرياتها المادية اللادينية في السياسة والاقتصاد والاجتماع وتصوراتها المادية عن الانسان والكون والحياة . وقد استطاعت على مدى هذا الزمن الطويل أن تكون من أبناء المسلمين طبقة كاملة متميزة ربتها على هذه الفلسفات والنظريات

(١) راجع كتاب " الى الاسلام من جديد " للعلامة ابي الحسن علي الحسيني الندوي ص ١٧٤ فصل " ردة ولا ابا بكر لها " .



وأشربتها روحها المادية ومسخت عقولها وخلقتها خلقا آخر حتى أصبحت خاضعة لسلطان الحضارة الغربية المادية وتياراتها اللادينية الجارفة خضوع الغربيين أنفسهم لسلطان هذه الحضارة أو أشد منه . وقد تقدم في الفصول السابقة حديث مستفيض عن هذه الطبقة المستغربة لا أحتاج معه هنا الى مزيد ايضاح أو بيان . وسأكتفى هنا بالقول بأن هذه الطبقة قد اعتنقت الفلسفات والنظريات الغربية وقبلت النظم وطرائق الحياة الغربية ودانت بالمقالية الاوربية وأصبحت تنظر اليها نظرة تقديس واجلال بالفين وغتخر بالانتساب اليها وتحقر كل ما يمارضها من الأديان والنظم والمقليات ، وكانت تستميت في سبيل نشرها والدعوة اليها وتوجيه حياة الشعوب الاسلامية نحو وجهتها المادية اللادينية وربط هذه الشعوب بتاريخ الامم الغربية وحضارتها وقطع الصلة بين المسلمين وتاريخهم وحضارتهم . وقد أصيبت هذه الطبقة بالهزيمة الروحية والعقلية والفكرية أمام الحضارة الغربية فاقتتت بها وانبهرت بها انبهارا كبيرا فقدت معه وعيها ورشدها ، وتكاد تكون هذه الطبقة على صورة واحدة في انحاء بلاد المسلمين . وكان من أبرز سماتها دعوى التطور والتقدم والحرية والتحرر والبراءة من الأديان والمقائد والقيم والتعاليم الدينية وكان هذه الطبقة قد جاءها من عند الغرب " دين " فيه هدى ونور لم يأت بمثله أحد من قبل ، وكان عقيدة الاسلام وشريعته منقوضة بما جاء به الغرب من الفلسفات والنظم . وهكذا أصبح الغرب المثل الاعلى لهذه الطبقة وقد وثها في كسل شئ حتى انها لتتلقى منه القول الفصل في تحديد مفهوم الدين وتحديد دائرته

صله .

ولقد أصبحت المجتمعات الاسلامية في هذا العصر الاخر تروج بالفلسفات والمذاهب والنظم الغربية وانتشر فيها الكفر والالحاد واطرد طغيان المادة على النفوس وأصبحت تؤثر على كل مبدأ ديني وعقيدة دينية واخذ الناس الى الأرض وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة واتبعوا خطوات الشيطان وخضعوا لسلطان الأهواء فانحطت قيمة الحياة وأصبحت تنحدر الى الهاوية يوما بعد يوم ففانى الناس شقوة

وأى شقوة فعمت البلاد والمباد أدران الجهل والظلم والفساد المريع .

ان مشكلة الامة الاسلامية اليوم ليست مشكلة انحطاط في الاخلاق وليست ضعفا في بعض الشعائر ولا انحرافا في السلوك ولا تقليدا للاجانب وتأثرا بطرائق حياتهم وهاداتهم وتقاليدهم وان كانت هذه مسائل تستحق من الدعاة المصلحين عناية كبيرة وجهادا مستمرا في سبيل الاصلاح والتقويم ولكن المشكلة اعظم من ذلك واضخم انها مسألة كفر وايمان انها مسألة بقاء الامة على الاسلام أو عودها مرة أخرى الى الجاهلية وخلقها لهذا الدين ونقضها لعراه ، هذه هي طبيعة الصراع القائم بين فلسفات الغرب ونظرياتهم ونظمهم وبين الاسلام وعقيدته وشريعته ونظامه ، وهذا هو الوضع الذي تعيشه الامة الاسلامية في أنحاء البلدان الاسلامية في العصر الحديث وعلى مدى مايقرب من قرن من الزمن .

لقد أصبحت المجتمعات الاسلامية تسير على الخط المماكن للدين حيث فقد الاسلام هيمنته الكاملة على شئون حياة المسلمين ولم يعد يطبق تطبيقا حقيقيا كاملا باعتباره عقيدة وعبادة وشريعة ونظاما وخلقاً وسلوكاً . وتضم هذه المجتمعات ناسا يسمون أنفسهم مسلمين ولا يخلون الاسلام تمثيلا حقيقيا كاملا ولا يحققون الصبورية الكاملة لله وحده ، فانهم وان لم يعتقدوا صراحة بالوهمية احد غير الله تعالى فقد صرفوا بعض خصائص الوهمية الله لغيره تعالى وأصبحوا يدينون بحاكمية البشر ويتلقون منها نظام الحياة والشرائع والقيم والموازين والمادات والتقاليد وكل مقومات الحياة تقريبا . وإنما نجد اليوم بعض هذه المجتمعات يعلن صراحة عن علمانيته وعدم علاقته بالدين أصلا وبعضها يعلن عن احترامه للدين ولكن على أساس اعتباره مجرد شعار تقليدي للدولة من دون أن يكون له سلطان وهيمنة على شئون الحياة العملية ، بينما نجد البعض الآخر من هذه المجتمعات ينكر الفيبية وكل مايتعلق بها ويؤمن أنه يقيم نظام حياته على " العلمية " اعتقادا منه أن العلمية تناقض الفيبية ، كما أن كثيرا من هذه المجتمعات يجمل الحاكمية الفعلية

للشعر يشعرون ما يشاءون ويحلفون ويحرمون من عند أنفسهم ويضعون القيم والموازين والنظم والقوانين . وهكذا تقوم الحياة العملية في هذه المجتمعات على ركيزة اليهودية للبشر والخلق من حاكمية البشر في نظام هذه الحياة ، وهكذا عطلت شريعة الله ومنهجه للحياة ورفضت القيم التي جعلها الله ثابتة في حياة البشر . ونحن نرى في هذه المجتمعات أن الناس وإن لم يمتصوا من أداء الشعائر التعبدية كالصلاة والزكاة والصيام والحج فقد حرمت عليهم المطالبة بإقامة منهج الله وتحكيم شريعته في شؤون الحياة . ويتجلى من ذلك كله مدى انكار هذه المجتمعات وتمطيلها لحاكمية الله المطلقة في الأرض وهي أخص خصائص ألوهيته تعالى . كما يتبين مدى رفضها لإقامة دين الله على حقيقة وتحقيق اليهودية الكاملة لله وحده دون سواه . (١)

إن المجتمع المسلم في خلال القرنين الأخيرين كان يعيش واقفاً سيئاً متردياً بلغ من الانحدار والهبوط مبلغاً لم تبلغه حاله قط حتى في عهود انحطاطه وتدنيسه السابقة . ففي هذا الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة الإسلامية في هذه المرحلة البصيرة من تاريخها غابت حقيقة الإسلام وخفى جوهره الأصيل وضاع مفهومه الصحيح الشامل في تصور المسلمين وفي واقع حياتهم . وقد امتحنت معالم الدين الحقيقية واستحالت حقيقة الدين صورة مزيفة مهلهلة ضعيفة وأصبحت الحياة الدينية والاجتماعية خاوية من عناصر القوة الحقيقية ، فاقدة لاسس بنائها ومقوماتها الأساسية ، فقد أقيم بناء الحياة الدينية على دعائم الانحرافات والتشويهات والبدع والخرافات والمعتقدات الباطلة التي أصبحت تمتص حقيقة الدين وجوهره في نظر عامة المسلمين وخاصتهم ، وأقيم بناء الحياة الاجتماعية على دعائم الفلسفات والنظريات الضربية اللادينية واستوردت النظم والقوانين الغربية وطرائق الحياة الغربية ووجهت حياة الأمة الإسلامية نحو الوجهة الغربية المادية اللادينية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والثقافة والتعليم والفن وفي العادات والتقاليد ، ولولا أن الإسلام دين منزل من عند الله الحلي القدير برسالة خاتمة إلى البشرية قاطبة وقد تكفل الله

(١) راجع الاستاذ سيد قطب، معالم في الطريق ص ١٢٤ - ١٢٦ ، فصل " لا اله الا الله منهج حياة " وكذلك ص ١٤١ - ١٤٢ فصل " الاسلام هو الحضارة .

بحفظه ورعايته لاصبح هذا الدين أثرا بعد حين بسبب ما أصابه من جهل أبنائه  
ونظرهم السقيم وفهمهم الخاطى \* وضمف ايمانهم بحقيقته ونبذهم لقيمه ومبادئه  
ونظمه وأخلاقياته وانهزامهم روحيا وعقليا وفكريا أمام كيد أعدائهم .

ان هذا الواقع السيئ \* وهذا الوضع <sup>المزرى</sup> المتردى الذى يعمشه المسلمون اليوم  
في انحاء مجتمعاتهم يقرر لنا حقيقة كبرى هى أن دين الله الذى جاء به رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قائما على حقيقة في هذه المجتمعات وأن السواد الأعظم ممن  
المنتسبين الى هذا الدين ليسوا على فهم صحيح لحقيقة هذا الدين كما  
فهمها المسلمون الا وائل الهداة المهديون بناء الحضارة وروادها وسادة الأمم  
والشعوب . ان الاسلام القائم والمطبق اليوم في هذه المجتمعات هو صورة مشوهة  
مخلوطة من عناصر غريبة لا يمت معظمها الى الدين الحق بأدنى صلة أو هو صورة  
جزئية ضئيلة تحوى ركائما من المظاهر الخاوية من الروح أو هو مفهوم ضيق محسود  
قاصر لا يمثل في حقيقة الامر الا جانبا ضئيلا من المعنى الكلى الشامل والمفهوم  
الواسع الكامل للاسلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم . ان اكبر  
تفسير وقع في حياة الامة الاسلامية هو أن حقيقة الاسلام وجوهره الأصيل قد تحول  
الى صورة مزيفة هزيلة ، وعلى مر الايام وكر السنين استولت هذه الصورة على الحياة  
الاسلامية من الناحيتين التصورية والسلوكية . وما من شك أن الصورة مهما كان ظاهرها  
مقدسا ومهما كان فيها قدر من الحق فانها لا تمثل الحقيقة الخالصة ولا تؤدى دورها  
ولا يكون لها أبدا ما للحقيقة من القوة والمطلان والتأثير . فقد رأينا ان الصورة  
المزيفة التى استحالت اليها الاسلام في قلوب المسلمين وفي واقع حياتهم قد فقدت  
قدرتها وسلطانها في البناء والتصميم والاصلاح ، ولم يكن في مقدورها اصلاح عادات  
المسلمين وتقاليدهم المنحرفة والتغلب على اهوائهم ومطامعهم الجامحة وقهر شهوات  
نفوسهم الخسيسة وتقويم سلوكهم وتهذيب اخلاقهم وهدايتهم الى الطريق الأقوم  
وتشبيثهم على جادة الحق المبين .

ان سر شقاء المسلمين اليوم وأصل مصائبهم وموضع الضعف في حياتهم هو أنهم قد اضاعوا حقيقة الاسلام واستبدلوا بها صورة جوفاء خاوية ، ان حقيقة الاسلام لم تغفل في احشائهم ولم تتسرب في عروقهم وشرابهم ، ان كلمات الاسلام التي كانت ذات سلطان عجيب وتأثير عميق وقوة دافعة جياشة في قلوب المسلمين الاوائل والتي لا يكاد احدهم يسميها حتى يعلن عن اذعانه وخضوعه لكل ما تتضمنه من معان ومآلها من مقتضيات وما تتطلبه من التزامات وثكاليف فيهم على نفسه ترك المؤلف من العادات والتقاليد وكبح جماح الشهوات والمطامع وقهر الهوى واحتمال المكآره وتجرع المرار وبذل النفس والمال في سبيل الله .. هذه الكلمات التي كان لها مثل هذا التأثير العميق في الأولين قد فقدت اليوم سلطانها على قلوب المسلمين وتأثيرها في واقع حياتهم رغم أن هذه الكلمات هي لم تبدل ولم تتغير وأن النفس البشرية أيضا هي لم تتغير ولم تتحسول . وعلينا أن نتساءل عن سبب تأثير هذه الكلمات في الأولين وعدم تأثيرها في الآخرين . أفليس المسلمون اليوم يؤمنون بالله وبرسوله واليوم الآخر والكتاب المنزل على رسول الله كما يؤمن الاولون ؟ أليسوا يصلون ويصومون ، ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام ويحلون القرآن أثناء الليل واطراف النهار ويردد احدهم كلمة الشهادة عدة مرات في كل يوم الى غير ذلك من أمور الدين ؟ واذا كان الامر كذلك فأين ثمرات الايمان ونتائج العبادات وأين ما وعد الله المؤمنين من الحياة الطيبة الموعودة والاستخلاف في الأرض والتمكين لهم ولد ينهم فيها والنصر المبين على الاعداء ما تحقق للمسلمين الأولين ؟ ان السبب الوحيد لهذا الاختلاف الكبير بين الاولين والآخرين وهذا التفاوت الكبير في نصيب الفريقين من وعد الله المبذول لعباده هو ان الاولين كانوا على حقيقة الاسلام ، كانوا مؤمنين حقيقيين جادين في اسلامهم صادقين مع الله تعالى صادقين مع انفسهم ، يقولون ويمثلون ويصومون ويحجون يتلقون الاوامر وينفذونها من فورهم . وقد كانت كلمات الاسلام تترع آذانهم بنبراتها فتغوص معانيها في أعماق قلوبهم وتستقر وتحدث فيها قوة دافعة تبشهم على الايمان

بجلائل الاعمال ومكارم الصفات . وأما المسلمون اليوم فقد أضاعوا حقيقة هذا الدين . . . انهم يتلفظون بكلمات الاسلام والايمان ولكنهم لا يفهمون حقيقتها ولا يدركون مفهوماتها الصحيحة ولا يستوعبون معانيها الواسعة ولا يمثلون حقيقتها ولا يلتزمون بحقيقاتها فلذلك نراهم تتعارض أفعالهم مع أقوالهم ويتناقض واقعهم حياتهم مع ما يدعون من الاسلام والايمان (١) ، ويكفى دليلا على ذلك ان الاسلام الذي اتخذه الاولون منهجا كاملا لشئون حياتهم الخاصة والعامة ونوا مجتمعهم على أسسه ودعائمه واصطبغت به حياة أفراد هذا المجتمع عقيدة وعبادة وشريعة ونظام حياة . . . هذا الاسلام قد أصبح لا يشغل في حياة المسلمين اليوم الا حيزا ضيقا محدودا لا يتجاوز - في أحسن صورة - الشرائع التمهيدية وجانب الأحوال الشخصية من الحياة الاجتماعية . هكذا أصبح الاسلام عند المسلمين في هذه الأيام الأخيرة ، ضاع جوهره وتقلص سلطانه وقل تأثيره . وهكذا أصبح المسلمون يعيشون في مآهات الجهل والانحراف ويرتمون في أجواء الظلمات التي جاء الاسلام ليخرجهم منها الى النور ، ولكنهم قد ذاقوا وبال أمرهم حيث ضاعت شخصيتهم المتميزة وتبدلت أحوالهم سوءا وتماسة وتهدرت معالم كينونتهم الحضارية وأصبحوا في ذيل قافلة الحياة يعيشون حياة بائسة شقية وتراكمت عليهم المشكلات والأزمات ولحققتهم الهزائم والنكبات المتعاقبة وزلزلتهم الصدمات والهزات المتكررة وهم الفساد والظلم أجواء مجتمعاتهم واصطلحت عليهم عوامل الضعف والوهن والذل والهوان وسلط الله عليهم عدوا من أنفسهم فأصبح بعضهم يضرب رقاب بعض ويتسلط بعضهم على رقاب الآخرين ويستذلهم وقد أصبح بأسهم بينهم شديدا وقلوبهم شتى فانحط شأنهم وضعفت قوتهم وهبطوا الى مصاف الذين يحرصون على حياة أى حياة يأخذون عرض هذا الدني ويقولون سيغفر لنا فانزعجت مصابتهم من قلوب أعدائهم فتداعوا عليهم من كل أفق وتجاسروا عليهم يسومونهم أشد العذاب ويجوسون خلال ديارهم يقتلونهم ويستعبدونهم وينتقونهم عن دينهم وعقيدتهم .

ولا شك أن هذا الوضع السيء الهابط الذي آل إليه حال المسلمين ليس

(١) اقرأ فصل "بين الصورة والحقيقة" من كتاب "الى الاسلام من جديد" للعلامة  
أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ٧٧ - ٩١

هو اللائق بهم ، فليس نصيبهم من الحياة هو الشقاء والتماسة والذل والهوان ، وليس مكانهم في ركب الحياة هو المؤخرة ولا ينبغي أن يكون ذلك أبداً ، ولم يحدث ذلك للمسلمين في عهدهم الذهبية حين أقاموا دين الله وطبقوا تعاليمه وعبادته وقيمته وشريعته تطبيقاً عملياً صحيحاً في واقع حياتهم وحققوا العبودية الكاملة لله تعالى وحده . . . ان الذي حدث للمسلمين الاوائل حين مثلوا حقيقة الاسلام تثبيلاً عملياً كاملاً هو أن الله تعالى مكن لهم ولد بينهم في الأرض فاستطاعوا ان يحققوا رسالة الاسلام داخل مجتمعاتهم وأن يقيموا فيه العدالة ويرفعوا فيه لواء الحق بين عباد الله وينشروا في ربوع بلادهم الخير والفضيلة ومكارم الاخلاق ثم أصبحوا بعد ذلك قسادة الامم والشعوب نحو الخير والصلاح والفضيلة ورواد الحضارة الانسانية الخيرة . ولكن اذا كان هذا هو شأن المسلمين في ماضيهم المجيد وهذا هو وضعهم الامثل فسي هذه الحياة فكيف تحول هذا الشأن العظيم وانقلب هذا الوضع الامثل سوءاً وتماسة ؟ كيف انحدر المسلمون من القمة الى الدرك الاسفل من الهاوية ؟ لماذا فشل المسلمون اليوم في تحقيق رسالة الاسلام في ذوات انفسهم وفي داخل مجتمعاتهم فضلاً عن فشلهم في تحقيقها خارج مجتمعاتهم وعلى مستوى البشرية جمعاء ؟ لماذا لم يتحقق فيهم وعد الله المبذول لعباده المؤمنين بالاستغلاف والتكئين في الأرض والنصر المبين على أعداء دينهم ؟ هذه التساؤلات هي ما حاولت الاجابة عليها في كل ما تقدم من الحديث عن الواقع السيئ الذي يعيشه المسلمون اليوم . فاذا اتضح لنا الاسباب التي أدت الى قيام هذا الواقع فاننا سندرك مدى الحاجة المسلمين اليوم الى حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل وصورته التطبيقية السليمة . ان المسلمين بحاجة الى الاسلام الذي كان عليه المسلمون الاوائل لكي يستطيعوا ان يقوموا بالخلافة عن الله في الأرض على وجهها الصحيح وذلك بتحقيق العبودية الكاملة لله وحده واقامة منهج الله وتكليم شريعته في شئون حياتهم كلها وتطبيق القيم والتعاليم والتوجيهات الاخلاقية التي قررها الاسلام وكذلك بالتعرف على النواصير الكونية التي أودعها الله هذا الكون لاستخدامها في ترقية الحياة وتفجير

ينابيع الأرزاق والأقوات واستخراج خامات الأرض وتصنيعها ، ولابد من الانتفاع فـى هذا السبيل بالخبرات الفنية التى اكتسبها الانسان عبر تاريخه الطويل والانطلاق فى ذلك نحو الابداع والابتكار والتطوير لخير البشرية ومصلحتها .

ان طريق الخلاص مما يحانيه المسلمون اليوم من المشكلات والأزمات ومن الواقع السيئ المتردى الذى يعيشونه هو العود الى الاسلام فى جوهره وحقيقته وفى صورته التطبيقية السليمة . فليس هنالك من مخرج غير هذا السبيل ولا عاصم للمسلمين من الاخطار الجسم المهددة بهم الا الفرار الى الله تعالى والاعتصام بحبله المتين وإقامة دينه ومنهجه القويم . ان العوامل الداخلية والخارجية التى نخرت فى كيان الامة الاسلامية وأدت الى ضعف قوتها وذهاب عزها وزوال سلطانها وانتقال مركز قيادة البشرية منها الى غيرها . هذه العوامل لن تنقش سحابتها عن سماء المسلمين ولن تزول آثارها وأضرارها فى حياتهم حتى يرجعوا الى دينهم الذى بحدوا عنه وانحرفوا عن جاداته وأشاعوا معالمه الاساسية .

ان من أوجب الواجبات اليوم فى مجال العمل الاسلامى تفهيم المسلمين حقيقة الاسلام ودعوتهم الى تحقيق المبادئ الكاملة لله وحده وتطبيق تعاليم الدين ومبادئه وأخلاقياته تطبيقاً عملياً كاملاً . ان العقيدة الاسلامية الكبرى التى يتمثل فيها الاسلام ويقوم عليها وتمتد الدعامة الاولى والركيزة الاساسية لبناء المجتمع المسلم والقاعدة التى يقوم عليها منهج الحياة الاسلامية وهى عقيدة " لا اله الا الله محمد رسول الله " هذه العقيدة لم تعد مفهومة على حقيقتها عند معظم المسلمين وبالتالي لم تعد مطبقة تطبيقاً صحيحاً كاملاً فى المجتمعات الاسلامية . ان المفهوم الصحيح الشامل للعقيدة الالهية والوحدانية هو افراد الله تعالى بالالهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكية . افراده تعالى بذلك كله اعتقاداً فى القلب وعباداً فى الشعائر وشريعة فى واقع الحياة . هذه هى الصورة المتكاملة التى تعطى اقرار الانسان بهذه العقيدة وجوداً عملياً حقيقياً ويقوم عليه اعتبار هذا الانسان مسلماً



أو غير مسلم ، ومعنى ذلك فى لغة الحقيقة والواقع ان هذه العقيدة تنشىء منهجنا كاملا للحياة الانسانية وأن المعتنقين لهذه العقيدة يجب أن تعود حياتهم فسمى جعلتها وتفصيلها الى الله تعالى ، يجب أن يصدروا فى كل شأن من شئون هذه الحياة عن أمر الله ويسيروا وفق ارادته ويتبعوا هديه ومنهجه . وأن المطر الذى يعرفون منه هذا المنهج الربانى ويتلقون منه كيفية العبودية الحققة لله تعالى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المكلف من عند الله تعالى بتبليغهم ذلك . وهذا يوضح لنا المدلول العظمى الصحيح لشهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " ودين الاسلام مبنى على اصلين ، على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شىء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وهذان هما حقيقة قولنا " اشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله " فالأول هو الذى تأله القلوب عبادة واستماعة ومحبة وتعظيم وخوفا ورجاء واجلالا واكراما والله عز وجل له حق لا يشاركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ولا يدعى الا الله ولا يخاف الا الله ولا يطاع الا الله <sup>(١)</sup> وأما الشهادة أن محمدا رسول الله فهى تتضمن تصديقه فى كل ما اخبر وطاعته فى كل ما أمر . ومنذ اللحظة الأولى من اسلام المسلم وقبوله هذه العقيدة يكون قد دخل فى عهد جديد منفصل ومستقل عما كان عليه قبل ذلك ، ويترأى من كل صور حياته الجاهلية القديمة ومن ملابس هذه الحياة والتزاماتها وروابطها وعلاقاتها وقياداتها وبذلك تتبدل ركائز حياتها ومقوماتها وتتغير أنماطها وينتقل الى عالم جديد تتغير فيه حياته تغيرا شاملا يمتزج فيها الانسان كل اوضاع الحياة الجاهلية وقيمها وتقاليدها ليتخذ لنفسه اوضاعا أخرى وقيما وتقاليدها خيرا مما كان عليه بما لا يقاس وأرفع منه بما لا يطاول فى ظل منهج الله الذى يبلغ به الصلوة المستوى الكريم اللائق بحياة الانسان . ولا بد أن يتحقق ذلك فى الافراد الداخلين فى الاسلام من اللحظة الأولى من اعتناقهم

لعقيدة الاسلام ولا بد أن يبقوا كذلك طول حياتهم فان اعتبارهم مسلمين لا يكون  
الابد لك . وكذلك الحال في الجماعات فان وجود المجتمع المسلم لا يتحقق في واقع  
الامر الا بتحقيق هذا الامر فلا تثبت صفة الاسلام للمجتمع بمجرد اعتناق أفراد  
عقيدة الاسلام في قلوبهم مهما بلغ عددهم من الكثرة ما لم يتحملوا الاسلام واقصا  
عليا ويحققوا العبودية الكاملة لله وحده ويتبعوا منهج الله في صورته المتكاملة فسي  
شئون حياتهم كلها . وان ما بعد هذه العقيدة الاسلامية الكبرى من أركان الايمان  
وقواعد الاسلام ومبادئه وقيمه وتعاليمه انما هو من مقتضيات هذه العقيدة ، فالايان  
باليوم الآخر والكتب والرسل والملائكة والقدر خيره وشره وكذلك الصلاة والزكاة  
والصيام والحج ثم المعاملات والتشريعات والتوجيهات الاخلاقية كل ذلك انما يقوم  
على قاعدة العبودية الحقة لله وحده كما أن المصدر الوحيد لتلقى هذه العقيدة  
وجميع مقتضياتها التي تمثل في مجموعها المنهج الرباني للحياة الانسانية . . هذا  
المصدر الوحيد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاء به من عند الله تعالى من الحق المبين في  
كتاب الله العزيز والسنة المطهرة . فلا بد ان من تحقق هذه العقيدة وجميع مقتضياتها  
تحققا ملما في كل فخراد حتى يكون مسلما صحيحا ومفوضا صالحا في المجتمع المسلم  
الذي يتأسس بنيانه على هذه العقيدة ويقوم منهج الحياة فيه جملة وتفصيلا على  
ركيزة العبودية لله وحده فلا ينفع الناس الاقرار بهذه العقيدة الا بتمثيل حقيقتها  
ومقتضياتها تمثيلا واقصيا . (١) والتوحيد هو الدين الذي لا يقبل الله غيره ، وبغيره لا يكون  
المسلم مسلما ، وهو حد الاسلام وأصل الدين ، والباقي من الدين فروع له منهية عليه  
مشروطة به وهو الاسلام العام الذي جاءت به جميع الرسل . . . ولا يقبل ركن من  
اركان الحد بغير الركن الآخر فلا يقبل تصديق بغير التزام ولا التزام بغير تصديق  
فلا بد من استيفاء الحد كله لاستحقاق الاسم والصفة ، وتخلف ركن من أركان الأصل

(١) راجع الاستاذ سيد قطب - محال في الطريق - ص ٦٤ - ٦٨ فصل نشأة المجتمع  
المسلم وخصائصه وكذلك ص ١١٣ - ١١٤ فصل " لا اله الا الله منهج حياة "

(١)

يتخلف به الأصل ، والدين يتخلف بتخلف الأصل ، ثم ان الاسلام ليس هو  
المصرفة فقط ولا المصرفة والاقرار فقط بل المصرفة والاقرار والقيام والتزام طاعته  
ودينه ظاهرا وباطنا .<sup>(٢)</sup>

وهذا البيان الضبط يوضح لنا مسائل اساسية في حقيقة هذا الدين ، فهو  
يوضح لنا أن هذا الدين استسلام مطلق للوهمية الله تعالى واذعان كامل وخضوع  
تام لأمره وقضائه . وأن الناس لا يكونون مسلمين بمجرد القول باللسان ولا بالتسليم  
والتحلي ولا بالانتساب العام الى الاسلام ولا بالايمان ببعض الكتاب والكفر ببعض  
وانما يكونون مسلمين حقيقة بالاستسلام لله تعالى وحده وعبادته وحده وطاعته وحده  
وتمثيل هذا الدين عقيدة وشريعة وعبادة والدخول فيه كافة واتباع هديه ومنهجيه ،  
كما أن المجتمع لا يكون اسلاميا الا بإقامة بنيانه على دعائم العبودية الحققة لله تعالى  
وحده في الاعتقاد والتصوير وفي العبادات والشعائر وفي النظام والشرائع ثم بقيام  
هذا المجتمع فعلا بتنظيم شئون الحياة كلها على اساس هذه العبودية الخالصة  
لله وحده ووفق هديه ومنهجه . يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " الاسلام يتضمن  
الاستسلام لله وحده فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ومن لم يستسلم له كان مستكبرا  
عن عبادته والمشارك والمستكبر عن عبادته كافر ، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته  
وحده فهذا دين الاسلام الذي لا يقبل الله غيره . . . " فلا بد في الاسلام من  
التصديق بالوهمية الله تعالى والاقرار بها والالتزام بمقتضاها ولا بد من قبول شرع  
الله تعالى ورفض ما سواه ، وعبادة الله وحده ونفي العبادة عن غيره .

ان المسلمين اليوم بحاجة ماسة الى فهم عميق واسع لحقيقة الاسلام لكي يقيموا  
هذا الدين كما أراد الله تعالى ، انهم بحاجة الى جهد كبير لكي يرتفعوا الى مستوى

(١) الشيخ عبد المجيد الشاذلي ، حد الاسلام وحقيقة الايمان ، ١٠٥ - ١٠٦

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٧

(٣) من الرسالة التدمرية ، ص ٦٠

هذا الدين . فيجب عليهم أن يكونوا على استعداد حقيقى للارتفاع الى مستوى  
 هذا الدين فى حقيقة ايمانهم بالله وفى حقيقة معرفتهم به لانهم لن يؤمنوا بالله  
 حق الايمان حتى يعرفوه حق المعرفة ، ويجب كذلك أن يرتفعوا الى مستوى هذا  
 الدين فى عبادتهم لانهم لن يعرفوا الله حق المعرفة حتى يعبدوه حق عبادته .

الفصل الثاني : وسائل الاصلاح في سبيل استئناف حياة اسلامية  
صحيحة .

أولا : في مجال الدعوة

ثانيا : في مجال الفكر والثقافة والتعليم

ثالثا : في مجال الاعلام

رابعا : في مجال التربية العملية المركزة .

## الفصل الثاني :-

### وسائل الاصلاح فى سبيل استئناف حياة اسلامية صحيحة

قررت فى الفصل السابق أن الامة الاسلامية احوج ما تكون فى هذا العصر الى المودة الى حقيقة الاسلام وصورته التطبيقية السليمة اذا ارادت التخلص من كل ما تصانیه من الازمات الموبقة والمشكلات القاصمة التى ظلت تتردى فى حماتها وتترغ فى وحلها منذ قرين طويلة، وقد بلغ الامر فى ذلك منتهاه فى هذا العصر حيث أصيب المسلمون بعصيبة عظيمة فادحة بزت جميع سابقاتها فى تدبير قوتهم وتحطيم مقومات حياتهم وتحويل وجهتهم فى الحياة الى الناحية المادية اللادينية .

ولسنا بحاجة هنا الى تكرار القول بأن المجتمع الاسلامى المعاصر قد بعد كثيرا عن حقيقة الاسلام وانحرف انحرفا كبيرا عن جادة هذا الدين وظه المستقيم فقد قصصنا أخبار هذا المجتمع فيما سبق من الحديث وبيننا أسباب انحرافه وعوامل ضعفه وتخلفه ومظاهر انحطاطه وتدنيه وأسباب انهيار بنائه وذبول حضارته . وقد رأينا كيف أصبح هذا المجتمع لا يحمل من سمات هذا الدين الاساسية المميزة ما يجعله جديرا بالاتصاف به فى حقيقة الامر .

ولسنا بحاجة كذلك الى تأكيد ما قلناه سابقا من أن المجتمع الاسلامى المعاصر قد صار الى الضعف والهوان والانحطاط والتخلف فى كافة مجالات الحياة بسبب انحرافه عن حقيقة الاسلام وبعده عن مفهومه الصحيح الشامل ، وليس استمساكه بهذا الدين وتعاليمه وقيمه هو الذى أورثه سوء الحال والبؤس والتماسة ، فلحاشا أن يكون الاسلام هو الذى جنى عليه ذلك كله فهو لم يكن قط مبعث الضعف والهبوط وانما هو منبع القوة وأداة الصعود والرفعة والانطلاق .

ان التهم الباطلة التى يلقيها الأعداء على هذا الدين لا يستندون فيها الى دليل غير الواقع المبهى الذى كان يعيشه المسلمون فى انحاء مجتمعاتهم وبخاصة منذ القرنين الأخيرين . وقد تلقف هذه التهم بعض أبناء المسلمين المستخفين

المنهزمين روحيا وعقليا واصبحوا يرمون الاسلام بها ويزعمون أنه منبع الضعف وأصل الشقاء والبلاء الذي تعانيه اليوم الشعوب الاسلامية في أنحاء العالم الاسلامي، ويدعونها الى قطع صلتها بهذا الدين وحضارته والارتقاء في أحضان أوروبا واقتفاء أثرها والسير في اتجاهها لتحقيق التقدم والازدهار. لا نريد أن نرد هنا على دعوى هؤلاء المفتونين بالحضارة الغربية، ولكننا نتساءل هل واقع هذه الشعوب بعد تلك الفترة الطويلة التي ارتمت فيها في أحضان الغرب وأخضعت له رقابها وولت وجهها شطره... هل واقع هذه الشعوب يصدق دعواهم هذه أو يكذبها؟

وبعد ذلك كله نريد أن نورد بعض التساؤلات ونحن في نهاية هذا البحث الذي يواجه واقع الأمة الاسلامية في العصر الحديث ويعرض اسباب ضعف هذه الأمة وتخلفها وعوامل هبوطها وانهارها ويبحث لها طريق الخلاص والنجاة ويتلمس لها أسباب القوة والصمود والرفعة... نريد أن نتساءل هل بإمكان المسلمين اليوم العودة الى حقيقة الاسلام واستئناف حياة اسلامية صحيحة تقوم على ركيزة المبادئ الحقة لله تعالى في العقيدة والشعائر والشريعة ومنهج الحياة حتى يطابقوا بين واقعهم المصلي في الحياة وبين ما يدعونه من الاسلام والايمان؟ وهل يكفي - في تطبيق الامل على امكان ذلك - الاعتماد على ما في الاسلام نفسه من عناصر القوة الذاتية، وأن المسلمين الأوائل استطاعوا أن يقيموا مجتمعا اسلاميا قويا في عهدهم الزاهرة؟ وقد علمنا ما وقع بعد ذلك في حياة المسلمين من انحرافات كثيرة أضاعت معالم الدين الاساسية وشوهت صورته الناصعة حتى بعدت الشقة بين المسلمين وحقيقة الاسلام وجوده. . . . . وعلمنا كذلك ما وقع في طبيعة الحياة الانسانية ومجالاتها المختلفة في العصر الاخير من تغيرات وتطورات متعددة مما يتبغى أن نحسب له حسابه. ثم ماذا هو طريق المسلمين الى اصلاح ما فسد من حالهم وتقويم ما اصابوا به من الاعوجاج والانحراف؟ وما هي وسائل هذا الاصلاح والتقويم؟ وأخيرا ما مدى قوة الأمل في النجاح اذا عقد المسلمون المعزم على العودة الصحيحة الى التمسك بالاسلام

وتطبيق تعاليمه تطبيقاً عملياً في واقع حياتهم وأخذوا بالأسباب الإيجابية التي يتطلبها الأمر ؟ هذه التساؤلات التي أوردناها ستفيدنا كثيراً في دراستنا لوسائل إصلاح المجتمع المسلم وكيفية عودة المسلمين إلى تطبيق الإسلام في واقع حياتهم . وعلى الرغم مما أحسه في قرارة نفسه من إيمان عميق وثيقين ثابت بإمكان عودة المسلمين إلى حقيقة هذا الدين واستئناف الحياة الإسلامية الصحيحة المتكاملة في هذا العصر وصلاحيته للإسلام للحياة البشرية في كل زمان ومكان . . رغم ذلك لا أريد أن أحصر نفسي في دائرة الرغبة والتفاؤل أو استرسل مع التخيلات المجردة فأقرر أن هذا الأمر سهل وميسور ولكنني أريد أن أنطلق من منطلق منطقي يستند إلى أسس عملية واقعية ويقدر المواقف والعقبات الجسام التي تترض طريق المسلمين إلى تحقيق هذا الأمر والمشكلات التي تعوق سبيل قافلته إذا بدأت في الانطلاق نحو غايتها المنشودة ، ويقدر كذلك الجهود والأعمال الضخيمة التي يجب أن يقوم بها المسلمون ، والتبعات الضخمة التي سيتحملونها في سبيل بلوغ المكانة اللائقة بهم في هذه الحياة . ونحن نعلم أن مجرد بحث الصيحات والصرخات في الأجواء لا يفي غنا ولا يحقق من الهدف شيئاً إن لم نقدر كل المواقف والعقبات التي تحول دون بلوغ الغاية ، ولم نضرب إلى الأعمال والتبعات التي يتطلبها الأمر ، ونوضح الوسائل الإيجابية الكفيلة بإعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية بإذن الله تعالى .

ولقد ظهرت بوادر الوعي الإسلامي الصحيح تحاول بجد وقوة وعزم إعادة تنظيم شؤون الحياة في المجتمع المسلم على دعائم الإسلام ومبادئه وقيمه وتعاليمه ، وإقامة نهضة إسلامية أصيلة قوية على نحو ما عرضنا للحديث عنه سابقاً في باب "حركات البحث الإسلامي في العصر الحديث" . ولكننا رأينا أن جهود الإصلاح والتقييم كانت دائماً تنوء بمبشرين ثقلين وترتطم بمقبتين ضخمتين . وهذان المبتان هما عبء "عصور الانحطاط والتدهور وما خلفته من آثار سيئة تتمثل في فشو الجهل وانتشار روح الجمود والركود والضعف والتخلف ، وعبء "عهد الاستعمار وطبيعية



المداء المتأصل في قلوب الغربيين ، وآثار غزوهم المخطط المدمر ووسائل كيدهم ومكرهم بالمسلمين ، وأبعاد التفسيرات الجذرية التي أحدثوها في حياة المسلمين في شتى مجالاتها حتى يقبض المسلمون ثقتهم في انفسهم وفي منابع قوتهم ومجدهم وسلطانهم وأصبح من الصغير على كثير منهم في الوقت الحاضر التخلص من سلطان الحضارة الغربية وسيطرة المفاهيم الاوربية على عقولهم وآثار ذلك كله في واقع حياتهم .

ان بعد الشقة بين المسلمين وحقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل وخروجهم بعيدا عن خط هذا الدين المستقيم فترة طويلة من الزمن يجهلون عودتهم اليوم الى الحياة الاسلامية الصحيحة المتكاملة امرا محقوقا بأنواع الصعوبات ، لان شئون حياتهم في كافة مجالاتها ، والدعائم التي يقوم عليها مجتمعهم ، واتجاهات المسلمين النفسية والعقلية والفكرية ومظاهر سلوكهم المعلى في الحياة... كل ذلك يقوم على ركائز معينة ويتجه نحو اتجاه خاص لا يمت بصلة الى الاسلام وقيمه ومبادئه . وان تغيير هذه الركائز واصلاح هذه الوجهة يحتاج الى عناية كبيرة وجهد ضخم على المدى الطويل وكلما امتد بنا الزمن دون أن نبدأ بعملية الاصلاح والتقويم ازدادت خطورة الوضع واشتدت صعوبة الاصلاح واحتياج الامر الى جهود اضخم وزمن أطول قبل تحقيق الغاية المنشودة .

هذا كله من جهة ومن جهة أخرى فان الامة الإسلامية تعيش اليوم في عالم سيطرت عليه الحضارة الغربية بعقليتها المادية وروحها اللادينية التي تتنافى تماما مع عقلية الاسلام وروحه . وان العالم الغربي الذي غزا المسلمين بهذه الحضارة واصابهم بلوثاتها عدو لدود لهم ولد ينهم وقد حاز التفوق عليهم في الناحية المادية من الحياة واستطاع ان يفرض سيطرته الكاملة على العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ، وهذا يشكل أكبر عقبة في طريق المسلمين الى استئناف الحياة الاسلامية الحقيقية . فهو وان لم يفلح في مدهم تماما عن هذا

الطريق فلا يزال يعمل لتحقيق الهوة الفاصلة بينهم وبين تحقيق غايتهم واعاقسة سيرهم الى النهضة الحقيقية التي يعتبرها خطرا كبيرا على وجوده ومركزه ومصلحته في الحياة . ولا يخفى أن هذا سيجعل خطواتنا ومحاولاتنا لتحقيق غايتنا بطيئة ، كما يجعل المراحل التي تمر بها طويلة متعددة والتعبات التي نتحملها في سبيل ذلك ضخمة جدا .

ولا يفهم من تقديرنا هذا للمقبات الجسام التي تواجه المسلمين في سبيل عودتهم الى حقيقة الاسلام وصورته التطبيقية الصحيحة ، والتعبات الضخمة والجهود المضاعفة التي يتطلبها الامر من جانبهم أن عودتهم الى الحياة الاسلامية الصحيحة في هذا العصر مستحيلة وممتعة ، فان كل ما أردنا أن نؤكد هنا هو أن هذا الامر صعب وعسير وان الطريق الى تحقيقه ملوء بمقبات تزيد وضع المسلمين تمقيدا وسوءا وتعوق سيرهم في سبيل الاصلاح وتثبط بعضهم عن النهوض بعملية الاصلاح وتبعث فيهم اليأس من نجاح المحاولة فيستسلمون للامر الواقع . . نريد أن نؤكد كذلك أن المسلمين لكي يقاوموا هذه العوامل المشبطة ويزيلوا هذه المقبات من طريقهم يحتاجون الى بذل جهود ضخمة وأعمال عظيمة وكفاح مرير وجهاد كبير . انهم يحتاجون قبل كل شيء الى ايمان عميق بدينهم ، وفهم صحيح واسع له ، واستعداد تام لقاومه على حقيقته في واقع حياتهم والارتفاع الى مستواه الرفيع . ويحتاجون الى يقين ثابت بأن العودة الى الاسلام هي الطريق الوحيد للخلاص من كل ما يعانونه اليوم في مجتمعاتهم من الاوضاع السيئة والمشكلات المتعددة ومآتني البشرية كذلك من الشقاوة والتماسة والازمات المتراكمة بعضها فوق بعض ، وبأن الضرورة القصوى تقضي في هذا العصر الى وجوب نهوض المسلمين بتنظيم عمل جاد مخطط في سبيل الاصلاح والتقويم لا قامسة بناء مجتمعاتهم على قواعد الاسلام وتعاليمه ، وتنظيم شؤون حياتهم وفق منهج الله وهدى وشريعته . انهم يحتاجون الى روح جهادية عالية تستلهم فوق أوضاع الارض وملا بسات الحياة وترتفع الى آفاق عالية من الايمان واليقين تجعلهم يتحملون



عن حقيقة الاسلام وعوامل ضعفهم وتخلفهم نرى وجوب اتخاذ الوسائل الآتية  
لاصلاح أوضاع المجتمع الاسلامي المعاصر .

أولاً : البدء باصلاح الانحرف العقيدى والتصورى وذلك بالتمهيد بحقائق  
الاسلام وقيمه واستجلاء تصوراته ومفاهيمه الصحيحة ورسم صورة واضحة  
مفصلة لمبادئ الاسلام وقيمه وتعاليمه ، الى جانب كشف العقائد الفاسدة  
والتصورات الباطلة وبيان عيوبها ونقائصها وأخطارها .

ثانياً : اصلاح نظام التعليم ومناهجه ووجهته وأهدافه واصلاح أسس الثقافة  
واساليب التفكير .

ثالثاً : تقويم وسائل الاعلام المختلفة وبنائها على قواعد الاسلام واصلاح وجهتها  
وأهدافها .

رابعاً : تنظيم برامج تربوية مركزة لاخراج جيل جديد يمثل حقيقة الاسلام فسي  
عقيدته وشعائره وشريعاته ومنهجه للحياة وذلك بالدعوة الهادفة ونشر  
الوعي الصحيح والتربية العملية على الأصول الاسلامية الصحيحة لاعادة تكوين الفرد  
المسلم و تكوين الاسرة المسلمة ثم بناء المجتمع المسلم على أسس الاسلام وقيمه  
وتعاليمه .

#### أولاً : تعريف المسلمين بحقائق الاسلام وقيمه ومفهوماته الصحيحة :

النقطة الاولى من هذه الوسائل الاصلاحية هي تعريف المسلمين بحقائق  
الاسلام وقيمه ومبادئه وتوضيح معانيها الصحيحة ومفهوماتها الشاملة لهم . وقد  
رأينا ماوقع فيه المسلمون في القرون الاخيرة من انحرافات متعددة في ناحية التصور  
العقيدى وفي ناحية السلوك العطلى في واقع الحياة وذلك بسبب جهلهم وسوء فهمهم  
لحقيقة دينهم وآفاق شريعة الله ومنهجه للحياة ، وتأثرهم بفلسفات الأمم فيفسر  
الاسلامية ونظرياتهم وأفكارها على نحو ما عرضناه في فصول سابقة من هذا البحث .  
ولكى نصلح هذه الانحرافات التصورية والسلوكية اصلاحاً جذرياً شاملاً يجب البدء  
بناحية التصور العقيدى لبيان الاصول العامة والقواعد الكلية وتوضيح الحقائق والقيم



في ذلك أصول الاعتقاد والشعائر التعبدية والشرائع والقيم والمناهج التي تحكم حياة البشر .

ويجب كذلك أن نبين لهؤلاء الصالحين المفهوم الصحيح لمقيدة الوهية لله تعالى ووحدانيته والايان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونشرح لهم مقتضيات هذه المقيدة ومستلزماتها من أركان الايمان وقواعد الاسلام والتشريعات والمعاملات والتوجيهات الاخلاقية . . يجب أن نوضح لهم معنى كل ركن من أركان الاسلام وكل قاعدة من قواعد وكل مبدأ من مبادئ التشريعية والاخلاقية ، ونشرح لهم مفهومه الصحيح وآفاقه الواسعة ومقتضياته الشاملة وارتباطه ببقية الأركان والقواعد والمبادئ والتعاليم . وان المقيدة الاسلامية تمثل منهاجاً كاملاً للحياة فهي تنبئ للمسلمين تصوراً خاصاً لحقيقة الوهية وحقيقة الكون وحقيقة الحياة وحقيقة الانسان وتحدد لهم منهاجاً ذاتياً مستقلاً ينبثق عن هذا التصور ويقوم على أساسه لتنظيم شؤون الحياة البشرية .

ويجب كذلك أن نبين للمسلمين حقيقة العبودية لله تعالى وهذه وأنها غاية وجود الانسان في الحياة ، وأن صورة العبودية الصحيحة لله تعالى تتمثل في التلقى عن الله وحده المقائد والشعائر والشرائع والقوانين والتحرر الكامل من العبودية للبشر في أي صورة من الصور . وأن صورة عبودية البشر للبشر تتمثل في تشريع بعض الناس للناس ما لم يأذن به الله وتلقى الناس ما شرعه بعضهم من النظم والشرائع والقوانين والقيم والموازين والعادات والتقاليد ورفضهم شريعة الله ومنهجه للحياة . وانه لا يتم التحرر الكامل من العبودية للبشر الا عندما تكون الحاكمة العليا في المجتمع لله وحده بتطبيق شريعته واقامة منهجه للحياة .

وانما اتضحت في اذهان المسلمين هذه الحقائق الاسلامية الكبرى وغيرها من العبادات والقيم الاساسية فانهم سيدركون ان الاسلام له تصوره الكامل المستقل للوجود والحياة وله منهجه الذاتي المستقل للحياة كلها ونظامه الكامل

الذى يقوم على أساس هذا التصور لتنظيم شؤون هذه الحياة ، وهذا الإدراك الواعى والفهم الصحيح يتبين لهم أن انتقالهم من أى وضع من الأوضاع البشرية الى هذا الدين ليس مجرد أحداث تخييرات طفيفة في جزئيات امور الحياة — من ناحية التصور ومن ناحية السلوك ولكنه نقلة بعيدة واسعة من كل التصورات والمذاهب السائدة والنظم والأوضاع والقوانين القائمة في الارض الى منهج الله وحكمه وشريعته ، كما يتبين لهم أيضا ان هذا الدين لا يستقيم ابدا مع أى لون من ألوان الجاهلية ولا مع أى شكل من اشكالها لا بالاصطلاح مع تصوراتها وأوضاعها ولا بانصاف الحلول معها ، فلا يمكن ان يخلط الاسلام بغيره ولا ينبغي أن يتلون المسلم بكل لون وأن يقيم حياته على دعائم ومقومات بعضها من الاسلام وبعضها الآخر من التصورات والنظم والأوضاع غير الاسلامية لأن البنية الحقيقية القائمة بين الاسلام والجاهلية في شتى صورها واشكالها لا يمكن ان يحقد فوقها جسر للالتقاء والاندماج والتزاج ولكن فقط لينتقل عليه أهل هذه الجاهلية الى الاسلام .

وفي سبيل تعريف الناس بحقائق الاسلام ومبادئه وقيمه وتعاليمه يجب أن نرسم لهم صورة واضحة مفصلة تجسد هذه المبادئ والقيم والتعاليم وتبين لهم منهج الاسلام في التصور العقيدى وفي نظام الحكم وفي نظام المال وفي النظام الاجتماعى والاخلاقي حتى يكون المسلمون على بصيرة من أمرهم ويعلموا أن ما يقدمه الاسلام لهم من تصور لحقائق الحياة البشرية ومنهج لتنظيم شؤونها هو الاقوم والامثل الذى يحقق لهم الخير والسعادة والامن والاستقرار بما لا ترقى اليه التجارب البشرية في قليل أو كثير . وإلى جانب ذلك يجب أن نكشف المقائيد الباطلة ونبين التصورات والقيم الفاسدة والمفاهيم الخاطئة التى تسود المجتمعات البشرية اليوم . . . يجب أن نبين للناس عيوبها ومفاسدها وضلالها وأخطارها ، وسبيلنا لمواجهة هذه العقائد والفلسفات والتصورات والمذاهب ومقاومة آثارها السيئة في حياة الناس هو أن نتخذ لها الوسائل الايجابية والاساليب العملية السليمة بتوضيح حقائق الاسلام وتصوراتها ومفاهيمه الصحيحة ودعوة الناس الى التمسك

بها واقامة شئون حياتهم كلها وفق هدى الله ومنهجه وشريعته ، وكذلك يكشف  
الفلسفات والنظريات والمفاهيم الباطلة وتحذير الناس من مفسداتها وضلالاتها ،  
ويجب أن نسلك في دعوتنا هذه سبيل الحكمة التي أمر الله بها والبصيرة التي دعا  
إليها \* ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة... (١) قل هذه سبيلي ادعوا  
الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني... (٢) فليس المقصود هو إثارة اصحاب هذه العقائد  
والنظريات الفاسدة بقدر ما نهدف الى تعليمهم الدين الحق ودعوتهم الى منهج  
الله القويم الذي فيه الخير والصلاح والسعادة للبشرية .

ويجب أن نبادر الى القول هنا أن طرق التعريف بحقائق الاسلام وقيمه  
وتعاليمه لا تنحصر في الوعظ والارشاد والقاء الخطب والمحاضرات الدينية كما يتبادر  
الى اذهان الناس اليوم ولكنها تشمل في حقيقة الامر مجالات كثيرة منها مجال  
الدعوة الهادفة ونشر الوعي الصحيح ومجال الفكر والثقافة ومجال التربية والتعليم  
ومجال الاعلام والنشر على ما سنبينه فيما بعد ان شاء الله تعالى .

## ثانياً : مجال الفكر والثقافة والتعليم .

وأما عن الوسيلة الثانية وهي اصلاح اسس الثقافة وأساليب التفكير ونظم  
التعليم ومناهجه ووجهته وأهدافه فنحن أن نقدم تمهيداً موجزاً نبين فيه ما تعنيه  
الأمة الاسلامية من المشكلات في مجال الفكر والثقافة والتعليم ثم بعد ذلك نشرح  
خطوات اصلاح في سبيل استئناف حياة اسلامية صحيحة .

كان للمسلمين تاريخ مجيد حافل في مجال الفكر والثقافة والتعليم خلال  
عصور ازدهار الحضارة الاسلامية. وقد شملت دراساتهم العلمية ميدان العلوم الشرعية

(١) سورة النحل آية (١٢٥)

(٢) سورة يوسف آية (١٠٨)



وميدان العلوم النظرية والعقلية ، الفلسفة وعلوم الرياضيات والعلوم الطبيعية وغيرها . ورغم أن الحركة العلمية التي ظهرت في العهد المباسي الأول كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية وغيرها ، وغير مؤسسة على الفكر الاسلامي الخالص والروح الاسلامي الصحيح ورغم ما فيها من مواضع الضعف من الناحية الدينية والعلمية فقد سادت العالم بأسره بقوتها ونشاطها ووضحت أمامها النظم العلمية القديمة ، واستطاع المسلمون أن يحققوا الزعامة العلمية والريادة الفكرية في العالم فترة طويلة من الزمن . ثم جاءت بعد ذلك عصور الانحطاط فتمرى المسلمون لجة من عوامل الضعف والوهن من تخلف علمي وجمود فكري وركود ثقافي وغير ذلك . وقد ظهرت أمارات هذا الضعف على الأمة الاسلامية بشكل واضح خلال العهد التركي ، وبلغ الامر منتهى الخطورة خلال عهد الاستعمار الاوربي للبلاد الاسلامية في القرنين الأخيرين .

وفي الوقت الذي أصبح فيه المسلمون يرتعون في حمأة التخلف العلمي والجمود الفكري وظهر عدم قدرتهم على الاحتفاظ بمكانتهم في القيادة العلمية والريادة الفكرية . . . في هذا الوقت نشطت أوروبا من عقال الجهل وفكت من أيديها وأرجلها أغلال التخلف والجمود ، فتوافد الطلاب الاوروبيون على معادل العلم في البلاد الاسلامية ، في الاندلس وصقلية والشام وبلاد شمال افريقيا ينهلون منها العلوم والمعارف ، ثم سار الغربيون قدما في سبيل اصلاح النظم العلمية السائدة وتطويرها باختباراتهم المحلية التجريبية ونقد هم العلمي ، حتى استطاعوا أن يضموا منها جمعا علميا جديدا في مجال البحث والدراسة والاكتشاف والاختراع والصناعة . ولكن النهضة العلمية الاوربية كانت قائمة على اساس النظرة المادية البحتة للحياة والروح الالحادية اللادينية . وقد غطت أوروبا كل ما في وسعها لاهضاع شعوب العالم لقبول السير على خط مناهجها العلمي والفكري وأسسها الثقافية . وعلى طول عهد استعمار أوروبا للبلاد الاسلامية فرضت القوى الاستعمارية سيطرتها الفكرية والثقافية على الشعوب الاسلامية فخضعت هذه الشعوب لمناهج الغزاة وطرائقهم ونظمهم تحت

وطأة السيطرة العسكرية والسياسية ثم حدثت بعد ذلك شدة الانهيار بالجانب  
المادى من الحضارة الغربية فشهد العالم الاسلامى موجة عاتية من التأثر بما عند  
الغرب وتقليده فى كل شىء وقبول اسلوب تفكيره ونظامه التعليمى وأسسها الثقافية .  
وهكذا أصبحت الأمة الاسلامية عالة على الغرب متطفلة على مائدته فى مجال الفكر  
والثقافة والتعليم وكانت تأخذ كل ما جاءها من الغرب فى هذا المجال حتى فى  
اللغة العربية وآدابها وعلومها وفى علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه وفى التاريخ  
الاسلامى وما الى ذلك ، وقد أصبح العقشرون هم المرشدين الوجهين فى البحث  
والتحقيق والدراسة والتأليف وهم المنتهى والمرجع والحجة فى النظريات العلمية  
والحقائق التاريخية وحتى فى الاحكام والافكار الاسلامية ، وقد اتخذهم الناس أسوة  
يقتدون بهم فى النقص والابرار فى هذه المجالات . وهكذا تغلخت أفكارهم  
ودعاياتهم فى الأوساط العلمية الحديثة فى العالم الاسلامى ، وأصبح لهم فى كل  
قطر من الأقطار الاسلامية تلاميذ وأنصار يدعون الى حصر مفهوم الدين فى نطاق ضيق  
محدود ، واعتباره قضية شخصية لا علاقة له بالمجتمع ، وانه عقيدة وعبادة لا شأن  
له بالسياسة والحكم ، وأن الحضارة الغربية هى أرقى ما وصل اليه العقل البشرى  
وانه لا منزلة فوقها ، ويدعون الى تطبيق هذه الحضارة برمتها وعلى علاتها فى بلاد  
المسلمين ، ويمتبرون الثقافة الغربية هى الوسيلة الوحيدة لتقدم الشعوب الاسلامية  
ونهبستها وازدهار مرافق الحياة فى بلادها .

من خلال هذا التمهيد الموجز يتبين لنا أن الأمة الاسلامية تعاني من مشكلتين  
عويصتين فى مجال الفكر والثقافة والتعليم هما مشكلة التخلف الملى والجمود الفكرى  
والركود الثقافى التى تعرضت لها منذ عصر الانحطاط ، ومشكلة سيطرة الحضارة  
الغربية وسيادة نظم الغرب وأساليبه وطرائقه فى مجال الفكر والثقافة والتعليم فى  
جميع انحاء البلدان الاسلامية . ان هاتين المشكلتين تعتبران عقبتين كبيرتين  
فى سبيلنا الى استئناف حياة اسلامية صحيحة ، فكما أننا لانستطيع أن نقيم نهضة  
اسلامية اصيلة بما نمانيه من ضعف علمى وتخلف فكرى وثقافى فكذلك لايتسنى لنا أبدا

أن نقيم هذه النهضة بطرق التفكير الغربي ومناهج التعليم الغربي والثقافة الغربية التي هي في صميمها معادية للمقيدة الإسلامية . ان ما يجب علينا أن نحسب حسابه ونحن نعمل لاقامة حياة اسلامية سليمة هو أنه لا ينبغي أن نحاول اقامة بناء هذه الحياة على أساس التفكير الراكد والثقافة المتخلفة التي ظلت الأمة الإسلامية تتعرض في وحلها منذ عصر الانحطاط، وكذلك لا ينبغي أن نحاول تجديد الحياة الإسلامية باستعادة طرق الغرب في التفكير ومناهجه ونظمه في التعليم وأساليبه فسي الحياة والسلوك، فان أى محاولة من هذا القبيل ستقود بالفشل الفريع وينتهى بنا الامر الى هدم الحياة التي نسمى لحياتها واقامتها لأننا قد عدلنا منذ الخطوة الأولى عن الطريق الصحيح الموصل الى تحقيق هذه الحياة . ومن هنا يتوارد علينا سؤال مهم جدا وهو ما قد منا له بهذا التمهيد الموجز حتى تأتي اجابتنا عليه واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض وهذا السؤال هو . . ما هي الخطوات التي يجب اتباعها لاصلاح نظام التعليم وأسلوب التفكير وأسس الثقافة وازالة العقبات التي تعترض طريق الأمة الإسلامية في هذا المجال لاستئناف حياة اسلامية صحيحة ؟ اذا اردنا أن نكون المقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس الافراد والجماعات فسي سبيل اقامة حياة اسلامية صحيحة فلا بد لنا أولا من العمل لازالة الضعف العلمي والجمود الفكري والتخلف الثقافي الذي يعانيه المسلمون في مجال العلوم الشرعية ومجال العلوم العقلية والنظرية ، ووضع تنظيم علمي جديد يقوم على حقيقة الاسلام وروحه وأسس العلمية والفكرية والثقافية الصحيحة ويهدف الى تحقيق رسالتهم وفياته السامية . ولا بد ثانيا من مواجهة نظم الغرب وطرائقه ومناهجه في مجال الفكر والثقافة والتعليم بنقد أسس هذه النظم والطرائق وكشف عيوبها ومفاسدها واخطارها ، والسعى الحثيث للتحرر منها .

وأما بالنسبة لمواجهة الحضارة الغربية بنقد أسسها وقيمها وما يتبع ذلك من نظم وطرائق ومناهج ، والسعى للتخلص من سيطرة الغرب في مجال الفكر والثقافة

والتعليم فيجب أن تعلم الأمة الاسلامية يقينا أنها لن تستطيع أن تثبت وجودها الحقيقي وتحقق لنفسها خصائصها المتميزة ما دامت ترض تحت سيطرة الغرب الفكرية والثقافية والعلمية وتخضع لمناهجه ونظمه وطرائقه وتقبل السير في ركابه مختارة راضية ، وإذا ما أرادت أن تحقق وجودها الحقيقي المتميز وتستأنف حياتها المتميزة الخصائص والمعالم والعقومات فلا بد لها من السعى الجاد لانها سيطرة الغرب ومقاومة خضوع المسلمين لحضارته وفك افلال المبودية والتبعية من أيديهم .

وعلى خط المواجهة للحضارة الغربية يجب أن يتصدى علماء المسلمين ومفكروهم لهذه الحضارة بنقد أسسها وقيمها وكشف أسس الثقافة الغربية وطرق تفكير الغرب ونظمه ومناهجه التعليمية وبيان وجوه الفساد والانحراف في افكاره وتصوراته ونظرياته واتجاهاته وأخلاقه وعاداته وتقاليده . وان هذا الأمر ليس بالهين السهل الميسور ، انه لمهمة كبيرة صعبة وعبا ثقيلا يحتاج المسلمون لحمله الى مقدرة كبيرة واستعداد كامل وعزيمة صادقة . . انهم يحتاجون قبل كل شئ الى التحرر في العلوم الاسلامية والتحقق فيها والتشبع بروح الاسلام والايمان القوى الراسخ بأصول هذا الدين وقيمه وتماليكه والفهم الصحيح الواسع لهذه الاصول والقيم والتمسك بهم ، ويحتاجون بحمد ذلك الى الاطاحة بالحضارة الغربية ومعرفة أسسها وقيمها واستيعاب علوم الغرب ومناهجه ونظمه وبلوغ مستوى التحقيق والنقد والتصحيح والتقويم في ذلك ، ثم انهم يحتاجون الى تنظيم حركة علمية قوية واسعة للتدوين والتأليف وتأسيس العلوم بشتى أنواعها على قواعد الاسلام وهدى بروحه . وان معاقل العلم والثقافة في العالم الاسلامي أولى من جامعات اوربا بأن تكون المراكز الرئيسية للثقافة الاسلامية والعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وآدابها والعلوم الانسانية بشتى فروعها ، وليس أدل على سقوط المهمة والرضا بالدون من أن يتنازل المسلمون للأوروبيين عن زعامتهم العلمية وريادتهم الفكرية والثقافية في تلك المجالات .

وأما عن وجوب السعى للتخلص من أسس ثقافة الغرب وطرق تفكيره ونظمه

ومناهجه التعليمية فيجب أن نبين هنا أن أسلوب التفكير الاسلامي الذي يجعل القيم الروحية والاخلاقية أعلى المقومات والقواعد التي تقوم عليها الحياة ويجعل الغايات الخلقية من الأعمال فوق المصالح المادية . . ان أسلوب هذا التفكير يختلف ككل الاختلاف عن أسلوب التفكير الغربي الذي يقيم بناء الحياة على اساس النظر المادية البحتة ويجعل المنافع المادية هي الغاية العليا للأعمال ، فلا يمكن أن يلتقي هذان الاسلوبان على صعيد فكري واحد بأي حال من الاحوال وذلك لما بينهما من تقابل وتمازج وتناقض . ولكن لا ينبغي أن يفهم من دعوتنا للتحرر من الحضارة الغربية والتخلص من ثقافة الغرب ونظمه وطرائقه ومناهجه أننا ندعو الى الحزلة الفكرية والثقافية والعلمية والانزواء عن ركب البشرية ، فليس هذا هو ما نهدف اليه ، وان النهضة الحضارية التي اقامتها اوربا هي في حقيقة الأمر ثراث انساني اشتركت فيه أمم العالم جميعا وللأمة الاسلامية فيه نصيب أصيل وافر . ولكن حينما نريد أن نؤسس العقيدة الاسلامية الصحيحة في نفوس الافراد والجماعات في سبيل استئناف حياة اسلامية سليمة في مثل هذا العصر الذي يعيش فيه المسلمون أسوأ حالة مرت بهم في تاريخهم الطويل ، وقد ظهر في هذا العصر طغيان الحضارة الغربية وخطورتها على الكيان الانساني بسبب قيامها على اساس النظر المادية البحتة للحياة والسرور الالحادية اللادينية واهدائها للقيم الانسانية الأصيلة ، كما ظهر ايضا فشل هذه الحضارة في تحقيق الخير والأمن والاستقرار للبشرية ، وما قامت بالبشرية اليه من قلق دائم وخصام مستمر وصراع عنيف وانحدار الى حضير الحيوانية رغم كل ما حققت من الانجازات المادية الهائلة . . حينما نريد تأسيس العقيدة الصحيحة وقد ظهرت لنا هذه المساوي\* والمفاسد التي تكثف الحضارة الغربية أفلا يجب علينا أن نأخذ الحذر والاحتراس من مآثرات هذه الحضارة ؟

وبعد ذلك كله ، نريد أن نبين رأينا حول طريقة التحرر من سيطرة الحضارة الغربية ، نريد أن نشرح سبيل المسلمين للتخلص من الثقافة الغربية ونظم التعاليم

الأوربي ومناهجه .

إذا عزم المسلمون على استئناف حياة إسلامية صحيحة وبناء مجتمع إسلامي قويم وتكوين العقيدة الإسلامية الخالصة في نفوس الأفراد والجماعات فإن من أوجب الواجبات عليهم أن يتخذوا موقفا حاسما من الحضارة الغربية ، يجب عليهم أن يفرقوا بين ما يصح أن يأخذوه وما لا ينبغي أن يأخذوه مما عند الغربيين ، يجب أن يكونوا في غاية الحذر والاحتراز في الاقتباس والاستيراد طول فترة التكوين وذلك لضمان الحماية اللازمة للعقيدة التي نريد أن نكونها في نفوس الناس حتى لا تختلط عند هم ولا تمتزج بموثرات المذاهب المقائدية الأخرى لأن هؤلاء الذين نريد إعادة تكوينهم على أسس الإسلام وقيمه وتعاليمه قد رضعوا وتغذوا من الغرب ولا يزالون يعيشون على فتات مائدته في مجال الفكر والثقافة والتعليم ، من أجل هذا يجب تمييز الخبيث من الطيب والتفريق بين الصالح النافع والفاسد الضار ما يأتينا من الغرب . وهناك كثير من العلوم يجب أن يكون المسلمون في غاية الحذر والاحتراز من اقتباسها من الغرب ، ومن ذلك الفلسفة والأدب والتاريخ والتشريع والعلوم الانسانية بشتى أنواعها وكذلك طرق التربية ونظم التعليم ومناهجه .

وأما عن الفلسفة فمعلوم أن فكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والانسان تختلف جمة وتفصيلا عن طهيمة الافكار الكلية الأخرى في المذاهب الفلسفية الغربية قد يما وحديثا . وعلى هذا يجب أن تبدأ مع طلابنا في مراحل التعليم الثانوي والجامعي (١) باعطائهم فلسفة الإسلام الصحيحة التي تكون في نفوسهم وأفكارهم أسسا وطبقة لروح الإسلام الصحيح وفكرته الواضحة الشاملة عن الكون والحياة والانسان والخير والشر والحمل والجزاء وما الى ذلك من المباحث الأساسية في العقيدة الإسلامية .

(١) وهي غير ما يسمى خطأ الفلسفة الإسلامية والتي تدرس في كليات أصول الدين في معظم جامعات العالم الإسلامي ، وهي لا تمثل حقيقة العقيدة الإسلامية الصحيحة بل هي انعكاسات الفلسفة الأغريقية على الفكر الإسلامي .

وأما الفلسفة الغربية فلا يصح أن نستورد ما وما يتبعها من مبادئ \* الأخلاق وطرق  
 العربية ونظم التعليم على علاتها ، ولا ينبغي أن ندرسها لطلابنا في القسم الثانوي  
 إطلاقاً . وأما في المرحلة الجامعية فيمكن أن ندرسها لطلاب قسم الفلسفة في السنتين  
 الأخيرتين وأما بالنسبة لطلاب الأقسام الأخرى فيمكن إعطاؤهم فكرة عامة عن الفلسفة  
 الغربية في السنة الأخيرة من دراستهم الجامعية \* وعلى أي حال يجب أن نضمن  
 إلى حد كبير ألا تؤثر هذه الفلسفة في شعور الطلاب ووجدانهم، يجب ألا ندرسها  
 لهم إلا مع الموازنة والمقارنة بينها وبين فلسفة الإسلام الصحيحة وبعد أن نمد لهم  
 أعداداً فكرية وعقلية صحيحة يمطيهم القدرة على الجدل والمناقشة وتصحيح الأفكار  
 الفاسدة وتقويم النظريات الخاطئة التي لا توافق أسس التفكير الإسلامي الأصيل .  
 ولا ينبغي أبداً أن نبدأ مع طلابنا بتدريس الفلسفة الغربية لهم قبل أن يتشبعوا  
 بالفكرة الإسلامية الكلية من الكون والحياة والانسان ، ولا يصح أن ندرس لهم هذه  
 الفلسفة خالصة من دون الموازنة والمقارنة والفقد على طريقة التفكير الإسلامي القويم  
 فان شأن الفلسفة خطير جداً في بناء الحياة وتشكيل سلوك الناس وتوجيههم وجهة  
 معينة في هذه الحياة .

وأما في مجال الأدب للدارسين المتخصصين في هذا النوع من الثقافة فيجب  
 أن تكون في غاية الحذر والاحتراز والوعي السليم في انتقاء واختيار ما تقدمه للناشئين  
 المسلمين من الآداب الغربية ، وذلك لأن الأدب يعتبر من أقوى المؤثرات في تكوين  
 فكرة وجدانية من الحياة لدى الأفراد وفي طبع نفوسهم بطابع خاص وفي توجيه  
 أفكارهم وجهة معينة في الحياة ، فهو يستقى من أصول الديانة ويتأثر أيا تأثرو  
 بالفلسفة التي تحكم حياة أي أمة من الأمم . من أجل هذا يجب أن ننتقي من الأدب  
 الغربي ما لا يفسد فطرة الناشئين السليمة ولا يؤذي وجدانهم ولا يلوث صفاء قلوبهم  
 ولا يضمف طاقاتهم الشعورية والتفكيرية ولا يفسد ما . يجب الحذر كل الحذر  
 حتى من الأدب الغربي الذي ينظر إلى الحياة نظرة روحية ومترف بالقيم الممنوعة

للحياة ، فهو وان يبدد مطلقا في روحه واتجاهه مع التفكير الاسلامي في صورته المامة فلا ينبغي أن يؤخذ هكذا حتى يصر على أسس الاسلام وقيمه وروحه ، وذلك لان الديانة النصرانية التي استقى منها هذا النوع من الأدب الغربي قد داخلها كثير من الانحرافات والتشوهات والتحريفات فهي تزخر بمجموعة كبيرة من الاعتقادات الباطلة والمفاهيم الخاطئة والقيم الاخلاقية المنحرفة ،

وأما في مادة التاريخ ، فان التاريخ المكتوب بأقلام الغربيين - سواء منه التاريخ الاسلامي أو التاريخ العالمي - لابد أن يتأثر بالفلسفة الغربية المادية والروح اللامادية اللادينية ، وحتى لو سلمنا جدا أنه متأثر بالنظرة العقلية فانه سيفشل تماما القوى الروحية ويتنكر للقيم الانسانية الخلقية في تفسير الوقائع وتتبع سير الأحداث . . . ومالا شك فيه أن النظرة المادية البحتة والنظرة العقلية المجردة في تفسير وقائع الحياة ككلاهما ستؤدي حتما الى تكوين فكرة خاطئة منحرفة عن الحياة لاستند الى القيم الممنوعة ولا تعترف بالاهداف الخلقية البتة . وبلاضافة الى ذلك فان المؤرخين الأوروبيين يجهلون تاريخ أوروبا هو محور التاريخ العالمي ، وذلك مما يرفع من شأن أوروبا الصليبية ويخفف من شأن العالم الاسلامي ويرسخ في أذهان الناشئين أن أوروبا هي محرك خط الزمن وهي الآخذة بزمام البشرية ، وأن العالم الاسلامي لا يشغل في ركب الحياة الا المؤخرة . وان دراسة الناشئين المسلمين لتاريخ - عالمي أو اسلامي - تلك روحه وطريقته في تفسير الوقائع والأحداث ستكون لها آثار سيئة جدا فسي نفوس هؤلاء الناشئين ، ومن شأن ذلك أن يشكل عقبة كاداء في سبيلنا لتكوين فكرة الاسلام الكلية عن الحياة والانسان في قلوب الناشئين وكذلك في تقوية شعورهم الديني واعتزازهم بالاسلام وتمسكهم به أمام موجة الحضارة الغربية المادية . وعلى هذا لا ينبغي أن نمرر على الطلاب التاريخ المكتوب بأقلام الغربيين والمفسر بطريقة التفكير الغربية الا في مرحلة التخصص حيث يدورونه لتقده وبيان عيوبه للتأثر به بعد أن يكونوا قد تلقوا التاريخ الاسلامي والعالمي المفسرين من وجهة



النظر الاسلامي والمكتوبين بأقلام المؤرخين المسلمين الذين لم يتأثروا بأسلوب التفكير الغربي .

وأما في مجال دراسة التشريع والنظم فلا يصح أن ندرس التشريع الغربي للناشئين في المرحلتين الثانوية والجامعية ، وكذلك لا يصح ايضا أن ندرس لهم ما كتبه الغربيون عن التشريع الاسلامي لما علمنا أنهم يصعدون في ذلك عن روح صليبية متعصية . وان الواجب علينا ان ندرس لهم التشريع الاسلامي دراسة كاملة مفصلة مستقلة ولا ندرس الى جانبه طول فترة الدراسة الثانوية والمالية أى تشريح آخر ، ويجب ان تكون دراستهم فيه من الكتب التي وضعها العلماء المسلمون . وأما في مرحلة التخصص فلا بأس أن يعطى الطلاب فكرة كاملة عن التشريع الغربي وغيره من تشريعات الامم الاخرى وتعريفهم بوجهه نظر الغربيين في الشريعة الاسلامية مع النقد والتصحيح والتقويم .

وبقى بعد هذا أن نقول بأنه يجوز لنا أن ننشع بثمرات الجهود الانسانية في مجال التنظيمات والوسائل القانونية اذا كانت لا تخالف أصول الاسلام ولا تصطدم مع فكرته الكلية عن الحياة والانسان وكانت تحقق مصلحة حقيقية للمجتمع المسلم وتدفع عنه المفساد ، ويمكن أن تدخل في اطار ما يقره الاسلام من المبادئ والقيم والوسائل كطريق القياس والاجتهاد والمصالح المرسله ومبدأ جلب المنفعة ودفع المفسدة وغير ذلك .

وأما العلوم البحتة ونتائجها التطبيقية في الحياة العملية ، وان بدت منفصلة عن طريقة التفكير الغربية فانها في حقيقة الامر قائمة على أساس الفلسفة الغربية المادية التي لا تقيم أى وزن للنظرة الروحية للاشياء . وان هذه العلوم التي يطلق عليها اسم " العلوم البحتة " عبارة عن حقائق ونظريات وفروغ لا تتأثر بهذه الفلسفة المادية فحسب ، بل هي الاخرى تؤثر أيضا في هذه الفلسفة بشكل واضح ملموس ، وبالتالي فان النتائج التطبيقية لهذه العلوم بطبيعة الحال

سيكون لها التأثير البالغ في واقع الحياة المادية وفي وسائل المعيشة وفي العلاقات الاجتماعية في المجتمع . وان هذه العلوم التي تصف مظاهر الكون وخصائصه وتكشف نوااميسه وتنظر الى ذلك كله نظرة مادية بحته ترسخ في الأذهان سلطان "الملم" والمادة وترفض أن يكون لله تعالى سلطان على هذا الكون أو تبعد ذلك وتتجاهله . واذنا أردنا أن ننفع بالعلوم الغربية البحتة في جزئيات الحياة فلا بد من تصحيح الفلسفة المادية اللاحادية التي تأثرت بها حتى لا تؤدي الى تكوين فكرة خاطئة عن الكون والحياة والانسان تخالف فكرة الاسلام الكلية . ويجب أن نؤسس هذه العلوم على قواعد اسلامية صحيحة تربط مظاهر الكون وخصائصه ونوااميسه جميعها بمدع هذا الكون وخالق السموات والارض . واذنا استطمنا أن نتخذ مثل هذا الموقف الواعي السليم من كل ما يأتينا من الغرب من العلوم بشتى أنواعها ، نأخذ الطيب النافع وندع الخبيث الضار فاننا نتحاشى السبى حد كبير التأثيرات الكلية بالمواد العلمية الغربية . ونبعد آثارها السيئة التي تمتد عتبة كبيرة في سبيلنا لتكوين العقيدة الاسلامية الصحيحة في نفوس الافراد والجماعات واستئناف الحياة الاسلامية السليمة .

وأما عن النقطة الثانية وهي وجوب السعى وبذل الجهد لازالة الضعف الملقى والجمود الفكرى والتخلف الثقافى الذى يعانيه المسلمون في مجال العلوم الشرعية ومجال العلوم العقلية والنظرية ، ووضع تنظيم علمى جديد يقوم على حقيقة الاسلام وروحه وأساسه العلمية والفكرية والثقافية الصحيحة ويهدف الى تحقيق رسالة الاسلام وغاياته السامية ، فيجب علينا أن نبادر الى اصلاح نواحي الضعف والتخلف في مواد الدراسات الاسلامية لكي تعود للدين قوته وسلطانه وهيمنته على شئون الحياة كلها كما كان في اليهود الاسلامية الزاهرة وكما يجب أن يكون دائما مصدر النهضة والنور المبين الذى يضى الطريق أمام المسلمين لبناء المجد والمز وتحقيق الحياة السعيدة الرفيعة .

وفي سبيل اصلاح مواد الدراسات الاسلامية يجب أن نسمى لاعادة  
الجانب الروحي لهذه الدراسات ، ونتناول بالبحث الدقيق العميق جميع  
المعلوم الاسلامي من العقيدة والتفسير ودراسة الحديث والفقه والتاريخ . يجب  
أن نقوم أولاً بصياغة العقائد والمبادئ الاسلامية صياغة قوية مركزة تتناسب فسي  
طريقتها وأسلوبها مع روح العصر ، وأن نستجلى فكرة الاسلام الكلية عن الكون  
والحياة والانسان في صورة واضحة كاملة مع الموازنة بينها وبين المذاهب الفلسفية  
الآخري . ويجب أن نعمل لوضع فلسفة الاسلام الصحيحة بدل مايسى الآن خطأ  
الفلسفة الاسلامية وهي في حقيقتها انعكاسات الفلسفة الاغريقية على الفكر  
الاسلامي. ويجب أن نبين للناس ان هذه الفلسفة بعيدة الصلة بحقيقة العقيدة  
الاسلامية الصافية . وكذلك يجب أن نقوم بدراسات حديثة للقرآن الكريم والسنة  
النبوية نبرز فيها قواعد الدين الكلية وأصوله العامة وماحتويه من القيم والمبادئ  
الانسانية والأسس الاخلاقية وأصول الصيادات وأصول الحكم والتشريع وماالى ذلك ؛  
نصرف ذلك كله بأسلوب سهل واضح ونشرحه شرحاً وافياً ، ولا تقتصر على دراسة  
جانب قواعد اللغة وعلوم البلاغة ودراسة جانب علوم القرآن واختلاف الفقهاء  
في الأحكام الفرعية . وأما في مجال الفقه الاسلامي والاجتهاد وقد كان لديننا  
تراث واسع خلفه لنا السابقون الاولون من الصحابة والائمة المجتهدين في هذا  
المجال ، فان الواجب علينا أن نسير على ضوء ذلك بمزم قويم وجد ونشـاط  
لايجاد حلول مناسبة للأمور المستجدة في هذا العصر على ضوء مصادر التشريع  
الاسلامي الاساسية وابرار نظام الاسلام في كل شأن من شئون الحياة ، واخراج ذلك  
بأسلوب حديث يتناسب مع روح العصر الذي نميش فيه . ومن المجالات المهمة  
التي يجب أن نبرز فيها نظام الاسلام بصورة تفصيلية متكاملة ونوضح فيها بعض  
المسائل التي تحتاج الى الشرح والتفصيل مجال دراسة العقيدة وبيان فكرة  
الاسلام الكلية عن الحياة والانسان ومجال النظام الاجتماعي والاخلاقي والنظام  
الاقتصادي ونظام الحكم والسياسة والنظام الجنائي والنظام الاداري وما الى ذلك

من الانظمة التي تثبث عن المقيدة الاسلامية والتي تتناثر في ثنايا الكتب الكثيرة ويلقى المتخصص في أى واحد منها - فضلا عن الدارس العادى - عناء ومشقة في الاحاطة بمباحثه جميعها من مظاهرها . فان هذه الانظمة في تناثرها وتبعثرها في أمهات الكتب تجعل من الصعب تكوين فكرة متكاملة عن أى موضوع من موضوعاتها ومباحثها الرئيسية .

ولا ينبغي أبدا أن تسير الحياة البشرية نحو التطور والنمو ويبقى الاسلام بعيدا عما يجرى في هذه الحياة لاسلطان له على شئونها المستجدة ولا هيمنسة ولكن العلماء حين كفوا عن الاجتهاد لاستنباط احكام مستمدة من الشريعة تفتى الجوانب المتطورة من الحياة جعلوا هذا الدين يهد وقاصرا عن حل المشكلات التي تشغل الناس في حياتهم ومتعارضا مع متطلبات الحياة وحاجات الناس . فمن الواجب على الحكومات الاسلامية أن تكون كل منها هيئة من العلماء لتتولى مهمة البحث والدراسة والفتيا والاجتهاد في الأمور المستجدة في هذا العصر .

وكذلك يجب أن نعيد كتابة التاريخ الاسلامي والتاريخ المالى المصام . وأما التاريخ المالى فيجب أن نضعه من وجهة النظر الاسلامية في تفسير الحوادث والوقائع ، ونعرض فيه لتاريخ أوروبا ونحدد موضعها الحقيقى في خطط سير التاريخ ونبين عصورها المظلمة ونذكر كذلك عهود ازدهار نهضتها الحضارة المادية ونبين أسس هذه النهضة ومصادرها وحقيقتها وغاياتها وما فيها من عوامل الانحراف . وأما التاريخ الاسلامى فيجب ان نبرز دور الاسلام والعالم الاسلامى في خطط التاريخ المالى العام . يجب أن نتبع سير تاريخ الاسلام والأممة الاسلامية ونعرض الوقائع والحوادث من وجهة النظر الاسلامية نبرز النقط اللامعة والجوانب المشرقة من هذا التاريخ ونذكر ايضا النقط السوداء وجوانب الضعف وعوامل الذبول وتقلص سلطان المسلمين مع بيان الاسباب التي أدت الى ذلك كله . ويجب أن نؤكد هنا ضرورة تغيير برامج دراسة مادة التاريخ في مدارسنا فالواجب أن نبدأ أولا بأن ندرس لبنائنا التاريخ الاسلامي المكتوب بأقلام المؤرخين

المسلمين والمفسر وفق وجهة النظر الاسلامية حتى اذا امتلأت نفوسهم بتاريخ —  
 دينهم وأمتهم وبلادهم قد منا لهم تاريخ العالم العام المكتوب أيضا بأقلام المسلمين .  
 ولا يخفى أن هذا العمل الاصلاحى فى مجال الدراسات الاسلامية سيطلب  
 ضامها كبرا . ولكن يجب أن نبدأ فيه بكل قوة وعزيمة وإيمان ، ونسير فيه  
 بجد ونشاط واعتزاز ، حتى نبلغ الغاية المنشودة بان الله تعالى . ولقد بدأت  
 فى الآونة الاخيرة طلائع الباحثين المجاهدين تحمل لتحقيق هذه الغاية فى  
 مختلف ميادين العلوم الاسلامية . ان ما نريد أن نذكره هنا هو أن هذه  
 الطليعة يجب عليها أن تستمر فى جهودها وأن تواصل سيرها فى سبيل الاصلاح  
 ولكن الذى يجب ايضا ان تأخذه بعين الاعتبار فى هذا الصدد هو وجوب التخلص  
 تماما من بقايا عصور الانحطاط والركود فلا تتسرب أفكارها وتصوراتها الى عملها  
 وكذلك وجوب السعى الجاد للتخلص من رواسب الافكار والنظريات والمفاهيم الغربية  
 التى غزت عقول معظم المثقفين فى هذا العصر والتحرر من التهمية للغرب والخضوع  
 المذل لسيطرة حضارته المادية . ويجب ان تحذر من الخلط والمزج والتلبس  
 حتى لا تقدم لنا فكرة غربية فى أصلها وروحها واتجاهها على أنها اسلامية خالصة +  
 وان من واجب الحكومات الاسلامية ان تدعم نشاط هذه الطليعة وتتسق بين جهودها  
 وتحشد فى هذا المهيكل جميع العقول النيرة المفكرة وتشد من أزرها ماديا وأدبيا  
 حتى تصل الى الغاية المنشودة وتحقق الخير والصلاح للأمة .

والى جانب ذلك كله يجب على الأمة الاسلامية أن تبذل أقصى ما فى وسعها  
 من جهد لازالة ما ألم بها فى خلال القرون الاخيرة من الضعف والتخلف فى مجال  
 العلوم النظرية والعقلية والعلوم التجريبية والتطبيقية وما تبع ذلك من فقدان القدرة  
 على الاستكشاف والاختراع والتصنيع . وان سبيلها الى ذلك هو أن تأخذ فى  
 دراسة هذه العلوم وأن توليها العناية الكبيرة والاهتمام البالغ لتمكّن من تحقيق  
 التقدم الصناعى وازدهار الحياة الاقتصادية وتحقيق القوة الحربية لحفظ كيانها

ودفع فوائدها عن بلادها وللذود عن حياض الدين واعلاء كلمته ونشر دعوتيه ورسالته في العالمين . وبما أن الأمم الغربية قد تقدمت على الأمة الإسلامية في مجال العلوم النظرية والمقالية والتطبيقية فلا بد لهذه الأمة من أن تأخذ هذه العلوم من الغرب رضى بذلك أم . كرهت ، ولكن يجب أن تسعى بجد لاصلاح الأسس التي أقام عليها الغرب هذه العلوم والوجهة التي يتجه بها في الحياة ، والغايات التي يهدف الى تحقيقها من ورائها ، وعلى الأمة ايضا أن تعمل لتأسيس هذه العلوم على هدى الاسلام وروحه وأسسها الاخلاقية وقيمه الانسانية الرفيعة التي تحقق الخير والصلاح للبشرية ، وأن تقوم بتنظيم حركة علمية قوية لبناء نهضة حضارية اسلامية خيرة تقوم على أساس المبادئ الحقة للدين تعالى وعلى هدى الدين وأسس القويمه .

ولسنا بحاجة الى التأكيد بأن الأمة الاسلامية لا ينقصها شئ من وسائل التقدم المادى في مجال الصناعة والاقتصاد والقوة الحربية ، فهي أولا تملك العقيدة الصحيحة التي هي الاساس الحقيقى الذى تبنى عليه شئون حياتها كلها . والتي هي الموجهة لها نحو الخير والصلاح ، والضابطة لها من الانحراف عن جادة الطريق والصراط السوى . وهى ثانيا تملك الشئ الكثير من الامكانات المادية الاساسية والمواد الأولية اللازمة لكثير من الصناعات ، ولديها وفرة من المقبول النيرة المفكرة ومجموعة هائلة من الايدى العاملة ، ولم يبق لها الا العزم الصادق والاستعداد الحقيقى للنهوض من وهدة الضعف والتخلف والسمى الحثيث لتحقيق التقدم والازدهار وبذل أقصى الجهد في هذا السبيل حتى تتمكن من الاستغناء عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة وتستطيع ان تستخرج كنوز ارضها وثرواتها لتتفقد بها وتصنع حاجاتها الأساسية وتعمل بجد ونشاط لتحقيق الاكتفاء الذاتى في مجالات الحياة المهمة وبخاصة في مجال الاقتصاد والقوة الحربية وفي تنظيم شئون البلاد الخاصة وادارة شئون حكوماتها حتى لا تضطر الى اللجوء الى راية من رايات الغرب أو الانضمام الى معسكر من معسكراته . واذا كان صحيحا

أن الأمة الإسلامية قد ضفت وتخلفت في مجال العلوم النثرية والعقلية وفي مجال الصناعة والاقتصاد والقوة الحربية ، وأن الامم الأوروبية قد فاقتها في هذا المضمار بما حققت من انجازات مادية هائلة برهنت على تقدمها وتطورها في عالم الحضارة والمدنية المادية الراقية ، حتى ليصح القول بأن المسافة بيننا وبين هذه الأمم في هذا المجال مسافة قرون وعهود ، وأن لحاق الأمة الإسلامية بركب هذه الامم السائر بقوة ونشاط وانطلاق يتطلب جهدا كبيرا ووقتا طويلا . . اذا كان كل ذلك صحيحا فلا يصح أبدا ما تسلط على عقلية معظم المثقفين المسلمين في العهد الأخير من تفكير ساذج ونظر سطحي قاصر لا ينظر الى الأمة الإسلامية الا من خلال القوة المادية ولا يزنها الا بميزان ما تملك من الامكانات والوسائل المادية وينفصل تماما عن عوامل القوة الحقيقية .

ان قوة الأمة الإسلامية الحقيقية تتمثل في دينها الذي هو حاجة البشرية كلها في كل زمان ومكان وفي دعوة هذا الدين ورسالته لانقاذ البشرية من كل مآثم من الجهل والظلم والجور والفساد ، وفي قيمة ومبادئه الانسانية الرفيعة التي تخلق في النفوس حب الخير وأداء الامانة والاخلاص والصلق فـي القول والعمل والشعور بالمسئولية والقيام بأدائها على اكمل وجه واقامة الحق والعدل بين الناس ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية واستحضار عظمته وجلاله ورجائه رحمته وابتغائه مرضاته والاشفاق من شدة عذابه وأليم عقابه ، الى غير ذلك من الصفات العالية التي حرمتها الامم الأوروبية التي تتزعم ركب البشرية رغم كل ما وصلت اليه من الاسباب المادية التي تخدم البشرية وتحقق لها مصالحها المادية في الحياة ، وقد كان بإمكان الحضارة الغربية ان تحقق للبشرية نوعا من الامن والاستقرار والسعادة لولا خوارها من القوى الروحية وهدارها للقيم الخلقية واتجاه الغرب نفسه الى تقويض بنيان الحضارة التي تمسك كثيرا في اقامة صرحها ، واتجاهه الى غسل كل ما يدور البشرية مع أنها هي التي يمكن أن تنتفع بثمار جهود ونتائج أعماله . وهذا يتضح لنا أن حاجة اوروبا الى اقتباس عوامل القوة الروحية منا لهي أشد

وأعظم من حاجتنا نحن الى الاقتباس من العلوم والوسائل المادية التي تقدمت فيها علينا .

وأما عن مناهج التعليم ونظمه وطرائقه وأهدافه السائدة اليوم في المجتمعات الاسلامية فانها بحاجة شديدة الى تغيير جذري واصلاح شامل . وانما كانت مناهج التعليم ونظمه وأهدافه يجب أن تستوحى من عقيدة الامة وتبلى على أسس دينها وروحها وتوجه وجهته في الحياة ويراعى فيها رسالة الامة وأهدافها فان المتأمل في المناهج والنظم التعليمية المتبعة اليوم في مدارس البلاد الاسلامية وبخاصة المدارس العامة أو " المصرية " لا يجد فيها معالم الاسلام بارزة ولا يجد رسالة هذا الدين وأهدافه مرعية وذلك لان هذه المناهج والنظم غير مؤسسة على أصول الاسلام وقواعده ولا مصطبغة بصيغته . ولقد وضعت هذه المناهج والنظم منذ عهد الاستعمار الغربي للبلاد الاسلامية وسعى المستعمرين لاحكام قبضتهم على نواحي الامنة الاسلامية وفرض سيطرتهم الفكرية والثقافية والتعليمية عليها ثم غلبت مناهجهم ونظمهم وطرائقهم وانتشرت في انحاء المجتمعات الاسلامية كما أرادوا وخضطوا الامر منذ ذلك العهد البعيد . ومن أجل هذا نرى أن المناهج والنظم المتبعة في مدارسنا هي في صميمها غريبة، وان لم نلحس فيها روحا صليبية حاكمة ولم نجسد فيها مأواة صريحة للاسلام فان أقل ما ننتقد عليها هو أنها مؤسسة على قواعد فلسفة الغرب للحياة والتي تنافي فكرة الاسلام الكلية وانها توجه الدارسين نحو الوجهة الغربية في الحياة وذلك بالاضافة الى انها في المواد العلمية البحتة كالفيزياء والكيمياء وعلوم الاحياء وغيرها لا تقدم للدارسين الا القسور التي لا تفنى من الحقائق العلمية شيئا .

وأما وسائل التربية المتبعة في مدارسنا فهي عقيدة سقيمة وغير قادرة على اعداد الطلاب اعدادا قويا صالحا ، ولا تخلق فيهم القوة الروحية الدافعة لعمل الخير والصالح ولا تمنح لديهم الثقة بانفسهم في الدراسة والبحث ولا تبحث فيهم روح



الاقدام والجدية في العمل ، وانا نجد معظم الطلاب يستثقلون الدرس ومسأـلون من المطالعة ويكرهون الدراسة والبحث لانهم في دراستهم الثانوية والجامعية لم يدربوا على مواجهة المشكلات العلمية وبذل الجهد لايجاد الحلول الصحيحة لها . وأن المقدرة العلمية التي يحصل عليها الطلاب حتى في المرحلة الجامعية لا تزال ضعيفة قاصرة ، كما أن مستوى تفكيرهم لا يبلغ من القوة والنضج بحيث يستطيعون أن ينفذوا الى حقائق العلوم ويتصرفوا على أسرارها لانهم حائثون حول دواش العلم دون أن يخصوصوا في أعماقه ويستغلون بالقشور دون اللباب .

ثم ان أهداف نظام التعليم السائد في أنحاء المجتمعات الاسلامية تنقسم بطابع المصلحة المادية وتمتبر التعليم وسيلة من وسائل العيش وذلك لان مواد هذا التعليم وبرامجه خالية من العقيدة الصحيحة التي تملأ القلب وتسيطر على دوافع النفس ونزعاتها ، وتبعث في النفوس المعاني الانسانية الرفيعة وتحفزها على السعى لتحقيق أهداف الامة ورسالتها وتجعل الغايات الخلقية فوق المنافع المادية ، ومصلحة الامة فوق مصلحة الفرد الذاتية ولا تنظر الى رغبات الانسان الذاتية ومصلحه المادية على أنها هي غاية العليا في الحياة . من أجل هذا رأينا نظام التعليم السائد في البلاد الاسلامية قد أخفق أخفاقا كبيرا ليس فقط في تخريج علماء مخترعين مبتكرين في مجال العلوم النظرية والمقلية والتطبيقية بل فوق ذلك أخفق في تزويد المجتمعات الاسلامية بأبناء برة أوفياء يكونون عناصر قوية صالحة يفهمون دينهم فهما صحيحا ، ويؤمنون بعقيدتهم ايمانا قويا ، ويثبتون على الحق الذي معهم عن ايمان واعتزاز ، ويحطون رسالة هذا الدين على عواتقهم يعيشون في سبيلها ويجاهدون في سبيل تحقيقها ونشرها في أنحاء العالم .

وبعد ذلك كله نلاحظ طريقة الازدواجية التي يسير عليها نظام التربية والتعليم في أنحاء المجتمعات الاسلامية . ولقد انقسمت مواد التعليم الى قسمين رئيسيين هما علوم دينية وعلوم " عصرية " وأصبح لكل قسم منهما مدارس وأقسام خاصة .

فالمدارس الدينية وأقسام الدراسات الإسلامية تدرس لطلابها العلوم

الشرعية في جميع مراحلها التعليمية ولا تدرس لهم شيئا من العلوم " العصرية "

لأنها في نظرهم لا تفيدهم شيئا بل هي تفسد عقولهم وتزعزع عقيدتهم . والى جانب ذلك نرى هذه المدارس والأقسام متخلفة قليلا أو كثيرا عن المدارس العاصرة وأقسام العلوم " العصرية " فلا يزال بعضها حتى الآن يصر على المحافظة على المظاهر القديمة واتباع الأساليب القديمة الجافة في التعليم ورفض الأحدث بالوسائل التعليمية الحديثة ومظاهر المدنية الحاضرة .

وأما المدارس العامة أو " المصرية " سواء في المرحلة الابتدائية

أو الإعدادية أو الثانوية فهي تخصص وقتا ضئيلا لدرس الدين وتجعل بقية الوقت للعلوم المصرية اللادينية . وأما في مرحلة التعليم العالي في أقسامها المختلفة كالطب والاقتصاد والاجتماع والاحياء وما الى ذلك فلا يدرس الدين فيها إطلاقا . وكذا نرى طلاب هذه المدارس لا يعرفون عن الدين وعلومه الا مقداراً ضئيلا جدا لا يغني غنى حقيقيا بل قد رأينا في بعض البلدان الإسلامية مثل نيجيريا وأوغندا والسنگال واندونيسيا وغيرها أن معظم طلاب المدارس المصرية لا يعرفون شيئا عن دينهم بتاتا ، فهم لا يحسنون قراءة أقصر سورة من القرآن ولا يحسنون أداء الصلوات ولا يعرفون عن تاريخ دينهم وأمتهم الا ما تلقوه من اساتذتهم المبشرين والمستشرقين وما قرأوه في كتبهم وحوشهم ورسائلهم .

ومن النتائج السيئة التي أدت اليها طريقة الزدواجية في التعليم

انقسام المتعلمين والمثقفين الى فئتين كبيرتين كل فئة تحمل فكرة عن الحياة تخالف الفكرة التي تحملها الفئة الأخرى وأصبح بطبيعة الحال لكل فئة وجهة هي موليتها ، وتتفرح احداها من الأخرى وتحمل لها أشد أنواع المدا ، فهما في خصام دائم وصراع مستمر ، ومن الصعب عليهما أن يلتقيا في صعيد فكري واحد او تشتركا في إقامة مشروع علمي واحد من دون أن ينتهي الامر الى خصام وتباعده وتراشق .

ولا شك أن هذا الوضع المزرى الذى نتج عن ازدياد واجبة التعليم مشكلية عويصة تنذر الامة الاسلامية بأخطار جسام، تغلق في صفوفها الفرقة والتباعد والتنافر والضعف وتقف في وجه كل ما يبذل من المصاعى لتحقيق وحدة الامة وتماسك أفرادهـا كما تمثل أيضا عقبة كبيرة في سبيلنا لاستئناف حياة اسلامية صحيحة واقامة مجتمع اسلامي قويم .

واقترحنا المتواضع في هذا الصدد هو أن الامة الاسلامية لكي تصلح كل ما يكتنف مناهج التعليم ونظامه وطرائقه وأهدافه من عيوب ونقائص وانحرافات فلا بد أن تنتهي بقوة وعزيمة صادقة وتسعى بجهد ونشاط لتأسيس هذه المناهج والنظم والوسائل على أسس الاسلام وقواعده وتعاليمه . ويستحسن أن توضح لهذا العمل خطة دقيقة تبدأ بالتقريب والتنسيق بين مختلف المناهج والبرامج وتنتهى في آخر الأمر الى توحيدها . ويجب أن نسعى لجعل الدراسة في المدارس الدينية والمدارس " المصرية " موحدة من المرحلة الابتدائية الى المرحلة الثانوية يأخذ الطلاب فيها بنصيب واف من الدراسات الاسلامية والعربية التي تعرفهم بحقيقة دينهم وقيمهم وتعاليمهم وتبصرهم بروح هذا الدين ورسائله وأهدافه وتعرفهم بتاريخ أمتهم المجيد وحضارتهم الراقية ، يأخذون الى جانب ذلك بنصيب من دراسة العلوم البشرية التي تعرفهم بما وصل اليه العقل البشرى من حقائق علمية ونظريات وأفكار . ولكن كما قلنا سابقا لا ينبغي لنا أن نعرض هذه العلوم لطلابنا الا بعد أن نؤسسها تأسيسا اسلاميا ونوجهها الوجهة الاسلامية . وعلى سبيل المثال فان بإمكاننا ان نستشير الوجدان الدينى والدوافع الروحية والخلقية فسي نفوس الطلاب من خلال تدريس العلوم البحتة لهم حين نربط مظاهرها الكونية وخصائصها بالله تعالى الذى أعطى كل شىء خلقه والذى له مقاليد السموات والأرض<sup>(١)</sup>، " عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض<sup>(٢)</sup> " وعند

مفتاح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البحر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها  
ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين (١) .

وأما في مرحلة التخصص فيتفرغ طالب الدراسات الاسلامية لها وهدفاً  
ويكرس لها جهده ويحب منها وينهل ويصرف في دراستها والتبحر في علومها  
كل وقته حتى يبلغ أقصى ما يقدر له بلوغه من المرتبة العلمية المالية ، وكذلك الحال  
بالنسبة لطلاب الدراسات " العصرية " ولكن لا ينبغي أن يقطعوا صلتهم بعلوم  
الدين بالكلية لما في ذلك من الضرر البالغ والخطر الجسيم على حياتهم ، ويستحسن  
في هذه المرحلة أن تقدم لهم دراسة في الثقافة الاسلامية تعرفهم بالمفاهيم الاسلامية  
الاساسية وتبصرهم بالقضايا المهمة التي عالجها الاسلام في شتى مجالات الحياة -  
الانسانية وخاصة في مجال الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك حتى  
لا يخر هو " الطلاب صرعى وسط شيارات المذاهب والاتجاهات المنحرفة التي تفرزو  
عقول المثقفين المسلمين في هذا العصر وتتجاذبهم بمنة وسرعة لينضموا الى أحد  
المسكرات الغربية أو الشرقية وينضوا تحت راية من راياتها . ويجب أن يوضع  
منهج الدراسة بحيث يغطي الطلاب فكرة عامة شاملة عن المفاهيم والقضايا الاسلامية  
المهمة من دون أن يلجأ فيها الى التوسع والاستيعاب والتفصيلات الدقيقة مما هو  
شأن الطلاب المتخصصين في الدراسات الاسلامية ، ويكفى مع طلاب العلوم  
" العصرية " عرض الحقائق والمفاهيم والقضايا الاسلامية الرئيسية وتوضيحها لهم  
بإيجاز حتى لا نشغلهم عن دراستهم الاساسية .

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي : لا بد من ايجاد نظام للتربية والتعليم  
يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة وبين قوة الماطفة واشراق الروح والتهاب  
جذوة الايمان وبين العلم الواسع والفكر النير ومعرفة أحدث ما وصلت اليه الأجيال

البشرية من تجربة واكتشاف .

ولا بد من بدء عملية تطوير المناهج " لهذا الغرض " وسبك منهج تعليمي جديد ، يتغلغل في أحشائه الايمان بالله وسيطر على جميع فروع وجزئياته في الاوساط العلمية في " العالم الاسلامي " .

انه مشروع ضخم يتطلب ثورة في التفكير ومغامرة في المساعي والجهود و مشاركة تنهك القوى وتستنفد المجهود ، ولكنه عمل تجديدي من أعمال الإصلاح والتربية واكبر خدمة للاسلام والمسلمين في هذا العصر . (١)

### ثالثا : وسائل الاعلام :

وأما عن وسائل الاعلام المختلفة فقد ظهر جليا في هذا العصر أهميتها الكبيرة من حيث التأثير في قلوب الناس وتغيير معتقداتهم وأفكارهم واتجاهاتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم . وقد رأينا كيف كانت وسائل الاعلام المختلفة من أسنى الأسلحة التي استخدمها المستعمرون والمبشرون والمستشرقون في حملاتهم الضارية على الاسلام وكيدهم ومكرهم بالامة الاسلامية خلال القرنين الاخيرين ، ولا تزال دوائر الاعلام الغربية تعتبر محاربة الاسلام والكيد لأهله جزءا أساسيا من اهدافها المتعددة التي تنفق في سبيل تحقيقها أموالا طائلة سواء في داخل البلد ان اولى أم في المجتمعات الاسلامية . ان الغرب الصليبي لا يزال يسخر كل ما وصل اليه عقله في مجال الاعلام والنشر من وسائل وامكانيات لفزو العالم الاسلامي فكريا وثقافيا واحداث تغييرات جذرية في شئون حياة المسلمين . وان

منتجات أوروبا الاعلامية من كتب وصحف ومجلات وافلام سينمائية وبرامج اذاعية وتلفزيونية ونشرات وقصص وروايات واغان لتخزو المجتمعات الاسلامية وتتوغل فسي أسواقها وبيوتها ومدنها وقراها وتنتشر في دوائرها ومدارسها وجامعاتها وتنفزو عقول الطلاب والمثقفين وعامة الناس على السواء وتنتشر بينهم روح الكفر والاحساد

( ١ ) نحو التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية ، ص ٤١ (بتصرف بسيط)

والمعتقدات الباطلة والمفاهيم الخاطئة والمفاسد الخلقية وتبعث في الناشئين التخلف وتضعف فيهم روح الرجولة والمجادة وتستثير فيهم اللذة والشهوات وتقودهم الى حياة العريضة والمجون والخلعة والفسق والفجور ، وتصيب النساء في انوثتهن وامومتهم بما تدعوهن اليه من التبرج والسفور والاختلاط واهراز الزينة ومفاتن الجسد ومزاحمة الرجال في كل شئ ، والمطالبة بحقوق زائدة وما الى ذلك .

والى جانب ذلك كله كانت دوائر الاعلام المحلية في البلدان الاسلامية قد أسست على قواعد الاعلام الغربي فاتخذته قدوتها في كل شئ ، واخذت تقتضى آثاره وتترسم خطاه وتسير في اتجاهه وتستورد من الغرب الوسائل والبرامج وتعمل لتحقيق أهداف لادينية ولا اخلاقية كما هو شأن الاعلام الغربي ، فقد أصبحت تنشر الافكار والمذاهب والاتجاهات الغربية المنحرفة التي تتعارض مع هدى الاسلام وقيمه وتعاليمه في مجال السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع وفي مجال الاخلاق والمبادئ والتقاليد . ونظرة فاحصة الى ما تنتجه وسائل الاعلام المحلية تربنا المدى البعيد الذي بلغته في التأثير بدوائر الاعلام الغربية وقبولها السير في اتجاهها . ولو استعرضنا ما تنشره الكتب الادبية والثقافية والصحف والمجلات من قصص وروايات وقضايا وأفكار ومفاهيم وما تنتجه دور السينما والمسرحيات وما تبثه محطات الاذاعة وأجهزة التلفزيون من برامج ، لو استعرضنا ذلك كله لعلمنا أن دوائر الاعلام في البلدان الاسلامية تسير على الخط المعاكس للدين وقيمه وتعاليمه وأنها تمثل محاول الهدم والتقويض للبقية الباقية من الدين في حياة المسلمين وذلك لانها تسمى جاهدة لتوجيه المسلمين نحو وجهة في الحياة لاتمت الى الوجهة الاسلامية الصحيحة بصفة ، ويتضح ذلك فيما تنشر بينهم من المذاهب والافكار والاتجاهات المنحرفة من علمانية لادينية وقومية ووطنية وشعوبية وحزبية وديمقراطية غربية واشتراكية وما تدعو اليه من حصر الدين في دائرة الشعائسر التعبدية وحصر الشريعة في دائرة الاحوال الشخصية وابعاد الدين عن الهيمنة على جميع شئون الحياة العملية وخاصة في مجال السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع

وماتدعو اليه لافساد المرأة فيما يسمى قضية " تحرير " المرأة وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل ، وكذلك دعوتها لحياء الحضارات القديمة ونشرها لانسواء الفساد والفواحش ، ويضاف الى ذلك كله ما تنقله الى المجتمعات الاسلامية من طرائق الحياة الغربية والمعادات والتقاليد الاوربية المنافية لهدى الاسلام واخلاقياته وما تعرضه ايضا من القضايا التي تحدث في الدول الاوربية بسبب ظروفها وملايسات حياتها الخاصة ، وقد كانت دوائر الاعلام المحلية تعرض هذه القضايا وكأنها قضايا انسانية لا بد أن تحدث لكل أمة من أمم الارض ثم تعرض الى جانبها الحلول الغربية ، وكان الهدف من وراء ذلك هو توجيه القلوب الى التعلق بأوروبا وحضارتها واعتبارها محرك خط التاريخ وأن ما يحدث لها لا بد أن يحدث لكل أمة وأن حلولها التي اهتمت اليها هي الحلول الناجمة التي يجب على الأمم الاخرى أن تأخذ بها اذا ما حدثت في مجتمعاتها قضايا مماثلة .

ونريد هنا أن نورد سوءا لا مهما سبق لنا أن اوردنا مثله في معرض حديثنا عن اصلاح مجال الفكر والثقافة والتعليم ، وهذا السؤال هنا هو : كيف يتسنى لنا استئناف حياة اسلامية سليمة واقامة مجتمع اسلامي قويم والحال الاسلامي - كما رأينا - معرض منذ عهد بعيد لغزو الغرب الفكري والثقافي المخطط الذي يتوخل فيه انتاج الاعلام الغربي في أنحاء المجتمعات الاسلامية، وتغزو المسلمين في عقر دارهم كتب الغرب ومجلاته وصحفه وافلامه السينمائية وبرامجه الاذاعية التي تنشر الافكار والمفاهيم والنظريات والمعادات والتقاليد المتعارضة مع دعوة الاسلام ورسالته وأهدافه ، ووسائل الاعلام المحلية هي الاخرى قائمة على الأسس الغربية سائرة في اتجاه الغرب اللاديني واللا أخلاقي وتسمى - من حيث تدرى ومسئول حيث لا تدرى - لتحقيق الغايات التي يطمح لها الاعلام الغربي من زعزعة عقيدة المسلمين وأضعاف قوة تمسكهم بالدين وتوجيههم نحو وجهة أخرى غير اسلامية والهائم بصنوف اللصب واللغو والامور القافهة التي لا تمود عليهم بمنفعة حقيقية ؟ كيف نتمكن من اقامة حياة اسلامية صحيحة في مثل هذه الظروف المتردية التي تدرى

ففيها أصداء دعوة الباطل ، وتضم آذان الناس عن سماع دعوة الحق بكل ما تملك من خطط ووسائل وامكانيات ؟ فهل يمكن للانسان ان يقيم صرح بنائه في مهيب الرياح العاصفة المدمرة ؟ وعلى ضوء ما تقدم نقول بأن الامة الاسلامية اذا أرادت أن تقيم بناء الاسلام الصحيح في مجتمعاتها فلا بد لها من السعي الجاد لتأسيس الاعلام والنشر على قواعد الاسلام وتعاليمه وهديه لكي تتمكن من تحقيق رسالة الاسلام وأهدافه الروحية والخلقية وما فيه الخير والصلاح والمنفعة للناس ، ولا بد من صد المؤثرات الخارجية التي تفسد وسائل الاعلام المحلية وسد جميع المنافذ التي تتسلل منها المفسد والانحرافات الى الاعلام المحلي ، وعلى هذا يجب الحذر كل الحذر من استيراد برامج الغرب الاعلامية لأنها في أسسها واتجاهاتها وغاياتها تتعارض مع العقيدة الاسلامية وما يدعو اليه الاسلام من قيم ومبادئ وتعاليم وأخلاقيات رفيعة . ويجب أن تستخدم وسائل الاعلام المختلفة للدعوة السليمة الحق والخير والفضيلة وما فيه صلاح المجتمع ومنفعة المباد ، ولتحذير الناس من الشر ومنعهم من الانكباب على صنوف اللغو وحياة المجون التي تشغل الانسان وتلهيه بسفاسف الامور وتوافيها عن جادة الحق وعظام الأفعال . واذا استطعنا أن نؤسس وسائل الاعلام على قواعد الاسلام وهديه وتوجيهاته الخلقية السامية وأن نوجهها الوجهة الاسلامية الصحيحة فسيكون ذلك عوناً كبيراً لنا لاصلاح شئون حياة هذه الامة وتحقيق رسالة الاسلام وأهدافه من خلال ما نمنحه في نفوس الناس من العقيدة الاسلامية الغالبة وما ننشر بينهم من الافكار والمفاهيم الاسلامية الصحيحة والقيم والمبادئ الانسانية الرفيعة والاخلاق الفاضلة والصفات الحميدة من طاعة أوامر الله واتباع هديه ومنهجه واجتناب نواهيه وحب الخير والدعوة اليه والاستقامة على جادة الحق .

ويجب هنا أن نوضح حقيقة طالما أساء الناس فهمها ليس فقط في مجال الاعلام ولكن في مجالات الحياة المتمثلة كمجال التربية والتعليم ومجال الفكر والثقافة وما الى ذلك وهذه الحقيقة هي أننا حينما ندعو الى اصلاح هذه المجالات



ونؤكد وجوب تأسيسها على قواعد الاسلام وهدى روجه يتبادر الى اذهان الناس أن هذه المجالات ستتحول الى دروس ومواظظ ومحاضرات وخطب دينية بحتة ، ولكن الامر ليس كذلك أبدا فان تأسيس وسائل الاعلام على قواعد الاسلام وجعلها تنطلق من منطلق اسلامي وتسير وفق هديه وروحه وتتحج وجهته في مناهجها وبرامجها وأهدافها لا يعني أن يصبح كل شيء مواظظ ودروسا وخطبا ومحاضرات دينية بحتة ولكن ذلك يعني أن تبني هذه الوسائل على قواعد الدين وتوجه مناهجها وبرامجها وأهدافها وجهة صحيحة وتستخدم لنشر دعوة الحق والخير والفضيلة وللمنع الشر والفساد والزائل حتى تكون هذه الوسائل عوامل التقويم والاصلاح والبناء لا ماعاول الهدم والتقويض .

ولو سألنا سائل عن كيفية تأسيس وسائل الاعلام المختلفة على قواعد الاسلام وتوجيهها الوجهة الاسلامية من دون أن يكون كل شيء مواظظ وخطبا دينية بحتة ، نقول له بايجاز بأن وسائل الاعلام المختلفة من كتب ومجلات وصحف واذاعة وتلفزيون وسينما ومسرحيات تقدم للناس الافكار والقيم والمفاهيم والنظريات والمعادات والتقاليد وتوجههم وجهة معينة في الحياة من خلال ما تنشره من مقالات وقصص وروايات وتمثيلات وبرامج متنوعة ، فاذا أردنا أن نؤسس هذه الوسائل على قواعد الاسلام ونوجهها الوجهة الاسلامية فان ما نقدمه للناس من أفكار وقيم ومفاهيم وتوجيهات خلقية وعادات وتقاليد يجب أن نبنيها على أساس العقيدة الاسلامية الخالصة ونعرضه من وجهة نظر الاسلام ونشرحه على ضوء هديه وروحه وتعاليمه . ولمزيد الايضاح والبيان نقول بأن الكتب الادبية والثقافية والمجلات والصحف تبحث في موضوعات وقضايا متنوعة في التصور والفكر والسياسة والحكم والتشريع والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والتقاليد والعادات فاذا أردنا أن نجعل هذا الجانب من الاعلام ينطلق من منطلق إسلامي فيجب علينا أن نتناول الموضوعات والقضايا التي يبحث فيها من وجهة نظر الاسلام ونبنيها على أسسه ونشرحها

وفق هديه وتعاليمه مع مراعاة الالتزام بأسلوب العرض الموضوعي النزيه وكذلك الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرحيات فانها هي الاخرى تبث من خلال برامجها وأحاديثها وتمثلياتها أفكارا ونظريات وقيما ومفاهيم معينة وتشر في الناس اتجاهات سياسية وفكرية واجتماعية وخلقية خاصة وتسمى لاهيا تقاليد وعادات معينة ، وان سبيلنا لصلاح هذه الوسائل هو بناؤها على الأسس الاسلامية وهى الموضوعات والقضايا العتمدة التى نتناولها فى برامجها وأحاديثها وتمثلياتها عرضا موضوعيا من وجهة نظر الاسلام ووفق هديه وتعاليمه وتوجيهاتها واستخدمها لنشر دعوة الاسلام وتحقيق رسالته وأهدافه . وحتى برامج الترفيه والتسلية التى تقدمها الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرحيات والتى تمرر فيها التقاليد والمبادئ القديمة فى صورة مزيفة منفرة فى سبيل محاولة القضاء عليها وتوجيه انظار الناس الى تقاليد وعادات أخرى هى فى صميمها غريبة أو متأثرة بوجهة نظر الغرب ففى الحياة فان بإمكاننا أن نوجه هذه البرامج وجهة اسلامية وأن نعرض التقاليد والمبادئ التى تتناولها من خلال وجهة نظر الاسلام . وحيث ان تلك التقاليد والمبادئ التى يصورها بالبلوى والقدم هى فى أصلها تقاليد اسلامية مزجت معها خرافات وبدع وانحرافات جاهلية أخرجتها فى معظم الأحوال عن دائرة الاسلام وهديه وروحه، فسبيلنا لصلاحها وتقومها هو أن نفصل بين ما هو اسلامى أصيل وما هو دخيل عليه وأن نبين وجوه الانحرافات والتشوهات ونستخلص التقاليد الاسلامية الاصيلة من ركائم الاخلاط والاكوام ونسمى لنشرها من خلال وسائل الاعلام المختلفة بأسلوب عرض مؤثر جذاب .

ثم أن وكالات الانباء الغربية اذا كانت تجمع ما تنشره فى اذاعاتها ومجلاتها وصحفها من أخبار واحداث وتصوره وتشرحه من وجهة نظرها الخاصة وحسبما تقتضيه مصالحها المختلفة وتتحقق به مطامعها التى تتصارع من أجلها، فان منهج وكالة الانباء الاسلامية وطريقتها فى ذلك بطبيعة الحال ستختلف تماما عن مناهج تلك الوكالات وطرائقها لان الامة الاسلامية تدبر بفكرة كلية عن الحياة تختلف كسـل

الاختلاف عن فكرة الغرب عن الحياة فهي لا تقيم علاقاتها مع الامم الاخرى على أساس المصالح والمنافع المادية ولا تدخل في صراع وخصام معها من أجل فرض هــنـدـه الحياة وانما تعمل وتجاهد من أجل نشر القيم والمبادئ والمثل الانسانية الرفيعة وتسمى لتحقيق غايات روحية وخلقية سامية .

وبقى أن نؤكد هنا انه لكي نحمد وسائل الاعلام من أن تكون دروساً ومراجعاً وخطاباً دينية بحثية يجب أن نلتزم بأسلوب العرض الموضوعي عند تقديم البرامج والاحاديث والمقالات التي نعرض فيها الافكار والقيم والمفاهيم وفي معالجة الموضوعات والقضايا التي تطرح للبحث والمناقشة وفي برامج الترفيه والتسلية التي تعرض للتقاليد والمادات وفي عرض النشرات الاخبارية وفي تعليقاتنا على الاحداث اليومية الجارية وليس من الضروري أن نصح باسم الاسلام في شئ من ذلك الا اذا اقتضت ضرورة الكلام ، ولا نحتاج أن نقيم الادلة الشرعية على كل مانرضه من أفكاس ومفاهيم وتوجيهات الا في البرامج المخصصة للدروس والمواعظ الدينية ، ويكفينا في بقية البرامج أن نوجه وسائل الاعلام وجهة اسلامية ونعرض الموضوعات والقضايا التي نقدمها فيها من وجهة نظر الاسلام وعلى ضوء هـدـمـتـمـالـيـمـه ، ولا يضيرنا ان لم نصح في ذلك بالاسلام مادنا قد خصصنا جانباً من البرامج للدروس والمواعظ الدينية البحتة التي نقرر فيها علوم الدين ونشرح فيها حقائقه وقيمته ومبادئه ونبين فيها تعاليمه واحكامه وتوجيهاته كما نقدم فيها ايضاً ما يتعلق بدراسة قواعد اللغة العربية وعلومها .

**رابعاً :** تربية جيل جديد على حقيقة الاسلام عقيدة وعبادة وشريعة

ومنهج حياة . . . . .

وأما النقطة الرابعة من وسائل الاصلاح فهي تنظيم برامج تربوية علمية مركزة لإخراج جيل جديد يمثل حقيقة الاسلام في عقيدته وشعائره وشريعته ومنهجه للحياة وقد علمنا من خلال فصول هذا البحث أن المسلم في القرنين الاخيرين قد انحرف

عن جادة الاسلام وبعد من خطه المستقيم بعدا شاسعا حتى اصبح في كثير من الاحوال لا يحمل من الاسلام الا بعض مظاهره وأصبح يأتي بأعمال كثيرة مخالفة لتعاليم الدين وتوجيهاته ويخضع لتقاليد وعادات لا يعرف مصدرها ولكنه يتبعها على أنها من الاسلام وهي ليست من الاسلام في شيء ، كما أن المجتمع المسلم قد أصبح تنخر في كيانه رذائل متعددة ترتبط عند كثير من الناس بالاسلام الذي يدعى المسلمون الانتساب اليه حتى اذا ذكر الاسلام عندهم تمثل أمامهم الجهل والضعف والفقر والجوع والكسل والخمول والتقاعد عن العمل والانزواء عن الحياة وتفشى المظالم السياسية والامراض الاجتماعية واهمال نظافة الجسم والاكل واللباس والمسكن وما الى ذلك . وانا اتضح لنا هذا علما مدى حاجة العالم الاسلامي اليوم الى ظهور جماعة مسلمة تفهم الاسلام فهما صحيحا شاملا وتؤمن به ايمانا قويا حقيقا وتكون على استعداد حقيقي لاقامة هذا الدين على حقيقته وتمثيله في صورته التطبيقية الصحيحة في واقع الحياة حتى يكون أفراد هذه الجماعة في سرهم وعلايتهم نماذج علية وأمثلة طيبة رائعة وقدوة سالحة يدهون الى هذا الدين قولا وعملًا ويربون الناس على عقيدته وقيمه وتعاليمه واخلاقيات ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويبذلون أقصى جهدهم في سبيل هداية الناس الى الخير واقامة الحق والعدل بينهم ويجاهدون في سبيل الله حق جهاده لاعلاء كلمته وتمكين دينه في الارض يتجردون لهذا العمل ويقفون حياتهم ومالههم ومواهبهم ومصالحهم وراحتهم وكل ما يملكونه في سبيل انجاءهم ويعطون لنصرة الحق الذي يؤمنون به بقوة وعزيمة وصدق واخلاص واعتزاز لا يرجون بذلك الا وجه الله تعالى ورضوانه ولا يسمون الا لاقامة دين الله وتنفيذ ارادته في الارض وتسيير دفة الحياة وفق منهج الله الذي يحقق للبشرية كل الخير والفضيلة والسعادة في شتى مجالات الحياة .

ان حاجة العالم الاسلامي ماسة جدا لقيام مثل هذه الجماعة المسلمة فسي أي بلد من البلاد الاسلامية لكي يرى الناس صورة واقعية للحياة الاسلامية التي

تتجسد فيها حقيقة الاسلام في صورتها الصحيحة المستقلة ويثجلى فيها منهج  
الاسلام ونظامه للحياة ومد نيته واجتماعه كما تظهر فيها ايضا نتائج دعوته وتعاليمه  
وتوجيهاته ، تلك الحياة التى يتكفل الاعداء للحيلولة دون قيامها مجسدة لحقيقة  
الاسلام واقعا عمليا مشهودا على وجه الأرض .

وانا كان صحيحا ان المسلمين قد بعدوا عن حقيقة الاسلام بمسدا  
كبيرا وانحرفوا عن جادة هذا الدين انحرفا شديدا فان ذلك لا يعنى ان ليس  
هناك أمل في عودتهم الي حقيقة هذا الدين مرة أخرى . ولقد رأينا في خلال  
التاريخ الاسلامى الطويل أن حقيقة الاسلام لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما  
اختفت في حياة المسلمين ، وكلما ظهرت حقيقة الاسلام في جماعة من المسلمين فى  
أى مكان من الرقعة الاسلامية الفسيحة وفى أى عصر من العصور وهبت على قلوب  
أفراد هانفحات عطرة من الايمان والتقوى والصلاح وتشريت نفوسهم روح هذا الدين  
كادت الامور أن تمسود الى ماكانت عليه في القرون الاسلامية الزاهرة . وانا قد ر  
للمسلمين أن يتنبهوا من سباتهم العميق الذى طال عليهم أمهه واشتدت عليهم  
وطأته وأن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها محاسبة دقيقة فى دعوى الاسلام والايمان  
والتقوى ثم يوفقوا الى اقامة حقيقة الدين وتمثيل صورته الناصعة واقعا عمليا فى  
حياتهم فانهم سيتحولون بان الله تعالى الى قوة عظيمة تستطيع أن تذلل كل عقبة  
فى وجهها وتهزم كل قوة تواجهها أو تصمد لها على الأقل ، وتأتى بأعمال عظيمة  
مشرفة وتضرب للناس أمثلة رائعة من قوة الايمان والتقوى والصلاح وروح الجهاد تجدد  
فى أذهان الناس ذكريات القرون الاسلامية المفضلة وتجسد لهم صورة واقعية للحياة  
الاسلامية الرفيعة .

وليس العالم الانسانى بأقل افتقارا من العالم الاسلامى لمثل هذه الجماعة  
المسلمة التى تحمل على اكتافها مهمة الهداية والدعوة الى الخير ونشر الحق  
والفضيلة والقيم الانسانية الاصيلة لاخراج الناس من الظلمات الى النور ومن الميؤدة

للشرا الى المبودية الحققة لله وحده ومن جور الاديان والذاهب والصاهج البشرية  
الوضعية الى عدل الاسلام ومنهجهم وشريعته ومن ضيق الحياة الدنيا الى آفاقها  
الانسانية الرحبة ومن الحياة الشقية البائسة المنحلة فى ظل الوثنية والجاهلية الى  
الحياة الطيبة السعيدة فى ظل هدى الله ومنهجهم القويم . واذا نشأت فى هذا  
المصر جماعة مؤمنة اتخذت لنفسها هذه الصفات والخصائص وترت عليها حتى صلب  
عودها وقويت شوكتها كان الناس على موعد مع قوة اسلامية عاتية تستطيع باذن الله  
أن تؤدى دورها الطليمى فى سبيل تحقيق رسالة الاسلام وأهداه فى داخل  
المجتمع المسلم لخدمة المسلمين وفى خارج هذا المجتمع ايضا لخدمة البشرية جمعاء .  
والسؤال الذى يتوارد علينا هنا هو كيف نستطيع أن ننشئ اليوم مثل هذه  
الجماعة المسلمة ؟ وعليه نقول بأننا اذا أردنا أن ننشئ جماعة مسلمة تمشي الاسلام  
بكل وجودها وتمنحه بل وجودها فلا بد من اعادة تكوين افراد المسلمين وتنشئتهم  
على حقيقة الاسلام وتربيتهم على مبادئ الدين وقيمه وتعاليمه وتوجيهاته الأخلاقية ،  
ولا بد أن ننقى من نفوسهم ونزيل من كيانهم ركام العقائد الباطلة والخرافات والبدع  
والانحرافات السلوكية التى يتمسكون بها على انها جوهر الدين ، ولا بد أن نبصرهم  
بدعوة الاسلام ورسالته وأهداه وأن نربيههم على تطبيق تعاليم الدين والالتزام بأوامره  
ونسير معهم خطوات فى هذا السبيل منذ نعومة أظفارهم وفى جميع مراحل حياتهم  
وبكل الوسائل الايجابية المتاحة للدعوة والتربية والاصلاح والتقويم . وقد يكون ممن  
المسهل الميسور أن ندعو المسلمين الى العودة للدين الصحيح والتمسك بالكتاب  
والسنة ونرسم لهم صورة واضحة من مبادئ الاسلام وتعاليمه وأخلاقه ولكن الأمر  
يختلف تماما عندما نريد تشكيل سلوكهم وفق منهج هذا الدين وتربيتهم عمليا على  
الاصول والتعاليم والأخلاقيات الاسلامية . ان التربية العملية طريقة اصلاحية طويلة  
شاقة تتطلب وقتا طويلا وجهدا كبيرا ولكنها هى الطريق الصحيح الذى يؤتى ثمارا  
يانمة ويحقق نتائج طيبة . انها عجل كبير يحتاج الى دعاة مربين مصلحين همرت  
قلوبهم بالايمان والتقوى وفاضت نفوسهم عزيمة وصدقا واخلاصا وتجردا للمصل

في سبيل نشر دعوة الحق وحبها ورحمة بالمسلمين وحرصا على الاخذ بأيديهم الى طريق الهدى والرشاد . ولا شك أن مهمة هؤلاء الدعاة المصلحين كبيرة وشاقة تحتاج منهم الى قوة ايمان وتقوى وحكمة وصدق وصبر والى وضع خطط عمل دقيقة واتخاذ وسائل ايجابية وبذل أقصى ما في الوسع في سبيل نصرة الدين فمثلهم كمثل من يريد أن يخرج خيوطا فاسدة بالية من نسيج قديم فقد جمالها ورونقه ويستبدل بها خيوطا أخرى جديدة صالحة ولا يخفى ما يتطلبه ذلك من جهد جهيد ووقت طويل وعناية فائقة وصبر لا يحرف اليأس والسآمة .

ان مهمة اعداد الناشئة الاسلامية اعدادا صالحا واخراج الطليعة المؤمنة التي تتولى قيادة الامة الاسلامية وتقيم دعائم المجتمع المسلم على منهج الله وهدى وتربي الأجيال الاسلامية القادمة تربية عملية صحيحة لهدى من أوجب الواجبات التي ينبغي أن يوجه الدعاة المصلحون عنايتهم الكبيرة اليها . ان الخطة التي اعتمدها الرسول صلى الله عليه وسلم في تكوين الطليعة المؤمنة الاولى فسي فاية الدقة والاحكام ، فقد عنيت الدعوة الاسلامية في عهدها الاول باعداد الجماعة المسلمة اعدادا نفسيا وفكريا ومعنويا واخلاقيا وسلوكيا لبلوغ مستوى المسئولية والقدرة على أداء رسالة الاسلام وتحقيق أهدافه في المجتمع ، وقد رأينا أن مرحلة الاعداد والتكوين قد استنفدت من حياة النبوة ما لم يستنفده عمل آخر ثم رأينا أيضا ما أسفرت عنه الجهود التي بذلت في هذه المرحلة من حصيلة مباركة امتدت الدعوة الاسلامية على المدى الطويل من الزمن بافذان الرجال الذين انشأهم الاسلام بمفهومه الصحيح وصاغتهم العقيدة الاسلامية الخالصة ونسجت جوانب شخصيتهم المتميزة مبادئ الاسلام وقيمه واخلاقياته . فما قامت للاسلام قائمة في عهده الأول ولا خطت دعوته خطوات متدفقة الى الامام ولا بلغ سلطان المسلمين وملكهم مشارق الأرض ومغاربها الا بتوفيق الله ثم بجهود طليعة الاسلام الاولى التي أهداها الرسول صلى الله عليه وسلم اعدادا قويا صالحا .

وبعد هذا نريد أن نبين بإيجاز منهج التربية العملية التي أوليناها

هذا الاهتمام الكبير واعتبرناهما أنجح الطرق الايجابية في الاصلاح والتقويم والبناء ، وأكدنا وجوب اتخاذها من قبل الدعاة المصلحين وسيلة لتكوين الفرد المسلم وتكوين الاسرة المسلمة ثم اقامة بناء المجتمع المسلم من العناصر الصالحة التي يوفقون الى استخلاصها من الجماهير الخافضة الشاردة .

وبما أن الفرد هو اللبنة الاولى في بناء المجتمع فان الدعوة الاسلاميــــــــــــة تتولى عناية كبيرة بتربية الفرد المسلم نفسيا وفكريا وعقليا وخلقيا وجسميا حتى يكون مستقيما في سلوكه واخلاقه ويعرف الخير من الشر ويلتزم طريق الحق ويتعهد عن الرذائل ومفاسد الاخلاق ويكون جديرا بوصف الانسانية وعنصرا قويا صالحا فسي بناء الاسرة المسلمة وانشاء المجتمع المسلم .

وليس سبيل التربية المحلية محصورا في مجال الدعوة بالقاء الســـــــــدروس والمواعظ والخطب لتعريف الناس بحق ائق الاسلام وقيمه وتفهمهم تعاليمــــــــــــه وتوجيهاته ولكنه الى جانب ذلك يشمل نهوض الدعاة المصلحين بمهمة جمع أفراد المسلمين حول الدين الحق وحشد هم في جماعة مسلمة موحدة وخلق نوع مــــــــــــن الصلة الوثيقة بأفراد هذه الجماعة ، وجمع قلوبهم جميعا حول مركز قياد تــــــــــــــــهم يتلقون عنه التوجيهات والارشادات ويراجعون في كل ما يعرض لهم من امور حياتهم ، وان مهمة هذه القيادة هي أن تقدم الدعوة والنصيحة والارشاد لأفراد الجماعة المسلمة وتتصهدهم بالتعليم والتربية عن طريق القدوة الحسنة ، والمعايشــــــــــــة والمصاحبة والممارسة العملية لتوجيهات الاسلام وأخلاقياته .

وان التركيز في الدعوة الاسلامية على التربية المحلية للأفراد والجماعات هو من أجل توفير العناصر الصالحة لاقامة مجتمع اسلامي قويم ، لأن هذا المجتمع لا ينشأ حتى نستطيع أن ننشئ جماعة من الناس تقرر بالمبودية الحققة لله وحسبــــــــــــه اعتقادا وتصورا وعبادة وشريعة ونظاما وترفض الخضوع لعبودية غير الله تعالى فسي أية صورة من صورها فلا تمتقد في ألوهية احد غير الله تعالى ولا تتوجه بالشعائــــــــــــر



التعبدية لغير الله تعالى ولا تتلقى الشرائع والنظم من أحد غير الله تعالى ، ثم تأخذ هذه الجماعة فعلا في تنظيم شؤون حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة لله تعالى وحده ووفق هديه ومنهجه . فالواجب على الدعاة المربين أن يعملوا بجد ونشاط وتخطيط دقيق لتحقيق العقيدة الإسلامية الخالصة فسي الأفراد والجماعات وتربيتهم عمليا على تعاليم الاسلام وأخلاقه حتى تنبعث حوافز الحياة الإسلامية في نفوسهم وعليهم أيضا أن يسعوا لاقامة واقع اسلامي ملموس حتى تلتقى الحوافز والرغبات ببيئة تكفلها الشريعة الإسلامية وتقوم على منهج الله وهديه ، لان الحياة الإسلامية تقوم على أساسين قويمين هما العقيدة والشريعة . ثم ان اعتماد التشريع الاسلامي على أساس العقيدة الخالصة فسي الله لما يبعث في النفس الثقة بصلاحيته وقدرته على تحقيق الحياة السعيدة للبشرية بما لا يقاس عليه غيره ويجعله أدعى للاتباع والطاعة عند الأفراد الذين زكت نفوسهم بالايان والعبادة والاخلاق واتسعت مدارك فهمهم لحقيقة الكون والحياة والانسان وأصبحوا يحسون بمعظم ما عليهم من المسؤولية في أداء واجباتهم أمام ربهم الذي يحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة .

ثم ان الجماعة المسلمة لا تنشأ ولا يتقرر لها وجودها المستقل المتميز فسي واقع الامر الا اذا بلغت درجة من قوة الاعتقاد والتصور وقوة الخلق والبناء النفسى في الافراد وقوة الترابط والتنظيم والبناء الجماعى تقيم بها كيانها المستقل وشخصيتها المتميزة وتواجه بها أوضاع المجتمع الجاهلي ونظمه وضغوطه لتتغلب عليها أو تصمد لها على الأقل .

ويبقى بعد هذا كله أن نقول بأن العبء الكبير في مهمة اصلاح المجتمع المسلم مما يعانيه اليوم من مشكلات يقع على عاتق الدولة الإسلامية ان وجدت ، لأنها هى التى تستطيع أن تقوم بأمر الدعوة وتجند الدعاة المربين والمصلحين لهذا العمل وتوفر لهم الامكانات الادبية والمادية وتتيح لهم فرص العمل والانطلاق لتتلاقى

متناسقة في سبيل الإصلاح جهود الافراد والجماعات مع القوة التنفيذية التي تملكها الدولة الحاكمة .

ويتجلى دور الدولة المسلمة في النهوض بأعباء العمل الاسلامي في داخل المجتمع المسلم وفي خارجه على السواء .

فان كل ما بيناه في هذا الفصل حول وسائل الإصلاح والتقويم لامتانيه الامة الاسلامية من مشكلات متعددة في مجال الفكر والثقافة ومجال التربية والتعليم ومجال الإعلام والنشر وما قدمناه من اقتراحات لإصلاح هذه المجالات في سبيل استئناف حياة اسلامية سليمة واقامة مجتمع مسلم قوي لا يستطيع أن يقوم بما يتطلبه خير القيام إلا الدولة المسلمة . فمن ذا الذي يملك القدرة على النهوض بإصلاح هذه المجالات وتقويم الأوضاع الفاسدة فيها غير الدولة الحاكمة ، من ذا الذي يستطيع أن يقوم بأعباء الدعوة الإسلامية ويجند لها الطاقات ويوفر لها امکانات ويفسح لها مجال الانطلاق والانتشار في المجتمع ومزيل عن طريقها الحوائق والصعبات . . . من ذا الذي يستطيع ذلك كله غير من أعطى الملك والسلطان ؟ ومن غير الدولة الحاكمة يملك أن يضع للمجتمع الاسس والقواعد لإصلاح مجال الفكر والثقافة ويضع سياسات التعليم ومناهجه وطرائقه وفق هدى الاسلام ومنهجه ، ويؤسس وسائل الاعلام المختلفة على قواعد الاسلام وتعاليمه ويوجهها الوجهة الاسلامية ، ويحمي هذه المجالات من ان تتسرب اليها مثرات الحضارة الضرية الماديانية اللادينية أو تحتويها احتواء كلياً ، ويبعد هاجمها من أن تكون وسائل لافساد عقيدة المسلمين واخلاقهم ونشر الاتجاهات المخالفة للدين وقيمه وتوجيهاته بينهم ؟ ومن غير الدولة الحاكمة يستطيع أن يظهر ساحة المجتمع من صنوف الرذائل والمنكرات والمهيات والمهيجات التي تشد نفوس الناس الى الانحراف وسلوك مسالك الضياع والهلاك ؟ لا أحد غير الدولة الحاكمة يستطيع أن ينظم شؤون حياة المسلمين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفق هدى الاسلام وتعاليمه وتوجيهاته بحيث تظهـر

للناس كمال النظام الاسلامي وعده وفضله، وتتحل مشكلات عديدة قشلت التجارب  
الخبرية في ايجاد الحلول المناسبة لها في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير  
ذلك .

من خلال هذه الامثلة القليلة تتضح لنا مسئولية الدولة ودورها الفعال فسي  
سبيل الاصلاح والتقويم والبناء . ولكن ينبغي أن نؤكد ان الدولة اذا لم تقم  
بأمر الدعوة الاسلامية واصلاح الاوضاع الفاسدة والسعي لاعادة الامة الى حقيقة  
الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل واقامة واقع على يمثل الاسلام في عقيدته وعبادته  
وشريعته فلا بد من ظهور جماعة مؤمنة مجاهدة تضطلع بأعباء العمل الاسلامي فسي  
هذا السبيل ، لا بد أن تنهض هذه الجماعة للامر حسب استطاعتها وتبذل فسي  
هذا السبيل قصارى جهدها وتسلك الى تحقيق غايتها طريق الهدى والرشاد

والحكمة والدعوة الهادفة والتخطيط الدقيق على المدى الطويل ، من دون تمجيد  
ولا تهوير ولا طفرة ولا تكاسل ولا تقاعص عن العمل وايتثار الحافية على الجهاد وحب  
الدنيا وكراهية الموت في سبيل الله . ولا شك أن طريقهم محفوظ بالاطمئنان  
والمشقات والشدائد حيث أن الاعداء - سواء في داخل المجتمع المسلم أو فسي  
خارجه - لا يتركونهم يسيرون في الطريق الذي اختاروه لانفسهم فسيلقون منهم  
المواجهة والمقاومة والايذاء والتعذيب مهما حاولوا تجنب شرهم وكيدهم . وهذه  
سنة الله في تاريخ الدعوة الاسلامية منذ نوح عليه الصلاة والسلام الى رسول الله  
محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي سنته تعالى في الدعاة المصلحين في كل  
زمان ومكان ، ولكن العاقبة للمتقين ولعباد الله الصالحين الذين آمنوا بالله  
حق الايمان وعبدوه حق العباد ووقفوا حياتهم في سبيل هداية الناس الى دين  
الله الحق وعبادته وحده لا شريك له ، وتخليصهم من العبودية لغيره تعالى فسي  
شئى صورها وأشكالها انهم الهداة المهتدون وهم جند الله في الارض ، وقد  
وعدهم الله الأجر الجزيل في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فيقول تعالى : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستغلّفنهم في الأرض كما استغلّف الذين من قبلهم ولهمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا . (١) الآية .

وأما في الآخرة فهم الشهاداء والصدّيقون والصالحون فيقول الله تعالى : " ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في الثروة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . " (٢)

ثم ان على الدعاة أن يقوموا بواجبهم بايمان راسخ وعزيمة صادقة وأن يعملوا بجد ونشاط لا يصل دعوة الحق الى كل الناس وأن يستخدموا كل ما أمكنهم من الوسائل الايجابية الحكيمة لتحقيق غايتهم وأهدافهم ، وليس عليهم بعد هذا أن يحققوا الضاية المنشودة أو لا يحققوها ولا عليهم أن يفعل الله بهم أو يفعل بدينهم وباعدائهم ما يشاء . يقول الاستاذ الشهيد سيد قطب " .. ان عليهم (يعني المؤمنين المجاهدين) أن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا ، وواجبهم أن يختاروا الله وأن يؤثروا العقيدة على الحياة وأن يستعملوا بالايان على الفتنة وأن يصدقوا الله في العمل والنية ثم يفعل الله بهم وباعدائهم كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء ، وينتهي بهم الى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الايمان أو الى غيرها مما يعلمه هو ويراها . انهم اجراء عند الله اينما وحيثما وكيفما ارادهم أن يعملوا عملوا ، وقبضوا اجر المعلوم ، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة الى أى مصير فذلك شأن صاحب الامر لا شأن الأجير . " (٣)

(١) سورة النور آية (٥٥) .

(٢) سورة التوبة آية (١١١) .

(٣) كتاب معالم في الطريق ص ٢٤٢

ونعمود في نهاية هذا الحديث لنقول بأنه لو قدر للمسلمين أن يلتقي  
 جهود الدول الإسلامية مع مساعي الهيئات والجماعات المسلمة وأفراد الدعوة  
 العاملين في سبيل الإصلاح والبناء ، إصلاح نواحي الانحراف والضعف في حياة  
 المسلمين وبناء حياة إسلامية صحيحة في المجتمعات الإسلامية تقوم على دعائم  
 العقيدة والشريعة الإسلامية ، واستخدمت في سبيل ذلك الوسائل الإيجابية  
 التي عرضنا لها في هذا الفصل لتحقق في أسرع وقت دعوة الإسلام وقامت في عالم  
 الواقع الحياة الإسلامية الصحيحة التي طالما تئلت أعداء الإسلام للحيلولة  
 دون قيامها وتجسدها في صورة واقعية مشهودة .

ولكن إذا لم تقم الدول بما عليها في هذا السبيل ، فإن الجماعة المسلمة  
 بإيمانها الراسخ وعزيمتها الصادقة وجهودها المتواصلة وتخطيطها الدقيق  
 وجهادها الكبير وتضحياتها النادرة وأعدادها المدة اللازمة لا ماديًا ومعنويًا  
 ستبلغ غايتها المنشودة بعد مضي فترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسبما يريد  
 الله وبشأوه ، " والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) . " يا أيها  
 الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على  
 المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل  
 الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين  
 يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا  
 فإن حزب الله هم الغالبون . " (٢)

وحين تتحقق للجماعة المسلمة غايتها السامية في الحياة فإن آثار دعوة  
 الإسلام الطيبة في إقامة الحق والعدل ونشر الخير والفضيلة في شتى مجالات  
 الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لن تقتصر على المجتمعات الإسلامية

( ١ ) سورة يوسف : آية ( ٢١ )

( ٢ ) سورة المائدة آيات ( ٥٤ - ٥٦ )

بل ستشمل المجتمعات البشرية لتحقيق فيها الأمن والاستقرار والسلام العالمي .

ان الحضارة الغربية المادية اللادينية التي قادت العالم بأسره الي حربين عالميتين كبيرتين في خلال ربع قرن من الزمن وظهرت على أثرهما الكتلستان الغربية والشرقية المتنافستان المتصارعتان على المصالح والمطامع ، وظهرت بشكسل واضح وخطير الاتجاهات والمذاهب والنظريات والنظم المختلفة التي تصادم الفطرة السليمة وتتعارض مع الاصول الثابتة في حياة الانسان ، ودلت التجارب وبرهنت الايام على سخافتها وفشلها في تحقيق السعادة والأمن والاستقرار للبشرية رغم كل ماوصلت اليه هذه الحضارة من تقدم وازدهار في وسائل الحياة المادية وأساليب المعيشة . . ان هذه الحضارة المادية اللادينية قد زادت مشكلات البشرية وأزماتها تمقيدا وتفاقما وخلقت مشكلات وأزمات أخرى عويصة ، وأصبحت البشرية تعاني من صنوف المحن والويلات والقلقل والاضطرابات والصراعات والمظالم الاجتماعية والفوضى والفساد الخلقية في كل مكان على وجه الأرض ، ووصل ظفيان المادية منتهاه في حياة الأفراد والجماعات وساد العبث والفساد السلوك والروابط . وصارت حياة الناس في المجتمعات الاوربية أشبه ماتكون بحياة الغابة حيث لا ضوابط ولا قيم خلقية عليا يصدر عنها الناس في تعاملهم بعضهم مع بعض ، وأصبحوا يعيشون وسط ظلمات حالكة لا يدرون طريقهم الى الخروج منها ، وقد بدأوا منذ فترة يحسون بماهم فيه ، وبدأت الصيحات والصرخات تتعالى فسي مجتمعاتهم تنذر بسوء مصير البشرية وانحدارها الى الهاوية ، ولكنهم لم يهتدوا بعد الى طريق الخلاص ، ولحلهم عرفوه ولكنهم يجحدونه كبرا وحسدا من عند

أنفسهم . وهذا أحد كبار اساتذة الاسلاميات في أمريكا Charles L.Gedder

يقول في كلمته التي ألقاها في ١٣ مايو عام ١٩٦٦م في كراتشي : " ان الاسلام يملك جميع الخصائص التي يستطيع أن ينشر السلام والانسجام في العالم ، ان الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون الدين الذي أنزله الله وكان لهم ما في مجيد مشرق ان يقدموا مبادئ الحياة وفلسفتها الى الغرب وبذلك يستطيعون

أن يحملوا راية السلام التي عينت لهم في عالم الفد .<sup>(١)</sup>

ان العالم الانساني الهابط المنهار الذي سيطر عليه التفكير الأوربي القائم على أساس النظرة المادية البحتة الى الحياة ونبت القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية والمعنوية الانسانية ، وأصبح الناس فيه يعانون من خواء السروح ، وأصبح تصورهم وفهمهم لحقيقة الحياة وقيمتها وحقيقة الانسان ودوره في الحياة في هبوط وانحدار واضطراب وصارت المادة عندهم هي المنصر الأساسي الدائم في تقدير القيم للأفراد والجماعات والامم، وأصبحت غاية الحياة وصحة الانسان فيها هي القوت واللذة والمتاع واختراع الآلات واتخاذ المصانع وتوفير المنتوجات المادية . . . ان هذا العالم الهابط البائس أخرج مايكون اليوم لان يقدم له المسلمون عقيدتهم وشريعتهم ومنهجهم للحياة لتخليص البشرية من كل ماتمانيه من مشكلات ومعضلات في شتى مجالات الحياة ، فالمسلمون يملكون دينا هو الأقوم منهجاً والأعدل شريعة وحكماً والامثل طريقة يهدي الى الحق والخير والفضيلة ويرفع قيمة الحياة الى المستوى اللائق بكرامة الانسان وانسانيته ، انهم يملكون عسك الحياة فكرة كلية شاملة هي أقوم وأرقى من كل فكرة تملكها الامم الاوربية، ويملكون نظاماً صالحاً عادلاً يحقق السعادة والامن والاستقرار لبني الانسان . ولكن المسلمين لن يقدموا عقيدتهم للبشرية فكرة نظرية وانما يقدمونها بتطبيقها في حياتهم حتى يراها العالم حقيقة واقعية قائمة على وجه الأرض . وحين يستقر أمر المسلمين أنفسهم على منهج الله وتتجسد في حياتهم مبادئ الاسلام وتعاليمه وأخلاقياته ويقوم مجتمعهم على دعائم العبودية الخالصة لله تعالى في العقيدة والتصور والشعائر التعبدية والشريعة والنظم والقوانين ويصطبغ سلوك الافراد والجماعات في الحياة بصبغة الاسلام وتبدأ تظهر آثار دعوة الاسلام في جميع شئون الحياة في مجتمعهم ، حينئذ ينبثق لهم لسان صدق مبين يدعو الأمم الأخرى الى اعتناق عقيدتهم واتباع منهجهم في الحياة، ويحمل اليها رسالة الاسلام

(١) من كتاب التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية  
للشيخ أبي الحسن الندوي ، ص ٤٠

ويجب أن يعلم المسلمون أنهم في اليوم الذي يستطيعون أن يقيموا هذا الدين على حقيقته خالصا لله تعالى ويرتفعون الى مستواه الرفيع في واقع حياتهم ويمثلونه حق تمثيل ، سيصبحون قوة عظيمة تحسب لها أم الأرض ألف حساب ويملكون أن يتقدموا بدعوة الاسلام ويحملوا رسالته الى البشرية . وصلا شك في أنه أن الامم الاوربية لا ينتمى منها من قبول الاسلام واعتناق عقيدته الا روح المداة والحد والكبر والغرور المتأصلة في أعماق قلوب الغربيين ، ولكنها اليوم بالاضافة الى ذلك محجوبة عن رؤية حقيقة الاسلام مصدودة عن قبول هذا الدين منفردة من اعتناق عقيدته بما تراه من واقع المسلمين المتدهور وحالتهم السيئة المنحطية .

ومهما نجح المسلمون في ابراز جوهر الاسلام في صورة قوية ناصعة جذابة أمام الامم الغربية فان الواقع السيئ المزرى الذي يعيشونه في أنحاء المجتمعات الاسلامية يحمل عمله في تنفير الأوربيين من قبول دعوة الاسلام ، لأن حالهم يشبه حال انسان قام يتحدث عن كنوزه وأمواله الوفيرة وقصوره المشاهقة وعيشته الرفيدة ولكن حين نظر اليه الناس رأوا فيه مظاهر البؤس والفقر والجوع وهو يمسك بيد المسألة الى الناس الفادين والرائحين ، أفلا يكون في حاله هذه ما يناقض دعواه ويجلب عليه المسبة والسخرية .

ان وضع دعوة الاسلام اليوم يشبه وضعها في أول عهد ما في الموقف الحرج الذي كان يعيشه الناس عند ظهور هذه الدعوة بكل ملابس هذا الموقف وسماته ومظاهره ووضايعه في الحياة الجاهلية . وليست الأوضاع القائمة اليوم في الحياة البشرية في ظل الحضارة الغربية الحادية اللادينية بأقل سوءا من الأوضاع التي كانت قائمة في الحياة الجاهلية عند قيام دعوة الاسلام في عهد ما الاول . ولقد استدار الزمان اليوم كهيئته يومذاك وأصبحت المجتمعات البشرية تعيش في جاهلية جهلاء وعادات البشرية الى الوثنية والكفر واللاحاد مرة أخرى . وعاد الاسلام غربيا كما بدأ حتى بين أهله وفي المجتمعات التي تحمل اسمه . وقامت حاجة البشرية الى ظهور دعوة هذا الدين مرة أخرى لاخراج الناس من الظلمات



الى النور وهدايتهم الى الصراط المستقيم . ويجب على المسلمين أن يعلموا أنهم اليوم على مفترق الطرق فاما ان يظلوا في انحرافهم عن جادة الحق ويحدهم عن حقيقة الدين ونبذهم لهدى الله ومنهجه للحياة وراء ظهورهم ويواصلوا سيرهم في ذيل احدى القافلتين الغربية والشرقية ويتجهوا وجهتها في الحياة ويخلصوا الى الأرض ويتكروا للقيم والمثل العليا ويتكالبوا على عرعر الحياة وينكبوا على شهواتها وملذاتها ومطامعها ويتنافسوا على أعراس الدنيا التافهة وحطامها الفانى فيلبيهم ذلك عن ذكر الله تعالى وعن مهام الأمور وعظائمها كما حدث لمن كان قبلهم ، فتقودهم القافلتان الغربية والشرقية الى الهاوية التي هي مصيرهم المحتوم فيبقى العالم جائرا في الوحدة التي أصبح يتردى فيها منذ قرنين من الزمن واما أن يرجعوا الى حقيقة الاسلام يطبقونها في حياتهم الروحية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وقيمون على أسس عقيدته الخالصة نهضة بناءة قوية في العالم الاسلامي فيحققوا دعوة الاسلام واهدافه في ذات انفسهم وفي داخل مجتمعاتهم وينعموا بالحياة الطيبة السعيدة ثم يبنوها لافضل العدة اللازمة ماديا ومعنويا لاداء مهمتهم الانسانية في خدمة البشرية وينطلقوا لنشر دعوة الاسلام في الآفاق ، يجاهدون في سبيل ذلك بأموالهم وانفسهم ، ويضحون بكل ما يحرص عليه الناس من الشهوات والمصالح والامال حتى تتخلص البشرية من أضرار الجاهليسة وينهض العالم من عثاره وترفع عن الناس الاضرار والأغلال التي كانت عليهم وتسرول الفتنة والظلم والجور ويكون الدين كله لله ويرفل الناس في ثوب الامن والاستقرار والسلام . وكما كانت دعوة الاسلام قوية في اليهود الاسلامية الزاهرة فهي اليوم وفدا قوية لان عناصر القوة الحقيقية كامنة في طبيعة هذا الدين ذاته . ولكن المسلمين لن يستطيعوا اليوم أن يثبتوا كيانهم المستقل وشخصيتهم المتميزة ويعيدوا مكانتهم اللائقة بهم في العالم ويحققوا الانتصار والسيادة على الامم الا بالامان الصديق بهذا الدين والتمسك بتعاليمه واقامة شئون الحياة على دعائم عقيدته وشريعته والجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله وتمكين دينه في الارض والقيام

بمعمل مخطط وكفاح مرير وجهاد كبير لتحقيق رسالة الاسلام في العالم وانقاذ البشرية من الانهيار والانحلال والدمار .

وحين يتم للمسلمين المود الصحيح الى حقيقة الاسلام بقيومونها في واقسع حياتهم ، فان ذلك سيمنحهم القدرة على بناء مجتمهم على دعائم الحق والمعدل في شئون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ويوفر لهم وسائل راحسة النفس والامن والاستقرار في داخل المجتمع ويضمن اتجاه الحياة فيه نحو الوجهة الصحيحة التي تحقق الخير وتنشر الفضيلة بين الناس ، وليس ذلك فقط بل سيمنح العالم ايضا الامن السلام ويدره عن البشرية اخطار الحضارة الغربية الماديمنة اللادينية ولوثاتها وينقذها من الساعة الرهيبة التي تنتظرها ويجنبها الكارثة التي تهددها اليوم بالدمار والهلاك في حرب عالمية ثالثة .

فالامة الاسلامية منذ أن برزت للوجود تحمل للعالم وللشريعة رسالة سامية تهدي الى الحق والمعدل والخير والفضيلة ، وقد أنيطت بهذه الامة مهمة قيادة البشرية وربادتها ومراقبة سيرها في الحياة وهدايتها الى مافيه الخير والصالح فهي مكلفة بذلك من قبل الله تعالى ومسئولة عنه امامه تعالى . " وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . . (١) " كتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . (٢) "

فمديها ان تعود الى حمل مسئوليتها كما حملتها مرة من قبل ، فيتحقق الخير لها وللشريعة كافة ، وتكون هذه الامة قد حققت وجودها وأدت رسالتها ، وفازت بالفلاح المرجو لها في دنياها وآخرتها .

(١) سورة البقرة : آية (١٤٣)

(٢) سورة آل عمران : آية (١١٠)

### الخاتمة

عزمنّا في ثنايا هذا البحث لبيان عناصر تكوين الجيل الأول من المسلمين وتوضيح أسس بناء المجتمع الاسلامي الأول المثالي واستعراض نماذج عظيمة مستبارة من الحياة الاسلامية الصحيحة التي عاشها المؤمنون الأوائل في عهد الاسلام الزاهر ثم تتبعنا بعد ذلك سير حياة الامة الاسلامية عبر عهودها المختلفة وبينما ما وقع فيها من انحرافات متعددة من الناحيتين التصورية والسلوكية ، وقد أوضحنا أن ذلك الانحراف بدأ صغيرا وفي حمز ضيق من حياة الامة ثم أخذ في التسرب والتوسع والتعدد والانتشار على مر الأجيال والمصور حتى جاءت القرون الاخيرة التي فقدت فيها هذه الامة مقومات حياتها الاساسية وضاعت شخصيتها المتميزة وضمفت قوتها وسلطانها وآل امرها الى اضمحلال ذاتي وذل وهوان وضعف وتخلف على نحو ما تقدم شرحه وتفصيله . ثم بعد ذلك أكدنا الحاجة الى العودة الى الاسلام في صورته التطبيقية السليمة كما بينا طريق الخلاص وسبيل الاصلاح لاقامة حياة اسلامية صحيحة وبناء مجتمع اسلامي قويم . ولكننا نريد أن نوضح حقيقة مهمة في هذا الصدد هي أن ما شرحناه في غلط الانحراف على طول تاريخ هذه الامة بعد فترة الخلافة الراشدة وبخاصة في القرون الثلاثة الأخيرة ليس دليلا على فشل النظام الاسلامي أو صعوبة تطبيقه في واقع الحياة أو استحالة بقاء المجتمع المسلم على قوته ورفعته فترة طويلة من الزمن ، لان كل ما حدث في حياة هذه الامة في عصور انحطاطها وتدنيها ان هو الا أعراض تتاب أي جماعة وأدواء ومشكلات يجب أن توضع في الحسبان وتتخذ الضمانات اللازمة لمنع حدوثها وسد منافذها كما يجب أن تتخذ الحلول المناسبة في حالة وقوعها لمعالجتها والقضاء عليها واجتثاث جذورها من المجتمع ، وذلك لما عرف أن الشر دائر ومتعقب الخير أينما كان وأن رياح الاهواء والشهوات والاطماع كثيرا ما تهيب لتعصف بالمثل والمبادئ والقيم الاصلية وتمحو آثارها الطيبة في كل جيل

وقبيل . فان قيام المجتمع المسلم الأول على الأسس والقيم الإسلامية ونجاحه في اقامة منهج الحياة الإسلامية الصحيحة في واقع الحياة حقيقة واقعة لا يملك أحد انكارها ، وقد استطاع الجيل الأول من المسلمين أن يقيم في خلال فترة قصيرة من الزمن صورة صحيحة للحياة الإسلامية لا تزال مثالا اعلى للأجيال الإسلامية من بعده لتحاول الارتقاء الى المستوى الرفيع الذي بلغه في التطبيق الملموس للإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة \* وهذه الفترة على قصرها تدل دلالة واضحة على تجربة عملية كاملة اقيمت في واقع الحياة لاقامة هذا الدين وتطبيق قيمه وتعاليمه وتوجيهاته في الأرض ، كما تدل على ذلك ايضا بعض الفترات المتقطعة في تاريخ هذه الأمة بلغت فيها جماعات من المسلمين أو افرادهم مستوى رفيعا في هذا المجال وان كان دون الذروة المالية التي ارتقى اليها الجيل الأول . ونخلص من ذلك كله لنقول :

أولا : ان العناصر والمقومات التي أخرجت الجيل الأول المتفرد في تكوينه الفكري والاخلاقي وسلوكه الملموس في الحياة وأخرجت من الأجيال الإسلامية التي جاءت بعده في العصور الإسلامية الزاهرة أفرادا وجماعات كانوا نماذج ممتازة وأمثلة رائدة في التقوى والصالح والاستقامة ، هذه العناصر والمقومات ليست خاصة بهؤلاء المؤمنين الأولين وانما هي عناصر دائمة باقية في كل جيل وقبيل وفي كل مكان وزمان ، فكما وجدت في المهد الأول من دعوة الاسلام بكل قوتها وحيويتها وفعاليتها فهي توجد اليوم وغدا بنفس القوة والحيوية والفعالية ، وذلك لأن من خصوصية رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أنها <sup>رسالة</sup> خاتمة باقية الى يوم القيامة ان لا نبي بعده ، وان طبيعة خاتمة رسالته صلى الله عليه وسلم تحتم بقاء هذه العناصر محفوظة مصانة بكامل قوتها وحيويتها وفعاليتها ، كما يدل على ذلك اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بأن هذه الأمة بسبيل يمدح يتجدد على مر الأجيال والعصور لا علاج دينها وحفظ كيانها وعزتها ورفع شأنها في العالمين . يقول عليه الصلاة والسلام : " ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من

يجد لها دينها (١) " ولا يتحقق هذا التجديد والاصلاح الا حين تكون عناصر التكوين وعوامل القوة للأمة اسلامية دائمة باقية ، قالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة موجودان بين ظهرانينا باقيان الى يوم القيامة ، قد تكفل الله تعالى بحفظهما بصورة قاطعة ظاهرة قال الله تعالى : " انا نحن نزلنا الذكر وانا لسه لحافظون (٢) " لقد بقى القرآن الكريم محفوظا كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بحرفه ولفته لم تنله يد التثوير والتبديل والتحريف على مر المصور والاجيال وكذلك السنة المطهرة فهي الاخرى قد حفظت بارادة الله ومشيئته وهي بين أيدينا محفوظة مدونة محقة ومشروحة مبينة . وأما القدوة العملية الحسنة المتمثلة في شخصية الرسول الفذة وأثرها البالغ في تنشئة الجيل الأول ، فهي أيضا باقية بصورة واضحة متمثلة في ملامح شخصيته عليه الصلاة والسلام الموضحة في سيرته العطرة . ولئن كان وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه الكريم لم يتحقق الا للجيل الاول الذي رآه على عينه والذي أخذ القدوة العملية منه صلى الله عليه وسلم مباشرة فان سيرته العطرة قد حفظت غضة طريفة بكل تفصيلاتها الدقيقة كما لم تحفظ سيرة رسول ولا نبي من قبل . فحين نقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يتمن وتعمق وتفكر وتدبر نكون وكأننا نعيش معه لحظات حياته الطاهرة وفي ذلك تتحقق الاسوة الحسنة لمن يريد . لقد حفظ الله تعالى السيرة النبوية في صورتها التفصيلية الشاملة لحياته صلى الله عليه وسلم لتبقى ملامح شخصيته الفذة محفوظة باقية ولتكون للمسلمين النموذج الكامل الدائم الذي يكون لهم فيه الأسوة الحسنة .

ثانيا : ان الاسس الركيزة التي بنى عليها المجتمع المسلم الأول هو القيسم والبادئ\* والمفاهيم الاسلامية الاصيلية التي وضعها الاسلام لبناء المجتمع الصالح.

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الطلاحم ، باب ما ذكر في قرن المائة ٤ / ١٠٩  
عن ابي هريرة رضى الله عنه .  
(٢) سورة الحجر : آية (٩)

وهذه القيم والمبادئ والمفاهيم عامة وشاملة وهي دائمة وباقية ، وهي مبرورة  
ببذولة لكل من قبل دعوة الاسلام واعتنق عقيدته ودخل في زمرة المسلمين السنيين  
ان يرث الله تعالى الارض ومن عليها . وميزة الجيل الأول أن أفرادهم كانوا على  
ايمان عميق بالله تعالى وعلى ادراك تام وفهم صحيح لحقيقة الاسلام عقيدة وعبدادة  
وشريعة ومنهج حياة كما كانوا على معرفة تامة بالثبغات الضخمة التي يلقيها  
على عواتقهم ايمانهم بهذا الدين ، وكان من حصيلة هذا الايمان العميق وهذا  
الفهم الصحيح وهذه المعرفة الحقة ما كان منهم من الاستعداد الحقيقي لاقامة  
هذا الدين والجديّة الفاعلة في تطبيق قيمه وتعاليمه وتوجيهاته تطبيقاً عملياً صحيحاً  
في جميع شؤون حياتهم ، لقد عاشوا هذه القيم والمبادئ والمفاهيم الاسلامية  
بالفعل وترجموها الى واقع عملي مشهود في حياتهم وحققوا في ذوات أنفسهم  
صوراً عالية خالدة في الايمان والتقوى والصالح والتطهر الخلق واقاموا دعائم  
الحق والعدل في الارض ونشروا الخير والفضيلة بين عباد الله حتى أصبحوا  
قوماً سامقة في تمثيل هذا الدين وفي تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى  
واستحقوا بفضل الله وتوفيقه لهم أن يكونوا أئمة الهدى والرشاد وقادة الأمم  
وسادة العالم والقوة العليا التي تهيم على البشرية وتقودها في ظل هدى الله  
ونوره ومنهجهم الى الصراط السوي . ومن خلال ما أومضناه من السمات الأساسية  
البارزة لواقع حياة المجتمع المسلم الأول وما بلغه المؤمنون الاوائل من السندرة  
المالية في اقامة هذا الدين وتطبيق تعاليمه وقيمه واقامة دعائم الحق والعدل  
في الارض علمنا أن عافية هذه الأمة قد جعلت في أولها ، كما علمنا من خلال  
تتبعنا لسير حياة هذه الأمة عبر عهودها المختلفة أن آخر هذه الأمة قد أصابه  
شر عظيم بما وقع في حياة المسلمين من انحرافات متعددة منذ العهد الأموي  
حتى جاءت القرون الثلاثة الأخيرة التي بعدت فيها الشقة بين المسلمين وحقيقة  
الدين ومفهومه الصحيح الشامل . وقد كانت نتائج ذلك سيئة للغاية وعواقبه  
وخيمة وبخاصة في خلال القرنين الأخيرين حيث فقدت الأمة الاسلامية مقومات

حياتها الأساسية وضاعت شخصيتها المتميزة وضعفت قوتها وسلطانها وفقدت عزتها ومكانتها وآل أمرها الى ضعف وذل وهوان وتخلف ، وأصبح المسلمون رغم كثرتهم المدد في الهائلة غثاء كثفاء السيل لا وزن لهم ولا قيمة في ميزان القوى العالمية ، وقد انفلت زمام القيادة البشرية من أيديهم وتحول الى يد الغرب الذي يقسود العالم اليوم بحضارته المادية اللادينية الى الهلاك والدمار .

وعلى ضوء ما سبق ولكي نعطي صورة عامة شاملة للمجتمع المسلم الصحيح ونستجلي السمات الأساسية للحياة الاسلامية الصحيحة فسجل هذه النقاط التالية :

أولاً : ان المحور الأساسي الذي يجب أن تدور عليه حياة الفرد النفسية والخلقية والاجتماعية وحياة المجتمع في مختلف شئونها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والحضارية هو العقيدة الصحيحة في الله تعالى واتباع هدى دينه وتماليمة وتوجيهاته وبذلك تكون حياة الفرد وحياة المجتمع اسلامية صحيحة .

ثانياً : ان صفة الاسلام لا تتحقق في الفرد ولا في الجماعة ولا للمجتمع بمجسده التحلي والتضي والانتساب العام لهذا الدين ، ولكنها تتحقق في المجتمع باقامة بنائه على أسس عقيدة الاسلام وقيمه وتماليمة وتوجيهاته كما تتحقق في الفرد والجماعة باقامة شئون حياتها كلها على هدى دين الله وشريعته وضججه .

ثالثاً : لا يكفي الاسلام من الفرد بعقيدة تستقر في الوجدان فحسب ولا بفكرة يعتلى بها ذهنه دون أن يكون لها رصيد من الواقع ، ولا بشعيرة تعبدية يؤمن بها وهي خاوية من الروح عديمة الأثر في واقع حياته ، بل يطالبه الاسلام - حقيقياً - يكون مسلماً صحيحاً - باعتناق عقيدة خالصة تقر في قلبه ويصدقها عمله في واقع الحياة تحقيقاً لمبوديته لله وخضوعه لآمره ، كما يطالبه أيضاً باتجاه شامل فسي الحياة يوجه جميع شؤونه فيها الى الله طاعة لآمره تعالى وابتغاء لمرغباته .

رابعاً : لا يكفي الاسلام ايضاً من الجماعة بمجرد كون أفرادها يعتنقون العقيدة الاسلامية ويؤمنون الشرائع التعبدية حتى يكون سلطان الاسلام هو المهيمن

على شئون مجتمعهم وشريعة الله على الطبقة في جميع شئون حياتهم .

خامساً : لا يكون المجتمع مجتمعا اسلاميا صحيحا حتى يقيم بناءه على ركائز الايمان بالله تعالى والخضوع لارادته وتنفيذ امره ، ويسير في شئون الحياة كلها على هدى تعاليم دين الله ومنهجه القويم للحياة الانسانية ، وقيم الحق والعدل بين الناس ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويسعى بجهد ونشاط لتحقيق الخير والصالح ونشر الفضيلة بين عباد الله . حتى تقوم في هذا المجتمع حياة انسانية عادلة متوازنة تتجلى فيها خصائص الفطرة الانسانية السليمة ويتسق نمط هذه الحياة وطريقتها مع موقع الانسان من الكون ومهمته ودوره في الحياة بحيث تتحقق فيها المعبودية الخالصة لله تعالى وحده لا شريك له .

سادساً : ان المجتمع المسلم لا يلتزم بالقيم والهادى \* الاسلامية الاصيلة فـلى توجيه حياته كلها الى الله وتسيير دفتها على هدى دينه وشريعته ليصلح شئونه ويقوم اوضاعه الاجتماعية الفاسدة في داخل حدود بلاده فحسب بل يجب عليه أن يستجيب لنداء الواجب الانساني الطلق على عاتقه تجاه المجتمعات البشرية التي يشقى فيها الناس بجهل وظلم وضلال ، ويميشون فيها في فساد وفوضى وهلاك ، ليدعوهم الى الله ويرشد هم الى الخير والصالح ، لا قرار الا من والسلام في الأرض ورفع الامر عن المستضعفين ، وفك الاغلال عن المستعبدين ، وانقاذهم من المعبودية للبشر وازالة التقاليد والممارسات والانظمة الظالمة التي يفرغها الطغاة على رقاب الناس ، والقضاء على الاوهام والخرافات والاساطير التي تسيطر على نفوس الناس ثم توجيههم بعد ذلك الى عبادة الله تعالى رب العالمين

سابعاً : يجب على المسلمين اليوم ان يراجعوا انفسهم ويراجعوا دينهم ليمعرفوا مدى صدقهم في دعواهم الاسلام ، وهل هم مسلمون صادقون مع الله ومع انفسهم ام هم ادعياء محسوبون على الاسلام ؟ يجب عليهم ان يتفهموا المقومات الاساسية للحياة الاسلامية الصحيحة التي اقامتها الامة الاسلامية في واقع الارض فسترة قوتها وعزتها ونهضتها الحقيقية ، وأن يتبينوا خط الانحراف في تاريخ حياة



هذه الأمة ليقفوا على أسبابه ومظاهره وآثاره البالغة التي أدت إلى انهيار قوة هذه الأمة وزوال سلطانها وذبول حضارتها . وليعلموا يقينا أن طريقهم للخلاص مما يمانونه وسبيلهم لإصلاح حالهم المقدهور إنما هو العودة إلى دين الله وشريعته ومنهجه ، فلن يستطيعوا أن يحققوا وجودهم الذاتي وشخصيتهم المتميزة وبمعيد و مجددهم وعزتهم و دورهم القيادي بين البشرية إلا بالعودة إلى هذا الدين يطبقون قيمه وتعاليمه وتوجيهاته في شئون حياتهم كلها وقيمون بناء مجتمعهم على أسس عقيدته وشريعته ومنهجه القويم للحياة البشرية. " يا أيها الذين آمنوا أركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فعدم المولى ونعم النصير" . (١)

ألم يأن للمسلمين أن يدعوا التواني والتكاسل والاخلاد إلى الراحة والمتاع وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة والانكباب على خطاياها وزخارفها واتباع الأهواء والشهوات وإلهاء أنفسهم بالأمال العريضة والتضي على الله الأمانى المعسولة . ألم يأن لهم أن ينهضوا بعزيمة صادقة واستعداد حقيقى لتحقيق هذا الدين في ذوات أنفسهم والارتقاء إلى مستواه الرفيع في واقع حياتهم واقامته على حقيقته في مجتمعهم . ولعلهم ان يتنبهوا من رقدتهم التي طال عليهم أمدها ، ويصحوا إلى ما هم فيه من ضعف وهوان وتعاسة ، ولعلهم ان يرجعوا إلى أنفسهم ناصحين أو محاسبين ثم يفيثوا إلى الله تعالى وإلى دينه ، فلا نجاة لهم إلا بالفرار إلى الله والاعتصام به واتباع ما أنزل الله من الهدى والنور . " يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات

الشیطان انه لكم عدو مبین فان زلتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا ان اللسـه  
 عزیز حکیم " (١) " یاأیها الذین آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تحوتن إلا وأنتم مسلمون  
 واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وان کروا نعمت الله علیکم ان کتسبم  
 أعداءه فآلف بین قلوبکم فأصبحتم بنعمته إخوانا وکتم علی شفا حفرة من النار  
 فأنقذکم منها کذلک یبین الله لکم آیاته لعلکم تهتدون ، ولتکن منکم أمة یدعون  
 إلى الخیر ویأمرون بالمعروف وینهون عن المنکر وأولئک هم المفلحون ولا تكونوا  
 کالذین تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئک لهم عذاب عظیم " (٢) " ألم یأمن الذین  
 آمنوا أن تنشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا یكونوا کالذین أوتوا الکتاب من قبل فطال علیهم الأمد فقصت  
 قلوبهم وكثیر منهم فاسقون (٣) والله الهادی والموفق إلى صراطه المستقیم .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمین وصلى الله علی سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) سورة البقرة آیتا ( ٢٠٨ - ٢٠٩ )

(٢) سورة آل عمران آیات ( ١٠٢ - ١٠٥ )

(٣) سورة الحديد آية (١٦)



- ١٦- الاسلام فى حل مشكلات المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، د / محمد البهى ، القاهرة ط ٢ سنة ١٣٩٨ هـ .
- ١٧- الاسلام فى الغرب ، جان بول دىوت - سنجده هاجر وزميله ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ١٨- الاسلام فى القرن العشرين . . . ، عباس محمود العقاد بيروت ط ٢ ١٩٦٩ م .
- ١٩- الاسلام قوة الخد العالمية ، باول شمتز ، د / محمد الشامة ، القاهرة ط ٢ مكتبة وهبة ١٩٧٤ م .
- ٢٠- الاسلام المفتى عليه . . . ، الشيخ محمد الفزالى ، القاهرة ط ٦ .
- ٢١- الاسلام وبناء المجتمع ، أحمد الحسال ، الكويت ط ٢ دار القلم ١٣٩٧ هـ .
- ٢٢- الاسلام والجاهلية ، أبو الأعلى المودودى ، بيروت ، دار الفكر الحديث .
- ٢٣- الاسلام والحضارة العربية ، محمد كرد على ، القاهرة ط ٣ سنة ١٩٦٨ م .
- ٢٤- الاسلام والطاقات المعطلة ، الشيخ محمد الفزالى ، القاهرة ط ٢ دار الكتب الحديثة .
- ٢٥- الاسلام والعالم المعاصر انور الجندى ، بيروت دار الكتاب اللبنانى سنة ١٣٩٣ هـ
- ٢٦- الاسلام والقوى المضادة ، د / نجيب الكيلانى بيروت مؤسسة الرسالة ١٤٠٠ هـ .
- ٢٧- الاسلام اليوم ، أبو الأعلى المودودى الكويت ط ٢ دار القلم ١٣٩٧ هـ .
- ٢٨- الاصابة فى تمييز الصحابة ، الحافظ ابن حجر المصقلانى بيروت ، دار احياء التراث الاسلامى .
- ٢٩- الأصنام ، هشام بن الكلبي ، القاهرة .
- ٣٠- الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، بيروت دار الثقافة ط ٣
- ٣١- الى الاسلام من جديد ، أبو الحسن على الحسنى الندوى دمشق ط ٤ سنة ١٣٩٩ هـ
- ٣٢- أم القرى ، عبد الرحمن الكواكبي ، حلب ، المطبعة العصرية ١٣٩٨ هـ .
- ٣٣- أيام لها تاريخ ، أحمد بهاء الدين ، القاهرة سنة ١٩٥٤ م .
- ٣٤- ابن محاضن الجيل المسلم ، يوسف المعظم ، جدة ط ٥ الدار السعودية .

- ٣٥- البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير بيروت ط ٢ ١٩٧٧ م .
- ٣٦- التاج فى أخلاق الملوك ، الجاحظ ، تحقيق أحمد زكى ، القاهرة المطبعة  
الاميرية .
- ٣٧- تاريخ الأمم والملوك الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة دار  
المعارف .
- ٣٨- تاريخ التشريع الاسلامى الشيخ محمد الخضرى ، القاهرة ط ٦
- ٣٩- تاريخ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، القاهرة ، عيسى البابى  
الحلى ١٣٩١ هـ .
- ٤٠- تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطى ، بيروت .
- ٤١- تاريخ الدولة المحلية العثمانية ، محمد فريد ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧ هـ .
- ٤٢- تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان ، ت منير البعلبكي ونبى فارس ، بيروت  
ط ٧ سنة ١٩٧٧ م .
- ٤٣- تاريخ نجد ، محمود شكرى الألويس . تحقيق محمد بهجة ، بغداد سنة ١٣٤٣ هـ .
- ٤٤- التبشير والاستعمار فى نيجيريا ( رسالة ماجستير غير مطبوعة ) خضر مصطفى النيجيرى  
كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ١٣٩٩ هـ .
- ٤٥- التبيان فى اقسام القرآن ، ابن القيم الجوزى ، مكة المكرمة ، المطبعة الميرية سنة  
١٣٢١ هـ .
- ٤٦- التخطيط للدعوة الاسلامية ، د / على محمد جريشة ، جدة ، دار الاصفهانى سنة  
١٤٠١ هـ .
- ٤٧- تذكرة دعاة الاسلام ، أبو الاعلى المودودى . ت. خليل أحمد الحامدى ، بيروت  
مؤسسة الرسالة ١٣٨٥ هـ .
- ٤٨- التربية الاسلامية الحرة . . . ، أبو الحسن الندوى بيروت ط ٢ مؤسسة الرسالة سنة  
١٣٩٧ هـ .

- ٤٩- تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، د / أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة ١٩٧٣ م
- ٥٠- تفسير القرآن العظيم ( تفسير ابن كثير ) أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، القاهرة
- عيسى البابى الحلبي .
- ٥١- الثقافة الإسلامية ، ( مذكرة المستوى الرابع ) قسم الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى ١٣٩٦ هـ .
- ٥٢- جامع البيان ( تفسير الطبرى ) ابن جرير الطبرى ، مصر ، عيسى البابى الحلبي
- ١٣٨٨ هـ .
- ٥٣- الجامع الصحيح ( سنن الترمذى ) الترمذى ، تحقيق أحمد محمود شاكر ، مصر
- ١٣٩٨ هـ
- ٥٤- جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب دار الشروق ١٣٩٥ هـ .
- ٥٥- جذور البلاء ، عبد الله التل ، بيروت دار الإرشاد ١٣٩٠ هـ .
- ٥٦- الجماعة الإسلامية فى سطور ، اعداد دار الصروة للدعوة الإسلامية لاهور .
- ٥٧- جمهرة رسائل العرب ، أحمد زكى ففوت ، القاهرة ، مصطفى البابى الحلبي ١٣٥٦ هـ
- ٥٨- الجهاد فى الإسلام مراتبه ومطالبه ، أحمد محمد جمال ، جدة ١٤٠١ هـ .
- ٥٩- الجهاد فى سبيل الله ، أبو الأعلى المودودى بيروت ط ٧ مؤسسة الرسالة ١٤٠٤ هـ .
- ٦٠- حاضر العالم الإسلامى ، لوثر ب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهج ، تعليق الأمير شكيب أرسلان بيروت ط ٤ سنة ١٩٧٤ م .
- ٦١- حد الإسلام وحقيقة الايمان ، الشيخ عبد المجيد الشاذلى ، مكة المكرمة - مطابع الصفا .
- ٦٢- حركة التجديد الإسلامى . . . د / أحمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة سنة ١٩٧١ م .
- ٦٣- الحركة السياسية فى مصر . . . طارق البشرى القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٦٤- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . . . آدم مقرر ، محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ط ٤ .
- ٦٥- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ت عادلى زعيتر ، القاهرة ، عيسى البابى الحلبي
- ١٩٦٩ م .

- ٦٦- حكم الاسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض ، . . ، الشيخ عبد العزيز بن باز ، المدينة المنورة ، مطابع الجامعة الاسلامية .
- ٦٧- حياة بديع الزمان سعيد النورسي ، الشيخ عبد الله الخالدي ، القاهرة .
- ٦٨- خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، سيد قطب ، دار الشروق ط ٤ ١٩٧٨ م .
- ٦٩- دراسات في حضارة الاسلام ، هامبتون جب ، ت د / احسان عباس ود / محمد يوسف نجم ود / محمود زايد ، بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٤ م .
- ٧٠- دعوة الاخوان المسلمين ، سيد قطب ، الاسكندرية دار القادسية .
- ٧١- الدعوة الى الاسلام ، سيرتوماس . و . أرنولد ، تد / حسن ابراهيم حسن ود / عبد المجيد هابدين واسماعيل النحراوى ، القاهرة ط ٣ سنة ١٩٧٠ م .
- ٧٢- الدعوة والدعاة واسباب التخلف . . . ، على سرور الزنكلوني ، القاهرة سنة ١٣٨٧ هـ
- ٧٣- الدولة السعودية الأولى ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ط ٢ .
- ٧٤- الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، د / محمد كمال الدسوقي ، القاهرة دار الثقافة ١٩٧٦ م .
- ٧٥- الرد الشافى على مفتريات القذافى ، رابطة العالم الاسلامى ، جدة مطابع الروضة ١٤٠٠ هـ .
- ٧٦- الرسالة التصرية . . . ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، القاهرة .
- ٧٧- رشيد رضا الامام المجاهد ، د / ابراهيم احمد المدوى سلسلة اعلام العرب ( ٣٣ ) ، القاهرة .
- ٧٨- روح الاسلام ، محمد عطية الابراشى ، القاهرة ط ٢ دار احياء الكتب العربية .
- ٧٩- زعماء الاصلاح . . . ، أحمد أمين ، القاهرة ، ط ٤ دار الشباب .
- ٨٠- سبيل الدعوة الاسلامية ، د / محمد أمين المصرى ، الكويت دار الارقم ١٤٠٠ هـ .
- ٨١- سر انحلال الامة العربية ووهن المسلمين ، محمد سعيد الصوفى ، دمشق ، م بن زيد ون .

- ٨٢ سعد زغلول ، محمد ابراهيم الجزيري ، مصر .
- ٨٣ سعد زغلول يقاوض الاستعمار ، طارق البشرى ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- ٨٤ سنن ابي داود ، تعليق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت ط ١ دار الفكر
- ٨٥ سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، احياء التراث العربى ط ١ سلسلة ١٣٩٥ هـ .
- ٨٦ سنن النسائي ، بيروت ، دار الفكر ط ١ ١٣٤٨ هـ .
- ٨٧ السنوسية دين ودولة ، محمد فؤاد شكرى ، القاهرة .
- ٨٨ السنوسى الكبير ، الطيب الأشهب ، القاهرة .
- ٨٩ سيرة ابن هشام ( سيرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ) ابن هشام
- ١٦٥٩ م .
- ٩٠ شرح المفيدة الطحاوية ، العلامة على بن على بن ابي العز الحنفى ، بيروت ط ١
- المكتب الاسلامى .
- ٩١ " الشيخ محمد بن عبد الوهاب . . . " ، الشيخ أحمد بن حجر آل ابوظامسى ،  
مكة المكرمة ، مطبعة الحكومة
- ٩٢ صحيح الامام البخارى ، الامام محمد بن اسماعيل البخارى ، تركيا ، المكتسب
- الاسلامى .
- ٩٣ صحيح الامام مسلم بشرح النووى ، القاهرة ، المطبعة المصرية .
- ٩٤ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، أبو الحسن الندوى ، القاهرة .
- ٩٥ الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، بيروت دار صادر ١٣٧٧ هـ .
- ٩٦ الطريق الى حكم اسلامى ، محمد على الضناوى ، طرابلس ١٣٦٠ هـ .
- ٩٧ ظهور الاسلام وسيادة مبادئه ، عبد الحميد بخيت ، القاهرة ط ٢ دار المعارف
- ١٩٦٧ م .
- ٩٨ العالم الاسلامى . . . ، عمر رضا كحالة ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ١٣٧٧ هـ .
- ٩٩ العبودية . شيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق عبد الرحمن البانى بيروت ط ٥ المكتب
- الاسلامى ١٣٩٩ هـ .



- ١٠٠- المدالة الاجتماعية في الاسلام، سيد قطب بيروت دار الشروق ط ٦ سنة ١٩٧٩ م.
- ١٠١- عصرا المؤمن، أحمد فريد رفاعي، القاهرة دار الكتب المصرية ١٣٤٦ هـ .
- ١٠٢- العقد الفريد، ابن عبد ربه، القاهرة .
- ١٠٣- الملمانية نشأتها وتطورها وآثارها...، سفر عبد الرحمن الحوالي، مكة المكرمة ط ١ دار مكة للطباعة .
- ١٠٤- عناصر القوة في الاسلام، السيد سابق، بيروت ط ٢ دار الكتاب العربي ١٩٧٣ م.
- ١٠٥- المواسم من القواصم...، القاضي ابو بكر بن العربي، تعليق محب الدين الخطيب، ط ٣ القاهرة، مكتبة السلفية .
- ١٠٦- الفارة على المعالم الاسلامي، ا.ل شاتليه، لخصها وترجمها محب الدين الخطيب ومساعد اليافي ط ٢ جدة ١٩٨٧ م .
- ١٠٧- الغرب والشرق الاوسط، برنارد لويس، ت. نبيل صبحي، بيروت ١٩٦٥ م .
- ١٠٨- الغزو الفكري، محمد جلال كشك ط ٤ القاهرة ١٩٧٥ م.
- ١٠٩- الغزو الفكري في العالم العربي، عبد الله عبد الجبار جدة، ط ٣ مطابع الروضة
- ١١٠- الغزو الفكري واثره في المجتمع الاسلامي المعاصر، د علي عبد الحليم محمود، الكويت ١٣٩٦ هـ .
- ١١١- الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام، د /عبد الحميد متولى، الاسكندرية، ١٩٧٧ م .
- ١١٢- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، مراجعة وتصحيح وتعليق الشيخ عبد العزيز بن باز المدينة المنورة، المكتبة السلفية ط ٥ سنة ١٣٩١ هـ .
- ١١٣- فتوح البلدان، احمد بن يحيى البلاذري، تحقيق رضوان محمد رضوان، القاهرة ١٣٥٠ هـ .
- ١١٤- فجر الاسلام، احمد أمين، بيروت ط ١٠ دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٩ م .
- ١١٥- الفخري...، ابن طباطبا ( محمد بن علي ) بيروت، دار صادر ١٣٨٦ هـ .

- ١١٦- الفرق بين الفرق ، عبد القاهر البغدادي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة .
- ١١٧- الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، د / محمد البهي ، القاهرة ط ٨ نشر مكتبة وهبة .
- ١١٨- الفكر الاسلامي دراسة وتقويم ، غازي التوبة ، بيروت ١٩٧٧ م .
- ١١٩- الفكر الاسلامي في تطوره ، د / محمد البهي ، بيروت ، دار الفكر ١٩٧١ م
- ١٢٠- الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، مكة المكرمة ، مكتبة النهضة العلمية .
- ١٢١- في موكب الدعوة ، الشيخ محمد الفزالي ، القاهرة ط ٤ ، دار الكتب الحديثة ١٩٦٥ م +
- ١٢٢- قادة الغرب يقولون دمروا الاسلام . . . ، جلال العالم بيروت ط ٢
- ١٢٣- قاعدة جديلة في التوسل والوسيلة ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، القاهرة
- ١٢٤- قذائف الحق ، الشيخ محمد الفزالي ، بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٧ م
- ١٢٥- القرآن والمجتمع ، د / محمد البهي ، القاهرة ، مكتبة وهبة ١٣٩٦ هـ
- ١٢٦- قضية ليبيا ، محمود الشنيطي ، القاهرة
- ١٢٧- القومية العربية في ضوء الاسلام ( رسالة ماجستير غير مطبوعة ) صالح العبود ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، ١٣٩٨ هـ .
- ١٢٨- الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، بيروت ط ٢ دار الكتاب العربي ١٣٨٧ هـ
- ١٢٩- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ، الحافظ ابو بكر بن ابي شيبة ، الهند ، الدار السلفية ١٤٠٣ هـ .
- ١٣٠- كشف الخفاء ، اسماعيل بن محمد المجلوني ، تعليق احمد القلاش ، بيروت مؤسسة الرسالة ط ٣ سنة ١٤٠٣ هـ .
- ١٣١- كيف نفهم الاسلام ، الشيخ محمد الفزالي ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة .
- ١٣٢- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، الامير شكيب ارسلان ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٦٩ م .

- ١٣٣- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوى ، القاهرة ، ط ١١ ، دار الانصار .
- ١٣٤- مبادئ الاسلام ، ابو الاعلى المودودى ، ت . محمد عاصم الحداد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٠ هـ .
- ١٣٥- المجتمع الاسلامى ، د / محمد أمين المصرى ، ط ١ الكويت دار الأرقم
- ١٣٦- المجتمع الاسلامى أسس تكوينه . . . د / احمد شلى ط ٢ ، القاهرة مكتبة النهضة المصرية .
- ١٣٧- المجتمع الاسلامى أهدافه . . . د / مصطفى عبد الواحد ، بيروت ، ط ٢ دار الجيل ١٣٩٤ هـ
- ١٣٨- المجتمع الاسلامى فى ظل المدالة ، صلاح الدين المنجد بيروت ، دار الكتاب الجديد ١٩٦٩ م .
- ١٣٩- المجتمع الاسلامى المعاصر ، محمد المبارك ، بيروت ط ١ دار الفكر ١٣٩٢ هـ
- ١٤٠- مجمع الزوائد ، الحافظ نور الدين الهيثمى ، بيروت ، ط ٣ ، دار الكتاب العربى ١٤٠٢ هـ .
- ١٤١- مجموعة رسائل الامام الشهيد ، حسن البنا ، بيروت ، دار القلم ١٩٦٥ م
- ١٤٢- مجموع فتاوى ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، ط ١ مطابع الرياض .
- ١٤٣- محاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية ، الشيخ محمد الخضرى ، القاهرة ، ط ٦ ، المكتبة التجارية ، ١٣٧٠ هـ .
- ١٤٤- كتاب محمد بن عبد الوهاب " لأحمد عبد الغفور ، جدة .
- ١٤٥- مختصر دراسة للتاريخ ، ارنولد توينبى ، ت . فؤاد محمد شبل ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- ١٤٦- المخططات الاستعمارية . . . محمد محمود الصواف ، القاهرة ، ط ٣ سنة ١٣٩٩ هـ .
- ١٤٧- مدارج السالكين . . . ابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد فقى ، القاهرة ، ط ٦ ، سنة ١٣٧٥ هـ .

- ١٤٨- مذكرات الدعوة والداعية ، حسن البنا ، القاهرة ، دار الشهاب ١٩٦٦ م
- ١٤٩- مروج الذهب . . . ، المسعودي تحقيق محب الدين عبد الحميد ، القاهرة
- ١٥٠- المستدرك ، الحاكم النيسابوري - بيروت ، دار الكتاب العربي .
- ١٥١- مستقبل الاسلام ، د / محمد البهي ، القاهرة ، مكتبة وهبة ١٣٩٩ هـ
- ١٥٢- المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، الكويت .
- ١٥٣- المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وحيد الدين خان ، ت /
- ظفر الاسلام خان ، القاهرة ط ١ ، مطابع المختار الاسلامي
- ١٥٤- مسند الامام أحمد ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ط ٢ سنة ١٣٩٨ هـ
- ١٥٥- مشكلات المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، د / محمد البهي ، القاهرة
- مكتبة وهبة ١٣٩٩ هـ .
- ١٥٦- مصرفي الحرب المالية الثانية ، د / عاصم الدسوقي ، القاهرة ١٩٧٦ م
- ١٥٧- مصطفى كامل باع الحركة الوطنية ، عبد الرحمن الرافعي بك القاهرة
- ١٥٨- معالم في الطريق ، سيد قطب ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٦٤ م .
- ١٥٩- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، القاهرة ، مطبعة السعادة .
- ١٦٠- معركة المصحف . . . ، الشيخ محمد النزالى ، القاهرة ، ط ١ ،
- دار الكتب الحديثة ١٩٦٤ م .
- ١٦١- مفاهيم اسلامية . . . ، ابو الاعلى المودودي - ت خليل احمد الحامدي ،
- دار العروبة للدعوة الاسلامية لاهور -
- ١٦٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، د / جواد علي ، بيروت ، دار
- العلم للملادين ، ١٩٧٠ م .
- ١٦٣- مقالات الاسلاميين ، أبو الحسن الاشعري تحقيق محمد حي الدين
- عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .
- ١٦٤- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، أحمد ابراهيم الشريف ، القاهرة
- ط ٢ ، سنة ١٩٦٥ م .
- ١٦٥- منهاج السنة النبوية . . . ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، بيروت

- ١٦٦- من هنا نعلم ، الشيخ محمد الفزالي ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ط ٦
- ١٦٧- مواقف الاسلام ، محمد الحبيب ابن الخوجة تونس ١٩٧٩ م .
- ١٦٨- موسوعة التاريخ الاسلامي . . . د / احمد شلي ، القاهرة ط ٨ مكتبة النهضة المصرية .
- ١٦٩- موجز تاريخ تجديد الدين وحيائه وواقع المسلمين . . . ، ابو الاعلى المودودي ت - محمد كاظم سباق ومحمد عاصم الحداد ، ط ٣ ، بيروت ١٣٨٦ هـ .
- ١٧٠- نابليون بونابرت في مصر ، احمد حافظ عوض ، القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٣٥ م .
- ١٧١- نابليون المسلم ، احمد جل الوحيد ، ط ١ بيروت
- ١٧٢- نظام الاسلام ( العقيدة والمباداة ) الشيخ محمد المبارك ، بيروت ، دار الشروق ١٣٩٧ هـ .
- ١٧٣- نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر سيد قطب ، دار السعودية ١٣٨٩ هـ
- ١٧٤- هذا ديننا ، الشيخ محمد الفزالي ، القاهرة ط ٣ دار الكتب الحديثة ١٣٩٥ هـ .
- ١٧٥- هل نحن مسلمون ؟ الشيخ محمد قطب ، بيروت دار الشروق ط ٤
- ١٧٦- وسائل مقاومة الغزو الفكري في العالم الاسلامي ، د / حسان محمد حسان ، جدة دار الاصفهاني ١٤٠٠ هـ .
- ١٧٧- يسألونك عن المهدية ، الصادق المهدي ، القاهرة ط ٢ مطابع الاهرام التجارية ١٩٧٥ م .
- ١٧٨- اليقظة الاسلامية في مواجهة الاستعمار ، أنور الجندى ، القاهرة ، دار الاعتصام ١٣٩٨ هـ .
- ١٧٩- يوم الاسلام ، احمد امين ، القاهرة مؤسسة الخانجي ، ١٩٥٨ م